رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

طه حسين والفكر الاستشراقي

إعداد
محمد أحمد محمد فرج عيطة

إصدارات
وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
بتمويل الإدارة العامة للأوقاف
إدارة الشؤون الإسلامية
دولة قطر

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

طه حسين

والفكر الاستشراقي

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾

[البقرة: ٣٢]

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

طه حسين

والفكر الاستشراقي

إعداد
محمد أحمد محمد فرج عيطة

من مطبوعات
وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
إدارة الشؤون الإسلامية
بتمويل الإدارة العامة للأوقاف
دولة قطر

بسم الله الرحمن الرحيم

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى لوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م

إصدارات

وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

إدارة الشؤون الإسلامية دولة قطر

بتمويل الإدارة العامة للأوقاف

turathuna@islam.gov.qa

طه حسين

والفكر الاستشراقي

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الإهداء

- إلى المجاهدين في سبيل الله من أمة الإسلام.
- إلى الغرباء الذين يصلحون ما أفسد الناس.
- إلى روح والدي الذي وهبني للعلم والمعرفة.
- إلى والدتي التي كان لدعائها الفضل الأكبر في توفيق الله لي.
- إلى أستاذي الجليل الأستاذ الدكتور/ محمود أبو الفتوح السيد الذي أكرمني بحنو علاقة الأبوة وتوجيه علاقة الأستاذية جزاه الله خير ما جزى أستاذًا عن تلميذه وشيخًا عن مريده.
- إلى كل من قدم إليَّ يد معونة أو مساعدة جزاكم الله خيرًا.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

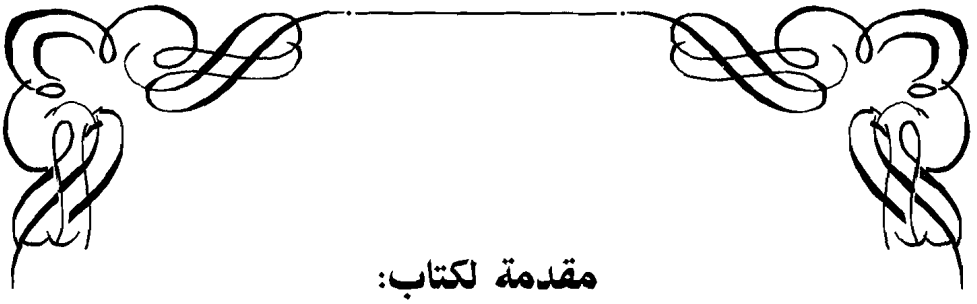

مقدمة لكتاب:
طه حسين والفكر الاستشراقي

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده.

أما بعد:

فإن وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بدولة قطر ـ وقد وفقها الله لأن تضرب بسهم في نشر الكتب النافعة للأمة ـ لَتحمد الله سبحانه وتعالى على أن ما أصدرته قد نال الرضا والقبول من أهل العلم.

والمتابع لحركة النشر العلمي لا يخفى عليه جهود دولة قطر في خدمة العلوم الشرعية ورفد المكتبة الإسلامية بنفائس الكتب القديمة والمعاصرة وذلك منذ تسعة عقود، عندما وجه **الشيخ عبدالله بن قاسم آل ثاني** حاكم قطر آنذاك بطباعة كتابي (**الفروع**) و(**تصحيح الفروع**)، سنة ١٣٤٥هـ، وكان **المؤسس الشيخ جاسم بن محمد آل ثاني** رحمه الله تعالى قد سن تلك السنة من قبل.

وقد جاء مشروع إحياء التراث الإسلامي والنشر العلمي الذي بدأته الوزارة في السنوات الأخيرة امتدادًا لتلك الجهود وسيرًا على تلك المحجة التي عُرفت بها دولة قطر.

ومنذ انطلاقة هذا المشروع المبارك يسَّر الله جلَّ وعلا للوزارة إخراج مجموعة من أمهات كتب العلم والدراسات المعاصرة المتميزة في فنون مختلفة، **تُطبع لأول مرة**، نذكر منها:

- **في التفسير وعلوم القرآن:**

أصدرت الوزارة عدة كتب منها: (**فتح الرحمن في تفسير القرآن**) للعُليمي، و(**المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**) لابن عطية في طبعته الثانية.

وفي علم رسم المصحف أصدرت الوزارة: كتاب (**مرسوم المصحف**) للعُقيلي، و(**الدرة الصقيلة في شرح أبيات العقيلة**) لأبي بكر اللبيب.

وفي علم القراءات أصدرت الوزارة كتاب: (**البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة**) لأبي حفص النشار، و(**معاني الأحرف السبعة**) لأبي الفضل الرازي.

- **وفي السنة النبوية وشروحها:**

أصدرت الوزارة عدة كتب، منها: (**التقاسيم والأنواع**) لابن حبان، و(**مطالع الأنوار**) لابن قرقول، و(**التوضيح شرح الجامع الصحيح**) لابن الملقن، و(**حاشية مسند الإمام أحمد**) للسندي، و(**شرحين لموطأ الإمام مالك**)؛ لكُلٍّ من (**القنازعي**)، و(**البوني**)، و(**المخلصيات**) لأبي طاهر المخلص، و(**شرح مسند الإمام الشافعي**) للرافعي، و(**نخب الأفكار شرح معاني الآثار**) للعيني، و(**مصابيح الجامع**) للدَّمَاميني.

ومما تشرفت الوزارة بإصداره في تحقيق جديد متقن: (**صحيح ابن خزيمة**)، و(**السنن الكبرى**) للإمام النسائي، والمحقَّقان على عدة نسخ خطية، و(**جامع الأصول في أحاديث الرسول**)، و(**النهاية في غريب الحديث**) لابن الأثير.

● **وفي الفقه وما يتصل به:**

أصدرت الوزارة عدة كتب في المذاهب الأربعة، منها: كتاب: (**الأصل**) لمحمد بن الحسن الشيباني (ت١٨٩هـ) كاملًا محققًا على أصول عدة، و(**التبصرة**) للَّخمي، و(**نهاية المطلب في دراية المذهب**) للإمام الجويني بتحقيقه المتقن للأستاذ الدكتور عبدالعظيم الديب رحمه الله تعالى عضو لجنة إحياء التراث الإسلامي، و(**حاشية الخلوتي**).

كما أصدرت الوزارة: (**الأوسط من السنن والإجماع والاختلاف**) للإمام ابن المنذر بمراجعة دقيقة للشيخ الدكتور عبدالله الفقيه عضو لجنة إحياء التراث الإسلامي، و(**بغية المتتبع لحل ألفاظ روض المربع**) للعوفي الصالحي، و(**منحة السلوك في شرح تحفة الملوك**) للعيني.

● **وفي السيرة النبوية:**

أصدرت الوزارة الموسوعة الإسنادية: (**جامع الآثار في السير ومولد المختار**) لابن ناصر الدين الدمشقي، وغيرها.

● **وفي العقيدة والتوحيد:**

أصدرت الوزارة كتابًا نفيسًا لطيفًا هو: (**الاعتقاد الخالص من الشك والانتقاد**) لابن العطار تلميذ الإمام النووي رحمهما الله تعالى،

كما أعادت نشر كتاب الرد على الجهمية للإمام أحمد رحمه الله تعالى، وغيرها من كتب عقيدة أهل السنة والجماعة.

- **وفي مجال الدراسات المعاصرة المتميزة:**

أصدرت: (**القيمة الاقتصادية للزمن**)، و(**نوازل الإنجاب**)، و(**مجموعة القره داغي الاقتصادية**)، و(**التعامل مع غير المسلمين في العهد النبوي**)، و(**صكوك الإجارة**)، و(**الأحكام الفقهية المتعلقة بالتدخين**)، و(**التورق المصرفي**)، و(**حاجة العلوم الإسلامية إلى اللغة العربية**)، و(**روايات الجامع الصحيح ونسخه، دراسة نظرية تطبيقية**)، وغيرها.

كما قامت الوزارة بشراء وتوزيع أجود الطبعات من بعض الكتب المطبوعة لما لها من أهمية، مثل: (**مسند الإمام أحمد**)، و(**صحيح الإمام مسلم**)، و(**الجامع لأحكام القرآن**) للقرطبي، و(**الجامع لشعب الإيمان**) للبيهقي، و(**تاريخ الخلفاء**) للسيوطي، و(**التاريخ الأندلسي**) لعبدالرحمن علي الحجي، و(**الإقناع في مسائل الإجماع**) لابن القطان الفاسي، و(**شرح العقيدة الطحاوية**) لابن أبي العز الحنفي، و(**قواعد الأحكام في إصلاح الأنام**) للعز ابن عبدالسلام.

ومثل (**ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين**) لأبي الحسن الندوي، و(**الرسالة المحمدية**) لسليمان الندوي، وغيرها.

ويسرنا اليوم أن نقدم لإصدار جديد متميز حول الاستشراق ورجاله في رسالة علمية مقدمة لنيل درجة الماجستير من كلية الدعوة الإسلامية بجامعة الأزهر بعنوان: (**طه حسين والفكر الاستشراقي**)، وهي دراسة نقدية مقارنة، تهدف إلى بيان العلاقة بين آراء المستشرقين

وآراء الدكتور طه حسين، والحكم على تلك الآراء التي أثارها الدكتور طه حسين، وبيان مدى موافقتها أو مخالفتها لشريعة الإسلام، مقارنًا بين آرائه وآراء المستشرقين.

ولا يخفىٰ أن الأمة تعيش اليوم تداعيات فكر صنعته مجموعة من الدارسين العرب، تأثروا بالفكر الغربي عمومًا والاستشراقي خصوصًا، ومنهم طه حسين؛ لذا جاءت هذه الدراسة كاشفة لجذوره الفكرية، والعوامل التي أثرت في تكوينه الفكري.

ونرجو أن نكون قد ساهمنا بذلك في العودة بالأمة إلى مواردها الصافية، وتوجيه ثقافة الأمة بعيدًا عن الأفكار التي لا تتواءم وثوابتها.

والحمد لله على توفيقه ونسأله المزيد من فضله

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

إدارة الشؤون الإسلامية

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

مقدمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وأشهد أن لا إلٰه إلا الله شهادة عبده وابن عبده وابن أمته ومن لا غنى له أبدًا عن معونته ورعايته، وأشهد أن سيدنا محمدًا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم.

وبعد:

بدايـة:

عرفت الدكتور طه حسين منذ عشرين سنة أو يزيد وذلك حين كنت طالبًا في مراحل التعليم الابتدائي... عرفته من خلال السيرة الذاتية له «الأيام» والتي عرضت في مسلسلة تليفزيونية.. رأيناها ونحن في تلك السن الصغيرة، فاشرأبت أعناقنا، وتطلعت نفوسنا إلى ما وصل إليه الدكتور من مجد، وما حصَّل من علم، وما نال من درجة علمية.

ودفعتنا إلى تلك الحال أمنيات آبائنا ورغبات أمهاتنا وهم يبتهلون إلى الله أنه يوفقنا لمثل ما وفق الدكتور طه حسين إليه، وأن يحقق لنا من الشهرة والصيت مثل الذي حقق له.

والحق أنه كان لذلك الأثر الطيب في نفسي، إذ أقبلت على التعلم والدرس بجد وحرص، تحدوني الأماني، ويشملني الرجاء، أن أحقق في العلم مكانة، أو أكون في الناس شامة.

لكن سرعان ما فتر هذا الجد وتبدد ذلك النشاط، بددته دواعي الصبا ومطالب الطفولة والتفات الوالدين إلى تدبير أمر الحياة ومستلزماتها.

معرفة جديدة:

وشاء الله أن تتجدد معرفتي بالدكتور طه حسين عند بداية المرحلة الثانوية من التعليم الأزهري؛ ولكنها معرفة تصادم وتفارق المعرفة الأولى التي صورت الدكتور بأنه قمة ينبغي التطلع إليها، ورائد ينبغي السير من خلفه!!

تجددت معرفتي به من خلال كتب جديدة تناولت حياته وآثاره تناولاً مختلفًا، صورته بأنه الأزهري الشارد والأديب المعاند، وأنه المتابع لدوائر الاستشراق والمبشرين، المنفذ لخططهم وأهدافهم!! وأنهم الذين بنوا مجده وصنعوا تاريخه وأنزلوه المنزلة التي تبوأها في الأدب والثقافة.

فوقعت في حيرة بين معرفة قديمة وأخرى جديدة، وتولدت من تلك الحيرة رغبة في التبين والتبصر، ومعرفة وجه الصواب في سيرة الرجل وآثاره، فاختلفت إلى المكتبات العامة أقرأ ما كتب الرجل، وما كُتِبَ عنه، لا أفرق في الاهتمام والمطالعة بين ما كتبه المادحون، وما سطره القادحون.

إفـادة:

أفادني الاتصال بالدكتور طه حسين عن قُرب ـ من خلال مؤلفاته ومقالاته ـ أن أكوِّن له صورة جديدة في الخاطر، إنها صورة التوسط والتوازن بين المادحين والقادحين، إذ وزنت الرجل بحسناته وسيئاته فلم أنس ما له من خير حين أخالفه في رأي أو مقال ولم أهمل ذكر الخير إذا جاء من جانبه كما فعل الكثير ممن تعرض لحياة الدكتور وعطائه، وكان رائدي في ذلك قول الله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [النساء: ١٣٥].

لم أهول من مخالفاته فأصوره في صورة مجسدة من الأخطاء والتجاوزات، ولم أهون منها أو أعذره عليها بل أوجدت صورة ثالثة وهي صورة القيام بالقسط والحكم بالعدل، أحمد ما له من خير وأشيد به، وأنكر ما عليه من شر وأرده عليه.

قدر ومشيئة:

وشاء الله أن أتابع دراستي العليا ثم أستعد للماجستير ووقفت طويلاً أمام الموضوع الذي أختاره للبحث والدراسة، وخطر بذهني الدكتور طه حسين وما يثار حول فكره من آراء وأقوال، وكان في يقيني أن واحدًا من الباحثين قد سبقني إلى هذا الموضوع، لأن الدكتور شغل الفكر العربي والإسلامي في القرن الماضي بما أثار من قضايا وما خلف من آراء.

والحق أن بعض ذلك قد كان، فقد تناول عدد من الباحثين عطاء الدكتور طه حسين بالدراسة وكان تناولهم له من زوايا متعددة، معظمها

عُني بالناحية الأدبية خاصة، إذ جل هذه الرسائل كان موطن دراستها كلية الآداب بجامعة عين شمس بالقاهرة وهذه الرسائل هي: الفن القصصي عند طه حسين[١]، الاتجاه الإسلامي في أدب طه حسين[٢]، أثر النقد الفرنسي في نقد طه حسين[٣]. ثم إن بعض الباحثين تناوله في رسائل أخرى طبعت بعد ذلك في كتب يتناولها الناس مثل: «طه حسين بين السيرة والترجمة الذاتية»[٤]، ومثل: «فن المقال الصحفي عند طه حسين»[٥]. إلا أنني لاحظت أن جانبًا خطيرًا لم يلتفت إليه أحد من الباحثين أو تناوله بالبحث والدرس، وهو صلة الدكتور طه حسين بالفكر الاستشراقي وتأثره به، ومقدار هذا التأثر ونوعه، وهل كان هذا التأثر بمناهج البحث، أم كان تأثرًا بالآراء والأشخاص، فأحببت أن أسلط الضوء على هذا الجانب لأوضح حقيقة علاقة الدكتور بالفكر الاستشراقي وبيان مدى الاتفاق والاختلاف في الآراء والتوجهات، وكذلك بيان سر العناية غير المحدودة من المستشرقين بـ«طه حسين» وأدبه والتي تمثلت في أكثر من مظهر مثل: الكتابة عنه، وترجمة أعماله إلى لغاتهم، ومنحه الجوائز المتعددة وعددًا من الدكتوراه الفخرية... إلخ.

سبب الدراسة:

والذي دفعني لدراسة الدكتور طه حسين دون غيره من المفكرين

---

(١) للباحثة: مها شوكت أحمد.
(٢) للباحث: رمضان محمد الجارية.
(٣) للباحث: مصطفى حسن.
(٤) للدكتورة رشيدة مهران.
(٥) للدكتور عبدالعزيز شرف.

أن الدكتور يعتبر مؤسسًا لكثير من الأفكار التي ما زالت تشغل الكثيرين في عالم الفكر والثقافة، فهو من أوائل الذين دعوا إلى الانفتاح على الغرب واقتباس كل نظمه وعوائده ما يحمد منها وما يعاب، وهو أحد الذين دعوا إلى قطع صلة الإسلام بواقع الحياة وخاصة الحياة السياسية التي قوامها في نظر الدكتور على المصالح والمنافع الدنيوية وحدها.

كما أن الدكتور يعد من أبرز الأدباء الذين نادوا بحرية الأدب بمعنى نسيان الأديب عقيدة وأخلاق وقيم الأمة حين يكتب إليها، فلا يحترم دينًا ولا يقدر خلقًا ولا يبقي على قيمة متسترًا بدعوى الإبداع.

كما كان الدكتور أحد الدعاة إلى إحياء القوميات القديمة وخاصة الاهتمام بالنزعة الفرعونية في مصر، هذه الدعوى التي وجدت من يتبناها في هذه الأيام ويروج لها ويدعو إليها.

لهذا وغيره مما سيأتي في ثنايا البحث أردت أن أضع القضايا التي أثارها الدكتور طه حسين فيما يتعلق بالإسلام موضع الدراسة مقارنًا بين آرائه وآراء المستشرقين في الأمر ذاته فهي (دراسة نقدية مقارنة) تهدف إلى بيان مدى الموافقة أو الاختلاف بين آراء المستشرقين وآراء الدكتور طه، والحكم على تلك الآراء في كل حال وبيان مدى موافقتها أو مخالفتها لشريعة الإسلام، دون أن نرتب على تلك الآراء حكمًا بالكفر أو الردة كما وقع في ذلك غيرنا ممن تناول عطاء الدكتور وآثاره بالبحث والدرس وذلك لحرص الرجل طوال حياته أن يؤكد لمخالفيه في الرأي أنه متمسك بالإسلام غير راغب عنه وأنه لا يقل عنهم غيرة على الإسلام وحرصًا عليه.

ولقد جاء البحث في أحد عشر فصلاً يسبق كل فصل تمهيد يهيئ له.

الفصل الأول: عرضت فيه للعوامل التي ساهمت في تكوين فكر وعقل طه حسين، والبيئات والهيئات والأشخاص الذين كان لهم دور في تشكيل هذا العقل.

الفصل الثاني: تحدثت فيه عن علاقة طه بالفكر الاستشراقي وقنوات اتصاله بهذا الفكر.

الفصل الثالث: تناولت فيه بعض القضايا المتعلقة بالعقيدة مما أثاره طه حسين، مثل قوله ببشرية الدين وخروجه من الأرض كما خرجت الجماعة منها، وكذلك استعماله لنظرية الشك وكيف استخدمها في الشك في ثوابت الدين، ورددت عليه قوله بالجبر الاجتماعي ونفيه للاختيار، وكذلك أوردت رأيه في نجاة اليهود والنصارى في الآخرة بدون إيمانهم برسالة النبي محمد ﷺ وقارنت بين أقوال الدكتور وبين أقوال المستشرقين في ذلك كله.

الفصل الرابع: وعرضت فيه لآراء طه حسين حول القرآن الكريم وركزت على أخطرها أثرًا وهو قوله بما يوهم بشرية القرآن، وأوردت رأيه في قضية جمع القرآن وتشككه في تمام القرآن وكماله وكذلك رأيه في مصدرية القراءات القرآنية.

الفصل الخامس: وتناولت فيه موقف الدكتور طه حسين من السيرة النبوية عرضًا وبحثًا ومن سنَّة النبي أخذًا وردًا وتناولت بالرد تحكيمه للعقل في قبول السنة ورفضها وكذلك قوله بالظن في تصحيح الحديث وتضعيفه.

الفصل السادس: وبينت فيه موقف طه حسين من التاريخ الإسلامي عمومًا ومن تاريخ الخلفاء الراشدين خصوصًا، وكيف تناول

حياة الصحابة رضوان الله عليهم، وبينت خطأه حين تطاول على الكثيرين منهم إذ حاكم نواياهم وأوّل مواقفهم تأويلاً غير مستساغ مع مثلهم أو من كان في مثل مقامهم على حين يرفع من شأن المخربين في التاريخ ويجعلهم من دعاة التحرر والعدالة كحاله حين مدح حركتي الزنج والقرامطة!

الفصل السابع: ورددت فيه على ترديده لدعوى تأثر الفقه الإسلامي بالقانون الروماني وذلك لاختلاف الاثنين أساسًا ومنطلقًا، وبينت خطأ الدكتور طه حين رفض حد الرجم للزاني المحصن بدعوى أنه لم يرد في القرآن وأوضحت اختصاص السنة بالتشريع مثل القرآن سواء بسواء.

الفصل الثامن: تحدثت عن نظرات طه حسين في قضية التعليم وبينت المحمود من آرائه كدعوته لمجانية التعليم، وإصراره على تعليم الفتيات وإلحاقهم بالتعليم الجامعي، وبينت الخاطئ من آرائه كذلك مثل موقفه من التعليم الأزهري حين دعا إلى إلغائه وإلغاء المناهج الدينية في المدارس والجامعات بدعوى أن كل إنسان يمكنه تعلم دينه بمعزل عن منارات العلم ومواطنه.

الفصل التاسع: وعرضت فيه لآراء طه حسين حول قضايا المرأة ورددت عليه في زعمه عدم فرضية الحجاب، بدعوى أن عفة المرأة تكمن في نفسها وقلبها لا في ثيابها، وكذلك وقفت مع رأيه في قضيتي الاختلاط بين الجنسين والمساواة بينهما.

الفصل العاشر: وخصصته لقضايا الحضارات ووقفت طويلاً مع الدكتور وموقفه من الحضارة الغربية حين دعا إلى اقتباسها جملة بحلوها ومرها ما يحمد منها وما يعاب، وكذلك وقفنا مع دعوته إلى

إحياء النزعة الفرعونية وإحياء الحضارة المصرية القديمة، وكذلك عالجت موقفه من الحضارة الإسلامية وبينت ما له من كلام جيد في هذا الشأن وما عيب عليه فيه.

الفصل الحادي عشر: وعقدت فيه مقارنة بين مناهج المستشرقين في البحث وبين منهج طه حسين وصدقت على كلام الدكتور أنه تأثر بمناهج المستشرقين وأساليبهم في البحث التي أدت به إلى موافقتهم في الكثير من آرائهم مما يتعلق بالقضايا الإسلامية.

ثم عقدت خاتمة ضمنتها أهم نتائج البحث.

وأخيرًا فهذا ما وفقني الله إليه في عرض موضوع البحث «طه حسين والفكر الاستشراقي»، فإن كنت قد أصبت فأسأل الله أن يتقبل هذا الجهد خالصًا لوجهه، وأن يكفر به عني من سيئاتي، وإن كنت قد أخطأت فالكمال لله وحده، وأسأل الله أن يعطيني أجر المجتهد.

وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الفصل الأول

طه حسين والتكوين الفكري

وفيه مباحث:

المبحث الأول: طه حسين ومرحلة الطفولة.

المبحث الثاني: طه حسين والأزهر الشريف.

المبحث الثالث: طه حسين والإمام محمد عبده.

المبحث الرابع: طه حسين ومدرسة الجريدة.

المبحث الخامس: طه حسين والجامعة المصرية القديمة.

المبحث السادس: طه حسين ورحلته إلى أوروبا.

المبحث السابع: طه حسين ومرحلة العطاء.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

تمهيد

للبيئة التي يعيش فيها الإنسان وللأفراد الذين يخالطهم أثر في تكوينه النفسي والعقلي.

ولقد مر الدكتور طه حسين في تكوينه الفكري ببيئات متعددة:

أولها: بيئة القرية بداية من أسرته الصغيرة المكونة من أبيه وأمه وإخوته مرورًا بمجتمع القرية ما يموج فيه من فئات مختلفة الأشكال والألوان والتفكير.

وثانيها: البيئات التعليمية التي تدرج فيها طه حسين من مرحلة إلى أخرى بداية من الأزهر الشريف وانتهاءً بالسوربون ومرورًا بالجامعة المصرية القديمة.

وثالثها: الأفكار المطروحة على الساحة الفكرية من خلال الكتب المنشورة والصحف السيارة والرأي العام المتداول بين طبقات الأمة على اختلاف مشاربها.

وقد اقتضت ضرورة البحث أن نبحث عن الجذور الفكرية والعوامل التي أثرت في التكوين الفكري للدكتور طه حسين حتى يسهل الولوج إلى موضوع البحث بسهولة ويسر، وذلك ما سنتناوله في المباحث القادمة ـ بإذن الله ـ.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

المبحث الأول

طه حسين ومرحلة الطفولة

تعريف:

في قرية الكيلو من إقليم المنيا بصعيد مصر[1] وقبل قرن من الزمان؛ وبالتحديد في الرابع عشر من نوفمبر عام ألف وثمانمائة وتسعة وثمانين (١٤/١١/١٨٨٩م) ولد طه حسين[2].

وقد كان (سابع ثلاثة عشر من أبناء أبيه؛ وخامس أحد عشر من أشقته؛ وكان يشعر بأن له بين هذا العدد الضخم من الشباب والأطفال مكانًا خاصًا يمتاز من مكان إخوته وأخواته.. وكان يجد من أبيه لينًا ورفقًا؛ وكان يحس من أمه رحمة ورأفة؛ وكان يشعر من إخوته بشيء من الاحتياط في تحدثهم إليه ومعاملتهم له)[3].

وكانت هذه الحساسية في التعامل من أهله نظرًا لما امتحن به طه من

---

(١) أنور الجندي: طه حسين حياته وفكره في ضوء الإسلام. دار الاعتصام بمصر، ط٢، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م، ص ٢١.

(٢) مضى على مولده قرابة مائة وأربع وعشرون سنة.

(٣) طه حسين: الأيام. دار المعارف طبعة ٥٩ ب.ت ٧١/١ بتصرف.

فقد بصره، الذي كان سببه الإهمال وسوء التصرف من أهله فلقد (أصابه الرمد فأهمل أيامًا ثم دُعي الحلاق فعالجه علاجًا ذهب بعينيه)[1].

دفع به والده إلى كتاب القرية ليحفظ القرآن الكريم تمهيدًا لإلحاقه بالأزهر الشريف، فأتم حفظ القرآن الكريم بعد مدة طويلة قضاها بالكتاب نظرًا لسوء اهتمام شيخه بالتلاميذ لكثرتهم؛ ولعدم الوعي عند الصغير نفسه بأهمية ما دفع من أجله للكتاب وهو حفظه القرآن الكريم.

بيئته الأولى وأثرها فيه:

كان لمجتمع القرية أثره في نفس «طه» خاصة تلك الأفكار التي كانت تتداول بين الناس ويتوارثها الأبناء عن الآباء من مثل ظهور الجن للناس وتحادثه معهم وقدرة البعض على تسخيرهم بما يُعرف من القراءة في كتب السحر من أمثال: «شمس المعارف الكبرى»[2] وكتاب «الديربي»[3] وغيرها[4].

يضاف إلى ذلك القصص الشعبي الذي طالما خلط الكثير من العوام بينه وبين أخبار الصحابة والتابعين من العباد والنساك ولقد صور طه ذلك وهو يتحدث عن طفولته بقوله:

---

(١) طه حسين: الأيام ١/١٢.

(٢) شمس المعارف الكبرى لمؤلفه البوني الكبير المتوفى ٦٢٢هـ، وهو كتاب مطبوع في أربعة أجزاء كبيرة أعدها للطبع ميرزا حسين الشيرازي. راجع دائرة المعارف الإسلامية ١١/٣٢١ وما بعدها.

(٣) كتاب الديربي هو فتح المجيد لأحمد الديربي المتوفى سنة ١١٥١هـ. راجع: أحمد الشنتناوي وآخرون. دائرة المعارف الإسلامية، ب.ن، ب.ت ١١/٣٢٤.

(٤) طه حسين: الأيام ١/٧، ٨، ٩، ٩٨، ١٠٠، ١٠٥، ١١١.

(حُبِّبَ إليه - يعني نفسه - لونًا من ألوان اللهو، هو الاستماع إلى القصص والأحاديث، فكان أحب شيء إليه أن يسمع إنشاد الشاعر، أو حديث الرجال إلى أبيه والنساء إلى أمه، ومن هنا تعلم حسن الاستماع، وكانت الكتب التي يتداولونها بالقراءة تحكي قصص الغزوات والفتوح وأخبار عنترة[١] والظاهر بيبرس[٢] وأخبار الأنبياء والنساك والصالحين وكتبًا في الوعظ والسنن)[٣] فكان ذلك يسعد نفسه ويجد لذلك أثرًا عبر هو عنه بقوله: (كان صاحبنا يقعد منهم مزجر الكلب؟[٤] وهم عنه غافلون، ولكنه لم يكن غافلاً عما يسمع، بل لم يكن غافلاً عما يتركه هذا القصص في نفوس السامعين من الأثر)[٥].

ولم يكن القصص الشعبي وحديث الجن والسحر جماع ثقافته بل كانت هناك أمور أخرى تشاركها في تأثيرها ومنها الغناء والتعديد (فكان صاحبنا أسعد الناس بالاستماع إلى أخواته وهن يتغنين، وأمه وهي

---

(١) عنترة العبسي: عنترة بن شداد بن عمرو بن معاوية العبسي، شاعر من فرسان العرب في الجاهلية، من أهل نجد شهد حرب داحس والغبراء، وعاش طويلاً ينسب إليه ديوان شعر. راجع: عمر رضا كحالة: معجم المؤلفين ٥٨٧/٢، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م.

(٢) الظاهر بيبرس: الملك الظاهر ركن الدين الصالحي رابع سلاطين المماليك البحرية، ولد سنة ٦٢٥هـ ومات سنة ٦٦٧ هـ. دائرة المعارف الإسلامية ٣٦٣/٤ وما بعدها.

(٣) الأيام ٢٤/١، ٢٥ بتصرف.

(٤) [معنى مزجر الكلب] الزجر معناه: الكف والمنع ومزجر الكلب هو منتهاه ومستقره بعد انتهاره وزجره. مجمع اللغة العربية/ المعجم الوجيز. طبعة وزارة المعارف ١٤١٩هـ/١٩٩٨م، ص٢٨٦.

(٥) الأيام ٢٥/١، ٢٦.

تعدد، وكان غناء أخواته يغيظه ولا يترك في نفسه أثرًا؛ لأنه كان يجده سخيفًا لا يدل على شيء، في حين كان تعديد أمه يهزه هزًا عنيفًا، وكثيرًا ما كان يبكيه وعلى هذا النحو حفظ كثيرًا من الأغاني وكثيرًا من جد القصص وهزله)[1].

ـ وكانت للأوراد وأناشيد الصوفية دورهما في تشكيل عقله وتكوين ثقافته، لا سيما وقد نشأ الفتى في بيئة أصحاب السلطان فيها هم رجال الطرق الصوفية، الذين كان لهم تأثير كبير في بيئة طه الخاصة (جده وأبيه) اللذين كان لهما بأصحاب الطرق صحبة ومتابعة.

(ولقد عُني طه بشيئين عناية خاصة. عني بالسحر وعني بالتصوف ولم يكن في الجمع بين هذين اللونين من العلم شيء من الغرابة ولا من العسر فالصوفي يزعم لنفسه وللناس أنه يخترق حجب الغيب وينبئ بما كان وسيكون، كما أنه يتحدى حدود القوانين الطبيعية ويأتي بضروب الخوارق والكرمات[2] والساحر يزعم لنفسه القدرة على الإخبار بالغيب وتجاوز القوانين الطبيعية أيضًا، والاتصال بعالم الأرواح)[3].

---

(١) الأيام ١/٢٥، ٢٦.

(٢) أخطأ الدكتور إذ وصف كل الصوفية بهذا الوصف والصواب: «أنهم مجتهدون في طاعة الله كما اجتهد غيرهم من أهل طاعة الله، فيهم السابق المقرب بحسب اجتهاده، وفيهم المقتصد الذي هو من أهل اليمين، وفي كل صنف من قد اجتهد فيخطئ، وفيهم من يذنب فيتوب، ولكن هناك طائفة انتسبت إليهم من أهل البدع والزندقة وعند المحققين من أهل التصوف أنها ليست منهم مثل الحلاج فإن أكثر مشايخ الطرق أنكروه وأخرجوه من الطريق».
راجع: د. توفيق الواعي: الإخوان المسلمون، شبهات وردود مكتبة المنار الإسلامية، الكويت، ط١ سنة ١٤٢١هـ، ص٢٤.

(٣) طه حسين: الأيام ١/٩٨.

ولم تكن هذه العناية مقصورة على المعرفة بل كثيرًا ما كان يتجاوزها إلى التقليد والتجربة يشاركه في ذلك أقران له (وكثيرًا ما كان يختلط في عقولهم السحر والتصوف فيصبح كلاهما شيئًا واحدًا، غايته تيسير الحياة والتقرب إلى الله. . وكذلك كان الأمر في نفس صاحبنا فقد كان يتصرف ويتكلف السحر وهو واثق بأنه سيرضى له ويظفر من الحياة بأحب لذاتها)[1].

يضاف إلى ما ذكرنا من مكونات ثقافته اطلاعه على بعض القصص المأخوذة عن «ألف ليلة وليلة»[2] الذي يعنى بالخيال وحكاية الأساطير[3]، وكان لعلماء القرية والإقليم الأثر الكبير في تشكيل عقله وذلك لكثرة ما كان يختلف إليهم ويسمع منهم، ولقد كان علم هؤلاء العلماء في أكثر الأحيان يجانب الحق والصواب.

فبعضهم ليس له بالعلم صلة ولا نسب اللهم إلا حفظ القرآن أو طرفًا من آياته يظن معه أن هذا الحفظ يكفيه ليجلس من الناس مجلس الإفتاء والدلالة على الخير.

وآخرون يدعون أن علومهم تأتيهم من السماء لما خصوا به من الولاية والكرامة. . ولقد صور طه علم أستاذه الذي كان يعلمه القرآن

---

(١) طه حسين: الأيام ١/١٠٠.
الشيخ محمد عاشور الصدفي: من قرية صدفا، بمحافظة أسيوط من خيرة رجال العلم المشهود لهم بالعلم والاطلاع، وهو والد الشيخ بكري الصدفي الذي تقلد الإفتاء بمصر عام ١٣٢٣هـ، بعد الشيخ محمد عبده، راجع: إيمان التوني: دار الإفتاء المصرية تاريخ عريق، محرك بحث (مصرس) على شبكة الإنترنت.

(٢) ألف ليلة وليلة أشهر مجموعة عربية قديمة للقصص اختلفت حولها الآراء هل كتبها فرد واحد أم مجموعة وهل هي عربية أصيلة أم مأخوذة عن أصول فارسية، لكن المشهور عنها حكايتها للقصص الخيالي والأسطوري. راجع: دائرة المعارف الإسلامية، مادة: ألف ليلة وليلة ٢/٥١٨ ـ ٥٥٤.

(٣) طه حسين: الأيام ١/١٠٠.

بقوله: (كان من أذكى الفقهاء وأشدهم علمًا، وأقدرهم على التأويل سأله الصبي ـ يعني نفسه ـ ذات يوم ما معنى قول الله تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾﴾[1] فأجاب هادئًا مطمئنًا: خلقكم كالثيران لا تعقلون شيئًا)[2]!!

ثم يورد طه عدة نماذج من علم علماء إقليمه ثم يعلق قائلاً: (كان صبينا يختلف بين هؤلاء العلماء جميعًا، ويأخذ عنهم حتى اجتمع له من ذلك مقدار من العلم ضخم مختلف مضطرب متناقض، ما أحسب إلا أنه عمل عملاً غير قليل في تكوين عقله الذي لم يخل من اضطراب وتناقض)[3].

(ويكون مقدم المفتش إلى القرية مؤشرًا لمعرفة الصبي بوجود لون آخر من العلم والثقافة فهو مطربش يجيد الفرنسية، تخرج في مدرسة الصنايع ويحفظ القرآن على نحو فتن الصبي)[4].

مما جعله يتفاخر على أترابه بأنه أصبح يعرف ما لا يعرفه سيده فلقد قرأ تحفة الأطفال، وعلم المد والغن والإخفاء والإدغام وكانت أصداء ذلك تصل شيخه فتحزنه وتؤلمه[5]، ويعمل أخوه الشيخ أحمد حسين الطالب بالأزهر على تهيئة طه للأزهر فيوجهه إلى حفظ ألفية ابن مالك[6]، وبعض المتون الأخرى كالجوهرة

---

(١) سورة نوح، الآية: ١٤.

(٢)(٣) طه حسين: الأيام ٨٧/١.

(٤) د. عبد العزيز شرف، طه حسين وزوال المجتمع التقليدي، الهيئة المصرية العامة للكتاب طبعة سنة ١٩٧٧، ص٢٢.

(٥) طه حسين: الأيام ١١٤/١، ١١٥.

(٦) ابن مالك: هو جمال الدين محمد بن عبدالله بن محمد بن عبدالله بن مالك المشهور بابن مالك ولد بالأندلس سنة ٦٠٠هـ، نحوي مشهور من أشهر آثاره ألفيته في النحو، توفي سنة ٦٧٢هـ، راجع شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك طبعة دار الفكر بيروت ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤م ٥/١.

والخريدة والسراجية[1]. فيقبل على هذه المتون يحفظها راغبًا في نيل منزلة كمنزلة أخيه الذي يحتفي به أهل القرية حين يعود من الأزهر فيحملونه على السرج ويطوفون به أرجاء القرية بين زغاريد النساء وتيهان الشيوخ.

ـ ولقد كانت محنة فقد البصر لدى طه تشعره بشيء من النقص، ذلك الشعور الذي أكسبه نوعًا من التحدي والإصرار ورغبة في لفت الأنظار إليه!

لقد صور طه هذا الشعور في شيء من الغلو في اللفظ وهو يحكي جانبًا من جوانب طفولته فيقول: (وكم كان فرحًا حين غدا إلى الكتاب يوم السبت وفي يده نسخة من الألفية، لقد رفعته هذه النسخة درجات، إن كانت هذه النسخة ضئيلة قذرة سيئة الجلد، ولكنها على ضآلتها، وقذارتها كانت تعدل عنده خمسين مصحفًا من هذه المصاحف التي يحملها أترابه (!!!)[2] المصحف! لقد حفظ ما فيه فما أفاد من حفظه شيئًا، وكثير من الشبان يحفظونه فلا يحفل بهم أحد... الحق أنه ابتهج بهذا البيت:

---

(١) راجع: الأيام ١/٦٧ ـ ٧١.

(٢) قال الأستاذ عبد الهادي مسعود معلقًا على هذا الكلام: وإذا كان طه حسين قد صاغ عباراته هذه على أنها مشاعر الصبا إلا أنه عبَّر عن رأيه هذا وهو في كامل وعيه وبعد أن صار كاتبًا شهيرًا، وحسبنا أنه اختزن مفصل تلك الوقائع في عقله منذ صباه الباكر حتى شرع في تحرير كتابه فدونها على هذا الوجه... وقد طبع كتاب «الأيام» مرات وفيه هذا الكلام، ولم يحاول هو أن يغير فيه أو يبدل منه، ولم يلتفت أحد إلى أن هذه العبارات سب مباشر في المصحف الشريف. راجع: السيد مرتضى الرضوي: مع رجالات الفكر في القاهرة، مطبوعات النجاح بالقاهرة ط١ سنة ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م، ص١٦٤.

قال محمد هو ابن مالك أحمد ربي الله خير مالك[1]

ابتهاجًا لم يشعر بشيء مثله أمام أيّ سورة من سور القرآن)[2].

(وقد انتهت المرحلة الريفية بمتناقضاتها من حياة طه حسين سنة ١٩٠٢م حين انتقل إلى القاهرة مع أخيه الأكبر «أحمد» ليتلقى العلم في الأزهر، على أن هذه المرحلة كان لها تأثير بالغ في شخصيته حيث أكسبته القدرة على التحمل، وعلمته العناد، ونمَّت لديه حب الاستطلاع)[3].

نعم لقد أمضى طه حسين في هذه البيئة ثلاثة عشر عامًا كان لها أثرها البعيد في حياته كلها ومواقفه كلها: (حدة الطبع والتحدي وتأكيد الذات.. ولقد ظلت عوامل الريف والصعيد والبيئة الأولى قائمة في كيان طه حسين بعد أن سافر إلى أوروبا وصقلته الأساليب العصرية في الحديث والحياة والحركة)[4].

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

(١) هذا البيت هو أول الأبيات في ألفية ابن مالك.

(٢) طه حسين: الأيام ٧١/١، ٧٢ بتصرف.

(٣) د. مصطفى رجب: فكر طه حسين التربوي بين النظرية والتطبيق، الهيئة المصرية العامة للكتاب ط١ سنة ١٩٩٥م، ص٩.

(٤) أنور الجندي: طه حسين حياته وفكره في ضوء الإسلام، ص٢٥ بتصرف.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

المبحث الثاني

طه حسين والأزهر الشريف

(. . . وأنا أرجو أن أعيش حتى أرى أخاك قاضيًا وأراك من علماء الأزهر قد جلست إلى أحد أعمدته ومن حولك حلقة واسعة بعيدة المدى)[1] كلمات قالها والد طه لولده وهو يودعه حين خرج مسافرًا إلى القاهرة ليدرس في الأزهر وليصبح مجاورًا مثل أخيه الشيخ أحمد حسين.

ويصف لنا طه نفسه في هذه الفترة الأولى مقبلاً على الأزهر إقبال («صبي جد وعمل» تقتحمه العين في هذا كله ولكنها تبتسم له حين تراه على ما هو عليه من حال رثة وبصر مكفوف واضح الجبين مبتسم الثغر مسرعًا مع قائده إلى الأزهر لا تختلف خطاه ولا يتردد في مشيته، ولا تظهر على وجهه هذه الظلمة التي تغشى عادة وجوه المكفوفين (!!) تقتحمه العين ولكنها تبتسم له وتلحظه. . في شيء من الرفق حين تراه في حلقة الدرس مصغيًا كله إلى الشيخ يلتهم كلامه

(١) طه حسين: الأيام ١٣٨/١.

التهامًا)[1].

بهذه الروح أقبل طه على الدرس والتعلم ينتقل من حلقة إلى أخرى يرغب في هذه ويعزف عن تلك، ولقد كانت دروس الأدب أحب لديه من الدروس الشرعية نظرًا لما تلقاه في بيئته الأولى «القرية» من قراءة في بعض القصص المأخوذة من «ألف ليلة وليلة»، وكان ضيقه بالمواد الشرعية باعثه حسن ظنه بنفسه وبما سمعه من علماء إقليمه في النشأة الأولى كذلك.

كتب طه في مذكراته يصف حاله في درس مادة الحديث النبوي قائلًا: (كان الصبي يجلس إلى جانب ذلك العمود يعبث بتلك السلسلة ويسمع للشيخ وهو يلقي دروسه في الحديث فيفهم عنه في وضوح وجلاء ولا ينكر منه إلا تلك الأسماء التي كانت تسَّاقط على الطلبة يتبع بعضها بعضًا تسبقها كلمة «حدثنا» وتفصل بينها كلمة «عن» وكان الصبي لا يفهم معنى لهذه الأسماء ولا لتتابعها ولا لهذه «العنعنة» المملة، وكان يتمنى أن تنقطع هذه العنعنة وأن يصل الشيخ إلى الحديث، فإذا وصل إليه سمعه الصبي ملقيًا إليه نفسه كلها فحفظه وفهمه وأعرض عن تفسير الشيخ (!!) لأنه كان يذكره ما كان يسمع في الريف من إمام المسجد ومن ذلك الشيخ الذي كان يعلمه أوليات الفقه)[2].

(وقد تتلمذ خلال الفترة من ١٩٠٧ إلى نهاية المدة التي قضاها

---

(١) د. عبد العزيز شرف: طه حسين وزوال المجتمع التقليدي، ص٢٣، والأيام ١٤٩/١.

(٢) طه حسين: الأيام ٢١/٢.

بالأزهر على مجموعة من مشاهير علماء الأزهر في تلك الحقبة في مختلف العلوم التي كانت تدرس فحضر دروس الشيخ محمد بخيت[١] الذي (أصبح فيما بعد مفتيًا للديار المصرية) في الفقه الحنفي، وحضر دروس الشيخ محمد حسين العدوي[٢] في المنطق ودروس الشيخ محمد مصطفى المراغي[٣] في التوحيد والشيخ محمد راضي[٤]، والشيخ عاشور الصدفي[٥])[٦].

ولقد كان طه يحمل في تلك الفترة نفسية ناقدة تدفعه إلى معارضة أساتذته ومجادلتهم، وكانت لهذه النفسية خلفية تكمن في شعوره بالإهمال نظرًا لما امتحن به من فقد البصر تلك «الآفة» حسبما سماها التي كانت تؤلمه وتؤذي نفسه.. هذه المشاعر دفعته لأنه يحقق

---

(١) محمد بخيت المطيعي (١٢٧١ ـ ١٣٥٤هـ/١٨٥٤ ـ ١٩٣٥م): فقيه حنفي، مشارك في علوم، ولد بأسيوط، وتعلم بالأزهر ودرس فيه، واتصل بجمال الدين الأفغاني، وتوفي بالقاهرة. من آثاره: «حقيقة الإسلام وأصول الحكم وغيرها». معجم المؤلفين ٣/١٥٩.

(٢) محمد حسين العدوي (كان حيًا ١٢٩٦هـ/١٨٧٩م) محمد بن حسين العدوي الحمزاوي: فاضل من آثاره: تقريرات على حاشية الرسالة العضدية فرغ منها سنة ١٢٩٦. معجم المؤلفين ٣/٢٢٤.

(٣) محمد مصطفى المراغي، ولد سنة ١٨٨٠م، تولى مشيخة الأزهر مرتين الأولى سنة ١٩٢٨ واستقال منها على إثر خلاف مع الحكومة ثم أعيد انتخابه سنة ١٩٣٥، كان من تلاميذ الإمام محمد عبده وممن يترسمون خطاه في الإصلاح. راجع: د. محمد رجب البيومي: النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين. مجمع البحوث الإسلامية، مصر ـ سلسلة البحوث الإسلامية سنة ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م ٣/٥ وما بعدها.

(٤) لم أستدل عليه.

(٥) لم أستدل عليه.

(٦) د. مصطفى رجب: فكر طه حسين التربوي بين النظرية والتطبيق، ص١٠، ١١.

لنفسه شيئًا من إثبات الذات فعمد إلى لفت الأنظار إليه بكثرة مجادلته لأساتذته واللجاجة في هذه المجادلة.

(والزاوية الثانية التي يمكن التعرف من خلالها على المرحلة الأزهرية في حياته هي سكناه في القاهرة مع أخيه الأكبر الذي كان له زمرة من الرفاق يزورونه في غرفته ليأكلوا ويشربوا ويراجعوا دروسهم، فكان طه يجلس منهم غير بعيد منصتًا في شغف واهتمام، وكانت المناقشات تحتدم بينهم أحيانًا حتى تخرجهم عن أطوارهم فيخوضوا في أشياء قد تدق على فهمه، وطبيعي أنه لم يكن ليستطيع أن يتابع هذا الحوار الذي يجري بين هؤلاء الرفاق في مسائل الأصول والفقه والبلاغة وما إليها، ولكنه استطاع ـ بلا ريب ـ أن يدرك الطابع العام له، على النحو الذي أراه ـ في الأيام ـ وأدرك منه أن ليست هناك مسألة تمتنع عن المناقشة، ولا رأي يكبر على النقد مهما يكن صاحبه وجلالة قدره وعظم منزلته)[1].

ويبدو أن طه قد أفاد من مجالسة هؤلاء الرفاق التعرف إلى طرق الجدال والمناظرة إضافة إلى ما كان لديه من رغبة في البروز وحرص على لفت الأنظار إليه.

(لقد سطر طه حسين الفصل السادس عشر من «الأيام» ليقول ما ملخصه: أنه رجع إلى قريته للمرة الأولى بعد انتسابه للأزهر فلم يجد من حفاوة الاستقبال وبشاشة الترحيب ما كان يجده أخوه الكبير، بعد رجوعه المتكرر من اغترابه في القاهرة طالبًا للعلم، مبرزًا بين قرنائه وقد غاظه هذا الإهمال فجعل يهاجم الناس في أفكارهم، فإذا تحدث

(١) د. مصطفى رجب: فكر طه حسين التربوي، ص١٣.

فقيه الكتاب مثلاً في شيء من العلم وثب عليه واتهمه بالجهل، وإذا قرأ والده بعض المأثورات هز رأسه وقال عن قراءته: إنها عبث لا غناء فيها، وإذا تحدث الناس عن علم القاضي بالمحكمة الشرعية قال طه: إنه أعلم من القاضي بالشرع وأفقه منه بالدين وأحق منه بالقضاء!!... ثم أنهى الدكتور طه تفصيل ذلك كله بقوله: «وعلى كل حال فقد انتقم الصبي لنفسه وخرج من عزلته وشغل الناس في القرية والمدينة بالحديث عنه والتفكير فيه، وتغير مكانه في الأسرة، مكانه المعنوي إن صح التعبير، فلم يهمله أبوه، ولم تعرض عنه أمه وأخوته ولم تقم الصلة بينهم وبينه على الرحمة والإشفاق بل على شيء أكثر وآثر عند الصبي من الرحمة والإشفاق)[1].

وقد حار كثير من الكتاب والعلماء في مسلك طه إزاء أهله ومجتمعه وإزاء أساتذته ومعلميه الذي كان كثير المعارضة لهم والتندر بهم بين زملائه والتنقص لعلمهم وفهمهم!!

هل كان باعثه إظهار نفسه وإبرازها كما صرح هو نفسه ـ عن باعثه في مخالفة أهله ومعارفه في القرية[2] ـ أم أنه لم يشذ رغبة في الشذوذ، وإنما كان يوافق عقلاً وحجة كان قد أوتيها، فكان يأخذ نفسه بكثير من الجد الصارم، ويشغل حاسته الناقدة في كل ما يسمع، وكل ما يصل إليه من رأي أيًا كان هذا الرأي وأيًا كان مصدره[3].

---

(١) د. محمد رجب البيومي: الأزهر بين السياسة وحرية الفكر. مؤسسة دار الهلال، سلسلة كتاب الهلال العدد ٣٨٧ مارس سنة ١٩٨٣م، ص١١٨، ١١٩، بتصرف؛ والأيام ٢/١٢٠ ـ ١٢٨.

(٢) أنور الجندي: طه حسين حياته وفكره في ضوء الإسلام، ص٢٢ بتصرف.

(٣) كامل زهيري: المنهج الفكري عند طه حسين، بحث ضمن كتاب «طه حسين كما يعرفه كتاب عصره» دار الهلال ـ ب، ت، ص١٤١.

ولكن هذا الرأي الأخير رغم افتتان الكثيرين به بجانب الحق والصواب إذ بتمعن وتبصر قليلين في «الأيام» ـ السيرة الذاتية لطه حسين ـ وفي حديثه عن علماء الأزهر بالذات يدرك من له حظ من ذلك مدى المغالاة والتوسع في تجهيل العلماء ولو جرى الكلام عن أستاذ بعينه لربما كان الكلام لا يثير غضاضة، أما أن يكون جل العلماء على هذا النحو فذلك مما لا يصدق به عاقل ولا يوافقه عليه إلا صاحب هوى.

ومما يعجب له أيضًا أن طه كان يستمع إلى وشاية الطلاب بالعلماء وغيبتهم لهم سماع المطمئن المصدق. أنظر إليه يقول: (فأما تحدث الطلاب كبارًا وصغارًا بجهل شيوخهم وتورطهم في ألوان الخطأ المضحك الذي كان بعضه يتصل بالفهم وبعضه يتصل بالقراءة فقد كان أكثر من أن يحصى وأعظم من أن يقدر ومن أجل هذا كان صاحبنا سيئ الرأي في العلماء والطلاب جميعًا (!!) وكان يرى أن الخير كل الخير في أن يجد ويجتهد ويحصل ما استطاع من العلم معرضًا عن مصادره التي كان يستقيه منها)[1].

وكان يسعد نفسه، ويملؤها رضًا سماعه لنقد الشيخ المرصفي[2].. الذي كان يدرس الأدب للأزهريين ودروسهم.

كتب طه يصف الشيخ المرصفي بقوله: (ولم يكن للشيخ

---

(١) طه حسين: الأيام ١٣٣/٢.

(٢) سيد علي المرصفي: عالم باللغة والأدب تولى تدريس الأدب بالأزهر، من آثاره: رغبة الأمل من كتاب الكامل ثمانية أجزاء، وأسرار الحماسة في شرح ديوان الحماسة لأبي تمام. انظر: د. محمد الدسوقي: طه حسين يتحدث عن أعلام عصره ـ دار المعارف ـ سلسلة اقرأ، العدد ٥٧٨، ص٥١.

حديث إلى تلاميذه إذا تجاوز درس الأدب إلى الأزهر وشيوخه وسوء مناهج التعليم فيه وكان الشيخ قاسيًا إذا طرق هذا الموضوع وكان نقده لاذعًا وتشنيعه على أساتذته وزملائه أليمًا حقًا، ولكنه كان يجد من نفوس تلاميذه هوى، وكان يؤثر في نفس الفتى خاصة أبلغ تأثير وأعمقه)[1].

وكان يشاركه في عمله هذا اثنان من زملائه هما: أحمد حسن الزيات[2]، والشيخ محمود زناتي[3]، ولقد اتسعت المودة بينهم وبين الشيخ سيد علي المرصفي حتى كانوا يذهبون إليه في داره يتلقون عليه بعض الدروس (ويتلقون عليه بنوع خاص العبث بالشيوخ والاستهزاء بهم)[4].

(وعلى الرغم من تبرم طه حسين بأسلوب الأزهريين وسخطه عليهم فقد كانت السنوات الأربع التي قضاها في الأزهر من أهم مراحل تكوينه العقلي التي أصبحت قوامًا أساسيًا لثقافته اللغوية والنقدية، فكل ما يمتاز به أسلوبه من الرصانة والفصاحة يرجع إلى هذه الفترة التي تعلم فيها دروس الأدب على شيوخ الأزهر وخاصة الشيخ

---

(١) طه حسين: الأيام ٢/١٦١، ١٦٢.

(٢) أحمد حسن الزيات: أحد أدباء مصر المعدودين ولد بمدينة طلخا سنة ١٣٠٢هـ/١٨٨٥م درس بالأزهر ثم عمل بالتدريس في إحدى المدارس الأهلية، أنشأ مجلة الرسالة وعمل رئيسًا لتحريرها قرابة عشرين عامًا كذلك عمل رئيسًا لتحرير مجلة الأزهر، توفي سنة ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م. راجع: طه حسين يتحدث عن أعلام عصره، ص١٤.

(٣) محمود زناتي: كان زميلاً لطه أيام الدراسة بالأزهر، وكان يشاركه في كثير من آرائه وأعماله. عمل مصححًا بدار الكتب المصرية وكان طه يُكِنُّ له ودًا عظيمًا. راجع: د. محمد الدسوقي: طه يتحدث عن أعلام عصره، ص١٥، ١٧.

(٤) فؤاد دوّارة: عشرة أدباء يتحدثون ـ دار الفكر ـ مصر ط٢ ب. ت، ص١٦.

المرصفي)[1].

ولقد صرح طه بهذا في أكثر من موقف، ففي إجابته على سؤال وجه إليه من أحد الصحفيين نصه:

(ماذا أفدت من الدراسة في الأزهر؟

قال: أفدت من الدراسة بالأزهر شيئًا كثيرًا جدًا وهو الحرص الشديد على التعمق في فهم النصوص وتجنب السطحية والعلم المحفوظ، ودراسة الأزهر في تلك الأيام تمتاز بتنشئة الملكات التي تتيح الفهم والتعمق والصبر على البحث وليس هذا بالشيء القليل)[2].

فهذا الاعتراف بفضل الأزهر بهذه الكلمات الواضحات مما لا يمارى فيه أحد، ولقد أشار إليه المقربون من طه حسين نفسه. فهذه الدكتورة سهير القلماوي تلميذة الدكتور طه الأثيرة عنده تقول عنه: (إنه أكثر الأدباء العرب تأثرًا بأسلوب القرآن الكريم، منه يأخذ كثيرًا من ألفاظه البديعة وإليه يرجع المثل الذي يحتذيه في كثير من التعابير والأساليب)[3].

وما ازدادت هذه الصلة بالقرآن ولا تعمقت إلا في رحاب الأزهر وأروقته وفي دروس مشايخه وعلمائه.

---

(١) د. عبد العزيز شرف: طه حسين وزوال المجتمع التقليدي، ص٣٥.

(٢) فؤادة دوّارة: عشرة أدباء يتحدثون، ص١٧، ١٨.

(٣) سهير القلماوي: ذكرى طه حسين. دار المعارف سلسلة اقرأ عدد ٣٨٨ الصادر في ٢٨ أكتوبر سنة ١٩٧٤، ص٤٩، عبد العزيز شرف: طه حسين وزوال المجتمع التقليدي نقلاً عن مجلة الهلال فبراير سنة ١٩٦٦م.

خروج طه حسين من الأزهر:

كانت السنوات القلائل التي أمضاها طه حسين في رحاب الأزهر محل صراع دائم بينه وبين الأساتذة، ومواقفه مع شيوخه ومربيه كان يدفعه إليها حدة الطبع ونوع من التحدي ورغبة في تأكيد الذات والمطالع للأيام ـ السيرة الذاتية لطه ـ يجد أنه لم يتحدث عن الأساتذة والعلماء في معظم المواضع إلا حديث الشانئ الهازئ، اللَّهم إلا أسطرًا معدودة سطرها في الإشادة بالشيخ عبدالله دراز[1] أشار فيها إلى براعة الشيخ في النحو ومهارته في رياضة الطلاب على مشكلاته مما زاد ذلك طه حبًا في النحو[2].

ولعل هذا الثناء القليل وسط زخم هائل من التنقص والغمز واللمز إنما كان يهدف من ورائه إضفاء روح الإنصاف والتجرد.

ولقد كان توتر العلاقة بين طه وبين الأزهر نظرًا لما كان فيه من جرأة غير محمودة كانت تتجاوز أروقة الأزهر وجدرانه لتظهر على صفحات الجرائد والمجلات، ناقدًا تارة وهاجيًا أخرى، ينتقد الأزهر ويهجوه كمؤسسة وينال من شيوخه وعلمائه بهذا الاعتبار، (ولقد أعلن الدكتور طه في عدد نوفمبر سنة ١٩٢٧ من الهلال الأسباب التي أخرجته من الأزهر فقال:

بينما كنا نقرأ كتاب الكامل للمبرد[3] وردت هذه العبارة: ومما

---

(١) الشيخ عبدالله دراز: أحد علماء الأزهر الأماجد، وهو والد الدكتور محمد عبدالله دراز، أبرز آثاره: شرحه لكتاب الموافقات في أصول الشريعة للإمام الشاطبي.

(٢) طه حسين: الأيام ١٣٦/٢.

(٣) المبرد (٢١٠ ـ ٢٨٥هـ/٨٢٥ ـ ٨٩٨م) محمد بن يزيد بن عبد الأكبر بن عمير=

كفر الفقهاء به الحجاج[1] قوله: «والناس يطوفون بقبر النبي ومنبره إنما يطوفون برمة وأعواد» فقلت: إنه لم يكفر وإن كان قد أساء الأدب، وبلغ قولي شيخ الأزهر وسمعت أنه سيطردني فذهبت إلى «الجريدة» أريد كتابة مقال عن هذا الموضوع، وهناك تقابلت مع الأستاذ لطفي السيد[2] فرفض المقال، ولكنه عرض أن يتوسط لإرجاعي، في ذلك الوقت شعرت بأن الأزهر لم يعد يشبع ما في نفسي من الأغراض الأدبية فتركته والتحقت بالجامعة المصرية)[3]، ويتحدث في مكان آخر عن سبب الحيلولة بينه وبين شهادة العالمية من الأزهر فيقول لمحاوره:

(وأظنك تعلم أني حاولت آخر الأمر أن أتقدم لامتحان العالمية في الأزهر فلم أنجح، ويشهد الله أن لجنة الامتحان حالت بيني وبين النجاح ظلمًا، لأن شيخ الأزهر إذ ذاك ـ الشيخ سليم البشري[4] ـ طلب إلى

= بن حسان الأزدي المعروف بالمبرد (أبو العباس) أديب، نحوي، لغوي إخباري، نسابة، إمام اللغة ورأس النحاة البصريين في زمانه وأحد أئمة الأدب والأخبار راجع: معجم المؤلفين ٣/٧٧٣.

(١) الحجاج بن يوسف: من ساسة بني أمية ولد بالطائف حوالى سنة ٤١هـ (٦٦١م) وهو حفيد الصحابي الجليل عروة بن مسعود الثقفي. توفي في رمضان سنة ٩٥هـ (٧١٤هـ). دائرة المعارف الإسلامية ٧/٣١٣.

(٢) أحمد لطفي السيد من مواليد برقين من أعمال مركز السنبلاوين دقهلية سنة ١٢٨٨هـ ـ ١٨٧٢م اشتغل بالسياسة، وعمل بالصحافة وكان من قياديي ثورة سنة ١٩١٩ توفي سنة ١٩٦٣م. طه يتحدث عن أعلام عصره، ص٢٤).

(٣) أنور الجندي: طه حسين حياته وفكره في ضوء الإسلام، ص٢٣، طه حسين: الأيام ٢/١٦٨.

(٤) الشيخ سليم البشري ولد بمحلة بشر من قرى شبراخيت بمحافظة البحيرة سنة ١٢٤٨هـ، تولى مشيخة الأزهر مرتين وظل بها حتى وفاته سنة ١٣٣٥هـ. راجع: جريدة الشروق صوت الأزهر جامعًا وجامعة، عدد تذكاري بمناسبة افتتاح مشيخة الأزهر الجديدة. سبتمبر سنة ١٩٩٩م.

اللجنة أن تسقطني في الامتحان كما كان يقال ومصدر ذلك أني هجوته بشعر نشر في بعض الصحف، ولم أحزن على هذا الرسوب، بل أكاد أقول: إني فرحت به، لأني اتجهت بعد إلى الدراسة الجامعية)[1].

هل تعمد الأساتذة رسوبه؟

إن القراءة المتأنية لما كتبه الدكتور طه حسين عن تلك الفترة تبين أنه لم يستعد لامتحان العالمية بوجه من أوجه الاستعداد، وإنه ليصرح بقلمه في مذكراته في الأيام وفي بداية الفصل الثاني وتحت عنوان:

«كيف سقطت في امتحان العالمية» بهذه الكلمات (لم يكد صاحبنا يتصل بالجامعة حتى رثت الأسباب بينه وبين الأزهر فأصبح لا يمنحه من الوقت إلا أقصره ولا يعطيه من الجهد إلا أيسره ولم تكن الجامعة وحدها هي التي صرفته عن الأزهر وإنما صرفه عنه قبل ذلك زهده فيه وضيقه به ومله من أحاديثه المعادة)[2].

(لقد تهيأ الدكتور طه للامتحان وهو لا يجيد غير علوم العربية وحدها، إنه يجيد النحو والصرف والبلاغة واللغة والأدب، ولكن هناك علومًا صعبة عويصة لم يجلس إلى الأساتذة كي يستظهرها أو لم يلم بمضمونها ويصل إلى ما يبلغه طريق الفوز في امتحانها، هناك التوحيد والفقه والأصول والمنطق والحديث والتفسير والوضع والمقولات ولكل علم أبوابه الصعبة ولا بد أن ينجح الطالب في العلوم جميعها بحيث لو رسب في مادة واحدة لاستحال عليه أن يظفر بالشهادة)[3].

---

(١) فؤاد دوّارة: عشرة أدباء يتحدثون، ص١٧، طه حسين: الأيام ١٣/٣، ١٤.
(٢) طه حسين: الأيام ٩/٣.
(٣) د. محمد رجب البيومي: الأزهر بين حرية السياسة وحرية الفكر، ص١٢٥.

يضاف إلى انصرافه عن علوم الأزهر وعدم العناية بها عامل آخر هو هجوم الدكتور طه على الأزهر والأزهريين ولقد اعترف بأن (طول اللسان هو الذي قطع الصلة قطعًا حاسمًا بين صاحبنا وبين الأزهر ودفعه دفعًا إلى حياته التي أتيحت له، وعرضه لسخط أي سخط وحزن أي حزن وعناء أي عناء)[1].

(جاء الطالب إلى لجنة الامتحان يسبقه تاريخه الأليم في سب الأزهر والأزهريين واحتقاره الصريح لكل ما يدرسون ويتناولون من أساليب الشرح والتقرير، وهو بعد لا يعلم في غير دروس العربية شيئًا غير ذي بال!

لقد كان عليه أن يستوعب علوم الأزهر، أما أن يتعالى على هذه العلوم ثم يشنع على أصحابها في الصحف والمجتمعات ويرى من حقه أن يظفر بالنجاح فيها دون تعمق فهذا ما لا يرتضيه منصف...

ولقد كان الدكتور زكي مبارك[2] أقرب إلى الحق وآثر للإنصاف من الدكتور طه حسين، إذ تقدم الدكتور زكي مبارك لنيل إجازة العالمية مباهيًا بمكانته المشتهرة في الأدب والصحافة واللغة، وانعقدت هيئة الامتحان برئاسة الأستاذ إبراهيم الجبالي[3] ـ رحمه الله ـ وكان الجبالي

---

(١) طه حسين: الأيام ٣/١١.

(٢) زكي مبارك: أديب من كبار الأدباء المعاصرين ولد سنة (١٣٠٨هـ/١٨٩١م) تعلم في الأزهر وحصل على الدكتوراه من الجامعة المصرية، له مؤلفات كثيرة في اللغة والأدب، منها: (النثر الفني) توفي سنة ١٣٧١هـ/١٩٥٢م. راجع: طه حسين يتحدث عن أعلام عصره، ص٤٨.

(٣) إبراهيم الجبالي: من علماء الأزهر في بدايات القرن الماضي، مثَّل الأزهر في بعثة دعوية إلى الهند في عهد الشيخ محمد مصطفى المراغي، له مقالات عديدة=

على علم بمنزلة الطالب الممتحن فقابلته اللجنة بالابتسام المشجع وعرض عليه الشيخ الجبالي أن يختار هو ما يريد أن تناقشه اللجنة فيه من أبواب الفقه والأصول والمنطق والتوحيد فتحير الطالب ثم اختار في قلق ما رغب فيه، فأخذت اللجنة تسأله فيما اختار مترفقة تسأله في الأصول فلا يجيب، وفي المنطق فلا يرد وكذلك في الفقه والتفسير حتى اعترف بنفسه أنه لم يُلم بعلوم الأزهر، وخرج ليكتب مقالة ذاكرًا أن علوم الأزهر هذه لن تفيده، وأن الرسوب من حقه إذا لم يجد ميلاً إلى استيعابها، أين موقفه من موقف طه حسين)[1].

ومع كل ما تقدم يرى الدكتور أن الشيوخ تآمروا عليه وعملوا على سقوطه ويؤيده في ذلك كثيرون[2].

= بمجلة الأزهر في عقدها الأول، ومن آثاره: شفاء الصدور في تفسير سورة النور. انظر: د. محمد رجب البيومي: من أعلام الأزهر العلامة إبراهيم الجبالي ـ مجلة الأزهر عدد ذي القعدة سنة ١٤١٤هـ أبريل ١٩٩٤م، ص٢،١٧ وما بعدها.

(١) د. محمد رجب البيومي: الأزهر بين حرية السياسة وحرية الفكر، ص١٢٦.

(٢) راجع: حمدي السكوت، ومارسدن جونز، طه حسين ـ سلسلة أعلام الأدب المعاصر، الجامعة الأمريكية ١٩٨١، ص٨.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

المبحث الثالث

طه حسين والإمام محمد عبده[1]

(كنت أريد أن أكون شيخًا من شيوخ الأزهر مجددًا في التفكير والحياة على نحو ما كان يريد المتأثرون بالشيخ محمد عبده أستعين في ذلك بما أسمع في الجامعة وما أقرأ في الكتب المترجمة وما أجد في الصحف وما ألتقط من أحاديث المثقفين. . .)[2] بهذه الكلمات يعرب طه عن أمنية تمناها في وقت مبكر في مطلع حياته العلمية يوم كان يختلف إلى الجامع والجامعة.

ومما عمل على بلورة هذه الأمنية وتكونها في نفسه وصفُ أهل قريته والمقربين له آراءه بأنها تماثل آراء الأستاذ الإمام وذلك يوم أراد

---

(١) الأستاذ الإمام محمد عبده (١٢٦٥ ـ ١٣٢٣هـ) أو (١٨٥٠ ـ ١٩٠٥م) شغل العديد من المناصب، عين سنة ١٨٩٩م مفتيًا للديار المصرية مع مواظبته على إلقاء الدروس بالأزهر من آثاره: رسالة في التوحيد، والإسلام والرد على منتقديه، الإسلام والنصرانية وغيرها. راجع: المستشار محمد عزت الطهطاوي: الأستاذ الإمام محمد عبده، مجلة الأزهر عدد رجب سنة ١٤١٢هـ يناير ١٩٩٢، ص٧٩٦ وما بعدها.

(٢) طه حسين: أديب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مكتبة الأسرة سنة ١٩٩٨، ص٤٦.

طه لفت أنظار الناس إليه فواجههم بما لم يألفوه من الآراء يقول طه عن ذلك:

(تسامع هؤلاء الناس جميعًا بمقالات الصبي وإنكاره لكثير مما يعرفون واستهزائه بكرامات الأولياء، وتحريمه التوسل بهم وبالأنبياء وقال بعضهم لبعض: إن هذا الصبي ضال مضل قد ذهب إلى القاهرة فسمع مقالات الشيخ محمد عبده الضارة وآراءه الفاسدة المفسدة ثم عاد بها إلى المدينة ليضل الناس)[1].

كانت هذه النسبة باعثة لطه لكي يلتمس أسباب منزلة الشيخ محمد عبده ويعمل للوصول إلى ما وصل إليه الأستاذ الإمام شهرة وعلمًا.

ولقد كانت حركة الأستاذ الإمام في الأزهر حركة بعث وتجديد لفتت أنظار طه وأخذت بلبه يقول طه عن ذلك:

(إن المدة التي قضيتها في الأزهر كانت فترة انتقال فكان محمد عبده يفسر القرآن على طرق حديثة، والشيخ المرصفي يعلمنا الأدب وكلاهما يذم الطرق الأزهرية، وكان قاسم أمين[2] يقول بتحرير المرأة وفتحي زغلول[3]

---

(١) طه حسين: الأيام ١٢٦/٢.

(٢) ولد قاسم أمين بالإسكندرية سنة ١٨٦٣م وحصل على ليسانس الحقوق سنة ١٨٨١م، سافر إلى فرنسا في بعثة لدراسة القانون وهناك شارك الأفغاني ومحمد عبده في إصدار العروة الوثقى، من أشهر آثاره: تحرير المرأة، والمرأة الجديدة. راجع: مقدمة الأستاذ أحمد بهاء الدين لكتاب تحرير المرأة. الهيئة العامة للكتاب، سلسلة التنوير سنة ١٩٩٣، ص٣ وما بعدها.

(٣) فتحي زغلول (١٢٧٩ ـ ١٣٣٢هـ ـ ١٨٦٣ ـ ١٩١٤م) أحمد فتحي بن إبراهيم زغلول، من قضاة مصر، درس الحقوق في أوروبا، أتقن الفرنسية وعمل بالترجمة عنها. معجم المؤلفين ٢٢٧/١.

يترجم كتبًا قيمة و«الجريدة»[1] تنادي بمعايير جديدة في السياسة والاجتماع فكنا في اضطراب ذهني لا نستقر وشعرنا نحن تلاميذ الشيخ المرصفي أن طرق الأزهر عتيقة فكنا نتكلم ونتناقش عن الإصلاح الذي يقول به الشيخ محمد عبده)[2].

وعلى الرغم من دراسة طه بالأزهر في الفترة التي كان الأستاذ الإمام يُدرس بالأزهر إلا أنه لم يستطع الجلوس إليه والأخذ عنه إلا مرات قلائل، فقد صور كيف عاش عامًا كاملاً في الأزهر يسمع عنه ويروي آراءه، دون أن يراه، حتى إذا كان العام الثاني فقد جرؤ على أن يقتحم باب الرواق العباسي الذي يلقي فيه الأستاذ الإمام محاضراته ومن دون الباب حارسه الذي يسمى الغراب يقول طه:

(وإذا أنا ذات مساء أخاطر أشد المخاطرة وأتحدى الغراب وأقتحم الباب وأجلس في طرف من أطراف الحلقة ويقبل الشيخ ويأخذ مكانه ثم يبدأ في الدرس، وأشهد لقد كنت في هذا الوقت شديد الاضطراب والذهول تجري في جسمي الصغير كله رعدة ما أحسستها من قبل، حتى إذا سمعت هذا الصوت الحلو يتلو هذا الكلام العذب، كلام الله، ويتلوه في هدوء وخشوع وفي حنان ورحمة لم أملك نفسي، وإذا دمعتان تنحدران فأكفكفهما، ثم أثوب إلى الشيخ فأمنحه عقلي كله وقلبي كله، وأسمع له حتى ينهض ويتفرق الناس ثم لا أفكر إلا فيه

---

(١) الجريدة صحيفة كان يصدرها أحمد لطفي السيد وكانت تدعو لنبذ الوحدة الإسلامية وترفع شعار قومي باسم مصر للمصريين، وكانت تدعو إلى الالتقاء بالغرب في منتصف الطريق والتعاون مع الاستعمار وقبول أسلوب المراحل. راجع: أنور الجندي. طه حسين حياته وفكره في ضوء الإسلام، ص٢٥.

(٢) د. عبدالعزيز شرف: طه حسين وزوال المجتمع التقليدي، ص٢٣، ٢٤ بتصرف.

سواد الليل ولا أفكر إلا فيه بياض النهار، ثم أنصرف وقد عاهدت الله على أن ألزم درس الشيخ لا أعدل به درسًا ولا أنصرف عنه إلى شيء غيره ولكن الله يريد أن يكون هذان الدرسان آخر عهد الأستاذ بالتعليم في الأزهر فقد استقال من مجلس الإدارة وتحول إلى دار الإفتاء)[1].

هل تأثر طه بالأستاذ الإمام؟

كانت الحركة التجديدية في الأزهر قد سيطرت على الأفكار داخل الأزهر وخارجه بفعل الشيخ محمد عبده في ذلك الوقت الذي انتسب فيه طه حسين إلى الأزهر[2].

ولكننا نستطيع القول بأن تأثر طه بالأستاذ الإمام يعد تأثرًا وقتيًا، فقد أعجب به وبأقواله ومناهجه، ولقد قرأ طه كثيرًا من كتب الأستاذ الإمام في فترة الطلب بالأزهر، أما حين اختلف إلى الجامعة المصرية وتلقى عن الأساتذة الأجانب من المستشرقين رغب عن أمنيته السابقة في أن يكون شيخًا مجددًا كالأستاذ الإمام وإنما قال:

(أصبحت وأنا أشد انصرافًا عن الأزهر ونفورًا من دروسه وشيوخه وحرصًا على أن أهجر مصر وأعبر البحر إلى بلد من هذه البلاد التي يطلب فيها العلم الواسع والأدب الراقي وتتغير فيها الحياة من جميع الوجوه)[3].

---

(١) أنور الجندي: صفحات مجهولة من حياة طه حسين، بحث ضمن كتاب (طه حسين كما يعرفه كتاب عصره) دار الهلال، ص٥٥، ٥٦ بتصرف.

(٢) عبد الخالق محمود عبد الخالق: شخصية رجل الدين في أدب الدكتور طه حسين، بحث مقدم إلى المؤتمر الثامن في ذكرى طه حسين، كلية الآداب، جامعة المنيا، يناير سنة ١٩٨٢م، ص٥.

(٣) طه حسين: أديب، مرجع سابق، ص٤٦.

وعندما عاد من أوروبا وعمل بالتدريس الجامعي وبالتحديد في يوليو سنة ١٩٢٢م كان المثقفون يعدون للاحتفال بذكرى الأستاذ الإمام فيقرر طه (ألا يلقي كلمة في هذه المناسبة ويعلل ذلك بقوله:

فأفكاري لا ترضي أحدًا، إنني أرى فيه مجددًا عظيم الأهمية لكنه حمَّل نصوص الإسلام أكثر مما تحتمل لكي يجعلها تتفق والعلم الحديث)[١].

فتأثر طه بالأستاذ الإمام قائم لكنه بنسبة قليلة، ولقد أشار كثير من الباحثين إلى هذا التأثر، لكن بعض الغالين في طه يعدونه أول عقلاني في مصر، ورائد الصحوة العقلية بها يقول الأستاذ صلاح عيسى[٢]: (لعله كان أول مفكر في تاريخ مصر يملك هذه القدرة الفائقة على التحدي وعلى تجاوز مواقف الدفاع، فالطهطاوي[٣] عاش حياته الفكرية ينشر العقل حتى حماية اللاعقل ولطفي السيد كان أميل إلى القصد والأفغاني[٤]، ومحمد عبده اللذان كانت عقلانيتهما موقفًا

---

(١) سوزان طه حسين: معك. دار المعارف ـ سلسلة كتب أكتوبر ـ ب. ت، ص٤٤.

(٢) صلاح عيسى كاتب معاصر: يرأس حاليًا تحرير صحيفة القاهرة لسان حال وزارة الثقافة المصرية من مؤلفاته: مثقفون وعسكر، الكارثة التي تهددنا.

(٣) رفاعة رافع الطهطاوي (١٢١٦ ـ ١٢٩٠هـ، ١٨٠١ ـ ١٨٧٣م) من مواليد طهطا بصعيد مصر، درس بالأزهر وقرأ في كثير من العلوم والمعارف، سافر إلى فرنسا وانبهر بما لديهم من علوم وفنون. من آثاره: تلخيص الإبريز في تلخيص باريز، المرشد الأمين للبنات والبنين. راجع: د. علي محمد عبد الوهاب: بين الإسلام والغرب ضراوة أحقاد ومرارة حصاد. دار ركابي للنشر. ط١، سنة ١٤١٦هـ/١٩٩٦م، ص١٢٥ وما بعدها.

(٤) الأفغاني من مواليد ١٢٥٤هـ، ترك بلاد الأفغان إلى الهند ثم إلى مصر ثم إلى الأستانة، أصدر مجلة العروة الوثقى في باريس، توفي ١٨٩٧م. راجع: =

دفاعيًا اتخذوه من الجانب الآخر، لم يفعلوا ما فعله طه حسين. لقد أثروا فيه جميعًا هذا شيء لا شك فيه ولكنه كان بالقطع أشجعهم انتماء لفكره ودفاعًا عنه)[1].

وهذه النظرة الغالية في طه باعثها ـ لدى أصحابها ـ الهزيمة النفسية أمام الحضارة الغربية والتي دعا طه فيما بعد إلى الأخذ بأسبابها والذوبان فيها، تلك الدعوة التي استجاب لها الكثيرون ورأوها طوق النجاة للخروج من حالة الوهن والاستضعاف التي مني به العرب والمسلمون في عصورهم الأخيرة.

= د. حسن حنفي ـ جمال الدين الأفغاني، الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ مكتبة الأسرة ١٩٩٩، ص٢١.

(١) صلاح عيسى: الكارثة التي تهددنا. مكتبة مدبولي، ط١ سنة ١٩٨٧م، ص١٤٨، ١٤٩.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

المبحث الرابع

طه حسين ومدرسة الجريدة

اتصل طه حسين بأحمد لطفي السيد أكبر رأس مفكر في حزب الأمة آنذاك على إثر الخلاف مع شيخ الأزهر ـ الشيخ سليم البشري ـ حين ذهب إلى مقر «الجريدة» ـ التي كان يرأس تحريرها أحمد لطفي السيد ـ ليدفع إليها بمقال يهاجم فيه شيخ الأزهر، ولكن لطفي السيد أثناه عن عزمه وتوسط لإصلاح ما فسد بينه وبين مشيخة الأزهر.

(ومنذ ذلك الوقت اتصل الفتى بمدير «الجريدة» وجعل يتردد عليه حتى جاء وقت كان يلقاه فيه كل يوم.

وفي مكتب مدير الجريدة ظفر الفتى بشيء طالما تمناه وهو أن يتصل ببيئة الطرابيش بعد أن سئم بيئة العمائم (!!) ولكنه اتصل من بيئة الطرابيش بأرقاها منزلة وأثراها ثراء، وكان وهو فقير متوسط الحال في أسرته، سيئ الحال جدًّا إذا أقام في القاهرة. فأتاح له ذلك أن يفكر فيما يكون من هذه الفروق الحائلة بين الأغنياء المترفين والفقراء البائسين)[1].

ولم يكن اتصال طه حسين بحزب الأمة عن قناعة ببرنامجه

---

(١) طه حسين: الأيام ١٧٣/٢.

السياسي الذي كان يميل إلى مهادنة الإنجليز والتعاون معهم، وفي المقابل الرفض القاطع لأي ارتباط مع الأتراك ـ الذين كانوا بمثابة الرمز للوحدة الإسلامية ـ إنما كان ارتباطه بحزب الأمة ارتباطًا شخصيًا تمثل في قناعة طه وانبهاره بشخص أحمد لطفي السيد[1].

(لقد كان لطفي السيد أكثر عقل مثقف ثقافة غربية في مصر في ذلك الحين.. لقد تعلم في أوروبا وعاد إلى مصر مقتنعًا بالثقافة الغربية اقتناعًا عميقًا وأراد أن ينقل هذه الثقافة إلى مصر.. أو بالأحرى أراد أن يجعل مصر متجهة وجهة غربية عصرية في ثقافتها الجديدة في العلم والسياسة والاجتماع...

ووجد طه حسين في لطفي السيد وفي التيار الفكري المتحرر (!!) الذي خلقه لطفي السيد بيئة ملائمة تمامًا لفكره.

ولقد كانت آراء لطفي السيد هي الآراء القريبة إلى قلب طه حسين وعقله... فلقد كان ينادي بفصل الدين عن الدولة والأخذ بفكرة الدولة المدنية العصرية، وكان ينادي بتحرير المرأة وسفورها ويتبنى الكاتبات اللائي كن يكتبن في الدعوة إلى تحرير المرأة.. وفي النهاية كان لطفي السيد مؤمنًا بالعقل أكثر من إيمانه بالعاطفة[2]، ومن هنا وجد في لطفي السيد ومن معه من مثقفي حزب الأمة جاذبية[3].

---

(١) أنور الجندي: أكذوبتان في تاريخ الأدب الحديث. دار الأنصار، سلسلة على طريق الأصالة الإسلامية عدد رقم ٩، ص٢٩ وما بعدها بتصرف.

(٢) دأب بعض الكتاب المعاصرين على وصف الالتزام بالإسلام والدعوة إلى قيمه بالعاطفة في مقابلة العقل تهوينًا من قدره وحطًا من شأنه وهو مسلك فيه كثير من الخبث والضلال.

(٣) رجاء النقاش: طه حسين والأحزاب السياسية، بحث ضم كتاب «طه حسين كما يعرفه كتاب عصره»، ص١٩٢ ـ ١٩٧ بتصرف.

وقد عبر طه في أكثر من موضع عن انبهاره بلطفي السيد حتى أنه عبر عن تأثيره في نفسه بقوله: «استأثر بقلب الفتى وعقله»[١].

وبمراجعة عدد من أفكار لطفي السيد ومقالاته يمكن أن نعثر بها على أصداء واضحة في أفكار طه حسين ومقالاته المتتابعة (في منهج تفكيره وتحولاته الرئيسية) وقد كان هذا دون شك وراء انضمامه لحزب الأمة[٢].

ويقول طه معترفًا بفضل لطفي السيد: (كانت أحاديث الأستاذ وزائريه تفتح للفتى أبوابًا من العلم والمعرفة لم تكن تخطر له ببال من قبل ولم يكن يقدر وجودها فضلاً عن اتصاله بها من قريب أو بعيد)[٣].

لقد تبنى لطفي السيد طه حسين وأظهره للناس حين نشر له في «الجريدة» وهو الذي أغراه بالثقافة الغربية فكان يوجهه إلى آراء فولتير[٤]، وغيره من مفكري الغرب ويوجهه إلى تعلم الفرنسية والالتحاق بالجامعة المصرية[٥].

ولم يقف دعم لطفي السيد لطه عند هذا الحد بل صاحبه بعد

---

(١) طه حسين: الأيام ٣/١٠.

(٢) د. مصطفى عبد الغني: طه حسين والسلطة في مصر. الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٧، ص٢٥.

(٣) طه حسين: الأيام ٣/١٠.

(٤) فولتير ملك وكاتب فرنسي ولد سنة ١٦٩٤ ومات سنة ١٧٧٨م. راجع: سلامة موسى: حرية الفكر وأبطالها في التاريخ. الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة التنوير ١٩٩٧م، ٢/١٥٨.

(٥) د. عبدالعزيز شرف: طه حسين وزوال المجتمع التقليدي، ص٣٩.

ذلك حتى توفي لطفي السيد، فلقد كان لطفي صاحب الفضل في إقرار مناقشة رسالة طه للدكتوراه والتي كان موضوعها «فلسفة ابن خلدون الاجتماعية» (إذ كانت الجامعة المصرية أقامت نفسها رقيبًا على رسائل طلابها وأخذت عليهم عهدًا ألا يقدموا رسائلهم إلى الجامعات الأجنبية حتى تأذن لهم هي في ذلك بعد أن تقرأ الرسائل وتقرها، فلما استأذنها الفتى في تقديم رسالته وأرسل إلى الجامعة نسخة من الرسالة أحالها مجلس الإدارة إلى الأستاذ أحمد لطفي السيد فقرأها ورضي عنها وأذنت الجامعة في تقديمها إلى السوربون)[1].

ثم تآزرا وتشاركا معًا في العمل الجامعي فكان لطفي السيد يجعل من نفسه درعًا واقية لطه حسين، حتى أنه كان يضحي بجاهه حماية لتلميذه ورعاية له، فلقد أقدم على تقديم استقالته من منصب مدير الجامعة حين نُقل الدكتور طه حسين من عمادة كلية الآداب إلى وزارة المعارف.

ولقد كتب في بداية استقالته التي وجهها إلى وزير المعارف:

(سيدى الوزير أتشرف بإخبار معاليكم أني أسفت لنقل الدكتور طه حسين عميد كلية الآداب إلى وزارة المعارف؛ لأن هذا الأستاذ لا يستطاع فيما أعلم أن يعوض الآن على الأقل، لا من جهة الدروس التي يلقيها على الطلبة في الأدب العربي، ومحاضراته العامة للجمهور ولا من جهة هذه البيئة التي خلقها حوله وبث فيها روح البحث الأدبي وهدى إلى طرائقه)[2].

---

(١) طه حسين: الأيام ١٢٣/٣.

(٢) أحمد لطفي السيد: قصة حياتي. الهيئة المصرية العامة للكتاب. مكتبة الأسرة سنة ١٩٩٨م، ص٢٠٢.

وبهذه المؤازرة استطاعا أن يحققا خطوات جديدة في العمل الجامعي فلقد كان لهما الفضل في فتح الباب أمام الفتيات للدراسة الجامعية[1].

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

(١) سوزان طه حسين: معك، ص١١١، ١١٢.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

المبحث الخامس

طه حسين والجامعة المصرية القديمة

توجه طه حسين إلى الجامعة المصرية بتوجيه من أستاذه لطفي السيد[١]، وذلك في عام ١٩٠٨[٢] وبعد أن أمضى بالأزهر قرابة الثمانية أعوام[٣]، وما إن وطأت أقدامه الجامعة المصرية حتى استأثرت الجامعة على قلبه ولبه (فإذا هو يجد للحياة طعمًا جديدًا، وإذا هو يتصل ببيئة جديدة وبأساتذة لا سبيل إلى الموازنة بينهم وبين أساتذته في الأزهر)[٤] كما عبر هو بنفسه.

لقد اعتبر طه اختلافه إلى الجامعة المصرية انتقالاً من بيئة تمثل القديم والفكر المحافظ إلى بيئة تمثل العلوم الجديدة والفكر الحر (فقد كان يرى حياته في الجامعة عيدًا متصلاً كما كان يراها غيره من المصريين ولكنها كانت بالقياس إليه عيدًا تختلف فيه ألوان اللذة والغبطة والرضا والأمل، كانت تخرجه من بيئته تلك الضيقة المقلقة في

---

(١) سوزان طه حسين: معك، ص١١١، ١١٢.

(٢) عبد العزيز شرف: طه حسين وزوال المجتمع التقليدي، ص٣٩.

(٣) أنور الجندي: طه حسين حياته وفكره في ضوء الإسلام، ص٢٢.

(٤) طه حسين: الأيام ١٨١/٢، ١٨٢.

الأزهر وفي حوش عطا أو درب الجماميز إلى بيئة أخرى واسعة لا حد لسعتها (!!) فهي كانت تتيح له أن يملأ رئتيه من الهواء الطلق حين يسعى إلى الجامعة وحين يعود منها، وأن يملأ عقله من العلم الطلق الذي لا يقيده تحرج الأساتذة الأزهريين فيما كانوا يلقون من الدروس(!!)، وكانت هذه البيئة تتيح له كذلك علمًا يخلق نفسه خلقًا جديدًا لا يتصل بالنحو ولا بالفقه ولا بالمنطق ولا بالتوحيد (!!) وإنما يذهب به مذاهب مختلفة في الأدب وفي ألوان من التاريخ لم يكن يقدر أنه سيعرفها في يوم من الأيام)[1].

بهذا الإغراق في الغلو عبر طه عن ضيقه بالأزهر وافتتانه بالجامعة المصرية حتى أنه كما مر يعد الهواء المنبعث في أحياء الجامعة هواء نقيًا لا يجده في أحياء الأزهر العتيقة!!

ومما زاد افتتان طه بالجامعة المصرية دراسته على يد مجموعة من المستشرقين «ملكوا عليه أمره واستأثروا بهواه»[2] منهم: كارلو نالينو[3] المستشرق الإيطالي الذي كان يُدرِّس تاريخ الأدب والشعر الأموي وسنتلانا[4] الذي كان يُدرِّس تاريخ الفلسفة الإسلامية وتاريخ

---

(١) طه حسين: الأيام ٣/٣٢، ٣٣ بتصرف.

(٢) المرجع السابق ٣/٣٤.

(٣) كارلو نالينو مستشرق إيطالي كبير، كان غزير العلم بالجغرافيا والفلك عند العرب ودرَّس في الجامعة المصرية القديمة ثلاث سنوات (١٩٠٩ ـ ١٩١٢م) عين عضوًا بمجمع اللغة العربية واشترك في معظم لجانه وله مؤلفات وأبحاث عديدة. راجع: طه حسين يتحدث عن أعلام عصره، ص٤٦.

(٤) سنتلانا مستشرق إيطالي، اهتم بدراسة الفقه الإسلامي وبخاصة المذهب المالكي وترجم بعض كتبه إلى الإيطالية، ودرَّس الفلسفة الإسلامية في الجامعة الأهلية وله فيها محاضرات نفيسة. راجع: طه حسين يتحدث عن أعلام عصره، ص٤٦.

الترجمة خاصة[1]، وغيرهم ممن كانوا يعملون بالتدريس بالجامعة المصرية ولم يكن اتصاله بهؤلاء الأساتذة مجرد صلة عادية بين الأستاذ وتلميذه إنما وصف طه هذه الصلة بقوله عن نفسه: (واتصل بأساتذته أولئك اتصالاً متينًا فكلهم عرفه، وكلهم قد آثره بالحب والرفق والعطف، وكلهم قد أدناه من نفسه، ودعاه إلى أن يزوره في فندقه وأحب أن يقول له ويسمع منه)[2].

ولم يكن طه قد قطع صلته بالأزهر في ذلك الوقت بل «كان يختلف إلى دروس الأزهر مصبحًا وإلى دروس الجامعة ممسيًا»[3] وفي بعض الأحيان كان يرافقه في اختلافه إلى الأزهر أستاذ من أساتذته من المستشرقين (وقد أشار في مذكراته إلى أنه صحب سنتلانا إلى الأزهر فحضر معه درسًا في التفسير كان يلقيه الشيخ سليم البشري وكان يفسر قول الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾[4].

فاعترض طه على تفسير الشيخ قائلاً: هذه جبرية مطلقة، فأجاب الشيخ البشري من أين تعلمت هذا الكفر؟ من أساتذتك الإفرنج؟! هنالك وضع سنتلانا يده على كتف طه طالبًا منه السكوت)[5].

ولم يكن إعجاب طه بالجامعة المصرية لتدريس طائفة من المستشرقين بها فحسب بل لما وجد فيها من أساتذة مصريين كان لهم

---

(١) طه حسين: الأيام ٣/٣٤، ٣٥.
(٢) المرجع السابق نفسه.
(٣) المرجع السابق ٢/١٨١.
(٤) سورة الأنعام، الآية: ١١١.
(٥) أنور الجندي: طه حسين حياته وفكره في ضوء الإسلام، ص٢١؛ طه حسين: الأيام ٣/٣٥.

أثر كبير في نفسه (لأنهم جددوا علمه بالحياة وشعوره بها وفهمه لقديمها وجديدها معًا، وغيروا نظرته إلى مستقبل أيامه وأتاحوا لشخصيته المصرية العربية أن تقوى وتثبت أمام هذا العلم الكثير الذي كان يأتي به المستشرقون (!!) والذي كان جديرًا بأن يُحوِّل هذا الفتى تحويلاً خطيرًا يفنيه في العلم الأوروبي إفناء، ولكن أساتذته المصريين هؤلاء أتاحوا له أن يأوي إلى ركن شديد من الثقافة الشرقية الخالصة، وأتاحوا لمزاجه أن يأتلف ائتلافًا معتدلاً من علم الشرق والغرب جميعًا)[1]، والمطالع لما كتبه طه عن تلك الفترة يجد أنه يقيم أساتذته من المصريين مثنيًا على البعض منهم رافعًا لشأنه كما في حديثه عن الأستاذ أحمد زكي[2] أستاذ الحضارة الإسلامية وإسماعيل رأفت[3] أستاذ علم الجغرافيا وكذا الأستاذ حفني ناصف[4] الذي كان يدرس الأدب العربي.

وهو إذ يمدح هؤلاء ويثني عليهم لا يرتفع بهم فوق منازل

---

(١) طه حسين: الأيام ٣/٣٧.

(٢) أحمد زكي (١٢٨٤ ـ ١٣٥٣هـ ـ ١٨٦٧ ـ ١٩٣٤م) لقب بشيخ العروبة، عالم، أديب، من أصل مغربي، أقام بمصر، حضر ثلاثة مؤتمرات للمستشرقين، وقف مكتبته على الأمة بعد وفاته فجعلت في دار الكتب المصرية. معجم المؤلفين ١/١٤٠.

(٣) إسماعيل رأفت (كان حيًا قبل ١٣٢٩هـ ـ ١٩١١م) وهو أستاذ علم الشعوب بالجامعة المصرية القديمة. من آثاره: التبيان في تخطيط البلدان طبع بالقاهرة سنة ١٣٢٩هـ. معجم المؤلفين ١/٣٦٤.

(٤) حفني ناصف: قاص وأديب وشاعر ولد سنة (١٢٧٢هـ ـ ١٨٥٦م) تعلم بالأزهر وتقلب في مناصب التعليم ثم القضاء وعين أخيرًا مفتشًا أول للغة العربية بوزارة المعارف توفي سنة (١٣٣٨هـ ـ سنة ١٩١٩م). طه حسين يتحدث عن أعلام عصره، ص٤٦.

المستشرقين وعلمهم، فحين كان يثني على أحدهم يوازيه بالمستشرقين قائلاً: إنه لم ير لأحدهم ـ يعني المستشرقين ـ فضلاً على أستاذه من المصريين.

وفي المقابل يحط من شأن بعض معلميه من المصريين إذ أنه يرى فيهم (ذا العلم الضحل والثقافة الرقيقة الذي يخلب باللفظ ثم لا يكون وراء لفظه الخلاب شيء ذو بال)[1] كما في حديثه عن الشيخ محمد المهدي[2] الذي كان يدرِّس الأدب العربي وكذلك في حديثه عن الشيخ طنطاوي جوهري[3] الذي كان يدرِّس الفلسفة الإسلامية فهؤلاء لا يقارن علمهم بعلم الأساتذة من المستشرقين ولا يقوم له[4].

والباحث يأخذه شيء من العجب والدهشة من مسلك طه حسين إذ أنه لم يتحدث عن أساتذته من المستشرقين إلا حديث الموقر المجل، المأخوذ بما لديهم من علم وما عندهم من طرائق التفكير ومناهجه، وكأن المستشرقين طبعوا طبعة واحدة ليس فيهم صحيح

---

(١) طه حسين: الأيام ٣/٣٧.

(٢) ولد الشيخ محمد المهدي سنة (١٢٨٥هـ ـ ١٨٦٨م) في إحدى قرى محافظة الشرقية، تعلم بالأزهر ودار العلوم وتتلمذ على الشيخ محمد عبده، كان كاتبًا عالي الأسلوب يؤثر الفصحى في حديثه. توفي سنة ١٣٤٢هـ ـ ١٩٢٤م. طه حسين يتحدث عن أعلام عصره، ص٨٥.

(٣) طنطاوي جوهري (١٢٨٧ ـ ١٣٥٩هـ ـ ١٨٧٠ ـ ١٩٣٩م) عالم، حكيم، أديب، مفسر، ولد في كفر عوض الله حجازي من أعمال مديرية الشرقية، درس بالأزهر، وتخرج بدار العلوم وألقى محاضرات في الجامعة المصرية القديمة من مؤلفاته الكثيرة: الجواهر في تفسير القرآن الكريم، والحكمة والحكماء، الموسيقى العربية وغيرها. معجم المؤلفين ٢/١٥.

(٤) طه حسين: الأيام ٣/٣٧ ـ ٤٣.

وسقيم أو قوي وضعيف إنما كلهم صحاح أقوياء!!

وفي الجامعة المصرية يعد طه حسين رسالته للدكتوراه في تاريخ أبي العلاء المعري[١] ذلك الرجل الذي هام به طه حسين وكان له الأثر الكبير في نفسه «نظرًا لتشابه ظروفهما»[٢].

لقد عاش طه مع أبي العلاء منذ طفولته وفهم حياته كل الفهم لقد كان يرى في حياته أبا العلاء نفسه[٣]، وكان يكثر من ذكره دائمًا عندما يحتاج إلى مساعدة غيره من المبصرين ويذكر كلمته «أنه رجل مستطيع بغيره»[٤] بل كان طه يشابه أبا العلاء ويوافقه في كثير من الخلال والصفات إذ «كان يرى نفسه في كلمة أبي العلاء حين قال: إنه إنسي الولادة وحشي الغريزة»[٥].

ولقد خرجت رسالة طه عن أبي العلاء في كتاب بعنوان: «ذكرى أبي العلاء» وطبعت بمطابع الواعظ بمصر سنة ١٣٣٤هـ ـ ١٩١٥م في ٤١٠ صفحات[٦].

وقد أثار هذا الكتاب ضجة حول صاحبه حيث قدَّم أحد أعضاء الجمعية التشريعية سؤالاً في الجمعية مطالبًا فيه بحرمان طه حسين من

---

(١) أبو العلاء: هو أحمد بن عبدالله بن سليمان المعري، شاعر عربي معروف ولد سنة ٣٦٣هـ في معرة النعمان، وتوفي سنة ٤٤٩هـ. من آثاره: سقط الزند، واللزوميات. راجع: دائرة المعارف الإسلامية ٣٧٩/١ وما بعدها.

(٢) د. جابر قميحة: جريدة آفاق عربية العدد ٣٧٩ الصادرة في ١٠ جمادى الآخرة سنة ١٤١٩هـ، أكتوبر سنة ١٩٩٨م، ص١١.

(٣) طه حسين: الأيام ٢١/١.

(٤) طه حسين: الأيام ١٠٤/٣.

(٥) المرجع السابق ١٠٤/٣.

(٦) د. السيد تقي الدين: طه حسين آثاره وأفكاره. ب. ت، ص٧٦.

حقوق الجامعيين؛ لأنه ألف كتابًا فيه إلحاد وكفر.

وكان طه في هذا الكتاب قد تبنى الكثير من آراء أبي العلاء من الثقة بالعقل والتشكك في الأخبار المتواترة[1]، كما أنه في هذه الرسالة «يكاد يقيد كل شيء بنظام مطلق من الجبرية والحتمية فلقد كان مؤمنًا بالجبر التاريخي[2] ولعلنا نتناول هذه القضايا في فصل طه حسين والعقيدة الإسلامية. والله المستعان»

(١) المرجع السابق، ص٣٠، ٣١.

(٢) محمود أمين العالم: طه حسين مفكرًا، بحث ضمن كتاب (طه حسين كما يعرفه كتاب عصره)، ص١٢٦.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

المبحث السادس

طه حسين ورحلته إلى أوروبا

كان السفر إلى أوروبا خاطرًا يداعب خيال طه وهو في مرحلة الطلب بالأزهر والجامعة، وكان يثيره في نفسه اتصاله بالثقافة الغربية حين كان يقصد الجامعة المصرية فيسمع لأساتذته من المستشرقين يضاف إلى ذلك قراءاته الصيفية التي كانت تركز على الكتب المترجمة فقد كان يجتمع مع أقرانه ممن سماهم المطربشين (فيقرؤون ما ترجم فتحي زغلول[1] عن الفرنسية وما كان السباعي[2] يترجم عن الإنجليزية وما كان جورجي زيدان[3] يكتب في الهلال من مقالات، وما كان ينشر

---

(١) فتحي زغلول: سبق التعريف به في ص٤٦.

(٢) محمد السباعي (.... - ١٣٥٠هـ/.... - ١٩٣١م) محمد بن محمد بن عبد الوهاب السباعي، من المترجمين عن الإنجليزية، ولد بمصر وتوفي بها، من آثاره: السمر، والصور وكلاهما مقالات ومذكرات. معجم المؤلفين ٦٥٧/٣.

(٣) جورجي زيدان (١٢٧٨ - ١٣٣٢هـ - ١٨٦١ - ١٩١٤م) مؤرخ صحافي قصصي لغوي مشارك في بعض العلوم، من آثاره: تاريخ آداب اللغة العربية في أربعة أجزاء، تاريخ التمدن الإسلامي في خمسة أجزاء. معجم المؤلفين: ٤٨١/١.

من قصص وما كان يؤلف من كتب تاريخ الأدب والحضارة)[1].

(كما كان يتابع آثار العلمانيين وما نشروه من مقالات تغريبية فقرأ مقالات يعقوب صروف[2] في المقتطف كما يقرأ لشبلي شميل[3]، وفرح أنطون[4])[5].

يضاف إلى ما سبق اتصاله بلطفي السيد، والشيخ عبد العزيز جاويش[6].

هذا الأخير الذي رغَّب طه في السفر إلى أوروبا وحسَّنه في نفسه وخصص له فرنسا بالتحديد كبلد يقصده ويتوجه إليه[7] مما جعل السفر

---

(١) طه حسين: الأيام ١٧٥/٢، ١٧٦.

(٢) يعقوب صروف (١٢٦٨ ـ ١٣٤٦هـ/١٨٥٢ ـ ١٩٢٧م) يعقوب بن نقولا صروف الدمشقي الأصل، الحموي المنبت، حكيم، رياضي، فلكي، أديب، كاتب، مشارك في كثير من العلوم، أنشأ مجلة المقتطف، وشارك في إصدار جريدة المقطم. معجم المؤلفين ١٣١/٤.

(٣) شبلي شميل (١٢٧٦ ـ ١٣٣٥هـ ـ ١٨٦٠ ـ ١٩١٧م) شبلي بن إبراهيم شميل، طبيب، حكيم عالم بالعلوم الطبيعية، سياسي، أديب، ناثر، ناظم، لبناني الأصل، عاش في مصر في أخريات حياته، أنشأ مجلة الشفاء. معجم المؤلفين ٨١٠/١.

(٤) فرح أنطون (١٨٧٤ ـ ١٩٢٢م) لبناني الأصل مسيحي، حضر إلى مصر سنة ١٩٩٧م أصدر مجلة سماها الجامعة، وكان مجيدًا للفرنسية متأثرًا بأدباء فرنسا ومفكريها. راجع: جريدة القاهرة: العدد ١٤٠ الصادر في يوم الثلاثاء ١٧ ديسمبر سنة ٢٠٠٢م.

(٥) د. عبد العزيز شرف: طه حسين وزوال المجتمع التقليدي، ص٣٩.

(٦) عبد العزيز جاويش: خطيب وكاتب، يعد من رجال الحركة الوطنية بمصر ولد بالإسكندرية سنة ١٢٩٣هـ ـ ١٨٧٦م وتعلم في الأزهر ودار العلوم، أصدر بعض المجلات مثل الهداية، والعالم الإسلامي. توفي سنة ١٣٤٧هـ ـ ١٩٢٩م. طه حسين يتحدث عن أعلام عصره، ص٦٥.

(٧) طه حسين: الأيام ٤٧/٣.

إلى أوروبا في نفس طه حقيقة يجب أن تكون لا حلمًا داعب خيال نائم أو يقظان.

وسرعان ما تحولت الأمنية إلى واقع وإذ بطه حسين أحد أفراد البعثة التعليمية إلى فرنسا إذ وقع عليه الاختيار ليدرس على نفقة الجامعة هناك وركب البحر في طريقه إلى فرنسا وكان أول عمل قام به على ظهر السفينة ما حكاه بقوله: (خلعت الجبة والقفطان وأنا أعلم إلى أين صارا.. منحهما أخي هدية لسيدة كان يألفها في فرنسا..

ولست أدري ماذا اتخذت منهما... خلعت الجبة وخلعت القفطان ودخلت في هذه الثياب الأوروبية. فكم ضقت بها وكم كرهتها وكم ندمت على جبتي وقفطاني طوال الأسبوع الذي قضيته على ظهر أصبهان)[1].

في نوفمبر سنة ١٩١٤ سافر طه إلى فرنسا سعيدًا مغتبطًا بما تحقق له من أماني، ولكن لم يكتب لسعادته أن تستمر طويلاً فقد قررت الجامعة إعادة مبعوثيها لأزمة مالية ألمت بها فيعود في سبتمبر سنة ١٩١٥، فيقضي في مصر أربعة أشهر عانى فيها من الألم النفسي الشيء الكثير، ولقد عبر عن معاناته في مقالات يومية نشرتها له مجلة «السفور» نكتفي بإيراد مقالة واحدة منها لبيان حجم المعاناة التي عاناها في تلك الفترة.

كتب في ٥ نوفمبر سنة ١٩١٥ يقول:

(تريدونني على أن أكتب أيها الأصدقاء ولقد علمتم ما لي بالكتابة

---

(١) سامي الكيالي: مع طه حسين، دار المعارف، سلسلة إقرأ العدد ١١٢ مايو سنة ١٩٥٢م، ص٧٩.

من طوق ولا إلى الإجادة من سبيل، ماذا تريدون من رجل لم يكد يأنس إلى حياة النور والهدى حتى ردته الأقدار إلى حيث الظلمة الداجية والضلال المبين (!!) ماذا عسى أن نصنع بذكائنا في بلد قانع كمصر، قد رضي أهله بالقليل في كل شيء، فحسبهم من العلم والأدب ومن الفلسفة والحكمة ألفاظ يلوكونها وجمل يرددونها بين الشفاه. واعجبًا كل العجب، يعود الناس إلى بلادهم بعد الغربة فرحين ولقد عدت إلى مصر آسفًا محزونًا، ولقد أستحي أن أقول الحق فأعلن أني استقبلتها باكيًا)[1].

بهذه الروح المحزونة عبر طه حسين عن أسفه لرجوعه من فرنسا، بل إن كلمات هذه المقالة على ما تحمل من مرارة هي أخف مقالة عبر بها عن محنته آنذاك[2].

ثم تنجلي أزمة الجامعة المالية وتأذن لطلابها بالعودة فيكون الفرج بعد الشدة والسرور بعد الحزن.

ولقد عبَّر طه عن فرحه باختلافه إلى الجامعة في مدينة مونبلييه بقوله: (كان الفتى يوازن بين حياته هذه الجديدة وحياته تلك القديمة، ويقيس ما بينهما من الفرق العظيم فيرى نفسه أسعد الناس وأعظمهم حظًّا من النجاح والتوفيق)[3].

حضر في فرنسا (دروس التاريخ اليوناني على «جلوتز»[4].

---

(١) أنور الجندي: صفحات مجهولة من حياة طه حسين، بحث ضمن كتاب (طه حسين كما يعرفه كتاب عصره)، ص٥٩.

(٢) انظر: نصوص تلك المقالات في المرجع السابق نفسه، ص٥٩ وما بعدها.

(٣) طه حسين: الأيام ٣/٨٠.

(٤) جوستاف جلوتز (١٨٦٢ ـ ١٩٣٥م) مؤرخ فرنسي من آثاره (المدينة الإغريقية) صدر عام ١٩٢٨م بالفرنسية ترجمة إلى العربية محمد مندور عام ١٩٦٥م.

والتاريخ الروماني على «بلوك»[١] والتاريخ الحديث على «سنوبوس»[٢] كما حضر دروسًا في علم الاجتماع على إميل دوركايم[٣] الذي حضَّر تحت إشرافه رسالته عن «الفلسفة الاجتماعية عند ابن خلدون»[٤]، ويقول طه عن منزلة «دوركايم» في نفسه:

(وكان لأستاذه مُحبًّا وبه معجبًا إعجابًا يوشك أن يبلغ درجة الفتون ولقد رُوِّع طه لوفاة أستاذه أثناء إعداده للرسالة وأدركه للخطب فيه حزن عميق)[٥].

وبعد وفاة دوركايم تولى «سلتان بوجليه»[٦] الإشراف على رسالته، كما كان يقرأ ما يكتب من فصول رسالته على كازانوفا[٧] الذي حضر دروسه في تفسير القرآن الكريم والتي كان يلقيها في الكوليج دي

---

(١) مارك ليوبولد بلوك (١٨٨٦ ـ ١٩٤٤م) مؤرخ فرنسي أسس مدرسة أنال في التاريخ المؤثرة للغاية في التاريخ الاجتماعي الفرنسي، من أصول يهودية ومن عائلة أكاديمية في باريس. موسوعة ويكيبيديا.

(٢) سنوبوس : لم أستدل عليه.

(٣) إميل دوركايم (١٨٥٨ ـ ١٩١٧م) فرنسي اهتم بالمسائل الاجتماعية ويعتبر من رواد علم الاجتماع الفرنسيين بعد أوجست كونت له آثار كثيرة منها: الانتحار، التربية والاجتماع. راجع: عبدالله علي الأنس، صالح سالم باقارش: مشاهير الفكر التربوي، مكتبة إحياء التراث الإسلامي. مكة المكرمة سنة ١٩٩٩، ص٢١١.

(٤) د. عبد العزيز شرف: طه حسين وزوال المجتمع التقليدي، ص٣٠.

(٥) طه حسين: الأيام ١٢٨/٣ بتصرف.

(٦) سلتان بوجليه: لم أستدل عليه.

(٧) كازانوفا: مستشرق فرنسي تعلم العربية وعلمها في معهد فرنسا (١٩٢٠) ثم قدم مصر فانتدبته الجامعة المصرية ١٩٢٥ أستاذًا لفقه اللغة العربية وقد وجه عنايته إلى مصر الإسلامية، من أشهر مؤلفاته (محمد وانتهاء العالم في عقيدة الإسلام الأصلية) توفي سنة ١٩٢٦م راجع: نجيب العقيقي، المستشرقون، دار المعارف، مصر، ط٤. ب. ت ٢١٩/١.

فرانس[1].

يقول طه عن إعجابه بـ كازانوفا:

(عرفته أستاذًا في الكوليج دي فرانس ولم أكد أسمع له حتى أعجبت به إعجابًا لم أعرف له حدًّا، كان يفسر القرآن وكنت حديث العهد بباريس كنت شديد الإعجاب بطائفة من المستشرقين ولكني لم أقدر أن هؤلاء المستشرقين يستطعون أن يعرضوا في إصابة وفي توفيق لألفاظ القرآن ومعانيه والكشف عن أسراره وأغراضه، فلم أكد أجلس إلى كازانوفا حتى تغير رأيي أو قل حتى ذهب رأيي وما هي إلا دروس سمعتها منه حتى استيقنت أن الرجل كان أقدر على فهم القرآن وأمهر في تفسيره من هؤلاء الذين يحتكرون علم القرآن ويرون أنهم خزنته وسدنته وأصحاب الحق في تأويله)[2](!!).

وفي سنة ١٩١٧ يحصل على درجة الليسانس في الأدب من السوربون.

وفي ٩ أغسطس من نفس العام يقترن بزوجته التي كان لها أبعد الآثار وأعمقها في حياته[3] فلقد كانت المرأة التي أبصر بعينيها على حد تعبيره هو[4].

لقد ظلت سوزان بريسو الفرنسية الكاثوليكية تتردد زمنًا قبل أن

---

(١) د. عبد العزيز شرف: طه حسين وزوال المجتمع التقليدي، ص٣٠.
(٢) أنور الجندي: طه حسين حياته وفكره في ضوء الإسلام، ص٣٦.
(٣) د. عبد العزيز شرف: طه حسين وزوال المجتمع التقليدي، ص٣١.
(٤) طه حسين: الأيام ١١٣/٣.

تتزوج طه حسين المسلم ولكن أحد أعمامها استطاع أن يقنعها ـ وكان ذلك ـ العم قسيسًا ـ وقال لها: مع هذا يمكن أن تثقي بأنه سيظل معك دائمًا[1].

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

(١) جابر رزق: طه حسين الجريمة والإدانة، دار الاعتصام د. ت، ص١٨٤، محمد شلبي: مع رواد الفكر والفن، الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٨٢، ص١٢٢، ١٢٣، إلا أن محمد شلبي يذكر قرابة القسيس لسوزان بأنه خالها لا عمها حسبما أوردت الكتب.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

المبحث السابع

طه حسين ومرحلة العطاء

تمهيد:

كانت الثلاثون عامًا الأولى من حياة طه حسين تمثل مرحلة الطلب والتكوين، مر في خلالها ببيئات مختلفة كان لها أثر كبير في تكوينه، بداية من مرحلة الطفولة وبيئة القرية مرورًا بالطلب في الأزهر والجامعة المصرية وانتهاءً بسفره إلى فرنسا الذي انتهى سنة ١٩١٨ بمناقشة رسالته للدكتوراه والتي كان موضوعها «الفلسفة الاجتماعية عند ابن خلدون».

وفي أكتوبر سنة ١٩١٩ عاد طه حسين إلى مصر ليعمل أستاذًا للتاريخ القديم بالجامعة المصرية[١].

طه حسين والتدريس الجامعي:

استمر طه حسين في عمله أستاذًا للتاريخ القديم بالجامعة المصرية

---

(١) مجلة القاهرة، الصادرة عن الهيئة المصرية للكتاب: بيبلوغرافيا طه حسين العدد ١٣٢ نوفمبر ١٩٦٣.

حتى عام ١٩٢٥[١] ولقد كرَّس طه حسين هذه السنوات لتدريس التاريخ اليوناني والروماني على الرغم من النقد والجدل والمواجهة حول هذه النقطة، إذ أثار هذا التوجه دهشة وتساؤلاً، لماذا لم يخص طه حسين التاريخ الإسلامي بالدرس والتوجيه؟!

ولكن طه حسين أصرَّ على موقفه وبرر توجهه ذلك بأن الفكر اليوناني هو أساس الحضارات بأسرها، وأن الحضارة الإسلامية على الخصوص عالة على الحضارة اليونانية[٢].

(وفي أثناء هذه الفترة صنف طه حسين كتبًا تصور النشاط الفكري والأدبي عند اليونان، ويترجم إلى العربية من الكتب التي تصور الحياة السياسية عند قدماء اليونان وكذلك أساطيرهم ومن هذه الكتب:

١ ـ صحف مختارة من الشعر التمثيلي عند اليونان.

٢ ـ قادة الفكر.

٣ ـ من الأدب التمثيلي اليوناني ـ سوفوكليس[٣]. . وغيرها.

ولأن طه حسين معجب أشد الإعجاب بالفكر اليوناني والثقافة اليونانية ذهب إلى القول بأن مصر اطمأنت للفتح اليوناني وأصبحت ملجأ للثقافة اليونانية، وأصبحت الإسكندرية عاصمة من عواصم اليونان

---

(١) د. رشيدة مهران: طه حسين بين السيرة والترجمة الذاتية، الهيئة المصرية العامة للكتاب إسكندرية ـ ط١ سنة ١٩٧٩، ص٦٥.

(٢) د. عبد المجيد المحتسب: طه حسين مفكرًا، مكتبة النهضة الإسلامية، الأردن ط٣، سنة ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م، ص١٦٩.

(٣) سوفوكليس (٤٩٦ ـ ٤٠٦ق.م) مؤلف مسرحي يوناني يعتبر أحد أعظم المسرحيين التراجيديين في الأدب اليوناني القديم، منير البعلبكي، قاموس المورد، معجم الأعلام (S)، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٥م.

الكبرى في الأرض ومصدرًا من مصادر الثقافة اليونانية للعالم القديم)[1].

(وفي ربيع عام ١٩٢٦ ألقى دروسه المشهورة عن الشعر الجاهلي التي لم تلبث حين طبعت أن أحدثت دويًا شديدًا في دوائر الصحافة ومجلس الشيوخ ومجلس النواب والأزهر لمعارضتها الطابع الإسلامي وأعراف المجتمع وعقائده)[2].

إذ كذَّب صريح القرآن، وطعن في نسب النبي ﷺ وأثار عددًا من القضايا الدينية التي خالف فيها إجماع المسلمين إضافة إلى القضية الأساسية التي وضع الكتاب من أجلها وهي قضية الشعر الجاهلي الذي انتهى به البحث في شأنه إلى القول بأن الكثرة المطلقة مما نسميه شعرًا جاهليًا ليست من الجاهلية في شيء وإنما هي منتحلة مختلقة بعد ظهور الإسلام فهي إسلامية تمثل حياة المسلمين وميولهم وأهواءهم أكثر مما تمثل حياة الجاهليين[3].

ولقد كان رد الفعل لدى الأمة عامة والعلماء خاصة شديدًا، إذ تعرض العلماء والكتاب لآراء طه بالنقد والتمحيص وصدرت مؤلفات كثيرة تتناول الكتاب وصاحبه بالنقد اللاذع وكذلك فعلت صحف «كوكب الشرق»، و «الأهرام» و«المقطم»، و«البلاغ».

(ولم يتوقف الهجوم على طه وكتابه عند صفحات الجرائد وحدها

---

(١) د. عبد المجيد المحتسب: طه حسين مفكرًا، ص١٧٣.

(٢) أنور الجندي: طه حسين حياته وفكره في ضوء الإسلام، ص٥٧، ٥٨.

(٣) كتب العلماء في الرد على كتاب الشعر الجاهلي كتبًا كثيرة منها نقض كتاب الشعر الجاهلي للشيخ محمد الخضر حسين، وتحت راية القرآن لمصطفى صادق الرافعي، والشهاب الراصد لمحمد لطفي جمعة.

بل تجاوز ذلك إلى إرسال برقيات إلى الملك تطالبه بإقصاء طه عن منصبه ومكانه الجامعي، وخرجت المظاهرات تطالب برأس طه حسين وتوجهت إحدى هذه المظاهرات إلى منزل سعد زغلول[1] الذي وقف يقول:

(إن مسألة كهذه لا يمكن أن تؤثر في الأمة المتمسكة بدينها، هبوا أن رجلاً مجنونًا يهذي في الطريق فهل يضير العقلاء شيء من ذلك إن هذا الدين متين وليس الذي شك فيه كان زعيمًا ولا إمامًا حتى نخشى من شكه على العامة، فليشك ما شاء، وماذا علينا إذا لم تفهم البقر»)[2].

سكت طه حسين خلال تلك الفترة فلم يرد على خصومه ردًا علميًا على صفحات الصحف والمجلات وإنما اكتفى بإعلان تمسكه بالإسلام وعدم خروجه عنه، وأن شكه بالشعر لا يعني شكه بقداسة الدين[3].

وكتب في «السياسة» لسان حال حزب الأحرار الدستوريين آنذاك يشرح موقفه بكلمات أراد من ورائها تهدئة الرأي العام فكان من كلامه:

(إن كل امرئ منا يستطيع إذا فكَّر قليلاً أن يجد لنفسه شخصيتين متمايزتين، إحداهما: عاقلة تبحث وتنقد وتحلل وتغير اليوم ما ذهبت

---

(١) سعد زغلول (١٢٧٧ ـ ١٣٤٦هـ/١٨٦٠ ـ ١٩٢٧م) سعد بن إبراهيم زغلول، سياسي، حقوقي، خطيب عمل بالمحاماة، والحقوق، وطالب باستقلال مصر القومي وكان من أبرز زعماء ثورة ١٩١٩م. معجم المؤلفين ١/٧٥٥.

(٢) د. كمال حامد مغيث: طه حسين ومصادره الفكرية، مركز الدراسات والمعلومات القانونية لحقوق الإنسان ط١، ١٩٩٧، ص١٠٤ بتصرف.

(٣) سامي الكيالي: مع طه حسين، ص٥٨.

إليه بالأمس، والأخرى: شاعرة تلذ وتألم في غير نقد ولا بحث ولا تعليل، وكلتا الشخصيتين متصلة بمزاجنا وتكويننا فما الذي يمنع أن تكون الشخصية الأولى عالمة باحثة ناقدة، وأن تكون الشخصية الثانية مؤمنة مطمئنة طامحة إلى المثل الأعلى)[١].

وهوى الدكتور بهذه الكلمات في بئر أعمق من سابقه إذ قطع بهذه الكلمات بالتناقض بين «العلم والدين»[٢]، بل صرح بذلك في أعقاب تلك الأزمة حين أُخرج من الجامعة إذ أقام طلبة الجامعة ما أطلق عليه حفل تكريم فقال لهم:

(أرجو أن يكون بيننا عهد، كما أرجو أن يبلغه الحاضرون إخوانهم «ألا نؤمن إلا بالعلم»)[٣].

وكان الدكتور قد وقف موقفًا لا يحمد له حين ناصر صاحبه الشيخ علي عبد الرازق[٤] حين أصدر الأخير كتابه الإسلام وأصول الحكم، الذي يقرر فيه أن الإسلام رسالة روحية فقط وليس في الإسلام نظام للحياة[٥].

---

(١) طه حسين: حول الشعر الإلهي مقال بجريدة السياسة الصادرة في ١٩٢٦/٧/١٧.

(٢) سنقف بحول الله وقوته مع هذه القضية في فصل طه حسين والعقيدة الإسلامية.

(٣) أنور الجندي: طه حسين حياته وفكره في ضوء الإسلام، ص٥٩.

(٤) علي عبد الرازق: ولد الأستاذ علي عبد الرازق سنة ١٣٠٥هـ/١٨٨٨م، درس بالأزهر، والجامعة المصرية القديمة حصل على العالمية سنة ١٩١٢م، تولى القضاء بالمحاكم الشرعية، له مؤلفات في الأدب وأصول الفقه، توفي سنة ١٣٨٦هـ/١٩٦٧م، طه يتحدث عن أعلام عصره، ص٦٩.

(٥) راجع: علي عبد الرازق: الإسلام وأصول والحكم، الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ سلسلة المواجهة (التنوير) سنة ١٩٩٣.

وقف طه من صاحبه موقف المدافع عن الكتاب وصاحبه وكتب مواسيًا لصديقه ـ حين صدر القرار بإخراجه من زمرة العلماء يقول: (إيه أيها الطريد من الأزهر، تعال نتحدث ضاحكين عن هذه القصة المضحكة، يجب أن نحمد الله على السلامة... فلو أننا في تلك العصور التي يحكم فيها الأحبار والكهَّان لحرقت مع كتابك)[1].

ولقد صرَّح طه حسين أنه قرأ أصول كتاب «الإسلام وأصول الحكم» قبل طبعه ثلاث مرات وعدَّل فيه كثيرًا وربما هذا الذي حدا بالبعض إلى الاعتقاد بأن مؤلف الكتاب هو طه حسين[2] هذا الأمر الذي أكده الدكتور مصطفى الشكعة[3] في شهادته على العصر بقوله:

«الإسلام وأصول الحكم» كتاب منسوب إلى الشيخ علي عبد الرازق الذي صار علي عبد الرازق باشا، والحقيقة أنني أريد أن أسجل شهادة في حق هذا الرجل وهي أنه منذ أربع سنوات سمعت من شاهد عيان هو الشيخ أحمد مسلم عضو مجمع البحوث الإسلامية الذي أكد أن لديه شهادة للتاريخ وقال: كنت مديرًا للوعظ والإرشاد في محافظة المنيا وبينما كنت أسير على شاطئ النيل شاهدت سراي آل عبد الرازق فاستقللت قاربًا وعبرت إلى الشاطئ الآخر ودخلت إلى السراي فقابلت

---

(١) إبراهيم عبد العزيز: رسائل طه حسين، الهيئة المصرية العامة للكتاب مكتبة الأسرة سنة ٢٠٠٠م، ص١٢٢، ١٢٣.

(٢) المرجع السابق نفسه.

(٣) د. مصطفى الشكعة ـ أستاذ جامعي معاصر ـ درَّس بالعديد من الجامعات العربية ـ يرأس حاليًا لجنة التعريف بالإسلام بالمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، من آثاره: كتاب إسلام بلا مذاهب، وغيره. راجع: صور حضارية من عطاء الإسلام، من إصدارات المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، ص٤.

الأستاذ علي عبد الرازق باشا وكان وزيرًا للأوقاف وصلينا المغرب معًا، ثم قام علي عبد الرازق لصلاة سنة المغرب فلم أر أتم ولا أكثر خشوعًا منه في صلاته فسألته كيف إذن ألَّف كتاب الإسلام وأصول الحكم فأطرق علي عبد الرازق مليًا ورفع رأسه وقال: أنا ما كتبته والذي ألفه هو طه حسين واتصل بي وقال: لقد كتبت كتابًا ووضعت اسمك عليه فلا تؤاخذني فرأيت أن أضحي بنفسي حماية لمن استجار بي وهو طه حسين)[1].

وفي عام ١٩٣٢ أثيرت قضية الشعر الجاهلي مرة أخرى في البرلمان المصري أثارها الدكتور عبد الحميد سعيد[2]، وأخرج طه على إثرها من الجامعة[3].

وفي عام ١٩٣٤م عاد إلى الجامعة وتولى عمادة كلية الآداب في ١٩٣٦م، وظل بها حتى (١٩٣٩م) الذي انتدب فيه مراقبًا عامًا للثقافة بوزارة المعارف[4].

طه حسين والعمل الصحفي:

اتصل طه حسين بالكتابة الصحفية منذ مرحلة الطلب الأولى وكان

---

(١) جريدة آفاق عربية، الصادرة عن حزب الأحرار المصري، العدد ٤٩٢ الصادر في ٢٢ شوال سنة ١٤٢١هـ/١٨ يناير سنة ٢٠٠١م، ص٧.

(٢) عبد الحميد سعيد من مواليد مارس سنة ١٨٨٢م بقرية سخا من أعمال محافظة كفر الشيخ، وهو سليل أسرة عريقة، عرفت بالتدين دخل مجلس النواب سنة ١٩٢٣م، وقدم للمجلس الكثير من الاستجوابات حول قضايا الإسلام والعروبة. راجع: أبو بكر عبد الرازق وثائق قضايا طه حسين، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت ط١٤١٢ ـ ١٩٩١، ١٩/١.

(٣) سامي الكيالي: مع طه حسين، ص٦٧، ٦٨ بصرف.

(٤) مجلة القاهرة: بيبلوغرافيا طه حسين، مرجع سابق، ص١٢١.

في تلك الفترة كما يتحدث عن نفسه موزعًا بين منهجين من مناهج الكتابة (أحدهما: مذهب الاعتدال والقصد ذلك الذي كان الأستاذ لطفي السيد يدعوه إليه ويزينه في قلبه، والآخر: مذهب الغلو والإسراف ذلك الذي كان الشيخ عبد العزيز جاويش يغريه به ويحرضه عليه تحريضًا)[1].

وبعد عودته من فرنسا وبداية مرحلة العطاء ظل يكتب في الصحف والمجلات ويلتقي بالصحفيين والكتاب حتى قبيل وفاته بأيام قلائل، وكانت كتاباته الصحفية تتناول موضوعات متعددة أخصها الحياة الأدبية وجوانب التجديد فيها، وعمل على نقل الأدب الغربي لأبناء العربية وخاصة الأدب الفرنسي الذي كان متأثرًا به إلى حد شديد.

ولقد جمعت مقالاته الصحفية في الغالب إلى كتب، خاصة المقالات الأدبية إذ أن (الكثير من مؤلفاته ـ طه حسين ـ كتبه أولاً في مقالات ثم بسطها في كتب، وقد يبث الفكرة في كتاب ثم لا يني يتحدث عنها في مقالاته شأنه في ذلك شأن معاصريه من قادة الرأي الذين توسلوا بالمقال لأداء دورهم)[2].

ومن كتبه التي كانت في أصلها مقالات نذكر منها على سبيل المثال: الأيام، في الصيف، على هامش السيرة، من بعيد، حافظ وشوقي وغيرها[3].

وقد تقلَّد الدكتور طه حسين رئاسة التحرير بالعديد من الصحف

---

(١) طه حسين: الأيام ٣/١٠.

(٢) د. عبد العزيز شرف: طه حسين وزوال المجتمع التقليدي، ص٤٥.

(٣) المرجع السابق، ص٤٥ ـ ٥٥.

والمجلات ففي مارس سنة ١٩٣٣م قبل طلب مصطفى النحاس للإشراف على جريدة كوكب الشرق وفي ديسمبر سنة ١٩٣٤ اشترى امتياز جريدة الوادي[١] ثم تولى رئاسة تحرير مجلة «الكاتب المصري» سنة ١٩٤٦م التي أسسها سبعة من الشركاء من اليهود المصريين الأمر الذي أثار كثيرًا من الشكوك حول صلة طه حسين بالصهيونية لدى بعض المثقفين، ولقد نفى طه حسين هذا الاتهام وبين أنه لم يقبل هذا العمل إلا بعد أن استقصى فأحسن الاستقصاء أن أمر المجلة لا يتعلق من قريب أو بعيد بالصهيونية وأن المجلة هي عمل أدبي خالص بعيد عن الأطماع والأهواء والأغراض[٢].

طه حسين والتأليف:

بلغت مؤلفات طه حسين ما يزيد على خمسين كتابًا في القصة والأدب والتاريخ وفلسفة التربية وترجم عن الفرنسية بعض كتب التربية وكذلك بعض القصص لبعض المشاهير من الأدباء الفرنسيين، وترجم العديد من مؤلفاته إلى الفرنسية وإلى غيرها من اللغات.

طه حسين والحياة الثقافية:

تقلبت الحياة بطه حسين فتقلد العديد من المنازل الثقافية سواء التعليمية منها أو التي تختص بالحياة العامة فبدأ بالتدريس الجامعي ثم تقلد العمادة لكلية الآداب ثم انتدت مراقبًا للثقافة في وزارة المعارف ثم

---

(١) المرجع السابق، ص٥٩.

(٢) د. عبد العزيز شرف: المجموعة الكاملة لمجلة الكاتب المصري، الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٨٨م، ١/٢٤.

مستشارًا فنيًّا للوزارة ثم مديرًا لجامعة الإسكندرية وقت الإنشاء، ثم وزيرًا للمعارف يضاف إلى ذلك أنه تولى رئاسة مجمع اللغة العربية بالقاهرة بالإضافة إلى عضويته بالعديد من المجامع العلمية وغيرها من الهيئات الثقافية بالخارج ولقد كرمته الدولة فمنحته جائزتها التقديرية في الآداب مرتين ومنحته بعض الجامعات الأوروبية الدكتوراه الفخرية[1].

وفاة طه حسين:

وفي الثامن والعشرين من أكتوبر سنة ١٩٧٣م توفي طه حسين في فيلا رامتان بالهرم وخرجت الجنازة الرسمية والشعبية من جامعة القاهرة في ٣١ أكتوبر، وفي ديسمبر من نفس العام تسلمت أسرته جائزة الأمم المتحدة لإنجازه في ميدان الحقوق الإنسانية[2].

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

(١) د. عبد العزيز شرف: طه حسين وزوال المجتمع التقليدي، ص٥٨ وما بعدها.

(٢) مجلة القاهرة: بيبلوغرافيا طه حسين، عدد ١٣٢، ص١٢١.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الفصل الثاني

طه حسين وعلاقته بالفكر الاستشراقي

ويشتمل على تمهيد وأربعة مباحث:

التمهيد.

المبحث الأول: تعريف الفكر الاستشراقي في اللغة والاصطلاح.

المبحث الثاني: تاريخ الاستشراق وغاياته وأهدافه.

المبحث الثالث: قنوات اتصال الدكتور طه حسين بالفكر الاستشراقي.

١ ـ الاتصال الدراسي:

أ ـ في مصر.

ب ـ في فرنسا.

٢ ـ الاتصال في مرحلة العطاء:

أ ـ العمل الجامعي.

ب ـ الزيارات المنزلية (الصداقة الشخصية).

جـ ـ حضور المؤتمرات الاستشراقية.

د ـ الأعمال المؤسسية (اليونسكو).

هـ ـ المراسلة.

المبحث الرابع: اهتمام المستشرقين بأدب طه حسين.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

طه حسين وعلاقته بالفكر الاستشراقي

تمهيد

اهتم الغرب بالشرق منذ أمد بعيد؛ وكان الاهتمام الثقافي أو العلمي أحد جوانب الاهتمام، فتعلم الكثير من أبناء الغرب لغات الشرق واستظهروها حتى وصل الأمر ببعضهم إلى وضع المعاجم في تلك اللغات، ودرسوا الآداب والعلوم والفنون وكذلك التاريخ المتعلق بهذا الجزء من الأرض، وقد كان للإسلام حظ كبير من العناية والدرس، فدرس المستشرقون العقيدة الإسلامية وما يتعلق بها ولعل أكثر القضايا اهتمامًا كان موضوع القدر وما يتعلق بفعل العبد من ناحية الجبر والاختيار، ودرسوا القرآن الكريم وما يتعلق به من قضايا، ودرسوا سيرة النبي وما يتعلق بها والحديث الشريف وكتبه واهتم بعضهم بفهرسة الكتب وترتيبها ووضع المعاجم والمفاتيح التي تسهل التعامل مع تلك الكتب، وكذلك كانت لهم دراسات كثيرة في قضايا الشرع وما يتعلق به من تاريخ التشريع، والفقه الإسلامي، وتاريخ المذاهب الإسلامية، وكذلك قضايا الفلسفة والتصوف وبحثوا في تاريخ الإسلام والفتوحات وعنوا بدراسة الأنساب والسلالات، وعلى الرغم مما شاب هذه الدراسات من تحكيم الهوى في بعض الأحيان أو التأثر

بعقائدهم والتعصب لها عند الحديث عن عقائد الآخرين في أحيان أخرى، على الرغم من ذلك كله (فإن المنصف من الباحثين لا يستطيع أن يجحد جهود المستشرقين ولا يمكن أن ينكر تمامًا فضلهم، ولا يجوز لنا أيضًا أن نستغني على وجه الإطلاق عن دراسات المستشرقين في أبحاثهم، بل من واجبنا الاطلاع على وجهات النظر الغربية في موضوعات تاريخنا العربي والإسلامي وإن القارئ المثقف والمطلع الفطن والباحث المتخصص يستطيع أن يقوّم أبحاث المستشرقين تقييمًا صادقًا يمكنه أن يميز بين الغث والسمين، وبين وجوه الإنصاف والإجحاف)[1].

ولقد اتصل المثقفون في العالم العربي والإسلامي بالمستشرقين اتصالاً مباشرًا عن طريق البعثات التعليمية في الجامعات الأوروبية فتعلم طلابنا عليهم وأخذوا بمنهجهم ونشروا المنتقى من أعمالهم، ونقلوا عنهم إلى العربية المئات من مصنفاتهم في الدين والعلم والأدب والفن.

وعرف المستشرقون طريقهم إلى بلاد الشرق، عن طريق الرحلات إلى بلاد الشرق، ومنهم من اتخذ الخداع سبيلاً إلى الولوج إلى الديار المقدسة فادعى الإسلام وتسمى بأسماء المسلمين حتى يسهل له الحركة في ديار الإسلام بيسر وطمأنينة[2].

ولقد استعانت كثير من المؤسسات الرسمية في عالمنا العربي

---

(١) نجيب العقيقي: المستشرقون، دار المعارف، ط٤ ب. ت، ٣/٦١٤، ٦١٥.

(٢) انظر: رحلات فارتيما (الحاج يونس المصري) ترجمة وتعليق د. عبد الرحمن الشيخ. الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة الألف كتاب الثاني عدد ١٣٤ سنة ١٩٩٤، رحلة بيروتون إلى مصر والحجاز، ت. د. عبد الرحمن الشيخ، الهيئة المصرية العامة للكتاب سلسلة الألف كتاب الثاني عدد ١٧٧ سنة ١٩٩٥م ١/٣.

والإسلامي بالمستشرقين، (فاستعانت دار الكتب المصرية ببعضهم في مكتباتها وعمل الفرنسيون في المتحف المصري منذ إنشائه حتى عام ١٩٥٣، وعمل فييت[١]، في دار الآثار العربية وفي معاهدها، وكذلك عمل الإيطاليون والفرنسيون والبلجيكيون والإسبان والألمان والإنجليز وسواهم في الجامعة المصرية ثم في غيرها وفي مجامعها حتى كان هناك خمسة أعضاء في المجمع اللغوي بمصر عند تأسيسه، وكثير في المجمع العربي بدمشق)[٢].

وإذا كنا نبحث عن علاقة طه حسين ـ كمفكر عربي مسلم له حضور كبير في الثقافة العربية ـ بالمستشرقين فذلك لأن طه اختلط بالمستشرقين في مراحل حياته المختلفة، تتلمذ عليهم في الجامعة المصرية واستفاد من مراجعهم في بحثه عن أبي العلاء المعري وكانت له بهم صلات شخصية على نحو ما ذكر في «الأيام»، وتتلمذ عليهم في رحلته إلى فرنسا وخالطهم واختلط بهم في مرحلة العطاء حين عمل بالتدريس في الجامعة المصرية وحين أوفدته الحكومة المصرية ممثلاً لمصر في مؤتمراتهم، ولارتباطه ببعضهم أو بالكثير منهم بصداقة شخصية.

وبالإضافة إلى ما ذكر فالدكتور طه حسين يعد من النفر القلائل الذين (يعترفون بأثر المستشرقين في تكوينهم المعرفي أسلوبًا ومادة إذ يعمد الكثير من المفكرين إلى ستر الصلة أو الأثر أو السبب الذي

---

(١) فييت جاستون (١٨٨٧ ـ١٩٧١م) مستشرق فرنسي، جاء إلى مصر، فانضم إلى المعهد الفرنسي للآثار الشرقية (١٩٠٩ ـ ١٩١١) وألقى محاضرات في الجامعة المصرية في الأدب العربي سنة ١٩١٢م، المستشرقون ٢٧٦/١.

(٢) نجيب العقيقي: المستشرقون ٦٢٥/٣.

يربطهم في تكوينهم بطائفة المستشرقين)[1].

لقد كانت سعادته غامرة؛ لأن أبحاثه الشخصية تصل به إلى نتائج كبار المستشرقين، ولذا كان يتعمد ألا يقرأ أبحاثهم إلا بعد إتمام أبحاثه لكي يكون على علم بها فقط[2].

وإذا كان الدكتور يعترف بأثر المستشرقين في تكوينه فلم يكن هذا الاعتراف (غير تأكيد على ثقة طه حسين بنفسه وبقدرته على تجاوز هذا التأثير، بمعنى الإفادة منه دون التبعية الكلية أو المطلقة)[3].

فهو الذي يصرح أنه استفاد كثيرًا بمناهج المستشرقين لا بآرائهم. هذه الاستفادة التي (مكنته من استكشاف الكثير من الأخطاء التي وقعوا فيها لجهلهم بالعربية وأسرارها ودقائقها أو لغير ذلك من الأسباب)[4].

وإذا كان الفكر العربي لم يمتحن نفسه ولم يعرف مدى إفادته من أفكار الآخرين وبضمنها أفكار المستشرقين، فإن تلك المساحة، أو هذه الزاوية تحتاج إلى دراسة عميقة هادئة نستطيع من خلالها أن ندرك إيجابيات الاتصال الفكري بين المفكرين العرب والمستشرقين، وكذلك سلبياته، وكيفية الإفادة من تلك الإيجابيات، ثم كيفية معالجة السلبيات أو تلافيها. وهذا البحث في الحقيقة هو امتحان لأفكار طه حسين فيما يتعلق بالإسلام من مباحث ـ شملت العقيدة والقرآن والسيرة والسُّنَّة والفكر الإسلامي والتاريخ الإسلامي وقضايا الحضارات ـ لمعرفة مدى قربها أو بعدها أو اتصالها أو انقطاعها عن التفكير السائد لدى جمهور المسلمين.

---

(١) د. محسن جاسم الموسوي: الاستشراق في الفكر العربي، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٧، ص٨٩.

(٢) سوزان طه حسين: معك، دار المعارف ط٢، ب. ت، ص٧٦.

(٣) د. محسن جاسم الموسوي: الاستشراق في الفكر العربي، ص٨٩.

(٤) فؤاد دوارة: عشرة أدباء يتحدثون، ص٢٠.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

المبحث الأول

الفكر الاستشراقي

التمهيد:

من البديهيات في البحث أن يقف الباحث من المصطلحات بالتعريف والإيضاح حتى يكون السير على بصيرة ورشد.

ونظرًا لأن مصطلح «الفكر الاستشراقي» مركب إضافي فيحسن بنا أن نقف مع لفظيه كلًّا على حدة نوضح معناه وما يرمي إليه ثم نوضح المقصود به جملة واحدة على وجه التركيب.

معنى الفكر في اللغة:

تدور معاني مادة (ف ك ر) على النحو التالي:

(فكَّر) في الأمر: أعمل العقل فيه، ورتب بعض ما يعلم ليصل به إلى مجهول و ـ فلان بالأمر أخطره بباله (افتكر) تذكر و ـ في الأمر: أعمل عقله فيه، (وتفكَّر) في الأمر: افتكر، (التفكير): إعمال العقل في مشكلة للتوصل إلى حلها.

(الفِكْرُ): جملة النشاط الذهني و ـ (بوجه خاص) أسمى صور العمل الذهني بما فيه من تحليل وتركيب، وتنسيق، وجمعه أفكار.

(والفِكْرَةُ) الصورة الذهنية لأمر ما، وجمعها فِكَر[1].

وقال صاحب «المصباح المنير»[2]:

الفِكْرُ بالكسر تردد القلب بالنظر والتدبر لطلب المعاني، ولي في الأمر فكر، أي: نظر وروية، ويجمع على فِكَر.

ويقال: الفكر ترتيب أمور في الذهن يتوصل بها إلى مطلوب يكون علمًا أو ظنًا.

(ويقول: «الراغب»[3] في «المفردات»:

الفكر: قوة التوصل إلى المعلومات، والتفكر جولان تلك القوة بحسب نظرة العقل.

ويقول: «الجرجاني»[4] في التعريفات[5]:

---

(١) مجمع اللغة العربية: المعجم الوجيز، ص٤٧٧، محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري: لسان العرب، دار صادر ـ بيروت ط١، ٦٥/٥، محمد بن يعقوب الفيروزآبادي: ت: على محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العلمية بيروت ط٢ سنة ١٣٩٩هـ، ٥٨٨/١.

(٢) أحمد بن علي المقري الفيومي: المصباح المنير: ت: علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العلمية بيروت ط٢ سنة ١٣٩٩هـ، ٤٧٩/٢.

(٣) «الراغب الأصفهاني» أبو القاسم الحسين بن محمد بن المفضل (وفي بعض الروايات: الفضل) فقيه عربي كتب في المسائل الدينية، أشهر آثاره: كتابه مفردات ألفاظ القرآن، توفي سنة ٥٠هـ تقريبًا. دائرة المعارف الإسلامية ٤٧٣/٧.

(٤) الجرجاني: علي بن محمد الشريف، متكلم عربي وفيلسوف ولد عام ٧٤٠هـ في تاجو قرب أستراباذ، درس علوم العربية والفلسفة وأصول الفقه في شيراز ومات بها سنة ٨١٦هـ، له آثار كثيرة أبرزها: التعريفات، وشروح على الكشاف للزمخشري وغيرها. دائرة المعارف الإسلامية ٣٣٣/٦.

(٥) علي بن محمد علي الجرجاني: التعريفات. ت: إبراهيم الإبياري، دار الكتاب العربي ـ بيروت ط١، سنة ١٤٠٥هـ، ٢١٧/١.

الفكر ترتيب أمور معلومة للتأدي إلى المجهول.

وقيل: الفِكْرُ مقلوب عن الفرك لكن يستعمل الفكر في المعاني وهي فرك الأمور وبحثها طلبًا للوصول إلى حقيقتها)[1].

(فالفكر يتضمن محاولة تحليلية للتوصل إلى المبادئ أو العناصر الأساسية لموضوعه، ومحاولة تركيبية إبداعية وهي البحث عن المطالب المجهولة أو حلول المشكلات التي يتصدى لها الفكر... ولتأكيد الجانب التحليلي في الفكر يحكي الراغب عن بعض الأدباء: الفكر مقلوب عن الفرك لكن يستعمل الفكر في المعاني، وهو فرك الأمور وبحثها طلبًا للوصول إلى حقيقتها.

وقريب من هذا قول «ابن رشد»[2]:

من لم يعرف العُقَدْ لم يعرف الحل، وقد ورد في الآثار: «حسن السؤال نصف العلم».

وخلاصة القول: إن الفكر حركة عقلية تثيرها مشكلة أو مشكلات معينة، تنطلق مستهدية بمبادئ أو حدود مقبولة لدى المفكر والبيئة التي توجه إليها بالخطاب، بغية الوصول إلى حل أو حلول لتلك المشكلات.

فلا بد في الفكر من مشكلة أو سؤال يطرح على العقل ولا بد

---

(١) محمد عبد الرؤوف المناوي: التوقيف على مهمات التعاريف: ت: د. محمد رضوان الداية، دار الفكر المعاصر بيروت، دمشق ط١، سنة ١٤١٠، ٥٦٣/١.

(٢) ابن رشد: هو أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن رشد. ولد بقرطبة سنة ٥٢٠هـ درس الفقه والطب والفلسفة وولي القضاء بقرطبة وأشبيلية وله مؤلفات كثيرة أشهرها: تهافت التهافت وهو رد على كتاب الغزالي المشهور تهافت الفلاسفة توفي سنة ٥٩٥هـ. راجع: دائرة المعارف الإسلامية ١١٦/١، ١١٧.

فيه من منهج أو طريقة ما للتحليل والتركيب، وهو عادة لا يخلو من مرجعية أو معيار ما يتعارف عليه في البيئة العقلية للخطأ والصواب أو المقبول وغير المقبول)[1].

* معنى الاستشراق في اللغة:

لفظ الاستشراق في اللغة العربية مشتق من المصدر اللغوي «شرق» وذلك بعد تجريدها من أحرف الزيادة ـ الألف والسين والتاء ـ كما نجد أن هذه الأحرف الثلاثة عندما تدخل على الكلمة فإنها تدل على طلب الشيء، كأن أقول: «استسقى»، أي: طلب السقيا، وبذا فعندما أقول: «استشرق» فإنها تعني طلب الشرق بما فيه من علوم وثقافات وعادات وتقاليد.

والبحث في معاجم اللغة عن كلمة «شرق» يدل على أن: «شرقت الشمس» إذا طلعت، وأشرقت إذا أضاءت، والتشريق أي: الأخذ من ناحية الشرق قال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾﴾[2]، أي: مصبحين، ويقال: شتان بين مُشَرِّق ومغَرِّبِ، ويسمى أهل الشرق مشارقة وواحدهم مشرقي[3].

---

(١) د. حسن عبد اللطيف الشافعي: تجديد الفكر الإسلامي، مجلة الرسالة، مركز الإعلام العربي بالقاهرة، العدد الأول، رمضان سنة ١٤٢٢، ديسمبر سنة ٢٠٠١، ص٥١.

(٢) سورة الحجر، الآية: ٧٣.

(٣) انظر: محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي: مختار الصحاح. دار الجيل بيروت. ب. ت، ص٣٣٦، مجمع اللغة العربية: المعجم الوجيز، ص٣٤١، جار الله أبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري: أساس البلاغة، الهيئة المصرية العامة للكتاب. ط٣ سنة ١٩٨٥، ٤٨٨/١، محمد بن أحمد الأزهري: تهذيب اللغة: ت: عبد السلام محمد هارون، القاهرة الدار المصرية للتأليف سنة=

الاستشراق في الاصطلاح:

فلفظ الاستشراق من الألفاظ الحديثة التي ترجع في معناها إلى المعنى اللغوي.

فالاستشراق: هو علم الشرق أو علم العالم الشرقي، وكلمة مستشرق بالمعنى العام تطلق على كل عالم غربي يشتغل بدراسة الشرق كله: أقصاه ووسطه وأدناه، في لغاته وآدابه وحضارته وأديانه[1].

فإذا جمعنا شقي المصطلح جنبًا إلى جنب «الفكر الاستشراقي» فالمراد به الأفكار والمبادئ التي يتناولها أناس من أهل الغرب في دراستهم للشرق بكافة جوانبه واتجاهاته ومناهج وطرق ذلك التناول.

= ١٩٨٧، ص٣١٧ ـ ٣١٩، أحمد رضا، معجم متن اللغة، بيروت دار مكتبة الحياة سنة ١٣٧٧هـ، ٣/٣١١.

(١) د. محمود حمدي زقزوق: الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري سلسلة كتاب الأمة عدد صفر الخير سنة ١٤٠٤، ص١٨.

وانظر:

ـ المستشار محمد عزت الطهطاوي: التبشير والاستشراق أحقاد وحملات، طبعة مجمع البحوث الإسلامية سنة ١٣٩٧هـ/١٩٧٧ م، ص٣٥.

ـ د. علي محمد عبد الوهاب: بين الإسلام والغرب ضراوة أحقاد ومرارة حصاد، ص١٩٧.

ـ أنور الجندي: موسوعة مقدمات العلوم والمناهج ـ التبشير والاستشراق والدعوات الهدامة ـ دار الأنصار، القاهرة ب. ت، ٥/٧٤.

ـ محمود محمد شاكر: رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، كتاب الهلال عدد أكتوبر سنة ١٩٨٧، ص٧٣ وما بعدها.

ـ نايف بن ثنيان آل سعود: المستشرقون وتوجيه السياسة التعليمية في العالم العربي، دار أمية للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية ط١، سنة ١٤١٤هـ، ص١٦.

أو بمعنى أدق صورة الشرق لغته وآدابه وحضارته في أذهان أهل الغرب ممن عنوا بدراسته.

ولقد كتب في تاريخ الاستشراق وأهدافه كثير من الدراسات السابقة مما يجعل الحديث عن نشأة الاستشراق وأهدافه ومجالات البحث عند المستشرقين وغيرها من المباحث معادًا مكرورًا، لذا فقد رأيت الإشارة بكلمات سريعات إلى تاريخ الاستشراق وغاياته، معرضًا عما سوى ذلك من المباحث المتعلقة بتاريخية الاستشراق لتوافر الدراسات السابقة عليها، والله المستعان.

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

المبحث الثاني

تاريخ الاستشراق وغاياته وأهدافه

تاريخ الاستشراق:

ليس من السهل القطع بتاريخ محدد لبداية الاستشراق نظرًا لاختلاف الآراء والأقوال حول تلك البداية لدى علماء الشرق والغرب بعامة.

(فمن العلماء من أرجع نشأته إلى القرن العاشر، أو القرن الثالث عشر، أو القرن الحادي عشر، بل إن من الآراء من رجعوا ببدايته إلى القرن الثامن الميلادي)[1].

ويرجعه البعض إلى (بدايات الدعوة الإسلامية في المدينة واحتكاك الإسلام بأتباع الديانتين السابقتين اليهودية والنصرانية)[2].

مع أن الاستشراق لم يأخذ الواقع المنظم الذي تقوم به مدارس

---

(١) د. علي محمد عبد الوهاب: بين الإسلام والغرب، ص١٩٨.

(٢) د. أحمد شلبي: الاستشراق تاريخه وأهدافه ـ مكتبة النهضة المصرية ١٩٩٦م، ص١٥.

تعمل على تحقيق أهداف وأغراض في بلدان مختلفة إلا في القرن الثامن عشر (فقد ظهر أولاً في إنجلترا عام ١٧٧٩م، وفي فرنسا عام ١٧٩٩)[١].

غايات الاستشراق:

يرى الباحثون في هذا الشأن أن غايات المستشرقين من البحث في أمور الشرق إنما ترجع في مجموعها إلى غايتين اثنتين هما:

[**أولاً**: حماية الإنسان الغربي من أن يرى نور الإسلام فيؤمن به، ويحمل رايته، ويجاهد في سبيله، كما كان من المسيحيين في الشام ومصر والشمال الأفريقي وإسبانيا من قبل حين دخل الإسلام هذه الأصقاع فدخل أهلها في دين الله أفواجًا وصاروا من دعاة هذا الدين الحنيف وحماته والمنافحين عنه][٢].

وهذه الغاية دفعهم إليها الصراع الطويل بين المسيحية والإسلام، منذ هزمت المسيحية في أرض الشام، ودخل كثير من أهلها في الإسلام، مرورًا بموجات الاحتكاك الصليبي المسلح المتمثل في الحملات الصليبية على ديارًا الإسلام، وذهاب ريحها واندحار كيدها، بدا للقائمين على أمر الصراع وسدنته من الجانب المسيحي استبدال الصراع المسلح بصراع يعتمد على الفكر والثقافة فكتبوا وصنفوا لهدف كبير هو [تصوير الثقافة العربية والإسلامية وحضارة العرب والمسلمين

---

(١) د. محمود حمدي زقزوق: الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، ص٢٠.

(٢) د. عبد العظيم الديب: المنهج عند المستشرقين ـ مجلة رسالة الجهاد ـ ليبيا العدد ٩٥ جمادى الثانية سنة ١٤٠٠، ص٨٤.

بصورة مقنعة للقارئ الأوروبي، وبأسلوب يدله على أن كاتبها قد خبر ودرس وعرف وبذل كل جهد في الاستقصاء وعلى منهج علمي مألوف لكل مثقف أوروبي... كان جوهر هذه الصورة أن هؤلاء العرب المسلمين هم في الأصل قوم بداة، جهال لا علم لهم كان، جياع في صحراء مجدبة، جاءهم رجل من أنفسهم فادعى أنه نبي مرسل ولفق لهم دينًا من اليهودية والنصرانية، فصدقوه بجهلهم واتبعوه ولم يلبث هؤلاء الجياع أن عاثوا بدينهم هذا في الأرض يفتحونها بسيوفهم، حتى كان ما كان، ودان لهم من غوغاء الأمم من دان، وقامت لهم في الأرض بعد قليل ثقافة وحضارة جلها مسلوب من ثقافات الأمم السالفة... ثم كان من تصاريف الأقدار أن يكون علماء هذه الأمة العربية من غير أبناء العرب (الموالي) وأن هؤلاء هم الذين جعلوا لهذه الحضارة الإسلامية معنى][1].

ثانيًا: الغاية المعرفية: وأعني بها [معرفة الشرق ودراسته، أرضه ومياهه، وطقسه وجباله وأنهاره وزروعه وثماره، وأهله ورجاله وعلمه وعلماءه، ودينه وعقائده وتقاليده ولغاته... و... ذلك لكي يعرف كيف يصل إليه][2].

فالمعرفة هادفة إلى التمهيد للاستعمار العسكري لبسط النفوذ وأخذ الثروات، وليس يغيب عن الأذهان تأثير الدافع الديني في ذلك كله إذ هو المحرك والباعث كما أسلفنا في الغاية الأولى[3].

---

(١) محمود محمد شاكر: رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، ص٨٩ ـ ٩٠ بتصرف.

(٢) د. عبد العظيم الديب: المنهج عند المستشرقين، ص٨٤.

(٣) د. عبدالله سمك: الاستشراق بين الجحود والإنصاف ـ طبعة ١٤١٢هـ، ص٥٩: ١٩٩، ود. علي عبد الوهاب: بين الإسلام والغرب، ص٢١٤ ـ ٢٢٢، د. محمود زقزوق: الاستشراق والخلفية الفكرية، ص٧٠، ٧٤.

وجل العلماء مجمعون على أن لحركة الاستشراق دوافع تحركها تتخلص في هذه المحاور:

١ ـ [**الدافع الديني**: ويتمثل في إضعاف الإسلام ومثله وقيمه العليا وإثبات تفوق المثل الغربية ذات الأصول اليهودية أو المسيحية.

٢ـ الدافع الاستعماري: وهدفه دعم الاستعمار الغربي لبلاد الشرق بإمداده بالمعلومات، وتهيئة البيئة الشرقية لقبول المستعمر والرضا به.

٣ ـ الدافع الاقتصادي: وهدفه الاستيلاء على ثروات البلاد الشرقية وضرب صناعتها وتحويلها إلى سوق استهلاكية للمنتج الغربي.

٤ ـ الدافع العلمي: وهدفه فتح ميادين للعمل أمام الشباب الأوروبي][1]. ثم الاطلاع على حضارات الأمم وأديانها وثقافاتها ولغاتها، ولعل هذا الدافع الأخير كان محركًا لكثير من المستشرقين في القيام بأعمالهم [في دراسة موضوع الشرقيات والإسلاميات بدون تأثير عوامل سياسية أو اقتصادية أو دينية، بل لمجرد ذوقهم وشغفهم بالعلم وبذلوا فيه جهودًا ضخمة ويكون من المكابرة والتقصير أن لا ينطلق اللسان بمدحها والثناء عليها وبفضل جهودهم برز كثير من نوادر العلم والمعرفة التي لم تر ضوء الشمس منذ قرون إلى النشر والإذاعة، وأصبحت مصونة من الورثة الجاهلين وعاهة الأرضة، وكم من مصادر علمية ووثائق تاريخية لها مكانتها وقيمتها صدرت لأول مرة بفضل جهودهم وهمتهم وقرت بها عيون العلماء في الشرق][2].

---

(١) د. محمد عبد المنعم خفاجي: حركة الاستشراق، مجلة المنهل (السعودية) العدد ٤٧١ المجلد ٥٠، رمضان سنة ١٤٠٩هـ، أبريل ١٩٨٩، ص١٩٩.

(٢) أبو الحسن الندوي: الإسلاميات بين كتابات المستشرقين والباحثين المسلمين، مؤسسة الرسالة بيروت، ط٣ سنة ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م، ص١٣.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

المبحث الثالث

قنوات اتصال الدكتور طه حسين بالفكر الاستشراقي

اتصل الدكتور طه حسين بالاستشراق عندما التحق بالجامعة المصرية القديمة في أول نشأتها سنة ١٩٠٨م، وظل هذا الاتصال قائمًا حتى لقي الدكتور ربه في ٢٨ أكتوبر سنة ١٩٧٣م، ولقد أخذ هذا الاتصال أشكالاً وأساليب مختلفة نعرض لها فيما يلي بإذن الله:

الاتصال الدراسي:

أ: في مصر:

بدأ هذا الاتصال في الجامعة المصرية القديمة، إذ كانت الجامعة قد استقدمت عددًا من المستشرقين للتدريس بها، فما إن اختلف طه حسين إلى دروس الجامعة واستمع لهؤلاء الأساتذة من المستشرقين (حتى ملكوا عليه أمره واستأثروا بهواه... واتصل طه بأساتذته أولئك اتصالاً متينًا فكلهم قد عرفه، وكلهم قد آثره بالحب والرفق والعطف، وكلهم قد أدناه من نفسه ودعاه إلى أن يزوره في فندقه، وأحب أن

يقول له ويسمع منه)[1].

ولقد بلغ الاتصال بطه مبلغه، إذ وصل إلى درجة المصاحبة كما حكى عن مصاحبة سنتلانا له ومشاركته له في ذهابه إلى الأزهر واستماعه لطه وهو يحاور أساتذته من علماء الأزهر... فإذا لج طه في المحاورة وعنفه العلماء على لجاجته ترفق به صاحبه المستشرق وأشفق عليه ورجاه أن يسكت[2].

[ولقد درس طه بالجامعة المصرية على عدد من المستشرقين منهم: كارلو نللينو المستشرق الإيطالي الذي كان يدرّس باللغة العربية تاريخ الأدب والشعر الأموي، وهذا الأستاذ سنتلانا يدرس بالعربية أيضًا وفي لهجة تونسية عذبة، تاريخ الفلسفة الإسلامية وتاريخ الترجمة خاصة، وهذا الأستاذ ميلوني يدرس باللغة العربية كذلك تاريخ الشرق القديم ويتحدث إلى الطلاب عن أشياء لم يتحدث عنها أستاذ قبله في مصر فهو يفصّل تاريخ بابل وآشور[3]، ويذكر الكتابة المسمارية[4]، ويتحدث عن قوانين حامورابي[5]، والفتى ـ طه ـ يفهم عن هؤلاء

---

(١) طه حسين: الأيام ٣/٣٤، ٣٥ بتصرف.

(٢) السابق نفسه، ص٣٥.

(٣) بابل وآشور: حضارتان ازدهرتا في سهول دجلة والفرات ويطلق عليهما مجتمعتين بلاد ما بين النهرين. راجع: ل. ديلابورت: بلاد ما بين النهرين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ترجمة محرم كمال، سلسلة الألف كتاب الثاني ٢٨٣ طبعة ١٩٩٧، ص٧.

(٤) الكتابة المسمارية: تطلق على حل رموز الكتابات البابلية والآشورية وسميت بهذا الاسم لأن كل علاقة منها تشبه المسمار. راجع: ل. ديلابورت: السابق، ص٨.

(٥) قوانين حامورابي: تطلق على أثر يعود تاريخه إلى سنة ٢٠٨٣ ق.م وبه مائتين وخمسين مادة من القانون، وهو ليس قانونًا بالمعنى المعروف وإنما هو مجموعة من القرارات الملكية. المرجع السابق، ص٩٥.

الأساتذة كل ما يقولون، ولا يجد في فهمه التواء أو عسرًا وهو لا يكره شيئًا كما يكره انتهاء الدروس، ولا يتشوق إلى شيء كما يتشوق إلى ما سيستقبل منها. . . وهذا أستاذ ألماني هو الأستاذ ليتمان[1] قد أقبل يتحدث إلى الطلاب عن اللغات السامية والمقارنة بينها وبين اللغة العربية ثم يأخذ في تعليمهم بعض هذه اللغات][2].

ولقد امتدت صلته ببعض هؤلاء الأساتذة في مرحلة العطاء وكانت صلته بهم أكبر من صلة الأستاذ بتلميذه. . فعلى سبيل المثال يلتقي بالمستشرق إينو ليتمان مرات كثيرة في مواطن مختلفة، وكانت سعادة ليتمان بلقاء طه تفوق سعادة طه بذلك ويذكر طه لقاءين التقى فيهما ليتمان وكانت حرارة اللقاء شديدة [أحدهما: في ليدن بهولندا عندما سمع (ليتمان) تلميذه الفتى (طه) يلقي بحثه في مؤتمر المستشرقين فلم يملك دموعه التي أخذت تفيض على وجهه بين الزملاء، والآخر: في كلية الآداب بجامعة القاهرة عندما شارك تلميذه في امتحان السيدة سهير القلماوي لدرجة الماجستير، وأعلن مفاخرًا بعد فوزها بالدرجة أنه مغتبط سعيد، لأنه يشارك في تخرج هذه الفتاة التي يعدها حفيدته، لأنها ابنة تلميذه ذاك الفتى، وما أكثر ما تحدث بعد ذلك بأنه جد في علم له ابن وله حفدة][3].

---

(١) إينو ليتمان: (١٨٧٥ ـ ١٩٥٨م) درس في ألمانيا خاصة على نولدكه، له اهتمام كبير بالآثار، درّس بالجامعة المصرية عند إنشائها، وانتخب عضوًا بالمجمع اللغوي بمصر، وشارك في تحرير دائرة المعارف الإسلامية، راجع د. أحمد محمود هويدي: الاستشراق الألماني، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م، ص١٠.

(٢) طه حسين: الأيام ٣/٣٤.

(٣) طه حسين: الأيام ٣/٥٥.

وتصوّر زوجة طه طبيعة اللقاء الأول والمشاعر الفياضة التي مثلته بقولها: «كان طه سعيدًا في ليدن لاجتماعه بليتمان أستاذه القديم، وكان ليتمان يشعر نحوه بود عظيم، ولا أدري أيهما كان أشد انفعالاً من الآخر لرؤية صاحبه ذلك الصباح، لكن أعرف أن ليتمان بكى وهو يعانق تلميذه»[1].

ولقد أبان طه عن عظيم تأثره بالمستشرقين في تلك المرحلة في كتاباته المختلفة، وأنه استفاد منهم أعظم الاستفادة لا سيما وهو يعد رسالته الجامعية عن أبي العلاء والتي طبعها فيما بعد تحت عنوان «تجديد ذكرى أبي العلاء» ففي مقدمة هذه الرسالة يشيد بما أخذ عن المستشرقين من علم بقوله:

(أنشئ قسم الأدب في الجامعة، ودعي إليها جلة الأساتذة من المستشرقين في إيطاليا وفرنسا وألمانيا، وانتسبت لهذا القسم، وأخذت أسمع الدروس فيه، فإذا ألوان من الدروس لم أعرفها من قبل، وإذا فنون من النقد لم يكن لي بها عهد)[2].

ويكون للمصادر الأجنبية الحظ الأكبر في رسالته ـ الإنجليزية والفرنسية ـ المقروءة منها والمسموعة، فمن أهم المصادر المقروءة التي استفاد منها: دائرة المعارف الإسلامية[3]، ومن المسموعة: محاضرات

---

(١) سوزان طه حسين: معك، ص٩٢.

(٢) طه حسين: تجديد ذكرى أبي العلاء، المجموعة الكاملة، الشركة العالمية للكتاب بيروت ـ ط١٩٨٣/٢، ١١/١٠.

(٣) مؤلف وضعه المستشرقون باللغات الثلاث: الألمانية والفرنسية والإنجليزية وشارك في إعداده مستشرقون من جنسيات مختلفة، وبذلوا فيه جهدًا كبيرًا، إلا أنه حوى كثيرًا من الأغاليط، نبه المعربون على بعضها... المستشرقون ٣٧٠/٣ وما بعدها.

الأستاذ سنتلانا التي ألقاها بالجامعة المصرية[1].

ومما وثق صلة طه حسين بالمستشرقين في هذه الفترة تعلمه اللغة الفرنسية إذا كان من الضروري لمتابعة الدراسة بالجامعة من إتقان لغة من اللغتين الإنجليزية أو الفرنسية فاختار طه حسين اللغة الفرنسية، (وبهذه اللغة بدأت صلته بالثقافة الفرنسية وربما كان الذي وجهه لدراسة الفرنسية دون الإنجليزية أن البلاد كانت محتلة احتلالاً إنجليزيًا مما جعل الإنجليزية بغيضة ثقيلة لدى جمهرة المثقفين الوطنيين في ذلك الوقت يضاف إلى ذلك أن زعماء الحركة الوطنية آنذاك كانوا ممن تعلموا بفرنسا وأتقنوا الفرنسية)[2].

ب: الاتصال الدراسي في فرنسا:

في شهر مايو سنة ١٩١٤ ركب طه حسين البحر في طريقه إلى فرنسا، وما كاد يصل إلى مرسيليا حتى أخذ طريقه إلى مونبلييه لدراسة العلوم التاريخية[3] (. . . ويذهب إلى الجامعة فيسمع فيها ما شاء الله أن يسمع من دروس الأدب والتاريخ واللغة الفرنسية، لا يسمع درسًا إلا أحس أنه قد علم ما لم يكن يعلم، وأضاف إلى علمه القديم علمًا جديدًا، وهو على قلة حظه من إحسان اللغة الفرنسية لم يكن يجد كثيرًا من المشقة، ولا يبذل كثيرًا من الجهد، ليفهم ما كان الأساتذة يلقون من الدروس فهمًا يغنيه ويرضيه)[4].

---

(١) طه حسين: تجديد ذكرى أبي العلاء ٣٥/١٠.

(٢) د. كمال حامد مغيث: طه حسين مصادره الفكرية. . ./ مركز الدراسات والمعلومات القانونية لحقوق الإنسان ـ مصر ـ ط١ سنة ١٩٩٧م.

(٣) سامي الكيالي: مع طه حسين، ص٢٤.

(٤) طه حسين: الأيام ٨٠/٣.

ويقص طه صلاته العلمية بفرنسا في عبارات موجزة تصور محاور تلك الصلة بقوله: (وأول ما وصلنا (باريس) نزلنا في تريانون بالاس أوتيل في أول شارع فواجيرار، ومكثنا بضعة أيام، وبعد ذلك سكنت عند عائلة تقطن الطابق السادس.. وفي تلك العائلة فتاة تدرس بمدرسة المعلمات بسيفر فساعدتني كسكرتيرة، والفضل لها في أنه أمكنني أن أدرس اللاتينية، كما درستها مع شارل بران الصحفي المشهور والأستاذ بمدرسة لوكراند، وفي عامين درست اللاتينية، وبذلك أتممت ما يقضيه الشاب الفرنسي في ست سنوات بين ثانوية وعالية...

كانت حياتي بباريس مقسمة بين ثلاث معاهد أو أربعة:

السوربون: وفيها كنت أحضر دروس التاريخ القديم، تاريخ اليونان على جلوتز[١]، وتاريخ الرومان على بلوك[٢]، والأدب الفرنسي على لانسون[٣].. والفلسفة والاجتماع على دوركايم[٤]، وديكارت[٥] على ليفي برول[٦]، واللاتيني على مارنا[٧]، والثورة على أولار[٨]،

---

(١) جلوتز: سبق ترجمته ص٦٦.

(٢) بلوك: سبق ترجمته ص٦٧.

(٣) جوستاف لانسون: من أهم آثاره تاريخ الأدب الفرنسي ترجمه محمود قاسم، وراجعته سهير القلماوي.

(٤) سبق ترجمته، ص٦٧.

(٥) ديكارت ـ (١٥٩٦ ـ ١٦٥٠م) أشهر فيلسوف فرنسي، كان عالمًا رياضيًا حاول تطبيق المنهج الرياضي في الفلسفة، ثار على التقليد التعليمي بوضع نظرية الشك المنهجي. راجع: د. محمد الكتاني: الصراع بين القديم والجديد في الأدب العربي الحديث. دار الثقافة. المغرب ط١/١٤٠٣هـ/١٩٨٢م ٢/١٢٩١.

(٦) ليفي برول: (١٨٥٧ ـ ١٩٣٩م) فيلسوف علم الاجتماع كان أستاذًا بالسوربون منذ ١٨٩٩ من آثاره: العقلية البدائية. راجع الموسوعة العربية الميسرة ٢/١٥٩٧.

(٧) مارنا: لم أستدل على ترجمته.

(٨) أولار: ألفونس (١٨٤٩ ـ ١٩٢٨م) مؤرخ فرنسي كرس حياته لدراسة تاريخ=

والبيزنطي على شارل ديل[1]، والتاريخ الحديث على سينبوس[2]، والجغرافيا على ديمانجون وجالوا[3]...

«**والمعهد الثاني**: هو الكوليج دي فرانس وكنت أحضر فيها درس القرآن بالعربية على كازانوفا[4]، وعلم النفس على بيير جانيه[5]..».

والمعهد الثالث: مكتبة القديسة جنيفياف. [كانت تصحبني إليها الآنسة، والبيت: أعده المعهد الرابع، فقد كنا نجتمع في المساء، الآنسة وأختها وأمها وأنا، فتقرأ إحداهن رواية، أو رواية تمثيلية أو قصة أدبية فقرأنا تمثيل القرن الماضي وكثير من كتب أناتول فرانس[6] وبورجيه[7]

= الثورة الفرنسية وأنشأ مع أحد زملائه. جمعية تاريخ الثورة. راجع الموسوعة العربية الميسرة ٢٦٩/١.

(١) شارل ديل (١٨٦١ ـ ١٩٢٠م) مستشرق إنجليزي، بدأ أعماله الأدبية سنة ١٨٨٥، نشر المفضليات للضبي وله فصول في دائرة المعارف البريطانية. راجع: الزركلي، الأعلام. دار العلم للملايين بيروت، ط١٩٨٦/٧، ٨٥/٢.

(٢) سينبوس، شارل (١٨٥٤ ـ ١٩٤٢م) مؤرخ فرنسي، درس بجامعة باريس، من أشهر مؤلفاته: تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر، الموسوعة العربية الميسرة ١٠٥٩/١.

(٣) البرت ديمانجون (١٨٧٢ ـ ١٩٤٠م) درس الجغرافيا والتاريخ من آثاره اضمحلال أوروبا صدر ١٩٢٠م.
أما جالوا فلعله إيفارست جالوا (١٨١١ ـ ١٨٣٢م) عالم الرياضيات الفرنسي عاش عشرين عامًا وله إسهامات رائعة في علم الجبر. موسوعة ويكيبيديا.

(٤) كازانوفا: سبق ترجمته، ص٦٧.

(٥) بيير جانيه: (١٨٥٩ ـ ١٩٤٧م) سيكولوجي فرنسي، أنشأ مجلة علم النفس السوي والمرضي، من آثاره «العلاجات النفسية». الموسوعة العربية الميسرة ٤٥٨/١.

(٦) أناتول فرانس (١٨٤٤ ـ ١٩٢٤م) كاتب وروائي فرنسي، غلب على أدبه التهكم اللاذع، من أشهر مؤلفاته تايس، حديقة أبيقور، منح جائزة نوبل في الآداب عام ١٩٢١م. منير البعلبكي: موسوعة المورد. دار العلم للملايين بيروت، ط١ سنة ١٩٨١، ١٦٢/٤.

(٧) بول بورجيه كاتب فرنسي (١٨٥٢ ـ ١٩٣٥م) من أعماله جريمة الحب، وشيطان الظهيرة. موسوعة ويكيبيديا.

وبريفو[1] وكنا نقرؤها بانتظام بعد العشاء كل ليلة][2].

وكانت هذه الآنسة ـ زوجته فيما بعد ـ بمثابة المعلم له، فعن فضلها يتحدث طه بقوله: [كانت صديقتي أستاذًا لي، عليها تعلمت الفرنسية وفقهت ما أستطيع أن أفقهه من أدبها وعليها تعلمت اللاتينية واستطعت أن أجوز فيها امتحان الليسانس، ومعها درست اليونانية واستطعنا أن نقرأ معًا آثار أفلاطون. . .][3].

لقد كانت السنوات القلائل التي قضاها طه في فرنسا في مرحلة الطلب تمثل القاعدة الصلبة في اتصال طه بالثقافة الفرنسية والفكر الفرنسي الذي امتد بعد ذلك وصاحبه في مراحل الحياة المختلفة والذي ظهر بعد ذلك من خلال كتبه ومؤلفاته.

لقد كان طه يميل ميلاً خاصًا إلى مفكري القرن الثامن عشر في فرنسا، وأدباء الثورة الفرنسية ديدرو[4] وفولتير[5] وروسو[6]. . ويبدو أن اعترافات الثورة أثارت إعجاب طه حسين مع أمثالها في الأدب الفرنسي فكانت دافعة لكتابة الأيام ـ السيرة الذاتية لطه ـ وإن تباين الأديبان في اعترافاتهما.

---

(١) بريفو، مارسيل (١٨٦٢ ـ ١٩٤١) روائي فرنسي يغلب على آثاره الطابع السيكولوجي. منير البعلبكي. قاموس المورد، معجم الأعلام (أ).

(٢) سامي الكيالي: مع طه حسين، ص٢٤: ٢٦ بتصرف.

(٣) المرجع السابق نفسه، ص٣٢، ٣٣.

(٤) ديدور، وينس (١٧١٣ ـ ١٧٨٤م) موسوعي فرنسي وفيلسوف مادي وناقد أدبي كان هجاءً وروائيًا من آثاره خواطر فلسفية. الموسوعة العربية الميسرة ١/٨٣٠.

(٥) فولتير: سبق ترجمته، ص٥٣.

(٦) روسو، جان جاك (١٧١٢ ـ ١٧٧٨م) فيلسوف فرنسي، له أثر في مجالات الفكر المختلفة، يعد رائد الحركة الرومانسية الحديثة. الموسوعة العربية الميسرة ١/٨٩٤.

وكتب شاتوبريان[1] كتابه: عبقرية النصرانية فنسج طه على منواله «على هامش السيرة» «والوعد الحق» لا ليدافع عن الإسلام ومعتنقيه كما دافع شاتوبريان عن النصرانية بل ليجعل سيرة الرسول محمد ﷺ جزءًا من الأساطير.

وتأثر طه حسين بالمفكر الفرنسي الأديب فولتير في محاربة الأخير الكنيسة ورجالها... فهاجم طه حسين الأزهر الشريف هجومًا عنيفًا وربما نال من الإسلام نفسه في بعض الجوانب.

وتأثر طه حسين بالمفكر الفرنسي أرنست[2] رينان المولود عام ١٨٢٣ الذي كان يرفض الانضواء تحت سلك رجال الدين وفضل الحياة العامة.

وكذلك كان طه معجبًا بأفكار الفيلسوف الفرنسي «أوجست كونت»[3] [مؤسس الفلسفة الوضعية (١٧٩٨ ـ ١٨٥٧) التي تنادي بأن العلم وحده قادر على إيجاد حل لكل القضايا الاجتماعية والفلسفية][4].

---

(١) شاتو بريان، فرانسو رينيه (١٧٦٨ ـ ١٨٤٨م) كاتب فرنسي زار أمريكا وأقام بإنجلترا عينه نابليون سفيرًا لفرنسا في إيطاليا. من مؤلفاته: «الشهداء» و«مذكرات وراء القبر» الموسوعة العربية الميسرة ١٠٦٢/٢.

(٢) أرنست رينان (١٨٢٣ ـ ١٨٩٢م) مؤرخ وناقد ومستشرق فرنسي، درس بباريس، اهتم بالدين من الناحية التاريخية لا من الناحية العقائدية كتب تاريخ نشأة المسيحية. الموسوعة العربية الميسرة ٩١٣/١.

(٣) أوجست كونت (١٧٩٨ ـ ١٨٥٧م) رياضي وفيلسوف فرنسي، مؤسس الفلسفة الوضعية، هدفه الأسمى هو إصلاح المجتمع ليعيش الناس في توافق وانسجام. الموسوعة العربية الميسرة ١٥١٧/٢، المورد: ٢٠.

(٤) الأب كمال قلته: طه حسين وأثر الفرنسية في أدبه نقلاً عن د. عبد المجيد المحتسب: طه حسين مفكرًا، ص٢٠٦، ٢٠٧ بتصرف.

الاتصال بالمستشرقين في مرحلة العطاء:

أ ـ العمل الجامعي:

كانت الجامعة المصرية القديمة عند إنشائها قد استعانت ببعض المستشرقين من الألمان والإنجليز والفرنسيين للتدريس بها. وامتد تدريس أولئك بها قرابة العشر سنوات حتى نزلت بالجامعة أزمة اقتصادية تداعت إليها مما نزل بالبلاد بأسرها، فاضطرت الجامعة إلى أن تستغني بالأساتذة الوطنيين للقيام بمهمة التدريس بها.

ولما تهيأت أسباب العمل الجامعي للدكتور طه حسين وتدرج في مراتبه وصار له من السلطان بها، عمل على فرض اللغتين اليونانية واللاتينية على الطلاب وأنشأ القسم الفرنسي واستقدم المستشرقين الأجانب للتدريس بالجامعة مرة أخرى، ولقد ووجه هذا التوجه بمعارضة شديدة من المثقفين والعلماء خاصة حين استدعى أستاذه في الكوليج دي فرانس المستشرق كازانوفا ـ ومعروف عن المستشرق أنه ممن يخلطون الأمور ببعضها ويلبسون الحق بالباطل ـ فلما عورض في ذلك قال في حماسة شديدة: (أريد أن يعلم الناس جميعًا أن الجامعة المصرية حين تدعو أساتذة من أوروبا لإلقاء الدروس فيها لا تأتي بدعًا من الأمر وإنما تتبع في ذلك نهج الجامعات الأوروبية الأمريكية، وهذا الرجل الذي دعته الجامعة ليس رجلاً عاديًا وإنما أستاذ حقًّا، ولقد أريد أن يعلم الناس أني سمعت هذا الأستاذ يفسر القرآن الكريم تفسيرًا لغويًا خالصًا فتمنيت لو أتيح لمناهجه أن تتجاوز باب الرواق العباسي ولو خلسة ليستطيع علماء الأزهر الشريف أن يدرسوا على طريقة جديدة نصوص القرآن الكريم من الوجهة الخالصة على نحو مفيد حقًّا)[1].

---

(١) أنور الجندي: طه حسين حياته وفكره في ضوء الإسلام، ص٦٠.

ب ـ الزيارات المنزلية:

ولم تقتصر علاقة طه بالمستشرقين على التلمذة والدراسة أو مجرد الزمالة بعد ذلك في العمل الجامعي وإنما ارتبط الدكتور بالعديد من المستشرقين بعلاقات شخصية امتدت مع سنوات حياته.

ولقد كان منزل طه المحطة الأولى بالقاهرة لكثير من المستشرقين تقول زوجة طه عن ذلك: «عند تأسيس جامعة الدول عام ١٩٢٥ اتخذ الطريق إلى بيتنا ـ الذي لم يهجره بالطبع أصدقاء القاهرة الأوفياء (تعنى المستشرقين) قادمون جدد، وهناك بدأت جلسات الأحد التي سرعان ما اتسعت كثيرًا في الزمالك، كان طه خلالها قطبًا حقيقيًا من الجاذبية... إذ ما كان الأساتذة الأجانب الذين كانوا يؤلفون أول فريق يصلون مصر حتى يأتوا بالطبع إلى بيتنا لقضاء ساعة أو ساعتين برفقة زوجاتهم، وكان منهم العميد جريجوار[١]، والفيلسوف إميل برهييه[٢]، وعالم الآثار الإنجليزي جريدور[٣]، والشخصية الساحرة سكايف[٤] الذي كان شاعرًا بقدر ما كان أستاذًا للأدب الإنكليزي ثم بعد ذلك للاند[٥] وسانياك[٦])[٧].

---

(١) جريجوار: مستشرق بلجيكي ولد عام ١٨٨٨م تخرج من جامعة بروكسل وعين أستاذًا بها، ثم عميدًا لكلية الآداب بالجامعة المصرية (١٩٢٦ ـ ٣٠) وله مصنفات عديدة، منها: الإسلام والملحمة البيزنطية. المستشرقون ٢٣١/٣.

(٢) إميل برهييه: إميل برهييه (١٨٧٦ ـ ١٩٥٢م) فيلسوف مؤرخ، له تاريخ الفلسفة في ٧ أجزاء.

(٣) جريدور: لم أستدل على ترجمته.

(٤) سكايف: لم أستدل على ترجمته.

(٥) أندريه لالاند: فيلسوف فرنسي (١٨٧٦ ـ ١٩٦٣م) عمل أستاذاً للفلسفة في السوربون. موسوعة ويكيبيديا.

(٦) سانياك: لم أستدل على ترجمته.

(٧) سورة طه حسين: معك، ص٧٤.

ولم يكن البيت مقصدًا لمعارف طه من المستشرقين وحدهم بل كان يقدم عليه وافدون جدد ليتعرفوا على طه وسرعان ما تقوى بينهم أواصر العلاقة كما كان من المستشرق أندريه جيد[١] الذي تعرف على طه في منزله حين صحبه معه غاستون فييت[٢] «ولقد كان هذا اللقاء الأول بين طه وجيد واحدًا من هذه المرات، كان طه يعجب بجيد ولا شك، ولكن من بعيد قليلاً فهما لا يتشابهان كثيرًا، غير أنهما ما إن التقيا حتى تفاهما على الفور إثر مناقشة عفوية كان فيها كلاهما على رأي واحد»[٣].

ولقد كان الكثير من كبار المستشرقين يحرصون على زيارة طه حتى في أيام مرضه الأخير ويظهرون من الأسى والشفقة عليه الشيء الكثير، يمر بلاشير[٤] وكانت آخر مرة يمر فيها فقد غدا الليل بالنسبة له تمامًا[٥]، وكان يتحمل المحنة بصبر راقٍ، وإني (سوزان) لأراه ثانية في المكتب يجلس على مقعده قريب من مقعد طه. . . أظهر ذلك

---

(١) أندريه جيد: فرنسي ارتبط بصداقة حميمة لطه حسين من مؤلفاته التي ترجمها له طه حسين: الباب الضيق، وله مدرسة الزوجات، راجع مجلة الكاتب المصري. المجموعة الكاملة ٦٦٢/٦.

(٢) غاستون فييت (١٨٨٧ ـ ١٩٧١) اشتغل بالجامعة المصرية أستاذًا للأدب العربي ١٩١٢، وانتخب عضوًا في المجمع العلمي المصري (١٩٣٠) واختير أمينًا له عام (١٩٣٩) ثم عضوًا فمديرًا لدار الآثار العربية في القاهرة (١٩٢٦ ـ ١٩٥٢م) وله آثار كثيرة. المستشرقون ٢٧٦/١.

(٣) سوزان طه حسين: معك، ص١٥٧.

(٤) بلاشير: فرنسي ولد بباريس سنة ١٩٠٠ تعلم بالمغرب والجزائر وعمل مدرسًا بالرباط ثم حصل على الدكتوراه عام ١٩٣٦ وعين أستاذًا محاضرًا في السوربون ١٩٣٨ وله آثار عديدة. المستشرقون ٣٠٩/١.

(٥) في كلام سوزان إشارة إلى ذهاب بصر بلاشير في آخر حياته.

اليوم كم كانت صداقته حية وعميقة، وعندما قبَّل طه على جبهته عند مغادرته له كان ثمة حمية عفوية فاجأتني وأثرَّت فيَّ»[١].

أما عن آثار تلك اللقاءات والزيارات فتتحدث زوجته قائلة: «كانت أيامنا تلتهم بسرعة فائقة، إلا أن ذلك كان أخاذًا وخاصة تلك اللقاءات التي كانت تتم بوجه خاص مع أناس قادمين من خارج مصر، والتي كانت تزداد بنسبة مثيرة، وكان ينتج عنها محاورات خصبة بالنتائج وتبادل الأفكار، وإسهامات مختلفة، بقدر ما كان ينتج عنها أيضًا حجارة جديدة من أجل البناء الذي كان طه يتابع إنشاءه بكتبه ونشاطه... حجارة جديدة للآخرين أيضًا ولا شك»[٢].

وتقول واصفة اللقاءات الأخيرة من حياة طه مع المستشرقين: «بات الزوار يفدون في مجموعات أقل عددًا وأصبحت المحادثات، وخاصة منها ما كان مع الزوار الأجانب الذين يمرون في القاهرة تتم على انفراد تقريبًا»[٣].

وكذلك تتحدث زوجته عن لقاءات كانت تتم بينه وبين المستشرقين سمتها اجتماعات التعاون الفكري[٤].

جـ ـ حضور المؤتمرات الاستشراقية[٥]:

كانت الصلة القوية بين طه ونفر من المستشرقين والتي بدأت في

---

(١) سوزان طه حسين: معك، ص٢٥٦.

(٢) المرجع السابق، ص١٢٦.

(٣) المرجع السابق، ص٢٥٥.

(٤) المرجع السابق، ص١٦٢.

(٥) بلغت مؤتمرات المستشرقين الدولية (١٨٧٣ ـ ١٩٦٨) ٣٠ مؤتمرًا، ضم الواحد=

مرحلة الطلب ونمت وترعرعت في مرحلة العطاء، داعية لأن يقوم المستشرقون بدعوة طه لحضور مؤتمراتهم العلمية.

ولعل أول مؤتمر شارك فيه طه هو مؤتمر العلوم التاريخية والذي عقد في بلجيكا في التاسع من أبريل سنة ١٩٢٣ والذي حضره ألف أو يزيد من العلماء المعنيون بالتاريخ[١].

وعلى قدر سعادة طه بالمشاركة في مثل هذا المؤتمر كان أساه لعدم استطاعته وتمكنه من متابعة كل أعمال المؤتمر إذ كان واقع المؤتمر كما وصفه بقوله: «وحسبك أنه كان يلقي في الساعة الواحدة وفي أكثر من عشرين غرفة أكثر من عشرين خطبة، وكنا في هذا المؤتمر كالتلاميذ في المدرسة... لقد كنت ضيق الصدر فقد فاتتني خطبة فلان ومذكرة فلان... وماذا تريد أن نصنع؟ وقد أبت الطبيعة أن تستطيع تعديد أشخاصنا[٢]، والاستماع لوقت واحد لكل ما نحب أن نستمع له»[٣].

ويشيد الدكتور بالمؤتمر وما حقق منه من استفادات حتى كتب عن هذا المؤتمر وحده قرابة الستين صفحة في كتابه «من بعيد» ولقد أوجز الدكتور هذه الاستفادات في مقالة قدم بها هذه الاستفادات فكان

= منها مئات العلماء من مستشرقين وعرب مسلمين وشرقيين... وكان المستشرقون يعقدون هذه المؤتمرات مرة كل ثلاث سنوات أو سنتين أو بعد أربع. المستشرقون ٣/٣٦٥.

(١) طه حسين: من بعيد: المجموعة الكاملة. الشركة العالمية للكتاب ـ بيروت. ب. ت ١٢/٥٤. بتصرف.

(٢) إضافة الدكتور الخلق إلى الطبيعة إضافة غير موفقة، إذ لا إرادة لها ولا قدرة بل هي مخلوقة مسخرة لله سبحانه.

(٣) طه حسين: من بعيد. المجموعة الكاملة ١٢/٥٥.

من قوله: «كثير جدًا الفوائد المختلفة التي تنتجها مثل هذه المؤتمرات، فلست أذكر الفائدة الأساسية التي يستفيدها علم التاريخ، وإنما أذكر فوائد أخرى غير هذه ليس بينها وبين التاريخ صلة، فيكفي أن تكون فطنًا دقيق الملاحظة لتجد لذّات متنوعة في ملاحظة هؤلاء الناس المختلفين في الوطن والجنس والطبيعة والمزاج، وما لكل واحد منهم من عادة أو خلق أو مزية أو نقيصة، والحق أني استفدت كثيرًا من الوجهة العلمية التاريخية»[1].

كما شارك الدكتور في مؤتمر أوكسفورد والذي عقد عام ١٩٢٨ وألقى به محاضرة عنوانها: «ضمير الغائب واستعماله اسم إشارة في القرآن»[2].

«ولقد اشترك في هذا المؤتمر ٩٠٠ عالم، عن ٢٥ دولة، و٨٥ جامعة و٦٩ جمعية علمية. وانقسم المشتركون أربعة عشر جماعة تنفرد كل منها بقسم من جدول الأعمال، وهي: الدراسات المصرية القديمة، الدراسات الآسيوية البابلية، وآثار الشرق الأدنى والعهد القديم، وآثار الكتاب المقدس. والشرق المسيحي. وبيزنطية، والدراسات السامية، والدراسات الإسلامية (اللغة والأدب) والدراسات الإسلامية (التاريخ والفن)، والدراسات التركية، والداسات الخاصة بإيران والقوفاز وما جاورهما، والدراسات الهندية، ودراسات آسيا الوسطى، ودراسات آسيا

---

(١) طه حسين: من بعيد. المجموعة الكاملة ٥٥/١٢.

(٢) محمود مهدي الإستانبولي: طه حسين في ميزان العلماء والأدباء، المكتب الإسلامي بيروت، ط١ سنة ١٤٠٣هـ، ص٤٥٥، وقد نقل المؤلف في الكتاب المذكور رد فضيلة الشيخ محمد الخضر حسين على الدكتور طه والذي بعنوان: «حقيقة ضمير الغائب في القرآن رد على طه حسين» والذي نشر في مجلة الهداية الإسلامية الجزء الثاني من المجلد الأول عام ١٣٤٧ هجرية.

الشرقية ودراسات آسيا الشرقية الجنوبية، والدراسات الأفريقية»[1].

وفي مايو سنة ١٩٦٠ اختير الدكتور طه حسين ممثلاً لمصر في مؤتمر الحضارة المسيحية والسلام في فلورنسا[2]، والذي نظمه جيورجيو لابيرا الذي كان عمدة لفلورنسا آنذاك[3].

وقد ألقى الدكتور كلمة في هذا المؤتمر أثارت دهشة أعضاء الأسرة الصحفية في فلورنسا جاء فيها:

(إن واجبنا يتجلى في عقد روابط الأخوة بين العالم الإسلامي الذي أمثله هنا ـ بما أنه بوسع أصغر مسلم، إذا قال الحق أن يقوله باسم الجميع ـ وبين العالم المسيحي ومدها إلى كل الناس ذلك أنه لا وجود في نظر الله لشرق أو لغرب ولا لجنوب أو شمال وإنما العالم والناس، وعندما يمنح الله العدالة للناس، فإنه لا يمنحها للمسيحيين فقط أو للمسلمين فقط، وإنما لجميع الناس، إنني أطالبكم بمحاسبة أنفسكم...

ويضيف الصحفي الذي كتب مقالاً عن المؤتمر، نهض لابيرا الذي كان يستمع إلى هذا الخطاب دون أن يستطيع مداراة فرحه وقال له: «أنت أخي حقًا» وعانقه)[4].

---

(١) نجيب العقيقي: المستشرقون ٣/٣٦٧.

(٢) د. عبد العزيز شرف: طه حسين وزوال المجتمع التقليدي، ص٦١.

(٣) سوزان طه حسين: معك، ص١٩٧، وقد أشارت زوجة طه إلى أن توقيت المؤتمر كان عام ١٩٥٣ وأنه كان لقاءات متتابعة في سنوات أربع متتالية، بينما استند د. عبد العزيز شرف إلى جريدة الأهرام الصادرة في ١٦ مايو سنة ١٩٦٠ والتي نشرت الخبر.

(٤) سوزان طه حسين: معك، ص١٩٨.

ويضاف إلى هذه المؤتمرات تلك الأسفار المتعددة التي كان يقوم بها في الإجازات الصيفية.. فكانت هذه الأسفار محلاً. للالتقاء بالكثير من المستشرقين والتحدث إليهم.

د ـ تعاونه مع اليونسكو[1]:

ينكر الدكتور طه حسين ذات يوم على الحكومة المصرية عدم إيفاده إلى مؤتمر اليونسكو ببيروت ممثلاً لها ويعيب عليها هذا التنكر له ولصلته بتلك المنظمة فيقول:

«لم ترد الحكومة المصرية، أو لم يخطر لها أني أستطيع أن أمثلها بين من مثلها في مؤتمر الأونسكو، وهي تعلم حق العلم أن بين الأونسكو وبيني صلات متصلة وأواصر متينة، وأني كنت من خبرائها مرتين في أقل من نصف عام، وأني مثلت مصر في مجلس التعاون الفكري الذي كان يقوم مقام الأونسكو قبل الحرب العالمية الثانية، أنشأته عصبة الأمم القديمة كما أنشأت الأونسكو عصبة الأمم الحديثة»[2].

وعن طبيعة هذا التعاون مع اليونسكو تقول زوجته سوزان: (كان طه يتعاون مع اليونسكو منذ سنوات، وقد اهتم كثيرًا بالمشروع الكبير» الشرق ـ الغرب» فكان أحد أعضاء اللجنة الاستشارية التي اشترك فيما أظن في جلساته الأربع، أما بالنسبة للاجتماع الخامس في عام

---

(١) يونسكو: اسم (اختصار) يطلق على منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة وهي إحدى الوكالات المتخصصة التابعة لهيئة الأمم المتحدة. جاء إنشاؤها ثمرة المؤتمر الذي عقد في لندن سنة ١٩٤٥. بتصرف من القاموس السياسي أحمد عطية عبدالله، ص١٤٣٩.

(٢) طه حسين: بين بين. المجموعة الكاملة. الشركة العالمية بيروت، ط٢ سنة ١٩٨٣، ٤٩١/١٤.

١٩٦٣م، فإنه اضطر للاعتذار برغم الإلحاح والإصرار مقترحًا أسماء يمكن لها أن تحتل مكانه إذ لم يعد قادرًا على المشاركة في الاجتماعات والمؤتمرات وإن لم يقطع كل صلة بها)[١].

وتعلق مرة أخرى على هذا المؤتمر الأخير بقولها: (كان من المرغوب فيه أن يرأس طه الوفد المصري لمؤتمر اليونسكو في مونتوفيدو لكنه لم يستطع ركوب الطائرة وخاصة للقيام برحلة كانت تدوم في ذلك الوقت ستًا وثلاثين ساعة... كانوا في القاهرة يستعجلون الذهاب، وفي مونتوفيدو يضجون بالشكوى حيث ينتظره الكثير من المستشرقين)[٢].

فكانت اجتماعات اليونسكو فرصة للاجتماع مع المستشرقين والتعاون الفكري.

(وفي عام ١٩٧١م أقام مركز وثائق الدراسات الشرقية بأوروجواي مهرجانًا كبيرًا لتكريم طه حسين تحت رعاية «اليونسكو» في مجال نشاطها الخاص بالتقارب الثقافي بين الشرق والغرب، وفي هذا المهرجان أقيمت ندوة أكاديمية لتحليل أعماله في جامعتي الجمهورية بأوروجواي «وسلفادور» بالأرجنتين كما أقيم معرض لكتبه الأدبية والفكرية والثقافية)[٣].

هـ ـ المراسلة والاهتمام بشأنه:

لقد كانت المراسلة المتبادلة بين طه حسين ونفر من المستشرقين

---

(١) سوزان طه حسين: معك، ص٢٤٨، ٢٠٢.

(٢) سوزان طه حسين: معك، ص٢٠٢.

(٣) د. عبد العزيز شرف: طه حسين وزوال المجتمع التقليدي، ص٦٢.

وسيلة من وسائل التواصل وتبادل الآراء في الثقافة والحياة العامة، كما كانت وسيلة من وسائل الدعم المعنوي ولا أدل على ذلك من رسالة لويس ماسينيون[1] إلى طه والذي سطرها في أكتوبر عام ١٩٥٢م، والتي جاء بها «... أكتب إليك لأعبر لك عن إعجابي وفرحتي بمشاريعكم ففي عالم المبتزين والجبناء تتألق شجاعتكم لتواسي بعض من لا يتوصلون إلى قتل أنفسهم في الشهادة من أجل العدالة، شأنهم في ذلك شأني، إنني أدعو الله أن يبارك طه حسين لقاء الزكاة الروحية التي يؤديها للشعب المصري... أقبلك يا صديقي وليبارك الله زوجتك العزيزة بسببك وكذلك أولادك وأصدقاءك، بل حتى أعداءك الذين لولاهم ما كنت لتتنبه إلى المهمة الملقاة على عاتقك»[2].

وكذلك كان يفعل إيتيامبل[3] فهو لم يكف عن الكتابة إلى طه طوال حياته ومساعدته في حياته الثقافية... فقد كان ضمن الذين لهم مجهود كبير في توفير مقالات غير منشورة لكتاب معاصرين يبعثها لطه لتترجم وتنشر في الكاتب المصري ـ المجلة التي أصدرها طه حسين لمدة ثلاث سنوات.

---

(١) لويس ماسينيون (١٨٨٣ ـ ١٩٦٢) اتصل بجولدزهير وتتلمذ على يديه، شارك في مؤتمرات المستشرقين، ودرَّس بالجامعة المصرية تاريخ الفلسفة عام (١٩١٢ ـ ١٩١٣م) واستمع إلى دروس الأزهر بالزي الأزهري، نال عضوية الكثير من المجامع اللغوية وكان له اهتمام عظيم بالتصوف الإسلامي آثاره تربو على ٦٥٠ مصنفًا. المستشرقون ٢٦٣/١ وما بعدها.

(٢) سوزان طه حسين: معك، ص٢٥٥.

(٣) إيتيامبل: فرنسي، عمل أستاذًا للأدب الفرنسي بكلية الآداب بجامعة فاروق الأول. نشر عدة مقالات في مجلة الكاتب المصري ابتدأها بمقال بالعدد ١٦ الصادر في يناير سنة ١٩٤٧. راجع مجلة الكاتب المصري ـ العدد المذكور، ص٦٥٦ من المجلد الرابع [المجموعة الكاملة].

ولقد كان كثير من المستشرقين دائم السؤال عن أخبار طه وشديد الحرص على مخاطبته خاصة في تلك الأوقات التي كانت تمثل لطه أوقات محنة ففي الفترة التي امتحن فيها طه في أعقاب إثارة موضوع كتابه ـ في الشعر الجاهلي ـ أرسل إليه المستشرقون رسائل كثيرة يواسونه فيها ويشدون من أزره ومن تلك الرسائل رسالة ليفي ديلافيدا[1] والتي جاء فيها:

(. . . أحزنتني هذه الأخبار بصورة عميقة، إن تاريخ النضال من أجل الحرية العلمية لم يستكمل مسيرته بعد، لكن ذلك سيتحقق يومًا ما، وإني على اقتناع بذلك، وسيتحقق ذلك بانتصار روح الحرية والحقيقة، إن المأساة التي أصابتكم ستكون عارضة، وإني لعلى يقين من ذلك، لأن قضية كقضيتكم، بل أقول: كقضيتنا هي من القضايا التي لم تكن خاسرة في يوم من الأيام. وإني مفعم إيمانًا بالمستقبل الذي سيكون لنا دون أدنى قدر من شك، أو لأطفالنا وأود أن أكرر لكم مرة ثانية أنني مرتبط بكم بأعظم قدر من الإعجاب وبأعمق الود)[2].

أما عن اهتمام المستشرقين بطه وبما يكتب فقد بدا واضحًا من كلام زوجته عن ذلك إذ حدثت عن أندريه جيد «أنه كان يوجه أكبر قدر من اهتمامه لما كان يكتبه طه وأنه طلب إلى مؤنس ـ ابن طه حسين ـ بعض الإيضاحات المفصلة عن «الشعر الجاهلي» هذا الكتاب

---

(١) ليفي ديلافيدا: إيطالي (١٨٨٦ ـ ١٩٦٧) عمل أستاذًا للعربية واللغات السامية في جامعة روما، له اهتمام عظيم بالإسلام واللغة العربية، كتب تراجم لكثير من الصحابة في دائرة المعارف الإسلامية. المستشرقون ١/٤٤٠، ٤٤١.

(٢) سوزان طه حسين: معك، ص١١٠.

الذي كان له دوي هائل، وكذلك حول تأملات أبيه في التصوف الإسلامي التي عرضها في مقدمته للنص العربي من كتاب أندريه جيد «الباب الضيق»[١]، وتخبر عن لويس ماسينيون ـ الذي كان يدرِّس ولدها مؤنس في معهد المعلمين العالي بباريس ـ «أنه كان يمشي مع مؤنس عقب المحاضرات التي كان مؤنس مفتونًا بها، وأنه كان يستعلم باهتمام ودي عن كل ما يقوم به طه حسين من عمل أو يخطط للقيام به»[٢].

و ـ إنشاء المعاهد العلمية وتفعيلها:

ومن المحاور التي كانت تمثل قناة من قنوات الاتصال بالفكر الاستشراقي قيام الدكتور طه حسين بالمشاركة والمساهمة في معاهد ومؤسسات علمية تعمل على مد الجسور بين الشرق والغرب، فكان من ذلك تعاونه مع د. حسين مؤنس[٣] في تأسيس المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمدريد سنة ١٩٥٠ وكان الدكتور إبان ذلك وزيرًا للمعارف، واعترافًا من الدكتور مؤنس بفضل طه حسين على المعهد أطلق على قاعة المحاضرات اسمه تقديرًا لجهده واعترافًا بجميله[٤].

كما شارك الدكتور وساهم في تفعيل معهد دار السلام بكنيسة دار السلام بمصر القديمة (وهو من المعاهد التي لها أهداف ظاهرة وأخرى

---

(١) سوزان طه حسين: معك، ص١٥٩.

(٢) المرجع السابق، ص٢٥٣.

(٣) د. حسين مؤنس: مواليد ٢٨ أغسطس سنة ١٩١١ بمحافظة السويس، مؤرخ مشهور وله اهتمام خاص بالتاريخ الأندلسي من أهم آثاره: أطلس تاريخ الإسلام. إبراهيم عبد العزيز: رسائل طه حسين، ص١٦٢.

(٤) إبراهيم عبد العزيز: رسائل طه حسين، ص١٦٤.

باطنة فالأهداف الظاهرة التعليم وتكوين الثقافة الشاملة والوعي الحضاري، أما الأهداف الباطنة فهي تشكيك المسلمين في دينهم بإثارة الشكوك حوله، والعمل بالتبشير بالنصرانية بين المسلمين)[1].

وعن صلة الدكتور طه بهذا المعهد تقول زوجته: (. . . في الشهر الماضي كان يحتفل في دار السلام بذكرى الأب «زندل» الذي توفي قبل عدة أشهر، وخلال حديثه عما يدين به مركز الدراسات هذا لفكر وعمل وروحانية الأب زندل الذي كان يتحدث فيه غالبًا، أضاف المطران حكيم أنه لا يمكن في هذا المكان أن يفصل اسمه عن اسمين آخرين تدين دار السلام بتألقها لهما أيضًا وهما: لويس ماسينيون وطه حسين وإني لأحب أن تجتمع هذه الأسماء الثلاثة على هذا النحو)[2].

وكان الدكتور لصلته الوثيقة بفرنسا التي ـ (كانت لديه فكرة رفيعة عنها، وكان قد ناضل كثيرًا للدفاع عنها في كثير من المناسبات كما عمل الكثير لنشر ثقافتها ـ قد أخذ عهدًا من الحكومة الفرنسية بالسماح له بتأسيس معهد الدراسات الإسلامية بالجزائر إلا أنها عادت فنكثت هذا العهد مما أحزن الدكتور وآلم نفسه)[3].

(١) د. علي عبد الوهاب: بين الإسلام والغرب، ص٢٦٦ بتصرف.

(٢) سوزان طه حسين: معك، ص٢٥٥.

(٣) المرجع السابق، ص١٩١ بتصرف.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

المبحث الرابع

اهتمام المستشرقين بأدب طه حسين

اهتم المستشرقون بأدب طه حسين فصنفوا الكتب حوله، وتحدثوا عن دوره في مسيرة الأدب العربي الحديث، وترجموا الكثير من كتاباته إلى لغاتهم.

ولم تكن عناية المستشرقين مقصورة على طه حسين بل تناولت غيره ممن اشتغلوا بالأدب في القرن الماضي.

(ولقد بنى المستشرقون دراساتهم لأدبنا العربي على أساس تحقيق دراسة الأدب العربي، حسب التقلبات الاجتماعية والسياسية والتاريخية، مع الحرص على إبراز المواقف الفكرية التي تكشف عن شخصية الأديب وتوضح اتجاهاته)[1].

ولئن أردنا أن نذكر نماذج من دراسات المستشرقين حول كتابات طه حسين تصنيفًا وترجمة لذكرنا أول ما نذكر مقالات المستشرق

---

(١) د. السيد مرسي أبو ذكري: آثار المستشرقين في الأدب، مجلة الأزهر عدد جمادى الآخرة سنة ١٤٢٠هـ، أكتوبر سنة ١٩٩٩ الجزء السادس السنة الثانية والسبعون، ص٨٩١.

الإنجليزي جيب[1] التي تناولت الأدب الحديث منذ أوائل القرن الماضي والتي تناول فيها على الخصوص أدب طه حسين وجعله على رأس المجددين في الأدب[2].

ثم نذكر دراسة كاكيا والتي عنون لها بـ «طه حسين وأثره في نهضة الأدب المصري» (لندن ـ لوزاك ١٩٥٦)[3].

ثم دراسة جونز[4] عن طه والذي جعله في مقدمة الكتاب المصريين في القرن العشرين إذ جعل الجزء الأول في السلسلة عن طه حسين.

أما المستشرقون الإيطاليون فكانوا عظيمي الاهتمام بطه حسين فكتب فرانشيكو جابرييلي[5] دراسة عن طه حسين سنة ١٩٦٤م وترجمت فاليري[6]، رواية القصر المسحور سنة ١٩٦٤م، وكتب

---

(١) جيب، السير هاملتون (١٨٩٥ ـ ١٩٧١) مستشرق إنجليزي ولد بالإسكندرية في مصر خلف مرجليوث في أكسفورد (١٩٣٧ ـ ١٩٥٥) كان عضوًا في بعض المجامع العربية، المستشرقون ١٢٩/٢.

(٢) طه حسين: كلام. المجلة الجديدة (المجموعة الكاملة) نشر المركز العربي للدراسات والنشر، ط١، سنة ١٩٩٧ ٦٢٤/١.

(٣) نجيب العقيقي: المستشرقون ٤٦٤/٣.

(٤) جونز، مارسدن المولود عام ١٩٢٠ ولد في تري كروسين من أعمال جلامورجان بالمملكة المتحدة، وتخرج من جامعة لندن عمل أستاذًا ومديرًا لمركز الدراسات العربية في الجامعة الأمريكية بالقاهرة منذ ١٩٧٧. المستشرقون ١٤٨/٢.

(٥) جابرييلي، فرانشيكو المولود سنة ١٩٠٤م كبير أساتذة اللغة العربية في جامعة روما، انتخب عضوًا مراسلاً في المجمع العربي بدمشق ١٩٤٨، عنوان دراسته عن طه حسين «طه حسين ناقدًا ١٩٦٤»، المستشرقون ٤٥١/١ وما بعدها.

(٦) فينشيا فاليري: بحاثة إيطالية انصرفت إلى التاريخ الإسلامي قديمًا وحديثًا وإلى فقه اللغة العربية وآدابها. المستشرقون ٤٦٦/١.

رتزتانو[١] دراسة بعنوان «طه حسين سيرة وآثار ١٩٦٤»، وكتبت ماريا نالينو[٢] ابنة المستشرق الإيطالي نالينو دراستين عن طه حسين الأولى: بعنوان نبذة عن مصنفات طه حسين بك ١٩٥٠م، والثانية: بعنوان طه حسين وإيطاليا سنة ١٩٦٤م[٣].

ومن المستشرقين الفرنسيين كتب بلاشير[٤] دراسته عن المتنبي وتعرض فيها لناقدي هذا الشاعر العظيم ومنهم طه حسين، وكتب كذلك شارل فيال[٥] دراسة بعنوان طه حسين، وترجم الفرنسيان جان لوسر وجاستون فييت الجزأين الأول والثاني من الأيام، وكتب جاك بيرك[٦] دراسة بعنوان مختارات من أعمال طه حسين.

(كما ترجم جاستون فييت[٧] «شجرة البؤس» إلى الفرنسية، وترجم ريمون فرنسيس[٨] «دعاء الكروان» إلى الفرنسية أيضًا وتُرجم كتاب الأيام لطه حسين إلى عدة لغات:

---

(١) رتزتانو، أومبرتو المتوفى سنة ١٩٨٠ تعلم العربية في مصر وإيطاليا، انتدب أستاذًا في جامعة عين شمس ثم في جامعة بالرمو. المستشرقون ٤٦٢/١.

(٢) نالينو، ماريا (١٩٠٨ ـ ١٩٧٤) كريمة كارلو نالينو، تخرجت عليه ورافقته في أسفاره واستأنفت نشاطه من بعده، اختيرت عضوًا مراسلاً للمجمع اللغوي في مصر ١٩٥٦ واحتلت منزلة مرموقة بين المستشرقين. المستشرقون ٤٥٤/١.

(٣) راجع نجيب العقيقي: المستشرقون ٤٧٢/٣.

(٤) سبق ترجمته، ص١٠٨.

(٥) فيال، شارل المولود عام ١٩٢٨ مستشرق فرنسي ولد بالجزائر، عمل في المعهد الفرنسي بالقاهرة، من آثاره: المجتمع المصري من خلال السيرة الذاتية لطه حسين. المستشرقون ٣٧٢/١.

(٦) بيرك، جاك مستشرق فرنسي تخرج في باريس، عين مديرًا لقسم البحوث الفنية والتجريبية في سرس الليان بمصر (١٩٥٣ ـ ١٩٥٤). المستشرقون ٣٣٦/١.

(٧) سبق ترجمته، ص٨٥.

(٨) لم أستدل على ترجمته.

ترجمه إلى الإنجليزية F.H.Paxton.

وترجمه إلى العبرية كابلوك وأتمارا .Kabilak, Atamara.

وترجمه إلى الصينية Tsingtin.

وترجمه إلى الروسية Krackovsky. Day[1].

وترجمه إلى الإسبانية إميليو جارثيا جوميث[2])[3].

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

(١) د. عبد الرحمن بدوي: إلى طه حسين في عيد ميلاده السبعين. دار المعارف القاهرة ١٩٦٢، ص٢٧.

(٢) إميليو جارثيا جوميث مستشرق إسباني ولد سننة ١٩٠٥ في مدريد وتخرج من جامعتها سنة ١٩٢٦، عمل أستاذًا بجامعة غرناطة سنة ١٩٢٩، زار العديد من الدول العربية ونال عضوية العديد من المجامع العلمية. المستشرقون ٢/٢١٣.

(٣) نجيب العقيقي: المستشرقون ٣/٤٧٤.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الفصل الثالث

طه حسين والعقيدة الإسلامية

ويشتمل على تمهيد وأربعة مباحث:

المبحث الأول: طه حسين ونشأة الدين.

المبحث الثاني: طه حسين ونزعة الشك.

المبحث الثالث: طه حسين وقضية الجبر والاختيار.

المبحث الرابع: طه حسين ونجاة اليهود والنصارى في الآخرة.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

تمهيد

اتجه طه حسين للكتابة عن الإسلام منذ عرف طريقه إلى الكتابة الصحفية في أوائل القرن الماضي، وكتاباته في صحف «العلم»، و«الهداية»، و«السفور» خير شاهد على ذلك، وربما مزج الموضوعات الدينية بالموضوعات اللغوية نظرًا لقرب التماس بينهما.

وجاءت كتابات طه في هذه الفترة متسمة بالمحافظة وتعبر عن تعاليم الدين الصافية التي تعلمها في الأزهر، وربما شابها في بعض الأحيان اضطراب واختلاط نظرًا للتأثر بكتابات بعض المتأثرين بالغرب الداعين إلى نظمه ومناهجه مثل: (قاسم أمين[١] الذي نادى بتحرير المرأة وفتحي زغلول[٢] الذي كان يترجم الكتب الغربية وأيضًا بما قدمته (الجريدة) في أول عهده بها من روح جديدة في السياسة والاجتماع)[٣].

أما عطاء طه الإسلامي فجاء كمرحلة ثانية في مرحلة العطاء بعد إتمام الدراسة بمصر وفرنسا، فالمرحلة الأولى غلب عليها الكتابة عن

---

(١) قاسم أمين: سبق ترجمته، ص٤٦.

(٢) فتحي زغلول: سبق ترجمته، ص٤٦.

(٣) طه حسين: الأيام ١٧٥/٢ بتصرف.

الفكر الغربي ممثلاً في أصوله الأولى اليونانية والرومانية، ثم كانت مرحلة الكتابة عن الإسلام في الثلاثينيات من القرن الماضي خاصة بعد أزمة الشعر الجاهلي ومؤازرته لعلي عبد الرازق في أزمته كذلك، هذا الأمر الذي جعل الهجوم يتتابع على الدكتور طه حسين لمخالفته ثوابت الأمة في عقيدتها وحياتها.

جاءت كتاباته الإسلامية تمثل حالة من الموازنة بين الكتابة عن الغرب والكتابة عن الإسلام، أو بمعنى آخر تغيير الصورة وإثبات حسن النية[١].

بينما يرى البعض أن توجه طه حسين إلى الكتابة عن الإسلام لن يعدو أن يكون «محاولة لسرد قصة الإسلام سردًا جديدًا، بطريقة تستهوي الوجدان المصري... فنظرة طه للدين لم تكن - في نظرهم - لتزيد عن «بعث الطمأنينة في النفوس»[٢].

ويأتي المستشرق سميث[٣] ليؤكد صحة الرأيين السابقين حيث يرى في توجه طه أنه «تكتيك رسم لتجنب القمع الرسمي»[٤] فهذه الرؤى مجتمعة تؤكد عدم تبني طه للإسلام كمنطلق أو منهاج وإنما كتب ليؤكد ما تبناه من خط المتابعة للفكر الغربي ومناهجه والباحث بدوره لا يشايع هذا الرأي ولا يتابعه وإنما يكل النيات إلى بارئها

---

(١) ممن رأى هذا الرأي «بشر فارس» الذي رأى في توجه طه حسين «نوعًا من اللعبة الخطرة» راجع: مصطفى عبد الغني: طه حسين والسلطة في مصر. الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٧، ص١٩٨.

(٢) مصطفى عبد الغني: طه حسين والسلطة في مصر، ص١٩٨.

(٣) سميث، ويلفريد كانتول: مستشرق كندي ولد في تورنتو بكندا عام ١٩١٦ وتخرج من جامعة برنستون وحصل على الماجستير والدكتوراه، درس في عدد من الجامعات العالمية وله آثار كثيرة. المستشرقون ١٨٢/٣.

(٤) مصطفى عبد الغني: طه حسين والسلطة في مصر، ص١٩٩.

سبحانه. والعبرة بصواب ما كتب أو خطئه، ونظرًا لما أثير على كتابات طه حسين الإسلامية أو اللغوية والأدبية التي مست الدين من تساؤلات ومناقشات رأيت من المحتم دراستها والوقوف عليها محاولاً التركيز على جوانب التأثر بالفكر الاستشراقي وبيان مجالات الالتقاء أو الاختلاف ثم بيان مدى موافقتها أو اختلافها مع تعاليم الإسلام.

طه حسين والعقيدة الإسلامية:

ليس الغرض من الكتابة تحت هذا العنوان الحكم على طه حسين بكفر أو إيمان، وإنما الغرض الوقوف على آرائه التي تتعلق بالعقيدة الإسلامية، وبيان مدى موافقتها لمذهب أهل السُّنَّة والجماعة ثم الكشف عن صلة هذه الآراء بآراء المستشرقين وبيان أوجه الاتفاق بينهما أو الاختلاف.

وإنما أخذت نفسي بهذا المسلك لأنني في المقام الأول أحد الدعاة إلى الله الذين يوضحون للناس الخير ويحثونهم عليه ويبينوا لهم الشر وينهونهم عنه، دون أن يتورطوا في الحكم على أحد من أهل القبلة من أصحاب المعاصي أو من أهل الشطط في الرأي بكفر أو خروج عن الملة، يمنعهم من ذلك أنهم ليسوا قضاة هذه واحدة.

والثانية: خطورة التكفير وذلك لما يترتب عليه من مواقف وآثار مثل التفريق بين المحكوم بكفره وبين زوجه وخلع سلطانه عن أولاده حتى لا يؤثر على اعتقادهم، وفقدانه حق الولاية والكره من المجتمع الإسلامي. . . إلخ[1].

---

(١) سعيد بن علي بن وهف القحطاني: قضية التكفير بين أهل السُّنَّة وفرق الضلال. السعودية مؤسسة الجريسي، ط١، سنة ١٤١٧هـ/١٩٩٦م، ص٥٠ ـ ٦٢ بتصرف.

والثالثة: أن للتكفير ضوابط تقتضي معرفتها الوقوف على حالة المحكوم عليه ومعرفة ما حمله على رأيه أو فعله المخالف أهو الجهل أو الخطأ أو الإكراه، أله تأويل لفعله أو قوله الذي خالفه به جمهور المسلمين والذي يقتضي الحكم بالكفر، أهو من المبتدعين لهذا القول أو الفعل أو متابع فيه لغيره فهو مقلد لا بصيرة له[1] لا بد من معرفة ذلك كله.

(**والرابعة**: تشدد أهل السُّنَّة في الحكم بتكفير المعين. فقد اتفق السلف على عدم تكفير المعين إلا بعد قيام الحجة، فلا بد من معرفة ما تقوم به الحجة، وما الفرق بين بلوغ الحجة وفهمها، وما الأدلة على ذلك وهذا يحتاج إلى عناية وتدقيق)[2].

لذلك كله رأيت أن أعرض الأقوال في ضوء القرآن والسُّنَّة، مسترشدًا بعدهما بآراء أولي الفضل من المتقدمين والمتأخرين وبيان موافقته أو مخالفته لاعتقاد المسلمين، موكلاً أمر صاحبه إلى علام الغيوب سبحانه.

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

(١) ذهب ابن تيمية إلى عذر الذي وقع في الكفر تقليدًا إن كان جاهلاً لا بصيرة له ولا فقه فهو معذور حتى تقوم عليه الحجة. راجع المصدر السابق، ص٥٨.

(٢) سعيد بن علي بن وهف القحطاني: قضية التكفير بين أهل السُّنَّة وفرق الضلال. السعودية مؤسسة الجريسي ط١، سنة ١٤١٧ سنة ١٩٩٦م، ص٥٠ ـ ٦٢ بتصرف.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

المبحث الأول

طه حسين ونشأة الدين

من القضايا الخطيرة التي نسبت إلى الدكتور طه حسين أنه كتب في جريدة السياسة اليومية لسان حال حزب الأحرار الدستوريين كلامًا يقول فيه ببشرية الدين، فكان مما قاله بهذا الشأن: (إن العالم ينظر إلى الدين كما ينظر إلى اللغة وكما ينظر إلى الفقه، وكما ينظر إلى اللباس، من حيث إن هذه الأشياء كلها ظواهر اجتماعية يحدثها وجود الجماعة وتقع للجماعة في تطورها، وإذن فالدين في نظر العلم الحديث ظاهرة كغيره من الظواهر الاجتماعية لم ينزل من السماء ولم يهبط به الوحي، وإنما خرج من الأرض كما خرجت الجماعة نفسها وإن رأى «دوركايم»[1] أن الجماعة تعبد نفسها، أو بعبارة أدق «أنها تؤله نفسها» - يريد أنها تخترع الإله بفكرها ثم تعبده فهي تعبد فكرها وتؤله نفسها - وأن النصيحة أن يقال: الحق للناس، وهو أن الدين في ناحية والعلم في ناحية أخرى وليس إلى لقائهما من سبيل...)[2].

---

(١) سبق ترجمته، ص٦٧.

(٢) نقلاً عن: مصطفى صادق الرافعي: تحت راية القرآن، دار الكتاب العربي، بيروت ط٨، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، ص٣٥٢، ٣٥٣، محمود مهدي الإستانبولي: =

وهذا الكلام له خطورته فهو يثير قضيتين خطيرتين: الأولى: تكذيب رسالات الله جميعًا إلى الأرض والادعاء أنها من صنع البشر، وليست من وحي الله إلى رسله لهداية الناس.

الثانية: دعوى التناقض بين تعاليم الدين وقضايا العلم ودعوته لحتمية الفصل بينهما.

وكأن الدكتور أدرك خطورة ما يقول، فأراد أن يخفف من وقعه على النفوس فزعم أنه مؤمن بالشعور منكر بالعقل، ومن الممكن أن يكون الإنسان ذا دين يؤمن بما لم يثبته العلم، ويكون عالمًا لا يقر ما لم يثبته العلم يقول الدكتور:

(فكل امرئ يستطيع إذا فكر قليلاً أن يجد في نفسه شخصيتين متمايزتين، إحداهما: عاقلة تبحث وتنتقد وتحلل وتغير اليوم ما ذهبت إليه أمس، والأخرى شاعرة تلذ وتألم وتفرح وتحزن وترضى وتغضب في غير نقد ولا بحث ولا تحليل وكلتا الشخصتين متصلة بمزاجنا وتكويننا، لا نستطيع أن نخلص من إحداهما، فما الذي يمنع أن تكون الشخصية الأولى عالمة باحثة ناقدة، وأن تكون الشخصية الثانية مؤمنة ديانة مطمئنة طامحة إلى المثل الأعلى؟)[1] لقد جاء تبرير الدكتور بكارثة أعظم من سابقتها (فمن الذي يعقل أن نفي النبوة والوحي وتكذيب الكتب السماوية هو على وصف من الأوصاف علم وعقل، وعلى وصف آخر دين وإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله ويكون

= طه حسين في ميزان العلماء والأدباء، المكتب الإسلامي، بيروت ـ ط١، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، ص٦٠٠.

(١) محمود مهدي الإستانبولي: طه حسين في ميزان العلماء والأدباء، ص٦٠٠، ٦٠١.

اجتماع الوصفين في رجل واحد شخصيتين لهذا الرجل الواحد... ومتى قطع العلم على أن الجماعة الإنسانية خرجت من الأرض؟... ومتى كان العلم يبحث في الأديان على أنه علم؟ وكيف له أن يبحث فيها وهو مقصور بطبيعته وتحديد هذه الطبيعة على ما يدخل في باب الأدلة الحسية، ولا وسائل له إلا وسائل الحس المعروفة من البحث[١]، والاستقراء[٢]، والمقابلة[٣]، والاستنباط[٤])[٥].

والحق أن الدكتور في رأيه هذا لم يكن سوى مجرد بوق يردد ما سمعه من أستاذه دور كايم الذي كان من نظريته قوله: (يقول بعض العلماء بوجود عاطفة دينية فطرية لدى الإنسان، وبأن هذا الأخير مزود بحد أدنى من الغيرة الجنسية والبر بالوالدين، ومحبة الأبناء وغير ذلك من العواطف. وقد أراد بعضهم تفسير نشأة كل من الدين والزواج

---

(١) البحث: وسيلة للاستعلام والاستقصاء المنظم والدقيق الذي يقوم به الباحث بغرض اكتشاف معلومات أو علاقات جديدة، بالإضافة إلى تطوير أو تصحيح المعلومات الموجودة فعلاً على أن يتبع في هذا الفحص والاستعلام الدقيق خطوات المنهج العلمي واختيار الطريقة والأدوات اللازمة للبحث وجمع البيانات.
راجع: د. عبدالله سمك: البحث العلمي بين الأصالة والمعاصرة ب. ن، ط١ سنة ١٤١٥هـ/سنة ١٩٩٤م، ص٦.

(٢) الاستقراء: تتبع الجزئيات للوصول إلى نتيجة كلية. [المعجم الوجيز، ص٥٠٠].

(٣) المقابلة: وتعني المحادثة الجادة الموجهة نحو هدف محدد غير مجرد الرغبة في المحادثة لذاتها فهي أشبه باستفتاء شفهي. راجع: د. عبدالله سمك: البحث العلمي بين الأصالة والمعاصرة، ص١٧٢.

(٤) الاستنباط: هو المنهج الذي ينتقل من المبادئ الكلية إلى الجزئية أو من القوانين العامة إلى الأحكام الفرعية دون التجاء إلى التجربة. راجع: د. عبد الله سمك: البحث العلمي، ص١٠٢.

(٥) مصطفى صادق الرافعي: تحت راية القرآن، ص٣٥٥، ٣٥٦ بتصرف.

والأسرة على هذا النحو ولكن التاريخ يوقفنا على أن هذه النزعات ليست فطرية في الإنسان (!) وحينئذٍ فإنه يمكن القول بناءً على الرأي السالف بأنه لا وجود لتفاصيل القواعد القانونية والخلقية في ذاتها، إذا صح هذا التعبير... ومن ثم فليس من الممكن تبعًا لهذا الرأي أن تصبح مجموعة القواعد الخلقية التي لا وجود لها في ذاتها موضوعًا لعلم الأخلاق»[1].

فقوام نظرية دوركايم أنها تدعو إلى محاربة الدين والأسرة والأخلاق؛ لأنها ليست أصيلة في المجتمعات وأنها على حسب زعمه تحول دون سعادة الآخرين وتحد من حرياتهم.

وليس بالغريب على دوركايم أن يقول بأن الجماعة تعبد نفسها أو أنها تخترع الإله بفكرها ثم تعبده، وذلك لأنه حين عرف الدين قال بأنه «مجموعة متساندة من الاعتقادات والأعمال المتعلقة بالأشياء المقدسة (أي: المعزولة المحرمة) اعتقادات وأعمال تضم أتباعها في وحدة معنوية تسمى الملة»[2].

(فهذا التعريف لم يعتبر من القدسية الدينية سوى جانبها العملي السلبي وهو تحريمها لبعض الأشياء والتحذير من مباشرتها والدنو منها، وقد فاته أن المنع من لمس شيء ما ليس دائمًا دليلًا على قدسيته بل قد يكون على الضد دليل ما فيه من خبث ورجس، كما فاتهم أن الشعائر العملية في كل نحلة يجب أن تكون ترجمة كاملة لعقائدها فإذا كان التقديس هو من أحد جانبيه تنزيهًا عن العيوب والنقائص فهو من

---

(١) محمود مهدي الإستانبولي: طه حسين في ميزان العلماء والأدباء، ص٣٠.

(٢) د. محمد عبدالله دراز: الدين، دار القلم الكويت، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م، ص٣٦، ٥٣ بتصرف.

الجانب الآخر وصف بالجمال والكمال، كما أنه بهذا التعريف قد جرد ماهية الدين من فكرتي الروحية والإلهية، وهو إذ فعل ذلك فقد جرد الدين من أخص صفاته)[1].

فدوركايم حين يزعم أن الدين نتاج أرضي لا يلام في ذلك؛ لأنه كافر وليس بعد الكفر ذنب، فهو متمرد على الأديان وإن كان يهودي الأصل لكنه مبتوت الصلة بدينه ولو كان دينًا حقا ما سقط هذا السقوط المريع.

إن التدين فطرة أصيلة في حياة الجماعة الإنسانية وحقيقة أجمع عليها مؤرخو الأديان [فقد وجدوا الإنسان منذ أقدم العصور يتدين ويتعبد ويؤمن بإله حتى قال أحد كبار المؤرخين: «لقد وجدت في التاريخ مدنًا بلا قصور ولا مصانع ولا حصون ولكن لم توجد أبدًا مدن بلا معابد».

قد يتراكم على هذه الفطرة صدأ الشبهات أو غبار الشهوات وقد تنحرف وتتدنس باتباع الظن واتباع الهوى، أو التقليد الجاهل للأجداد والآباء أو الطاعة العمياء للسادة والكبراء، وقد يصاب الإنسان بداء الغرور والعجب فيظن نفسه شيئًا يقوم وحده ويستغني عن الله!! بيد أن هذه الفطرة تذبل ولا تموت، وتكمن ولا تزول، فإذا أصاب الإنسان من شدائد الحياة وكوارثها ما لا قبل له به، ولا يد له ولا للناس في دفعه ولا رفعه، فسرعان ما تزول القشرة السطحية المضللة، وتبرز الفطرة العميقة الكامنة، وينطلق الصوت المخنوق المحبوس داعيًا ربه

---

(١) د. محمد عبدالله دراز: الدين. دار القلم. الكويت ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م، ص٣٦، ٥٣ بتصرف.

منيبًا إليه][1] كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾[2]، يقول أرنست رينان[3] في تاريخ الأديان: [إن من الممكن أن يضمحل كل شيء نحبه وأن تبطل حرية استعمال العقل والعلم والصناعة، ولكن يستحيل أن ينمحي التدين، بل سيبقى حجة ناطقة على بطلان المذهب المادي الذي يريد أن يحصر الفكر الإنساني في المضايق الدنيئة للحياة الأرضية][4].

والخلاصة أن الدكتور خالف الصواب والحق حين تابع أستاذه دوركايم في هذا القول وكان ينبغي أن يكون للدكتور من تعليمه الذي تلقاه ومجتمعه الذي نشأ فيه عاصم من هذا القول الضال.

دعوى التناقض بين العلم والإيمان:

حين أراد الدكتور أن يبرهن على دعواه السابقة ـ وهي أن الدين خرج من الأرض ولم ينزل من السماء ـ قاده هذا السقوط إلى سقوط أعظم من سابقه فالعيوب والآفات سلاسل متتابعة فإذا وصل المرء إلى إحداها أسلمته إلى غيرها.

قاده سقوطه الأول إلى دعوى عريضة ادعى فيها التناقض بين العلم والدين وزعم أن «الدين في ناحية والعلم في ناحية أخرى وليس إلى لقائهما من سبيل»، ولم يكن هذا الادعاء زلة لسان أو جملة اقتضاها النظم الأدبي، وإنما جاء ترجمة صادقة لاعتقاد كامن في نفسه

---

(١) د. يوسف القرضاوي: الإيمان والحياة ـ مكتبة وهبة. مصر، ط٩ ١٤١٠هـ/١٩٩٠م، ص٩١ بتصرف.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٦٧.

(٣) سبق ترجمته، ص١٠٥.

(٤) د. محمد عبدالله دراز: الدين، ص٨٧.

سرعان ما ظهر للناس في صورة بحث طويل جاء ضمن كتابه «من بعيد» تحت عنوان: «بين العلم والدين» استعرض فيهما ما أسماه قصة الصدام بين الدين والعلم في القديم والحديث حتى وصل إلى عصره الذي يعيش فيه أو بالأحرى حتى تاريخ كتابة البحث (الذي جاء في أعقاب الضجتين اللتين نشبتا بعيد نشر كتاب «الإسلام وأصول الحكم» لعلي عبد الرازق عام ١٩٢٥م وكتاب «في الشعر الجاهلي» عام ١٩٢٦م، واللتين انتهتا إلى إعدام الكتابين، وإلى طرد مؤلفيهما، الأول: من القضاء الشرعي وتجريده من لقب عالم أزهري، والثاني: من الجامعة المصرية)[1].

وانتهى الدكتور في هذا البحث بأن قال: [ستظن بعد أن تقرأ هذا كله أنا لا نرى الخصومة قوية بين العلم والدين في نفسهما، وإنما نرى أن السياسة تستغلها لمنفعتها ولو تركتهما لتصافيا وائتلفا.. كلا! نحن لا نرى هذا الرأي وإنما نرى ما قلناه في أول هذا البحث من أن الخصومة بين العلم والدين أساسية جوهرية لا سبيل إلى اتقائها ولا إلى التخلص منها. هي أساسية جوهرية؛ لأن العلم والدين لا يتصلان بملكة واحدة من ملكات الإنسان، وإنما يتصل أحدهما بالشعور ويتصل الآخر بالعقل، يتأثر أحدهما بالخيال ويستأثر بالعواطف ولا يتأثر الآخر بالخيال إلا بمقدار، لا يعني بالعاطفة إلا من حيث هي موضوع لدرسه وتحليله. والخصومة بين العلم والدين أساسية جوهرية؛ لأن الدين أسن من العلم، ولأنه كان في العصور القديمة كل شيء: كان دينًا وكان علمًا، ولأن العلم جاء بعد ذلك فغير هذا القسم العلمي من الدين،

---

(١) الأستاذ/غازي التوبة: الفكر الإسلامي المعاصر، ص١٥٠ نقلاً عن محمود مهدي الإستانبولي في كتابه: طه حسين في ميزان العلماء والأدباء، ص٣١٦.

وأبى الدين أن يذعن لهذا التغيير، وأبى العلم أن ينزل عما ظفر به من الثمرات، فلن يتفقا إلا إذا جحد أحدهما شخصيته كما قلت في غير هذا المكان، والخصومة بين العلم والدين أساسية جوهرية؛ لأن الدين يرى لنفسه الثبات والاستقرار، ولأن العلم يرى لنفسه التغير والتجدد فلا يمكن أن يتفقا إلا أن ينزل أحدهما عن شخصيته، والخصومة بين العلم والدين أساسية جوهرية؛ لأن أحدهما عظيم جليل واسع المدى بعيد الأمد لا حد له ولا انتهاء لموضوعه، ولأن الآخر متواضع ضئيل محدود المطامع بطيء الخطى يقدم ثم لا يكره أن يحجم، ويمضي ثم لا يكره أن يرتد، ويبني ثم لا يتحرج من الهدم فلا يمكن أن يتفقا إلا أن ينزل أحدهما عن شخصيته فالخصومة بينهما أمر لا بد منه][1].

وبعد هذه النتائج يقرر الدكتور نتائج أخرى لا تقل عن سابقتها في خطورتها إذ يقرر أن (الحكومة المصرية الحديثة وكذلك الحكومة الفرنسية الحديثة لا تقومان على أساس من دين ولا من علم ولا من فلسفه وإنما تقوم الحكومة الحديثة في أقطار الأرض المتحضرة على أساس سياسي خالص من المنفعة الاقتصادية والمدنية لا أكثر ولا أقل، وقد فرغ الناس من هذا وأصبحوا لا يفكرون في أن الحكومة تقوم على الدين أو لا تقوم عليه، فإن فكروا في صلة بين الدين والحكومة وهذا قليل نادر، فإنما يفكرون في طبيعة الموقف الذي يجب أن تقفه الحكومة الحرة الصالحة من دين الكثرة والقلة، أتعترف بهذه الديانات أم تنكرها أو تجهلها من غير اعتراف ولا إنكار)[2].

وهذا الكلام من الوضوح بمكان إذ يفيد أن الحكومات المتحضرة هي

---

(١) طه حسين: من بعيد، المجموعة الكاملة ١٦٩/١٢ ـ ١٧٠.

(٢) المرجع السابق نفسه ١٧٢/١٢.

التي تنبذ الدين ولا تلتفت إليه، وإذا أراد الأفراد أن يتدينوا فتكون الصورة على هذا النحو (تكون أن يمضي رجال الدين في حياتهم الدينية، ورجال العلم في حياتهم العلمية وأن ينصرف السواد إلى حياته العملية المنتجة منتفعًا بالدين فيما بينه وبين الله، منتفعًا بالعلم في تدبير شؤونه اليومية وأن تزول هذه الخصومات المنكرة التي تقسم الناس شيعًا وأحزابًا)[1].

فالدين في رأي الدكتور مجرد صلة روحية بين العبد وربه ليس له صله بالواقع من حوله، وللأفراد الحرية الواسعة في الأخذ به في تهذيب أرواحهم، أو ينصرفون إلى الحياة المادية فيعنون بها ويقصرون هممهم عليها.

ثم يخلص الدكتور في المقابل إلى موقفه من العلم فيقول: (نحن مضطرون إلى أن نعيش، ولن نستطيع أن نعيش إلا إذا اتخذنا أسباب الحياة الحديثة، فنحن محتاجون أن ننتفع بالبخار والكهرباء ونستغل الطبيعة كلها لحياتنا ومنافعنا، والعلم وحده سبيلنا إلى ذلك وهو سبيلنا إلى ذلك على أن ندرسه كما يدرسه الأوروبيون لا كما كان يدرسه آباؤنا منذ قرون، وويل لنا يوم نعدل عن طب باستور[2] إلى طب ابن سينا[3] وداود الأنطاكي[4]، وهذا العلم الحديث الذي لا نستطيع أن

---

(١) طه حسين: من بعيد. المجموعة الكاملة ١٢/١٧٠.

(٢) باستور، لويس (١٨٢٢ ـ ١٨٩٥) كيميائي وبيولوجي فرنسي، كشف دور الجراثيم في الإصابة بمختلف الأمراض. منير البعلبكي. قاموس المورد، معجم الأعلام (أ).

(٣) ابن سينا: أبو علي ابن الحسين بن عبدالله (٣٧٠ ـ ٤٢٨هـ) إمام العلوم كلها والملقب بالشيخ الرئيس، حاز كثيرًا من العلوم وله إسهامات كثيرة في الفلسفة والمنطق والطب. دائرة المعارف الإسلامية ١/٢٠٣.

(٤) داود الأنطاكي: طبيب عربي ولد في أنطاكية مدينة سورية، كان ضرير البصر، أشهر كتبه هو كتاب: «تذكرة أولي الألباب والجامع للعجب العجاب» توفي سنة ١٠٠٨هـ. دائرة المعارف الإسلامية ٣/٦١.

نستغني عنه لا يمكنه أن يعيش ولا أن يثمر إلا في جو كله حرية وتسامح فنحن بين اثنتين: إما أن نؤثر الحياة وإذًا فلا مندوحة عن الحرية وإما أن نؤثر الموت، وإذًا فلنا أن نختار الجمود)[1].

إن الدكتور بتلك المزاعم يشارك نفرًا من الناس في هذا العصر ظنوا «أن الدين أمسى من المخلفات البالية وأن الأجيال الصاعدة يجب أن تكسر قيوده وتتعدى حدوده وتسير وحدها. دون رعاية لرب خالق أو تهيب لجزاء منتظر، ويتعلق أولئك الواهمون بأن العلم فض مغاليق الكون واكتشف أسراره وأرصد لكل مشكلة علاجًا من عنده لم تبق للدين موضعًا ولا لقضاياه مكانًا.

وهذا الكلام إفك كله... إن الدين كان ولم يزل، وسيظل ملتقى العقول السليمة والفطر القويمة ما أخطأ منهجه فكر ثاقب، ولا ضل صراطه طبع نظيف...

وإن العلم مهما اتسعت آماده وامتدت أبعاده، وترادفت كشوفه فلن يجيء إلا بما يصدق الوحي، ويدعم الإيمان ويمكن لهداية الرحمن»[2].

(وليس من الحق في شيء أن نحمل على عواتقنا بعض الاعتراضات الصريحة أو الضمنية التي يوجهها بعض علماء الغرب إلى مذاهبهم غالبًا، وأن نضم إليها ما ينشره بعض الناس ضد الإسلام لمقاصد سياسية أو خصومة مذهبية وأن نُقرَّ بها دون أن نرى حاجة إلى

---

(١) طه حسين: من بعيد. المجموعة الكاملة ١٨٢/١٢.

(٢) الشيخ محمد الغزالي: «مع الله» دراسات في الدعوة والدعاة ـ دار الثقافة قطر طبعة ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م، ص٢٢٨.

سماع الجواب عما اعترض به عليها والدفاع عنها)[1].

الدين والعلم تكامل لا صراع:

(إن حياة الإنسان لا تستقيم إلا باستكمال شعاب العلم شرعية وطبيعية، تهديه الشريعة وتضبط حياته، ويزيده علمه العقلي هدى وعبادة، وإلا فهو يوشك أن يجعل من اكتساب العلم الطبيعي والتقوي به غاية، فيتعاظمه ويهوله ما ينكشف له من حقائق الوجود حتى يحتقر شأن نفسه أو يزدري كرامته ومكانته ومسؤوليته في الحياة، أو تستخفه قوة العلم وتطغيه فيستغله في إتلاف نفسه وهذا تخوف بدأ خطره جليًا مذ أتقن العلم وسائل الحروب الذرية والكيماوية وبلغ بها مدى رهيبًا من القدرة على التدمير... فلا مناص من أن يكون للإنسان هدف أعلى من العلم العقلي ليستمد منه ضابطًا يحكمه في تلك القوة العلمية العظيمة فيكون استغلالها للخير لا للضرر والإهلاك.

ففي إطار الدين الصحيح يلقى الإنسان رشدًا من الوحي لا غناء له من دونه، كما يتهيأ له مناخ صالح للتفكر الحر وطلب العلم حتى يتخذ من وسائل المعرفة العقلية والتجريبية ما يوسع به مداركه، وتتسق بالإيمان مناهج المعرفة وتتحد وجهة العلم)[2].

إن دعوى التناكر بين العلم والدين دعوى كاذبة فالعلم الصحيح والدين الصحيح لا يحدث بينهما تناكر ولا اختلاف. كيف يختلفان

---

(١) المشير/أحمد عزت باشا: الدين والعلم ترجمه من التركية حمزة طاهر، وراجعه د. عبد الوهاب عزام ـ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٣٦٩هـ/سنة ١٩٥٠م، ص١٢٩.

(٢) د. حسن الترابي: الإيمان وأثره في حياة الإنسان. دار القلم ـ الكويت ـ ط٤، سنة ١٤٠٣هـ ـ سنة ١٩٨٣م، ص٢٦٤ بتصرف يسير.

وكلاهما من أمر الله وتقديره. وصدق من قال:

ومن أنكر الأصوات أصواتُ زمرة ... تودُّ لو ان الدين في الأرض حُيدا
يقولون: إن الدين بات قاصرًا ... مقاييسه لا تستر اليوم والغدا
ينادون «بالتحديث» قلت رويدكم ... ومن قال إن الدين يرضى التجمدا
ومن قال إن الدين للعلم منكر؟ ... بـ«إقرأ» تعالى الله قرآنه ابتدا
وأطلق للفكر الكسيح جوانحًا ... وقال اكتشف لي لا أريد المقلدا
تقولون بالأفواه ما ليس خافيًا ... فلا حقَّق الرحمن للكفر مقصدا
أعيد التحدي مرة تلو مرة ... فهذا كتاب الله جيئوا بأجودا
فلستم من الرحمن أدرى بخلقه ... ولستم رسول الله، لستم محمدا[1]

لقد كان من الخطأ الفادح في تاريخ العالم أن انقطعت صلة العلم بالله فحاد عن الصراط المستقيم (فجاء الوحي الإلهي الذي نزل على النبي الأمي يصله بالله ويربطه بالرب تبارك وتعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١﴾[2] حيث جاء ذكر العلم مقرونًا باسم الرب لكي يعلم البشر ضرورة بداية العلم والتعليم والقراءة باسم الرب الذي وهب النعمة الغالية ومنَّ بها على عبده وهو الذي خلقه فلا يتقدم تقدمًا متزنًا إلا تحت توجيهه وهدايته.. ثم يجب الانتباه إلى أن الوحي الإلهي أكد أن طبيعة هذا الدين أنه لن يفارق العلم، لأن الرسالة الأولى التي وجهته إلى البشرية تأمر بالقراءة، فكيف يسوغ أن يبقى المسلمون جاهلين لا

---

(١) الشيخ محمد سويد: الإسلام وغزو الفضاء ـ سلسلة دعوة الحق ـ الصادرة عن رابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة العدد ٧٢ ربيع الأول سنة ١٤٠٨هـ أكتوبر سنة ١٩٨٧م، ص٢٦.

(٢) سورة العلق، الآية: ١.

يعرفون القراءة. والمسلم الذي قطع صلته عن العلم ليس بمسلم حقيقي ولا يجوز له أن يدعي أنه ممثل صحيح للإسلام)[1] لقد كان علماء الإسلام موسوعيين، كان العالم عالمًا في بضعة عشر علمًا ويعد متخصصًا في أي علم يذكر بين هذه العلوم (لقد أسهم علماؤنا في العالم الدنيوي من طب وحكمة وفيزياء وكيمياء وفلك ورياضيات كما أسهموا في علوم الدين من فقه وأصول وحديث وتفسير وغيرها. جميع هذه العلوم كان للمسلمين فيها إضافات وإسهامات لم يسبقوا إليها حتى إن رجلاً عالمًا مثل البيروني[2] قيل عنه :إنه أحد أذكى خمسة رجال خلقهم الله والإمام ابن رشد[3] يقول: نحن «نقرأ ما يكتبه الآخرون فما اتفق معنا ولم يصطدم بعقائدنا أخذناه وشكرناهم، وما لا يتفق رفضناه وشكرناه، ما هذا الرقي وهذا الفكر الرفيع إلا فكر ابن الإسلام وثمرة الإسلام»[4].

ولقد تميز المنهج المعرفي في الإسلام عن مناهج المعرفة لدى الغرب بأمور ثلاثة رئيسية:

---

(١) أبو الحسن الندوي: الدعوة والدعاة مسؤولية وتاريخ، سلسلة دعوة الحق ـ العدد ٨٠ سنة ١٤٠٨هـ/سنة ١٩٨٨م، ص٦٥، ٦٦، الأمير شكيب أرسلان: لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم. تقديم رشيد رضا. دار البشير القاهرة ـ ب. ت، ص١١٧.

(٢) البيروني: أبو الريحان محمد بن أحمد مؤلف عربي من أصل فارسي ولد سنة ٣٦٢هـ ـ له علم بالطب والفلك وغيرها. من آثاره: كتاب الآثار الباقية عن القرون الخالية. دائرة المعارف الإسلامية ٣٩٧/٤.

(٣) سبق ترجمته، ص٨٩.

(٤) د. مصطفى الشكعة: الخطاب الديني والربط بين علوم الدين والدنيا، بحث ضمن مؤتمر تجديد الخطاب الديني لماذا وكيف. سلسلة قضايا إسلامية. وزارة الأوقات المصرية العدد ٨٤ سنة ١٤٢٢هـ، ص١١٨.

(أولاً: الثبات والتطور: فهو إذ يؤكد الثبات في العقيدة والأصول والقيم، فإنه يسمح بالتغيير في التفاصيل والتطوير أو التعدد في النماذج والتطبيقات ولكن دون أي: تجاوز أو خروج عن مبادئه وأحكامه العامة.

ثانيًا: الجمع بين الماديات والروحانيات: ذلك أنه يدعو إلى الثروة والغنى والنظر في الكون والتجريب في المحسوسات وعدم التمسك إلا بالبرهان، نراه يدعو إلى الإيمان والتسليم بالغيبيات واليوم الآخر مما يعجز العقل عن إدراكه والإحاطة به.

ثالثًا: التوفيق بين المتناقضات: فتراه في كافة تطبيقاته يحرص على المصلحة العامة بقدر حرصه على المصلحة الخاصة دون جحد أو نفي إحداهما لحساب الأخرى...

ولا يعرف الإسلام ذلك الانفصام الذي توهمه الفكر الوضعي وشقي به، من أفكار العلمانية من حيث قصر الحياة على المحسوسات وحصر الفكر في الماديات وما صاحبه في الفكر الليبرالي من الفصل بين العلم والدين)[1].

الرسوخ في العلم يهدي إلى الإيمان:

لئن كان الدكتور طه حسين اتخذ من صراع الكنيسة مع العلماء ثم انتقام العلماء من الكنيسة في أعقاب الثورة الفرنسية مبررًا لوجود الصراع بين العلم والدين ثم سحب الكلام على واقع المسلمين فإن

---

(١) د. محمد شوقي الفنجري: جدلية الإسلام ـ سلسلة قضايا إسلامية، وزارة الأوقاف العدد ٥٦ سنة ١٤٢٠هـ، ص٢٠، ٤٣ بتصرف.

ذلك لا يسلم له، لأن واقعنا ليس كواقعهم ولا ديننا كدينهم.

لقد طالت يد التحريف تعاليم دينهم ثم فسرها الأحبار والرهبان على وفق رغباتهم وأهوائهم، فجاء الدين عندهم مشوهًا يخالف العقل والحكمة في كثير من الأمور.

(أما الإسلام فحسبه دعوة إلى العلم أن يكون القرآن هو المعجزة العقلية الكبرى التي تحدت بلغاء العرب قديمًا بسحر بيانها. وما زالت تتحدى العلم حديثًا بدقة شمولها ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾[1].

فالإعجاز البياني في القرآن واضح في فصاحة كلماته وبراعة نظمه وجزالة أسلوبه وبلاغته في الدلالة على معانيه وتحديه للعلم الحديث واضح في اشتماله على أسمى التشريعات الروحية والأدبية والاجتماعية والسياسية والمالية التي كان ولا زال بها أكبر الأثر في إصلاح المجتمع الإنساني واستقراره لبلوغها مرتبة الكمال التشريعي، ويتضح أيضًا في اشتماله على كثير من كوامن العلوم والمعارف التي كانت تجهلها الأمم ثم كشف عنها العلم فيما بعد ولا زال يكشف عنها إلى اليوم، وسوف يظل يكشف عنها على مدى الدهر وإلى الأبد ما زال الاجتهاد فيما لا يمس النص سبيلاً مقبولاً)[2].

إن الدكتور في تلك الدعوى (دعوى التناقض بين الدين والعلم) ردد مقولة ذاعت في الغرب وتلقفها بعض مثقفي العرب ممن تعلموا

---

(١) سورة النساء، الآية: ٨٢.

(٢) د. إبراهيم جميل بدران، د. علي علي حبيش: نحو حضارة إسلامية أساسها العلم والإيمان، سلسلة قضايا إسلامية، وزارة الأوقاف العدد ٨٦ سنة ١٤٢٢هـ/سنة ٢٠٠٢م، ص١٥، ١٦.

في الغرب وتأثروا به، فقد ردد مثل هذه الدعوى فرح أنطون[1] الذي ألف رواية جعل عنوانها: «الدين والعلم والمال»[2] انتهى فيها إلى هذا الحكم الذي ردده الدكتور، ومن الجدير بالذكر أن الدكتور كان يقرأ كتب فرح أنطون وروايته في أيام الطلب الأولى وكان لها في تكوين عقل الدكتور قدر غير قليل.

لكن المطالع لكتابات المستشرقين يجد أن نفرًا غير قليل منهم أنصفوا الإسلام في هذا الجانب.

فرجل مثل «هربرت سبنسر»[3] يرد دعوى التناقض بين العلم والدين على أصحابها قائلاً:

(العلم يناقض الخرافات، ولكنه لا يناقض الدين نفسه، يوجد في كثير من العلم الطبيعي الشائع روح الزندقة، ولكن العلم الصحيح الذي فات المعلومات السطحية، ورسب في أعماق الحقائق براء من هذه الروح. العلم الطبيعي لا ينافي الدين، والتوجه إلى العلم عبادة صامته، واعتراف صامت بنفاسة الأشياء التي نعنيها وندرسها ثم بقدرة خالقها،

---

(١) سبق ترجمته، ص٦٤.

(٢) صدرت هذه الرواية هدية مع جريدة القاهرة العدد ١٤٠ في ١٧ ديسمبر سنة ٢٠٠٢م ضمن سلسلة الكتاب للجميع التي تصدر مع عدد من الجرائد في العالم العربي.

(٣) هربرت، سبنسر (١٨٢٠ ـ ١٩٠٣): فيلسوف إنجليزي، درس الهندسة ثم تحول إلى دراسة العلوم الطبيعية وعلم النفس، لقب: (فيلسوف التطور)، ومن مؤلفاته: أصول البيولوجيا، أصول علم النفس؛ التقى به الإمام محمد عبده في أثناء زيارته لإنجلترا (١٩٠٣)، وبنى سبنسر آراءه التربوية على أسس علمية كما فعل في فلسفته كلها. محمد شفيق غربال: الموسوعة العربية الميسرة، دار إحياء التراث العربي، بيروت طبعة ١٩٦٥ ـ ١/٩٦٠.

فليس ذلك التوجه تسبيحًا شفيهًا، بل هو تسبيح عملي وليس باحترام مدعًىٰ وإنما هو احترام أثمرته تضحية الوقت والتفكير والعمل)[1]..

(ويقول جاستون كارمن الفرنسي المشهور في مقال له ضمن سلسلة مقالات نشرها في جريدة فيجارو عام ١٩١٣م: إن القرآن وهو منبع الدين العقلي ودستوره، قد احتوى على أسس تستند إليها حضارة العالم، ففي إمكاننا أن نقول: إن هذه الحضارات نشأت من امتزاج الأسس التي نشرها الإسلام)[2].

اضطراب وتحير:

إن الدكتور وإن انتهى إلى أن الدين والعلم أمران لا يمكن الجمع بينهما ولا بد أن ينزل أحدهما للآخر عن سلطانه، فإنه قد دعا في الكتاب ذاته إلى أن يجمع المرء بينهما؛ لأنه لا غناء له عنهما ولكنه ساق الكلام في سياق غريب عجيب أذكره بنصه فهو أصدق في الدلالة عن التعبير عنه: (اضطرب البحر ذات ليلة اضطرابًا شديدًا، واصطخبت أمواجه وعصفت الريح فكنت لا تسمع إلا هدير البحر وعصف الريح... ومع ذلك فقد شعرت حقًا في هذه الليلة بأن الإنسان ليس شيئًا مذكورًا، كما أنه لن يكون شيئًا مذكورًا ما دامت الطبيعة على ما هي عليه من القوة والجلال[3]. في مثل هذا الوقت يذكر المؤمن ربه ويلجأ إليه، ويتقرب إليه بضروب العبادة وفنون التقوى، وفي هذا

---

(١) نقلاً عن: د. يوسف القرضاوي: الإيمان والحياة، ص٣٢٧.

(٢) نقلاً عن: المشير/ أحمد عزب باشا: الدين والعلم، ص١٢٣.

(٣) القول بالطبيعة المجردة يتنافى مع الإيمان بأن كل حركة في الكون تجري بأمر الله كما يعتقد المسلم.

الوقت يؤمن الملحد إن كان ضعيفًا، ويزداد عتوًا إن كان ممعنًا في الإلحاد، فيسخر من الحياة كما يسخر من الموت. . .وأعترف بأني في هذا الوقت أحسست شيئًا قد ينكره عليَّ المؤمنون والملحدون جميعًا، أحسست أن إيمان المؤمن وإلحاد الملحد ضرب من الكبرياء وغلو الإنسان في تقرير نفسه وإكبار منزلتها. . . أقول: إن المؤمن الذي يعتقد أن خالق هذا الكون العظيم ومدبره يختصه، بالبر والرحمة، فيعنى به ويحوطه ويحفظه من الطوارئ، ويعصمه من الأحداث، ويرعاه في كل لحظة، بل في كل جزء من أجزاء اللحظة، متكبر يرى نفسه شيئًا مذكورًا يستحق هذه العناية المقدسة العظمى مع أن في هذا الكون ما لا يقاس الإنسان إليه عظمة وجلالاً[1].

وهذا الملحد الذي يستشعر الإلحاد ويتخذه مذهبًا وعقيدة فيعاند وينازع ويدفع عن إلحاده كما يدفع المؤمن عن إيمانه وينكر الله كما يثبته المؤمن، ويعتقد أن العقل كل شيء، وأن آثار العقل وحدها خليقة بالإجلال والإكبار، وأن نجاة الإنسان في عبادة العلم والإذعان له؛ لا في إكبار الدين والخضوع لأوامره ونواهيه. هذا الملحد الذي يمعن في الغرور بقوة العقل والعلم وآثارهما، وبأنه قد سخر لنفسه الطبيعة، فذلل

---

(١) ليس في اعتقاد المؤمن برعاية الله له في كل لحظة وفي كل حركة وسكنة شيء من الكبر أو المبالغة بل هذا اعتقاد يصدقه القرآن في كثير من آياته مثال ذلك: امتنان الله على عباده بنعمة التسخير حين يقول: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾ [الجاثية: ١٣] وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٢٠]. ثم الامتنان على المؤمنين خاصة بنعمة الرعاية حين يقول سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟. . .﴾ [الحج: ٣٨] وقوله: ﴿ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [يونس: ١٠٣].

الماء والهواء والبخار واتخذ الطبيعة لنفسه... عبدًا يأمر فتطيع وينهى فتنتهي، مغرور متكبر؛ لأن عقله وعلمه وقوته وذكاءه مهما تبلغ من العظمة والسلطان، فلن تستطيع أن تعصمه من الأحداث، ولا أن تجعله بمأمن من أقل من هذه الأحداث خطرًا وأحطها مكانه. بهذا شعرت وبهذا فكرت، وأعترف بأني لم ألم المؤمن على إيمانه، ولا الملحد على إلحاده[1] (!!) وإنما أحسست شيئًا من الإشفاق على هذا وذاك وتمنيت لو أتيح للإنسان أن يكون مؤمنًا وعالمًا دون أن يغلو في التعصب للدين أو للعلم. تمنيت للإنسان لو استطاع أن يجمع بين هاتين القوتين اللتين ليس له عنهما غنى ولا منصرف فإن قوة الدين تعصمه من اليأس والهلع وتفتح أمامه أبوابًا من الأمل الذي ليس له حد، وتمكنه من أن يلقى الخطوب ويتجشم الأخطار راضيًا مطمئنًا راجيًا مستبشرًا، وقوة العلم تمكنه من الحياة.

ولكن أيستطيع الإنسان حقًا أن يجمع في نفسه بين هاتين القوتين وأن يطمئن إلى كلتيهما اطمئنانًا بريئًا من التناقض والاضطراب يطمئن إلى الدين دون أن ينكر العقل ويطمئن إلى العقل دون أن يجحد الدين؟

يتحدثون أن كثيرًا من العلماء قد وفقوا إلى هذا وأن «باستور» على جلال خطره وبعد أثره في العلم كان أشد الناس تدينًا وأكثرهم إيمانًا، فمتى يكثر في الناس أمثال «باستور»؟اهـ)[2].

---

(١) لماذا يلتمس الدكتور العذر للملحد؟! وهل كان ذلك لأنه يرى رأيه في قضية العلم والدين.

(٢) طه حسين: من بعيد. المجموعة الكاملة ـ الشركة العالمية للكتاب بيروت ١٢/١٦ ـ ١٨ بتصرف.

وتساؤل الدكتور الأخير هذا يثير أكثر من تساؤل! أيعني بقوله: فمتى يكثر في الناس أمثال «باستور» استعجاله لما تمناه في سابق حديثه أن يوجد أشخاص يجمعون في قلوبهم ونفوسهم بين العلم والإيمان؟

أم يعني استبعاد وجود كثيرين أمثال باستور هذا فهو حالة واحدة ولا يقاس عليها؟

ولو حملنا كلامه على المعنى الأول لأوقعنا الدكتور في حيرة معه كيف يقول هذا ويتمناه ثم يقول بنقيضه في نهاية كتابه؟ وإذا حملنا تساؤله على المعنى الثاني تشابه كلامه هذا مع كلامه ذاك فلا تعارض ولا مخالفة.

القرآن والنظريات العلمية:

ومن القضايا التي نشأت عن قضية العلاقة بين العلم والدين لدى الدكتور طه حسين قضية القرآن والقضايا العلمية أو إن صح التعبير التفسير العلمي للقرآن أو لبعض آياته.

أنكر الدكتور على بعض العلماء تفسيرهم لبعض الآيات الكونية إذ ربطوها ببعض المعارف العلمية التي ظهرت في بعض العصور فلما ظهر خلافها راحوا يفسرون النصوص ذاتها بما أثبته العلم حديثًا وظهر بذلك اضطرابهم واختلافهم.

لقد رفض الدكتور موضوع التفسير العلمي[1] جملة وتفصيلاً

---

(١) قضية التفسير العلمي كانت موضع أخذ ورد بين العلماء في القديم والحديث، فممن قال به قديمًا الإمام الغزالي والسيوطي وأبو الفضل المرسي، ومن المحدثين: الشيخ طنطاوي جوهري في تفسيره الجواهر ومصطفى صادق الرافعي في كتابه إعجاز القرآن والكواكبي في كتاب طبائع الاستبداد، وقال برد هذا=

وتمنى أن يتنزه القرآن عن شكوك العلماء وآرائهم التي تتحول بتغير الأيام وتبدلها.

يقول طه: (كنت أقرأ في أعداد السياسة الأخيرة محاضرة صاحب الفضلية أستاذنا الجليل الشيخ محمد بخيت في الرد على «نورمان»[1] فرأيته يبذل كل ما يستطيع من قوة وجهد وينفق علمه الواسع العميق ليثبت أن الإسلام دين العلم، بل ليثبت شيئًا آخر غير هذا وهو أن القرآن الكريم لا يتناقض بلفظه ولا بمعناه مع أصول العلم الحديث، بل هو فوق هذا يشتمل على أصول العلم الحديث، ورأيت الأستاذ يستنبط من القرآن الكريم كروية الأرض وحركتها حول الشمس وحول نفسها واختلاف الفصول واختلاف الليل والنهار فأعجبت بهذا الجهد العنيف الذي لا مصدر له إلا البر والتقوى) ثم يقول: (أليس من الخير ألا نغلو في الشك ولا نغلو في اليقين ـ يقصد النفي والإثبات ـ أليس من الخير أن نكتفي بالترجيح؟ ثم أليس من الخير ألا نحمل نصوص القرآن وغير القرآن من الكتب الدينية أوزار الشك وأوزار اليقين وهذه النتائج الكثيرة المختلفة المضطربة المتناقضة التي تنشأ عن أمزجتنا المختلفة المضطربة المتناقضة)[2] ثم يدعو دعوته الصريحة حين يقول: (إنا لنحسن الإحسان كله إذا رفعنا الدين ونصوصه عن اضطراب العلم

= النوع من التفسير من القدامى: الإمام الشاطبي، ومن المحدثين: الشيخ محمود شلتوت والشيخ أمين الخولي والشيخ رشيد رضا والشيخ محمد مصطفى المراغي. راجع د. محمد حسين الذهبي: التفسير والمفسرون ـ مكتبة وهبة ـ القاهرة ـ طبعة رابعة ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م، ٢/٤٧٥، ٤٩٦.

(١) نورمان: كاتب فرنسي ألف كتابًا سماه (مملكة السماوات) زعم فيه أن الأرض غير كروية. من بعيد ١٢/٣٩.

(٢) طه حسين: من بعيد. المجموعة الكاملة ١٢/٣٩ ـ ٤١ بتصرف.

وتناقضه)[1].

ومن هذا المنطلق رفض الدكتور طه حسين تفسير الإمام محمد عبده للطير الأبابيل[2] بقوله: (فهؤلاء الذين يزعمون أن الطير الأبابيل وما رمت به جيش الحبشة أمام مكة، إنما كانت وباء من الأوبئة، وكانت الحجارة ضربًا من الميكروبات. إنما يقولون هذا من عند أنفسهم وهم يعلمون حق العلم أن النبي ﷺ وأصحابه لم يفهموا هذه السورة على هذا النحو وما كان لهم أن يفهموها على هذا النحو، فهم لم يكونوا يعرفون الميكروب وما كان لهم أن يعرفوه. والذين يقولون: إن السماوات السبع التي تذكر في القرآن هي الكواكب السيارة، إنما يرجمون بالغيب ويقولون ما لم يقله النبي وأصحابه، ومصدر هذا أنهم يريدون أن يلائموا بين القرآن ومستكشفات العلم الحديث، فيضطرهم ذلك إلى تكليف النصوص من التأويل ما لا تحتمل. وليس على الدين بأس أن يلائم العلم الحديث أو لا يلائمه. فالدين من علم الله الذي لا

---

(١) طه حسين: من بعيد. المجموعة الكاملة ٣٩/١٢ ـ ٤١ بتصرف.

(٢) قال الأستاذ الإمام في بيان حقيقة الطير الأبابيل: يجوز لك أن تعتقد أن هذا الطير من جنس البعوض أو الذباب الذي يحمل جراثيم بعض الأمراض، وأن تكون هذه الحجارة من الطين المسموم اليابس الذي تحمله الرياح فيعلق بأرجل هذه الحيوانات، فإذا اتصل بجسد دخل في مسامه فأثار فيه تلك القروح التي تنتهي بإفساد الجسم وتساقط لحمه، وإن كثيرًا من هذه الطيور الضعيفة يعد من أعظم جنود الله في إهلاك من يريد إهلاكه من البشر، وأن هذا الحيوان الصغير الذي يسمونه الآن بالميكروب لا يخرج عنها، وهو فرق وجماعات لا يحصي عددها إلا بارئها، ولا يتوقف ظهور أثر قدرة الله في قهر الطاغين على أن يكون الطير في ضخامة رؤوس الجبال. فهذا الطاغية الذي أراد أن يهدم البيت أرسل الله عليه من الطير ما يوصل إليه مادة الجدري أو الحصبة فأهلكته وأهلكت قومه قبل أن يدخل مكة. نقلاً عن: عباس محمود العقاد: الإسلام دعوة عالمية ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ مكتبة الأسرة ١٩٩٩م، ص١٩١.

حد له، والعلم الحديث كالعلم القديم محدود بطاقة العقل الإنساني وبهذا العالم الذي يعيش فيه الإنسان)[1]، فالدكتور في هذا الموضوع معه بعض الحق (فمن الخطأ البين في اعتقادنا أن نجعل تفسير القرآن تابعًا للنظريات العلمية التي تنقض اليوم ما تثبته بالأمس، والتي يجري عليها الجدل بين المدارس العلمية أو الفلسفية على أسس شتى لم يتفق عليها العلماء)[2].

وعلى الدكتور بعض الحق فمما لا يمارى فيه أن هناك كثيرًا من القضايا أثبت العلم الحديث صحتها قد نطق بها القرآن باللفظ الصريح منذ زمن بعيد لكنا نعود فنقول: (إن القرآن أتى بأصول عامة لكل ما يهم الإنسان معرفته به، ليبلغ درجة الكمال جسدًا وروحًا، وترك الباب مفتوحًا لأهل الذكر من المشتغلين بالعلوم المختلفة، ليبينوا للناس جزئياتها بقدر ما أوتوا منها في الزمان الذي هم عائشون فيه... ويجب أن لا نجر الآية إلى العلوم كي نفسرها ولا العلوم إلى الآية ولكن إن اتفق ظاهر الآية مع حقيقة علمية ثابتة فسرناها بها)[3] فقطع الصلة بين القرآن والعلم تمامًا تفريط والمغالاة في تأويل الآيات وربطها بأقوال العلماء إفراط غير مقبول، والحق في الوسط بين تلك الرذيلتين.

(١) طه حسين: مرآة الإسلام ـ دار المعارف ـ مصر ـ ب. ت، ص٢٨٣، ٢٨٤.

(٢) عباس محمود العقاد: الإسلام دعوة عالمية، ص١٨٧.

(٣) د. محمد حسين الذهبي: التفسير والمفسرون ٢/٤٩٥، ٤٩٦.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

المبحث الثاني

طه حسين ونزعة الشك

لم تظهر نزعة الشك لدى طه حسين عند دراسته للشعر الجاهلي من خلال محاضراته في الجامعة المصرية؛ ولم يكن كتابه «في الشعر الجاهلي» أول كتاب يُظهر فيه نزعة الشك بل إن نزعة الشك صاحبته في أطوار حياته الأولى بحكم نشأته وظروفه الخاصة، وليس هذا الكلام افتئاتًا على الرجل، إنما هو الذي اعترف بذلك في مذكراته «الأيام» حين كان يصور حاله في مراحل الطلب الأولى فقد كان من حاله أنه «. . . كان ينكر الناس وينكر الأشياء، وكان كثيرًا ما ينكر نفسه ويشك في وجوده»[1].

تبني طه حسين لنظرية الشك:

أعلن طه تبنيه لنظرية الشك حين شك في نسبة الشعر الجاهلي إلى العرب الجاهليين حتى انتهى به هذا الشك ـ كما قال ـ «إلى شيء إلا يكن يقينًا فهو قريب من اليقين وهو أن الكثرة المطلقة مما نسميه

(١) طه حسين: الأيام. دار المعارف ٣/١١٤.

أدبًا جاهليًا ليس من الجاهلية في شيء وإنما هو منحول بعد ظهور الإسلام فهو إسلامي يمثل حياة المسلمين وميولهم وأهواءهم أكثر مما يمثل حياة الجاهليين»[1].

أما منهج البحث الذي اتخذه للوصول إلى هذه النتيجة فهو الذي صوره بقوله: «أريد أن أصطنع في الأدب هذا المنهج الفلسفي الذي استحدثه ديكارت[2] للبحث عن حقائق الأشياء في أول هذا العصر الحديث، والناس جميعًا يعلمون أن القاعدة الأساسية لهذا المنهج هي أن يتجرد الباحث من كل شيء كان يعلمه من قبل وأن يستقبل موضوع بحثه خالي الذهن مما قيل فيه خلوًا تامًا، والناس جميعًا يعلمون أن هذا المنهج الذي سخط عليه أنصار القديم في الدين والفلسفة يوم ظهر، قد كان من أخصب المناهج وأقواها وأحسنها أثرًا، وأنه قد جدد العلم والفلسفة تجديدًا وأنه قد غير مذاهب الأدباء في أدبهم والفنانين في فنونهم وأنه هو الطابع الذي يمتاز به هذا العصر الحديث... نعم! يجب حين نستقبل البحث عن الأدب العربي وتاريخه أن ننسى عواطفنا القومية وكل مشخصاتها، وأن ننسى عواطفنا الدينية وكل ما يتصل بها، وأن ننسى ما يضاد هذه العواطف القومية والدينية؛ يجب ألا نتقيد بشيء ولا نذعن لشيء إلا مناهج البحث العلمي الصحيح. ذلك أنا إذا لم ننس هذه العواطف وما يتصل بها فسنضطر إلى المحاباة وإرضاء العواطف وسنغل عقولنا بما يلائمها، وهل فعل القدماء غير هذا؟ وهل أفسد علم القدماء شيء غير هذا...»[3].

---

(١) طه حسين: في الأدب الجاهلي. المجموعة الكاملة، الشركة العالمية للكتاب ـ بيروت ٥/٦٧.

(٢) سبق التعريف به، ص١٠٢.

(٣) طه حسين: في الأدب الجاهلي، المجموعة الكاملة ٥/٧٠ بتصرف.

وهذا المنهج هو الذي نعنيه بالدراسة أما موضوع البحث ـ أعني نسبة الشعر الجاهلي ـ فليس مما يتوافق مع موضوع البحث فلا حاجة لنا في الحديث عنه.

وعنايتنا بالحديث عن هذا المنهج لنرى مناسبته وملائمته للباحث المسلم، وهل من الحق أن من ضروريات البحث أن ينسى الباحث دينه وقوميته؟!

(إن طه حسين ذهب إلى أن نسيان القومية والدين شرط أساس في البحث العلمي. إن كان أراد بذلك أن على الباحث ألا يخفي بعض الحق أو يتراخى في استيفاء الدليل العلمي محاباة لقوميته أو إرضاء لعاطفته الدينية فقد أصاب. أما إذا كان أراد أن الإنسان لا يستطيع أن يكون ذا عاطفة قومية أو دينية قوية من غير أن يحابي أو يداجي في العلم فقد أخطأ ولم يصب، إن الإنسان عليه أن يراعي الدقة العلمية التامة في البحث وهو متذكر دينه كل التذكر، ومعتقد بصحته كل الاعتقاد، غير مجوز على قرآنه خطأ أو على توراته، بل إن التدين الصحيح يزيد الباحث المخلص إن أمكن حرصًا على الحق واستمساكًا به إذا وصل إليه. إن الباحث المتدين بين محبين في الحق: دينه وعلمه، ومبغضين في الباطل: دينه وعلمه كذلك. فهو يحب الحق مرتين مرة لدينه ومرة لعلمه ويبغض الباطل مرتين كذلك. لا خوف عليه مطلقًا أن يخفي بعض الحق أو يدلس في البحث محاباة لدينه، إذ ليس الحق يخاف على دينه ولكن الباطل. هو يعلم أن دينه حق، يعلم ذلك علمَ مستيقنٍ. ويعلم أن العلم قائم على قاعدة استحالة التنافي بين أجزاء الحق، يعلم ذلك علم مستيقن أيضًا. فهو لا يخشى أبدًا أن يكشف البحث الصحيح عن حقيقة تنافي دينه، ولذلك يمضي في أبحاثه آمنًا

مطمئنًا متبعًا أقوم الطرق في البحث والتفكير، لا لأن هذا هو الطريق الوحيد للوصول إلى نتائج صحيحة فحسب، ولكن لأن هذا في اعتقاده هو أيضًا الطريق الوحيد الذي لا يؤدي إلى تخالف بين العلم الذي يبحث فيه والدين الذي يؤمن به، فالتدين الصحيح والتفكير العلمي الصحيح لا يتعارضان بل يتضافران على خدمة العلم ويبعثان على الإخلاص في البحث)[1]، وكانت عنايتنا بمذهب الشك لأن الدكتور اتخذه سبيلاً لإنكار الحقائق الثابتة وتكذيب القرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؛ ولأن الدكتور فسر نظرية الشك بغير معناها فالعلماء المتخصصون في الفلسفة يذهبون إلى (أن منهج ديكارت لم يكن منهج شك للشك ذاته، وإنما يتخذ الشك وسيلة لليقين، وأن خلاصة هذا المنهج ألا يقبل المرء أمرًا على أنه حقيقة إلا إذا قامت الدلائل البينة على صحته، وأن ديكارت مع ذلك كان يسلم بوجود أشياء لا يجادل فيها، فهو بذلك يكون منهجًا إيجابيًا لا سلبيًا ويستشهد على ذلك بقول أحد دارسي تاريخ المذاهب الفلسفية من الفرنسيين إذ قال: «وقد آلى ديكارت على نفسه أن لا يقبل المعلومات مهما كانت صفتها وقوة الثقة الملازمة لا، ما عدا الحقائق الخاصة بالعقيدة، فإنه لم يطبق عليها هذه الطريقة»[2].

إن ديكارت وإن كان قد قال: (إن عقلنا مشحون بأحكام ألفناها في عهد الطفولة، أو قبلناها من المعلمين قبل تمام النضج والرشد وإذا

---

(١) محمد مهدي الإستانبولي: طه حسين في ميزان العلماء والأدباء، ص٣٥٢ نقلاً عن د. محمد أحمد الغمراوي: النقد التحليلي لكتاب في الشعر الجاهلي، ص١١٠ وما بعدها.

(٢) المرجع السابق نفسه، ص٧٢ نقلاً عن كتاب مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية للدكتور ناصر الدين الأسد.

نظرنا في العلوم وجدناها تكونت وتضخمت شيئًا فشيئًا بتعاون رجال مختلفين، فجاءت كالثوب الملفق أو البناء المرمم، فإذا أردنا أن نقرر شيئًا مختلفًا في العلوم كان من الضروري أن نشرع في العمل من جديد)[1].

فهو لم يعن بذلك هدم الثوابت الاعتقادية والأخلاقية التي تحكم حياة الناس وإلا كان منهجه ذلك ضربًا من الفوضى لقد كان من أخلاق ديكارت التي ارتضاها لنفسه قوله: (لقد وضعت لنفسي قواعد للأخلاق أولها أن أطيع قوانين بلادها وعاداتها، مع ثبات في محافظتي على الديانة التي أنعم الله عليَّ بأن نشأت فيها منذ طفولتي، وأن أحكم نفسي في كل أمر آخر تبعًا لأكثر الآراء اعتدالاً وأبعدها عن الإفراط، والتي أجمع على الرضى بها في العمل أعقل الذين سأعيش معهم)[2].

فتجرد الباحث عن قوميته وعن دينه عند عزمه على البحث وإقباله عليه ليس من مذهب ديكارت كما نسبه الدكتور طه إليه، فقد بان لنا من كلام ديكارت أنه يراعي نظم وتقاليد الجماعة التي يقيم فيها ثم هو ديِّن محافظ على تعاليم دينه لا يتناولها بشك ولا ريب. ثم إن الفساد البين في رأي الدكتور ظاهر في قوله: «أن يتجرد الباحث من كل شيء كان يعلمه عن موضوع بحثه من قبل» هذا الأمر الذي يقتضي أن يتولى كل فرد إثبات كل شيء لنفسه بنفسه وهذه سخافة لا يقول بها عاقل إذ

---

(١) رجاء عيد: التاريخ الأدبي والنظرية الأدبية (بحث ضمن كتاب طه حسين مائة عام من النهوض العربي. في الذكرى المئوية لمولده ـ سلسلة فكر ـ العدد ١٤ ـ دار الفكر للدراسات والأبحاث ـ مصر، ص١١٠.

(٢) رينيه ديكارت: مقالة عن المنهج. الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ مكتبة الأسرة ٢٠٠٠م، ص٦٣.

لا ينتج عنها إلا التأخر والخطأ والفوضى كما ذكرت من قبل.

(من المعروف أن طه حسين تأثر بديكارت، وكلمة تأثر لا تعني بأية حال من الأحوال معنى الاستيعاب. فبإمكاننا أن نفترض أنه تأثر بديكارت وفلسفته، ولكن ليس بالضرورة أن يكون قد استوعب أفكاره وأسلوبه في التفكير والاستنباط. . .

ومن الواضح أن الفرق كبير بين الشك المؤدي إلى الإنكار وبين الشك المؤدي إلى الإيمان والمعرفة، وكثيرون من معاصري طه حسين لاحظوا أنه ساوى بين الشك والإنكار وجعلهما في معيار واحد خصوصًا عندما يصدر عنه مثل هذا القول: «والشك الذي يبعث على القلق والاضطراب ينتهي في كثير من الأحيان إلى الجحود والإنكار» وتعبير طه حسين (في كثير من الأحيان) يعني بالنسبة لأسلوبه، في كل الأحيان، وحتى إذا كنا مخطئين في هذا الاستنتاج فإننا لم نخطئ في اعتبار الشك عنده ضربًا من ضروب النكران والجحود وبنى منهجه عليه في البحث والدراسة بصورة عامة. مما جعل الشك كمذهب أو فلسفة يفقد أصالته الفكرية بينما نجد الغزالي[1] مثلاً الذي سبق طه حسين بتسعة قرون تقريبًا لم يكن الشك عنده عامل نقد وتهديم، بل تعداهما إلى تشييد صرح أخلاقي وديني على أسس قوية.

والشك عند الغزالي كان ضربًا من ضروب الرياضة الفكرية والانتقال مما هو أدنى إلى ما هو أسمى مجتازًا في سبيل معرفة الحق مختلف الأهواء والسفسطات، وحتى المعارف المعترف بها تراثًا أو

---

(١) أبو حامد الغزالي: من فلاسفة المسلمين (٤٥٠هـ ـ ٥٠٥هـ) أشهر مؤلفاته إحياء علوم الدين، المنقذ من الضلال، وتهافت الفلاسفة وغيرها. (مقالات في طه حسين، ص٣١).

معاصرة)[1]، وكثير من الباحثين يعدون أبا حامد الغزالي رائد الشك المنهجي أو التجريبي[2] الذي يسميه البعض الشك العلمي (والذي يعرف بأنه منهج يفرضه صاحبه بإرادته رغبة منه في امتحان معلوماته واختبار معرفته، وتطهير عقله من كل ما يحويه من مغالطات وأضاليل وهو يمكن صاحبه من البدء بدراسة موضوعه وكأنه لا يعلم عنه شيئًا فلا يتأثر بالأخطاء المألوفة، أو المغالطات التي يتلقاها عن غيره من الناس أو يقرأها في كتب الباحثين. والفرق بين الشك المنهجي والشك المطلق هو أن أصحاب الشك المنهجي يستخدمونه وسيلة لا غاية كما أنه يقتصر عندهم على العلوم النظرية المكتسبة ولا علاقة له بالوحي وأمور الدين. . . هذا المعنى يؤكده أبو حامد الغزالي بقوله: «لا يجوز أن يهجر كل حق سابق لخاطر مبطل، وإلا لزم هجر كثير من الحق كالقرآن والسُّنَّة والعقيدة» ويقول ديكارت كذلك: «إن حقائق الوحي لا تُدرك إلا بمدد من السماء خارق للعادة»)[3].

ومن هنا نستطيع القول بأن الدكتور لم يوافق الصواب حين اتخذ من الشك ـ حسبما صوَّره ـ تكأة لتكذيب صريح القرآن حين قال: (للتوراة أن تحدثنا عن إبراهيم وإسماعيل، وللقرآن أن يحدثنا عنهما أيضًا، ولكن ورود هذين الاسمين في التوراة والقرآن لا يكفي لإثبات وجودهما التاريخي فضلاً عن إثبات هذه القصة التي تحدثت بهجرة

---

(١) عبد الغني الملاح: مقالات في طه حسين ـ بيروت. الدار العالمية للطباعة، ط١، سنة ١٤٠٤هـ، ص١٤ وما بعدها بتصرف.

(٢) انظر: الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة. إشراف د. مانع الجهني. دار الندوة العالمية للشباب الإسلامي، السعودية ط٣، سنة ١٤١٨هـ، ١٠٩٢/٢.

(٣) الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة ١٠٩٢/٢ بتصرف.

إسماعيل بن إبراهيم إلى مكة ونشأة العرب المستعربين فيها ونحن مضطرون إلى أن نرى في هذه القصة نوعًا من الحيلة)[1].

ولقد اتخذ الدكتور من الشك منهجًا زاعمًا أنه يرمي إلى تحرير الأدب العربي من القيود التي تربطه بالعلوم العربية والعواطف الدينية وحتى يدرس الأدب لنفسه دون أن يكون وسيلة لفهم القرآن والحديث.

دعوى حرية الأدب:

دعوى أطلقها الدكتور لينفي عن نفسه الحرج إذا كذب صريح القرآن أو دعا إلى ما يخالف أخلاق الإسلام يقول: (أنا أريد أن أدرس تاريخ الآداب في حرية وشرف كما يدرس صاحب العلم الطبيعي علم الحيوان والنبات لا أخشى في هذا الدرس أي سلطان!!... وما لي أدرس لأقصر حياتي على مدح أهل السنة وذم المعتزلة والشيعة والخوارج وليس لي في هذا كله شأن ولا منفعة ولا غاية علمية؟ ومن الذي يستطيع أن يكلفني أن أدرس الأدب لأكون مبشرًا بالإسلام أو هادمًا للإلحاد وأنا لا أريد أن أبشر ولا أريد أن أناقش الملحدين، وأنا أكتفي من هذا كله بما بيني وبين الله من حظ ديني)[2].

بهذا الوضوح يعلن طه حسين أن الدين مجرد صلة بين العبد وربه، أما في مجال البحث العلمي والكتابة الأدبية فينبغي نسيان الدين وإغفاله من الذاكرة، وإذا كان الغربيون الذين يحتفي الدكتور بذكرهم

---

(١) سامح كريم: معارك طه حسين الأدبية والفكرية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مكتبة الأسرة ١٩٩، ص٧٣ نقلًا عن د. طه حسين: في الشعر الجاهلي، ص٢٦.

(٢) طه حسين: في الأدب الجاهلي، المجموعة الكاملة ٥/٦٠.

ويريد أن يدرس الأدب كدراستهم للعلم الطبيعي، إذا كانوا قد قدسوا العلم التجريبي فآمنوا بما تصل إليه حواسهم وأسقطوا من حسابهم كل ما لا تستطيع أن تصل إليه وأغلقوا منافذ المعرفة جميعًا إلا هذا المنفذ الواحد دون سواه، إذا كانوا فعلوا ذلك كله ليتنكروا لله فلهم من كفرهم وإلحادهم ما يبرر صنيعهم، أما الشيخ طه فما حاجته لمحاكاة هؤلاء وتقليدهم إن هؤلاء صدق فيهم قول الله: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾[1]، إن حرية الأدب كما أرادها الدكتور طه حسين إنما تعني فصله عن الارتباط بالفكر الإسلامي (وأنه قد رمى إلى غرض آخر هو تحرير الأدب من قيود الأخلاق فلا يكون هناك تحرج خلقي من معنى خسيس ما دام هذا المعنى يورده صاحبه في شكل فني يتذوقه ويلذه، نتيجة لضعف أثر الأخلاق الفاضلة في نفسه ولكنه الأدب ينبغي ألا يستقل قط عن الأخلاق استقلالاً يجعله لا يبالي أوافق رذائلها أو خالف فضائلها فإن الله قد خلق الإنسان وحدة متماسكة لا أوصالاً مفصولة، وإذا كان الخلق الكريم والعاطفة النبيلة والدين الصحيح ضروريًا للإنسان فلن يكون لمن يهمه رقي الإنسان بدٌّ من محاربة كل ما يضعف ذلك فيه، فنًّا كان أو غير فنّ، أدبًا كان أو تمثيلاً أو تصويرًا أو ما تشاء أن تسمي من الفنون)[2].

أخلاقية الأدب أو الصدق الفني:

دعوى يريد بها قائلوها أن يكتب الشاعر أو الأديب والفنان

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٤٥.

(٢) أنور الجندي: محاكمة فكر طه حسين. دار الاعتصام. ب. ت، ص٤٦.

الصورة الواقعية بما فيها من إباحيات وسموم وزيف تحت دعوى الواقعية أو حرية الأدب ولقد كان الدكتور طه حسين أحد الذين تولوا الترويج لهذه الفكرة، وذلك من خلال خطين سار فيهما.

(**الأول**: الحديث عن الأدب القديم خاصة الأدب الذي يُعنى بشعراء الإباحة في العصر العباسي ونشر الجوانب الشاذة من أحاديثهم وأسمارهم على نحو ما كتب في حديث الأربعاء.

الثاني: ترجمة القصص الغربي الإباحي، والكشف عن جوانب الصراع الحسي في العلاقات الشاذة بين الرجل والمرأة)[1]..

لقد هام الدكتور بشعر بعض الإباحيين وأثنى عليه مشيدًا بما فيه من روعة الأدب وجمال الصورة وإشراق العبارة قائلاً قولته المشهورة: (خسرت الأخلاق من هذا التطور وربح الأدب)[2].

ولم يفُتّ في عضد الدكتور أن نعته بعض الأدباء بأنه من دعاة الفوضى في الأدب وصدَّق الدكتور عَلَى كلامه بقوله: (جعلني صديقي من أصحاب الفوضى في الأدب وأنا حريص كل الحرص على أن أكون من أصحاب الفوضى في الأدب؛ لأني لا أستطيع أن أتصور الأدب على غير هذا النحو، ولا أستطيع أن أنتظر منه خيرًا ولا أن أرجو له خصبًا، إلا إذا اعتمد على الحرية المطلقة التي لا تعرف حدًا ولا قيدًا ولا تخضع لنظام ولا قانون... صدقوني أيها الزملاء إن من الإسراف أن تفرضوا النظام على كل شيء، فدعوا الأدب حرًا طليقًا، كما أراد

---

(١) أسامة يوسف شهاب: نحو أدب إسلامي معاصر: دار البشير ـ عمان، ط١ سنة ١٤٠٥هـ، ص١٤.

(٢) نقلاً عن أنور الجندي: محاكمة فكر طه حسين، ص٦٩.

الله له أن يكون، ليكتب من شاء ما يشاء، وينتقد من شاء ما يشاء كما يشاء فلا حياة للأدب إلا بهذا)[1].

لقد كان الدكتور دائم التحسر لعدم وجود الحرية كما يراها على أرض الواقع ولطالما بث شكواه وأظهر أحاسيسه في كلمات مملوءة بالأسى والحزن فتراه يقول: (إن حرية الأديب أسطورة من الأساطير وإن من الإسراف والغرور أن يُنظر إليه كما ينظر إلى الرجل الذي يستمتع بحرية كاملة أو شبيهة بالكاملة... وأنت ترى الآن أنه قلما يستطيع إذاعة كل ما ينتجه وإنما هو مقيد في ذلك بالبيئة التي يعيش فيها أو بالذوق العام وأنت تعلم أن هناك سلطانًا آخر يقيد الأديب ويغله في الإنتاج وإذاعة ما ينتج وهو سلطان الحكومة تهيمن على حماية المظاهر العامة للحياة الاجتماعية كالدين والأخلاق والنظم المختلفة. أفبعد هذا كله تذكر حرية الأدباء في الإنتاج والإذاعة دون أن تقرن بهذا الذكر ابتسامة ملؤها السخرية والإشفاق)[2].

الحق أن كل ما ذكرناه في هذا المبحث من نقاط يدور على محاولة الدكتور طه حسين فصل الأدب عن الإسلام كمحور ارتكاز ونقطة انطلاق والدكتور بهذا السعي في تلك السبيل أسدى لأعداء الإسلام جميلاً لا يقدر بثمن مما حدا بمستشرق مثل كامبغماير[3] يشيد

---

(١) طه حسين: حديث الأربعاء، المجموعة الكاملة ٧٨٨/٢ وما بعدها بتصرف.

(٢) طه حسين: قيود وأغلال (مقال) المجلة الجديدة ـ المركز العربي للدراسات والنشر، ط١ سنة ١٩٩٧ المجلد الأول ويضم الأعداد الصادرة في نوفمبر سنة ١٩٢٦ إلى أكتوبر سنة ١٩٣٩، ٤٥٤/١.

(٣) كامبغماير، ج (١٨٦٤ ـ ١٩٣٦) مستشرق ألماني تخصص في الإسلام واللهجات العربية من معهد اللغات الشرقية ببرلين سنة ١٩٠٧، رأس تحرير مجلة عالم الإسلام ونشر فيها مقالات باللغتين الألمانية والعربية عن المؤلفات=

بجهد الدكتور بقوله: (إن المحاولة الجريئة التي قام بها طه حسين ومن يشايعه في الرأي لتخليص دراسة العربية من شباك العلوم الدينية هي حركة لا يمكن تحديد آثارها على مستقبل الإسلام مهما أسرفنا في التقدير في فكره لا تجد كلمة عنها)[1].

من آثار القطيعة بين الإسلام والأدب في فكر طه حسين:

ولقد كان من آثار القطيعة التي اصطنعها الدكتور بين الإسلام والأدب أنه لم يلتزم الحس الإسلامي في الكتابة والتعبير في مقالاته وكتبه، اللَّهم إلا في كتب معينة كان يحن إلى فطرته الأصيلة فكانت تعبيراته تجري موافقة لبعض المعاني التي جاءت بها آيات القرآن مثل ما جاء في كتاب «جنة الشوك».

لكن الدكتور في غالب كتاباته كان ينحو نحو كتاب الغرب في وصفهم وتعبيرهم مما كان يدخله مداخل لا تليق به كرجل مسلم درس أول ما درس بالأزهر الشريف فعرف الحلال والحرام وما يجوز وما لا يجوز، من ذلك إغراقه في وصف صديق له وصفًا يدخل في باب الذم، فأفرط في الذم وأسرف حتى عاب الله سبحانه في صنعه وخلقه يقول وهو يصف صاحبه: (كان قبيح الشكل، نابي الصورة تقتحمه العين ولا تكاد تثبت فيه، وكان إلى القصر أقرب منه إلى الطول، وكان على قصره عريضًا ضخم الأطراف مرتبكها كأنما سوِّي على عجل،

= الحديثة في الأدب العربي المعاصر، ومن آثاره زعماء الأدب العربي العصري وفيه تعريف بطه حسين والعقاد وعلي عبد الرازق وغيرهم. المستشرقون ٤١٣/٢.

(١) أنور الجندي: محاكمة فكر طه حسين، ص٤٧.

فزادت بعض أطرافه حيث كان يجب أن تنقص، ونقصت حيث كان يحسن أن تزيد، وكان وجهه جهمًا غليظًا يخيل إلى من رآه أن في خديه ورمًا فاحشًا. . .)[1].

فكلمات «كأنما سوي على عجل، فزادت بعض أطرافه حيث كان يجب أن تنقص. . .» تنافي الحس الإسلامي، وينبغي للأديب المسلم أن ينزه قلمه عن مثل هذا الوصف؛ لأنه طعن في ذات الله وإنكار عليه في صنعه، والعجب أن يصدر مثل هذه الكلمات في وصف الخلقة عن الدكتور وهو الذي حرم نعمة البصر التي بها يدرك التمييز بين حسن الخلقة وغيره، ولكنه شيطان البيان كما يسميه الأدباء، يدعو صاحبه لأن يقول ما يحلو له غير عابئ بمخالفة دين أو ذوق!

ومن هنا فلا عجب إذا جرى الدكتور مجرى أدباء الغرب وغيرهم ـ ممن لا يصدرون عن الدين ولا ينطلقون منه ـ في وصف القضاء الإلهي بالقسوة فيقول في رثاء لصاحب له: (لله قلوب الأصدقاء ونفوسهم حين يفجعها الموت في الأصدقاء! هي أزهار نضرة غضة تستقبل الحياة والضوء في جمال وبهجة. ولكن هذه اليد القاسية يد القضاء تمتد إليها من حين إلى حين في غير رفق ولا لين، فتنزع منها ورقة ثم ورقة. . .)[2] والأعجب في متابعة الدكتور لأدباء الغرب قوله بالطبيعة المؤثرة في حياة الناس كما يقولون!! وإذا كان أدباء الغرب لا يصدرون عن دين فما بال الدكتور ينسى دينه حين يكتب مثل هذه الكلمات وهو يطلب إلى إدارة الجامعة المصرية القديمة أن تضمه إلى طلاب البعثات إلى أوروبا فيكتب إليها مستعطفًا (وإذا كانت الطبيعة قد

---

(١) طه حسين أديب. الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ مكتبة الأسرة ١٩٨٨، ص١٥.

(٢) طه حسين: رحلة الربيع والصيف، المجموعة الكاملة ٢٨٢/١٤.

حالت بيني وبين كثير من نعم الحياة. فما ينبغي أن تكون الجامعة عونًا للطبيعة على حرماني لذة الانتفاع بالعلم والنفع به، مع أنها تعلم أني على ذلك أقدر ما أكون)[1].

تلك الطبيعة التي أراد الدكتور أن يفسرها في موضع آخر ـ حين تلاحى مع غيره في حرية الأديب «أمطلقة أم مقيدة؟» ـ فأوقع نفسه في حيرة كبيرة إذ لم يستطع أن يضع لها تفسيرًا مقنعًا يأنس به أصحاب العقول الذين طالما أشاد الدكتور بهم قال الدكتور يرد الفصل في المنازعة بينه وبين خصومه إلى الطبيعة لتقضي فيه ما نصه: (لندع للطبيعة نفسها الذهاب بما لا خير فيه واستبقاء ما ينفع الناس؛ فقد تكون الطبيعة أقدر من الفن وأقدر من النقاد وأقدر من الجمهور على هذه التصفية، وأنا أعلم أنك ستسألني عن الطبيعة ما هي؟ فأجيبك بأنها مجموعة من المؤثرات الظاهرة والخفية التي نعرفها والتي لا نعرفها والتي تعمل سواء أردنا أم لم نرد على تحقيق قول الله عز وجل: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾[2])[3].

إن هذه الأمثلة السابقة وغيرها كثير تدل دلالة قاطعة على أن الدكتور في كتاباته الأدبية ـ أو في أغلبها إن شئنا التدقيق ـ كان مجافيًا للحس الإسلامي الذي يؤثر في وجدان الكاتب فيؤثر في سلوكه ومنطقه بما لا يخدش الإيمان بتصوير أو مقال.

(١) طه حسين: الأيام. طبعة المعارف ٥٢/٣.
(٢) سورة الرعد، الآية: ١٧.
(٣) طه حسين: حديث الأربعاء ـ المجموعة الكاملة ٧٩٢/٢.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

المبحث الثالث

طه حسين وقضية الجبر والاختيار

شغلت قضية الجبر والاختيار تفكير طه حسين منذ نعومة أظفاره واستمر انشغاله بتلك القضية حتى قضى نحبه ولقي ربه سبحانه، ولعل مما يشير إلى انشغاله بتلك القضية في مراحل الطلب الأولى تلك القصة التي أوردها طه في مذكراته «الأيام» حين يتكلم عن إيثار أساتذته المستشرقين له وشمولهم له بالحب والعطف فقال:

(ولم ينس الفتى موعدًا ضربه لأستاذه سنتيلانا ذات صباح، ليحضر معه درسًا من دروس الأزهر، وقد أقبل الأستاذ إلى حيث كان ينتظره تلميذه أمام الرواق العباسي. وذهب مع الفتى إلى دروس الشيخ الأكبر سليم البشري رحمه الله وكان يلقي درسه في التفسير مع الصباح بالرواق العباسي وجلس التلميذ والأستاذ بين الطلاب وأخذ الشيخ يفسر آية كريمة من سورة الأنعام هي قوله سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾﴾[1]، وفسر الشيخ رحمه الله

(١) سورة الأنعام، الآية: ١١١.

فأحسن التفسير وخاض في حديث الجبر والاختيار وجعل يرد على الجبريين ويدفع مقالتهم، ويأخذ الفتى في حوار الشيخ على عادة الأزهريين، فيسمع الشيخ له ويرد عليه ردًا لا يقنعه، ويأبى الفتى إلا اللجاج فينهره الشيخ بهذه الكلمات: ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن! الله أكبر على العلم والإيمان حضرتك مسلم؟)[1].

وواضح من سياق القصة كما رواها طه أنه كان يرى الجبر؛ ولذلك عمد إلى مناقشة الشيخ ومجادلته لما رآه يرد على الجبريين ويفند مقالهم.

وبعد هذا الموقف بسنوات قلائل يعد طه أول رسالة جامعية بالجامعة المصرية عن أبي العلاء المعري والتي نشرها تحت عنوان: «تجديد ذكرى أبي العلاء»[2] وفيها يصرح طه برأيه في قضية الجبر قائلًا:

(يدل ما قدمناه على أنا نرى الجبر في التاريخ؛ أي: أن الحياة الاجتماعية إنما تأخذ أشكالها المختلفة وتنزل منازلها المتباينة، بتأثير العلل والأسباب، التي لا يملكها الإنسان، ولا يستطيع لها دفعًا ولا اكتسابًا ذلك رأي نراه[3].. وإنما نقول هنا: إن هذا الرأي سيلزمنا أن نسلك في البحث عن حياة أبي العلاء طريقًا خاصة، ربما لم يألفها

---

(١) طه حسين: الأيام ٣/٣٥.

(٢) طبعت الطبعة الأولى: ١٩١٥م، والثانية: سنة ١٩٢٢ وكلاهما تحت عنوان: «ذكرى أبي العلاء» أما الطبعات التي جاءت بعد ذلك فحملت عنوان «تجديد ذكرى أبي العلاء».

(٣) علق طه بالهامش على هذه الكلمة بقوله: لسنا نبتدع هذا الرأي، وإنما نوافق فيه كثيرًا من فلاسفة أوروبا وفلاسفة المسلمين.

المؤرخون؛ ذلك أنا لا نعتقد انفراد الأشخاص بالحوادث، وإنما نعتقد أن الحوادث أثر لطائفة من المؤثرات، وعلى هذا لا نستبيح لأنفسنا أن نضيف أثرًا من الآثار إلى شخص من الأشخاص مهما ارتفعت منزلته وعلت مكانته ومهما عظم أثره وجل خطره، وإنما كل أثر مادي أو معنوي، ظاهرة اجتماعية أو كونية، ينبغي أن ترد إلى أصولها وتعاد إلى مصادرها وأن تستقي من ينابيعها، وتستخرج من مناجمها؛ وهي جماعة العلل التي أشرنا إليها آنفًا، فليس المأمون[1] وحده الذي ابتدع فتنة القول بخلق القرآن وإنما تلك فتنة أحدثها عصره، واندفع المأمون بحكم المؤثرات المختلفة إلى أن يكون مظهرها، كما اندفع خلفاؤه من بعده إلى ذلك بحكم هذه المؤثرات... ومن هنا لا نستبيح لأنفسنا أن نحمد الأشخاص أو نذمهم، بحسن ما ينسب إليهم من الآثار أو قبحه، فإن الذم والحمد مع قلة غنائهما في التاريخ ليس من عمل المؤرخ بل من عمل الرجل الذي قصر حياته في صناعة المدح والهجاء. بل إن مذهبنا في التاريخ، يمنعنا من ذلك، ويحرمه علينا؛ فإنا لا نؤمن بانفراد الأشخاص ولا استقلالهم بالأعمال. وإذا لم ينفردوا بها ولم يستبدوا بالتأثير فيها، وكان من الواضح أنهم ليسوا أحرياء بما يسدى إليهم من حمد أو هجاء)[2].

ولا يكتفي طه بعرض رأيه على هذا النحو في مقدمة الرسالة،

---

(١) المأمون عبدالله أبو العباس المأمون بن الرشيد خليفة عباسي ولد سنة ١٧٠هـ، في الليلة التي مات فيها عمه الخليفة الهادي، بويع المأمون بالخلافة وهو بالري ظل بخراسان حتى قدم بغداد في صفر سنة ٢٠٤هـ، دامت خلافته من (١٩٨ ـ ٢١٨هـ/٨١٣ ـ ٨٢٣م). راجع: حسن إبراهيم حسن تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي ب. ن. ب. ت ٦٦/٢.

(٢) طه حسين: تجديد ذكرى أبي العلاء: المجموعة الكاملة ٢٤/١٠.

وإنما يستعرض الأدلة على صحة القول بالجبر عند عرضه لآراء أبي العلاء، فيذكر أن «الدين والفلسفة يتظاهران على إثبات الجبر وإقامة الأدلة عليه»[1]، وفي تفصيل هذا الحكم يقول: [الجبر قديم عند الفلاسفة وكثير من أهل الديانات، ومصدر الإيمان به شيئان، أحدهما: أن الاختيار لا يتفق مع القول بأن هذا العالم مبني في حركاته الاجتماعية والفردية للإنسان وغير الإنسان على العلل والأسباب، وأن كل شيء في هذه الحياة إنما هو نتيجة لشيء كان قبله ومقدمة لشيء يجيء بعده، فإذا صحت هذه القضية (وقد فرغت الفلسفة من إثباتها منذ أمد بعيد) لم يكن للاختيار موضع في هذا العالم. ذلك أن هذا الاختيار إما أن يكون متصلاً بما قبله وما بعده اتصال العلة بمعلولها والنتيجة بمقدمتها أولاً، فإن تكن الأولى فهو الجبر؛ إذ لا يمكن أن يتخلف المعلول عن علته، ولا أن تحول النتيجة عن مقدمتها، وإذًا فادعاء الاختيار ليس إلا غرورًا، وإن تكن الثانية فقد بطلت القضية التي قدمناها، وأصبح العالم ملعبًا تختلف فيه المصادفات، وهو ما لا شك في بطلانه. إذًا فليس من الجبر محيد ولا عن الاضطرار مَزْحَل[2].

المصدر الثاني من مصادر الجبر الإيمان بشمول القدرة والعلم الإلهيين فإن شمول القدرة يقتضي ألا يكون في هذا العالم شيء إلا إذا تعلقت به قدرة الله، فإذا فعل الإنسان شيئًا فإما أن يكون مختارًا فيه، أو غير مختار، فإن يكن مختارًا فهذا الفعل واجب، وإن لم تتعلق به قدرة الله وهو باطل؛ لأنه يهدم أصل القدرة، وإن يكن غير مختار فهو

---

(١) طه حسين: تجديد ذكرى أبي العلاء: المجموعة الكاملة ٢٨٨/١٠.

(٢) أصل الكلمة زَحَلَ، ومعناها: تنحى وتباعد، فمعنى الكلمة في السياق ليس عنه مبتعد ولا مفر. راجع: المعجم الوجيز، ص٢٨٦.

الجبر الذي لا شك فيه][1].

ويضيف الدكتور بعدًا ثالثًا لإثبات حتمية الجبر حين يذهب إلى أن صوارف الدهر وأمور الحياة العملية تقتضي القول بالجبر، ويشرح ذلك بقوله:

[فإذا بحثنا عن الحياة العملية ولا سيما بالقياس إلى أبي العلاء، عرفنا أنها تنتج الجبر أيضًا؛ فإن الرجل يلقى في هذه الحياة ألوانًا من الخير والشر ليس له في اكتسابها يد، وإنما ساقتها إليه أحوال لا يملكها، ومن هنا لهج العامة بالركون إلى الله، والاعتماد عليه وهم لا يفهمون من هذا اللفظ ما يفهم الفقيه في الدين؛ إنما يريدون أن هذه الحياة مسيرة ليس لعمل الإنسان فيها تأثير، فالمرء لاق فيها حظه، سواء أعمل أم لم يعمل.

وفي الحق أننا لو حللنا قوى الإنسان النفسية لم نجد عن الجبر مندوحة، فإن هذه القوى متأثرة في نفسها بأشياء لا يملكها الفرد ولا الجماعة فالرجل لم يوجد نفسه، وإنما أوجده غيره، وهو لم يكوِّن قواه وإنما كونت له، وللزمان والإقليم فيها تأثير عظيم، وللبيئة الاجتماعية تأثير أعظم، وللعادات والأخلاق الموروثة تأثير لا يكاد يقدَّر؛ والحوادث الطارئة تصرفها كما تريد وتصوغها كما تشتهي، فمن أين يأتي للإنسان حظه من الاختيار. ألا إن الاختيار وهم قد ملك الناس منذ كانوا وهم على الخضوع له مجبورون][2].

ويقرر طه بعد ذلك بعضًا من آثار الاعتقاد بالجبر فيقول: [غير

---

(١) طه حسين: تجديد ذكرى أبي العلاء، المجموعة الكاملة ٢٨٨/١٠.

(٢) طه حسين: تجديد ذكرى أبي العلاء، المجموعة الكاملة ٢٨٩/١٠.

أن اعتقاد الجبر إذا تأثرت به النفس أدى إلى ألوان مخالفة المألوف في العادة والدين، فقد اضطر أبو العلاء إلى أن يجهر بإنكار التكليف أحيانًا فيقول:

إن كان مَنْ فَعَل الكبائر مُجبرًا فعقابهُ ظلمٌ على ما يَفعلُ

فانظر: كيف جعل عقاب صاحب الكبيرة ظلمًا حيث أثبت الجبر، وقد ذهب في بيت آخر إلى أن الإنسان لا يستحق ذمًا ولا حمدًا لأنه مجبر فقال:

لا تمدحَنَّ ولا تذمنَّ امرأ فينا فغير مقَصِّر كَمُقصِّر

فهذا كلام يدل على أن أبا العلاء حين رأى الجبر لم يفرق بين الإنسان وبين غيره مما اشتمل عليه هذا العالم، ولكنه لو بسط سلطان الجبر قليلاً لعرف أن ما ينال الإنسان من مدح أو ذم، ومن إحسان أو إساءة، ليس في الحقيقة أمرًا اختياريًا وإنما هو أمر جبري فكما أجبر الإنسان على أن يحسن ويسيء أجبر على أن يحَمَد الحسن ويذم القبيح، بل على أن يتصور هذا حسنًا وهذا قبيحًا، وإذا كنا قد قررنا أن المرء مجبر على أن ينتحل لنفسه صفة الاختيار، كان من الواضح أنه مجبر على أن يضيف إلى نفسه آثار هذا الاختيار المنتحل، فإذا بسطنا سلطان الجبر إلى هذا الحد ـ وهو كذلك في نفس الأمر ـ لم يتهم جبري بمخالفة دين ولا بالخروج على شريعة][1].

ولئن أردنا أن نحصي ما قاله طه عن الجبر لضاق المقام، ولكن ينبغي التأكيد على أن فكرة الجبر ظلت ملازمة لطه حتى نهاية حياته

(١) طه حسين: تجديد ذكرى أبي العلاء، المجموعة الكاملة ١٠/٢٩٠.

كان (يقيد كل شيء بنظام مطلق من الجبرية والحتمية)[1] (وفي كتابه «قادة الفكر» نلاحظ ازدياد الربط بين البيئة والفرد أما في كتابه «مع أبي العلاء في سجنه» نلحظ أنه في الوقت الذي تخفف فيه كثيرًا من هذه العلاقة فإنه لم ينف تمامًا تلك الصلة بين الإنسان ومجتمعه وهو ما قاله صراحة في كتاب آخر كتبه في وقت متأخر وهو «ما وراء النهر» إذ أكد فيه أن:

هناك صلة متينة وثيقة بين أقوال الناس وأعمالهم وبين البيئة التي يعيشون فيها ويتأثرون بدقائقها في حياتهم اليومية)[2].

وحتى في تخففه من الجبرية في كتابه «مع أبي العلاء في سجنه» عزّ عليه أن يتنزه عن القول بالجبر ولو بقدر، فحين قال بالاختيار لم يسلم به بالكلية وإنما اعترف بحالة أسماها (الجبر الملطف) وعرفه بأنه (الجبر الذي يعذر الإنسان بعض العذر ولكنه لا يعفيه من التبعات كلها)[3].

القائلون بالجبر في القديم والحديث:

حين صرح الدكتور طه حسين بالقول بالجبر ذكر أنه لم يتفرد بهذا الرأي وإنما (يوافق فيه كثيرًا من فلاسفة أوروبا وفلاسفة المسلمين)[4].

---

(١) محمود أمين العالم: طه حسين مفكرًا: بحث ضمن كتاب (طه حسين كما يعرفه كتاب عصره)، ص١٢٦.

(٢) مصطفى عبد الغني: طه حسين والسلطة في مصر، ص٢٢٧، ٢٢٨، طه حسين: ما وراء النهر، دار المعارف ط٤، بدون ت، ص٢٠.

(٣) طه حسين: مع أبي العلاء في سجنه، المجموعة الكاملة ٤٥٤/١٠.

(٤) طه حسين: تجديد ذكرى أبي العلاء، المجموعة الكاملة ٢٤/١٠.

وكأني بالدكتور يحاول تقوية رأيه ويدلل على مشروعيته فقد سبقه إليه فلاسفة أوروبا الذين يَكِنُّ لهم الدكتور أعمق الود ويثق بعلمهم أعظم الثقة.

والرجل لم يخالف الحقيقة في ذلك فقد قال بالجبر عدد من مفكري الغرب (منهم: «تين»[1] الذي يرى أن العالم متأثر بطائفة من القوانين تدبره وتسيره دون أن تتعرض هذه القوانين للخطأ أو الاضطراب، وهو من الذين يعتقدون أن الإرادة الفردية لا تؤثر في حياة العالم بشكل من الأشكال)[2] ونظرًا لاشتهار الدكتور بالقول بالجبر وتأثير البيئة غير المحدود في الفرد، الأمر الذي حدا بالبعض أن يقول:

(لسنا نعتسف الحكم إذا قلنا: إن طه حسين صاحب منهج ومدرسة فكرية نجد أصداءها عند كتاب العربية، بل نجد أصداءها الآن في فرنسا تتجدد على يد من يسمون أنفسهم بأصحاب المدرسة الاجتماعية في كتابة التاريخ، وأشهرهم لوسيان فيفر الذي تخصص في تاريخ عصر النهضة الأوروبية، ومارك بلوك الذي تخصص في تاريخ العصور الوسطى)[3].

---

(١) تين، هبوليت (١٨٢٨ ـ ١٨٩٣)، مؤرخ وناقد فرنسي، لمع اسمه بفضل رسالته للدكتوراه التي موضوعها (دراسة لحكايات لافونتين). عمل أستاذًا لتاريخ الفن وعلم الجمال بكلية الفنون الجميلة، اشتهر بآرائه التي أثرت في مدرسة الفن الطبيعية آخر القرن الماضي، انتخب عضوًا بالأكاديمية الفرنسية ١٨٧٨. انظر: محمد شفيق غربال: الموسوعة العربية الميسرة ١/٥٧٥.

(٢) أنور الجندي: طه حسين حياته وفكره في ضوء الإسلام، ص٤٤ بتصرف.

(٣) كامل زهيري: المنهج الفكري عند طه حسين، بحث ضمن كتاب (طه حسين كما يعرفه كتاب عصره)، ص١٥٢.

أما في تاريخنا الإسلامي فقد قال بالجبر عدد من رؤوس الفرق الإسلامية كالجهم بن صفوان[1] مؤسس الجهمية والحسين بن محمد النجار[2] رأس الفرقة النجارية من المعتزلة وضرار بن عمرو مؤسس الضرارية[3]، وغيرهم ولم يحمد واحد منهم أو من تابعهم على القول بالجبر بل عدهم من صنفوا في الفرق الإسلامية ممن حادوا عن العقيدة الصحيحة.

تقييم موقف طه حسين في القول بالجبر:

لقد خالف الدكتور طه حسين إجماع المسلمين حين قال بالجبر ونفي الاختيار (فالإسلام يقرر أن الإنسان يمتلك إرادة حرة هي موضع المسؤولية وهو يوجهه إلى العمل الصالح ويقرر الالتزام الأخلاقي لهذه الإرادة الحرة)[4].

---

(١) جهم بن صفوان: هو أبو محرز جهم بن صفوان الراسبي قال عنه الذهبي في تذكرة الحفاظ (رقم ١٥٨٤): «الضال المبتدع رأس الجهمية هلك في زمان صغار التابعين وما علمته روى شيئًا ولكنه زرع شرًا عظيمًا. كان من أتباع الجعد ابن درهم الذي زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلاً ولم يكلم موسى تكليمًا». راجع: الفرق بين الفرق للبغدادي. ط دار التراث. ب. ت، ص٢٢١.

(٢) هو أبو عبدالله: كان حائكًا، وقيل: كان يعمل الموازين من أهل قم توفي سنة ٢٢٠هـ، وقيل: إن سبب موته أنه تناظر يومًا مع النظام فأفحمه النظام فقام محمومًا ومات عقب ذلك. راجع الملل والنحل، للشهرستاني، تحقيق: أمير علي مهنا، وعلي حسن فاعور. دار المعرفة بيروت، ط٥ سنة ١٤١٦هـ/١٩٩٦م، ١/١٠٠.

(٣) ضرار بن عمرو من كبار المعتزلة طمع في رياستهم في بلده فلم يدركها، فخالفهم فكفروه وطردوه، صنف نحو ثلاثين كتابًا في الرد عليهم وعلى الخوارج توفي سنة ١٩٠هـ نحو سنة ٨٠٥م، راجع الملل والنحل ١/١٠٢.

(٤) أنور الجندي: محاكمة فكر طه حسين، ص٣٦٣.

والباحث يعجب من موقف الدكتور طه حسين من هذه القضية وهو الرجل الذي طالما اعتز بالعقل ونتاجه! فأين كان عقله حين سطّر أمثال هذه الكلمات التي كتبها في الجبر.

يقول جلال الدين الرومي[1]: [لو كان الجبر حقًا، لما توجه الأمر والنهي إلى الإنسان، وما كلف الإنسان بالشرائع والأحكام، فهل سمع إنسان يأمر حجرًا وينهاه... إن الإنسان مفطور على عقيدة الاختيار، وهو يتمثل هذه العقيدة ويطبقها في حياته اليومية ويقرر بعمله وسلوكه الاختيار وينكر الجبر، فلا يعاقب الجماد ولا يعاقب الحجر والخشب والسيل والريح مهما لحقه الأذى والعنت من هذه الأشياء... إذا سقط عليك جذع من السقف وجرحك جرحًا شديدًا وأدماك وآلمك فهل يثور غضبك على هذا الجذع؟ وإذا عاتبته وقلت له: لماذا كسرت يدي وأدميت رأسي؛ هل تكون عاقلاً... أما إذا تعرض إنسان لإهانتك أو هتك عرضك، ثرت عليه وعاقبته عقابًا شديدًا، فدل ذلك على أنك تميز بين المجبور والمختار وتعتقد أن الإنسان صاحب اختيار وإرادة فتحاسبه وتعاقبه ولا تقبل له عذرًا؛ لأنه مخير ليس بمجبور... وإذا ضربت كلبًا بحجر هجم عليك وأراد أن يعضك ولم يقبل على الحجر وينتقم منه، فعار عليك أيها الإنسان العاقل أن تضرب في فهم الحقيقة وتعجز عن إدراكها][2].

(إن الإنسان مجبور مختار وهكذا قال الإسلام، والذين يقولون:

---

(١) جلال الدين الرومي: من فحول شعراء الصوفية ولد في بلخ سنة ٦٠٤هـ/سنة ١٢٠٧م، وتوفي سنة ٦٧٢هـ/١٢٨٤م. راجع دائرة المعارف الإسلامية ٦١/٧.

(٢) محمد الغزالي: دفاع عن العقيدة والشريعة ضد مطاعن المستشرقين، دار الشروق، ط١، سنة ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، ص١٠٧ ـ ١١٠ بتصرف.

إنه لا اختيار له يكذبون الواقع والقرآن معًا والذين يقولون: إنه غير مجبور في شيء يكذبون القرآن والواقع معًا)[1].

[هناك أمور تحدث وتتم بمحض القدرة العليا، وعلى وفق المشيئة الإلهية وحدها، وهي تنفذ في الناس طوعًا أو كرهًا، سواء شعر بها الناس أو لم يشعروا، فالعقول ومقدار ما يودع فيها من ذكاء أو غباء، والأمزجة وما يلابسها من هدوء أو عنف والأجسام وما تكون عليه من طول أو قصر وجمال أو قبح... والزمان الذي تولد فيه والمكان الذي تحيا فيه والبيئة التي تنشأ في ظلها والوالدان اللذان تنحدر منهما وما تتركه الوراثة في دمك من غرائز أو ميول.... غني عن البيان أن شيئًا من هذا ليس محل مؤاخذة ولا موضع حساب وإنما لفتنا النظر إليها لتعرف أن الجنسية التي تنتمي إليها واللغة التي تنطق بها، بل نوع التكوين الذي يوجد الإنسان عليه ذكرًا كان أو أنثى هو شيء من الخصائص التي لا قبل لنا بها ولا سبيل لنا إليها وفي مثلها يساق قول الله في القرآن الكريم: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾﴾[2].

أما القسم الثاني من متعلقات القضاء والقدر فهو يتصل بأعمال على عكس الأولى، ونحن نشعر حين أدائها بيقظة عقولنا، وحركة ميولنا ورقابة ضمائرنا فما مدى صلتنا بها وما معنى نسبة القدر إليها... إننا نحسّ باستقلال إرادتنا وقدرتنا فيما نباشر من أعمال تقع

---

(١) محمد الغزالي: دفاع عن العقيدة والشريعة ضد مطاعن المستشرقين، دار الشروق، ط١، سنة ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، ص١٠٧ ـ ١١٠ بتصرف.

(٢) سورة القصص، الآيتان: ٦٨، ٦٩.

في دائرتهما، وكان يكفي هذا الإحساس دليلاً على حريتهما لولا أن هناك من يزعم أن الإحساس يكذب أحيانًا... ونحن نجد القرآن يؤكد هذا الإحساس البديهي وينوه بحرية الإرادة الإنسانية ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾[1].

ولا يخليها من المسؤولية الواضحة على ما يصدر منها: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾﴾[2].

بل إن طبيعة الدين ـ وهي التكليف والابتلاء ـ لا تتحقق البتة مع استبعاد الإرادة وتقيدها][3].

يعرف المسلم الحق هذه الحقائق ويوقن معها أنه بأعماله الاختيارية لا يغيب عن علم الله الشامل المحيط وأن الله لا يقسره على أعماله الاختيارية وإن كان القدر قد سبق بتحديد نتائجها (فصفحات العلم الإلهي لا تتصل بالأعمال اتصال تحريك وتصريف ولكنه اتصال انكشاف ووضوح فهي تتبع العمل ولا يتبعها العمل، غاية ما يمتاز به العلم أنه لا يكشف الحاضر فقط ولكنه يكشف ـ كذلك ـ الماضي والمستقبل فيرى الأشياء على ما كانت عليه وعلى ما ستكون عليه، كما يراها وهي كائنة سواء بسواء)[4].

---

(١) سورة الكهف، الآية: ٢٩.

(٢) سورة يونس، الآية: ١٠٨.

(٣) محمد الغزالي: عقيدة المسلم، دار الشروق، ط١ سنة ١٤٠٧هـ/سنة ١٩٨٧م، ص١٠٠ ـ ١٠٢ بتصرف.

(٤) المرجع السابق، ص١٠٤، محمد الغزالي: هذا ديننا، دار الشروق ط١، سنة ١٤٠٧هـ/سنة ١٩٨٧، ص٢٠، محمد الغزالي: مائة سؤال عن الإسلام، دار ثابت ط٥، سنة ١٤١٧هـ/سنة ١٩٩٦، ص٩٥.

وقد يقف بعض الناس حائرًا أمام آية من القرآن مثل قوله سبحانه: ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾[1] ولو أمعن الإنسان النظر في القرآن لوجد آيات القرآن يشرح بعضها بعضًا فإطلاق المشيئة هنا يقابله تقييد لها في آية أخرى مثل قوله سبحانه: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾[2] ومثل قول الله سبحانه: ﴿وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾[3].

فالإنسان حر مخير في حدود الطاقة البشرية وكونه مجبرًا - في بعض الحالات - لا ينفي عنه صفة الحرية...

(والثواب والعقاب منوط بالحرية فإذا لم تكن حرية فلا عقاب، والمكره على فعل شيء لا يعاقب عليه، والله إنما يؤاخذنا على ما نملك الخيار في فعله أو تركه... وإذا كانت المحاكم البشرية بعدالتها النسبية، تقدر ظروف المتهم ودوافعه، وبيئته واستعداده، وترى تقدير ذلك من العدل، فهل يترك ذلك في محكمة رب العالمين التي فيها العدالة المطلقة)[4].

ومن هنا نستطيع الجزم بأن الدكتور طه حسين لم يوافق الصواب حين قال بالجبر وحين تابع أبا العلاء في رأيه هذا ووافقه عليه وفيما ذكره ضمنًا من أن الجبري لا يلام بمخالفته دينًا ولا بالخروج على شريعة ولئن كان مفكرو الغرب قد توسعوا في القول بالجبر وبسطوا

---

(١) سورة النحل، الآية: ٩٣، وفاطر: ٨.

(٢) سورة البقرة، الآيتان: ٢٦، ٢٧.

(٣) سورة الرعد، الآيتان: ٢٧، ٢٨.

(٤) علي الطنطاوي: تعريف عام بدين الإسلام، دار الوفاء ط١٤ سنة ١٤١٢هـ/سنة ١٩٩٢، ص١٣٤.

رداءه في واقع الحياة فقد نتج عن هذه الجبرية تطورات كبيرة في المجتمع الغربي حطمت تقاليده وأخلاقه وأثرت في قوانينه كذلك (فقد أطلق العنان للفرد يصنع ما يشاء بلا حظر ولا عقاب؛ لأنه مسكين معذور مجبر على ما يفعل... ولقد كانت الرغبة في الانفلات من كل قيد، والإغراق في المتع الجسدية هي التي أوحت إلى الناس في العالم الغربي بتصديق هذه الخرافة؛ لأن تصديقها يريحهم من تأنيب الضمير والشعور بالجريمة)[1].

ولئن كان الدكتور طه حسين يعضد رأيه بسبق كثير من مفكري الغرب إليه فالباحث يرى أن المستشرقين ليسوا سواءً في هذا الأمر فرجل مثل مونتجمري وات[2] يكتب رسالة علمية عن القضاء والقدر في فكر المسلمين في القرون الثلاثة الأولى يسجل فيها اضطراب الغرب وحيرته فيقول: «لا نستطيع (في الغرب) أن نوفق بين سلطة الله المطلقة ومسؤولية الإنسان نفسه، لكنه لا بد أن ننظر للأمور من منظور عملي من حيث التوفيق الذي يؤدي إلى الفعل الصحيح والحياة النشطة المفعمة أخلاقًا وقيمًا»[3].

فهذا الموقف الوسط الذي وقفه (وات) هو الذي يتوافق مع الفطر السليمة والعقول المستقيمة.

---

(١) محمد قطب: الإنسان بين المادية والإسلام، دار الشروق ط١٢، سنة ١٤١٨هـ/سنة ١٩٩٧م، ص٤٦.

(٢) مونتجمري وات: مستشرق إنجليزي عميد كلية الدراسات العربية في جامعة إدنبرا، من آثاره: محمد في مكة، ومحمد في المدينة. المستشرقون ١٣٢/٢.

(٣) مونتجمري وات: القضاء والقدر في فجر الإسلام وضحاه (القرون الثلاثة الأولى) ترجمته د. عبد الرحمن الشيخ ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ سلسلة الألف كتاب الثاني ١٩٩٨م، ص٩.

ولقد شهد الرجل في نهاية رسالته للإسلام شهادة طيبة حين قال:

(إننا نجد كثيرًا من مظاهر (الجبرية) بين المسلمين لكن الإسلام الحقيقي كما يتجلى في القرآن الكريم هناك مواجهة نشيطة للأفكار الجبرية، رغم فكرة الاعتماد على الله وطلب العون منه ليساعدنا على العمل، والاستعاذة به من الشر، فالجبرية أو تفريغ الإنسان من قدرته على تحديد مصيره أو الاعتقاد بأن حياة الإنسان مقدرة سلفًا له، وهو مسير لا حول له ولا قوة كل هذ ليس جزءًا من رسالة محمد ﷺ ولا دعوته)[1].

وأختم هذا المبحث بكلمة للأستاذ الإمام محمد عبده عن آثار الإيمان بالقضاء والقدر على الوجه الصحيح قال فيها:

(إن عقيدة «القضاء والقدر» إذا فهمت على الوجه السليم وخلصت من شناعة القول بالجبر لا يمكن أن يكون لها على الأخلاق إلا أثر حميد فهي تبعث النفوس على الإقدام والشجاعة واحتمال المكاره واقتحام الأهوال، وتبث فيها روح التضحية وتطبعها على السخاء والثبات، وبذل ما هو عزيز في سبيل الفكرة والعقيدة، والذي يعتقد أن الأجل محدد والرزق مكفول والأشياء بيد الله يصرفها كما يشاء... كيف يرهب الموت في الدفاع عن حقه وإعلاء كلمة أمته؟ وكيف يخشى الفقر مما ينفق من ماله في تعزيز الحق وتشييد المجد على حسب الأوامر الإلهية وأصول الاجتماعات البشرية)[2].

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

(١) المرجع السابق نفسه، ص٢٨٧، ٢٨٨.

(٢) نقلاً عن د. عثمان أمين: رواد الوعي الإنساني في الشرق الإسلامي، الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ مهرجان القراءة للجميع سنة ٢٠٠١، ص٩٢.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

المبحث الرابع

رأي الدكتور طه حسين
في نجاة اليهود والنصارى في الآخرة من النار

أثناء قراءة الدكتور محمد الدسوقي من كتاب (عيون الأخبار) على الدكتور طه حسين كانت بينهما مناقشة حول إسلام اليهود والنصارى عرضها الدكتور الدسوقي على هذا النحو:

في يوم الجمعة ١٨/١٢/١٩٧٠م جاء في الجزء الثالث من عيون الأخبار في باب التهاني رسالة من رجل يهنئ نصرانيًا قد أسلم، قال له: الحمد لله الذي أرشد أمرك، وخصَّ بالتوفيق عزمك، وأوضح فضيلة عقلك ورجاحة رأيك فما كانت الآداب التي حويتها، والمعرفة التي أوتيتها لتدوم بك على غواية، وديانة شائنة لا تليق بلبك، ولا يبرح ذوو الحجا من موجبي حقك ينكرون إبطاءك عن خطك، وتركك البدار إلى الدين القيم الذي لا يقبل الله غيره ولا يثيب إلا به فقال: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾[1] وقال: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾[2]... إلخ الرسالة.

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٨٥.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٩.

ولاحظت ـ والكلام للدكتور الدسوقي ـ في أثناء القراءة أن العميد يهمهم ببعض العبارات التي تدل على أنه غير راض على ما جاء في الرسالة فأمسكت عن القراءة وقلت للعميد:

ألم يكن الإسلام خاتم الأديان؟

قال: بلى.

قلت: وهو دين عام للناس جميعًا (؟).

قال: إن القرآن صريح في هذا.

قلت: إن هذا يعني أن الإسلام هو الدين الذي يجب أن يخضع له الناس جميعًا؟

قال: الإسلام بمعناه اللغوي.

قلت: الإسلام بمعناه الاصطلاحي وليس اللغوي، وهو الدين الذي بعث به محمد ﷺ فاليهودي والنصراني ليسا مسلمين، ولو تمسكا بتعاليم النصرانية أو اليهودية ـ مع فرض أن هذه التعاليم صحيحة كما بعث بها عيسى وموسى ﷺ ـ ما دام ينكران نبوة محمد ﷺ وما جاء به من التشريعات والفرائض.

قال: الآية القرآنية تقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾[1]، وهي بهذا صريحة في أن المسلم واليهودي والمسيحي والصابئ إذا عملوا صالحًا فلهم جزاء

(١) سورة البقرة، الآية: ٦٢.

عند الله... وليس بلازم أن يؤمن النصراني بمحمد حتى يكون مسلمًا والمهم ألا يذكر محمدًا والقرآن بسوء.

ولم أشأ ـ الدكتور الدسوقي ـ أن أسترسل مع العميد في الجدل فقد كانت مهمتي القراءة لا النقاش][1].

والملاحظ أن الدكتور طه حسين دفعه إلى هذا الخطأ فهمه الخاطئ للآية التي استدل بها فالآية [تقرر أنه أيًا كانت النحلة، فإن من آمنوا بالله واليوم الآخر وعملوا صالحًا ـ ومفهوم ضمنًا في هذا الموضع وتصريحًا في مواضع أخرى أنهم فعلوا ذلك على حسب ما جاء به الرسول الأخير ـ فقد نجوا: ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ولا عليهم مما كانوا فيه قبل ذلك، ولا مما يحملون من أسماء وعنوانات فالمهم هو العنوان الأخير... وهذا الذي نقرر أنه مفهوم ضمنًا يعتبر من «المعلوم من الدين بالضرورة» فمن بدهيات هذه العقيدة أن محمدًا ﷺ هو خاتم النبيين وأنه أرسل إلى البشر كافة وأن الناس جميعًا ـ على اختلاف مللهم ونحلهم وأديانهم واعتقاداتهم وأجناسهم وأوطانهم ـ مدعوّون إلى الإيمان بما جاء به، وفق ما جاء به في عمومه وفي تفصيلاته وأن من لا يؤمن به رسولاً، ولا يؤمن بما جاء به إجمالاً وتفصيلاً فهو ضال لا يقبل الله منه ما كان عليه من دين قبل هذا الدين، ولا يدخل في مضمون قوله تعالى: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾][2].

[ومن هنا نقرر بوضوح الحدود الثابتة المعلومة من الدين

---

(١) د. محمد الدسوقي: أيام مع طه حسين، دار القلم دمشق، ط١ سنة ١٤٢٣هـ/سنة ٢٠٠٢م، ص١٤٢، ١٤٣.

(٢) سيد قطب: في ظلال القرآن ٢/٩٤٢.

بالضرورة والتي نتخذها فيصلاً في دراساتنا العقدية ومقارنات الأديان، ومنها:

١ ـ الإسلام هو الدين الوحيد الفرد المنزل من الله تعالى على جميع الرسل ابتداء من آدم عليه السلام إلى سيدنا محمد ﷺ.

٢ ـ الإسلام لا يعني التوحيد فحسب، وليس كل من كان موحدًا كان مسلمًا أو متدينًا بدين الله، ولكن دين الإسلام لا يكون إلا بالإيمان بالله ورسله جميعًا؛ بغير تفريق بين أحد من رسله.

٣ ـ لا إسلام ولا دين مقبولاً عند الله بعد بعثة محمد ﷺ إلا بالإيمان به وباتباع ما جاء به.

٤ ـ القرآن والسُّنَّة هما المصدران الإلهيان الوحيدان الموثقان اللذان يقاس إليهما كل خبر عن رسالات الأنبياء السابقين.

٥ ـ القرآن صريح قاطع في وصف عقائد أهل الكتاب بأنها كفر وبأنها شرك وبأن مصير أصحابها إلى الخلود في النار.

٦ ـ القرآن لا يقبل من أهل الكتاب ـ عقديًا ـ إلا من آمن بمحمد ﷺ واتخذه مهيمنًا على عقائده][1].

وآيات القرآن قاضية بهذا؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾[2]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ

(١) د. فرج الله عبدالباري: اليوم الآخر بين المسيحية والإسلام، دار الوفاء ـ المنصورة ط٢، ١٤١٢هـ، ١٩٩٢م، ص١٣، ١٤ بتصرف.

(٢) سورة آل عمران: الآية: ٨٥.

بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾﴾[1] وكذلك قضته السُّنَّة الصحيحة بأن اتباع النبي ﷺ سبب دخول الجنة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى**، قالوا: ومن يأبى يا رسول الله؟ قال: **من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى**»[2].

رأي المستشرقين في هذه القضية:

وإذا كان بعض المستشرقين يخلطون الحق بالباطل والجد بالهزل فإن واحدًا منهم (جوستاف إ. فون جرو نيباوم[3] وهو يستعرض مصادر الشعور بالتفوق لدى المسلم ذكر اعتقاد المسلم في دينه، ذكره على وجه يُشعر أنه ضرب من التعالى والتفاخر أو أنه ضرب من الانحراف والجموح؛ قال في فصل عقده بعنوان (المسيحية والإسلام):

[على أن أهم مصدر لشعور المسلم بتفوقه، هو يقينه الذي لا يقبل الجدل بأن دينه خاتم الأديان، وأنه هو الحق الذي لا حق سواه، وأنه يسير في طريق الخلاص والسعادة السرمدية بينما الكفرة وقد أغرقوا في العناد والجدل ينحدرون غافلين نحو العقاب الأبدي. ألم

---

(١) سورة آل عمران: الآية: ١٩.

(٢) رواه البخاري كتاب الاعتصام بالكتاب والسُّنَّة حديث رقم (٢١١٧) راجع الإمام أبا العباس أحمد الزبيدي: مختصر صحيح البخاري المسمى التجريد الصريح لأحاديث الجامع. ت: كمال بسيوني ـ مكتبة المؤيد ـ السعودية ط١، سنة ١١٢هـ ـ سنة ١٩٩٢م، ص٥٧١.

(٣) جرنيباوم، جوستاف فون (١٩٠٩ ـ ١٩٧٢)، مستشرق نمساوي درس في جامعتي فيينا وبرلين وعمل مدرسًا في جامعة نيويورك وشيكاغو، من آثاره: حضارة الإسلام، ترجمة: الأستاذ عبد العزيز توفيق. المستشرقون ٣/١٧٠.

يؤكد الله نفسه أن الإسلام هو ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾[1] وكيف لا وقد أخبره الكتاب ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾[2][3].

وإذا كان المستشرق لا يسلم بهذا ولا يعتقد به فكلامه يفيد أنه يسلم ويعتقد بأن ذلك من عقيدة المسلمين، وأن لهذا الاعتقاد أثرًا في سلوكهم وحياتهم. على حين غاب هذا الفهم عن الدكتور طه حسين وهو المسلم الذي عاش في ديار المسلمين ودرس بالأزهر حينًا من الزمان.

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

(١) سورة الروم، الآية: ٣٠.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٩.
(٣) جوستاف إ. فون جرونيباوم: حضارة الإسلام، ص٥٥، ٥٦.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الفصل الرابع

طه حسين والقرآن الكريم وعلومه

ويشتمل على أحد عشر مبحثًا:

المبحث الأول: طه حسين ومصدريَّة القرآن.

المبحث الثاني: طه حسين وتعريضه بتكذيب القرآن.

المبحث الثالث: موقف طه حسين من قضية جمع القرآن الكريم.

المبحث الرابع: طه حسين والقراءات القرآنية.

المبحث الخامس: موقف طه حسين من المكي والمدني.

المبحث السادس: طه حسين وقضية ترتيب السور والآيات.

المبحث السابع: طه حسين وموقفه من الحروف المقطَّعة في أوائل السور.

المبحث الثامن: طه حسين وقضية أميَّة الرسول ﷺ.

المبحث التاسع: طه حسين ورأيه في التوراة وتأييد القرآن لها!

المبحث العاشر: طه حسين ورأيه في خيانة امرأة نوح عليه السلام.

المبحث الحادي عشر: طه حسين ورأيه في أصحاب الأخدود.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

المبحث الأول

طه حسين ومصدريّة القرآن

تمهيد:

كان افتتان الدكتور طه حسين بأساتذته من الغربيين ـ الذين كانوا يعملون بالتدريس بالجامعة المصرية في مقتبل حياته العلمية ـ عظيمًا، إذ كان يكثر الاختلاف إليهم ومصاحبتهم والاستماع منهم والأخذ عنهم، وربما صحب بعضهم إلى الأزهر إبان دراسته به ليستمع إلى العلماء ويناقشهم عن مرأى ومسمع من أولئك المستشرقين، [فقد أشار في مذكراته إلى أنه صحب سانتيلانا[1] إلى الأزهر فحضر معه درسًا في التفسير كان يلقيه الشيخ سليم البشري[2] وكان يفسر آية: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾[3]، فاعترض طه على تفسير الشيخ قائلاً: هذه جبرية مطلقة، فأجاب الشيخ البشري: من أين تعلمت هذا الكفر، من

(١) سبق ترجمته، ص٥٧.
(٢) سبق ترجمته، ص٤١.
(٣) سورة الأنعام، الآية: ١١١.

أساتذتك الإفرنج؟ هنالك وضع سانتيلانا يده على كتف طه طالبًا منه السكوت][1].

وأورث هذا الافتتان طه إعجابًا بالمستشرقين وعلمهم، دفعه إلى أن ينظر إلى علوم المستشرقين وآرائهم نظرة المسحور أو المبهور، واشتد هذا الافتتان حين أتيح له السفر إلى فرنسا وخالط المستشرقين عن قرب وتأثر بما لديهم حتى في أخص خصوصيات المسلمين ممن يتحدثون العربية وهي خصوصية فهم القرآن؛ إذ صرح الدكتور في مقال له بأنه لم يفهم القرآن على وجه صحيح إلا على يد المستشرق كازانوفا[2] في دروس الكوليج[3] دي فرانس يقول طه عن هذا المستشرق: [عرفته أستاذًا في الكوليج دي فرانس ولم أكد أسمع له حتى أعجبت به إعجابًا لم أعرف له حدًا كان يفسر القرآن وكنت حديث العهد بباريس، كنت شديد الإعجاب بطائفة من المستشرقين، ولكني لم أكن أقدر أن هؤلاء المستشرقين يستطيعون أن يعرضوا في إصابة وتوفيق لألفاظ القرآن ومعانيه والكشف عن أسراره وأغراضه فلم أكد أجلس إلى كازانوفا حتى تغير رأيي أو قل حتى ذهب رأيي كله وما هي إلا دروس سمعتها منه حتى استيقنت أن الرجل كان أقدر على فهم القرآن وأمهر على تفسيره من هؤلاء الذين يحتكرون علم القرآن

---

(١) أنور الجندي: طه حسين حياته وفكره في ضوء الإسلام، ص٢١.

(٢) سبق تعريفه، ص٦٧.

(٣) الكوليج دي فرانس: أقدم معهد للعلم الحديث أنشئ سنة ١٥٣٠م للبحث الحر والدرس الخالص من كل سعي إلى غاية علمية ما. راجع: نبيل فرج: طه حسين وأوراقه المجهولة ـ ملف أعد لمجلة العربي الكويتية ـ العدد ٤٤١ السنة الثامنة والثلاثون أغسطس سنة ١٩٩٥م، ص١٢٨ ـ ١٣١.

ويرون أنهم خزنته وسدنته وأصحاب الحق في تأويله][1].

وكان هذا الموروث الثقافي هو المنطلق الذي عالج به الدكتور قضايا القرآن فيما كتبه من مقالات وأبحاث.

والحق أن كتابات الدكتور الأخيرة التي تناول فيها أمر الإسلام اتسمت بدرجة لا بأس بها من الموضوعية، لا سيما بحثه «مرآة الإسلام» فقد أشاد فيه بفضل القرآن على العرب في تقويم ألسنتهم وبين أنه حمى اللغة العربية من الضياع وأنه كان سببًا في وحدة العرب، وما أسدوا إلى البشرية من فضل وذكر بعض أوجه الإعجاز في القرآن، ذكر ذلك كله في إشارات سريعة وعبارات طيبة، والكتاب مع ذلك لم يخل من أغاليط سأشير إليها في موضعها من هذا البحث بإذن الله.

بشرية القرآن:

لم يصرح الدكتور طه حسين بهذه الفكرة في مؤلف من مؤلفاته وإنما اعتمد اللف والمداورة سبيلاً لعرض هذه الفكرة وبالأخص في مؤلفه الشهير «الشعر الجاهلي»، إذ حرص الدكتور أن يفهم القارئ أن القرآن في مجموعه [تعبير عن الحياة التي عاش فيها محمد ﷺ بما فيها المكان والزمان وجوانب الحياة الاقتصادية والسياسية والدينية والاجتماعية][2]، وذلك حين بين أن (التماس الحياة العربية الجاهلية في القرآن أنفع وأجدى من التماسها في هذا الشعر العقيم الذي يسمونه

---

(١) طه حسين حياته وفكره في ضوء الإسلام، ص٣٦.

(٢) د. محمد البهي: الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي ـ مكتبة وهبة ـ مصر، ط١٢، ١٤١١هـ/١٩٩١م، ص١٧٧.

الشعر الجاهلي)[1].

وجعل ذلك نتيجة انتهى إليها بعد مقدمات ساقها ومعظمها قام على أسس مغلوطة من الاستدلال والتوجيه.

[ولقد وصل الأمر في نظر صاحب الشعر الجاهلي بالنسبة للقرآن وأنه وحده ـ لا الشعر الجاهلي ـ يعبر تعبيرًا صادقًا عن حياة العرب قبل الإسلام، إلى أن القرآن في نظره لا يعبر عن الحقائق التي وقعت في هذه الحياة العربية الجاهلية... وبناءً على ذلك تكون قصة إسماعيل بن إبراهيم الذي ينسب إليه العدنانيون قصة خيالية... والقرآن، أو محمد لم يشأ أن يغفل شأن هذه القصة لما لها من أهمية في قريش، وبالتالي لما لها من أهمية في الصراع بينه وبين قريش صاحبة السيادة في العرب، والحريصة على الاحتفاظ بهذه السيادة بعدما قام بدعوته][2].

يقول الدكتور: [للتوراة أن تحدثنا عن إبراهيم وإسماعيل وللقرآن أن يحدثنا عنهما أيضًا، ولكن ورود هذين الاسمين في التوراة والقرآن لا يكفي لإثبات وجودهما التاريخي، فضلاً عن إثبات هذه القصة التي تحدثت بهجرة إسماعيل بن إبراهيم إلى مكة ونشأة العرب المستعربة فيها][3].

---

(١) طه حسين: الشعر الجاهلي، ص٢٣ نقلاً عن الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، ص١٨٦.

(٢) د. البهي: الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، ص١٨٨، ١٨٩ بتصرف.

(٣) طه حسين: الشعر الجاهلي، ص٢٦ نقلاً عن: مصطفى صادق الرافعي: تحت راية القرآن، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٨، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، ص١٦٨.

والدكتور في شكه في أمر إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام لم يأت بجديد، وإنما تابع كاتبًا إنجليزيًا اسمه جرجيس صال[1] نشرها في كتاب له بعنوان «مقالة في الإسلام» وقام على ترجمته ونشره في عام ١٨٩١م رجل سمى نفسه هاشم العربي، والذي كشف عن هذا الأمر الأستاذ عبد المتعال الصعيدي المدرس بالجامع الأحمدي بطنطا في مقالة له بجريدة الأهرام الصادرة في ١٢ مايو ١٩٢٦م قال بعد عرضه لما قاله الدكتور طه: [واسمع ما يقول هاشم العربي في ذيل كتاب «مقالة في الإسلام» بعد كلام كثير في قصة إبراهيم وإسماعيل والطعن في نسبة العرب المستعربة إليهما: «وحقيقة الأمر في قصة إسماعيل أنها دسيسة لفّقها اليهود القدماء للعرب تزلفًا إليهم وتزرعًا بهم إلى دفع الروم عن بيت المقدس أو إلى تأسيس مملكة جديدة لهم في بلاد العرب يلجأون إليها فقالوا لهم: نحن وأنتم أخوة وذرية أب واحد. . . .

ثم تساءل الكاتب وهو يخاطب الدكتور طه حسين:

أفليس هذا يا دكتور هو عين ما تقوله في كتابك وتنسبه لنفسك وأنت الذي ترى أن مثل هذا جرم ليس بعده جرم[2]، وهل يليق بك يا دكتور أن تنقلب مبشرًا تنقل آراء المبشرين التي يمليها عليهم حقدهم][3].

كان هذا كله من الدكتور تحت مظلة البحث العلمي والأخذ

---

(١) جرجيس صال: لم أستدل على ترجمته.

(٢) ينوه الكاتب بالسرقات العلمية.

(٣) د. مختار التهامي: ثلاث معارك فكرية ـ طبعة خاصة بالمؤلف، ط١ بدون ت، ص ١٧٣، ١٧٤.

بأدواته وأساليبه والدكتور بهذا المسلك يكذِّب صريح القرآن بدعوى أنه متبع لنتائج البحث العلمي الذي يقتضي ـ على حد زعمه ـ التخلص من المعتقدات السابقة واستقبال البحث خالي الذهن، هذا المنهج الذي أخذه عن أستاذه كازانوفا والذي كان دائمًا ما يشيد به في مثل قوله: [كان كازانوفا مسيحيًا شديد الإيمان بمسيحيته، يذهب فيها إلى حد النصوص ولكنه إذا دخل غرفة الدرس في الكوليج دي فرانس نسي من المسيحية واليهودية والإسلامية كل شيء إلا أن لها نصوصًا يجب أن تخضع للبحث اللغوي كما تخضع المادة للعلماء يتناولونها في معاملهم بما يشاؤون من ألوان البحث والامتحان][1] وقد نقل الأستاذ أنور الجندي[2] نصًا عن مجلة الحديث التي كانت تصدر من حلب من محاضرة للدكتور طه والتي كان يلقيها على الطلبة في كلية الآداب، فيه تصريح بالقول ببشرية القرآن وذلك حين يقول: [وإذن فالقرآن محلي لا إنساني عالمي قيمته وخطره في هذه المحلية وحدها، قاله صاحبه متأثرًا بحياته التي عاشها وعاش فيها، ولذلك يعد تعبيرًا صادقًا عن هذه الحياة، أما أنه يمثل غير الحياة العربية أو يرسم هدفًا عامًا للإنسان فليس ذلك بحق، إنه دين بشري وليس وحيًا إلهيًا والقرآن مؤلف، ومؤلفه نبيه محمد، ويمثل تأليفه بأنه يمثل حياة العرب المحدودة في شبه الجزيرة في اتجاهات حياتها المختلفة السياسية والاقتصادية

(١) أنور الجندي: محاكمة فكر طه حسين: دار الاعتصام. د. ت، ص١٦٩.

(٢) أنور الجندي (١٣٣٥هـ/١٤٢٢هـ) (١٩١٧م ـ ٢٠٠٢م) من مواليد أسيوط، له مؤلفات كثيرة تصدى بها للغزو الفكري والتبشيري وله عن طه حسين مؤلفان هما: طه حسين حياته وفكره في ضوء الإسلام، ومحاكمة فكر طه حسين. راجع: أشرف طه أبو الدهب: المعجم الإسلامي دار الشروق، ط١ سنة ١٤٢٣هـ/سنة ٢٠٠٢م، ص٣٢ بتصرف.

والدينية][1].

وهذا كلام من الخطورة بمكان إذ ينفي عن القرآن أي قدسية وينص صراحة وبوضوح كامل أن القرآن من تأليف النبي ﷺ وبوحي من البيئة العربية التي كان يعيش فيها.

وسواء أكان النص السابق ثابتًا في نسبته إلى الدكتور أم لا، فكلامه الأول يفيد ضمنًا قوله ببشرية القرآن، ثم تكذيبه لصريح القرآن ـ حين أنكر قصة إبراهيم وإسماعيل ـ وهو بهذا التكذيب واقع في أمرين:

أحدهما: إن كان يعتقد في القرآن أنه إلهي المصدر فهو مكذب لله عز وجل حين أنكر هذه القصة وشكك فيها.

وثانيهما: إن كان يعتقد فيه بشرية المصدر فهو مكذب لرسول الله ﷺ، وكلا المعتقدين إثم عظيم إن أجاز الكذب على الله ـ سبحانه وتعالى ـ أو على رسوله ﷺ ولعل ما يرجح القول الأخير وهو رؤيته لبشرية القرآن مواقفه المتعددة التي لم يراع فيها قدسية القرآن ولعل أبرزها دعوته لنقد القرآن نقدًا أدبيًا.

نقد القرآن:

أشار الدكتور عبدالحميد سعيد ـ رحمه الله ـ في خطاب أمام مجلس النواب المصري (مارس ١٩٣٢م) إلى أن طه حسين كان يكلِّف بعض طلبته أن ينقدوا بعض آيات من القرآن الكريم يعينها لهم، ويطلب منهم إثبات هذا النقد في كراسات يتلونها عليه، فكانوا يثبتون

(١) المصدر السابق، ص١٥٤.

أن هذه الآية ليست من البلاغة بمكان، وأن تلك الآية على جانب من الركاكة، وأن الآية الأخرى مفككة لا تؤدي المعنى المقصود منها، وأنه كان يريد أن يمرن طلبته على النقد.

وقدَّم الدكتور عبد الحميد سعيد كراسة لأحد طلبة طه حسين أثبت فيها ما كان يلقيه عليهم...[1] (ومما جاء بالكراسة): [ليس القرآن إلا كتابًا ككل الكتب الخاضعة للنقد، فيجب أن يجري عليه ما يجري عليها، والعلم يحتم عليكم أن تصرفوا النظر نهائيًا عن قداسته التي تتصورونها، وأن تعتبروه كتابًا عاديًا فتقولوا فيه كلمتكم، ويجب أن يختص كل واحد منكم بنقد شيء من هذا الكتاب ويبين ما يأخذ عليه][2].

ولقد كذَّب الدكتور هذا الكلام في حواره مع لطفي عثمان مندوب صحيفة كوكب الشرق[3] حين سأله المحرر[4] قائلاً:

س ـ جاء في خطاب عبد الحميد سعيد أفندي أنكم كنم تكلفون طلبتكم أن ينقدوا القرآن، وأن يسجلوا آراءهم في كراسة فيذكروا أن هذه الآية ضعيفة، وأخرى ركيكة، وأنكم تحثون الطلبة على نقد القرآن، وأن فيه أسلوبين مختلفين، أحدهما جاف وهو مستمد من البيئة التي نزل فيها القرآن أول ما نزل في مكة ففي هذا الأسلوب تهديد

---

(١) أنور الجندي: محاكمة فكر طه حسين، ص١٥٤.

(٢) منقول بالنص عن محضر الجلسة الرابعة والعشرين لمجلس النواب المصري ٢٨ مارس سنة ١٩٣٢م، ص٣٤٦ وما بعدها، نقلاً عن محاكمة فكر طه حسين، ص١٥٥.

(٣) لسان حال حزب الوفد آنذاك.

(٤) نشر الحوار في العدد ٢٣٢٧ بتاريخ ١٩٣٢/٣/٢٩م.

ووعيد وزجر، ولما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة تغير الأسلوب بحكم البيئة أيضًا. . . . إلى آخر أقواله (يعني عبد الحميد سعيد) فما مبلغ ما ينسبه إليكم عبد الحميد سعيد أفندي من الصدق؟

جـ: هذا كذب وتزوير، وكل ما قلته هو ما يقوله العلماء المسلمون من أن السور المكية كانت قبل كل شيء سور إنذار وتبشير، فكانت فيها شدة على المشركين، بينما السور المدنية يغلب عليها التشريع فيظهر فيها الهدوء][1].

والملاحظ في رد الدكتور أنه لم يكذب الدعاوى كلها وكان رده مقصورًا حول أسلوب القرآن المكي منه والمدني، فكأن هذا اعتراف ضمني بما كان من أمره من تشجيعه للطلاب على نقد القرآن.

والدكتور إن كان قد شجع الطلاب على نقد القرآن في أروقة الجامعة فهو لم يكتف بهذا التشجيع الشفوي، وإنما خرج على الأمة بدعوة عامة لعموم القراء جاء فيها: [أن الكتب الدينية والعمارات الدينية[2]، لا ينبغي أن تكون وقفًا على أصحابها وحدهم وإنما هي متاع للإنسانية كلها كغيرها من الآثار الفنية التي كان لها حظ عظيم في تكوين نفسية الأمم والأجيال، وإذا كان هذا حقًا ـ وهو حق بل هو واقع كما ترى ـ فقد بقيت خطوة يجب أن نخطوها، ولست أدري أيتاح لنا أن نخطوها في هذا العصر الذي نحن فيه؟ أم يحول بيننا وبينها الجهل والجمود؟ إذا كان من حق الناس جميعًا أن يقرأوا الكتب

---

(١) طه حسين: حديث المساء، تحقيق وتقديم ـ محمد سيد كيلاني ـ دار العرب للبستاني ـ الطبعة الأولى، بدون ت، ص٥.

(٢) العمارات الدينية يقصد بها دور العبادة.

الدينية ويدرسوها ويتذوقوا جمالها الفني، فلم لا يكون من حقهم أن يعلنوا نتائج هذا التذوق والدرس والفهم ما دام هذا الإعلان لا يمس مكانة هذه الكتب المقدسة من حيث هي كتب مقدسة، فلا يغض منها، ولا يضعها موضع الاستهزاء والسخرية والنقد؟ وبعبارة أوضح: لم لا يكون من حق الناس أن يعلنوا آراءهم في هذه الكتب من حيث هي موضوع للبحث الفني والعلمي بقطع النظر عن مكانتها الدينية][1].

وهذه جرأة غير محمودة على كتاب الله لم يسبق الدكتور إليها أحد من المسلمين.

وهذه الجرأة على القرآن كانت مصاحبة لمراحل حياته المختلفة فقد كتب في مذكراته وهو يحكي مرحلة الطفولة أنه [كم كان فرحًا مختالاً حين غدا إلى الكُتَّاب يوم السبت وفي يده نسخة من «الألفية»! لقد رفعته هذه النسخة درجات، وإن كانت هذه النسخة ضئيلة قذرة سيئة الجلد، ولكنها على ضآلتها وقذارتها كانت تعدل عنده خمسين مصحفًا من هذه المصاحف التي كان يحملها أترابه لقد حفظ ما فيه فما أفاد من حفظه شيئًا وكثير من الشبان يحفظونه فلا يحفل بهم أحد... ولكن الألفية! وما أدراك ما الألفية! وحسبك أن سيدنا لا يحفظ منها حرفًا، وحسبك أن العريف لا يحسن أن يقرأ الأبيات الأولى منها، والألفية شعر وليس في المصحف شعر، الحق أنه ابتهج بهذا البيت:

قال محمد هو ابن مالك أحمد ربي الله خير مالك

(١) طه حسين: رحلة الربيع والصيف ـ المجموعة الكاملة ـ الشركة العالمية للكتاب بيروت ـ ط٢، ١٩٨٣م، ٢١٨/١٤.

ابتهاجًا لم يشعر بشيء مثله أمام أي سورة من سور القرآن][1].

يعبر بهذه الكلمات دون تحفظ في لفظ ولا مراعاة لمعنى ولا نظر إلى قدسية القرآن ومكانته.

[وإذا كان طه حسين قد صاغ عباراته هذه على أنها مشاعر الصبا إلا أنه عبر عن رأيه هذا وهو في كامل وعيه وبعد أن صار كاتبًا شهيرًا، وحسبنا أنه اختزن مفصَّل تلك الوقائع في عقله من صباه الباكر حتى شرع في تحرير كتابه فدوَّنها على هذا الوجه... وقد طبع كتاب الأيام مرات وفيه هذا الكلام ولم يحاول هو أن يغير فيه أو يبدل منه ولم يلتفت أحد إلى أن هذه العبارات سب مباشر في المصحف الشريف][2].

رأي المستشرقين في مصدرية القرآن:

في سهولة ويسر يعترف المنصفون من المستشرقين بإلهية القرآن وأنه تنزيل من حكيم حميد وممن ذهب إلى هذا غوستاف لوبون[3] في حضارة العرب[4].

---

(١) طه حسين: الأيام، المجموعة الكاملة، الشركة العالمية للكتاب ـ بيروت ١/٧١، ٧٢.

(٢) من كلام الأستاذ عبد الهادي مسعود، راجع السيد مرتضى الرضوي: مع رجال الفكر في القاهرة مطبوعات النجاح بالقاهرة، ط١، سنة ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م، ص١٦٤.

(٣) غوستاف لوبون: فرنسي ولد عام ١٨٤١م، طبيب ومؤرخ عني بالحضارة الشرقية، من آثاره: الحضارة المصرية وحضارة العرب وحضارات الهند وحضارة العرب في الأندلس ـ المستشرقون ١/٢٠٢.

(٤) عقد فصلاً عن القرآن بداية من ص١١٧ ـ ١٢٩ طبعة الهيئة المصرية للكتاب سنة ٢٠٠٠م.

أما المتحاملون على الإسلام منهم فقد حذوا حذو مشركي مكة حين قالوا عن القرآن ورسول الله الذي جاء به: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ...﴾[1]، وقالوا: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾[2]، وقالوا: ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾[3]، ورددوا شبهات وكلمات يدَّعون بها أن القرآن من تأليف الرسول ﷺ [وأنه ـ أي: القرآن ـ انطباع في نفس محمد ﷺ نشأ عن تأثره ببيئته التي عاش فيها... بمكانها وزمانها... ومظاهر حياتها المادية والروحية والاجتماعية][4].

يقول جورج سيل[5] في مقدمة ترجمته الإنجليزية لمعاني القرآن التي صدرت عام ١٧٣٦م ما يأتي:

«أما أن محمدًا كان في الحقيقة مؤلف القرآن والمخترع الرئيس له فأمر لا يقبل الجدل، وإن كان من المرجح ـ مع ذلك ـ أن المعاونة التي حصل عليها من غيره في خطته هذه لم تكن معاونة يسيرة... وهذا واضح في أن مواطنيه لم يتركوا الاعتراض عليه بذلك»[6].

---

(١) سورة الفرقان، الآية: ٤.

(٢) سورة النحل، الآية: ١٠٣.

(٣) سورة الفرقان، الآية: ٥.

(٤) د. البهي: الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، ص١٧٧.

(٥) سيل: (١٦٩٧ ـ ١٧٣٦) مستشرق إنجليزي عمل بالمحاماة ـ درس العربية واقتنى مجموعة من مخطوطاتها اهتم بالإسلام حتى وُصفَ أنه نصف مسلم، له ترجمة للقرآن في ٤٧٠ صفحة. المستشرقون ٤٧/٢.

(٦) د. محمود حمدي زقزوق، الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، سلسلة كتاب الأمة عدد ٥ صفر سنة ١٤٠٤هـ، ط١، ص٨٣.

ويقول جيب[1]: [إن محمدًا ككل شخصية مبدعة قد تأثر بضرورات الظروف الخارجية (عنه) المحيطة به من جهة، ثم هو من جهة أخرى قد شق طريقًا جديدًا بين الأفكار والعقائد السائدة في زمانه، والدائرة في المكان الذي نشأ فيه... وأن جو مكة بما فيه من زعامة اقتصادية وسياسية ودينية ثم بما فيه من عيوب اجتماعية ـ كالرق والفوارق البعيدة المدى بين الطبقات هو الذي أثر في نفس محمد ﷺ ليكون صاحب ثورة! فالحياة المكية بما فيها من عوامل إيجابية، وأخرى سلبية قد تفاعلت في نفسه وهو يرتبط في رسالته بهذه الحياة أيما ارتباط بحيث لو كان رجلاً غير مكي لما صادف هذا النجاح][2].

ولعل كلام جيب يشابه كلام الدكتور طه إلى حد كبير، فالأول يرى القرآن انطباعًا في نفس محمد ﷺ نشأ عن تأثره بالبيئة، والثاني يراه تعبيرًا عن الحياة التي عاش فيها محمد ﷺ وإحدى الصورتين ملازمة للأخرى كما يقول الدكتور البهي وكلتاهما تفصح عن أن القرآن عمل خاص بمحمد ﷺ، تأثر فيه كما يتأثر الإنسان العادي، وعبر به عن المعاني التي كانت في نفسه من بيئته وانطبعت في خاطره من ظروف الحياة التي تحيط به[3].

ومن نافلة القول أن نوضح أن القول ببشرية القرآن يكاد يمثل إجماعًا عند المستشرقين لا لكونه حقًا واقعًا، وإنما لأنهم يصدرون في

---

(١) سبق التعريف به، ص١٢٠.

(٢) د. البهي: الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، ص١٧٨.

(٣) د. البهي: الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، ص١٧٧، والكتاب فيه بحث عظيم القدر عن بشرية القرآن أقامه المؤلف مقارنة بين قول جيب والدكتور طه حسين.

أبحاثهم عن موروث ثقافي يحمل الحقد والبغض للإسلام ونبيه، ثم لكونهم يصدرون في أبحاثهم عن عقل جمعي فكلهم يردد مقالة سابقه على أنها من الحق الذي ليس بعده إلا الضلال.

ومن الغريب أن نجد هذا القول عند المهتمين منهم بأمر اللغة، فنجد رجلاً مثل يوهان فك[1] وهو يشيد بأسلوب القرآن يقول: [ففي القرآن لأول مرة في تاريخ اللغة العربية ينكشف الستار عن عالم فكري تحت شعار التوحيد، لا تعد لغة الكهانة والعرافين الفنية المسجوعة إلا نموذجًا واهيًا له، من حيث ظاهر وسائل الأسلوب ومسالك المجاز في اللفظ والدلالة، على حين أن هذا الأثر العظيم الذي وجد التعبير الموائم لمضمون جديد برمته، إنما يصور مجهودًا لمحمد ﷺ جد أصيل، لا ينقص من قيمته أن محمدًا نفسه كان يرى أنه وحي إلهي تلقاه في أوقات الاستغراق الديني][2].

استدراك وبيان:

بعد أن كتبت هذا المبحث صدر كتاب الدكتور محمد الدسوقي عن طه حسين «أيام مع طه حسين» ذكر فيه رأيًا طيبًا للدكتور طه حسين في القرآن ومصدريته يخالف رأيه سالف الذكر فرأيت من الأمانة إثبات النص إنصافًا للرجل:

---

(١) يوهان فك: من أكابر المستعمرين الألمان ولد سنة ١٨٩٤ تخصص في اللغة العربية والدراسات الإسلامية، درّس في الهند وألمانيا. من آثاره: دور الرواية والرواة في الإسلام. راجع: د. محمد فتح الله الزيادي: الاستشراق وأهدافه ووسائله. دار قتيبة سوريا سنة ١٩٩٨م، ص٥٦.

(٢) يوهان فك: العربية دراسات في اللغة واللهجات والأساليب، ترجمه د. رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م، ص١٧.

يحكى الدكتور محمد الدسوقي أنه في يوم الجمعة ١٠/٤/١٩٧٠م زار الشيخ محمود أبو رية[١] الدكتور طه حسين وكان من حديث الشيخ أبي رية إلى الدكتور طه حسين ما يلي: (إن «مجلة قافلة الزيت» التي تصدر في السعودية نشرت لي مقالاً بعنوان: «بعض ما أعرفه عن طه حسين» ولكن المجلة حذفت منه فقرة هامة جدًا تتعلق بألفاظ القرآن الكريم فسأل العميد (طه حسين) عن هذه الفقرة، فقال الشيخ: أتذكر يوم قلت لك وكنا منفردين: إن معاني القرآن من عند الله ولكن ألفاظه من عند النبي فبدا عليك الامتعاض وقلت في لهجة يشوبها الانفعال: هذا غير صحيح فالقرآن لفظًا ومعنى من عند الله. هذه الفقرة حذفتها المجلة وكنت أقصد من وراء ذكرها الرد على بعض من يطعن في عقيدة طه حسين)[٢].

هذا الكلام وإن كان حديثًا شفويًا إلا أنه ينسجم مع حديث الرجل عن القرآن في نهاية حياته وفي آخر مؤلفاته الإسلامية «مرآة الإسلام» فرأيت من الخير إثباته تبرئة للذمة وإحقاقًا للحق.

(١) الشيخ محمود أبو رية كانت تربطه بطه حسين صلات حميمة وكان يشارك طه في كثير من آرائه، من آثاره: كتاب «أضواء على السُّنَّة المحمدية» الذي حوى الكثير من الآراء الخاطئة في السُّنَّة النبوية ورواتها، توفي في ١١/١٢/١٩٧٠م. د. محمد الدسوقي: أيام مع طه حسين، ص١٣٧.

(٢) د. محمد الدسوقي: أيام مع طه حسين. دار القلم، دمشق. ط١، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م، ص١٢٠.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

المبحث الثاني

طه حسين وتعريضه بتكذيب القرآن

على طريقة المستشرقين في الاستدلال بالقرآن يُقدِم الدكتور على التشكيك في مصداقية القرآن!، وذلك حين يفسر آيات القرآن على غير وجهها أو يتعلق برأي مرجوح في تفسير آية من آيات الكتاب العزيز.

حين أرَّخ الدكتور لحياة الشيخين واستعرض المحن والشدائد التي واجهها الصديق أبو بكر ذكر من تلك المحن وفاة النبي ﷺ وبين أن تلك المحنة لم تكن خاصة بأبي بكر بل كانت عامة كادت تفتن المسلمين عن دينهم ـ على حد تعبيره ـ ثم يوضح ذلك بقوله: [فهم كانوا يقدِّرون أن النبي سيبقى فيهم حتى يظهر دين الله على الدين كله، وهم يقرؤون في سورة التوبة[1] قول الله عز وجل: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ﴾ ويقرؤون قوله عز اسمه في سورة الفتح[2]: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾﴾.

---

(١) آية ٣٣.

(٢) آية ٢٨.

وكان النبي قد أظهر دين الحق على الدين كله في جزيرة العرب، ولكنه لم يظهره على الدين كله في سائر أقطار الأرض(!!). ثم انتفضت اليمن مع الأسود العنسي، وانتفضت بنو حنيفة مع مسيلمة في حياة النبي، فلم يتم له إذن إظهار دين الحق على الدين كله لا في جزيرة العرب ولا في غيرها من أقطار الأرض وها هو ذا يفارق الدنيا ويختاره الله لجواره فلا غرابة في أن يشك الصادقون من المؤمنين في أنه قد مات، كما شك عمر رحمه الله، ولا غرابة في أن يكفر الذين كانوا يعبدون الله على حرف، كما كفر الأعراب الذين جحدوا الزكاة ولا غرابة في أن يضطرب أمر الناس في المدينة أشد الاضطراب][1].

والدكتور بكلامه آنف الذكر يُكذِّب القرآن بدعوى أن الرسول ﷺ قد مات والدين الإسلامي لم يظهر على الدين كله. ولعل الدكتور قصد من الظهور هنا الظهور المادي بمعنى دخول الناس جميعًا تحت سلطان الدين وهذا تحكم في فهم الآية، فاختلاف الناس إلى مؤمن وكافر قضاء إلهي، ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾[2]، ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾[3]، ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾[4].

فتمايز الناس إلى كفر وإيمان قضاء من الله ليجري فيهم قضاؤه وليبتلي بعضهم ببعض.

---

(١) طه حسين: الشيخان، دار المعارف، ط٧، ص١٧.
(٢) سورة يونس، الآية: ٩٩.
(٣) سورة الأنعام، الآية: ٣٥.
(٤) سورة هود، الآية: ١١٨.

وظهور الدين بالمعنى الذي قاله الدكتور إنما سيكون في آخر الزمان كما دلت على ذلك السُّنَّة الصحيحة، فعن أم المؤمنين عائشة ﵂ قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لا يذهب الليل والنهار حتى تعبد اللات والعزى**»، قلت: يا رسول الله، إن كنت لأظن حين أنزل الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ۝٩﴾[1] أن ذلك تام، قال: «**إنه سيكون من ذلك ما شاء الله ثم يبعث الله ريحًا طيبة، فتتوفى كل من كان في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان فيبقى من لا خير فيه، فيرجعون إلى دين آبائهم**» أخرجه مسلم[2].

بل حتى في آخر الزمان، لا يتم إيمان جميع الناس، بل يبقى أناس لا خير فيهم على دين آبائهم كما نص الحديث السابق، وللعلماء في تفسير الظهور في الآيتين آراء ذكر منها القرطبي:

[**الأول**: ظهور الحجة والبراهين وقد أظهره على شرائع الدين حتى لا يخفى عليه شيء منها.

والثاني: ظهور الإسلام على كل دين قال أبو هريرة والضحاك: هذا عند نزول عيسى ﵇ وقال السدي: ذاك عند خروج المهدي[3]،

---

(١) سورة الصف، الآية: ٩.

(٢) رقم ٢٩٠٧ في الفتن، باب لا تقوم الساعة حتى تعبد دوس ذا الخلصة، راجع الإمام النووي، صحيح مسلم بشرح النووي، مكتبة الغزالي دمشق، مؤسسة مناهل العرفان بيروت بدون ت، ٣٣/١٨.

(٣) المهدي المنتظر: هو الإمام المنتظر الذي يأتي آخر الزمان ليقود المسلمين ضد المسيح الدجال وقد بشرت به الأحاديث الصحيحة من سُنة النبي ﷺ [انظر: المعجم الإسلامي، ص٥٩٢، بتصرف يسير].

لا يبقى أحد إلا دخل في الإسلام أو أدى الجزية][1].

فظهور الحجة والبرهان واضح ظاهر في رسالة الإسلام منذ بعث رسول الله ﷺ وحتى يومنا هذا وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، فليس لأحد من أهل الأديان الأخرى سماوية كانت أو وضعية حجة ظاهرة ـ قائمة على حق ـ على الإسلام ورسالته.

ثم إن ظهور الدين وسيطرته على النفوس والقلوب مما تنبأ به ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى، كما ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**إن الله زوى لي الأرض مشارقها ومغاربها وسيبلغ ملك أمتي ما زوى لي منها**»[2]، وعن تميم الداري[3] رضي الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله هذا الدين يعز عزيزًا ويذل ذليلاً، عزًا يعز الله به الإسلام وذلاً يذل الله به الكفر**» فكان تميم الداري يقول: قد عرفت ذلك في أهل بيتي لقد أصاب من أسلم منهم الخير

---

(١) أبو عبدالله بن محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، دار الفكر، بيروت ١٤١٥هـ/١٩٩٥م، ٥٥/٤.

(٢) رواه مسلم رقم (٢٨٨٩) في الفتن باب «هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض» والترمذي رقم (٢١٧٧) «في الفتن» باب ما جاء في سؤال النبي ﷺ ثلاثًا في أمته، أبو داود رقم (٤٢٥٢) في الفتن، باب ذكر الفتن ودلائلها: راجع: ابن الأثير الجزري ـ جامع الأصول في أحاديث الرسول ـ المكتبة التجارية مكة المكرمة، دار الفكر بيروت، ط٢ ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، ٣١٦/١١.

(٣) تميم الداري: هو تميم بن أوس بن خارجة بن سود بن خزيمة يكنى أبا رقية، لم يولد له غيرها، أسلم سنة ٩هـ، وهو أول من أسرج السراج بالمسجد، كان كثير التهجد والقيام، سكن المدينة ثم رحل إلى الشام بعد مقتل عثمان. [ابن الأثير الجزري: أسد الغابة في معرفة الصحابة ٢٩٥/١، دار الفكر، بيروت ١٤١٤هـ/١٩٩٣م].

والشرف والعز، ولقد أصاب من كان كافرًا منهم الذل والصغار والجزية[1].

والظهور بهذا المعنى تحقق أيضًا في حياته ﷺ فقامت للمسلمين دولة بعد أن كان الإسلام فكرة ومعنى في نفس نبيه ونفر ممن آمن به، ثم دخل الناس في دين الله أفواجًا، وأتم الله الدين للمسلمين قبل وفاة نبيه فأي ظهور بعد هذا يقصد الدكتور؟!

إن تشكيك الدكتور في مصداقية القرآن بهذا الأسلوب مسلك خاطئ لا يقره عليه منصف.

(١) محمد علي الصابوني: مختصر تفسير ابن كثير، دار التراث العربي، مصر، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، ٣/١٣٧، ١٣٨، ورواه أحمد في مسنده، وأورده الهيثمي في المجمع وقال: رواه أحمد والطبراني، ورجال أحمد رجال الصحيح. انظر: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ٦/٧، ٨.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

المبحث الثالث

موقف طه حسين من قضيَّة جمع القرآن الكريم

من القضايا التي طنطن المستشرقون حولها وأرغوا فيها وأزبدوا قضية جمع القرآن بمراحلها المختلفة، ورددوا في ذلك شبهًا ومقالات ليس فيها شيء من الجدة، وإنما أذاعوا ما قاله أهل الزيغ والضلال من الملحدين والمبطلين وأصحاب النحل الفاسدة والأهواء المنحرفة ومن على شاكلتهم، في نهايات القرن الأول الهجري وما تلاه، ومن المؤكد أنهم حين نقلوا تلك المطاعن وأشاعوها عرفوا ردود أئمة الهدى على تلك الشبهات، ولكنهم أخذوا ما يبتغون وأعرضوا عما لا يريدون، وهذا مسلك ذميم لو كانت لديهم أثارة من إنصاف، وأكبر الظن أنهم عن ذلك بمعزل، إلا من كان رائده الحق، وقليل ما هم.

وليس من البعيد توقع الطعن ممن انطوى قلبه على الحقد والكراهية فذلك أمر تقر به العقول بداهة، أما طعان ذوي القربى وسهامهم فوقعها شديد مؤلم؛ لأنهم ممن يُرجى خيرهم ويُؤمن شرهم وصدق من قال:

وظلم ذوي القربى أشد مضاضة على النفس من وقع الحسام المهند

أقوال الدكتور طه في هذه القضية:

أكثر الدكتور من التعرض لهذه القضية في كتاباته عن الإسلام وأعلام المسلمين، ولم يبد الدكتور خلافًا في حديثه عند تعرضه لكتابة القرآن في العهد النبوي ولا لجمع أبي بكر الصديق، ولكنه عندما يعرض لكتابة القرآن على عهد عثمان إذا به يتبرع بترديد شبهات أهل الزيغ والضلال ويعرضها على لسان أصحابها حتى يعفي نفسه من اللائمة، ولكنه لا يطيق صبرًا على هذا الإعفاء إذ تغلبه نفسه فلا يستطيع إخفاء وجهة نظره فيبديها في صراحة ووضوح.

يقول الدكتور حين يتحدث عما عابه الناس على عثمان: [وعاب خصوم عثمان عليه أنه حمل الناس على مصحف واحد، ثم لم يحظر غير ما جاء في هذا المصحف من القراءة فحسب، ولكنه حسم الأمر حسمًا فحرَّق ما عدا هذا المصحف من الصحف التي كتب فيها القرآن. قال المعترضون على عثمان: إن النبي قال: «**نزل القرآن على سبعة أحرف كلها كاف شاف**»[1].

فعثمان حين حظر ما حظر من القراءة، وحرَّق ما حرق من الصحف إنما حظر نصوصًا أنزلها الله، وحرق صحفًا كانت تشتمل على قرآن أخذه المسلمون عن رسول الله، وما ينبغي للإمام أن يلغي من القرآن حرفًا أو يحرق من نصوصه نصًا...][2].

---

(١) أخرجه مسلم بروايات متعددة بلفظ مقارب. راجع الإمام النووي: صحيح مسلم بشرح النووي، باب فضائل القرآن فصل بيان أن القرآن على سبعة أحرف من رقم ٨١٨ ـ ٨١٢، المجلد الثاني الجزء السادس، ص٩٨ ـ ١٠٤.

(٢) طه حسين: الفتنة الكبرى ـ عثمان ـ المجموعة الكاملة، الشركة العالمية للكتاب، بيروت، ط٥، ١٩٩٦ ٣٧٦/٤ ـ ٣٧٨ بتصرف.

ثم يقول الدكتور بعد أن قرر مقال خصوم عثمان ﷺ: [فليس من شك في أن ما أقدم عليه عثمان من توحيد المصحف وحسم هذا الاختلاف وحمل المسلمين على حرف واحد أو لغة واحدة يقرؤون بها القرآن عمل فيه كثير من الجراءة، ولكن فيه من النصح للمسلمين أكثر مما فيه من الجراءة فلو قد ترك عثمان الناس يقرؤون القرآن قراءات مختلفة بلغات متباينة في ألفاظها، لكان هذا مصدر فرقة لا شك فيها ولكان من المحقق أن هذه الفرقة حول الألفاظ ستؤدي إلى فرقة شر منها حول المعاني بعد أن كان الفتح، وبعد أن استعرب الأعاجم وبعد أن أخذ الأعراب يقرؤون القرآن...][1].

وهذه المقالة السابقة توهم موافقة الدكتور ورضاه عن صنيع عثمان ﷺ، ولكن هذا الظن سرعان ما يتبدد حين يقول الدكتور متابعًا حديثه: [وإذا لم يكن على عثمان جناح فيما فعل لا من جهة الدين ولا من جهة السياسة فقد يكون لنا أن نأسى لتحريق تلك الصحف؛ لأنه إن لم يكن قد أضاع على المسلمين شيئًا من دينهم فقد أضاع على العلماء والباحثين كثيرًا من العلم بلغات العرب ولهجاتها، على أن الأمر أعظم خطرًا وأرفع شأنًا من علم العلماء وبحث الباحثين عن اللغات واللهجات][2] (!!!) وهذه الكلمات الأخيرة من مقال الدكتور، تعني مشاركته لأولئك الخصوم في مقالهم وادعائهم الذي يهدف بل ينص على أن القرآن الكريم الذي بأيدي الناس اليوم، والذي تلقته الأمة بالقبول ليس هو القرآن الذي نزل على محمد ﷺ بأجمعه إنما اعتراه

---

(١) طه حسين: الفتنة الكبرى ـ عثمان ـ المجموعة الكاملة ٣٧٨/٤، ٣٨٦ بتصرف.

(٢) المرجع السابق ٣٧٨/٤.

شيء من النقص بتحريق عثمان للصحف أو تخريقها!! وهذه الدعوى قام لها العلماء فهدموا أركانها وأبانوا عوارها بما أوضحوه من منهج عثمان ﷺ وتحريه الخير، وأنه ما حرَّق الصحف التي كانت لديه بعد إتمام الجمع إلا بمشورة من المسلمين: [روى أبو بكر الأنباري عن سويد بن غفلة قال: سمعت علي بن أبي طالب كرم الله وجهه يقول: يا معشر الناس اتقوا الله وإياكم والغلو في عثمان وقولكم حَرَّاق مصاحف، فوالله ما حرَّقها إلا على ملأ منا أصحاب رسول الله ﷺ، وعن عمر بن سعيد قال: قال علي بن أبي طالب ﷺ: لو كنت الوالي وقت عثمان، لفعلت في المصاحف مثل الذي فعل عثمان][1] وحتى لا يكون ردنا على هذا الشبهة كلامًا مرسلاً نورد هنا منهج عمل اللجنة التي شكلها عثمان لكتابة المصحف حتى يظهر الحق ويذهب ما عداه من الادعاءات الباطلة.

مميزات المصاحف العثمانية:

امتازت المصاحف العثمانية على المصحف الذي جمع على عهد أبي بكر الصديق ﷺ بأنها:

١ ـ اقتصرت على ما ثبت بالتواتر دون ما كانت روايته آحادًا[2].

---

(١) محمد عبد العظيم الزرقاني: مناهل العرفان في علوم القرآن، دار الرياض، السعودية ـ ب. ت، م١، ص١٦٢.

(٢) حديث الآحاد: هو ما لم يجمع شروط التواتر وهي أن يرويه عدد كثير، وأن توجد هذه الكثرة في جميع طبقات السند، وأن تحيل العادة اتفاقهم على الكذب، وأن يكون مستند حديثهم الحس كقولهم: سمعنا. راجع: مناع القطان: مباحث في علوم الحديث، مكتبة وهبة، ط١، ١٤٠٨هـ/١٩٨٧م، ص٨٤، ٨٧.

٢ ـ أهملت ما نسخت تلاوته ولم يستقر في العرضة الأخيرة[١].

٣ ـ رتبت السور والآيات على الوجه المعروف الآن بخلاف صحف أبي بكر التي كانت مرتبة الآيات دون السور.

٤ ـ كتبت بطريقة جمعت وجوه القراءات المختلفة والأحرف التي نزل عليها القرآن.

٥ ـ جردت من كل ما ليس قرآنًا، كالذي كان يكتبه بعض الصحابة في مصاحفه الخاصة شرحًا لمعنى أو بيانًا لناسخ أو منسوخ][٢].

بهذا المنهج السامق يرد ادعاء الدكتور الذي ذهب إلى أن عثمان أضاع بتحريقه للصحف الأخرى بعض دينهم أو شيئًا من قرآن ربهم الذي أنزله الله هداية للناس، والحق أن عمل عثمان ﷺ في جمعه للقرآن وتحريقه لما عداه [حسم مادة الاختلاف، لأنه أمر يَمتدّ مع الزمن وتنشعب الأيام به، وهو إن أمن في عصره لم يدر ما يكون بعد عصره، وقد أدرك أن العرب لا يستمرون عربًا على الاختلاف والفتوح، وأن الألسنة تنتقل واللغات تختلف... فلم يفعل شيئًا أكثر من أنه حصَّن القرآن وأحكم الأسوار حوله، ومنع الزمن أن يتطرق إليه بشيء، وجعله بذلك فوق الزمن][٣].

ودعوى نقص القرآن من جراء تحريق عثمان ليست جديدة وإنما

---

(١) المراد بالعرضة الأخيرة: هي قراءة جبريل القرآن على النبي في عامه الأخير من حياته.

(٢) أحمد عادل كمال: علوم القرآن، دار المختار الإسلامي، ب. ت، ص٤٦.

(٣) مصطفى صادق الرافعي: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، دار المنار، مكتبة فياض، ب. ت، ص٢٩.

قال بها المستشرقون واضطربت فيها مقالاتهم لاضطراب تفكيرهم في المسألة ذاتها.

رأي المستشرقين في زيادة القرآن أو نقصه:

ذهب بعض المستشرقين إلى أن القرآن اعتراه نقص في نصه الذي بلَّغه الرسول ﷺ عن ربه وممن قال بذلك جوستاف إ. فون جرونيباوم[1] في كتابه «حضارة الإسلام» إذ كان من قوله: [ومن الأمور التي لا سبيل إلى معرفتها مما تبقى لدينا من معلومات، استبانة الأسباب التي دعت الأئمة القراء بإشارة الخليفة عثمان إلى تنظيم[2] ما خلفه الرسول من الوحي - والراجح أنه لم يفقد أو ينس منه إلا جزء يسير جدًا - في ١١٤ سورة بالضبط تختلف في طولها اختلافًا بعيدًا][3].

فأشار المستشرق النمساوي إلى نقص القرآن بجملة اعتراضية في حديثه بدأها بقوله: (والراجح) وترجيحه كما ترى لا يعتمد على مرجح إنما ساقه كلامًا مرسلاً معتمدًا على ظنون وأوهام وحتى يقلل من وقع ادعائه يقول بأن المفقود أو المنسي (جزء يسير جدًا) وكأنه أجرى مقابلة بين النص المأثور عن الرسول ﷺ كما تلقاه عن ربه وبين النص الموجود الآن فبان له أن المفقود من النص الأول يسير جدًا!!!

---

(١) سبق ترجمته، ص١٨٥.

(٢) موضوع ترتيب سور القرآن اختلفت حوله الآراء هل كان توقيفيًا، أي: بنقل عن رسول الله ﷺ - المبلغ عن ربه - أم كان باجتهاد من الصحابة، وسواء أكان هذا أم ذاك، فإنه ينبغي احترامه لا سيما في كتابة المصحف، لأنه إجماع عن الصحابة والإجماع حجة: راجع أحمد عادل كمال: علوم القرآن، ص٨٢.

(٣) جرونيباوم: حضارة الإسلام، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مكتبة الأسرة ١٩٩٧، ص١٠٨.

* وفي المقابل نرى بعض المستشرقين يقفون عند حدود البحث ولا ينساقون لأهوائهم فيقرون بكمال القرآن وتمامه ويستبعدون ضياع أي جزء منه ولو كان يسيرًا.

يقول: «رودي بارت»[١] في مقدمة ترجمته الألمانية للقرآن ـ وكأنه يرد على زملائه الذين يشككون في صحة النص القرآني: «ليس لدينا أي سبب يحملنا على الاعتقاد بأن هناك آية في القرآن كله لم ترد عن محمد»[٢].

ويقول مونتجمري وات[٣]: «ومع أن مصحف عثمان لم يحذف منه شيء مما كان في المصاحف السابقة فإنه لاقى قبولاً عامًا من المسلمين»[٤].

ومن خلال ما عرضناه فلم يكن الدكتور موفقًا فيما ذهب إليه من رأي خالف به إجماع المسلمين على كمال القرآن وتمامه.

إلا أنه من الحق علينا أن نوضح أن للدكتور كلامًا جيدًا في

---

(١) رودي بارت: مستشرق ألماني من آثاره: الدراسات العربية في الجامعات الألمانية، ترجمه إلى العربية د. مصطفى ماهر. [راجع: د. أحمد محمود هويدي، الاستشراق الألماني، ص٢٢].

(٢) نقلاً عن د. محمود حمدي زقزوق: الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، ص٩٢.

(٣) سبق ترجمته، ص١٧٩.

(٤) مونتجمري وات: الإسلام والمسيحية في العالم المعاصر، ترجمه د. عبد الرحمن الشيخ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة الألف كتاب الثاني، العدد ٢٩٨ الصادر سنة ١٩٩٨، ص٦٣.

النقطة ذاتها وهو متأخر في الزمن عن سابقه[1] ولعله رجوع عن مقاله الأول يقول الدكتور في كتابه «مرآة الإسلام»: (ثم جمع القرآن أيام أبي بكر ثم نسخ في المصاحف وأرسل إلى الأمصار أيام عثمان، وجعل المسلمون يروونه سماعًا ويقرؤونه في المصاحف حتى وصل إلينا كاملاً كما هو الآن، فهو متواتر لا يجد الشك إلى شيء منه سبيلاً لم يختلف فيه المسلمون وإنما تناقلوه مجمعين عليه. وتناقلوه مسموعًا ومكتوبًا فجملته وتفصيله فوق الشك وفوق الجدال)[2].

شبهة ثانية حول جمع القرآن:

أثار الدكتور طه حسين قضية ثانية تتعلق باللجنة التي قامت بكتابة المصحف في خلافة عثمان ﷺ، قال الدكتور وهو يعرض للمآخذ التي أُخِذَت على عثمان ﷺ:

[وقد يمكن أن يُعترض على عثمان في أنه كلف كتابة المصحف نفرًا قليلاً من أصحاب النبي، وترك جماعة من القراء الذين سمعوا من النبي وحفظوا عنه وعلموا الناس في الأمصار، وكان خليقًا أن يجمع هؤلاء القراء جميعًا ويجعل إليهم كتابة المصحف، ومن هنا نفهم غضب ابن مسعود[3]، فقد كان ابن مسعود من أحفظ الناس للقرآن.

---

(١) صدر كتاب الفتنة الكبرى ـ عثمان ـ والذي فيه تشكيك في نقص القرآن سنة ١٩٤٧م، وصدر كتاب «مرآة الإسلام» والذي فيه نفي لذلك في عام ١٩٥٩م.

(٢) طه حسين: مرآة الإسلام، دار المعارف، ب. ت، ص١٥٤.

(٣) عبدالله بن مسعود [ت٣٢هـ/٦٥٢م]: عبدالله بن غافل، صحابي جليل من مكة، وهو أول من جهر بالقرآن بمكة، وسادس من دخل في الإسلام، هاجر إلى=

وهو، فيما يقول قد أخذ من فم النبي نفسه سبعين سورة من القرآن، ولم يكن زيد[1] قد بلغ الحلم بعد، فإيثار عثمان لزيد بن ثابت وأصحابه وتركه لابن مسعود وغيره من الذين سبقوا إلى استماع القرآن من النبي وحفظه عنه، قد أثار عليه بعض الاعتراض. وهذا شيء يفهم من غير مشقة ولا عسر][2].

والدكتور بإشارته لهذه الشبهة يحكي مقالة قديمة، تولى كبرها أهل الزيغ والضلال في الصدر الأول من دعوة الإسلام[3].

والحق أنه لا عيب على عثمان ﷺ في عهده إلى زيد بن ثابت بكتابة المصحف في عهده فهو لم يفعل غير تجديد دعوة أبي بكر وعمر ﷺ وانتدابهما لزيد لجمع القرآن أول مرة.

ولذلك لما كره ابن مسعود ﷺ أن يؤمر بتسليم مصحفه وأظهر اعتراضه على ذلك وقال: [إنه من يغلل يأت بما غل يوم القيامة، فغلوا المصاحف، فلأن أقرأ على قراءة من أُحِب أَحَبُ إليَّ من أن أقرأ على قراءة زيد بن ثابت فوالذي لا إله غيره لقد أخذت من فِيّ رسول الله ﷺ بضعًا وسبعين سورة، وزيد بن ثابت غلام له ذؤابتان

= الحبشة ثم إلى المدينة، شهد المشاهد كلها مع رسول الله واحتز رأس أبي جهل في بدر، كانت له معرفة كبيرة بالقرآن والحديث. [أشرف طه أبو الدهب/المعجم الإسلامي، ص٣٩٧].

(١) زيد بن ثابت: [١١ق.هـ/٦١١م/٤٥هـ/٦٦٥م] صحابي جليل من كتبة الوحي، كان يجيد السريانية، وكان من أعلم الناس بالفرائض، وأحد الذين قاموا بمهمة جمع القرآن بعد وفاة النبي ﷺ انظر: المعجم الإسلامي، ص٣٠٥.

(٢) طه حسين: الفتنة الكبرى، عثمان المجموعة الكاملة ٣٧٨/٤.

(٣) راجع: القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، مقدمة التفسير ٧٨/١، ٧٩.

يلعب مع الغلمان. . .][1].

لما كان ذلك من ابن مسعود ﷺ قال عثمان: [من يعذرني من ابن مسعود: غضب إذ لم أوله نسخ المصاحف هلا غضب على أبي بكر وعمر إذ عزلاه من ذلك ووليا زيدًا!! فاتبعت فعلهما][2].

ولقد ذكر العلماء عللاً وتأويلات لاستبعاد ابن مسعود من اللجنة، منها: [أنه كان يكتب ما يوحى من القرآن في مصحفه كلما بلغه نزول آيات منه. فهو يختلف في ترتيب هذه[3] الآيات عما امتازت به مصاحف عثمان من الترتيب بحسب العرض الأخير على رسول الله ﷺ بقدر ما أدى إليه اجتهاد الصحابة المؤيد بإجماعهم، ويحتمل أن يكون ابن مسعود فاته في مصحفه بعض ما استقصاه زيد بن ثابت وزملاؤه من الآيات التي كانت عند آخرين من قراء الصحابة، زد على أن ابن مسعود كانت تغلب عليه لهجة قومه من هذيل، والنبي ﷺ رخص لمثل ابن مسعود أن يقرؤوا بلهجاتهم، ولكن ليس لابن مسعود أن يحمل الأمة في زمنه والأزمان من بعده على لهجته الخاصة، فكان من الخير توحيد الأمة على قراءة كتاب ربها باللهجة المضرية التي كان عليها

---

(١) محمد بن سعد: الطبقات الكبرى، دار الفكر بيروت ١٤١٤هـ/١٩٩٤م، ٢/١٠١.

(٢) د. محمد أحمد خاطر: قراءة عبدالله بن مسعود، مكانتها. مصادرها، إحصاؤها، دار الاعتصام. ب. ت، ص٤٢.

(٣) قال الدكتور محمد خاطر وهو يتحدث عن معالم مصحف ابن مسعود: «اختلف ترتيب السور فيه عن ترتيبها في مصحف عثمان، حدث بذلك جرير بن عبد الحميد الضبي (١١٠ ـ ١٨٧هـ) والجمهور على أن ترتيب السور اجتهاد من الصحابة»، انظر: السابق، ص٧٢، وهذا هو الصواب لاتفاق العلماء على أن ترتيب الآيات إنما هو توقيفي ولا يعقل أن يخالف في ذلك ابن مسعود ﷺ مع جلالة قدره وعلو كعبه.

رسول الله ﷺ][1].

ونهاية القول: أن ابن مسعود رجع إلى رأي الجماعة[2] بل تبناه ودافع عنه [ولم ينكر حرفًا مما في مصحف عثمان وأوضح الحقيقة لأصحابه حين فزعوا إليه في المصاحف فقال: «إن القرآن أنزل على نبيكم من سبعة أبواب على سبعة أحرف «أو حروف» وإن الكتاب قبلكم كان ينزل «أو نزل» من باب واحد على حرف واحد معناهما واحد»][3] واستدل ابن كثير رحمه الله على رجوع ابن مسعود لرأي الجماعة بما قاله الأعمش: حدّثني معاوية بن قرة ـ بواسط ـ عن أشياخه قالوا: صلى عثمان الظهر بمنى أربعًا، فبلغ ذلك ابن مسعود فعاب عليه، ثم صلى بأصحابه العصر في رحله أربعًا فقيل له: عتبت على عثمان وصليت أربعًا؟ فقال: إني أكره الخلاف، وفي رواية: «الخلاف شر» فإذا كان هذا متابعة من ابن مسعود لعثمان في هذا الفرع فكيف بمتابعته إياه في أصل القرآن، والاقتداء به في التلاوة التي عزم على الناس أن يقرؤوا بها لا بغيرها][4].

أما كفاءة زيد بن ثابت فهي من الأمور التي لا يماري فيها أحد

---

(١) من تعليق الأستاذ محب الدين الخطيب على كتاب «العواصم من القواصم» للقاضي أبي بكر ابن العربي، المكتبة العلمية بيروت ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م، ص٧١، ٧٢.

(٢) راجع: د. محمد حسن حسن جبل: وثاقة نقل النص القرآني من رسول الله ﷺ إلى أمته، دار الصحابة بطنطا. ب. ت، ص٢٣٠، د. محمد أحمد خاطر: قراءة عبدالله بن مسعود، ص٦٩؛ وابن كثير في: البداية والنهاية، دار الفكر بيروت، ط١، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م، ٣١٠/٥، رابح لطفي جمعة: القرآن والمستشرقون ـ المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بالقاهرة ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م، ص١١٧.

(٣) د. محمد أحمد خاطر: قراءة عبدالله بن مسعود، ص٦٩.

(٤) ابن كثير: البداية والنهاية ٣١١/٥.

فلقد كان زيد يكتب لرسول الله ﷺ الوحي وهو من حفاظ القرآن وشهد العرضة الأخيرة للقرآن في ختام حياته ﷺ وكان فوق ذلك معروفًا بخصوبة عقله وشدة ورعه وعظم أمانته وكمال خلقه واستقامة دينه[1]، ولقد تعلم السريانية بأمر من رسول الله ﷺ فأجادها في سبع عشرة ليلة[2]، وكان أعلم الصحابة بالفرائض[3].

[وكان زيد محل ثقة الصحابة جميعًا وخاصة الخلفاء منهم ففي زمن الصديق كان موضع مشورته «فقد أخرج ابن سعد عن القاسم أن أبا بكر ﷺ كان إذا نزل به أمر يريد فيه مشاورة أهل الرأي والفقه دعا رجالاً من المهاجرين والأنصار، ودعا عمر وعثمان وعليًا، وعبد الرحمن بن عوف، ومعاذ بن جبل، وأبي بن كعب وزيد بن ثابت ﷺ...

وكان عمر يحرص حرصًا شديدًا على بقاء زيد أمامه في المدينة فإذا طلب أهل الأمصار زيدًا باسمه يقول لهم: لم يسقط عليَّ مكان زيد، ولكن أهل البلد يحتاجون إلى زيد فيما يجدون عنده فيما يحدث لهم ما لا يجدون عند غيره...

وكان عثمان يرسل إليه من يريد القراءة، فقد جاء عن أبي عبد الرحمن السلمي أنه قرأ على عثمان ﷺ. قال: فقال لي: إذن تشغلني عن النظر في أمور الناس، فامض إلى زيد بن ثابت، فإنه أفرغ لهذا الأمر فاقرأ عليه، فإن قراءتي وقراءته واحدة ليس بيني وبينه فيها

---

(١) محمد عبد العظيم الزرقاني: مناهل العرفان في علوم القرآن، ١/٢٥٠.

(٢) ابن الأثير الجزري: أسد الغابة في معرفة الصحابة ٢/١٣٧.

(٣) محمد بن سعد: الطبقات الكبرى ٢/٢١.

اختلاف][1] وما كانت هذه الإطالة في الحديث عن زيد إلا لبيان منزلته العلمية وبيان أهليته لما قام به من كتابة المصحف ونسخه، ومن هنا يتضح أن اعتراض الدكتور الذي ساقه في الطعن على عثمان ﷺ والذي ردده من قبله ممن طعنوا في الإسلام من أهل الزيغ والأهواء لا قيمة له في ميزان البحث.

(١) صفوان عدنان داودي: زيد بن ثابت كاتب الوحي وجامع القرآن، سلسلة أعلام المسلمين عدد ٣٢ دار القلم دمشق ط١، ١٤١١هـ/١٩٩٠م، ص١٧٦ ـ ١٧٩ بتصرف.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

المبحث الرابع

موقف طه حسين من القراءات القرآنية

من القضايا التي أثارها الدكتور في كتابه ـ الشعر الجاهلي ـ قضية مصدريَّة القراءات القرآنية تلك القضية التي أثارت جدلاً واسع النطاق وتناولها العلماء بالرد والتمحيص ضمن ما تناولوه من قضايا الكتاب المذكور.

تقرير رأي الدكتور في القضية:

حين أراد الدكتور أن يبرهن على أن الشعر الجاهلي ليس من قول العرب الجاهليين وإنما هو مؤلف بعد ظهور الإسلام وأنه يعبر عن حياة المسلمين أكثر مما يعبر عن حياة الجاهلية[1]، استدل بقضية اختلاف اللغة واللهجة فأثار القضية ـ محل البحث ـ «قضية

(١) ألف كثير من العلماء كتبًا للردّ على هذا الادعاء منها: ١ ـ الشيخ محمد الخضري: محاضرات في بيان الأخطاء العلمية التاريخية التي اشتمل عليها كتاب «في الشعر الجاهلي»، محمد فريد وجدي «نقد كتاب الشعر الجاهلي»، محمد لطفي جمعة: «الشهاب الراصد»، محمد أحمد الغمراوي: «النقد التحليلي في الشعر الجاهلي»، مصطفى صادق الرافعي: «تحت راية القرآن». . . وغيرها.

مصدرية القراءات القرآنية» فكان من قوله: [القرآن الذي تلي بلغة واحدة ولهجة واحدة هي لغة قريش ولهجتها، لم يكد يتناوله القراء من القبائل المختلفة حتى كثرت قراءته وتعددت اللهجات فيه وتباينت تباينًا كثيرًا... إننا نشير إلى اختلاف آخر في القراءات يقبله العقل، ويسيغه النقل، وتقتضيه ضرورة اختلاف اللهجات بين قبائل العرب التي لم تستطع أن تغير حناجرها وألسنتها وشفاهها لتقرأ القرآن كما كان يتلوه النبي وعشيرته من قريش فقرأته كما كانت تتكلم فأمالت حيث لم تكن تميل قريش، ومدت حيث لم تكن تمد، وقصرت حيث لم تكن تقصر، وسكنت حيث لم تكن تسكن... وهنا وقفة لا بد منها، ذلك أن قومًا من رجال الدين فهموا أن هذه القراءات السبع متواترة عن النبي نزل بها جبريل على قلبه، فمنكرها كافر في غير شك ولا ريبة ولم يوفقوا لدليل يستدلون به على ما يقولون سوى ما روي في الصحيح من قوله عليه الصلاة والسلام: «**أنزل القرآن على سبعة أحرف**»، والحق أن ليست هذه القراءات السبع من الوحي في قليل ولا كثير، وليس منكرها كافرًا ولا فاسقًا ولا مغتمزًا في دينه، وإنما هي قراءات مصدرها اللهجات واختلافها، للناس أن يجادلوا فيها وأن ينكروا بعضها ويقبلوا بعضها... إننا لم نتجاوز حدود الله ولم ننكر القراءات المتواترة وإنما هم قوم آخرون أضافوا إلى الوحي ما ليس منه واستنزلوا من السماء شيئًا لم ينزل من السماء][1].

---

(١) طه حسين: في الأدب الجاهلي، المجموعة الكاملة، الشركة العالمية للكتاب بيروت، ٩٦/٥ ـ ٩٩ بتصرف.

تحرير النزاع:

من كلام الدكتور آنف الذكر يظهر لنا محل النزاع أو الخلاف، فالدكتور في كلامه يزعم عدم إنزال القراءات من عند الله ويقول بأن هذه القراءات إنما قرأتها العرب حسبما استطاعت لا كما أوحى الله بها إلى نبيه مع أن معاشر المسلمين يعتقدون أن كل هذه القراءات مروية عن الله تعالى على لسان النبي ﷺ هذه واحدة، أما الثانية: فإنه قصر تفسير القراءات على اختلاف اللهجات وكيفيات النطق من إدغام وإظهار وتفخيم وترقيق وإمالة وإشباع ومد وقصر وتشديد وتخفيف، والحق أن هذه الأوجه التي ذكرها إنما تندرج تحت أصل واحد، وأوجه القراءة أوسع من هذا وأشمل.

الرد على هذه الدعوى:

هذه الدعوى تنقسم إلى قسمين: **الأول**: ادعاؤه أن قراءات القرآن غير منزلة من الله وإنما هي من قراءات القبائل لاختلاف لهجاتها.

وللرد على هذه الدعوى نوضح أنه لم يحظ كتاب بالعناية والرعاية مثلما حظي القرآن الكريم سواء في حياة النبي ﷺ أو في حياة الخلفاء من بعده وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

[ومن الحقائق الراسخة رسوخ الجبال أن طريق تلقي القرآن كان هو السماع الصوتي، سماع صوتي من جبريل لمحمد ﷺ، وسماع صوتي من الرسول ﷺ إلى كتبة الوحي أولاً وإلى المسلمين عامة، وسماع صوتي من كتبة الوحي إلى الذين سمعوه منهم من عامة المسلمين، وسماع صوتي حتى الآن من حفظة القرآن المتقنين إلى من يعلمونه من أفراد المسلمين. . . ولا يزال متعلم القرآن في أشد الحاجة

إلى سماع القرآن من شيوخ حافظين متقنين، وفي القرآن عبارات أو كلمات مستحيل أن يتوصل أحد إلى نطقها الصحيح عن مجرد القراءة في المصحف، ولو ظل وحده أيامًا وأشهرًا][1].

[ولقد وسع الله على عباده ـ خصوصًا في مبدأ عهدهم بالوحي ـ أن يقرؤوا القرآن بما تلين به ألسنتهم وكان من جملة هذه التوسعة القراءة بمترادفات من اللفظ الواحد للمعنى الواحد مع ملاحظة أن الجميع نازل من عند الله، نزل به الروح الأمين، على قلب محمد ﷺ ومما يدل على أن القراءات نازلة من عند الله قوله ﷺ لكل من المتنازعين المختلفين في القراءة من أصحابه: «**هكذا أنزلت**»[2]، وقول كل من المختلفين لصاحبه: أقرأنيها رسول الله ﷺ؛ وقول الله تعالى لرسوله جوابًا لمن سأله تبديل القرآن: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[3]، كذلك أجمعت الأمة على أنه لا مدخل لبشر في نظم

---

(١) د. عبد العظيم المطعني: حقائق القرآن وأباطيل خصومه «شبهات وردود»، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بالقاهرة، سلسلة دراسات إسلامية، العدد ٧٩ سنة ١٤٢٢هـ، سنة ٢٠٠٢م، ٢/٩٣، ٩٤ بتصرف.

(٢) يشير بذلك إلى الحديث الذي أخرجه مسلم أن عمر بن الخطاب قال: سمعت هشام بن حكيم بن حزام يقرأ سورة الفرقان على غير ما أقرؤها وكان رسول الله ﷺ أقرأنيها فكدت أن أعجل عليه ثم أمهلته حتى انصرف ثم لببته بردائه فجئت به رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله إني سمعت هذا يقرأ سورة الفرقان على غير ما أقرأتنيها فقال رسول الله ﷺ: «**أرسله، اقرأ**» فقرأ القراءة التي سمعته يقرأ، فقال رسول الله ﷺ: «**هكذا أنزلت**»، ثم قال لي: «**اقرأ**» فقرأت فقال: «**هكذا أنزلت، إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرؤوا ما تيسر منه**». راجع: صحيح مسلم بشرح النووي، باب بيان أن القرآن أنزل على سبعة أحرف ٦/٩٨: ٩٩.

(٣) سورة يونس، الآية: ١٥.

القرآن لا من ناحية أسلوبه ولا من ناحية ألفاظه، بل ولا من ناحية قانون أدائه][1].

وحين يقول النبي: «**إن أتبع إلا ما يوحى إلي**» فهو يبين مهمة نفسه وهي البلاغ عن الله ومن كان هذا شأنه لا يستطيع أن يبدل أو يغير من تلقاء نفسه.

وهذا دليل آخر يؤكد ما سبق به القول من أن القراءات إنما كانت عن وحي من الله وهو أن النبي ﷺ كان يؤكد على أصحابه في ضبط وإحكام ما يأخذونه عنه من قرآن أو سنة ولا أدل على ذلك من أن النبي ﷺ [علم البراء بن عازب دعاء فيه هذه الكلمة «ونبيك الذي أرسلت» فلما أراد البراء أن يعرض ذلك الدعاء على رسول الله ﷺ قال: «ورسولك الذي أرسلت» فلم يوافقه النبي ﷺ على ذلك، بل قال له: «**لا، ونبيك الذي أرسلت**»[2] نهاه عليه الصلاة والسلام أن يضع لفظة رسول موضع لفظة نبي، مع أن كليهما حق لا يحيل معنى، إذ هو رسول ونبي، فكيف يسوغ للبعض أن يقول: إنه عليه الصلاة والسلام كان يجيز أن يوضع في القرآن مكان عزيز حكيم غفور أو سميع عليم، وهو يمنع من ذلك في دعاء ليس قرآنًا][3].

---

(١) محمد عبد العظيم الزرقاني: مناهل العرفان في علوم القرآن ١/١٨٧/١٨٨ بتصرف.

(٢) ذكر المنذري الحديث بتمامه في الترغيب وقال: أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه. راجع: الترغيب والترهيب ١/٢٠٨.

(٣) المذاهب الإسلامية، ص٤ ترجمة د. محمد يوسف موسى، نقلًا عن د. المطعني: حقائق القرآن وأباطيل خصومه، ص٩١.

قول المستشرقين في مصدرية القراءات:

لم يكن رأي المستشرقين في مصدرية القراءات القرآنية بالجديد فهم الذين طالما تعمدوا النيل من القرآن والتشكيك في قدسيته، لقد ذهب نفر من المستشرقين إلى القول ببشرية المصدر للقراءات القرآنية [وساعدهم على تجسيد هذا التوهم طبيعة الخط العربي؛ لأنه كان في الفترة التي ظهرت فيها القراءات غير منقوط ولا مشكول... يقول جولدزيهر: «والقسم الأكبر من هذه القراءات يرجع السبب في ظهوره إلى خاصية الخط العربي، فإن من خصائصه أن الرسم الواحد للكلمة قد يقرأ بأشكال مختلفة للنقط فوق الحروف أو تحتها، كما أن عدم وجود الحركات النحوية، وفقدان الشكل (أي: الحركات) في الخط العربي يمكن أن يجعل للكلمة حالات مختلفة من ناحية موقعها من الإعراب، فهذه التكميلات للرسم الكتابي ثم هذه الاختلافات في الحركات والشكل، كل ذلك كان السبب الأول لظهور حركات القراءات فيما أهمل نقطه أو شكله من القرآن». اهـ][1].

ويذهب بلاشير[2]: إلى القول ببشرية القرآن أيضًا وإن اختلف في تأويل المسألة أو تعليلها فقد روج لفكرة القراءة بالمعنى زاعمًا أن نص القرآن بحروفه لم يكن بالنسبة لبعض المؤمنين هو المهم ولكن المهم كان هو روح النص[3].

يقول بلاشير: [إن نظرية القراءة بالمعنى كانت بلا ريب أخطر

---

(١) المذاهب الإسلامية، ص٤ ترجمه د. محمد يوسف موسى، نقلًا عن د. المطعني: حقائق القرآن وأباطيل خصومه، ص٩١.

(٢) ترجمته، ص١٠٨.

(٣) د. محمود حمدي زقزوق: الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، ص٩٠ بتصرف.

نظرية في الحياة الإسلامية؛ لأنها أسلمت النص القرآني إلى هوى كل شخص يثبته على ما يهواه][1].

وجولدزيهر وبلاشير يذهبان كلاهما إلى بشرية القراءات وإن اختلفا في التأويل والتعليل وبيان سر تعدد القراءات، وهما بهذا القول يلتقيان مع الدكتور في دعواه أن القراءات بشرية المصدر لا إلهية وإن كان الدكتور قد امتاز عليهما بالعبارة الصريحة والأسلوب المباشر.

* أما القسم الثاني من الدعوى التي أثارها الدكتور، وهو قصره تفسير القراءات على اختلاف اللهجات وكيفيات النطق من إدغام وإظهار وتفخيم وترقيق وإمالة وإشباع ومد وقصر وتشديد وتخفيف، فهذه الأوجه تزيد عن سبعة وكلها يندرج تحت أصل واحد وهو اختلاف اللهجات، وقصر القراءات في هذا الوجه تحكم من غير دليل، ثم إن واقع القراءات يحكم بوجود أوجه كثيرة في القراءة من غير هذا الأصل (اختلاف اللهجات).

وهذا الخلاف ناشئ من تفسير قول النبي ﷺ: «**نزل القرآن على سبعة أحرف كلها كاف شاف**» فقد اختلفت تأويلات العلماء للمراد بالسبعة أحرف على أقوال كثيرة أرجحها ما قال به ابن الجزري[2]، والذي قدم له بقوله: [ولا زلت أستشكل هذا الحديث وأفكر فيه، وأمعن النظر فيه نيف وثلاثين سنة حتى فتح الله عليّ بما يمكن أن

---

(١) بلاشير: المدخل إلى القرآن، ص٦٩ نقلاً عن: رابح لطفي جمعة: القرآن والمستشرقون، ص٩١.

(٢) ابن الجزري، متكلم وحجة في القراءات ولد بدمشق سنة ٧٥١هـ وتوفي بشيراز سنة ٨٣٣هـ وله مؤلفات كثيرة جلها في القراءات منها كتاب النشر في القراءات العشر. راجع: دائرة المعارف الإسلامية ١١٨/١، ١١٩.

يكون صوابًا إن شاء الله تعالى، وذلك أني تتبعت القراءات كلها صحيحها، وشاذها، وضعيفها، ومنكرها فإذا اختلافها يرجع إلى سبعة أوجه لا يخرج عنها وهذه هي الأوجه السبعة:

الأول: أن يكون الاختلاف في الحركات بلا تغير في المعنى والصورة نحو: «يحسب» بفتح السين وكسرها.

الثاني: أن يكون بتغير في المعنى فقط دون التغير في الصورة نحو: «فتلقى آدم من ربه كلمات» على ما فيها من قراءات[1].

الثالث: أن يكون في الحروف مع التغير في الصورة لا المعنى نحو: «الصراط، السراط».

الرابع: أن يكون في الحروف مع التغير في المعنى لا الصورة نحو: «تبلو، تتلو».

الخامس: أن يكون في الحروف والصورة نحو: «يأتل، يتأل».

السادس: أن يكون في التقديم والتأخير نحو: «فيقتلون ويقتلون» على ما فيهما من قراءات[2].

السابع: أن يكون في الزيادة والنقصان نحو: «وأوصى، ووصى».

فهذه الأوجه السبعة لا يخرج الاختلاف عنها][3].

---

(١) برفع لفظ آدم ونصب لفظ كلمات والعكس. راجع: عبد الفتاح القاضي: الوافي في شرح الشاطبية في القراءات السبع، طبعة الأزهر الشريف سنة ١٤٠٥هـ، ص١٣٩.

(٢) «فيقتلون ويقتلون» قرأ حمزة والكسائي ببناء الفعل الأول للمفعول والثاني للفاعل، والباقون ببناء الأول للفاعل والثاني للمفعول. راجع: محمد سالم محيسن: الإرشادات الجلية في القراءات السبع من طريق الشاطبية، طبعة الأزهر الشريف سنة ١٤١٥هـ، ص٢٢٣.

(٣) المرجع السابق نفسه، ص١٧.

وهذا الرأي رجحه من القدامى: الرازي[1]، وابن قتيبة[2]، والقاضي ابن الطيب[3]، ورجحه غير واحد من المحدثين أمثال الشيخ الخضري الدمياطي[4]، والشيخ محمد بخيت المطيعي.

لكن الشيخ الزرقاني[5] فضَّل صياغة الرازي في هذا الشأن على غيره من القدامى على الرغم من عدم الاختلاف بينهم إلا في طرق التتبع والاستقصاء، والتعبير والأداء فرآها أهدى سبيلاً وأكثر توفيقًا، وهذه الصياغة قررها بقوله:

[والذي نختاره - بنور الله وتوفيقه - من بين تلك الآراء والمذاهب هو ما ذهب إليه الإمام أبو الفضل الرازي في اللوائح إذ يقول: الكلام لا يخرج عن سبعة أحرف في الاختلاف.

---

(١) الرازي (٥٤٣هـ - ١١٤٩م/٦٠٦هـ - ١٢١٠م) فخر الدين محمد بن عمر، إمام مفسر متكلم مشهور وفيلسوف، أشهر مؤلفاته: مفاتيح الغيب. [أشرف طه أبو الدهب/المعجم الإسلامي، ص٢٧٥].

(٢) ابن قتيبة (٢١٣ - ٢٧٦هـ/٨٢٨ - ٨٨٩م)، عبدالله بن قتيبة (أبو محمد) عالم مشارك في أنواع العلوم كاللغة والنحو وغريب القرآن ومعانيه وغريب الحديث والشعر والفقه والأخبار وأيام الناس، له آثار كثيرة، منها: عيون الأخبار، غريب القرآن، أدب الكاتب وغيرها. [معجم المؤلفين ٢٩٧/٢].

(٣) الباقلاني: محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر بن القاسم البصري القاضي أبو بكر الباقلاني المتكلم الأشعري سكن بغداد وتوفي بها سنة ٤٠٣ من تصانيفه إعجاز القرآن. الانتصار. كشف الأسرار الباطنية. الملل والنحل. مناقب الأئمة. نهاية الإيجاز في رواية الإعجاز. هداية المسترشدين في الكلام. (هدية العارفين ٤٧٤/١).

(٤) الشيخ محمد الخضري: هو محمد بن عفيفي الخضري الباجوري المعروف بالشيخ الخضري (١٢٨٩ - ١٣٤٥هـ = ١٨٧٢ - ١٩٢٧م) باحث، خطيب، من العلماء بالشريعة والأدب وتاريخ الإسلام، من كتبه: أصول الفقه، وتاريخ التشريع الإسلامي، وإتمام الوفاء في سيرة الخلفاء، ومحاضرات في نقد كتاب الشعر الجاهلي لطه حسين. الأعلام الزركلي م٦ ص٦٦٨.

(٥) الشيخ الزرقاني: هو محمد عبد العظيم الزرقاني من زرقان منوفية مدرس القرآن وعلومه بالجامعة الأزهرية ومؤلف كتاب مناهل العرفان في علوم القرآن. راجع: مناهل العرفان في علوم القرآن.

الأول: اختلاف الأسماء من إفراد، وتثنيه، وجمع، وتذكير، وتأنيث.

الثاني: اختلاف تصريف الأفعال من ماضٍ ومضارع وأمر.

الثالث: اختلاف وجوه الإعراب.

الرابع: الاختلاف بالنقص والزيادة.

الخامس: الاختلاف بالتقديم والتأخير.

السادس: الاختلاف بالإبدال.

السابع: اختلاف اللغات «يريد اللهجات» كالفتح والإمالة والترقيق والتفخيم، والإظهار والإدغام ونحو ذلك][1].

[فكيف شاء للدكتور رأيه أن يجعل تلك الكثرة الغامرة القائمة حرفًا واحدًا، على ما بينها من اختلاف في الوجوه والأنواع وعلى رغم أن من القراءات الحاضرة ما يكون وجه الاختلاف فيه ناشئًا عن وجود ألفاظ مترادفة في كلمة واحدة ومعنى واحد، ومنها ما هو من لغات قبائل مختلفة][2].

ومن هنا يظهر خطأ الدكتور حين يؤكد دعواه بدعوى أخرى لا تقل عنها في الخطأ والزلل، وذلك حين ادعى أن الأحرف السبعة أزال عثمان ﷺ منها ستة أحرف وأبقى على حرف واحد فكان من قوله:

---

(١) راجع: محمد عبد العظيم الزرقاني: مناهل العرفان في علوم القرآن ١/١٥٥: ١٦٠ بتصرف، وقد مثَّل الشيخ الزرقاني للأوجه المذكورة بأمثلة عديدة في كتابه المذكور في الصفحات المشار إليها.

(٢) الزرقاني: مناهل العرفان ١/١٧٩ بتصرف.

[وعلى هذا مُحيت من الأحرف السبعة ستة أحرف، ولم يبق إلا حرف واحد هو هذا الذي نقرؤه في مصحف عثمان وهو حرف قريش وهو الحرف الذي اختلفت لهجات القراء فيه: فمد بعضهم وقصر بعضهم، وفخم فريق ورقق فريق، ونقلت طائفة وأثبتت طائفة، فأنت ترى أن هذه القراءات التي عرضنا لها إنما هي مظهر من مظاهر اختلاف اللهجات، وأن تلك القراءات التي أنزل عليها القرآن إنما هي لغات محي منها ست وبقيت منها واحدة][1].

وهذه والله جرأة على الحق، إذ كيف يقدم عثمان ﷺ على إذهاب أحرف أقرها رسول الله ﷺ وأقر قراءة أصحابه بها بقوله لهم: «**هكذا أنزلت؟**» [ولو محيت ستة أحرف من أوجه القراءة ففيم بقي الخلاف في تأويل حديث رسول الله ﷺ: «**نزل القرآن على سبعة أحرف؟**» وكيف طابت نفوس الصحابة أن يدعوا القراءة بالأحرف التي سمعوها من رسول الله ﷺ؟

وهناك دليل مادي أيضًا على بقاء الأحرف الستة جميعًا، وهو بقاء التيسير والتخفيف وتهوين الأداء على الأمة الإسلامية الذي هو الحكمة في الأحرف السبعة، وها نحن أولاء لا نزال نشاهد عن طريق القراءات المختلفة القائمة الآن سبيلاً سهلاً قد وَسِعَ كافة الشعوب المسلمة، سواء منها الأمم العربية وغير العربية][2].

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

(١) طه حسين: في الأدب الجاهلي: المجموعة الكاملة ٩٨/٥.
(٢) الزرقاني: مناهل العرفان ١٧٩/١.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

المبحث الخامس

موقف طه حسين من المكي والمدني

نقل بعض الباحثين أن الدكتور طه حسين أثناء عمله بالتدريس بكلية الآداب ألقى على طلابه بعض المحاضرات في العام الدراسي ١٩٢٧ ـ ١٩٢٨م دعا فيها إلى الدرس البلاغي للأسلوب القرآني ونقد هذا الأسلوب كأي كتاب بشري ثم تطرق إلى الحديث عن القرآن فميز بين المكي والمدني بكلام لا يصدر مثله عن مسلم!! وكان مما نقله أولئك الباحثون قول الدكتور:

[وصلنا في المحاضرة الماضية إلى موضوع اختلاف الأساليب القرآنية وقررنا أنه ليس على نسق واحد، واليوم نوضح هذه الفكرة:

لا شك أن الباحث الناقد والمفكر الحر الذي لا يفرق في نقده بين القرآن وبين أي كتاب أدبي آخر، يلاحظ أن في القرآن أسلوبين متعارضين لا يربط الأول بالثاني صلة ولا علاقة مما يدفعنا إلى الاعتقاد بأن هذا الكتاب قد خضع لظروف مختلفة وتأثير بيئات متباينة، فمثلاً نرى القسم المكي منه يمتاز بكل ميزات الأوساط المنحطة، كما نشاهد في القسم المدني واليثربي تلوح عليه أمارات الثقافة والاستنارة فإذا

دققتم النظر، وجدتم القسم المكي ينفرد بالعنف والقسوة والحدة والغضب والسباب والوعيد والتهديد، ويمتاز كذلك بقطع الفكرة واقتضاب المعاني، وقصر الآيات، والخلو التام من التشريع والقوانين، كما يكثر فيه القسم بالشمس والقمر والنجوم إلى آخر ما هو جدير بالبيئات الجاهلة الساذجة التي تشبه بيئة مكة وانحطاطها.

أما القسم المدني فهو هادئ لين وديع مسالم يقابل السوء بالحسنى وينافس الخصومة بالحجة الهادئة والبرهان الساكن الرزين، كما أن هذا القسم ينفرد بالتشريعات الإسلامية كالمواريث والوصايا والزواج والطلاق وسائر المعاملات، ولا شك أن هذا أثر واضح من آثار التوراة والبيئة اليهودية التي ثقفت المهاجرين إلى يثرب ثقافة واضحة يشهد بها هذا التغيير الفجائي الذي ظهر على أسلوب القرآن. اهـ][1].

فهذا الكلام ـ إن صحت نسبته إلى الدكتور ـ يتوافق مع الدعوى التي طالما أثارها المستشرقون، وأكثروا من ترددها، وهي أن القرآن مأخوذ من مصادر يهودية أو نصرانية، كما نقل عن مرجليوث[2] من ادعائه [أن النبي تلقى القرآن عن ورقة بن نوفل وبحيرى الراهب وعداس وقس بن ساعدة وأمية بن أبي الصلت كما ذكر حدادًا روميًا

---

(١) أنور الجندي: حياته وفكره في ضوء الإسلام، ص١٨٤، ١٨٥، وكذلك كتابه: محاكمة فكر طه حسين، ص١٥٤، ١٥٥، قال الأستاذ الجندي بعد نقل ما سبق: منقول بالنص من محضر الجلسة الرابعة والعشرين لمجلس النواب المصري ٢٨ مارس ١٩٣٢، ص٣٤٦ وما بعدها. اهـ.

(٢) مرجليوث: (١٨٥٨ ـ ١٩٤٠) ولد وتوفي في لندن تخرج من جامعة اكسفورد واشتغل بالتدريس بها منذ ١٨٨٩ ـ تردد على الشرق الأوسط وتأثر به عدد من الأدباء العرب. المستشرقون: العقيقي ٢/٧٧.

كان النبي يراه في السوق يصنع السيوف فيقف ليرى صنعته...[1].

وكذلك قال كليمان هوار[2] إذ زعم أن شعر أمية بن أبي الصلت من مصادر القرآن! ومن الجدير بالذكر أن الدكتور طه يعرض هذه المقولة فلا ينفيها ولا يكذبها وإنما يقول كلامًا ربما أيدها وزاد من تثبيتها في الأذهان والقلوب، قال الدكتور: [من ذا الذي يستطيع أن ينكر أن كثيرًا من القصص القرآني كان معروفًا بعضه عند اليهود وبعضه عند النصارى وبعضه عند العرب أنفسهم وكان من اليسير أن يعرفه غير النبي، ثم إن النبي وأمية متعاصران فلم يكون النبي هو الذي أخذ من أمية؟ ألا يكون أمية هو الذي أخذ من النبي؟][3].

ويقول جرونيباوم[4] معلقًا على قول الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾﴾[5]: [وإنه - يعني رسول الله ﷺ - ليعيد صوغ مادة التعاليم التي أعطيت اليهود والمسيحيين متممًا لها ومسبغًا عليها الكمال][6].

ويقول موريس بوكاي[7] بعد أن منَّ الله عليه بالإسلام: [كنت

---

(١) رابح لطفي جمعة: القرآن والمستشرقون، ص٤٢. بتصرف.

(٢) كليمان هوار: (١٨٥٤ - ١٩٢٧) ولد في باريس، عمل بوظيفة قنصل لفرنسا بعدد من البلدان انصرف في نهاية حياته إلى التصنيف والتأليف. المستشرقون ٢١٢/١.

(٣) أنور الجندي: محاكمة فكر طه حسين، ص١٧٠، ١٧١.

(٤) سبق التعريف به في، ص١٨٥.

(٥) سورة الأحقاف، الآية: ٩.

(٦) جوستاف جرونيباوم: حضارة الإسلام، ص١٠٤.

(٧) موريس بوكاي: مستشرق فرنسي معاصر، درس الطب واهتم بالكتب المقدسة، =

أتعلم عندما كنت شابًا أن محمدًا هو الذي ألف القرآن، وقد قيل لي مرارًا: إن مؤلف القرآن قد جمع ببساطة قصصًا من التوراة والإنجيل بشكل مختلف شيئًا قليلاً، وقد ظللت فترة على هذا الاعتقاد حتى درست الإسلام واكتشفت زيف وتضليل هؤلاء المستشرقين][1].

ولقد قام علماء الإسلام[2] لهذه الدعوى فأبانوا عن خطئها وهي من السذاجة أن نقف عندها أو نعرض لها.

أما حديث الدكتور عن المكي والمدني وما ذكره من وجوه في التميز بينهما فقد تعقبه الشيخ الزرقاني في مناهل العرفان وأبان ما فيه من أغاليط وأخطاء[3].

وأمانة البحث تقتضي أن أشير إلى أن الدكتور نفى هذا الكلام المنسوب إليه قائلاً: [كل ما قلته هو ما يقوله العلماء المسلمون من أن السور المكية كانت قبل كل شيء سور إنذار وتبشير، فكانت فيها شدة

= وتعلم اللغة العربية حتى يفهم القرآن. من آثاره العظيمة: القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم نشر ١٩٧٦، وله: «ما أصل الإنسان. إجابات العلم والكتب المقدسة. راجع: الأخير طبعة مكتب التربية العربي لدول الخليج ط١٢، سنة ١٩٨٥ من مقدمة الناشر».

(١) د. موريس بوكاي: ما أصل الإنسان؟ إجابات العلم والكتب المقدسة، ترجمه ونشره مكتب التربية العربي.

(٢) انظر: د. محمد عبدالله دراز: النبأ العظيم ـ دار القلم ـ الكويت، ط٤ ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م، ص٥٦ ـ ٧٠، د. رشدي أبو شبانة الرشيدي: التبصير بمكائد الاستشراق والتبشير، طبعة خاصة بالمؤلف، ب. ت، ص٢٠٣ ـ ٢٠٨، محمد عبد العظيم الزرقاني: مناهل العرفان في علوم القرآن، ٤٢١/٢ ـ ٤٢٧، رابح لطفي جمعة، القرآن والمستشرقون، ص٤٠، ٥٥.

(٣) راجع: محمد عبد العظيم الزرقاني: مناهل العرفان في علوم القرآن ٢٠٦/١ ـ ٢٣٩.

على المشركين، بينما السور المدنية يغلب عليها التشريع فيظهر فيها الهدوء][1].

ولعل الدكتور في مؤلفه «مرآة الإسلام» ـ وهو من آخر ما كتب في الإسلاميات ـ أشار إلى أن من وجوه الإعجاز في القرآن أسلوبه في أداء المعاني التي أراد الله أن تؤدي إلى الناس، وذكر وجهًا من أوجه الأداء وضحه بقوله: [تتلو بعض سوره فإذا أنت مضطر في تلاوتها إلى الأناة والتمهل؛ لأنها فصلت في ريث ومهل لأداء معانٍ تحتاج إلى البسط والريث. كالتشريع مثلاً ووصف ما كان يثار بين المسلمين والمشركين من الحروب والمواقع، وتتلو بعض سوره الأخرى فإذا أنت مضطر إلى شيء من السرعة؛ لأنها تؤدي معاني تحتاج إلى القوة والعنف. . . . وسواء قرأت السور السريعة أو السور المستأنية فسترى من جمال اللفظ وروعة الأسلوب واتساق النظام ما يسحرك ويبهرك ويملك عليك أمرك كله، فإذا أنت خاشع لما تسمع أو تقرأ معجب به مستزيد منه حتى حين يستأثر بك العناد وتتكلف ما تتكلف من إظهار الإصرار والاستكبار والإعراض والإباء][2].

ولعل هذه العبارة الأخيرة تدل على مراجعة فكرية وتعديل لمواقف سالفة كان الدكتور قد وقفها على وجه العناد والاستكبار كما هو واضح من كلامه. كهذا الموقف الذي أشرت إليه قبل قليل وهو تمييزه بين المكي والمدني بهذا الأسلوب البعيد عن الصواب، أو دعوته للطلاب لدراسة القرآن دراسة نقدية!!

---

(١) طه حسين: حديث المساء ـ تحقيق محمد سيد كيلاني، ص٥.

(٢) طه حسين: مرآة الإسلام، ص١٥٠، ١٥١ بتصرف.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

المبحث السادس

موقف طه حسين من ترتيب السور والآيات

هذه النقطة من النقاط التي لم يخرج فيها الدكتور عن إجماع المسلمين، بل وقف موقف المنكر الرافض لتوجه فريق من المستشرقين في ترتيب القرآن الكريم بسوره وآياته.

موقف الدكتور طه حسين:

يقول الدكتور في هذه القضية: «وقد رُتب القرآن ـ كما هو بين أيدينا ـ سورًا منذ أيام النبي وقدمت في المصحف طوال السور على أوساطها، وأوساطها على قصارها، ولم يراع في هذا الترتيب نزول السور والآيات في مكة أو في المدينة ولا تاريخ نزول الآيات وإنما وضعت الآيات حيث كان النبي يأمر أن توضع من السور...»[1].

الدكتور يعارض المستشرقين:

عاب الدكتور على نفر من المستشرقين محاولتهم ترتيب القرآن

(١) طه حسين: مرآة الإسلام، ص١٥٤، ١٥٥.

على حسب النزول الزمني أو التاريخي وبيَّن أن تلك المحاولات كانت ضربًا من العبث؛ لأنها لم تؤد إلى شيء. يقول الدكتور: [وقد بيَّن الرواة الأولون ومن بعدهم أماكن نزول الآيات والسور وتاريخها وحاول بعض المستشرقين أن يرتب القرآن حسب ترتيب السور[1] فلم يصنعوا شيئًا، وترجم القرآن إلى بعض اللغات الأجنبية أحيانًا على هذا الترتيب التاريخي فكان هذا النحو من الترجمة والترتيب عبثًا لا يدل على شيء وإنما ينأى عما ألف المسلمون من الترتيب المعروف في المصحف][2].

ويؤكد الدكتور طه حسين هذا المعنى في حديث له مع الدكتور الدسوقي وذلك في يوم ١٩٦٨/١٠/١٧ حيث نشرت صحف هذا اليوم قرارات مجمع البحوث الإسلامية، ومنها: عدم المساس بترتيب سور المصحف وآياته، وعلق الدكتور طه على هذا (بأنه يعتقد أن ترتيب الآيات توقيفي ولكن ترتيب السور اجتهادي)[3]، وهو رأي جمهور العلماء[4].

(١) من هؤلاء المستشرق الألماني نولدكة الذي كانت رسالته للدكتوراة عن أصل وتركيب سور القرآن، راجع المستشرقون ٣٧٩/٢، وممن حبذ هذا الترتيب من زملائه المستشرق جاك بيرك في مقدمته لترجمته لمعاني القرآن والتي سماها إعادة قراءة القرآن. راجع إعادة قراءة القرآن: دكتور محمد رجب البيومي يرد على جاك بيرك. كتاب الهلال العدد ٥٨٨ ديسمبر سنة ١٩٩٩، ص٣٧.

(٢) طه حسين: مرآة الإسلام، ص١٥٥.

(٣) د. محمد الدسوقي: أيام مع طه حسين، ص٩٤.

(٤) راجع: الشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني: مناهل العرفان في علوم القرآن ٣٥٣/١.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

المبحث السابع

موقفه من الحروف المقطَّعة في أوائل السور

من القضايا التي أثارها الدكتور مع طلاب كلية الآداب والتي تتعلق بكتاب الله العزيز قضية الحروف المقطعة في أوائل السور، فقد قدم الدكتور عبد الحميد سعيد كراسة أحد الطلاب إلى مجلس النواب المصري عام ١٩٣٢م وفيها بعض الأفكار التي تناولها الدكتور في محاضراته والتي تتعلق بالقرآن ومما جاء بها: [وهناك موضوع آخر أريد أن أنبهكم إليه وهو مسألة هذه الحروف الغريبة غير المفهومة، التي تبتدئ بها بعض السور أمثال: ألم، ألر، طس، كهيعص، حم عسق... إلخ، فهذه كلمات ربما قصدت منها التعمية أو التهويل، أو إظهار القرآن في مظهر عميق مخيف، أو هي رموز وضعت لتميز بين المصاحف المختلفة التي كانت موضوعة عند العرب][(١)].

لما أثار الدكتور عبد الحميد سعيد هذه القضية وغيرها في مجلس النواب أثارت ردود فعل واسعة النطاق في الأمة بأسرها واهتمت بذلك

(١) أنور الجندي: محاكمة فكر طه حسين، ص١٥٥ نقلاً عن محضر الجلسة الرابعة والعشرين لمجلس النواب المصري في ٢٨ مارس ١٩٣٢، ص٣٤٦.

وسائل الإعلام المختلفة، وكان من ذلك أن سأل لطفي عثمان ـ مندوب صحيفة كوكب الشرق الصادرة عن حزب الوفد آنذاك ـ الدكتور عن ذلك بقوله:

[س: نسب عبد الحميد سعيد أفندي إليكم أنكم فسرتم الحروف التي في أوائل السور في القرآن بعدة آراء، منها: أنها معميات، ومنها: أنها كانت في الأصل مميزة لمصاحف الصحابة، فهل هذا صحيح؟

جـ: المسلمون والمستشرقون مختلفون في فهم هذه الحروف، فبعضهم يجد لها معاني، وبعضهم يقول: إنها من المتشابهات التي لا سبيل إلى فهمها، وبعض المستشرقين رأى رأيًا شخصيًا وهو أن هذه الحروف كانت علامات لبعض المصاحف لم أزد في الدروس عن أن قلت آراء المتقدمين والمستشرقين، ونددت بهذا الرأي السخيف كما ندد به العلماء من المستشرقين أنفسهم، فما يقوله عبد الحميد كذب وتزوير أيضًا، ويمكنكم أن تستشهدوا بالطلبة أنفسهم][1].

وهذا الكلام من الدكتور يدل على أنه لم يزد على أن عرض وقرر آراء العلماء عند من قال بأن لها معنى، والحق أن كثيرًا من هذه الآراء مجانب للصواب، كمن قال: إنها حروف دالة على أسماء أخذت منها وحذفت بقيتها، كقول ابن عباس وغيره الألف من الله، واللام من جبريل، والميم مفتاح اسمه مجيد، وغيرها[2].

وأحق الأراء بالنظر والتقدير عند من يرى أن لها معنى أنها جاءت:

---

(١) طه حسين: حديث المساء، تحقيق وتقديم: محمد سيد كيلاني، ص٥، ٦.
(٢) راجع: القرطبي: الجامع لأحكام القرآن ١/١٥٠ ـ ١٥٣.

[١ ـ للفت النظر للاستماع للقرآن حين يتلى فهي أداة تنبيه، وخاصة للمشركين الذين كانوا يعلمون تمام العلم، أن محمدًا ﷺ أمي لم يقرأ ولم يكتب، قبل أن يوحى إليه هذا القرآن، فنطقه بهذه الحروف على الهيئة التي لا يحذقها إلا القراء والكاتبون أمر يستدعي الانتباه ويستلفت النظر.

٢ ـ أو أنها إشارة إلى الإعجاز كأنه يقول لهم: إن هذه الألفاظ والجمل والعبارات والآيات قد ركبت من هذه الحروف البسيطة التي تعرفونها جميعًا، ومع ذلك فقد عجزتم عن الإتيان بمثل هذا التركيب، مع أن مادته الأولية بين أيديكم، فلا مندوحة لكم بعد هذا من الإقرار بأن هذا الكتاب، المركب هذا التركيب من عند الله.

٣ ـ أو أنها إشارة إلى فضل الكتابة وسمو منزلتها والتفاؤل بأنه كما كانت معرفة البشر للكتابة إيذانًا بانتقالهم من طور إلى طور في مدارج الرقي والكمال، فكذلك الاهتداء بهذه الرسالة سيكون انتقالاً جديدًا إلى درجة أعلى وأكمل في مدارج الحضارة الإنسانية والرقي الاجتماعي...، وكل ما عدا هذه الآراء الثلاثة من أقوال المفسرين ظن لا يغني عن الحق شيئًا ومن طرائف ما ذهب إليه بعضهم في ذلك استخلاصه هذا التركيب من هذه الحروف في أوائل السور بعد حذف المكرر منها «نص حكيم قاطع له سر» كأنه يريد أن يقول: إنها وصف للقرآن، ولا دليل على هذا القول ولا سند له][1].

وكذلك عرض الدكتور لرأي القائلين: إنها من المتشابه الذي انفرد الله بعلمه ولا يجب أن يتكلم فيها، ولكن نؤمن بها ونقر بها كما

---

(١) أحمد عادل كمال: علوم القرآن، ص١١٠، ١١١ بتصرف.

جاءت وهو قول عامر الشعبي[1] وسفيان الثوري[2] وجماعة من المحدثين[3]، وأبان الدكتور رفضه لرأي المستشرقين القائلين بأنها علامات لبعض المصاحف وأظهر أنه رأي سخيف رفضه نفر من المستشرقين أنفسهم ولم يرجح الدكتور رأيًا دون الآخر، سواء من قالوا بالتأويل أو من قالوا بأنه من المتشابه، فلا حرج على الدكتور في كلامه الأخير والله أعلى وأعلم بالصواب.

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

(١) الشعبي عامر بن شراحيل، راوية من التابعين ومحدث وحافظ ثقة. عاش في الكوفة اتصل بعبد الملك بن مروان فقربه وجعله رسوله إلى ملك الروم، توفي عام (١٠٣هـ/٧٢١م). المعجم الإسلامي ٣٤٣.

(٢) سفيان الثوري (٩٧ ـ ١٦١هـ/٧١٦ ـ ٧٧٨م) سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري، الكوفي (أبو عبدالله) محدث، فقيه، توفي بالبصرة، له من الكتب الجامع الكبير والجامع الصغير. معجم المؤلفين ١/٧٧١.

(٣) راجع: القرطبي: الجامع لأحكام القرآن ١/١٥٠.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

المبحث الثامن

طه حسين وقضية أميّة الرسول ﷺ

من القضايا المتعلقة بالقرآن حديث الدكتور عن المراد بكلمة أُمِّي وأميين في القرآن الكريم.

ذكر الدكتور محمد الدسوقي [أن الدكتور أحمد الحوفي زار الدكتور طه حسين في ١٩٧٢/٣/١٤م، وتناول الحديث بينهما فيما تناول كلمة أمي وأميين وذكر الدكتور الحوفي أنه بحث في المعاجم اللغوية القديمة فلم يجد فيها هذه الكلمة بمعناها الشائع وهو الجهل بالقراءة والكتابة ولم يوردها بهذا المعنى غير اللسان كذلك أشار الطبري في تفسيره لها.

ثم يقول الدكتور طه حسين: أن كلمة «أُمِّي» في القرآن يقصد بها من ليس عِبْريًا وأن قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ﴾[١] معناه ليس علينا فيمن ينسبون إلى الأمم الأخرى سبيل. ثم تحدث عن ورود هذه الكلمة في العهد القديم والحديث عنها بهذا المعنى][٢].

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٧٥.

(٢) د. محمد الدسوقي: أيام مع طه حسين، ص١٦٦، ١٦٧.

وكلام الدكتور لا يخلو من حق إلا أنه ليس الحق كله فالزعم بأن كلمة أمي في القرآن يقصد بها من ليس عبريًا ليس غير تحكم في فهم النص مع أن اللفظ اللغوي له أكثر من دلالة والدكتور حين يفسر اللفظ بما فسره به إنما قال بوجه من الوجوه وكثير من أئمة التفسير العارفين باللغة فسروا الأمي بأنه الذي يجهل القراءة والكتابة فرجل مثل محمد بن جرير الطبري المتوفى سنة ٣١٠ يقول: (إن الأمي عند العرب هو الذي لا يكتب، وأرى أنه قيل للأمي أمي: نسبة له بأنه لا يكتب إلى أمه، لأن الكتابة كانت في الرجال دون النساء، فنسب من لا يكتب ولا يخط من الرجال إلى أمه في جهله بالكتابة دون أبيه، كما ذكرنا عند النبي ﷺ من قوله: «**إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب**»[1])[2].

وأبو حيان[3] في البحر المحيط يقول:

(الأمي: الذي لا يقرأ في كتاب ولا يكتب، نسب إلى الأم لأنه ليس من شغل النساء أن يكتبن أو يقرأن في كتاب أو لأنه بحال ولدته أمه لم ينتقل عنها، أو نسب إلى الأمة وهي الخلقة أو إلى الأمة إذ هي

---

(١) قطعة من حديث رواه البخاري في الصوم (١٩١٣) باب (١٣) قول النبي ﷺ: «**لا نكتب ولا نحسب**» ومسلم في الصيام (١٠٨٠/١٥) باب (٢) وجوب صوم رمضان لرؤية الهلال.

(٢) تفسير الطبري، تحقيق محمود وأحمد شاكر، دار المعارف بمصر ٢٩٦/١.

(٣) أبو حيان: محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان الأندلسي الغرناطي الحياني الشهير بأبي حيان (٦٥٤هـ - ٧٤٥هـ)، كان ملمًا بالقراءات، وعلى جانب كبير من المعرفة باللغة وعرف بنظمه للأشعار والموشحات، وله علم كبير بالحديث ورجاله وكذلك بالتفسير، وأشهر آثاره: تفسيره المسمى بالبحر المحيط. راجع: الذهبي: التفسير والمفسرون ٣٠٠/١، ٣٠١.

ساذجة قبل أن تعرف المعارف)[1].

وكذلك فسر القرطبي قوله: «أميون» من الآية الكريمة: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ﴾[2] بقوله: [أي: من اليهود. وقيل: من اليهود والمنافقين أميون؛ أي: من لا يكتب ولا يقرأ واحدهم أمي، منسوب إلى الأُمَّة الأُمِّيّة التي هي على أصل ولادتها من أمهاتها لم تتعلم الكتابة ولا قراءتها ومنه قوله عليه السلام: «**إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب**».

ثم ساق القرطبي أقوالاً أخرى في معنى الكلمة ثم عقب بقوله والقول الأول أظهر والله أعلم][3].

وفي تفسيره لآية سورة الجمعة: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾[4] ساق كلامًا للماوردي يقول فيه:

[فإن قيل: ما وجه الامتنان بأن بعث نبيًا أميًّا؟ فالجواب عنه من ثلاثة أوجه:

أحدها: لموافقته ما تقدمت به بشارة الأنبياء.

الثاني: لمشاكلة حاله لأحوالهم، فيكون أقرب إلى موافقتهم.

الثالث: لينتفي عنه سوء الظن في تعليمه ما دعى إليه من الكتب التي قرأها والحِكم التي تلاها.

---

(١) محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي الغرناطي: البحر المحيط، دار الفكر للطباعة والنشر، ط٢. ب. ت ٢٦٩/١.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٧٨.

(٣) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن ٦/٢، ٧.

(٤) سورة الجمعة، الآية: ٢.

ثم يعقب القرطبي بقوله: قلت: وهذا كله دليل معجزته وصدق نبوته][1] [وما لنا نذهب بعيدًا وهذا كتاب الله قد وصف محمدًا ﷺ بأنه أمي في سورة الأعراف ثم فسر معنى هذا الوصف في سورة العنكبوت وهي سورة مكية أيضًا فقال سبحانه: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾﴾[2] وهذه السورة نزلت بعد الأعراف بوقت طويل؛ لأنها من آخر السور المكية نزولاً][3].

والمعنى الذي رضيه الدكتور طه حسين لكلمة أمي قال به بعض المفسرين في تفسير بعض الآيات التي ورد بها لفظ أمي أو أميين.

يقول الأستاذ سيد قطب في تفسير قوله سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ﴾[4] (هذه بالذات صفة يهود فهم الذين يقولون هذا القول ويجعلون للأخلاق مقاييس متعددة فالأمانة بين اليهودي واليهودي أما غير اليهود ويسمونهم الأميين وكانوا يعنون بهم العرب ـ وهم في الحقيقة يعنون كل من سوى اليهود ـ فلا حرج على اليهودي في أكل أموالهم)[5] ورجح الأستاذ هذا الإطلاق في تفسيره لآية سورة الجمعة على الأمي بمعنى الجاهل بالقراءة والكتابة؛ لأنه من وجهة نظره أقرب إلى موضوع السورة[6] إلا أنه من الصعب تعميم هذا

---

(١) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن ٨٣/١٨.
(٢) سورة العنكبوت، الآية: ٤٨.
(٣) من تعقيب الشيخ أحمد محمد شاكر على كلمة أمي بدائرة المعارف الإسلامية ٦٤٧/٢.
(٤) سورة آل عمران، الآية: ٧٥.
(٥) سيد قطب: في ظلال القرآن ٤١٧/١.
(٦) سيد قطب: في ظلال القرآن ٣٥٦٤/٦.

الإطلاق في تفسير كل الآيات التي جاء بها لفظ الأمي أو الأميين ومع تسليمنا بأن الكتاب المقدس ـ التوراة والإنجيل ـ يطلق هذا اللفظ على الشعوب من غير العبرانيين[1]، فإن ذلك لا يعد دليلاً على صحة الإطلاق وحتمية الأخذ بهذا التفسير نظرًا للشكوك والريب التي تحيط بالكتاب المقدس من ناحية إلهيته وعصمته وبعده عن التحريف والتغيير.

وبعد فكل من التفسيرين مقبول ولكن الخطأ يكمن في الجزم بواحد منها ونفي الآخر.

آراء بعض المستشرقين:

يرى باريه .R.Part[2] بأن الآية ٧٥ من سورة آل عمران ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ﴾ تجعل من المحتمل أن تكون كلمة أمي أو أميين وضعها أهل الكتاب وربما كان واضعوها هم اليهود للدلالة على الوثنيين ويرفض تفسير أمي بالجاهل بالقراءة والكتابة فيقول: [هناك عوامل لغوية تجعل من الصعب أن نقول: إن كلمة أمي معناها الذي لا يكتب ولا يقرأ فلا الكلمة العربية «أمة» ولا العبرية «أما» ولا الآرامية «أميتا» تدل على الأمة في حالة الجهالة.

ويرفض باريه تفسير «بول[3] Frants Bull الذي قال بأن الأمي هو الذي لا يكتب ولا يقرأ قائلاً: واعتراض بول على تسمية محمد نفسه

---

(١) د. بطرس عبد الملك وآخرون: قاموس الكتاب المقدس، دار الثقافة، مصر، طبعه ١٢ ب.ت، ص١١٧.

(٢) باريه: لم أستدل على ترجمته.

(٣) بوهل (بول) فرانتس (١٢٦٦ ـ ١٣٥١هـ ـ ١٨٥٠هـ ـ ١٩٣٢م) مستشرق دانمركي من أعضاء المجمع العلمي العربي ولد وتوفي في كوبنهاجن، كتب في دائرة المعارف الإسلامية. الزركلي. الأعلام ١٣٩/٥.

النبي الأمي بمعنى الوثني يفقد قيمته إذا عرفنا أن محمدًا ربما لم يكن على بينة مما تدل عليه كلمة أمي عند اليهود وأنه كما أشرنا إليه آنفًا ربما جعل لهذه الكلمة معنى جديدًا[1].

وكلام باريه قريب الشبه بكلام الدكتور طه حسين وليس بالبعيد أن يكون الدكتور قد اطلع على هذا الرأي وتأثر به.

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

(١) دائرة المعارف الإسلامية ٢/٦٤٤، ٦٤٥.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

المبحث التاسع

رأي الدكتور طه في التوراة وتأييد القرآن لها

(في يوم الخميس الموافق ١٩٦٨/١٢/١٢م في نحو الساعة الثانية عشرة ظهرًا زار الدكتور محمد كامل حسين الدكتور طه حسين وقد كانت معجزات الأنبياء والقرآن الكريم والكتب السماوية من الموضوعات التي تحدث فيها العميد (طه حسين) والدكتور كامل حسين[١].

وكان مما قاله الدكتور طه: إن هناك اختلافًا واضحًا في كثير من المسائل، وإن التوراة تحتوي على أشياء لا يقبلها العقل، ولا يصح أن تكون منزلة من عند الله كنسبة الفاحشة إلى بعض الأنبياء، وأشار العميد إلى قصة سيدنا داود، وما يروى من أنه أرسل زوج امرأة أعجبته إلى ميدان القتال ليُقْتَل حتى يتزوجها وعقَّب عليها بأن القرآن الكريم جاء

---

(١) محمد كامل حسين (... - ١٣٨٠هـ/.... - ١٩٦١م) محمد كامل حسين المخزنجي. دكتور في الأدب وأستاذ الأدب المصري بكلية الآداب جامعة القاهرة، حقق ونشر بعض المخطوطات وتوفي بالقاهرة، من آثاره: في الأدب المسرحي من العصور القديمة والوسطى. معجم المؤلفين ٣/٥٣٠.

في سورة «ص» ما يشير إلى ذلك)[1].

وكلام الدكتور فيه بعض الحق وبعض الباطل. . .أما ما فيه من الحق فحديثه عن التوراة وما فيها من أشياء لا يقبلها العقل كنسبة الفاحشة إلى الأنبياء ذلك الأمر الذي ينافي عصمتهم ويتعارض مع كريم مقامهم عند الله وعند الناس ولا أدل على ذلك من القصة التي استدل بها الدكتور والتي جاءت بتفاصيلها في الإصحاح الحادي عشر من سفر صموئيل الثاني[2].

أما الباطل الذي اشتمل عليه كلام الدكتور فهو تعقيبه على القصة المذكورة بأن القرآن جاء بما يؤيدها وهذا كلام غريب حين يصدر من رجل طالما عاب على الآخرين التسرع في البحث والمجازفة بإلقاء الأحكام دون تمعن وتريث.

(إن ما جاء في القرآن الكريم في سورة ص لا يدل على ما نسبته التوراة لداود عليه السلام، والآية صريحة في أنه دخل عليه خصمان وعرضا عليه قضية فحكم فيها دون أن يسمع قول المتهم فكان عتابه واختباره وكانت إنابته وتوبته)[3].

---

(١) د. محمد الدسوقي: أيام مع طه حسين، ص٦٩.

(٢) يؤيد كاتبو قاموس الكتاب المقدس هذه القصة ويكتبون أمثال تلك العبارات عن نبي الله داود (وقد ارتكب داود خطيئته الشنيعة ضد أوريا الحثي، ومع أن داود ارتكب في بعض الأحيان خطايا يندى لها الجبين خجلاً). والباحث ينزه النبي الكريم عن هذه الخطايا. راجع: د. بطرس عبد الملك وآخرون: قاموس كتاب المقدس ـ دار الثقافة ـ مصر الطبعة الثانية عشرة، ب. ت، ص٣٦٥.

(٣) د. محمد الدسوقي: أيام مع طه حسين، ص٦٩.

ولعل الدكتور انخدع بما ذكر بعض المفسرين من الإسرائيليات كالقرطبي الذي ذكر عند تفسيره لآيات سورة ص ﴿۞ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾﴾[1] (ما قال ابن عباس ﷺ من أن داود عليه السلام حدث نفسه إن ابتلي أن يعتصم. فقيل له: إنك ستبتلى وتعلم اليوم الذي تبتلى فيه فخذ حذرك فأخذ الزبور ودخل المحراب ومنع من الدخول عليه. فبينا هو يقرأ الزبور إذ جاء طائر كأحسن ما يكون الطير، فجعل يدرج بين يديه. فهم أن يتناوله بيده، فاستدرج حتى وقع في كوة المحراب، فدنا منه ليأخذه فطار، فاطلع ليبصره فأشرف على امرأة تغتسل، فلما رأته غطت جسدها بشعرها، قال السدي: فوقعت في قلبه، قال ابن عباس: وكان زوجها غازيًا في سبيل الله وهو أريا بن حنان، فكتب داود إلى أمير الغزاة أن يجعل زوجها في حملة التابوت، وكان حملة التابوت إما أن يفتح الله عليهم أو يقتلوا، فقدمه فيهم فقتل، فلما انقضت عدتها خطبها داود، واشترطت عليه إن ولدت غلامًا أن يكون الخليفة بعده، وكتبت عليه بذلك كتابًا، وأشهدت عليه خمسين رجلاً من بني إسرائيل، فلم تستقر نفسه حتى ولدت سليمان وشب، وتسور الملكان وكان من شأنهما ما قص الله في كتابه)[2].

وذكر القرطبي للقصة سياقات أخرى بينها اختلاف يسير والمضمون واحد وكلها تطعن في عصمة سيدنا داود عليه السلام، وما كان ينبغي من القرطبي ـ رحمه الله ـ مع جلالة قدره أن يورد مثل هذه

---

(١) سورة ص، آية: ٢١ وما بعدها.

(٢) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن ١٤٩/١٥ ـ ١٥١.

الروايات التي تقدح في عصمة نبي كريم.

وممن شارك في هذا الخطأ الخازن[1] في تفسيره فقد أورد القصة برواياتها المتعددة ثم ساق فصلاً جعل عنوانه: (فصل في تنزيه داود عليه السلام عما لا يليق به وينسب إليه) ويفند في هذا الفصل كل ما ذكره مما يتنافى مع عصمة نبي الله داود عليه السلام[2].

أما الحافظ ابن كثير فقد وقف من هذه القصة وأمثالها موقفًا حسنًا إذ قال: (قد ذكر المفسرون ها هنا قصة أكثرها مأخوذ من الإسرائيليات ولم يثبت فيها عن المعصوم حديث يجب اتباعه، ولكن روى ابن أبي حاتم هنا حديثًا، لا يصح سنده، لأنه من رواية يزيد الرقاشي[3]، عن أنس رضي الله عنه، ويزيد وإن كان من الصالحين، لكنه ضعيف الحديث عند الأئمة؛ فالأولى أن يقتصر على مجرد تلاوة هذه القصة وأن يرد علمها إلى الله عز وجل فإن القرآن حق، وما تضمن فهو حق أيضًا)[4].

---

(١) الخازن: هو علاء الدين أبو الحسن علي بن محمد بن إبراهيم بن عمر بن خليل الشيحي ـ نسبة إلى شيحة من أعمال حلب ـ البغدادي الشافعي المعروف بالخازن اشتهر بذلك، لأنه كان خازن كتب بدمشق، ولد سنة ٦٧٨ ببغداد وتوفي بحلب سنة ٧٤١هـ. راجع: محمد حسين الذهبي: الإسرائيليات في التفسير والحديث. مجمع البحوث الإسلامية سلسلة البحوث الإسلامية طبعة ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م، ص٢١٦.

(٢) د. محمد السيد حسين الذهبي: الإسرائيليات في التفسير والحديث، ص٢١٩.

(٣) هو يزيد بن أبان الرقاشي، القاص، من زهاد البصرة، كنيته أبو عمرو، وقيل الرقاشي البصري، من الطبقة الخامسة من طبقات رواة الحديث التي تضم صغار التابعين، قال عنه علماء الجرح والتعديل ضعيف زاهد. راجع: تهذيب التهذيب م١١ ص٣١١.

(٤) د. محمد علي الصابوني: مختصر تفسير ابن كثير، دار التراث العربي طبعة سنة ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، ٣/٢٠٠.

رأي لمستشرق في الآيات:

حاول المستشرق كارادي فو[1] أن يفسر آيات القرآن طبقًا لما ورد بالكتاب المقدس من نسبة العبث والخطيئة إلى داود فكان مما قاله:

وقد وردت في آية[2] أخرى قضية خصمين دخلا على داود متظاهرين بأنهما يسألانه أن يحكم بينهما بالحق، والواقع أنهما جاءا ليعرّضا بخطيئته[3].

فإذا كان الكتاب المقدس قد صرح بنسبة الخطيئة إلى نبي الله داود فلا يجوز لهذا المستشرق ولا لغيره أن ينسب شيئًا من هذا إلى القرآن الكريم.

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

(١) البارون كارادي فو، كار (١٨٦٧ ـ ١٩٥٣) مستشرق فرنسي درس العربية ودرَّسها في المعهد الكاثوليكي بباريس. المستشرقون ٢٣٨/١.

(٢) يشير إلى الآية ٢١ من سورة ص.

(٣) دائرة المعارف الإسلامية، مادة: داود ١٢١/٩.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

المبحث العاشر

رأي طه حسين في خيانة امرأة نبي الله نوح عليه السلام

ومن القضايا القرآنية التي تناولها الدكتور طه حسين في أحاديثه الشفوية موضوع بنوة ابن نوح عليه السلام الذي قال الله فيه: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾[1] ردًا على مناجاة نبيه نوح وسؤاله نجاة ولده: ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾[2].

تحدث الدكتور طه حسين في ذلك إلى الدكتور محمد الدسوقي في يوم الخميس ١٩٦٩/١٢/٤م فكان مما قاله له: [إني كنت أميل إلى قراءة لا أدري أهي صحيحة أم لا[3] وهي: ﴿سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ﴾[4] بسكون الميم بدلاً من ضمها، فقلت ـ أي: الدكتور

---

(١) سورة هود، الآية: ٤٦.

(٢) سورة هود، الآية: ٤٥.

(٣) لم أستدل على تلك القراءة فيما بين يدي من كتب القراءات مثل: ١ ـ الإرشادات الجلية في القراءات السبع من طريق الشاطبية لمحمد محيسن. ٢ ـ البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة للشيخ عبد الفتاح القاضي، ٣ ـ الوافي في شرح الشاطبية في القراءات السبع لعبد الفتاح القاضي.

(٤) سورة هود، الآية: ٤٣.

الدسوقي ـ: ولماذا تميل إلى هذه القراءة فأجاب العميد ـ يعني طه حسين ـ لأن فيها تأكيدًا لما رآه ابن نوح من أن الجبل سينقذه من الغرق حسب ظنه، على أنَّ هذا الابن لم يكن ابنًا حقيقيًا لنوح، فالله يقول في القرآن: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾[1] وقال عن امرأة نوح ولوط بأنهما ﴿كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾[2] فامرأة نوح قد خانت زوجها فلم يكن هذا الابن من صلب نوح، فقلت: إن بعض المفسرين يذهبون إلى أن في هذا ما يؤكد أن صلة العقيدة فوق صلة القربى والنسب، لأن هذا الابن لما لم يؤمن بدعوة أبيه فكأنه ليس ابنًا له فقال العميد: هذا غير صحيح][3].

والدكتور يحكي هنا رأيًا رآه بعض المفسرين (كالحسن البصري[4] الذي قال: معنى عمل غير صالح أنه ولد على فراشه ولم يكن ابنه! وابن جريج[5] الذي يقول: ناداه وهو يحسب أنه ابنه وكان ولد على فراشه وكانت امرأته خانته فيه؛ ولهذا قال: ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾][6].

---

(١) سورة هود، الآية: ٤٦.

(٢) سورة التحريم، الآية: ١٠.

(٣) د. محمد الدسوقي أيام مع طه حسين، ص١٠٧.

(٤) الحسن البصري (٢٢هـ/١١٠هـ) (٦٤٢هـ/٧٢٨م) تابعي ومتكلم ومحدث ولد في المدينة وتربى في وادي القرى، ثم استقر في البصرة وتوفي بها، من كبار رواة الحديث وأحد الأئمة الزهاد. المعجم الإسلامي: ٢٢٤.

(٥) ابن جريج (٨٠هـ ـ ١٥٠هـ/٦٩٩هـ ـ ٧٦٧م). عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج الأموي، المكي (أبو الوليد، أو خالد) محدث، حافظ، فقيه مفسر، من آثاره: تفسير القرآن الكريم وغيره. معجم المؤلفين ٣١٨/٢.

(٦) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن ٤٢/٩.

وأغفل الدكتور رأي جمهور العلماء في تفسير الآية لأنه يخالف هواه قال القرطبي: [وقال علماؤنا: وإنما سأل نوح ربه ابنه لقوله: «وأهلك» وترك قوله: ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ﴾ فلما كان عنده من أهله قال: ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي﴾ يدل على ذلك قوله: ﴿وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: لا تكن ممن لست منهم؛ لأنه كان عنده مؤمنًا في ظنه، ولم يك نوح يقول لربه: ﴿إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي﴾ إلا وذلك عنده كذلك؛ إذ محال أن يسأل هلاك الكفار ثم يسأل في إنجاء بعضهم؛ وكان ابنه يُسر الكفر ويظهر الإيمان؛ فأخبر الله نوحًا بما هو منفرد به من علم الغيوب.

وأجاب «القرطبي» على قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ بكلام الجمهور: ـ ليس من أهل دينك ولا ولايتك فهو على حذف مضاف؛ وهذا يدل على أن حكم الاتفاق في الدين أقوى من حكم النسب][1].

أما موضوع الخيانة الذي استدل به الدكتور على نفيه صلبية الولد فالمأثور فيه أن المراد بالخيانة هنا خيانة العقيدة وليست خيانة الفاحشة إذ كانت تلك الزوجة تسخر منه مع الساخرين من قومه[2].

يقول ابن عباس ـ الذي يبغضه الدكتور طه حسين ـ: [كانت امرأة نوح تقول للناس: إنه مجنون، وكانت امرأة لوط تخبر بأضيافه، وعنه: ما بغت امرأة نبي قط. وهذا إجماع المفسرين فيما ذكر القشيري[3] إنما

---

(١) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن ٤١/٩، ٤٢ بتصرف.

(٢) د. جمعة علي الخولي: تاريخ الدعوة ـ دار الطباعة المحمدية، ط١ سنة ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م، ١٠٧/١.

(٣) القشيري (٣٧٦هـ/٩٨٦م ـ ٤٥٦هـ/١٠٨٢م) أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن، فقيه أشعري ومتصوف معروف، ولد في فارس، صاحب «الرسالة القشيرية»=

كانت خيانتهما في الدين وكانتا مشركتين][1].

ويحكي القرطبي (أنه قيل لسعيد بن جبير[2] يقول نوح: ﴿إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي﴾ أكان من أهله؟ أكان ابنه؟ فسبح الله طويلاً ثم قال: لا إله إلا الله! يحدث الله محمدًا ﷺ أنه ابنه وتقول: إنه ليس ابنه! نعم كان ابنه، ولكن كان مخالفًا في النية والعمل والدين. ثم عقب القرطبي بقوله: وهو الصحيح في الباب إن شاء الله لجلالة من قاله)[3].

فالعجب من الدكتور طه حسين كيف ترك رأي الجمهور مع وضوحه ووجاهته ومال إلى رأي غريب!

لكن العارف بشخصية الدكتور لا يناله شيء من الدهشة، لأنه يعلم أن الدكتور كان مولعًا بالخلاف وإثارة القلاقل من حوله بغية لفت الأنظار إليه، هو الذي اعترف بذلك حين قال: (أنا قلق دائمًا، مقلق دائمًا، ساخط دائمًا، مثير للسخط من حولي)[4].

ولقد أنكر عليه والده رأيه في قضية ابن سيدنا نوح حين جهر به

= المشهورة في التصوف، ومن مؤلفاته: «لطائف الإشارات في تفسير القرآن». أشرف طه أبو الدهب، المعجم الإسلامي، ص٤٧٢.

(١) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن ١٨٦/١٨.

(٢) سعيد بن جبير يكنى ابا عبدالله مولى لبني والبة بن الحرث من بني أسد بن خزيمة، أخذ الحديث عن ابن عباس وابن عمر، كان على علم بالفرائض، وكان يختم القرآن في كل ليلتين. قتله الحجاج سنة ٩٤هـ، وكان يومئذٍ ابن تسع وأربعين سنة. الطبقات الكبرى ١١/٥ وما بعدها.

(٣) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن ٤٢/٩؛ وانظر للإمام أبي الفداء إسماعيل بن كثير: قصص الأنبياء. ت: الشيخ خليل الميس، دار القلم، بيروت، ب.ت، ص٨٥.

(٤) سامي الكيالي: مع طه حسين، ص٧.

في أوليات حياته، وكان قد عوَّد أهله وأهل القرية أن يفاجئهم بالغريب من الأقوال والآراء، ولقد حكى الدكتور موقف والده معه للدكتور الدسوقي في أعقاب حوارهم آنف الذكر فقال:

(وأذكر أني كنت أقول لأخي المرحوم الشيخ أحمد حسين في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ﴾[1] إنه عمل غير صالح، وكان والدي رحمه الله يصلي وأنا أقول لأخي ذلك، فلما انتهى من صلاته قال لي: يا كلب ياابن الكلب ما عدش إلا القرآن تقول فيه هذا الكلام الفارغ)[2].

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

(١) سورة هود، الآية: ٤٦.

(٢) د. محمد الدسوقي: أيام مع طه حسين، ص١٠٧.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

المبحث الحادي عشر

رأي الدكتور طه حسين في أصحاب الأخدود

ومن القضايا القرآنية التي تحدث فيها الدكتور طه حسين تعيين المراد «بأصحاب الأخدود».

ففي أحاديث الدكتور مع الدكتور محمد الدسوقي يوم الأربعاء ١٩٧٠/١/١٧م ذكر الدكتور طه الآيات الأولى (٤ ـ ٧) من سورة البروج: ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ۝٤﴾ إلى قوله: ﴿شُهُودٌ﴾ ثم قال: [هذه الآية يجمع المفسرون على أنها خاصة باليهود الذين اضطهدوا السيد المسيح، وأنا أخالفهم في هذا وأرى أن أصحاب الأخدود هم القرشيون الذين عذبوا المؤمنين وأكرهوهم على ذم الرسول، كما حدث مع عمار فقد أكره وعذب حتى ذم الرسول استجابة لرغبة المشركين...][1] والحق أن تعيين أصحاب الأخدود مما اختلف فيه المفسرون؛ فيذكر ابن كثير قوله:

(وقد اختلف أهل التفسير في أهل هذه القصة من هم؟

---

(١) د. محمد الدسوقي: أيام مع طه حسين، ص١١٤.

فعن علي أنهم أهل فارس، حين أراد ملكهم تحليل زواج المحارم فامتنع عليه علماؤهم فعمد إلى حفر أخدود فقذف فيه من أنكر عليه منهم، واستمر فيهم تحليل المحارم إلى اليوم.

وعن ابن عباس قال: ناس من بني إسرائيل خدوا أخدودًا في الأرض ثم أوقدوا فيه نارًا، ثم أقاموا على ذلك الأخدود رجالاً ونساء فعرضوا عليها.

وزعموا أنه دانيال وأصحابه[1]، وقيل غير ذلك)[2].

وقال القرطبي: في تعيينهم قولاً واحدًا أنهم كانوا بنجران في الفترة بين عيسى ومحمد ﷺ، وقد اختلف الرواة في حديثهم والمعنى متقارب، وذكر حديث مسلم[3] الذي رواه صهيب أن رسول الله ﷺ قال: «**كان ملك فيمن كان قبلهم، وكان له ساحر**...» الحديث)[4] وقال عنهم سيد قطب: (قيل: إنهم من النصارى الموحدين ابتلوا بأعداء لهم طغاة قساة شريرين، أرادوهم على ترك عقيدتهم والارتداد

---

(١) دانيال اسم نبي من أنبياء بني إسرائيل قيل: كانت وفاته قبل ثلاثمائة عام من مولد محمد ﷺ وهذا ما جعل بعض العلماء يشكك في نبوته ويقول: بل كان رجلاً صالحًا لأن عيسى ابن مريم ليس بينه وبين رسول الله ﷺ نبي بنص الحديث الذي في البخاري والفترة التي كانت بينهما أربعمائة سنة، وقيل: ستمائة، تحكي الروايات أن أبا موسى الأشعري عثر على جثمانه أثناء فتح تستر في خلافة عمر وأنه دفنه وأخفى قبره حتى لا يفتتن الناس به. راجع: ابن كثير: قصص الأنبياء، ص٥٢٧ وما بعدها؛ دائرة المعارف الإسلامية، مادة: دانيال ١١٨/٩.

(٢) الصابوني: مختصر تفسير ابن كثير، ٦٢٣/٣.

(٣) رواه مسلم في (٥٣) كتاب الزهد والرقائق و(١٧) باب قصة أصحاب الأخدود والساحر والراهب والغلام الحديث (٣٠٠٥/٧٣) عن صهيب.

(٤) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن ٢٤٧/١٩.

عن دينهم، فأبوا وتمنعوا بعقيدتهم، فشق الطغاة لهم شقًا في الأرض، وأوقدوا فيه النار، وكبوا فيه جماعة المؤمنين فماتوا حرقًا)[1].

وإذا تعددت الأقوال في تعيين أصحاب الأخدود فلا حرج أن يميل واحد إلى رأي من الآراء ويرجحه على ما عداه، والرأي الذي رآه الدكتور طه أنهم كفار قريش رأي جديد لم يقل به أحد قبله ـ فيما أعلم ـ ولكنه على جدته ليس ببعيد، خاصة وأن كفار قريش وقفوا موقفًا مشابهًا لصنيع اليهود مع النصارى في الرأي الذي حكاه الجمهور.

لكن العجيب في موقف الدكتور أن يقول هذا الرأي ويصرح به، وهو الذي قص في كتابه (على هامش السيرة) خبر الملك اليهودي ذي نواس[2] وموقفه من نصارى نجران وتخييره لهم بين الدخول في اليهودية أو القتل في الأخاديد التي شقها وأضرم فيها النيران؛ حكى الدكتور ذلك في نهاية الفصل الذي عنونه الدكتور بكلمة البشير[3].

رأي لمستشرق في الموضوع:

يقول المستشرق فنسنك[4] الذي كتب مادة أصحاب الأخدود في

---

(١) سيد قطب: في ظلال القرآن ٣٨٧١/٦.

(٢) ذي نواس: ملك يهودي حكم بلاد اليمن في بواكير القرن السادس اضطهد النصارى اضطهادًا قاسيًا. راجع: جوستاف جرونيباوم: حضارة الإسلام، ص٩٢.

(٣) طه حسين: على هامش السيرة. المجموعة الكاملة المجلد الثالث ١٠٣/١ ـ ١٠٥.

(٤) فنسنك ج. مستشرق هولندي (١٨٨٢هـ ـ ١٩٣٩م) تخصص في أديان الشرق ساهم في وضع المعجم المفهرس لألفاظ الحديث، وشارك في تحرير دائرة المعارف، زار العديد من الدول العربية ومنها مصر سنة ١٩٣٨. المستشرقون ٣١٩/٢.

دائرة المعارف (يروي المؤرخون المسلمون في كلامهم على أصحاب الأخدود أن ذا نواس ملك اليمن كان متعصبًا لليهودية غير متسامح مع النصارى، فدعاهم إلى اليهودية وخيرهم بين ذلك والقتل فاختاروا القتل فخد لهم الأخدود، وأحرقهم فيه ولهذه القصة ما يؤيد بعضها ويكملها في المصادر النصرانية. . .

وهناك تفسيرات أخرى لهذه القصة فيقول البعض: إن أصحاب الأخدود هم دانيال وأصحابه ويرى رجحان هذا الرأي جيجر[1] Was hat Mohammed في كتابه Gaiger ص١٩٢، ويقول الثعلبي في رواية له: إن أصحاب الأخدود ثلاثة: ذو نواس في اليمن، وأنطاخيوس في الشام، وبختنصر في فارس)[2].

(١) جيجر: لم أستدل على ترجمته.

(٢) دائرة المعارف الإسلامية، مادة: أصحاب الأخدود ٢/٢٣٩.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الفصل الخامس

طه حسين والسُّنَّة النبوية

وفيه مباحث:

* **المبحث الأول:** طه حسين والسيرة النبوية.
* **المبحث الثاني:** مذهبه في الأخذ بالسُّنَّة.
* **المبحث الثالث:** التشكيك في السُّنَّة ورواتها.

وفيه مطالب:

المطلب الأول: شكه في حديث جبريل.
المطلب الثاني: شكه في حديث الكتابة.
المطلب الثالث: شكه في حديث اختلاف الأمة.
المطلب الرابع: رده لحديث مراجعة عمر لأبي بكر.
المطلب الخامس: شكه في حديث الاستسقاء بالعباس.
المطلب السادس: شكه في أمانة أبي هريرة.
المطلب السابع: التشكيك في الرواة من الموالي.

* **المبحث الرابع:** قبوله الروايات الضعيفة.
* **المبحث الخامس:** تصحيح الحديث بالظن.

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

المبحث الأول

طه حسين والسيرة النبوية

لم يؤرخ الدكتور طه حسين لسيرة النبي ﷺ بالمعنى المعروف عند العلماء والعامة على السواء، وهو كتابة سيرة النبي من حين ولادته أو قبلها بقليل حتى وفاته ﷺ، وإنما أراد أن يبقى على هامش السيرة ولم يرد أن يقص شيئًا من أمر السيرة لذاته.

منهج الدكتور طه في كتابه على هامش السيرة:

أفرد الدكتور للسيرة النبوية كتابًا من ثلاثة أجزاء سماه: «على هامش السيرة» لم يكتبه دفعة واحدة وإنما بدأه على هيئة مقالات نشرها في مجلة الرسالة وأخرج الجزء الأول في سنة ١٩٣٣م لأول مرة، وفي عام ١٩٤٢م أخرج الجزء الثاني أما الجزء الثالث فقد صدر في العام التالي سنة ١٩٤٣م[1].

ولقد صدَّر الدكتور كتابه بمقدمة شرح فيها منهجه في كتابة

---

(١) د. عبد العزيز شرف: طه حسين وزوال المجتمع التقليدي، الهيئة المصرية للكتاب ١٩٧٧م، ص٤٩، ٥١.

السيرة، وأبان فيها أنه لم يقصد بكتابه العلماء ولا المؤرخين؛ لأنه لم يرد إلى العلم ولم يقصد به التاريخ وإنما هو أديب استوحى نصوصًا أدبية أو تاريخية كما يستوحيها الأدباء في كل زمان ومكان، وأنها صورة طبيعية صادقة لشعوره وهو يقرأ السيرة النبوية الشريفة[1].

وهدف الدكتور من كتابتها كما يقول: (أن يحبب إلى الشباب قراءة كتب السيرة خاصة وكتب الأدب العربي القديم عامة والتماس المتاع الفني في صحفها الخصبة)[2].

أما عن الصورة التي أخرج الدكتور فيها كتابه وصاغ بها أفكاره فيتحدث عنها بقوله: [وأحب أن يعلم الناس أني وسعت على نفسي في القصص ومنحتها من الحرية في رواية الأخبار واختراع الأحاديث ما لم أجد به بأسًا، إلا حين تتصل الأحاديث والأخبار بشخص النبي، أو بنحو من أنحاء الدين، فإني لم أبح لنفسي في ذلك حرية ولا سعة، وإنما التزمت ما التزمه المتقدمون من أصحاب السيرة والحديث، ورجال الرواية، وعلماء الدين][3].

ولقد خالف الدكتور اتجاهه العام، والذي طالما أعلنه في أكثر من موقف وهو افتتانه بالعقل والتعويل عليه، فإذ به في هذا المُؤَلَّفْ يعمد إلى الأساطير والقصص المخترع فيضمنه كتابه عن حياة النبي ﷺ بدعوى أنه يريد إرضاء العواطف لدى السذج (وهم عامة الناس) الذين يطمئنون إلى ما يرضي خواطرهم ويثير مشاعرهم ولذا فهو يستميح

---

(١) د. سهير القلماوي: ذكرى طه حسين، دار المعارف، سلسلة اقرأ العدد ٣٨٨ سنة ١٩٧٤م، ص١٠٧.

(٢) (٣) طه حسين: على هامش السيرة، المجموعة الكاملة الشركة العالمية للكتاب سنة ١٩٨٥م، ١٠/١، ١٢.

العقلاء عذرًا إذا خاطبهم بما ينكرون، فلذلك عنده تأويل وتعليل بينه بقوله: [وأنا أعلم أن قومًا سيضيقون بهذا الكتاب، لأنهم محدثون يكبرون العقل، ولا يثقون إلا به، ولا يطمئنون إلا إليه وهم لذلك يضيقون بكثير من الأخبار والأحاديث التي لا يسيغها العقل ولا يرضاها، وهم يشكون ويلحّون في الشكوى حين يرون كلف الشعب بهذه الأخبار، وجدّه في طلبها، وحرصه على قراءتها والاستماع لها، وهم يجاهدون في صرف الشعب عن هذه الأخبار والأحاديث، واستنقاذه من سلطانها الخطر المفسد للعقول، هؤلاء سيضيقون بهذا الكتاب بعض الشيء لأنهم سيقرؤون فيه طائفة من هذه الأخبار والأحاديث التي نصبوا أنفسهم لحربها ومحوها في نفوس الناس، وأحب أن يعلم هؤلاء أن العقل ليس كل شيء وأن للناس ملكات أخرى ليست أقل حاجة إلى الغذاء والرضا من العقل، وأن هذه الأخبار والأحاديث إذا لم يطمئن إليها العقل ولم يرضها المنطق، ولم تستقم لها أساليب التفكير العلمي، فإن في قلوب الناس وشعورهم وعواطفهم وخيالهم ميل إلى السذاجة، واستراحتهم إليها من جهد الحياة وعنائها، ما يحبب إليهم هذه الأخبار ويرغبهم فيها ويدفعهم إلى أن يلتمسوا عندها الترفيه على النفس حين تشق عليهم الحياة، وفرق عظيم بين من يتحدث بهذه الأخبار إلى العقل على أنها حقائق يقرها العلم وتستقيم لها مناهج البحث، ومن يقدمها إلى القلب والشعور على أنها مثيرة لعواطف الخير، صارفة عن بواعث الشر، معينة على إنفاق الوقت واحتمال الحياة وتكاليف العيش][1].

وهذا الكلام من الدكتور من الخطورة بمكان إذ يدل على نظرته

(١) د. طه حسين: على هامش السيرة: المجموعة الكاملة ١١/١، ١٢.

للدين وأنه من وجهة نظره مخدر للعواطف والمشاعر وأن هذه النصوص - نصوص السيرة وغيرها من النصوص الدينية - مما تأباه العقول وترفض الخضوع له وكأني به يقول: إن الدين يرضي حاجات السذج من الناس، لأن قوامه الأساطير والخيالات من الأشياء التي يستحيل تطبيقها في واقع الناس.

يقول أحد الكتاب المفتونين بالدكتور وبكتاباته:

[أَحَبَ الدكتور أن يقدم إلى قراء العربية صورًا رائعة من الأساطير العربية التي لا تقل في روعتها وأثرها عن الأساطير اليونانية، فكان لنا كتابه «على هامش السيرة» وهو صفحات مشرقة من تاريخنا القديم بل هو صورة رائعة قوية كانت مدفونة في بطون كتب السيرة فجلاها بأسلوبه الأخاذ، وإذا هي آيات من الأدب الأسطوري الجميل][1].

وتضمين الدكتور كتابه بالأساطير اتجاه غير سديد أنكره عليه العلماء والمثقفون، لأنه يشكك القراء ويزعزع ثقتهم في أعز ما لديهم بعد كتاب الله وسُنَّة نبيه، وهي سيرة نبيهم التي تمثل الواقع العملي لفهم الكتاب والسُّنَّة.

الدكتور يحاكي المستشرقين:

يقول الدكتور طه حسين في كتاب «الإسلام والغرب» الصادر عام ١٩٤٦م في باريس: [ويتحتم أن نعترف بأن كتابين فرنسيين كانا بمثابة الشرارتين اللتين أشعلتا موقدين مختلفين، أحد الكتابين لجيل لوميتر[2]

(١) سامي الكيالي: مع طه حسين، ص٨٢، ٨٣.
(٢) لوميتر لم أستدل على ترجمته.

وعنوانه: على هامش الكتب القديمة، والثاني: «حياة محمد» لإميل درمنجم[1].

أما كتاب جيل لومتير فإني بعد أن شغفت به كثيرًا وضعت في نفسي الأسئلة الآتية:

هل يمكن إعادة كتابة مآثر الفترة البطولية في تاريخ الإسلام في أسلوب جديد أم يتعذر ذلك؟ وهل تصلح اللغة العربية لإحياء هذه المآثر؟

لقد حاولت أن أقص (بعض الأساطير) المتصلة بالفترة التي سبقت ظهور النبي ﷺ، ثم قصص مولده وطفولته ونشرت هذه السلسلة تحت عنوان مقتبس من جيل لوميتر وهو: «على هامش السيرة».

وهذا الكتاب من عمل المخيلة... اعتمدت فيه على جوهر بعض الأساطير، ثم أعطيت نفسي حرية كبيرة في أن أشرح الأحداث، وأخترع الإطار الذي يتحدث عن قرب إلى العقول الحديثة، مع الاحتفاظ بالطابع القديم.

هذا ما كشف عنه الدكتور طه حسين بعد سنوات طويلة من ظهور كتابه «على هامش السيرة» حين كان يتحدث إلى المستشرقين في أول مؤتمر للحوار بين المسيحية والإسلام][2].

ويصرح الأستاذ عبدالله كنون أن على هامش السيرة وُضع على

---

(١) أميل درمنجم: مستشرق فرنسي ـ له مؤلفات كثيرة في الإسلاميات أشهرها حياة محمد، شغل مدير مكتبة الجزائر. راجع: المستشرقون ٣٤٨/١.

(٢) أنور الجندي ـ محاكمة فكر طه حسين، ص١٨٣، ١٨٤.

نمط كتاب غربي كتبه «ألفريد أورشيم» الأستاذ بجامعة أكسفورد تحت عنوان: على هامش سيرة المسيح[1].

ومقالة الأستاذ كنون بعد مقالة الدكتور طه تدل دلالة واضحة على أن الدكتور اقتفى أثر المستشرقين في تناوله لحياة الرسول ﷺ.

النقد الموجه لكتاب على هامش السيرة:

يستطيع كل قارئ منصف لهذا الكتاب أن يخرج من قراءته بعدة أحكام لا تقبل الشك، بل هي محل إجماع عند كثير من العلماء.

أولها: أن هذا الكتاب الذي يؤرخ به لحياة الرسول ﷺ لم يحقق شيئًا مما كتب من أجله، [فهو من خلال ثلاثة أجزاء لم يعرفنا بمحمد النبي، بل إننا لم نكد نلمسه أو نعرفه إلا من خلال الشخصيات الثانوية!

فلماذا لم يصور شخصية النبي ﷺ بأبعادها؟ وأين التصوير لذلك الصمود البطل في وجه القوى المعادية؟ وأين معالم حياته الخاصة؟][2].

ثانيها: التوسع والاستطراد في الحديث عن تاريخ المسيحية والصراع بينها وبين اليهودية، كما أنه عني عناية كبيرة بالتاريخ اليوناني والروماني على نحو لا يفهم منه إلا أنه خلط بين المسائل خلطًا شديدًا أراد من ورائه أن يوجد وجهًا من التشابه بين الإسلام وبين الأديان السابقة عليه.

ثالثها: [عدم العدالة في توزيع الاهتمام فبينما هو قد أطال وأطال

---

(١) أنور الجندي ـ محاكمة فكر طه حسين، ص١٨٣.

(٢) دكتورة رشيدة مهران: طه حسين بين السيرة والترجمة الذاتية، ص١١٢ بتصرف.

في بعض الأجزاء نراه قد أوجز كل الإيجاز في أجزاء أخرى برغم أهميتها][1].

فمثلاً يفرد قرابة العشرين صفحة للحديث عن راهب الإسكندرية، وما كان لدى الرهبان من علم ببعثة نبي من العرب وحين يدخل في صميم السيرة والحديث عن حياة النبي يختزل مرحلة كبيرة من حياته في بعض صفحات ربما لا تجاوز أصابع اليد الواحدة فيكتفي بالإشارة السريعة الخاطفة بداية من جهر النبي ﷺ بالدعوة حتى تهيؤه لغزوة بدر، ثم مروره بالأحداث بعد ذلك مرورًا سريعًا الأمر الذي أحدث نوعًا من الخلل في التوازن في مؤلفه الذي أطنب فيما لا ينبغي الإطناب فيه وأوجز فيما يستحق الإسهاب فيه.

رابعها: أعطى الدكتور طه للشياطين اهتمامًا كبيرًا في مؤلفه وتوسع في الحديث عنهم وجسد شخصياتهم (ومنحهم سمات الأبطال الذين يؤدون دورًا بارزًا في أمور الكون ومجرياته)[2].

خامسها: [أنه قد ركز كل القوى المناوئة لمحمد ﷺ في شخصية واحدة هي شخصية أبي جهل!؛ ألم يكن هناك معارضة لمحمد إلا من جانب عمرو بن هشام؟ إن هذا ليضعف من صورة المعارضة وهو يختزلها في شخص واحد.

ألم تعارضه أمة بأسرها في بادئ الأمر، ألم يتآمر عليه جميعهم، خاصة سادتهم وأغنياءهم؟ ألم يقاس ويعان؟ أليس هو القائل بعد ما رأى من عنف المقاومة «**اللَّهم إليك أشكو ضعف قوتي. . . . إن لم**

---

(١) المصدر السابق، ص١١٣.

(٢) د. جمال عبد الهادي: الزور والبهتان فيما كتبه طه حسين في الشيخان، ص٨٦.

يكن بك غضب علي فلا أبالي»؟[1] أكل هذا من أجل عداوة واحدة هي عداوة أبي جهل وشيطانه الكريه][2].

سادسها: بالرغم من ندرة الصفحات التي خصصها طه حسين للحديث عن الرسول ﷺ وسيرته، فقد جاءت هذه الصفحات محشوة بالمغالطات والتناقضات[3].

ولعل أبرز مثال على ذلك حين تحدث الدكتور عن إلغاء الإسلام لعادة التبني وما كان من زواج النبي ﷺ بالسيدة زينب بنت جحش[4].

لقد تناول الدكتور القصة كما تناولها أساتذته من المستشرقين يقول الدكتور وهو يحكي القصة:

---

(١) حديث: «**اللَّهم إني أشكو إليك ضعف قوتي...**».
- أورده الهيثمي في مجمع الزوائد برقم (٩٨٥١) باب خروج النبي ﷺ إلى الطائف وعرض نفسه على القبائل.
- وعلق الهيثمي عليه بقوله: رواه الطبراني وفيه ابن إسحاق وهو مدلس ثقة، وبقية رجاله ثقات.
- انظر: الحافظ نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي: بغية الرائد في تحقيق مجمع الزوائد ومنبع الفوائد.
تحقيق: عبدالله محمد الدرويش، دار الفكر، بيروت ط سنة ١٤١٤هـ/١٩٩٤م، ٣٨/٦.

(٢) د. رشيدة مهران: طه حسين بين السيرة والترجمة الذاتية، ص١١٤.

(٣) أنور الجندي: محاكمة فكر طه حسين، ص١٨٧؛ د. عبد الهادي: الزور والبهتان فيما كتبه طه حسين في الشيخان، ص٨٨.

(٤) زينب بنت جحش: (٣٢ق.هـ/٥٨٩م/٢٠هـ - ٦٤١م) من أمهات المؤمنين، ابنة عمة النبي ﷺ تزوجها بعد أن طلقها زيد بن حارثة وبعد زواجه (عليه الصلاة والسلام) من أم سلمة كانت من المهاجرين الأولين إلى المدينة. المعجم الإسلامي، ص٣٠٦.

[ولكن الله يريد أن يُلغى نظام التبني هذا، وأن يردَّ الناس إلى أنسابهم، وأن يَدْعوا الأبناء لآبائهم وإذا هو يمتحن في ذلك نبيه، ويمتحن في ذلك زيدًا، ويمتحن في ذلك المؤمنين الصادقين جميعًا. يُلقي في قلب النبي حب زينب زوج زيد ويلقي في قلب زيد الانصراف عن زينب والنفور منها.

وهذه نفس محمد مضطربة أشد الاضطراب، ممتنعة أشد الامتناع واجمة أشد الوجوم، ترفض هذا الحب رفضًا، وتزور عنه ازورارًا وإذا هي تنكره حتى على نفسها ولكن الله يبدي ما تخفي، ويُعرِّف الناس ما تُنكره، وإذا زيد يريد أن يطلق امرأته والنبي ينهاه ويزجره ويحذره، ولكن الله بالغ أمره وممض إرادته ومتم حكمته][1] فوجه الخطأ في كلام الدكتور أنه فسر ما أضمره النبي في نفسه.

حين حكى الله حاله بقوله: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾[2].

فسره بأنه الحب وقع في قلبه!

والدكتور يعلم أن جمهرة المفسرين[3] من المسلمين ممن عنوا بكتاب الله فسروا معنى الآية الكريمة: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ بما كان من إعلام الله لنبيه ﷺ من أن زينب ستكون له زوجه،

---

(١) طه حسين على هامش السيرة ـ المجموعة الكاملة ٣/٥٥٠.

(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٣٧.

(٣) راجع: العلامة علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم البغدادي الصوفي المعروف بالخازن، لباب التأويل في معاني التنزيل ٣/٦٠٨؛ أبو عبدالله محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان الأندلسي الغرناطي الحيان: التفسير الكبير المسمى البحر المحيط ٧/٢٣٤.

[وهذا هو الأولى والأليق بحال الأنبياء وهو مطابق للتلاوة، لأن الله تعالى أعلم أنه يبدي ويظهر ما أخفاه، ولم يظهر (سبحانه وتعالى) غير تزويجها منه فقال تعالى: ﴿زَوَّجْنَاكَهَا﴾ فلو كان الذي أضمره رسول الله ﷺ محبتها أو إرادة طلاقها لكان يظهر ذلك؛ لأنه لا يجوز أن يخبر أنه يُظهره ثم يُكنّه ولا يظهره][1].

لكن الدكتور يساير المستشرقين فيرى رأيهم ويقول بتأويلهم، وإن كان الدكتور أعف حديثًا وأقصد مقالاً.

أقوال المستشرقين في زواج النبي ﷺ من السيدة زينب:

جاء في دائرة المعارف الإسلامية: وفي العام الرابع من الهجرة رأى النبي زينب وكان قد استدعاه زيد إلى بيته، فأعجب بها وأحبها وطلقها زيد ليتزوج منها النبي][2].

ويقول المستشرق الأمريكي واشنطن أرفنج[3]: [ولما كانت زينب في البيت، فقد كانت لا تضع الخمار على وجهها، ووقعت أنظار محمد على جمالها الفاتن، وبدا عليه علامات إعجابه بجمالها، ولما عاد زيد قصت زينب عليه القصة، وعلم زيد بإعجاب محمد بجمال زينب فهرع إلى محمد يعرض عليه رغبته في طلاق زينب...][4].

---

(١) الخازن: لباب التأويل في معاني التنزيل ٦٠٩/٣.

(٢) دائرة المعارف الإسلامية ٢٨/١١.

(٣) واشنطن أرفنج ـ مستشرق أمريكي ـ من آثاره: سيرة النبي العربي مذيلة بخاتمة لقواعد الإسلام ومصادرها الدينية ١٨٤٩، وله فتح غرناطة إسبانية في نحو ٦٥٠ صفحة ١٨٥٩. العقيقي: المستشرقون ١٣١/٣.

(٤) واشنطن أرفنج: حياة محمد ترجمة وتعليق د. علي حسني الخربوطلي، ط٢ بدون ت، دار المعارف، القاهرة، ص١٧٧، ١٧٨.

ويقول إميل درمنجم[1]: [ودخل محمد ذات يوم بيت زيد بن حارثة بعد الفراغ من غزوة بني النضير... وكان زيد في ذلك اليوم غائبًا عن بيته، فوجد محمد نفسه تجاه زوجة زيد زينب بنت جحش التي كانت أجمل فتيات قومها، وكانت زينب هذه آنئذ سافرة، وشبه عارية، وعاملة على زينتها وإدارة بيتها، فأثر هذا الجمال السافر الغض الفياض في نفس النبي فقال: سبحان مقلب القلوب.... قصت زينب ما رأت على زوجها زيد فارتبك كثيرًا...][2].

ولا أريد أن أكثر من أقوالهم في هذا فكلهم يحاكي بعضهم بعضًا، وكلهم أطلق لخياله العنان ليتكلم عن رسول الله بأهواء نفسه، وليفتروا عليه ما نزهه الله منه[3].

ومن القضايا المتعلقة بالسيرة النبوية والتي خالف الدكتور فيها إجماع المسلمين موقفه من معراج النبي ﷺ.

إنكار طه حسين معراج النبي ﷺ:

(وفي مساء يوم السبت ١٩٦٨/١٢/١٤م زار الشيخ محمود أبو

---

(١) سبق ترجمته، ص٢٧١.

(٢) إميل درمنجم: حياة محمد، ص٣٠٠، ٣٠٢ نقلاً عن ناصر محمد السيد إسماعيل: دوافع الاستشراق وموازين البحث عند المستشرقين بين الماضي والحاضر ـ رسالة ماجستير ـ كلية الدعوة الإسلامية ـ قسم الأديان والمذاهب المعاصرة، ص٢٧٢.

(٣) لم أرد التعرض لقصة زواج النبي من السيدة زينب بشيء من التفصيل؛ لأن كثيرًا من الدراسات السابقة قد توافرت على هذا وقالوا فيها بما ليس بعده من جديد، وكذلك في الرد على مهاترات المستشرقين في هذا الشأن، راجع رسالة الماجستير [دوافع....] للباحث ناصر محمد السيد، المدرس المساعد بكلية الدعوة، ص٢٧٠، ٢٧٥.

رية[1] الدكتور طه حسين وتحدث معه حول الحديث النبوي الشريف وما أثاره الأزهر حول كتاب الشيخ أبو رية: «أضواء على السُّنَّة المحمدية» فقد حملوا عليه حملة شديدة، واتهموا الشيخ بأنه يسعى للتشكيك في السُّنَّة النبوية، وهنا قال العميد: أعتقد أن قصة المعراج موضوعة أما قصة الإسراء فقد جاءت في القرآن الكريم، وأيد الشيخ أبو رية العميد في رأيه وأضاف إليه: إن من دلائل وضع قصة المعراج اختلاف الروايات في ذكر أسماء الأنبياء في كل سماء، وحكاية عودة الرسول إلى ربه أكثر من مرة ليسأله التخفيف عن أمته في الصلاة)[2].

وهذا الكلام من الدكتور طه حسين وصاحبه الشيخ أبي رية يدل على عدم فهمهما الجيد للآيات القرآنية التي تناولت ذكر الإسراء والمعراج فآية الإسراء: ﴿سُبْحَانَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾ الآية[3].

[فيها تصريح بالإسراء وأنه كان من المسجد الحرام بمكة إلى المسجد الأقصى بالقدس، وفي الإسراء في قوله: ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾ إشارة إلى المعراج بعد التصريح بالإسراء إذ المعراج تم معه في رحلة واحدة كما بينت ذلك الأحاديث الصحيحة.

وفي قوله تعالى من سورة النجم: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٨﴾﴾[4].

---

(١) سبق التعريف به، ص٢٠٣.

(٢) د. محمد الدسوقي: أيام مع طه حسين، ص٧١، ١١٩.

(٣) سورة الإسراء، الآية: ١.

(٤) سورة النجم، الآيات: ١٣ ـ ١٨.

تصريح بالمعراج ووصول الرسول ﷺ فيه إلى سدرة المنتهى عند جنة المأوى وفي الملكوت الأعلى.

وما في الآيات من إجمال لحادثة الإسراء والمعراج فقد بينته السُّنَّة وفصلته أيما تفصيل إذ أغلب كتب الصحاح والمسانيد قد روت حادثة الإسراء والمعراج مفصلة](١).

فإنكار المعراج بزعم أن القرآن لم يصرح به مردود عليهم، ولو سلمنا أن القرآن لم ينص ولم يصرح بالمعراج فهل يعد ذلك دليلاً لإنكاره ولِمَ يشكك الدكتور وصاحبه في السُّنَّة جميعًا دون تمييز بين الصحيح وغيره.

موقف المستشرقين من المعراج:

تباينت مواقف المستشرقين من المعراج إثباتًا ونفيًا فبينما نجد مستشرقًا مثل «درمنجم» يثبت الإسراء والمعراج كلاهما غير أنه أتى بحشد هائل من الروايات فيها كثير من المكذوب والموضوع من مثل قوله وهو يصف المعراج: (وكان في السماء السابعة مقر أهل العدل ملك أكبر من الأرض كلها، له سبعون ألف رأس، في كل رأس سبعون ألف فم، في كل فم سبعون ألف لهجة، وكلها تسبح بحمد الله وتقدس له)(٢).

وواضح من سياق الكلام ما فيه من المبالغة والتزيد؛ نجد

---

(١) الشيخ أبو بكر الجزائري: عقيدة المؤمن، مكتبة الدعوة بالأزهر. ب. ت، ص٢٠٦.

(٢) د. محمد حسين هيكل: حياة محمد. الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ مكتبة الأسرة ٢٠٠، ص٢٠٤.

مستشرقًا آخر كـ«غوستاف لوبون» يكتفي بتقرير معتقد المسلمين بصيغة تشعر بعدم رضاه بهذه العقيدة، فقد قال في سياق استعراض المعجزات والخوارق التي أُيد بها رسول الله ﷺ: «فإنه أُثبت للمسلمين الصالحين أنه أسري بمحمد ليلاً على ظهر حيوان خيالي يسمى البراق، والبراق دابة مجنحة لها وجه المرأة وجسم الفرس وذنب الطاووس، ويعتقد المسلمون أن محمدًا اخترق السماوات السبع في معراجه حتى بلغ عرش الإله»[1].

وعلى الرغم من أن لوبون يقرر واقعًا إلا أنه لم يكن أمينًا في وصفه، إذ ترك لخياله العنان حتى إنه جعل للبراق وجه امرأة وجسم الفرس وذنب الطاووس ووصف البراق بداية أنه حيوان خيالي.

وإذا كان هؤلاء المستشرقين يثبتون رحلة الإسراء والمعراج ـ برغم ما يشوب هذا الإثبات من شوائب ـ فإن مستشرقين آخرين ينكرون الحادثة إنكارًا مطلقًا.

[فواحد كـ«موير»[2] قد أنكرها ووصفها بأنها محض خيال، وآخر كـ«مونتجمري وات» قد سكت عنها، وثالث: «رودنسون»[3] لم يتطرق إليها ولكنه أشار إليها في معرض تحليله لطبيعة الوحي عندما أشار إلى أن الرسول كان في أثناء تطبيقه لدرجات الصوفية قد تعدى المراحل

---

(١) غوستاف لوبون: حضارة العرب. ترجمة عادل زعيتر، الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ مكتبة الأسرة ٢٠٠٠، ص١١٣.

(٢) موير، السير وليم (١٨١٩ ـ ١٩٠٥) اسكتلندي عُين أمينًا لحكومة الهند (١٨٦٥ ـ ١٨٦٨) ثم اختير رئيسًا لجامعة أدنبرا (١٨٨٥ ـ ١٩٠٢). المستشرقون ٢/٥٩.

(٣) رودنسون، مكسيم مستشرق فرنسي ولد في باريس سنة ١٩١٥م عمل محاضرًا في عدد من الجامعات العربية والأوروبية، من آثاره: محمد، الإسلام والرأسمالية. المستشرقون ١/٣٦٠.

الأولى منها، ولكنه لم يصل إلى الحلول في ذات الله وكان بمكنته فعل ذلك لو انتهز الفرصة المواتية له إبان إسرائه][1].

فإنكار الدكتور طه يشابه إنكار بعض المستشرقين لها وإن اختلفت المبررات.

(١) الدكتور/ساسي سالم الحاج: الظاهرة الاستشراقية وأثرها على الدراسات الإسلامية. مركز دراسات العالم الإسلامي. ط١، سنة ١٩٩٢م، ٣/١٧٠.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

المبحث الثاني

مذهب الدكتور في الأخذ بالسُّنَّة

من مطالعة ما كتبه الدكتور طه عن السُّنَّة صارت لدي قناعة بأن الدكتور ليس من أهل العلم فيها، إنما معرفته بالسُّنَّة معرفة رجل من المثقفين ممن لهم اطلاع واسع، فعرف من خلال اطلاعه بعض الأحاديث، وتباينت مواقفه من الحديث أخذًا وردًا وتصحيحًا وتضعيفًا، وهذا التباين لم يكن على قواعد حديثية متعارف عليها عند أهل الاختصاص، إنما كان العقل والرأي رائده الأول في رد الأحاديث.

وهذه الرؤية عن منزلة الدكتور في الحديث ليس باعثها التجني والادعاء إنما هي تستند على أصول منها: أن الدكتور في تعامله مع السُّنَّة لم يكن تعامل الهادئ المتمعن إنما كان تعامله معها على امتداد حياته تعامل العاجل المسرع الذي يأتي أبوابها فيطرقها طرقًا سريعًا فيأخذ ما عَنَّ له دون تمهل ثم يمضي معولاً على عقله في الفهم والتصحيح والتضعيف والعمل والترك، وكلمات الدكتور وهو يعبر عن نفسه في مراحل الطلب الأولى يدل على ما ذكرناه من كيفية التعامل يقول الدكتور: [وكان الصبي ـ يعني نفسه ـ يجلس إلى جانب ذلك العمود، يعبث بتلك السلسلة، ويسمع للشيخ وهو يُلقي دروسه في

الحديث فيفهم عنه في وضوح وجلاء، ولا يُنكِرُ منه إلا الأسماء التي كانت تَسَّاقطُ على الطلبة يتبع بعضها بعضًا، تسبقها كلمة «حَدَّثَنا» وتفصل بينها كلمة «عن».

وكان الصبي لا يفهم معنى لهذه الأسماء ولا لتتابعها ولا لهذه: «العنعنة» المملة، وكان يتمنى أن تنقطع هذه العنعنة، وأن يصل الشيخ إلى الحديث، فإذا وصل إليه سمعه الصبي ملقيًا إليه نفسه كلها فحفظه وفهمه وأعرض عن تفسير الشيخ؛ لأنه كان يذكره ما كان يسمع في الريف من إمام المسجد ومن ذلك الشيخ الذي كان يعلمه أوليات الفقه][1].

وكلام الدكتور ينص على أنه لم يعن يومًا بدراسة الأسانيد بل كان يضيق بها أشد الضيق، ثم هو يعتمد في فهم الحديث على ذات نفسه لا على شرح أهل الشأن من ذوي الاختصاص، ومن هنا كانت مواقفه البعيدة عن الصواب من رد الأحاديث الصحيحة بالعقل والاستدلال بالروايات الضعيفة على أنها ثابتة لا شك فيها، وتصحيحه للأحاديث بالظن.

متى يؤخذ الحديث عند الدكتور:

شرط الدكتور لأخذ الحديث شروطًا لم يبتدعها إنما قال بها المحدثون من قبل، لكن الدكتور فهمها على محمل لم يفهمه العلماء الأفذاذ من سلف هذه الأمة، أول هذه الشروط:

[أن يعرض الحديث على القرآن فإن كان لا يناقض القرآن في

(١) طه حسين: الأيام، الأعمال الكاملة، المجلد الأول، ص١٧٥.

قليل ولا كثير، ولا يناقض المألوف من سيرة النبي وعمله، أخذ به وإلا وقف فيه][1].

وهذا الكلام سائغ صحيح لا شيء فيه إذا كان يقصد بالتناقض التعارض والمخالفة، بمعنى أن لا يكون في الحديث مخالفة للقرآن أو لسيرة النبي ﷺ، ولكن الدكتور كان من فهمه لهذا الشرط أن رد أحاديث من السُّنَّة؛ لأنها أثبتت أشياء لم يرد لها في القرآن ذكر خاصة الأمور المتعلقة بالغيبيات، كرده للجزء المتعلق بأشراط الساعة من حديث جبريل، وهذا فهم عجيب لم يفهمه أحد من العلماء من هذا الشرط[2].

وإنما كان مفهومهم لمخالفة الحديث للقرآن أن يخالفه مخالفة لا تقبل شيئًا من التأويل وذكروا لذلك أمثلة:

[فمثال مخالفة صريح القرآن الحديث القائل: «ولد الزنا لا يدخل الجنة إلى سبعة أبناء» فإنه مخالف لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[3].

ومثال ما فيه مخالفة لصريح السُّنَّة المتواترة مثل: «**إذا حدثتم عني بحديث يوافق الحق فخذوا به حدثت به أو لم أحدث**» فإنه مخالف للحديث المتواتر: «**من كذب علي متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار**»[4].

ومثال المخالف للقواعد العامة المأخوذة من القرآن والسُّنَّة: «من

---

(١) طه حسين: مرآة الإسلام، ص٢٣٨.

(٢) سأقف مع هذا الحديث وقفة تفصيلية بعد ذلك بحول الله وقوته.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ١٦٤.

(٤) رواه مسلم رقم (٢) في المقدمة، باب تغليظ الكذب على رسول الله ﷺ. راجع صحيح مسلم بشرح النووي ٦٦/١.

ولد له ولد فسماه محمدًا كان هو ومولوده في الجنة» ومثل: «آليت على نفسي ألا أدخل النار من اسمه محمد أو أحمد» فإن هذا مخالف للمقطوع به من أحكام القرآن والسُّنَّة من أن النجاة بالأعمال الصالحة لا بالأسماء والألقاب][1].

والشرط الثاني: [أن يكون الحديث قويًا في لفظه وحسن تمثيله للمعنى مشرقًا في عبارته مما يلائم ما عُرِفَ من فصاحة النبي ﷺ وروعة بيانه][2].

ولكن هذا الميزان الحساس لا يُعطى إلا لرجل خبير بالسُّنَّة كثير الحرص عليها ولا يعطاه كل أحد قال ابن دقيق العيد: [كثيرًا ما يحكمون [يعني المحدثين] بذلك، أي: بالوضع، باعتبار أمور ترجع إلى المروي، وحاصله أنهم لكثرة ممارستهم لألفاظ الحديث حصلت لهم هيئة نفسانية وملكة قوية يعرفون بها ما يجوز أن يكون من ألفاظ النبي وما لا يجوز قال البلقيني[3]: وشاهد هذا أن إنسانًا لو خدم إنسانًا سنين وعرف ما يحب وما يكره فادعى إنسان أنه يكره شيئًا يعلم ذلك أنه يحبه فبمجرد سماعه يبادر إلى تكذيبه][4].

والدكتور في رده لكثير من الأحاديث لم يعول على هذا الشرط إنما كان يبرر الرد بأنه من اختلاق الرواة المتأخرين، أو يعزو اختلاقه

---

(١) د. مصطفى السباعي: السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي ـ المكتب الإسلامي. بيروت، ط٤، ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م، ص٩٩ بتصرف.

(٢) طه حسين: مرآة الإسلام، ص٢٢٢.

(٣) البلقيني (٧٢٤ ـ ٨٠٥هـ/١٣٢٤ ـ ١٤٠٣م) عمر بن رسلان بن نصير، القاهري، الشافعي، محدث حافظ، فقيه، أصولي له مؤلفات كثيرة منها: ترجمان شعب الإيمان، حاشية على الكشاف للزمخشري وغيرها. معجم المؤلفين ٥٥٨/٢.

(٤) د. مصطفى السباعي: السُّنَّة ومكانتها في التشريع، ص٩٨.

إلى الخلافات السياسية بين الشيعة والسُّنَّة أو بين الأمويين والعباسيين من غير ارتكاز على قاعدة اللَّهم إلا تحكيم العقل أو الهوى، ولقد توسع الدكتور في هذا المنحى مع اعتبار المحدثين له[1] حتى رد أحاديث كثيرة جاءت في الصحيحين دون أن تكون له حجة قوية إلا أنه «يشك أعظم الشك» «أو يكاد يقطع» بأنها من اختلاق فريق على آخر، مع أن هذه الكلمات في مجال البحث العلمي لا قيمة لها، ولعل هذا الكلام يقودنا إلى نقطة أصيلة في تعامل الدكتور طه مع السُّنَّة المطهرة وهي نقطة رد الحديث الصحيح بالعقل.

* موقف الدكتور من رد الحديث بالعقل:

للدكتور مواقف كثيرة رد فيها أحاديث وردت في كتب السُّنَّة وخاصة في الصحيحين، دون أن تكون له قواعد يحتكم إليها ولعل الدكتور في ذلك يحاكي بعض أترابه ومعاصريه أمثال الأستاذ أحمد أمين[2] في فجر الإسلام وضحاه بأجزائه الثلاثة، وكذلك أبا رية في كتابه أضواء على السُّنَّة المحمدية، إذ ردا أحاديث كثيرة وردت في أصح كتب السُّنَّة ـ البخاري ومسلم ـ اعتمادًا على تأويلات عقلية أوإن شئت فقل: على أهواء نفسانية.

---

(١) انتبه المحدثون إلى أن من علامات الوضع في المتن. موافقة الحديث لمذهب الراوي كأن يروي رافضي حديثًا في فضائل أهل البيت أو مرجىء حديثاً في الإرجاء، ونبهوا على ذلك.

(٢) أحمد أمين (١٢٩٥ ـ ١٣٧٣هـ/١٨٧٨ ـ ١٩٥٤م) عضو المجمع اللغوي بالقاهرة، تولى القضاء بمصر، ودرّس بكلية الآداب بجامعة القاهرة ورأس لجنة التأليف والترجمة، وأصدر مجلة الثقافة، من آثاره: فجر الإسلام، ضحى الإسلام، ظهر الإسلام، فيض الخاطر وغيرها. معجم المؤلفين ١٠٦/١.

ومسألة تعارض الحديث مع العقل مسألة قديمة تحدث بها بعض المعتزلة أمثال النظام[1]، والجاحظ[2]، وقال بها كثير من المُحْدَثِين، والدكتور طه كان له حظ غير قليل في هذا وهم حين يتشككون في السُّنَّة يتعللون تارة بمخالفة الحديث النبوي للعقل، [وتارة بأنه مخالف للقرآن، وثالثة بأنه كتب في عهد بعيد عن الرسول ﷺ ورابعة بأن بني أمية حرفوا وكتبوا ما راق لهم من الأحاديث النبوية، وكأن السُّنَّة التي بين أيدينا مجموعة من خيال الكتاب أو ملفقة من قصاصين أو مدسوسة على رسول الله ﷺ، وسبب ذلك تصور المعارض والمنتقد حفظه واهتمامه بالعلم مثل أولئك الرجال الأبطال حفاظ سُنة رسول الله ﷺ، ونسي المنتقد أن كتابة السُّنَّة تعتبر في ميزان العقل البشري والعلمي معجزة لا تستطيع الأمم جميعها في الحاضر والمستقبل أن تفعل مثلها، ودقة علماء الجرح والتعديل لدى علماء السُّنَّة في دراسة سند ومتن الحديث النبوي لا تستطيع أي أمة من الأمم في السابق واللاحق أن تأتي بمثله وأن تلتزمه في ميدان التطبيق العملي][3].

ولقد كتب كثير من العلماء في هذا الموضوع وقاموا بتوصيف العقل المراد في دعوى التعارض فقالوا بأنه [مجموع عقول العقلاء من

---

(١) النَّظَّام: إبراهيم بن سيار بن هانىء، متكلم معتزلي، درس في مجلس أبي هذيل العلاف، كان مولعًا بالمناظرة توفي بالبصرة عام (٢٣١هـ/٨٤٥م). المعجم الإسلامي ٦١٦.

(٢) الجاحظ: أبو عثمان عمرو بن بحر (١٧١هـ ـ ٧٨٨م) (٢٥٥هـ ـ ٨٦٨م) فيلسوف عربي، ولد في البصرة آمن بقوة العقل على الاستدلال على كل شيء، من أشهر مؤلفاته: «الحيوان». المعجم الإسلامي ١٩٣.

(٣) محمد نور سويد، هل يجوز إنكار حديث نبوي لمخالفته العقل ـ مقال ـ مجلة الوعي الإسلامي ـ الكويت ـ العدد ٤١٠ شوال ١٤٢٠هـ، ص٥٥.

أهل الاختصاص في المسألة التي يتحدث عنها الحديث النبوي، فإن كان الحديث يتحدث في الطب فإجماع الأطباء يكون هو المقصود بالعقل، وإن كان الحديث النبوي يبحث في التشريع فإجماع علماء التشريع هو المقصود بالعقل][1].

ومن هذا يفهم أن اختلاف أهل الاختصاص لا يقضي بوقف العمل بالحديث أما في حالة الإجماع على أمر يعارض الحديث [فينظر هل هذا الحديث مما يحصل من التجارب البشرية، فإن كان كذلك توقف العمل بالحديث إلى أن تستجد وسائل جديدة تلغي الإجماع السابق، أو يكون لمعنى الحديث النبوي معنى مخالف لإجماع أهل التخصص فيبحث عنه][2].

ومما ينبغي ملاحظته أن العقول تتحول وتتغير فما تنكره العقول اليوم ربما يكون سائغًا مقبولاً في الغد، وكثير مما كان الناس يظنونه في القديم في حكم المستحيل أصبح اليوم واقعًا ملموسًا.

[والذين ينادون بتحكيم العقل في صحة الحديث أو كذبه، لا نراهم يفرقون بين المستحيل وبين المُسْتَغْرَب فيبادرون إلى تكذيب كل ما يبدو غريبًا في عقولهم، وهذا تهور طائش ناتج عن اغترارهم بعقولهم من جهة، ومن اغترارهم بسلطان العقل ومدى صحة حكمه فيما لا يقع تحت سلطانه من جهة أخرى ونحن نرى أن أكثر ما يستندون إليه في تكذيب ما صححه الجمهور، إنما هي أحاديث تتعلق، إما بأخبار الأمم الماضية وإما بالأمور الغيبية][3].

---

(١)(٢) المرجع السابق، ص٥٤.

(٣) مصطفى السباعي: السُّنَّة ومكانتها في التشريع، ص٣٦.

فأما أخبار الأمم الماضية فخلاصة أقوال العلماء في التحديث بما ورد عنهم [أن ما جاء موافقًا لما في شرعنا صدقناه، وجازت روايته، وما جاء مخالفًا لما في شرعنا كذبناه وحرمت روايته إلا لبيان بطلانه، وما سكت عنه شرعنا توقفنا فيه، فلا نحكم عليه بصدق ولا بكذب، وتجوز روايته؛ لأن غالب ما يروى من ذلك راجع إلى القصص والأخبار، لا إلى العقائد والأحكام وروايته ليست إلا مجرد حكاية له كما هو في كتبهم أو كما يحدثون به بصرف النظر عن كونه حقًا أو غير حق][1].

أما الأمور الغيبية فإن كان الحديث صحيحًا فلو أجمعت الدنيا على استحالته، فإننا نقول ونعتقد بحصوله ووقوعه ولو بعد حين، وموقفنا هو موقف أبي بكر الصديق من حادثة الإسراء والمعراج وهو التصديق لإخبار رسول الله ﷺ.

وسنقف بحول الله وقوته فيما بعد مع نماذج من تعامل الدكتور طه حسين مع السُّنَّة، ولم أرد أن استقصي كل ما قاله الدكتور عن السُّنَّة والأحاديث؛ لأن هذا يخرج بالبحث عما أعد له، ثم إنه يؤدي بالبحث إلى الإطالة والتوسع، وفيما ذكرته غنية إن شاء الله ودلالة على منهج الدكتور وكيفية تعامله مع السُّنَّة.

(١) د. محمد السيد حسين الذهبي: الإسرائيليات في التفسير والحديث ـ مجمع البحوث الإسلامية. سلسلة البحوث الإسلامية ـ الكتاب الثاني ـ السنة الثامنة عشرة ١٤٠٧هـ، ص٨٨.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

المبحث الثالث

التشكيك في السُّنَّة ورواتها

دأب الدكتور في حديثه عن الخلفاء الراشدين على التشكيك في الأحاديث والأخبار التي تناولت هذه الفترة، وبنى هذا الشك على أن حب المسلمين لخلفائهم حبًا يكاد يصل لدرجة القداسة هو الذي دفعهم على الكذب لهم كما كذب كثير من الصحابة لرسول الله ﷺ (!!) ونظرًا لخطورة الدعوى كان من الضروري إثبات نصوصها والوقوف عليها ببيان مصداقيتها من عدمها، يقول الدكتور وهو يتحدث عن تاريخ الشيخين - أبي بكر وعمر -: [وأنا بعد ذلك أشك أعظم الشك فيما روي من هذه الأحداث وأكاد أقطع بأن ما كتب من تاريخ هذين الإمامين العظيمين، ومن تاريخ العصر القصير الذي وليا فيه أمور المسلمين أشبه بالقصص منه بتسجيل حقائق الأحداث التي كانت في أيامهما، والتي شقت للإنسانية طريقًا جديدة كل الجدة. فالقدماء قد أكبروا هذين الشيخين الجليلين إكبارًا يوشك أن يكون تقديسًا لهما، ثم أرسلوا أنفسهم على سجيتها في مدحهما والثناء عليهما، وإذا كان من الحق أن النبي ﷺ نفسه قد كذب الناسُ عليه وكان كثير من هذا الكذب مصدره الإكبار والتقديس فلا غرابة في أن يكون إكبار صاحبيه

العظيمين وتقديسهما مصدرًا من مصادر الكذب عليهما أيضًا، والقدماء يقصون الأحداث الكبرى التي كانت في أيامهما كأنهم قد شهدوها ورأوها رأي العين مع أننا نقطع بأن أحدًا منهم لم يشهدها وإنما أرخوا لهذه الأحداث بأخرة][1] وفي موضع آخر من الكتاب نفسه يشكك في أحاديث الرواة التي تناولت اجتماع الصحابة في سقيفة بني ساعدة وما كان من أمرهم فيقول: [ولست أطمئن إلى أكثر ما يرويه الرواة من نصوص الحوار الذي دار بين أبي بكر وصاحبيه - عمر وأبي عبيدة - من جهة، وبين الأنصار أوسهم وخزرجهم من جهة أخرى، فهم يروون هذا الحوار رواية من شهد اجتماع القوم وسمع ما كان فيه من الأحاديث والخطب ثم لم يكتف بالسماع، وإنما سجل ما قيل حرفًا حرفًا بل سجل حركات القوم وإشاراتهم، ولو قد استطاع لسجل نبرات الأصوات، مع أن هذا الحوار وأمثاله لم يدون إلا بأَخَرَةَ، بعد انقضاء عصر الخلفاء الراشدين وصدر من ملك بني أمية، ولم ينتقل هذا الحوار وأمثاله إلى القصاص والمؤرخين مكتوبًا، وإنما نقل إليهم مشافهة، وصنعت فيه الذاكرة صنيعها، وتعرض بعضه للنسيان وبعضه لتغيير اللفظ، وضعت فيه الأهواء السياسية صنيعها أيضًا][2].

وهذا الكلام من الدكتور فيه طعن في السُّنَّة بأسرها لا في الأحداث المتعلقة بحياة الخلفاء الراشدين وما كان فيها فحسب، والتشكيك في السُّنَّة بدعوى أن الصحابة لم يكتبوا وكانوا يعتمدون على ذاكرتهم وأن الكتابة لم تكن إلا في عهود متأخرة كما قال الدكتور من الخطأ المحض، ومن الثابت المعلوم أن الله وهب للسُّنَّة قلوبًا حافظة

---

(١) طه حسين: الشيخان، ص٦، ٧.

(٢) طه حسين: الشيخان، ص٣٤، ٣٥.

ضابطة نقلت حديث رسول الله وأحوال أصحابه بعناية فائقة ودقة متناهية [والتاريخ يروي لنا ما كان يحفظه أبو هريرة وعبدالله بن عمر وأنس بن مالك وعائشة أم المؤمنين التي كانت آية من آيات الذكاء والحفظ، وعبدالله بن عباس الذي اشتهر بسرعة حفظه، حتى إنه كان يحفظ الحديث من مرة واحدة، وقد سمع قصيدة لابن أبي ربيعة[1] عدتها ثمانون بيتًا فحفظها من المرة الأولى وفي الصحابة أمثاله كزيد بن ثابت الذي حفظ معظم القرآن قبل بلوغه، وتعلم لغة اليهود في سبعة عشر يومًا... وفي التابعين نافع مولى عبدالله بن عمر[2] الذي لم يخطئ فيما حفظ وأجمع النقاد على دقة حفظه وفيهم محمد بن سيرين[3]، وسعيد بن المسيب[4]، وابن شهاب الزهري[5] حفاظ عصرهم وغيرهم

---

(١) عمر بن أبي ربيعة: شاعر عربي ولد بمكة عام (٢٣هـ ـ ٦٤٤م) في الليلة التي توفي فيها عمر بن الخطاب، لقب بشاعر الحب والغزل مات عام (٩٣هـ ـ ٧١١م) راجع: المختار من ديوان عمر بن أبي ربيعة. الهيئة المصرية العامة للكتاب، مكتبة الأسرة سنة ١٩٩٩، ص٨، ٩.

(٢) نافع: مولى عبدالله بن عمر كان من أوثق الناس حديثًا، روى عن ابن عمر وأبي هريرة وربيع بنت معوذ وغيرهم، بعثه عمر بن عبد العزيز إلى مصر يعلمهم السنن، مات نافع بالمدينة سنة ١١٧هـ في خلافة هشام بن عبد الملك. راجع: محمد بن سعد: الطبقات الكبرى، دار الفكر، بيروت، ط١ سنة ١٤١٤هـ/١٩٩٤م، ٤/٩٦، ٩٧.

(٣) محمد بن سيرين (٣٣هـ/٦٥٣م ـ ١١٠هـ/٧٢٩م) أبو بكر محمد الأنصاري، فقيه، ومحدث ومفسر، ولد وتوفي في البصرة وكان حجة في تفسير الأحلام. راجع: أشرف طه أبو الدهب: المعجم الإسلامي، ص١٨.

(٤) سعيد بن المسيب (١٥هـ/٦٣٥م ـ ٩٤هـ/٧١٢م) سيد التابعين وأحد فقهاء المدينة السبعة، اشتهر بسعة علمه وفقهه، عمل بالتجارة وتزوج ابنة أبي هريرة ﷺ، قتل على يد الحجاج. راجع: المعجم الإسلامي، ص٣٢٠.

(٥) الزهري: محمد بن شهاب، تابعي من أهل المدينة، أول من دون الحديث ونزل بالشام واستقر بها توفي عام (١٢٤هـ/٧٤٢م) راجع: المعجم الإسلامي، ص٣٠٣.

وفي عهد أتباع التابعين ومن بعدهم فقد كثر الحفاظ كثرة عظيمة واتسع النشاط العلمي حتى إنه ما كانت تخلو مدينة من كبار الحفاظ الذين تشد الرحال إليهم أمثال سفيان الثوري[1]، مالك بن أنس[2]، والبخاري[3]، ومسلم[4]، وسفيان بن عيينة[5]، وأبي حاتم الرازي[6] وغيرهم من أئمة الحديث][7].

ومع هذه القلوب الواعية الصادقة قام القرطاس والقلم بحفظ سُنّة النبي ﷺ، ولم تكن الكتابة في عصور متأخرة كما قال الدكتور وغيره وإنما كانت الكتابة من عهد رسول الله ﷺ [كتب عبدالله بن عمرو بن العاص صحيفته الصادقة بين يديه ﷺ، كما سمح لغيره ممن لا يحفظ بالكتابة كسماحه «لأبي

---

(١) سبق ترجمته، ص٢٤٣.

(٢) مالك بن أنس (٩٣هـ/٧١٢م ـ ١٧٩هـ/٧٩٥م) فقيه وإمام المذهب المالكي، عاش بالمدينة وأشهر آثاره: الموطأ. راجع: المعجم الإسلامي: ٥٢٩.

(٣) البخاري: محمد بن إسماعيل (١٩٤هـ/٨١٠م ـ ٢٥٦هـ/٨٧٠م) إمام من أئمة الحديث ولد ببخارى ودفن بسمرقند، من آثاره: الجامع الصحيح. راجع: المعجم الإسلامي: ١٢٦.

(٤) مسلم: هو مسلم بن الحجاج (٢٠٤هـ/٨١٩م ـ ٢٦١هـ/٨٧٥م) ولد ودفن في نيسابور، أشهر آثاره: صحيح مسلم. راجع: المعجم الإسلامي: ٥٥٨.

(٥) سفيان بن عيينة (١٠٧هـ/٧٢٥م ـ ١٩٦هـ/٨١٢م) كوفي، مكي محدث وفقيه من آثاره تفسير القرآن الكريم. راجع: معجم المؤلفين: ١/٧٧١.

(٦) ابن أبي حاتم: عبد الرحمن بن محمد الرازي (٢٤٠هـ/٨٥٤م ـ ٣٢٧هـ/٩٣٨م) حافظ، ثقة، كان عالمًا بالجرح والتعديل أشهر كتبه: «الجرح والتعديل» وهو من مدينة الري بإيران. راجع: المعجم الإسلامي:، ص١٥، ١٦.

(٧) د. محمد عجاج الخطيب: أبو هريرة راوية الإسلام ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ سلسلة أعلام العرب ١٢٦ ـ طبعة ١٩٨٧، ص٦٠ بتصرف.

شاه»[1] اليمني، كما أن كُتَّاب رسول الله ﷺ كتبوا بين يديه الكريمتين بعض الأحكام إلى أمرائه وولاته في البلدان، وأما ما ورد من نهي عن الكتابة فقد كان خشية التباس القرآن بالسُّنَّة، وخوفًا من أن ينشغل الناس آنذاك عن القرآن الكريم، وقد سمح الرسول لبعض المتقنين بالكتابة كما سمح لمن لا يقدر على الحفظ أن يكتب، ثم أبيحت كتابة الحديث، ولهذا كان كثير من التابعين يكتبون بين يدي الصحابة، كما كان عند بعض الصحابة بعض الصحف التي فيها حديث رسول الله ﷺ][2].

ومع الحفظ والكتابة قام من علماء المسلمين من عنى بالسُّنَّة وتمحيصها ووقفوا جهودهم وأوقاتهم في خدمتها ووقفوا من الكذابين وقفة جادة هتكوا بها أستارهم وأبانوا فيها عوارهم [ولم يفرطوا إطلاقًا في ضرورة التدقيق الذي لا حد له في رواية الأحاديث، فقد وضع القرآن أمامهم أهم قاعدة من قواعد النقد التاريخي في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾[3] وتتمثل هذه القاعدة في أن أخلاق الراوي تعد عاملاً هامًا في الحكم على روايته، وقد أفاد المسلمون إفادة عظيمة من هذه القاعدة وطبقوها على رواة الأحايث النبوية، وقد كان تطبيق هذا المنهج النقدي على رواة الأحاديث هو الذي تطورت عنه

---

(١) أبو شاه: لم تعرف له ترجمة إلا أنه رجل من أهل اليمن. قال النووي في شرح صحيح مسلم ولا يعرف اسم أبي شاه وإنما عرف بكنيته (١٠٩/٩)، أسد الغابة: ١٦٣/٥.

(٢) المرجع السابق، ص٦١.

(٣) سورة الحجرات، الآية: ٦.

بالتدريج قواعد النقد التاريخي][1].

وعلى أساس هذا التدقيق قامت علوم ـ هي بشهادة الأعداء قبل الأصدقاء ـ من أروع علوم الدنيا، قامت لخدمة الحديث النبوي كعلم مصطلح الحديث وعلم الجرح والتعديل الذي يسمى عند العلماء بعلم «ميزان الرجال» [وكذلك عني العلماء الغيورون على السُّنَّة بتأليف كتب عن الوضع والوضاعين والأحاديث الموضوعة والأحاديث المشتهرة على ألسنة العامة وتحديد مراتبها وأصبحت علوم السُّنَّة من أهم وأكثر ما ألف فيه العلماء][2].

إن الغض من هذه الجهود الكبيرة في نقل السُّنَّة بدعوى مثل التي أذاعها الدكتور افتراء عظيم على الله والتاريخ وكان الأجدر به وهو الذي يشيد بالبحث العلمي أن يتبع قواعده وأصوله وأن لا يغفل هذه الجهود العظيمة التي بذلها العلماء في إذاعة سُنَّة النبي ﷺ وأخبار الصحب الكرام.

ولا يكتفي الدكتور بهذه الدعوى التي نال بها من السُّنَّة كلها ـ والتي رددها من قبله كثير من المستشرقين وعلى رأسهم جولدزيهر[3] ـ

---

(١) د. محمود حمدي زقزوق: الإسلام في مواجهة حملات التشكيك ـ وزارة الأوقاف ـ مصر ـ سلسلة قضايا إسلامية العدد ٤٥ ط٢ سنة ١٤١٩هـ، ص٣٦.

(٢) د. عبد الصبور مرزوق: القرآن والرسول ومقولات ظالمة ـ وزارة الأوقاف ـ مصر ـ سلسلة قضايا إسلامية العدد ٣٩ سنة ١٤١٩هـ، ص٥٠.

(٣) راجع: دائرة المعارف الإسلامية ـ المجلد السابع، مادة: حديث، ص٣٣٣. وممن قال بقول د. طه: موريس بوكاي في كتابه «الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة» نقل عنه ذلك د. عبدالله الرحيلي في بحث بعنوان: «مدخل إلى مناقشة شبهات المستشرقين حول تدوين السُّنَّة النبوية» ـ مجلة المنهل العدد ٤٧١ سنة ١٤٠٩هـ، ص٥٩.

بل يعقبها بدعوى أخرى وهي أن أحداث التاريخ الإسلامي مشكوك فيها؛ لأنها من رواية المنتصرين - يعني المسلمين!!

* دعوى الشك في التاريخ:

يقول الدكتور في تقريره لهذه الدعوى وهو يؤرخ لحياة الشيخين: [وقدماء المؤرخين من العرب لم يعرفوا من أمر هذه الأحداث الكبرى إلا ما تناقله الرواة من العرب والموالي، فهم إنما عرفوا تاريخ هذه الأحداث من طريق المنتصرين وحدهم، بل من طريق الذين لم يشهدوا الانتصار بأنفسهم، وإنما نقلت إليهم أنباؤه نقلاً أقل ما يوصف به أنه لم يكن دقيقًا، وهم لم يسمعوا أنباء هذا الانتصار من المنهزمين بين فرس وروم وأمم أخرى شاركتهم في الحرب وشاركتهم في الهزيمة فهم سمعوا صوتًا واحدًا هو الصوت العربي وأيسر ما يجب على المؤرخ المحقق أن يسمع أو يقرأ ما تحدث به أو كتبه المنهزمون والمنتصرون جميعًا][1].

وهذه الدعوى يمكن الرد عليها من وجهين:

الأول: [أن الصوت المنتصر كان ضبطًا في نقله عدلاً في روايته، ونحن نتحدى أن يقدِّم أحد منهجًا في تحقيق الأخبار التاريخية كالمنهج الإسلامي][2].

---

(١) طه حسين: الشيخان، ص٨.

(٢) د. جمال عبد الهادي، د. وفاء محمد رفعت، أ. علي أحمد لبن: الزور والبهتان فيما كتبه طه حسين في الشيخان - دار التوزيع والنشر الإسلامية، دار الوفاء، ب. ت، ص٢٠.

الثاني: أن رواية التاريخ الإسلامي لم تكن وقفًا على المسلمين بل يشارك في ذلك الكثير من اليهود والنصارى ومن أهل الأهواء كالباطنية وغيرهم ممن تستروا بالإسلام وكادوا له بالليل والنهار وأدخلوا في الإسلام ما ليس منه، وألصقوا بسيرة رجاله ما لم يكن فيها ولا من سجية أهلها، حتى تحولت أعظم رسالات الله وأكملها إلى طريقة من الخمول والعطالة والجمود.

ولولا القوة الحيوية الخارقة الكامنة في تعاليم الإسلام التي تنفي كل خبث يعلق بها، ثم جهود العلماء المخلصين الذين عنوا بالتاريخ الإسلامي وتحقيق مسائله، ثم عناية الله من قبل ذلك ومن بعده بهذه الأمة ـ لكادت جهود هؤلاء البطالين تقضي على الإسلام وتعاليمه وتذهب بتاريخ المسلمين الناصع...

وفي الصفحات التالية نماذج من تشكيك الدكتور في السُّنَّة ورواتها.

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

المطلب الأول

شكه في حديث جبريل

حين كان الدكتور يشرح المصطلحات الثلاثة «الإسلام ـ والإيمان ـ والإحسان» في «مرآة الإسلام» استدل ببعض الأحاديث النبوية لإيضاح ما ذهب إليه من معانٍ لهذه المصطلحات، وكان من الأحاديث التي استدل بها حديث جبريل المشهور، وقبل أن يسوق الدكتور الحديث قدم له بقوله ـ: يعقب على حديث سبق استدلاله به من رواية الشيخين عن طلحة بن عبيد الله[1] ـ [ولكن لأبي هريرة حديثًا أجمع من حديث طلحة وإن كنت أخشى أن يكون في آخره شيء من تزيد وقد رواه الشيخان أيضًا قال أبو هريرة: كان النبي ﷺ بارزًا يومًا للناس فأتاه رجل فقال: ما الإيمان؟ قال: «**أن تؤمن بالله وملائكته وبلقائه وبرسله وتؤمن بالبعث**». قال: وما الإسلام؟ قال: «**الإسلام أن تعبد الله ولا**

---

(١) الحديث المراد: ما رواه الشيخان عن طلحة بن عبيد الله قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ من أهل نجد ثائر الرأس يُسمع دوي صوته ولا يُفقه ما يقول حتى دنا فإذا هو يسأل عن الإسلام فقال رسول الله ﷺ: «**خمس صلوات في اليوم والليلة**» فقال: هل عليَّ غيرها؟ قال: «**لا، إلا أن تتطوع**...» الحديث. انظر: الإمام النووي: صحيح مسلم بشرح النووي، باب بيان الصلوات التي هي أحد أركان الإسلام حديث رقم (١١) المجلد الأول، ص٦٦.

تشرك به وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة المفروضة وتصوم رمضان». قال: ما الإحسان؟ قال: «**أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك**» قال: متى الساعة؟ قال: «**ما المسؤول عنها بأعلم من السائل وسأخبرك عن أشراطها، إذا ولدت الأمة ربتها، وإذ تطاول رعاة الإبل البهم**[1] **في البنيان، في خمس لا يعلمهن إلا الله**، ثم تلا النبي ﷺ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾[2] الآية». ثم أدبر فقال: «ردوه» فلم يروا شيئًا. فقال: «**هذا جبريل جاء يعلم الناس دينهم**»[3].

ثم علق الدكتور على الحديث بقوله: [والقسم الأول من الحديث هو الذي يعنينا، لأنه مطابق للقرآن فالإيمان ـ كما وصفه النبي ﷺ ـ هو الذي ذكره الله في الآية المتقدمة من سورة البقرة[4]، وكذلك الإسلام والإحسان، والله عنده علم الساعة ـ ما في ذلك شك ـ لأنه منصوص، فأما أشراطها التي جاءت في الحديث وأن الرجل الذي جاء يسأل النبي كان جبريل أقبل يعلم الناس دينهم فإنا نتركه لأبي هريرة ولمن روى عنه يحملون تبعته][5].

والدكتور في رده للجزء الأخير من الحديث والذي يتعلق بأشراط

---

(١) البهم: جمع بَهْمَة وهي ولد الضأن الذكر والأنثى، وجمع البَهْم بهام، وأولاد المعز سخال فإذا اجتمعا أطلق عليها البَهْم والبهام. قال الخطابي: أراد برعاء الإبل والبهم الأعراب وأصحاب البوادي الذين ينتجعون مواقع الغيث ولا تستقر بهم الدار. النهاية: ١٦٨/١.

(٢) سورة لقمان، الآية: ٣٤.

(٣) الإمام النووي: صحيح مسلم بشرح النووي: فصل أشراط الساعة حديث رقم ٩ المجلد الأول، ص١٦١.

(٤) هي قول الله سبحانه: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

(٥) طه حسين: مرآة الإسلام، ص٢١١، ٢١٢.

الساعة لا يستند على شيء، وكل ما برر به هذا الرد أن الأجزاء الأولى تتفق مع ما جاء في القرآن، والجزء الأخير ليس كذلك.

وهذا وأيم الله من البساطة بمكان بحيث لا يماري فيه أحد فمن البدهيات التي يعلمها كل مسلم أن القرآن لم يستقل ببيان كل شيء في الدين مما يحتاج إليه المسلم، سواء في الاعتقادات أو في العبادات أو في المعاملات، وإنما كانت السُّنَّة بجانب القرآن تمثل الأصل الثاني في التشريع [فما كان في القرآن مجملاً أو مطلقًا أو عامًا، فإن السُّنَّة النبوية القولية منها أو الفعلية تقوم ببيانها، فتقيد مطلقها وتخصص عامها وتفسر مجملها، لذلك كان ولا يزال أثرها عظيمًا في إظهار المراد من الكتاب العزيز الذي ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾[1] وفي إزالة ما يقع في فهمه من شبهة أو خلاف][2].

والعلماء لما تحدثوا عن علاقة السُّنَّة مع القرآن ذكروا لها ثلاثة محاور:

[**أولاً**: ما كان مؤيدًا لأحكام القرآن... موافقًا له من حيث الإجمال والتفصيل، وذلك مثل الأحاديث التي تفيد وجوب الصلاة والزكاة والصيام والحج من غير تعرض لشرائطها وأركانها، فإنها موافقة للآيات التي وردت في ذلك كحديث: «**بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله وإقام الصلاة، وإيتاء**

---

(١) سورة فصلت، الآية: ٤٢.

(٢) د. أحمد محمود كريمة: الاعتداءات الأثيمة على السُّنَّة النبوية القويمة ـ وزارة الأوقاف ـ سلسلة قضايا إسلامية عدد ٥٤، ص٧، ٨ طبعة سنة ١٤٢٠هـ.

الزكاة وصوم رمضان، وحج البيت من استطاع إليه سبيلًا»[1].

فإنه موافق لقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾[2]، ولقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾﴾[3]، ولقوله: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾[4].

ثانيًا: ما كان مبينًا لأحكام القرآن من تقييد مطلق، أو تفصيل مجمل أو تخصيص عام كالأحاديث التي فصلت أحكام الصلاة والصيام والزكاة والحج والبيوع والمعاملات التي وردت مجملة في القرآن وهذا القسم أغلب ما في السُّنَّة وأكثرها ورودًا.

ثالثًا: ما دل على حكم سكت عنه القرآن، فلم يوجبه ولم ينفه كالأحاديث التي أثبتت حرمة الجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها، وأحكام الشفعة، ورجم الزنى المحصن وغير ذلك.

ولا نزاع بين العلماء في القسمين الأولين ـ أي: في ورودها وثبوت أحكامها وكونهما الغالب على أحاديث السُّنَّة ـ إنما اختلفوا في الثالث ـ أي: الذي أثبت أحكامًا لم يثبتها القرآن ولم ينفها ـ بأي طريق كان ذلك؟ أعن طريق الاستقلال بإثبات أحكام جديدة؟ أم عن طريق

---

(١) البخاري في الإيمان: باب قول النبي: «**بني الإسلام على خمس**» ٤٧/١، ومسلم فيه: باب أركان الإسلام رقم (١٦)، والترمذي فيه باب بني الإسلام على خمس رقم ٢٧٣٦ ـ راجع جامع الأصول في أحاديث الرسول ـ لابن الأثير الجزري ـ المكتبة التجارية ـ مصطفى أحمد الباز، مكة المكرمة ط٢، سنة ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، ٢٠٧/١، ٢٠٨.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٨٣.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٨٣.

(٤) سورة آل عمران، الآية: ٩٧.

دخولها تحت نصوص القرآن ولو بتأويل؟ وذهب صاحب الموافقات وآخرون إلى الثاني، وذهب الجمهور إلى الأول][1].

ولئن أسقطنا الكلام على الجزئية المشار إليها من الحديث، فإنها تقع تحت القسم الثاني من علاقة السُّنَّة بالقرآن، فالقرآن وإن كان قد ذكر أن الساعة وعلمها من الغيب الذي استأثر الله بعلمه، فإنه قد ذكر بعض أشراطها: انشقاق القمر في قوله سبحانه: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١﴾[2]، قال العلماء: [وإنما كان انشقاق القمر شرطًا من أشراط الساعة؛ لأن الله تعالى ذكره مقرونًا بالإخبار باقتراب الساعة فقال تعالى من سورة القمر: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١﴾ الآيات، وقد انشق القمر فعلاً في عهد النبي ﷺ حيث طلبت منه قريش آية تدل على نبوته فدعا الله، وانشق القمر فلقتين على جبل أبي قبيس على مرأى من أهل مكة وهم ينظرون إليه][3].

ومن أشراط الساعة التي تحدث عنها القرآن خروج الدابة التي تكلم الناس وتكون لهم فتنة: ﴿۞ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ۝٨٢﴾[4].

وكذلك الدخان الذي وردت سورة باسمه في القرآن قال سبحانه: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ۝١٠ يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَـٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١١﴾[5].

---

(١) د. مصطفى السباعي: السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي، ص٣٧٩، ٣٨٠ بتصرف.

(٢) سورة القمر، الآية: ١.

(٣) أبو بكر الجزائري: عقيدة المؤمن ـ مكتبة الدعوة ـ ١٤٠٥هـ، ص٢٦١.

(٤) سورة النمل، الآية: ٨٢.

(٥) سورة الدخان، الآية: ١٠، ١١.

وكذلك تحدث القرآن عن خروج يأجوج ومأجوج[1]، ونزول عيسى ابن مريم عليه السلام[2]، وقد انفردت سُنّة النبي ﷺ ببيان بعض الأمارات وهي من ناحية الإحصاء أكثر عددًا من الأمارات التي تحدث عنها القرآن، فإن كان الدكتور يرد ما جاء في الحديث ـ حديث أبي هريرة ـ بدعوى أنه أتى بما لم يأت به القرآن، فإن هذا بالضرورة يقتضي رد كل ما تفردت به السُّنَّة في هذا الشأن! ومن الجدير بالذكر أن السُّنَّة حين ذكرت بعض الأشراط فإنها تفصل مجمل القرآن الذي أخبر بظهور أمارات الساعة قال الله تعالى: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴿١٨﴾﴾[3].

والدكتور حين يرد هذا الجزء من الحديث [غاب عنه أن الرسول ﷺ لا يعلم الغيب بذاته، بمقتضى بشريته ولكن الله يُعلمه بما شاء منه لحكمة يعلمها وهذا ما صرح به القرآن نفسه إذ يقول: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾[4].

وغاب عنه أن دواوين الحديث من الصحاح والسنن والمسانيد والأجزاء وسائر المصنفات ـ حفلت بالكثير الكثير مما أنبأنا به ﷺ عن غيوب مستقبلية مما يدخل تحت عناوين «الفتن» أو «الملاحم» أو «أشراط الساعة» وهي مما تتواتر يقينًا لا يدخله الشك.

---

(١) قال الله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الأنبياء: ٩٦، ٩٧].

(٢) قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا .... وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ [الزخرف: ٥٧ ـ ٦١].

(٣) سورة محمد، الآية: ١٨.

(٤) سورة الجن: الآية: ٢٦، ٢٧.

وغاب عنه أنه ﷺ أخبرنا عن غيوب أخرى تتعلق بالحياة البرزخية والحياة الآخرة وما فيها من الحشر والنشر والموقف والصراط والميزان والحساب والشفاعة وتفاصيل ما في الجنة والنار وكلها مما يدخل في نطاق الغيب. فلم يسعنا إلا أن نقول مع المؤمنين: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾[1][2].

والذي يفهم من كلام الدكتور طه أنه يرد ما جاءت به السُّنَّة مما لم يرد له ذكر في القرآن مع أن الدكتور يصرح في الكتاب نفسه «مرآة الإسلام» بخلاف ذلك فهو يوضح أن السُّنَّة تفردت بتفاصيل العبادات وبيان كيفية الصلاة والصوم والحج وغيرها فكان من قوله: [ولا بد من أن نلاحظ أن بعض أعمال النبي قد وصلت إلينا متواترة لا معنى للشك فيها، فقد علمنا بالتواتر أنه ﷺ كان يصلي الصبح ركعتين والظهر والعصر والعشاء كل منهما أربع ركعات والمغرب ثلاث ركعات، وعلمنا أنه كان يركع مرة في كل ركعة، ويسجد مرتين في كل ركعة، ويجلس بعد كل ركعتين كل هذا في الفرائض المكتوبة، فلا معنى للجدل في ذلك، وعلمنا كذلك ما بين من نصاب الزكاة ما فرض فيها، وعلمنا من القرآن ومن السُّنَّة العملية كيف كان يصوم، وكيف اعتمر وكيف حج فجملة أركان الإسلام ثابتة بالقرآن أولاً وبيان النبي العملي لها ثانيًا، وكثير من أعمال النبي وصل إلينا على نحو يقطع الشك، فقد عرفنا كيف كان يصلي صلاة العيدين، وكيف كان يصلي للاستسقاء ولِمَا يعرض من كسوف الشمس والقمر.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٨٥.

(٢) د. يوسف القرضاوي: المرجعية العليا في الإسلام للقرآن والسُّنَّة، مؤسسة الرسالة ـ بيروت ط٢، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م، ص١٣٨، ١٣٩ بتصرف.

فجملة الأصول وتفصيلها بمعزل عن الشك، وإنما يكثر الشك ويختلف قوة وضعفًا في بعض الفروع وفيما يتصل بالترغيب في الفضائل وفي التنفير من الشر][1].

إني آخذ الرجل بقوله وأسأله: أشراط الساعة التي تنكرها وترد الجزء الذي نص عليها في الحديث من فروع الدين أم من أصوله؟ وإذا لم يكن اليوم الآخر وما يتعلق به من أمور من الأصول فما هي الأصول إذن؟

ثم إن هناك أمر آخر جدير بالالتفات إليه وهو أن الدكتور استدل برواية الشيخين ليطعن على أبي هريرة الذي روى الحديث - وأبو هريرة - هو من هو في صدق حديثه وتحريه فيما يرويه عن رسول الله ﷺ والدكتور يتابع في ذلك نفرًا من المستشرقين نالوا من الصحابي الجليل وأمانته في النقل عن رسول الله ﷺ[2].

ويُعرِض الدكتور عن الرواية التي تفرد بها مسلم؛ لأنها من رواية أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وفيها ذكر لأشراط الساعة وبيان أن السائل لرسول الله ﷺ هو جبريل عليه السلام. يعرض عن هذه الرواية لأنه لم يكن ليجرؤ على اتهام عمر بالكذب وهو الذي طالما مدحه في كثير من كتاباته وأغرق في ذلك حتى يقدمه على البشر جميعًا إلا أولو العزم - على حد تعبيره - ونقطة أخرى في الحديث لم يعرها الدكتور اهتمامًا ولم يأبه لها وهي ورود الحديث عند الشيخين.

---

(١) طه حسين: مرآة الإسلام، ص٢٣٩، ٢٤٠.

(٢) سأقوم بإذن الله بالتعرض لذلك عند الكلام عن حديث الدكتور عن سيدنا أبي هريرة.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

المطلب الثاني

شكه في حديث الكتابة في مرض الرسول ﷺ

ومن الأحاديث التي ردها الدكتور بلا بينة حديث الكتابة في مرض الرسول ﷺ فقد رده لزعمه أنه من تكلف الرواة تأييدًا لنزعاتهم السياسية، يقول الدكتور وهو يقرر ادعاءه: [والرواة يتكثرون في بعض الأحاديث ويختلفون فيما يتكثرون فيه باختلاف نزعاتهم السياسية، فقوم يزعمون أن النبي ﷺ طلب إلى عائشة في مرضه الذي قبض فيه أن تدعو أخاها عبد الرحمن ليكتب لأبي بكر كتابًا لا يختلف الناس معه عليه، ثم عدل عن ذلك وقال: دعيه فلن يختلف الناس على أبي بكر.

وقوم آخرون يزعمون أنه لم يسم أبا بكر ولم يسم عبد الرحمن، وإنما أراد أن يكتب لأصحابه كتابًا لا يضلوا بعده، فاختلف من كان عنده ذلك الوقت من أصحابه، أراد بعضهم أن يكتب، وأبى بعضهم، وقال - وهو عمر فيما يروي -: إن الوجع اشتد برسول الله وعندنا كتاب الله. وقد بينت في غير هذا الموضع أني أشك كل الشك في هذا كله، وأكاد أقطع بأنه مما تكلفته الفرق السياسية بأخرة، ولو قد عزم الله لرسوله على أن يوصي

لأبي بكر أو لغيره لما صرفه عن ذلك أحد][1].

والحديث جاء في الصحيحين ورواية الإمام مسلم [عن عائشة قالت: قال لي رسول الله ﷺ في مرضه: «**ادعي لي أبا بكر أباك وأخاك حتى أكتب كتابًا فإني أخاف أن يتمنى متمن ويقول قائل: أنا أولى ويأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر**»][2].

ورواية البخاري ذكرها ابن تيمية في منهاج السُّنَّة ونصها: [قالت عائشة: وارأساه، فقال رسول الله ﷺ: «**ذاك لو كان وأنا حي فأستغفر لك وأدعو لك**». فقلت: واثكلاه، والله إني لأظنك تحب موتي، فلو كان ذلك لظللت آخر يومك معرسًا ببعض أزواجك فقال ﷺ: «**بل أنا وارأساه، لقد هممت أن أرسل إلى أبي بكر وابنه فأعهد أن يقول القائلون ويتمنى المتمنون، ويأبى الله والمؤمنون**»][3].

أما مقولة عمر التي يتمسك بها الشيعة ويرون [أنه قد تجرأ على الرسول وتحداه، ووقف دون وصيته، ونسب إليه ما نسب عند مرضه][4].

وذلك عندما قال عمر: «إن الرجل ليهجر، حسبنا كتاب الله»

---

(١) طه حسين: الشيخان، ص٢٤، ٢٥، مرآة الإسلام، ص١٣٢، ١٣٣.

(٢) الإمام النووي: صحيح مسلم بشرح الإمام النووي والحديث رقم ٢٣٨٧ المجلد ٥، ١٥٥/١٥.

(٣) راجع: الحافظ أبو عبدالله الذهبي: المنتقى من منهاج الاعتدال في نقض كلام أهل الرفض والاعتزال ـ وهو مختصر منهاج السُّنَّة ـ لابن تيمية ـ تحقيق: محب الدين الخطيب، طبعة الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء، السعودية، ١٤١٣، ص٣٦٢.

(٤) مرتضى الرضوي مع رجال الفكر في القاهرة (من حواره مع د. طه حسين) مطبوعات النجاح بالقاهرة، الطبعة الأولى سنة ١٣٩٤هـ، ص١٥٧.

فيوضحها ابن تيمية رحمه الله بقوله: [وأما عمر فاشتبه عليه هل كان قول رسول الله ﷺ من شدة المرض أو كان من أقواله المعروفة؟ والمرض جائز على الأنبياء، ولهذا قال: ما له أهجر؟ فشك في ذلك وما جزم، والشك يجوز على عمر إذ لا معصوم بعد النبي ﷺ فجوَّز أن يكون كلامه من وجع الحمَّى؛ ولذلك ظن أنه لم يمت حتى تبين أنه قد مات، والنبي ﷺ قد عزم على أن يكتب الكتاب الذي ذكره لعائشة، فلما رأى أن الشك قد وقع علم أن الكتاب لا يرفع الشك فلم يبق فيه فائدة، وعلم أن الله يجمعهم على ما أراد كما قال: «**ويأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر**»][1].

والدكتور في حواره مع مرتضى الرضوي (الشيعي الذي يتوهم أن رسول الله كان يريد أن يوصي لعليّ بالكتابة) يرد على الشيعة عندما ذكر الحديث ـ موضوع البحث ـ بقوله: [حاشا لعمر أن يقول هذا، وهذا الحديث غير صحيح. فأجابه مرتضى: الحديث الذي يوافقك تأخذ به والذي يخالفك ترفضه وتحكم بعدم صحته][2].

والحق ما قال مرتضى ـ وإن خالفناه في استدلاله بالحديث ـ فالدكتور يصحح من الحديث ما يهواه ويرد منه ما لا يهواه أيًا كان مصدر الحديث ودرجة صحته.

الدكتور طه يرد حديثًا آخر في البخاري:

وعند حديث الدكتور عن الفترة ذاتها ـ فترة مرض الرسول ﷺ الذي مات فيه ـ تعرض لحديث العباس مع علي رضي الله عنهما والذي طلب فيه

---

(١) المنتقى من منهاج الاعتدال، ص٣٦٢.

(٢) مع رجال الفكر في القاهرة، ص١٥٧.

العباس من علي أن يسأل رسول الله ﷺ فيمن يكون الأمر من بعده؟ فامتنع علي عن سؤال النبي وقال: والله لئن سألناها رسول الله فمنعناها لا يعطيناها الناس أبدًا والله لا أسألها رسول الله أبدًا.

يعقب الدكتور بعد أن ساق الحديث بمعناه بقوله: [والغريب أن الطبري يروي هذا الحديث من طريقين دون أن ينكر منه شيء مع أن التكلف فيه ظاهر وهو إنما أريد به أن يرد على الشيعة بأن عليًا لم يكن يعلم بأنه وصي النبي ﷺ، وأنه كان يرجو أن تساق الخلافة إليه يومًا وأنه أشفق إن سأل النبي عنها أن ينبئه النبي بأنها ليست في بني هاشم، فيعلم الناس بهذا المنع ثم يرونه دينًا فلا يسمحون لهاشمي أبدًا][1].

وقبل أن يتحدث الدكتور بهذا الحديث مهَّد له بأحاديث سبقته في بيان فضل أبي بكر الصديق رضي الله عنه ثم أتبعها بقوله: [وحب النبي له معروف ـ يعني: أبا بكر ـ أعلنه ﷺ غير مرة، فلا حاجة إذن إلى أن تخترع الأحاديث لإثبات ما لا حاجة إلى إثباته، كالحديث الذي يروى من أن العباس عرف الموت في وجه النبي ﷺ، وكان يعرف الموت في وجوه بني عبد المطلب... وذكر الحديث][2].

فالحديث في نظر الدكتور مخترع... والتكلف فيه ظاهر والحكم لا يستند على قاعدة حديثية وإنما يستند على رأي رآه الدكتور وهو أن مخترعي الحديث يريدون الرد على الشيعة ببيان أنه لم يكن هناك نص على عليّ رضي الله عنه.

---

(١) طه حسين: الشيخان، ص٣٠، ٣١.

(٢) طه حسين: الشيخان، ص٣٠.

والحديث الذي رده الدكتور بسهولة ويسر ثابت في البخاري[1] من رواية عبدالله بن عباس[2] ﷺ: [أن عليًا خرج من عند رسول الله ﷺ في وجعه الذي توفي فيه، فقال الناس: يا أبا حَسَن، كيف أصبح رسول الله ﷺ؟ فقال: أصبح بحمد الله بارئًا، فأخذ بيده العباسُ بن عبد المطلب، فقال: أنت والله بَعد ثلاثٍ عبدُ العَصَا، وإني لأرى رسول الله ﷺ سيُتوفى مِنْ وَجَعِه هذا، إني لأعرف وجوه بني عبد المطلب عند الموت، فاذهب بنا إلى رسول الله ﷺ فَنَسأَلَهُ فيمن هذا الأمر؟ فإن كان فينا علمنا ذلك، وإن كان في غيرنا كَلَّمناهُ فأوصى بنا، فقال علي: أما والله لئن سألناها رسول الله فمنعناها لا يُعطِينَاهَا الناسُ بعدَهُ، وإني والله، لا أسأَلُها رسولَ الله ﷺ].

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

(١) ٤٩/١١ في الاستئذان، باب المعانقة وقول الرجل كيف أصبحت، وفي المغازي، باب مرض النبي ﷺ ووفاته، انظر: فتح الباري ٤٩/١١ ـ ٥٢ قاله الأرناؤوط في تعليقه على الحديث في جامع الأصول في أحاديث الرسول ٨٥/٤.

(٢) للدكتور طه حسين في ابن عباس ﷺ مقال سنعرض له فيما بعد بحول الله وقوته.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

المطلب الثالث

شكه في حديث اختلاف الأمة وافتراقها

ومن الأحاديث التي ردها الدكتور طه حسين وادعى أنها موضوعة مخترعة ـ دون أن يقدم دليلاً على دعواه ـ حديث افتراق الأمة إلى ثلاث وسبعين فرقة، والحديث وإن كان فيه مقال من ناحية السند، واختلف العلماء فيه من ناحية القبول أو الرد، إلا أنه كان لا بد من التعرض له والوقوف عنده، لأن الدكتور تناوله بأسلوب لا ينبغي أن يتناول به حديث رسول الله ﷺ.

لما تحدث الدكتور عن الفرق الإسلامية وتأثرهم بأتباع الديانات الأخرى ونشوء طرق من الجدل والفلسفة والمغالاة في تقدير العقل والافتتان به كانت ـ فيما يرى الدكتور ـ مثار فتنة وباعث فرقة، وفتحت عليهم أبوابًا من الاختلاف لا تنقضي.

شرع بعد ذلك يقرر رأيه بقوله: [ثم لم يكفهم[1] هذا كله فزعم الزاعمون منهم أن النبي ﷺ قد نبأ بهذا الاختلاف، ونبأ بعدد الفرق التي تنشأ في الإسلام، ونبأ بأن فرقة واحدة منها هي الناجية ـ في

(١) يقصد المتكلمين من المسلمين.

الحديث الذي رواه رواتهم ـ وأن سائرها هالك، وذلك كله في الحديث الذي رواه رواتهم، والذي أكاد أقطع بأنه اخترع بأخرة. مهما يكن السند أو الأسانيد التي ركبت له، هو قولهم عن النبي: «ستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة، الناجية منها واحدة والباقون هلكى»، قيل: ومن الناجية؟ قال: «**أهل السُّنَّة والجماعة**». قيل: ومن أهل السُّنَّة والجماعة؟ قال: «ما أنا عليه وأصحابي»](١).

فالدكتور كما هو واضح في كلامه لم يطعن في الحديث بعلة ظاهرة واكتفى بإصدار حكم مطلق ـ أن الحديث من اختراع المتأخرين ـ مهما يكن السند أو الأسانيد التي ركبت عليه. وأرى أن هذا من رد الحديث بالهوى لا بالعقل فالدكتور لم يذكر مبررًا لرد الحديث، وهو حين يحكم على الحديث يطعن في الرواة ويتهمهم بتزييف الحديث على رسول الله ﷺ ولا أدل على ذلك من عبارته الجريئة التي يقول فيها: «مهما يكن السند أو الأسانيد التي ركبت عليه».

وقد حقق الشيخ عبد القادر الأرناؤوط روايات الحديث عند تحقيقه لكتاب «جامع الأصول في أحاديث الرسول» لابن الأثير الجزري فذكر روايات الحديث وحكم على كل رواية منها، وحتى تتم ضرورة البحث أذكر الروايات وتعليق أهل الاختصاص عليها:

* **الرواية الأولى**: عن معاوية بن أبي سفيان قال: قام فينا رسول الله ﷺ فقال: «**ألا إن من كان قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على اثنتين وسبعين ملة، وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين**

(١) طه حسين: مرآة الإسلام، ص٢٧٨، ٢٧٩.

ثنتان وسبعون في النار، وواحدة في الجنة، وهي الجماعة» وزاد (يعني أبا داود) في رواية: «**وإنه سيخرج في أمتي أقوام تتجارى بهم الأهواء، كما يتجارى الكلب**[1] **بصاحبه لا يبقى منه عِرْقٌ ولا مَفْصِل إلا دَخَلَه**» أخرجه أبو داود[2].

* **والرواية الثانية**: عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**تفرقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، أو اثنتين وسبعين، والنصارى مثل ذلك، وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة**» أخرجه الترمذي وفي رواية أبي داود ـ عن أبي هريرة أيضًا ـ قال: «**وتفرقت النصارى على إحدى وسبعين أو اثنتين وسبعين فرقة...**» وذكر الحديث[3].

* **والرواية الثالثة**: عن عبدالله بن عمرو بن العاص ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**ليأتين على أمتي ما أتى على بني إسرائيل حَذْوَ النَّعِلْ بالنَّعْل، حتى إنْ كان منهم من أتى أُمَّهُ علانيةً، ليَكُونَنَّ في أمتي مَنْ يصنع ذلك، وإن بني إسرائيل تفرَّقت على ثنتين وسبعين ملَّةً، وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين ملة، كُلُّها في النار، إلا ملةً واحدةً**»، قالوا:

---

(١) يتجارى الكلب: التجاري، تفاعل من الجري وهو الوقوع في الأهواء الفاسدة والتداعي فيها تشبيهًا بجري الفرس، والكلب داء معروف يعرض للكلب إذا عض حيوانًا عرض له أعراض رديئة فاسدة قاتلة، قاله ابن الأثير في شرح غريب الحديث.

(٢) رقم (٤٥٩٧) في السنة، باب شرح السُّنَّة، ورواه أيضًا أحمد في «المسند» (١٠٢٤)، وإسناده صحيح. قاله الأرناؤوط.

(٣) رواه أبو داود رقم ٤٥٩٦ في السنة، باب شرح السُّنَّة، والترمذي رقم (٢٦٤٢) في الإيمان باب ما جاء في افتراق هذه الأمة وقال الترمذي: حديث أبي هريرة حسن صحيح، وهو كما قال، وفي الباب عن سعد، وعبدالله بن عمرو، وعوف بن مالك. قاله الأرناؤوط.

مَنْ هي يا رسول الله؟ قال: «**مَنْ كان على ما أنا عليه وأصحابي**»[1] أخرجه الترمذي[2].

ولقد تكلم بعض العلماء في هذا الحديث من ناحية الإسناد كالإمام ابن حزم لما ذكره وذكر معه حديث: «**القدرية والمرجئة مجوس هذه الأمة**» عقب بقوله: هذان حديثان لا يصحان أصلاً من طريق الإسناد، وما كان هكذا فليس بحجة عند من يقول بخبر الواحد فكيف من لا يقول به[3].

وتكلم العلماء فيه أيضًا من ناحية المتن يقول د. القرضاوي: في متن هذا الحديث إشكال من حيث إنه جعل هذه الأمة التي بوأها الله منصب الشهادة على الناس... أسوأ من اليهود والنصارى في مجال التفرق والاختلاف، حتى إنهم زادوا في فرقهم على كل اليهود والنصارى.... ثم إن الحديث حكم على فرق الأمة كلها - إلا واحدة

---

(١) راجع: جامع الأصول في أحاديث الرسول ٣٢/١٠ - ٣٤.

(٢) رقم (٢٦٤٣) في الإيمان: باب ما جاء في افتراق هذه الأمة وفي سنده عبد الرحمن بن زياد بن أنعم الإفريقي، وهو ضعيف. أقول: ولكن يشهد له معنى الحديثين اللذين قبله، فهو بهما حسن. قاله الأرناؤوط.
تعريف الحديث الحسن: «هو ما اتصل سنده بنقل العدل الذي خف ضبطه عن مثله إلى منتهاه من غير شذوذ ولا علة» والمقصود من قول الترمذي: حديث حسن صحيح أن للحديث أكثر من إسناد، فالمعنى حسن باعتبار إسناد صحيح باعتبار إسناد آخر، فكأن الترمذي بهذا اللفظ يشير إلى الخلاف بين العلماء في الحكم على هذا الحديث، أو لم يرتجح لديه الحكم بأحدهما. راجع: د. محمود الطحان: تيسير مصطلح الحديث - مكتبة المعارف - الرياض ط٨، ١٤٠٧هـ، ص٤٥، ٤٨ بتصرف.

(٣) ابن حزم: الفصل في الملل والنحل بتحقيق: د. محمد إبراهيم نصر ود. عبد الرحمن عميرة، دار عكاظ، جدة، ٢٩٢/٣.

ـ بأنها في النار، هذا مع ما جاء في فضل هذه الأمة وأنها أمة مرحومة[1].

* توضيح مشكل الحديث:

[الحديث وإن حسنه بعض العلماء كالحافظ ابن حجر، أو صححه بعضهم كشيخ الإسلام ابن تيمية بتعدد طرقه لا يدل على أن هذا الافتراق بهذه الصورة وبهذا العدد، أمر مؤبد ودائم إلى أن تقوم الساعة ويكفي لصدق الحديث أن يوجد هذا في وقت من الأوقات، فقد توجد بعض هذه الفرق، ثم يغلب الحق باطلها فتنقرض ولا تعود أبدًا، وهذا ما حدث بالفعل لكثير من الفرق المنحرفة، فقد هلك بعضها ولم يعد له وجود.

ثم إن الحديث يدل على أن هذه الفرق كلها جزء من أمته ﷺ أعني أمة الإجابة المنسوبة إليه، بدليل قوله: «**تفترق أمتي**» ومعنى هذا أنها ـ برغم بدعتها ـ لم تخرج عن الملة ولم تفصل من جسم الأمة المسلمة وكونها (في النار) لا يعني الخلود فيها كما يخلد الكفار، بل يدخلونها كما يدخلها عصاة الموحدين...][2].

فاكتفاء الدكتور طه حسين بالحكم المطلق بوضع الحديث دون بيان وجه الطعن فيه، محاكاة لموقف المستشرقين الذين حكموا بوضع كثير من الروايات التي تعرضت للخلاف بين المسلمين.

---

(١) د. يوسف القرضاوي: الصحوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم. دار الصحوة، دار الوفاء، ط١، ١٤١١هـ، ص٥٢ بتصرف.

(٢) د. يوسف القرضاوي: الصحوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم، ص٥٤، ٥٥ بتصرف.

يقول جوينبل[1]: [وفي القرون الأولى التي تلت وفاة الرسول ﷺ عظم الخلاف بين المسلمين على جملة من الآراء في مسائل تختلف طبائعها أشد الاختلاف، وعملت كل فرقة على تأييد رأيها على قدر ما تستطيع بقول أو تقرير منسوب إلى النبي، ومن استطاع أن يرد رأيه إلى أثر من آثار النبي فهو على الحق من غير شك ولهذا كثرت الأحاديث الموضوعة المتناقضة أشد التناقض في سنة محمد][2].

وكلام المستشرق على ما فيه من إغراق وتهويل يتوافق مع موقف الدكتور ورده لهذا الحديث.

(١) جوينبل (١٢١٦ ـ ١٢٧٧هـ/١٨٠٢ ـ ١٨٦١م). تيودور ـ فيلم جان. مستشرق هولندي عين مبشرًا بروتستانتيًا في إحدى ضواحي ليدن وتضلع في العربية حتى صار أستاذًا في جامعة ليدن إلى سنة وفاته. خير الدين الزركلي، الأعلام ٢/٩٥.

(٢) دائرة المعارف الإسلامية، مادة: حديث ٧/٣٣٢.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

المطلب الرابع

رده لحديث مراجعة عمر لأبي بكر في حرب المرتدين

ومن الأحاديث الثابتة في كتب السُّنَّة والتي يردها الدكتور بالعقل المجرد حديث مراجعة عمر بن الخطاب ﷺ لأبي بكر الصديق ﷺ في أمر حرب المرتدين وعلل الرد بأنه يكبر عمر أن يقف هذا الموقف ففهم عمر لدينه أعظم من أن يكون هذا حاله، يقول الدكتور بعد أن ذكر القصة وصدرها بقوله: «ويزعم الرواة»: [ولست أقبل هذه القصة بحال، فوجوه المسلمين من أصحاب رسول الله ﷺ أعلم بدينهم من أن يجادلوا أبا بكر في الزكاة، ولم يكن عمر أقلهم علمًا بالإسلام، إلى ما عرف من شدة عمر في الحق، ولم يكن عمر ولا أبو بكر قد عرفا هذا اللون من الجدل الذي ألفه الفقهاء والمتكلمون... والذين يروون هذه الرواية يسيئون إلى أولئك الشيوخ من أصحاب رسول الله، حين يصورونهم من جهة خائفين مشفقين أن يتخطفهم العرب...][1].

ثبوت الحديث: والحديث الذي يرده الدكتور ثابت في كتب السُّنَّة من رواية أبي هريرة ﷺ قال: لما تُوُفِّي النبي ﷺ واستُخْلِفَ أبو بكر

(١) طه حسين: الشيخان، ص٦٠.

بعده، وكفر من كفر من العرب، قال عمر بن الخطاب لأبي بكر: كيف تقاتل الناس، وقد قال رسول الله ﷺ: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فمن قال: لا إله إلا الله، عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله؟**» فقال أبو بكر: والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حق المال، والله لو منعوني عناقًا كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعها. قال عمر: فوالله ما هو إلا أن رأيت الله شرح صدر أبي بكر للقتال فعرفت أنه الحق وفي رواية: «**عقالاً كانوا يؤدونه**» أخرجه الجماعة[1]][2].

أما المنحى العقلي الذي رد به الدكتور الحديث فليس في العقل ما يدفعه ويرده فلقد كان المسلمون حين توفي رسول الله ﷺ كالغنم في الليلة الشاتية المطيرة وأي مصاب أعظم من فقد رسول الله ﷺ وهو قاصمة الظهر ومصيبة العمر كما قال أبو بكر ابن العربي[3] في كتابه

---

(١) رواه البخاري (٢١٧/١٣) في الاعتصام، باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ، وفي الزكاة، باب وجوب الزكاة، وفي استتابة المرتدين، باب قتل من أبى قبول الفرائض، ومسلم رقم (٢٠) في الإيمان، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله محمد رسول الله، والموطأ (٢٦٩/١) في الزكاة باب ما جاء في أخذ الصدقات والتشديد فيها، والترمذي رقم (٢٦١٠) في الإيمان باب ما جاء: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله**»، وأبو داود رقم (١٥٥٦) في الزكاة في فاتحته، والنسائي (١٤/٥) في الزكاة، باب مانع الزكاة.

(٢) ابن الأثير الجزري: جامع الأصول في أحاديث الرسول ٥٥٢/٤، ٥٥٣.

(٣) القاضي أبو بكر ابن العربي (٤٦٨ ـ ٥٤٣هـ) هو محمد بن عبدالله بن محمد بن عبدالله بن أحمد بن العربي. المعافري، ولد ونشأ بأشبيلية كبرى عواصم الأندلس. من آثاره: العواصم من القواصم، أحكام القرآن. من مقدمة العواصم من القواصم، المكتبة العلمية بيروت، سنة ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م، ص١٠ وما بعدها.

العواصم من القواصم[1]، ولقد كان المصاب شديدًا على صحابة النبي ﷺ وأخصهم عمر رضي الله عنه حتى قال ما قال حين أخبروه بوفاة النبي، فليس ببعيد أن يكون عمر رضي الله عنه وهو يراجع أبا بكر في أمر المرتدين ما زال متأثرًا بفقد رسول الله، هذا التأثر الذي حجب عنه الرؤية السديدة وجعله يراجع أبا بكر.

[وأي عيب في أن يراجع الصحابة أبا بكر في قتال مانعي الزكاة، أو لم يكن ارتداد الجزيرة العربية أمرًا مخيفًا؟ ومن حق الصحابة الاجتهاد في الرأي للتخفيف من أهوال فتح جبهات لقتال المرتدين في عدة جبهات في وقت واحد ثم حسم أبو بكر الأمر بعد أن بين لهم أن من يشهد أن لا إله إلا الله لا بد أن يؤدي حق المال وإلا فهو مرتد قد خرج من شهادة أن لا إله إلا الله ولذا فقد انشرح قلب عمر لما انشرح له قلب أبي بكر][2].

وليس في الحديث ما يدعو إلى الفهم الذي خشيه الدكتور وهو أن يظن الناس بالصحابة أنهم ضعفوا وجبنوا عن مواجهة أهل الردة والمانعين للزكاة في طول الجزيرة وعرضها [فما كان لمثل هؤلاء الأبطال الذين تربوا على حب الموت أكثر من حب الحياة أن يتخاذلوا أو يجبنوا ولكن غاية ما في الأمر، أنها كانت مناقشة فقهية حول ما يشير به الحديث الشريف، وما إن أوضح أبو بكر دلالته وأزال عنهم الشبهة التي علقت بأذهانهم في فهمه، حتى استمسكوا بحبل الله جميعًا][3].

---

(١) القاضي أبو بكر ابن العربي: العواصم من القواصم، تحقيق: محب الدين الخطيب ـ المكتبة العلمية ـ بيروت ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م، ص٣٧.

(٢) د. جمال عبد الهادي وآخرون ـ الزور والبهتان فيما كتبه طه حسين في الشيخان، ص٢٣.

(٣) د. حلمي عبد المنعم صابر ـ نظرات في تاريخ الخلفاء الراشدين ـ مطبعة الحسين الإسلامية مصر، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م، ١/١٠٧.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

المطلب الخامس

شكه في حديث الاستسقاء بالعباس رضي الله عنه

ومن الأحاديث التي شكك الدكتور في صحتها رغم وروده في البخاري حديث استسقاء عمر بن الخطاب بالعباس بن عبد المطلب رضي الله عنه والذي رواه أنس، ونصه كما في البخاري: [أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان إذا قحطوا استسقى بالعباس بن عبد المطلب فقال: «اللَّهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا، قال: فيسقون»][1].

علق الدكتور على هذا الحديث بقوله: [ولكني أقطع بأن قصة التوسل بالعباس بن عبد المطلب كذبة تقرب بها الرواة إلى بني العباس، وما كان عمر يستشفع بأحد][2].

والدكتور كعادته لا يأبه للحديث وورود في البخاري حتى يثق في صحته، واعتراضه على الحديث قائم على أمرين:

---

(١) البخاري: صحيح البخاري ـ مطبعة محمد علي صبيح بالأزهر ٣٣/٢ باب الاستسقاء.

(٢) طه حسين: الشيخان، ص١٩٩.

الأول: زعمه أن هذا مما كذبه الرواة تقربًا إلى بني العباس!! ولا أدري أهذا التكذيب لأنس راوي الحديث أم للبخاري الذي أخرجه أم لهما جميعًا.

والأمر الثاني: إكباره لعمر أن يستشفع بأحد.

والحقيقة أن الدكتور في وجه اعتراضه الأول بأن الرواة كذبوا هذا الحديث تقربًا إلى بني العباس أثناء ولايتهم يرسل الكلام إرسالاً بلا بينة ولا دليل، وأولى به وهو الذي يستخدم أسلوب الجزم حين يقول: (ولكني أقطع) أن يكون له شاهد من دليل أو بينة.

والدكتور في هذا الزعم يحاكي المستشرق المشهور جولدزيهر الذي ادعى أن السلطان السياسي للأمويين والعباسيين دفع كثيرًا من الرواة لوضع الأحاديث والانتصار بها لمن يدينون له بالولاء والطاعة[1].

وهذا الذي يقوله المستشرق ويتابعه فيه الدكتور طه من خلط الأمور ولبس الحق بالباطل، فعلماء الجرح والتعديل يقولون بوقوع شيء من هذا وأنهم قاموا حياله بالتفنيد والإيضاح ورد الكذب عن مقام رسول الله ﷺ وشددوا النكير على الكذابين والوضاعين للحديث حتى قال السيوطي[2]: [بل بالغ الشيخ أبو محمد الجويني فجزم بتكفير واضع الحديث][3].

---

(١) راجع: دائرة المعارف الإسلامية ـ المجلد السابع، مادة: حديث، ص٣٣٠ وما بعدها.

(٢) السيوطي هو عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد جلال الدين الخضيري الشافعي ولد سنة ٨٤٩هـ، له تصانيف في شتى العلوم والمعارف وكلها تدل على رسوخ قدمه في العلم، توفي سنة ٩١١هـ، دائرة المعارف الإسلامية ٢٧/١٣.

(٣) انظر تعليق الشيخ أحمد محمد شاكر على مادة حديث في: دائرة المعارف الإسلامية ٣٣٤/٧.

أما راوي الحديث فهو أنس بن مالك بن النضر الذي خدم النبي عشر سنين ودعا له النبي ﷺ بكثرة المال والولد، فولد له من صلبه ثمانون ذكرًا وابنتان، ومات وله من ولده وولد ولده مائة وعشرون ولدًا وقيل: نحو مائة وهو آخر من مات من الصحابة بالبصرة[1].

فهل يجوز لصحابي جليل صحب رسول وخدمه مدة ليست بالقليلة أن يكذب في الحديث وأن يحابي في العلم بنسبة شيء من الفضل لأحد تقربًا إلى أحد من أصحاب السلطان.

ولئن كانت صفحة أنس رضي الله عنه في غاية النزاهة والطهارة، فلقد كان الإمام البخاري على هذا النحو في صدقه وأمانته وتحريه في طلب الحديث عن رسول الله ﷺ وحكاية أحوال الصحابة، حتى قال العلماء: [إنه أمضى في جمع كتابه الصحيح وتمحيصه وتأليفه ستة عشر عامًا، وما وضع فيه حديثًا إلا بعد أن يغتسل ويصلي ركعتين ثم يستخير الله تعالى في وضعه، ولم يخرج فيه إلا ما صح عن رسول الله ﷺ][2].

فكيف يكذب الدكتور الرواة بسهولة ويسر ويتهمهم بالنفاق والمداهنة والتقرب إلى الولاة وغيرهم.

ثم إن الدكتور في وجه الاعتراض الثاني يكبر عمر رضي الله عنه أن يستشفع بأحد، مع أن العلماء لم يروا في هذه الصور ما يشين عمر أو يخدش إيمانه، فعمر استشفع بالعباس وهو حي حاضر يرجى إجابة دعائه والعلماء [يرون من الجائز المشروع أن يقدم المسلمون مؤمنًا

(١) عز الدين بن الأثير الجزري، أسد الغابة في معرفة الصحابة ١/١٧٧.
(٢) د. مصطفى السباعي: السنة ومكانتها في التشريع، ص٤٤٥.

صالحًا يدعو لهم عند الحاجات][1] وهذا أمر لا غرابة فيه بل إن النبي ﷺ سأل عمر أن يدعو له في حياته عندما عزم عمر أن يعتمر قال له النبي ﷺ: «**لا تنسنا يا أخي من صالح دعائك**» وإن كان الدكتور ينظر إلى فضل عمر ويرى أنه ما كان له أن يستشفع بأحد لمنزلته في الإسلام وحسن بلائه في سبيله، ويرى أن العباس دونه في الفضل والبلاء، فقد جانب الصواب وأغرب في النظر فما كان الصحابة على جليل قدرهم يرون أنفسهم في أعمالهم إنما كان شأنهم دائمًا وأبدًا إنكار الذات واتهام النفس بالتقصير وحسبنا ما نعرفه من شأن عمر وقوله الدائم: ليت أم عمر لم تلد عمرًا.

ومع أن كل واحد منهم كان حاله ما أسلفت ينكر ذاته ويتهم نفسه فقد كانوا حسني الظن بإخوانهم ويرون لغيرهم من الفضل ما ليس لأنفسهم.

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

(١) أبو بكر الجزائري: عقيدة المؤمن، ص١١٨.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

المطلب السادس

شكه في أمانة أبي هريرة رضي الله عنه

ومن الدعاوى التي أثارها الدكتور [طه حسين] وشارك فيها [أبا رية] تشكيكه في أمانة الصحابي الجليل سيدنا ـ أبي هريرة ـ رضي الله عنه في نقله عن رسول الله ﷺ إذ ادعى الدكتور ومن قبله أبو رية أن عمر بن الخطاب كان ينذر المكثرين للحديث وروايته بالعقوبة وأنه [قد أنذر أبا هريرة بالضرب والنفي إلى بلاده التي جاء منها؛ لأنه كان يكثر الحديث، فلما نهاه عمر كف عن رواية الحديث ولم يعد إليها إلا بعد وفاة عمر][1].

والحقيقة أن الطعن في السُّنَّة المطهرة بالطعن على رواتها طريق سلكه المستشرقون قديمًا وحديثًا هادفين من ورائه تشكيك الأمة المسلمة فيما جاءها من ميراث النبي ﷺ.

ولعل الطعن في حملة السُّنَّة من الصحابة وأخصهم سيدنا أبي هريرة من الوضوح بمكان في كتابات المستشرقين الذين يقيِّمون

(١) طه حسين: الشيخان، ص٢١٣.

الصحابة وحفظهم بمقاييسهم ويتخذون من إكثارهم للرواية ذريعة لتكذيبهم، فهم لم يستوعبوا أن الله قد وهب لكثير من العرب حافظة قوية حتى كان منهم من يحفظ القصيدة من الطوال من أول مرة تلقى على مسامعه.

يقول جولدزيهر عن أبي هريرة: [وتقدر الأحاديث التي تضاف إليه ـ يعني أبا هريرة ـ بخمسمائة وثلاثة آلاف حديث، ولا ريب أن عددًا كبيرًا منها قد نحل عليه... وقد اختلق الناس قصة[1] تبرر اعتقادهم بعصمة ذاكرته عن الوقوع في الخطأ، تلك الذاكرة التي استطاع أن يستوعب بها عددًا عظيمًا من الأحاديث فقالوا: إن النبي لفه بيده في بردة بسطت بينهما أثناء حديثهما وبذلك ضمن أبو هريرة لنفسه ذاكرة تحفظ كل ما سمع؛ وتروي هذه القصة أيضًا دليلاً على صداقته الوثيقة بالنبي][2] ثم يقول بعد ذلك: [ويظهر أن علمه الواسع بالأحاديث التي كانت تحضره دائمًا قد أثار الشك في نفوس الذين أخذوا عنه مباشرة والذين لم يترددوا في التعبير عن شكوكهم بأسلوب ساخر][3] يثير جولدزيهر هذه الشبهات على أبي هريرة مدفوعًا من يهوديته التي تحمله على النيل من هذا الصحابي الجليل ويأتي الدكتور طه حسين فينسج على منوال المستشرقين ويردد مزاعمهم.

---

(١) جاء في البخاري من رواية أبي هريرة قال: قلت: يا رسول الله إني أسمع منك حديثًا كثيرًا فأنساه فقال: «**ابسط رداءك**»، فبسطه ثم قال: «**ضمه**» فضممته فما نسيت حديثًا بعد، راجع: الحافظ ابن كثير، البداية والنهاية، دار الفكر، بيروت ط١، ١٤١٦هـ/١٩٩٦، ٥/٦٠٥، ٦٠٦.

(٢) دائرة المعارف الإسلامية ١/٤١٨.

(٣) دائرة المعارف الإسلامية م١/٤١٨.

الرد على دعوى الدكتور:

بالنسبة لما أشار إليه الدكتور من تهديد عمر بن الخطاب لأبي هريرة ﷺ فهو يستند إلى رواية ذكرها ابن كثير في البداية والنهاية [عن السائب بن يزيد قال: سمعت عمر بن الخطاب يقول لأبي هريرة: لتتركن الحديث عن رسول الله أو لألحقنك بأرض دوس][1].

علق المعنيون بالسُّنَّة على هذه الرواية بقولهم: إن [نهي عمر لم يكن خاصًا بأبي هريرة بل كان منهاجه خوفًا من الوقوع في الخطأ][2].

واستدلوا بكلام لابن كثير رحمه الله بعد أن أورد الرواية المشار إليها قال فيها: [وهذا محمول من عمر على أنه خشي من الأحاديث التي قد تضعها الناس على غير موضعها، وأنهم يتكلون على ما فيها من أحاديث الرخص، وأن الرجل إذا أكثر من الحديث ربما وقع في أحاديثه بعض الغلظ أو الخطأ فيحملها الناس عنه أو نحو ذلك][3].

يقول ابن كثير: [ونقل إلينا أن عمر أذن له بعد ذلك في التحديث، بعد أن عرف ورعه وخَشيته الخطأ. قال أبو هريرة: بلغ عمر حديثي فأرسل إليَّ فقال: كنت معنا يوم كنا مع رسول الله ﷺ في بيت فلان؟ قال: قلت: نعم. وقد علمتُ لِمَ تسألني عن ذلك؟ قال: ولِمَ سألتك؟ قلت: إن رسول الله ﷺ قال يومئذٍ: «**من كذب علي متعمدًا**

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية ٤١٨/١.

(٢) الحافظ ابن كثير: البداية والنهاية ٦٠٧/٥.

(٣) محمد عجاج الخطيب: أبو هريرة راوية الإسلام، الهيئة المصرية العامة للكتاب، أعلام العرب ١٢٦ طبعة ١٩٨٧، ص٢٧٣.

فليتبوأ مقعده من النار» قال: أما إذًا فاذهب فحدث][1].

فكلام ابن كثير رحمه الله يثبت تحديث أبي هريرة في حياة عمر من غير إنكار عليه.

ويذهب الدكتور «محمد عجاج الخطيب» إلى رد الدعوى بالكلية حيث يقول: [هناك ما يثبت أن عمر لم يكذبه - يعني أبا هريرة - ولم يطعن فيه ولم يهدده بالنفي إلى جبال دوس واستدل على ذلك برواية صحيحة للإمام أحمد وفيها: أن عمر سأل من كان معه في طريق مكة عن الريح عندما اشتدت فلم يجبه أحد وعندما علم أبو هريرة بسؤال أمير المؤمنين استحث راحلته حتى أدركه فقال: يا أمير المؤمنين أخبرت أنك سألت عن الريح وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«الريح من روح الله تأتي بالرحمة، وتأتي بالعذاب، فإذا رأيتموها فلا تسبوها وسلوا الله خيرها، واستعيذوا به من شرها»**[2] [هذه الحادثة تنفي كل ما روي من تكذيب عمر رضي الله عنه لأبي هريرة أو الطعن في حديثه أو تهديده بالنفي من وجهين:

أ - هل يعقل أن يستحث أبو هريرة السير إلى عمر ليحدثه لو كان قد صدر من عمر شيء مما ذُكِر؟ لو كان مثل هذا قد صدر ما حدث أبو هريرة أمير المؤمنين، إذ يكون قد اقتنع بأنه لن يسمع منه بل سيكذبه، وهل يعقل من مثل أبي هريرة أن يضرب بالدرة ويكذب ويهدد بالنفي ثم يرافق الفاروق في حجه؟ هذا بعيد جدًا.

---

(١) الحافظ ابن كثير: البداية والنهاية ٦٠٧/٥ بتصرف.

(٢) الإمام أحمد بن حنبل الشيباني: مسند الإمام أحمد تحقيق: العلامة أحمد محمد شاكر، طبعة دار المعارف بمصر بدون ت. ٦٢/١٤، رقم (٧٦١٩).

ب ـ وأما بالنسبة لعمر ﷺ فلا يمكن أن يهدده أو يكذبه بعد ذلك؛ لأنه عرف حفظه حين نسي أصحابه، أو عرف سماعه حين لم يسمع أصحابه من الرسول ﷺ][1].

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

(١) محمد عجاج الخطيب: أبو هريرة راوية الإسلام، ص٢٧٥، ٢٧٦ بتصرف.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

المطلب السابع

التشكيك في الرواة من الموالي[1]

ومن الشبه التي أثارها الدكتور ليطعن بها في الأحاديث والأخبار التي تناولت الفترة الأخيرة من حياة رسول الله ﷺ واستخلاف أبي بكر ـ بل هي من الشبه التي يطعن بها في السُّنَّة بأسرها ـ أن كثيرًا من الذين عنوا بالسُّنَّة وروايتها كانوا من الموالي الذين ـ على حد تعبير الدكتور ـ [لم تبرأ قلوبهم من الضغن على العرب؛ لأنهم فتحوا بلادهم وأزالوا سلطانهم، ثم استأثروا من دونهم بالأمر أيام بني أمية، وإذا كان الكذب قد كثر على رسول الله ﷺ فأي غرابة في أن يكثر على المؤمنين من أصحابه][2].

قال الدكتور هذا الكلام في معرض تشكيكه في الرواة عمومًا، وأنهم يروون الأحداث رواية دقيقة كأنهم حضروها أو أعظم دقة من

---

(١) الموالي: جمع مولى والمَوْلَى: الرَّبُّ وكل من وَلِي أمرًا أو قام به، والسيِّدُ والعبدُ والتابِعُ والمنْعِمُ والمُنْعَمُ عليه، والقريبُ من العَصَبَة كالعم وابن العم ونحو ذلك. المعجم الوجيز، مادة: ولِي، ص٦٨٢، والمقصود بهم اصطلاحًا هو الشخص المُحَالَف، أو المُعْتَقُ أو الذي أسلم على يد غيره. تيسير مصطلح الحديث، ص٢٣٠.

(٢) طه حسين: الشيخان، ص٣٥.

الذين حضروها وشاركوا فيها ثم يدخل إلى شبهته الجديدة بقوله: «وما ينبغي أن ننسى أن من الرواة من كانوا من الموالي»[1] ثم يذكر عبارته التي نقلناها عنه سابقًا.

وإلقاء الشبهة بهذا الوجه فيه كثير من الإجحاف فمن المعلوم أن معظم الذين اشتغلوا وعنوا بالعلوم الشرعية وأخصها الحديث والتفسير كانوا من الموالي، والتشكيك فيهم جملة هدم للدين وطعن فيه.

ذكر الزهري أن هشام بن عبد الملك[2] قال له: من يسود مكة؟ فقلت: عطاء[3]، قال: فأهل اليمن، قلت: طاوس[4]، قال: فأهل الشام؟ فقلت: مكحول[5]، قال: فأهل مصر؟ قلت: يزيد بن أبي حبيب[6] قال: فأهل الجزيرة؟ فقلت: ميمون بن

---

(١) طه حسين: الشيخان، ص٣٥.

(٢) هشام بن عبد الملك خليفة أموي مكث في الخلافة تسع عشرة سنة وسبعة أشهر وأيام، من أكثر خلفاء بني أمية كفاية، استطاع أن يوطد دعائم الحكم الأموي ويؤخذ عليه إمعانه في الانتقام من العلويين. راجع: حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام ٣٣٣/١، ٣٣٤.

(٣) عطاء: (٢٧هـ/١١٤هـ) هو عطاء بن أبي رباح، المكي، القرشي مولاهم، كان أسود، أعور، أفطس، أشل، أعرج ثم عمي بعد ذلك، أدرك مائتين من الصحابة، كان محدثًا فقيهًا. راجع: محمد حسين الذهبي، التفسير والمفسرون، مكتبة وهبة، مصر. ب. ت ١١٤/١.

(٤) طاوس بن كيسان: سكن اليمن وكان صاحب علم وتقى وكان يعد الحديث حرفًا حرفًا، مات بمكة سنة ١٠٦هـ، وكان له يومئذٍ بضع وتسعون سنة. راجع: محمد بن سعد: الطبقات الكبرى ٢٧٢/٤ وما بعدها.

(٥) مكحول الدمشقي: تابعي تعلم بالمدينة واستقر بدمشق، كان صاحب علم وتقى، توفي سنة ١١٨هـ، راجع: الطبقات الكبرى ٣٨٦/٥.

(٦) يزيد بن أبي حبيب: يكنى أبا رجاء، كان مولى لبني عامر بن لؤي من قريش وكان ثقة كثير الحديث مات سنة ١٢٨هـ في خلافة مروان بن محمد. راجع: الطبقات الكبرى ٤١٨/٥.

مهران[1]، قال: فأهل خراسان؟ قلت: الضحاك بن مزاحم[2]، قال: فأهل البصرة؟ فقلت: الحسن بن أبي الحسن[3]، قال: فأهل الكوفة؟ فقلت: إبراهيم النخعي[4]، وذكر أنه يقول له عند كل واحد: أمن العرب أم من الموالي؟ فيقول: من الموالي، فلما انتهى قال: يا زهري، والله لتسودَنّ الموالي على العرب حتى يُخطَبَ لها على المنابر والعرب تحتها، فقلت: يا أمير المؤمنين، إنما هو أمر الله ودينه فمن حفظه ساد ومن ضيّعه سقط][5].

وكان نبوغ الموالي في العلم؛ لأنهم كانوا أهل حاضرة تهتم بالصنائع ومن جملتها الكتابة والتصنيف وممن ذهب إلى ذلك ابن خلدون في مقدمته[6].

ويضيف الأستاذ أحمد أمين سببًا آخر [وهو أن الصحابة استكثروا من الموالي يستخدمونهم في بيوتهم وأعمالهم فإذا كان الصحابي تاجرًا فمواليه أعوانه في التجارة، وإذا كان عالمًا كانت مواليه تلاميذه وأعوانه في العلم، ومتى كان عندهم حسن استعداد نبغوا فيه بحكم مخالطتهم

---

(١) ميمون بن مهران: تابعي من أهل الجزيرة يكنى أبا أيوب كان ثقة كثير الحديث، مات سنة ١١٧هـ. راجع: الطبقات الكبرى ٤٠٠/٥.

(٢) الضحاك بن مزاحم: تابعي يكنى أبا القاسم، التقى بسعيد بن جبير وأخذ عنه التفسير، مات بخراسان سنة ١٠٥هـ. راجع: الطبقات الكبرى ٤٥/٥.

(٣) الحسن البصري: سبق ترجمته، ص٢٥٦.

(٤) إبراهيم النخعي: تابعي، يكنى أبا عمران كان أعور، رأى أم المؤمنين عائشة وهو صبي حين حج مع عمه، تعلم على محمد بن سيرين بدعَ المرجئة وعاب مذهبهم، مات سنة ٩٦هـ. راجع: الطبقات الكبرى ٢٢/٥.

(٥) أحمد محمد شاكر: الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث، دار الكتب العلمية بيروت، بدون ت، ص٢٤٢.

(٦) نقله عنه الأستاذ/ أحمد أمين في فجر الإسلام، ص٢٤٢، ٢٤٣.

لسادتهم في السر والعلن، وملازمتهم لهم في الإقامة والسفر، ودليلنا على ذلك نافع مولى عبدالله بن عمر فقد أخذ عنه أكثر علمه، ويسمي المحدثون رواية الشافعي عن مالك عن نافع، عن ابن عمر: سلسلة الذهب][1].

ثم إن علماء الحديث لم يهملوا أمر الموالي من الرواة في مصنفاتهم فحين كتبوا في «معرفة الرواة» جعلوا من ذلك مبحثًا خاصًا عنونوه بقولهم: «معرفة الموالي من الرواة والعلماء» بل إنهم لم يكتفوا بالمعرفة المجردة فحسب وإنما ميزوا بين الموالي على اختلاف أنواعهم فذكروا أن أنواع الموالي ثلاثة، وهي:

[أ ـ مولى الحِلْف، مثل: الإمام مالك بن أنس الأصبحي التيمي، فهو أصبحي صَلِيبةً[2]، تيمي بوَلاء الحِلْف وذلك لأن قومه «أَصْبَح» موالي لتيم قريش بالحِلْف.

ب ـ مولى العَتَاقة، مثل: أبو البَخْتَري الطائي التابعي واسمه سعيد بن فيروز، وهو مولى طيء، لأن سيده كان من طيء فأعتقه.

ج ـ مولى الإسلام، مثل: محمد بن إسماعيل البخاري الجُعْفي؛ لأن جده المغيرة كان مجوسيًا فأسلم على يد اليَمَان بن أَخْنَس الجُعْفي، فنُسِبَ إليه][3].

---

(١) أحمد أمين: فجر الإسلام، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مكتبة الأسرة ١٩٩٦م، ص٢٤٦، ٢٤٧.

(٢) صليبة، أي: من صلبهم ونسبهم.

(٣) د. محمود الطحان: تيسير مصطلح الحديث، ص٢٣٠.

وكان من فوائد هذا التدقيق في المعرفة [الأمن من اللَّبْس ومعرفة المنسوب إلى القبيلة نسبًا أو ولاء، ومن ثم ليتميز المنسوب إلى القبيلة ولاء عمن يشاركه في اسمه من تلك القبيلة نسبًا][1].

وبعد هذه الدقة وهذا المنهج العظيم في معرفة الرواة يأتي الدكتور ليرسل الأحكام إرسالاً دون تؤدة أو احتياط فيشكك في أمة بأسرها لرأي رآه.

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

(١) المرجع السابق نفسه.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

المبحث الرابع

قبوله للروايات الضعيفة

لم يتردد الدكتور في إثبات روايات ضعيفة والاستدلال بها على أنها روايات صحيحة مع أن المحدِّثين لم يسكتوا عن تلك الروايات، إلا أن الدكتور قد جعل من الهوى حكمًا في حديث الرسول ﷺ وأخبار أصحابه فما وافق هواه أثبته وإن كان ضعيفًا، وما خالف هواه رده وإن كان في الصحيحين!

فمن الأحاديث الموضوعة التي أثبتها لأنها وافقت هواه، حين كان يستدل على شدة عمر بن الخطاب على نفسه وآل بيته إثباته لقصة أبي شحمة وضرب عمر له حتى الموت.

يقول الدكتور: [وقصة عمر مع ابنه عبد الرحمن الأوسط أبي شحمة معروفة رائعة حقًا، تصدَّق ما كان عمر يوصف به من أنه لم يكن يخاف في الله لومة لائم، فالرواة يتحدثون أن ابنه هذا كان بمصر، وأنه شرب الخمر مع صاحب له، ثم ندما، فأقبلا إلى عمرو بن العاص يطلبان إليه أن يطهرهما بإقامة الحد عليهما، وكره عمرو أن يقيم الحد على ابن أمير المؤمنين بمشهد من الناس فضربه

في صحن داره، وبلغ ذلك عمر، ولم تكن أنباء الأمراء تخفى على عمر، فكتب إلى عمرو يعنفه أشد التعنيف، ويأمره أن يرسل إليه ابنه على قتب[1] ليكون السفر أشق عليه، فأطاع عمرو، وكتب إلى الخليفة يعتذر إليه ويؤكد له أنه أقام الحد على ابنه حيث يقيم الحدود في صحن داره ولكن عمر لم يقبل منه، ولم يعتد بالحد الذي أقامه، وإنما انتظر الفتى حتى إذا بلغ المدينة وجيء به إليه مريضًا مكدودًا، لم يحفل بمرضه ولا بما لقي في سفره من العناء، وإنما أقام الحد عليه فورًا بمحضر من جماعة المسلمين. وقد استغاثه الفتى فلم يلتفت إليه! وقال له الفتى: إنك قاتلي. فلم يعبأ بما قال، وإنما مضى في ضرب الفتى ضربًا مبرحًا.

فيقول الرواة: إنه حين رأى ابنه مشرفًا على الموت لم يزد على أن قال له: إذا لقيت رسول الله ﷺ فأنبئه أن أباك يقيم الحدود، ومات ابنه فلم يظهر حزنًا عليه][2].

والرواية كما ذكرها الدكتور فيها مبالغة شديدة ينكرها كل صاحب فطرة سليمة وقد وقف معها غير واحد من العلماء وأولي الرأي قديمًا وحديثًا.

وأبدأ بذكر المعاصرين وأخص منهم الأستاذ العقاد[3] ـ رحمه الله ـ فحين ذكر الحديث عقب عليه بقوله: [فهذه قصة تتوافق أخبارها ومن

---

(١) قتب: الرحل الصغير على قدر سنام البعير. المعجم الوجيز ٤٦٧.

(٢) طه حسين: الشيخان، ص٢٠٤، ٢٠٥.

(٣) عباس محمود العقاد: (١٣٠٧هـ/١٨٨٩م ـ ١٣٨٣هـ/١٩٦٤م). كاتب ومفكر، ولد في مصر، التحق بعدة وظائف، وأتقن عدة لغات، له العشرات من المؤلفات في الإسلام وغيره وأهمها: العبقريات. المعجم الإسلامي، ص٤١٣.

رويت عنهم فلا نستغربها في جميع تفصيلاتها إلا حين تطرأ عليها المبالغة التي تتسرب إلى كل خبر من أخبار البطولات المشهورة، وذلك أن يقسو عمر على ابنه تلك القسوة التي لا يوجبها الدين ولا تقبلها الفطرة الإنسانية فيقيم عليه الحد وهو ميت، أو يعرضه للموت من أجل حد أقيم.

هذا هو الغريب الذي استوقفنا فأنكرناه ومضينا في تمحيصه فطابق التمحيص ما قدَّرناه][1].

وأخذ الأستاذ العقاد يستعرض الدلائل ـ التي يرد بها هذا الوجه من القصة ـ من سيرة عمر نفسه، وبين أنه لم يكن يسارع إلى إقامة الحدود حتى يتبين، وكان يدرأ الحدود بالشبهات، وكان يكره القسوة عند إقامة الحد، ورضي الأستاذ العقاد رواية عبدالله بن عمر الذي يحكي فيها خبر أخيه عبد الرحمن وليس فيها أمر هذه القسوة، ثم أتبعها بقوله: [هذه رواية عبدالله عن أبيه وأخيه، ولو كان الأمر مبالغة في عدل عمر لكان الابن أحق الناس بهذه المبالغة، أو كان الأمر رحمة بعبد الرحمن لكان الأخ أحق الناس بهذه الرحمة ولكنه أمر صدق لا نقص فيه ولا زيادة فالذي يجوز لنا أن نقبله من هذه القصة هو الجانب الذي يستقيم مع خلائق عمر ولا يناقضها وهو العدل الصحيح في محاسبة ولده على ذنبه، ولا زيادة، ولا سيما الزيادة... التي لا تستقيم مع عدله ورحمته على السواء وكلا العدل والرحمة من صفاته الأصيلة فيه][2].

---

(١) عباس محمود العقاد: عبقرية عمر، طبعة وزارة التربية والتعليم سنة ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م، ص٣٥.

(٢) المرجع السابق، ص٣٩.

ورواية عبدالله بن عمر التي رضيها الأستاذ العقاد هي التي ذكرها الإمام ابن الجوزي[1] في مناقب عمر بن الخطاب ونصها عن الزهري قال: أخبرني سالم بن عبدالله أن عبدالله بن عمر قال: شرب عبد الرحمن بن عمر وشرب معه أبو سروعة عقبة بن الحارث[2]، ونحن بمصر في خلافة عمر بن الخطاب، فسكرا، فلما صحوا انطلقا إلى عمرو بن العاص وهو أمير مصر، فقالا: طهرنا فإنا قد سكرنا من شراب شربناه. قال عبدالله بن عمر: ولم أشعر أنهما أتيا عمرو بن العاص، قال: فذكر لي أخي أنه قد سكر. فقلت له: ادخل الدار أُطَهِّرْكَ، فآذنني أنه قد حدث الأمير.

قال عبدالله بن عمر فقلت: والله لا تحلق اليوم على رؤوس الناس، ادخل أحلقك ـ وكانوا إذ ذاك يحلقون مع الحد ـ فدخل معي الدار، قال عبدالله: فحلقت أخي بيدي، ثم جلدهم عمرو بن العاص، فسمع عمر بن الخطاب فكتب إلى عمرو: أن ابعث إليّ بعبد الرحمن بن عمر على قَتَب، ففعل ذلك عمرو فلما قدم عبد الرحمن على عمر جلده وعاقبه من أجل مكانه منه، ثم أرسله فلبث شهرًا صحيحًا ثم أصابه قدره، فيحسبُ عامةُ الناس أنه مات من جَلْدِ عمر

---

(١) ابن الجوزي (٥١٠/٥٩٧هـ ـ ١١١٦/١٢٠١م) عبد الرحمن بن علي بن محمد... البغدادي الحنبلي المعروف بابن الجوزي (جمال الدين، أبو الفرج) محدث، حافظ، مفسر، فقيه واعظ، أديب، مؤرخ، مشارك في أنواع أخرى من العلوم من مؤلفاته الكثيرة: المنتظم في تاريخ الأمم، جامع المسانيد في سبع مجلدات، معجم المؤلفين ٢/١٠٠.

(٢) عقبة بن الحارث بن عامر بن نوفل بن عبد مناف بن قصي القرشي النوفلي. يكنى أبا سروعة، وقيل: هو أخو أبي سروعة وأنهما أسلما جميعًا يوم الفتح، وهو الذي شرب الخمر مع عبد الرحمن بن عمر بن الخطاب بمصر. أسد الغابة ٣/٥٤٦.

ولم يمت من جلده][1].

وكان من تعقيب ابن الجوزي على الرواية قوله: [قلت: ولا ينبغي أن يظن بعبد الرحمن بن عمر أنه شرب الخمر، وإنما شرب النبيذ متأولاً وظن أن ما شرب منه لا يسكر، وكذلك أبو سروعة (صاحبه) وأبو سروعة من أهل بدر، فلما خرج بهما الأمر إلى السكر طلبا التطهير بالحد، وقد كان يكفيهما مجرد الندم على التفريط، غير أنهما غضبا لله سبحانه على أنفسهما المفرطة فأسلماها إلى إقامة الحد، وأما كون عمر أعاد الضرب على ولده فليس ذلك حدًا، وإنما ضربه غضبًا وتأديبًا، وإلا فالحد لا يكرر.

وقد أخذ هذا الحديث قوم من القصاص فأبدوا فيه وأعادوا فتارة يجعلون هذا الولد مضروبًا على شرب الخمر، وتارة على الزنا ويذكرون كلامًا مرققًا يبكي العوام، لا يجوز أن يصدر من مثل عمر.

وقد ذكرت الحديث بطرقه في كتاب الموضوعات ونزهت هذا الكتاب عنه][2].

(١) ابن الجوزي: مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب تحقيق: د. علي محمد عمر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مكتبة الأسرة سنة ٢٠٠٠م، ص٢٦٨، ٢٦٩.

(٢) المصدر السابق: ص٢٦٩.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

المبحث الخامس

الدكتور يصحح الحديث بالظن

وكما كان الشك والظن عند الدكتور عاملي نفي ورد، فهما عنده كذلك سبيل إلى الإثبات والإقرار، ولئن كان الدكتور رد بعض الأحاديث لا لشيء إلا لشكه فيها أو لأنها تخالف رأيًا رآه، فهو كذلك يثبت بعض الأحاديث بالظن والشك ولا يتردد في هذا الإثبات طالما كان موافقًا لرأيه وهواه، ولا يتورع أن يخلع على الرواة لفظ: «الثقات من الرواة» بينما كان من شأنه في مواطن أخرى أنه يرد أحاديث أولئك الثقات دون التفات إلى منزلتهم ورسوخ قدمهم في خدمة الحديث وروايته.

والدليل الذي أدلل به هنا ما تحدث به الدكتور وهو يتحدث عن الحسن بن علي في أحداث «الفتنة الكبرى» فكان من قوله: [وقد روى الثقات من أصحاب الحديث أن النبي أخذ الحسن وهو صبي فأجلسه إلى جانبه على المنبر، وجعل ينظر إليه مرة، وينظر إلى الناس مرة أخرى، يفعل ذلك مرارًا ثم قال: إن ابني هذا سيد، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين كبيرتين من

المسلمين»[1].

ثم يقول الدكتور: فإذا صح هذا الحديث، وأكبر الظن أنه صحيح. . .][2].

فالحديث فعلاً صحيح لوروده في كتب السُّنَّة الصحيحة ولكن الدكتور لم يصححه بقاعدة حديثية ولا بالنظر إلى رواته وإنما اعتمد على الظن وحده.

والمرء يعجب للدكتور في اضطرابه وتخبطه إذ يقول كلامًا في موضع ثم يعود فينقضه في موضع آخر إما بالقول وإما بالفعل.

ولعل مما يثير العجب في هذا المقام أن نقرأ له وهو يؤرخ للفتنة الكبرى كلامًا يوضح موقفه من الأخبار ورواتها ثم نراه أبعد الناس عن هذا الكلام واقعًا وتطبيقًا.

يقول الدكتور: [فما ينبغي أن نذهب مذهب الذين يكذبون أكثر الأخبار التي نقلت إلينا ما كان بينهم من فتنة واختلاف، فنحن إن فعلنا ذلك لم نزد أن نكذب التاريخ الإسلامي كله منذ بعث النبي، لأن الذين رووا أخبار هذه الفتن هم أنفسهم الذين رووا أخبار الفتح وأخبار المغازي وسيرة النبي، والخلفاء، فما ينبغي أن نصدقهم حين يرون ما يروقنا وأن نكذبهم حين يرون ما لا يعجبنا، وما ينبغي أن نصدق بعض

---

(١) الحديث رواه البخاري ٧٤/٧ في فضائل أصحاب النبي ﷺ، باب مناقب الحسن والحسين ﷺ وفي غيرها، والترمذي رقم (٣٧٧٥) في المناقب، مناقب الحسن والحسين، والنسائي ١٠٧/٣ في الجمعة، باب مخاطبة الإمام رعيته وهو على المنبر. انظر: جامع الأصول في أحاديث الرسول ٣٣/٩.

(٢) د. طه حسين: الفتنة الكبرى ـ علي ـ المجموعة الكاملة، الشركة العالمية للكتاب، بيروت ط٥، ١٩٩٦م ٦٠٥/٤.

التاريخ ونكذب بعضه الآخر، لا لشيء إلا لأن بعضه يرضينا وبعضه يؤذينا[1].

وما ينبغي كذلك أن نصدق كل ما يروى أو نكذب كل ما يروى، وإنما الرواة أنفسهم ناس من الناس، يجوز عليهم الخطأ والصواب، ويجوز عليهم الصدق والكذب. والقدماء أنفسهم قد عرفوا ذلك وتهيأوا له ووضعوا قواعد التعديل والتجريح والتصديق والتكذيب، وترجيح ما يمكن ترجيحه، وإسقاط ما يمكن إسقاطه[2]، والشك فيما يجب الشك فيه، فليس علينا بأس أن نسلك الطريق التي سلكوها، وأن نضيف إلى القواعد التي عرفوها ما عرف المُحدثون من القواعد الجديدة[3] التي يستعينون بها على تحقيق النصوص وتحليلها وفقهها][4].

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

(١) هذا الكلام بذاته هو منهج الدكتور ولعله بات واضحًا من الحديث عن منهجه في تعامله مع السُّنَّة.

(٢) لم يلتزم الدكتور في رده لحديث من الأحاديث الصحيحة على تلك القواعد التي قررها عند الأقدمين.

(٣) أضاف الدكتور قاعدة جليلة وخطيرة وهي قاعدة الشك والظن واعتمدها كما رأينا في النفي والإثبات، بل لقد هام بها وعوَّل عليها في غالب أمره ولم يلتفت إلى غيرها.

(٤) طه حسين: الفتنة الكبرى ـ عثمان ـ المجموعة الكاملة ٣٦٧/٤.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الفصل السادس

طه حسين والتاريخ الإسلامي

ويشتمل على تمهيد وثمانية مباحث:

التمهيد:

المبحث الأول: موقف طه حسين من تاريخ الشيخين (أبي بكر وعمر).

المبحث الثاني: موقف طه حسين من دعوى تحريق المسلمين لمكتبة الإسكندرية.

المبحث الثالث: موقف طه حسين من صحابة النبي ﷺ.

المبحث الرابع: موقف الدكتور من القرون الثلاثة المفضلة.

المبحث الخامس: موقف طه حسين من الخلافة الراشدة.

المبحث السادس: رأي طه حسين في قضية الفتوحات الإسلامية.

المبحث السابع: رأي طه حسين في قضية الزنج والقرامطة.

المبحث الثامن: رأي طه حسين في قضية عبدالله بن سبأ.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الفصل السادس

طه حسين والتاريخ الإسلامي

تمهيد

اهتم طه حسين بالتاريخ اهتمامًا، كبيرًا، وبدا ذلك واضحًا من أيام الطلب الأولى، فدراسته في فرنسا كانت متوجهة بدرجة كبيرة إلى التاريخ، وازداد هذا التوجه للتاريخ عقب عودته من فرنسا واشتغاله مدرسًا، للتاريخ القديم اليوناني والروماني واستمر بهذا العمل حتى ألحقت الجامعة المصرية بالدولة فأصبحت حكومية بعد أن ظلت أهلية من سنة ١٩٠٨م حتى سنة ١٩٢٥، فعين الدكتور طه حسين، أستاذًا لتاريخ الأدب العربي في كلية الآداب[١].

وكان للتاريخ اهتمام كبير في إنتاج طه حسين وعطائه حتى أنه يمكننا القول: إن التاريخ صَاحَبَ طه حسين في رحلة حياته كلها، إذ ابتدأ طه التأليف بعد اشتغاله بالعمل الجامعي بإخراج «الظاهرة الدينية عند اليونان وتطور الآلهة وأثرها في المدنية» وينشر في صحيفة الجامعة المصرية تحت عنوان: «دروس التاريخ القديم في الجامعة المصرية»

---

(١) عبد العزيز شرف: طه حسين زوال المجتمع التقليدي، ص٥٦.

ويكون آخر إنتاج له، مؤلف في التاريخ هو «الشيخان» والذي صدر في سنة ١٩٦٠م[١].

ومن خلال كتابات طه حسين نستطيع أن نحصر مؤلفاته التاريخية عمومًا في الكتب التالية:

١ ـ على هامش السيرة (ثلاثة أجزاء).

٢ ـ الوعد الحق.

٣ ـ الفتنة الكبرى في جزأين: ١ ـ عثمان، ٢ ـ علي وبنوه.

٤ـ مرآة الإسلام.

٥ ـ الشيخان (أبو بكر وعمر).

٦ ـ أديب.

٧ ـ قادة الفكر.

٨ ـ الأيام.

[وهذه الكتب ذات مناح ثلاثة:

منحى عن الإسلام، وهو الجانب العام، في ظل رجاله، وهو الجانب الخاص، وهذا الشق ينتظم الكتب الأربعة الأولى، وعناوينها تؤكد نزوعها إلى الجانب العام ـ أراد الحياة ولم يرد الأفراد، وعنى بسوق الأحداث وبيان مداها وأثرها ولم يعنه أن تكون لواحد بعينه ـ وثمة ما هو صريح منها في هذه الدلالة العامة، مثل الأول والثاني والرابع... ومنحى عن حياة أخرى غير حياة الإسلام، عن حياة غريبة

(١) المرجع السابق، ص٤٥.

عاشها المؤرخ وقرأ لها، وكان لا بد أن يتأثر بها شيئًا ويملي فيها شيئًا وهو كتابه السادس... ومنحى عن نظرة معاصرة ـ وإن كانت في الأصل سيرة ذاتية إلا أنها تمثل تاريخ مصر ـ مثلها كتاباه «أديب» و«الأيام»][1].

غير أن المستشرق الإيطالي جورجيو ديلافيدا[2] ومن خلال المفهوم الذي استحسنه للتاريخ والذي وصفه بأنه نوع من النقد أو الفن، أدخل القدر الكبير من إنتاج طه حسين الأدبي في نطاق التاريخ فجعل ما كتبه طه حسين عن الشعر الجاهلي، وعن بلاد اليونان القديمة في مظاهرها الاجتماعية والأدبية والدينية، وكذلك ما كتبه عن الأدب العربي القديم وتطوره ومميزاته وما كتبه عن مشاكل التعليم والثقافة في العالم العربي المعاصر، اعتبر كل ذلك في جوهره نوعًا من التاريخ[3]، ونظرًا لأننا نقصد في هذا الفصل التاريخ الإسلامي فسيكون عملنا محصورًا في المؤلفات التي عنيت به خصوصًا، ولما كنت قد تحدثت عن كتاب «على هامش السيرة» حين تناولت موقف الدكتور من السُّنَّة، فلم يبق من مؤلفات الدكتور في تاريخ الإسلام سوى هذه المصنفات التالية:

١ ـ الوعد الحق.

٢ ـ الفتنة الكبرى، أ ـ عثمان، ب ـ علي وبنوه.

---

(١) إبراهيم الإبياري: طه حسين المؤرخ الإسلامي: بحث ضمن كتاب «طه حسين كما يعرفه كتاب عصره»، ص٨٦ بتصرف.

(٢) سبق ترجمته، ص١١٦.

(٣) جور جيوديلافيدا: طه حسين المؤرخ: بحث ضمن كتاب (طه حسين كما يعرفه كتاب عصره)، ص٩٨ بتصرف.

٣ ـ مرآة الإسلام.

٤ ـ الشيخان (أبو بكر وعمر).

فأما كتاب الوعد الحق فهو يحكي تاريخ الدعوة أيام النبي ﷺ في جانب من جوانبها وهو الحديث عن أتباع النبي من المستضعفين وما كان من إيذاء المشركين لهم، فالكتاب يعتبر مكملاً لكتاب «على هامش السيرة» في تأريخه للعهد النبوي، والدكتور في هذين الكتابين لم يعن بالأحداث التاريخية كما وردت في كتب السابقين، إنما أعطى لنفسه الحرية في الصياغة ونظم العبارات وآثر المعاني على الألفاظ، ولذا عمد إلى أسلوب القصص فسربله لهذين الكتابين.

أما في كتبه التي أرخت لحياة الخلفاء الراشدين (الفتنة الكبرى والشيخان) ومن بعدها «مرآة الإسلام» الذي جعله جولة سريعة في التاريخ الإسلامي كله في هذه الكتب «خرج عن أسلوبه الأول أسلوب القاص إلى أسلوب المؤرخ ولكنه على هذا كان قاصًا وهو يؤرخ، والفرق بين قصِّه هنا وقصِّه هناك أنه لم يترك أسلوبه للتخيل كما تركه هناك ولم يتركه للإملاء الحر كما تركه هناك بل جعل من الأحداث التاريخية هنا مادة قصته»[1].

طه حسين وكتابة التاريخ الإسلامي:

[من بداهة القول أن التاريخ يتضمن ثلاثة أشياء: الأشخاص الذين يدور الحديث حولهم بما أوجدوه، الحديث الذي يصور هذا البحث أو

(١) إبراهيم الإبياري: طه حسين المؤرخ الإسلامي، طه حسين كما يعرفه كتاب عصره، ص٩٢.

الاستقصاء وطلب الحقيقة... وعمل المؤرخ من خلال الواقع والاستقراء يكاد يمر بالمراحل التالية:

١ ـ **المرحلة الأولى**: مرحلة التجميع، أي: تجميع المواد.

٢ ـ **المرحلة الثانية**: مرحلة النقد، أي: مناقشة ما جمع.

٣ ـ **المرحلة الثالثة**: مرحلة التأويل وهي أشق المراحل][1].

أو بتعبير آخر، عمل المؤرخ يقوم على أمرين:

الأول: طلب الحوادث والروايات التاريخية من مظانها وتحري الصدق والموضوعية في هذا الطلب.

الثاني: تفسير الحوادث والروايات والحكم عليها][2].

ومن خلال استقراء ما كتبه الدكتور في التاريخ الإسلامي وخاصة عصر الخلفاء الراشدين نجد أن الدكتور لم يلتزم ما اشترطه العلماء لكتابة التاريخ الإسلامي من ناحية إثبات الحوادث والروايات التاريخية [لقد وضع علماء السُّنَّة قواعد لمعرفة الروايات الصحيحة من الفاسدة واتبعوا في ذلك منهجًا دقيقًا نجده مدونًا في كتب مصطلح الحديث وهو مأخوذ من القرآن والسُّنَّة ومن قواعده: ضرورة التثبت والتحري من صدق الرواية وفي هذا المعنى يقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾[3] وقول رسول الله ﷺ: «**نضر الله امرءًا**

---

(١) المرجع السابق، ص٧٦.

(٢) د. جمال عبد الهادي وآخرون: الزور والبهتان فيما كتبه طه حسين في الشيخان، ص١١٢.

(٣) سورة الحجرات، الآية: ٦.

سمع منا شيئًا فبلغ كما سمعه، فرب مبلغ أوعى من سامع»[1] فانظر إلى قوله: «**كما سمعه**» فقد نص على دقة النقل.

وكان الخلفاء الراشدون أول من سنوا للمحدثين التثبت في الرواية، واحتاطوا في قبول الأخبار، وبناءً على هذا ظهر علم نقد الأخبار، والسؤال عن الرجال (الرواة) ولذلك دونت أخبارهم ورحلاتهم وسنوات ولادتهم ووفياتهم وشيوخهم وتلاميذهم، ليعرف المتصل والمنقطع من الأسانيد، كما ظهر علم الجرح والتعديل الذي يتحدث في عدالة الرواة لمعرفة الثقة من غيره.. وكتب التاريخ سواء كانت مصادر أولية مثل السيرة النبوية لابن إسحاق[2]، وتاريخ الطبري[3]، أو كانت مصادر ثانوية، فإنها تحوي مادة ومعلومات تاريخية تحتاج إلى نقد وغربلة لمعرفة الصحيح من الزائف فهي مصادر في المعلومات التاريخية وليست مصادر في نقد الأخبار][4].

---

(١) أخرجه الترمذي رقم (٢٦٥٩) في العلم، باب ما جاء في الحث على تبليغ السماع، وإسناده صحيح، ورواه أيضًا أحمد وابن ماجه وابن حبان. راجع: جامع الأصول في أحاديث الرسول ١٨/٨.

(٢) ابن إسحاق: أبو عبدالله محمد: مؤلف وثبت في الحديث، كرس جهده لجمع الأخبار والقصص المتعلقة بحياة النبي، ودون سيرة النبي في كتابين، أولهما: كتاب المبتدأ أو المبتدأ والمبعث، والثاني: المغازي، وقد جمع ابن هشام كتابي ابن إسحاق واستخلص منهما كتابه في السيرة. راجع: دائرة المعارف الإسلامية ٨٨/١.

(٣) الطبري: أبو جعفر محمد بن جرير المؤرخ العربي ولد سنة ٨٣٩م في آمل من أعمال طبرستان، من أهم آثاره تاريخ الرسل والملوك، وتفسيره المسمى: جامع البيان في تفسير القرآن. راجع: دائرة المعارف الإسلامية ٦٧/١٥ وما بعدها.

(٤) د. جمال عبدالهادي «وآخرون»: الزور والبهتان فيما كتبه طه حسين في الشيخان، ص١١٣ بتصرف.

لقد كان كثير من القدامى ممن عنوا بكتابة التاريخ الإسلامي مجرد نقلة لما يسمعون من روايات، وكانوا لا يخضعون ما يسمعونه من روايات للعقل أو المنطق ولذا لم يكن مستغربًا ما اعتذر به شيخ المؤرخين الطبري عما جاء في كتابه مما يناقض المنقول أو يخالف المعقول واكتفى بذكر الإسناد وجعل من ذلك لنفسه براءة من الوزر وخروجًا من التبعة، لقد قال في مقدمة كتابه «تاريخ الأمم والملوك»:

[وليعلم الناظر في كتابنا هذا أن اعتمادي في كل ما أحضرت ذكره فيه مما شرطت أني راسمه فيه إنما هو على ما رويت من الأخبار التي أنا ذاكرها فيه والآثار التي أنا مسندها إلى رواتها فيه دون ما أدرك بحجج العقول وأستنبط بفكر النفوس إلا اليسير القليل منه، إذ كان العلم بما كان من أخبار الماضين وما هو كائن من أبناء الحادثين غير واصل من لم يشاهدهم ولم يدرك زمانهم، إلا بإخبار المخبرين ونقل الناقلين دون الاستخراج بالعقول، والاستنباط بفكر النفوس، فما يكن في كتابي هذا من خبر ذكرناه عن بعض الماضين مما يستنكره قارئه أو يستشنعه من أجل أنه لم يعرف له وجهًا من الصحة ولا معنى في الحقيقة فليعلم أنه لم يؤت في ذلك من قبلنا، وإنما أتي من قبل بعض ناقليه إلينا وأنا إنما أدينا ذلك على نحو ما أدي إلينا][1].

والدكتور طه حسين وهو يكتب تاريخ الخلفاء الراشدين وصحابة النبي الذين كانت لهم مشاركة في هذا التاريخ لم يعن بنقد الروايات وتمحيصها من ناحية السند، بل هو في غالب بحثه لا يذكر المصدر الذي رجع إليه في هذه الحادثة أو تلك، إلا في مواقف يسيرة لا تكاد

---

(١) نقلاً عن: د. عبد الغفار عزيز: الإسلام السياسي بين الرافضين له والمغالين فيه، دار الحقيقة للإعلام الدولي، مصر، طبعة ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م، ص٢٥، ٢٦.

تعد على أصابع اليد الواحدة وحين يذكر المصدر يكتفي بذكر أنه نقل عن الطبري أو صاحب الطبقات الكبرى.

فكان الدكتور في هذا كحاطب ليل إذ أخذ كثيرًا من الروايات والحوادث التي اختلقها الرافضة على صحابة النبي (لينالوا منهم) مأخذ الحق الذي ليس بعده إلا الضلال.

وكان للدكتور مسلك غريب تجاه الروايات والأخبار التي لا تتفق مع أفكاره وآرائه، فكان يرد الكثير منها بجرأة غير عادية دون أن يستند إلى قاعدة حديثية أو علم بأخبار الرواة ينال من عدالتهم ويشكك في صدقهم.

أما المحور الثاني والذي جانب الدكتور الحق فيه فهو تفسير الحوادث والحكم عليها، لقد سلك الدكتور في ذلك مسلك الغربيين [الذي يفسر حركة التاريخ تفسيرًا ماديًا ويحصر المؤثرات على حركة التاريخ البشري في العوامل المادية مثل تبدل وسائل الإنتاج كما في الفكر الماركسي، أو التفسيرات المعتمدة على أثر البيئة الخارجية من مناخ وجغرافيا واقتصاد كما في الفكر المادي الغربي][1].

أما التفسير الإسلامي للتاريخ [فيقرر أن التاريخ البشري هو تحقيق المشيئة الربانية من خلال الفاعلية المتاحة للإنسان في الأرض بقدر من الله، وبحسب سنن معينة يجري الله بها قدره في الحياة الدنيا، والتاريخ من جهة أخرى هو سعي الإنسان لتحقيق ذاته كلها لا البحث عن الطعام فحسب، ولا المتاع والسيطرة والاستحواذ فحسب، إنما

---

(١) د. جمال عبد الهادي: الزور والبهتان فيما كتبه طه حسين في الشيخان، ص١١٤.

تحقيق كل ما يشتمل عليه الإنسان من طاقات وقدرات وتطلعات وأشواق، إلى جانب الضرورات القاهرة والرغبات القريبة... وهو تاريخ الفرد والجماعة في ذات الوقت من خلال تشابكهما الذي لا ينتهي، وتدافعهما الذي لا يقف عند حد][1].

فالتفسير المادي يتناول الدوافع والعوامل المؤثرة فيقصرها على ضرورات الإنسان من مأكل ومشرب وجنس، وتأثره بما حوله من أفكار وعقائد وأنماط سلوك، ويغفل تمامًا أثر الدين في توجيه سلوك الإنسان وعمله في الحياة، ومن هنا يكون الخطأ في التقويم والحكم على هذه الفترة وتلك من التاريخ.

ومن هناك فإن التفسير الإسلامي للتاريخ [يحتفل احتفالًا خاصًا بفترات الهدي في الحياة البشرية ـ وبخاصة فترة الرسالة الخاتمة ـ بقدر ما يغفل التفسير الجاهلي عن عمد هذه الفترات.

يحتفل به لأنها تمثل الإنسان في أرفع حالاته، وأكثر حالاته استقامة مع هدف وجوده وشرط استخلافه، ومن ثم فهي أروع إنجازاته على الأرض][2]، وحتى لا نسبق الأحداث فنطلق الأحكام قبل ذكر الحيثيات أو النتائج قبل ذكر أسبابها... فلنبدأ من حيث ينبغي أن نبدأ.

(١) محمد قطب: حول التفسير الإسلامي للتاريخ، المجموعة الإعلامية، السعودية، ط٢، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م، ص١٣.

(٢) محمد قطب: حول التفسير الإسلامي للتاريخ، ص١٧، ١٨.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

المبحث الأول

موقفه من تاريخ الشيخين
(أبي بكر وعمر)

تمهيد:

لقد كان كتاب «الشيخان» آخر ما صنفه طه حسين في التاريخ الإسلامي إذ صدر الكتاب عام ١٩٦٠م، وهو حين ألف هذا الكتاب لم يقصد التمدح أو الثناء على هذين العظيمين، وإن كانا للمدح والثناء أهلاً، ولم يقصد سرد الأحداث وتفصيل الوقائع فلقد سبقه إلى هذا الأمر كثيرون وإنما قال موضحًا غايته من هذا البحث بقوله:

[أريد أن أعرف وأن أبين لقارئ هذا الحديث شخصية أبي بكر وعمر رحمهما الله، كما يصورها ما نعرف من سيرتهما وكما تصورها الأحداث التي كانت في عصرهما، وكما يصورها هذا الطابع الذي طبعت به حياة المسلمين من بعدهما والذي كان له أعظم الأثر فيما خضعت له الأمة العربية من أطوار وما نجم فيها من فتن.

ويقول الرواة: إن عمر قال عن أبي بكر: إنه أتعب من بعده

وليس من شك في أن عمر كان أشد من أبي بكر إتعابًا لمن جاء بعده فسيرة هذين الإمامين قد نهجت للمسلمين في سياسة الحكم وفي إقامة أمور الناس على العدل والحرية والمساواة، نهجًا شق على الخلفاء والملوك من بعدهما أن يتبعوه. فكانت نتيجة قصورهم عنه ـ طوعًا أو كرهًا ـ هذه الفتنة التي قتل فيها عثمان رحمه الله، والتي نجمت منها فتن أخرى قتل فيها علي ﷺ، وسفكت فيها دماء كثيرة كره الله أن تسفك وانقسمت فيها الأمة انقسامًا ما زال قائمًا إلى الآن. هذا النهج الذي نهجه الشيخان، والذي قصر عنه بعدهما الخلفاء والملوك هو الذي أريد أن أعرفه وأجلوه لقارئ هذا الحديث وأستخلص منه بعد ذلك شخصية أبي بكر وعمر رحمهما الله](١).

وعلى هذا النهج نفسه صار طه حسين حين أرخ الإسلام في إطلالة سريعه من خلال «**مرآة الإسلام**».

فما هي الصورة التي استخلصها للشيخين من خلال تناوله لحياتهما؟ هذا ما سأحاول الوقوف عليه بإذن الله في الصفحات القادمة.

أبو بكر الصديق بمنظار طه حسين:

لم يعن الدكتور طه حسين بحياة أبي بكر الصديق ﷺ قبل وفاة النبي ﷺ، وإنما ابتدأ الحديث عنه من موت رسول الله ﷺ وموقفه في تلك اللحظات وما بعدها من أحداث السقيفة ومبايعة المسلمين له.

ومن أخطر ما انتهى إليه طه حسين في أمر مبايعة أبي بكر الصديق ﷺ أنها تمت على غير مشورة من المسلمين!! ولقد بنى

(١) طه حسين: الشيخان، ص٩، ١٠.

الدكتور هذه النتيجة على خليط من الروايات التي تناولت هذه الأحداث، والتي لم يعزو الدكتور حادثة منها إلى مصدره واكتفى بأن يصدر معظم الأحداث بقوله: «ويزعم الرواة»، و«يزعمون»... إلى أن انتهى إلى تلك النتيجة الحاسمة فقررها بقوله: «ومهما يكن من شيء فقد تمت بيعة أبي بكر وصحت وإن كان المسلمون لم يتشاوروا فيها حتى كان عمر رحمه الله يقول: إن بيعة أبي بكر كانت فلتة وقى الله المسلمين شرها»[1].

وهذا النتيجة التي انتهى إليها الدكتور خاطئة؛ لأنها قامت على روايات لم تمحص من ناحية الثبوت والصحة، أما الصورة التي تمت بها بيعة أبي بكر الصديق ﷺ فكانت بإجماع الصحابة «وكانت عن رضا واختيار، ولم يختلف عليه المهاجرون ولا الأنصار، وأما ما كان من حديث السقيفة يوم وفاة الرسول فكان لحرص الأنصار على تولية من يذود عن المسلمين خاصة وأن المدينة بعد وفاة النبي ستصبح هدفًا للأعداء... لقد بايع عمر أبا بكر وبايعه أبو عبيدة ثم توافد الأنصار على بيعة أبي بكر وتمت له بذلك البيعة الخاصة، من قبل هذا الجمع الذي تواجد في السقيفة وهم الذين يمكن أن نطلق عليهم أهل الحل والعقد آنذاك، ثم كانت البيعة العامة في المسجد بعد أن انتهى الصحابة من دفن النبي ﷺ»[2].

ولا ننفي أنه كانت هناك آراء مختلفة لكنها سرعان ما استجابت لصوت الحق ونزلت عنده.

---

(١) طه حسين: مرآة الإسلام، ص١٣٤.

(٢) د. حلمي عبد المنعم صابر: نظرات في تاريخ الخلفاء الراشدين ٨٢/١، ٨٣ بتصرف.

«ويكفي أن نقرر أن مساجلات الرأي دارت في هذا الاجتماع بحرية وفي صراحة بحيث مثلت وجهات النظر المختلفة، حتى إنها دعت كاتبًا غربيًا هو الأستاذ «ماكدونالد»[1]: أن يشهد بأن هذا الاجتماع يذكر إلى حد بعيد بمؤتمر سياسي دارت فيه المناقشات وفق الأساليب الحديثة»[2].

وكلمة هذا المستشرق جاءت بعد كلام مغرض زعم فيه أنه في اجتماع السقيفة كانت توجد أربعة أحزاب، وأن هذا الاجتماع كان بداية لكل الاضطرابات والمنافسات والمنازعات التي كان مقدرًا لها أن تستمر في التاريخ الإسلامي، وهذه الأحزاب كما يعدها هم: المهاجرون، ثم الأنصار، فالشيعة وأخيرًا حزب رابع يدعوه حزب «الأرستقراطيين المكيين»[3] وهو يهدف من هذا القول إلى بيان أن دائرة الخلاف كانت واسعة جدًا وأنه على الرغم من عقد البيعة لأبي بكر، فإن ذلك لم يقض على الخلاف وبقيت رواسبه في القلوب وأن هذه الرواسب كانت سببًا في البلايا والمحن التي مر بها تاريخ المسلمين في ذلك العهد.

وكلام الدكتور طه حسين يشابه إلى حد كبير كلام هذا المستشرق، وإن كان الدكتور أصرح لفظًا وأوضح عبارة إذ نص على أن بيعة أبي بكر كانت على غير شورى من المسلمين! وهذا الكلام

---

(١) ماكدونالد، دنكان بلاك (١٨٦٣هـ/١٩٣٤م) أمريكي أشرف مع صمويل زويمر على إصدار مجلة العالم الإسلامي ١٩١١م. (المستشرقون ٣/١٣٦).

(٢) د. محمد ضياء الدين الريس: النظريات السياسية الإسلامية، دار التراث، مصر، ط٧، ١٩٧٩م، ص٣٩.

(٣) المرجع السابق نفسه، ص٤١، وقد رد المؤلف فيه على ادعاءات هذا المستشرق ونفى وجود أي أحزاب خاصة ما ادعاه من وجود حزب للشيعة وحزب للأغنياء من المكيين.

يشعر بمفهوم المخالفة أن الناس أجبروا على اختيار أبي بكر خليفة للمسلمين.

مجافاة أبي بكر لآل بيت النبي ﷺ:

ذكر الدكتور طه حسين أن عليًا ﷺ جفا أبا بكر لهجران فاطمة له لرفض أبي بكر إعطاء فاطمة ميراثها من رسول الله ﷺ مما أفاء الله على نبيه من فدك[1]، وأجابها أن رسول الله ﷺ قال: «**لا نورث، ما تركنا فهو صدقة**»[2].

عقب الدكتور على ذلك بقوله: [فهجرته فاطمة ولم تكلمه حتى ماتت وكأن عليًا جفا أبا بكر لهجران فاطمة له. ومن أجل ذلك لم يؤذن أبا بكر بموتها بل دفنها ليلاً - فيما يزعم الرواة - ثم كان صلح بعد ذلك بين علي وأبي بكر][3].

والحق أن الدكتور ليس أول من ردد تلك المزاعم، فلطالما رددها الشيعة وأرغوا حولها وأزبدوا قاصدين من ورائها النيل من أبي بكر الصديق ﷺ وليس أدل على ذلك من قول المجلسي[4] أحد

---

(١) فدك: قرية بخيبر، وقيل: بناحية الحجاز، فيها عين ونخل أفاء الله على نبيه محمد ﷺ منه. (لسان العرب ٤٧٣/١٠).

(٢) في كتاب فضائل الصحابة من صحيح البخاري ٢٠٩/٤ - ٢١٠ وأوسع منه في كتاب المغازي بباب غزوة خيبر من صحيح البخاري ٨٢/٥.

(٣) طه حسين: الشيخان، ص٣٩.

(٤) المجلسي: هو الملا محمد باقر بن محمد تقي المجلسي ولد سنة ١٠٣٧هـ، ومات سنة ١١١٠هـ من ألد أعداء السُّنَّة وخصومهم، ولم ير مثله في الشيعة المتأخرين سليط اللسان بذيئًا فاحشًا، يسمونه «خاتمة المجتهدين» أو «إمام الأئمة في المتأخرين» له مصنفات كثيرة منها كتاب «بحار الأنوار» وفيه جمع لعلوم شتى وله كتب كثيرة في العربية والفارسية، إحسان إلهي ظهير: الشيعة وأهل البيت: إدارة ترجمان السُّنَّة، باكستان، ط٦، ١٤٠٤هـ ص٣٧.

زعمائهم (أن أبا بكر لما غصب الخلافة عن أمير المؤمنين ـ يعني عليًا ﷺ ـ وأخذ البيعة جبرًا من المهاجرين والأنصار[1] وأحكم أمره طمع في فدك خوفًا منه بأنها لو وقعت في أيديهم يميل الناس إليهم بالمال ويتركون هؤلاء الضالين (يعني: أبا بكر ورفاقه) فأراد إفلاسهم حتى لا يبقى لهم شيء، ولا يطمع الناس فيهم وتبطل خلافتهم الباطلة، ولأجل ذلك وضعوا تلك الرواية الخبيثة المفتراة «**نحن معاشر الأنبياء لا نورث، ما تركنا صدقة**»)[2].

ويُرد على كلام الدكتور بأن كثيرًا من الناس يسيئون فهم عبارة وردت بهذه القصة وهي أن فاطمة رجعت ولم تحدث أبا بكر حتى ماتت لكن نفرًا من العلماء يفهمها فهمًا جيدًا يتوافق مع جلال الصحابة وكريم منزلتهم فيقولون: نعم إنها رجعت ولم تكلمه في وراثة فدك وظلت على هذا حتى ماتت[3].

أما أنه كانت هناك مغاضبة بين فاطمة وبين أبي بكر ﷺ فلا نصدق بهذا، [أيعقل من فاطمة أن تخالف كلام النبي، وتغضب من أبي بكر؛ لأنه ينفذ كلام النبي ﷺ.. إن الذي يعرف أخلاق هذا الجيل يستبعد من أدنى صحابي منهم أن يفعل ذلك، فكيف تفعله فاطمة سيدة نساء أهل الجنة وبنت سيد الرسل ﷺ ألم يتربى هذا الجيل على قول الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ

---

(١) يتوافق الدكتور طه حسين مع هذا الشيعي حين قال: إن بيعة أبي بكر كانت على غير شورى من المسلمين، أي: أنها كانت جبرًا كما نص على ذلك هذا الشيعي!

(٢) إحسان إلهي ظهير: الشيعة وأهل البيت، ص٨٦، ٩٠، وانظر: لقول الشيعي ـ عليه من الله ما يستحق ـ وهو يصف الحديث الشريف بقوله: «الرواية الخبيثة».

(٣) المرجع السابق ص٩٠.

وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾[1] ثم كيف يقال: إن فاطمة هجرته فلم تكلمه حتى ماتت! ومتى كان في هذا العهد النساء تكلم الرجال أو تختلط بهم][2].

وقال ابن تيمية[3] في منهاج السُّنَّة (١٥٧/٢): «إن الله صان الأنبياء أن يورثوا دنيا، لئلا يكون ذلك شبهة لمن يقدح في نبوتهم بأنهم طلبوا الدنيا وورثوها لورثتهم، ثم إن من ورثة النبي ﷺ أزواجه ومنهم عائشة بنت أبي بكر وقد حرمت نصيبها بهذا الحديث النبوي، ولو جرى أبو بكر مع ميله الفطري لأحب أن ترث ابنته....»[4]، وقال في موضع آخر: (وقد تولى عليّ بعد ذلك وصارت فدك وغيرها تحت حكمه، ولم يعط لأولاد فاطمة ولا زوجات النبي ﷺ ولا ولد العباس شيئًا من ميراثه)[5].

أما مغاضبة عليّ لأبي بكر، وأنه دفن فاطمة ليلاً ولم يؤذن أبا بكر بموتها لئلا يصلي عليها فهذا مما كذبه غير واحد من علماء الشيعة أنفسهم ـ والذين أنشأوا هذه الفرية ابتداء.

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٣٦.

(٢) د. حلمي صابر: نظرات في تاريخ الخلفاء الراشدين ٩٨/١، ٩٩.

(٣) ابن تيمية: (٦٦١ ـ ٧٢٨هـ/١٢٦٣ ـ ١٣٢٨م) أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام... ابن تيمية الحراني، محدث، حافظ، مفسر فقيه مجتهد مشارك في أنواع العلوم من مصنفاته، السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية، ومنهاج السُّنَّة النبوية في نقض كلام الشيعة والقدرية، وغيرها كثير. [عمر رضا كحالة: معجم المؤلفين ١٦٣/١].

(٤) نقله عنه محب الدين الخطيب في تحقيقه لكتاب العواصم من القواصم لأبي بكر ابن العربي، ص٥٠، ٥١.

(٥) ابن تيمية: منهاج السُّنَّة النبوية (٢٣٠/٣) نقلاً عن: العواصم من القواصم تحقيق: محب الدين الخطيب، ص٥٠، ٥١.

وقد نقل الأستاذ إحسان إلهي ظهير[1] ما يفيد ذلك من أقوالهم مثل قوله:

[كان الصديق دائم الاتصال بعلي من ناحية ليسأله عن أحوال بنت النبي ﷺ خلاف ما يزعمه القوم.

ومن أقوال علمائهم «فمرضت (أي: فاطمة رضي الله عنها) وكان علي عليه السلام يصلي في المسجد الصلوات الخمس، فلما صلى قال له أبو بكر وعمر: كيف بنت رسول الله؟...».

وكانت العلاقات وطيدة إلى حد أن زوجة أبي بكر أسماء بنت عميس[2] هي التي كانت تمرض فاطمة بنت النبي عليها السلام ورضي الله عنها في مرض موتها.. وهي التي كانت عندها حتى النفس الأخير، وهي التي نعت عليًا بوفاتها.. وكانت شريكة في غسلها...

ولما قبضت فاطمة من يومها فارتجت المدينة بالبكاء من الرجال والنساء ودهش الناس كيوم قبض فيه رسول الله ﷺ، فأقبل أبو بكر

---

(١) إحسان إلهي ظهير عالم باكستاني، تخرج من الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، تولى رئاسة تحرير مجلة ترجمان الحديث، له مؤلفات عديدة في كشف الفرق الضالة استشهد في انفجار قنبلة في ندوة في عام (١٤٠٧هـ/١٩٨٧م). أشرف طه أبو الدهب، المعجم الإسلامي، ص٣٢.

(٢) أسماء بنت عميس بن معد بن الحارث، أخت ميمونة بنت الحارث زوج النبي ﷺ أسلمت وهاجرت إلى الحبشة مع زوجها جعفر بن أبي طالب ثم هاجرت إلى المدينة فلما قتل جعفر تزوجها أبو بكر ثم مات عنها فتزوجها علي بن أبي طالب رضي الله عنهم جميعًا. ابن الأثير: أسد الغابة في معرفة الصحابة ١٤/٦.

وعمر يعزيان عليًا ويقولان: يا أبا الحسن، لا تسبقنا بالصلاة على ابنة رسول الله][1].

لعل في هذه الكلمات ما يدحض هذه الفرية ويردها.

* سياسة أبي بكر ساذجة في نظر الدكتور طه:

حين تحدث الدكتور عن سياسة أبي بكر الصديق ﷺ في الأموال التي كانت ترد عليه وصفها بأنها كانت ساذجة كل السذاجة فكان من قوله: (وكانت الأخماس ترد على أبي بكر ـ رحمه الله ـ في حروب الردة، وفي بدء الفتح كانت سياسته فيها ساذجة كل السذاجة يسيرة كل اليسر، كان يحفظ منها ما يؤدي به حق الله من أخماس الغنائم، كما بينه في الآية الكريمة من سورة الأنفال: ﴿۞ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾﴾[2] ويقسم سائرها على المسلمين قسمة سواء، لا يفرق بين الناس مهما تختلف منازلهم. وكان يسوي في هذه القسمة بين الأحرار والأرقاء)[3].

جاء وصف الدكتور لصنيع أبي بكر ﷺ بالسذاجة عندما قارن بين فعله وفعل عمر بن الخطاب ﷺ في الأمر ذاته وكأنه يقلل من فعل أبي بكر ويوهن من قدره في سياسة الأمور فهو الذي وصف أبا بكر بقوله: (ولم يكن لأبي بكر تجديد في سياسته الداخلية. إن صح

---

(١) إحسان إلهي ظهير، الشيعة وأهل البيت، ص٧٦، ٧٧ بتصرف.

(٢) سورة الأنفال، الآية: ٤١.

(٣) طه حسين: الشيخان، ص١٦٧.

أن نسمي سيرته في المدينة وفي العرب بعد أن عادوا إلى الإسلام: سياسة داخلية)[1].

ومن عجيب أن هذا الأمر الذي يستدل به على سذاجة أبي بكر وبساطته هو الامر ذاته الذي امتدحه به في موطن آخر وجعله من مميزات أبي بكر على عمر فقال:

[ولا نعرف لأبي بكر شيئًا امتاز به عن عمر في سياسة المسلمين الداخلية إلا أمرين:

أحدهما: أن الفيء كان يأتيه بعد انتصار قواده في حروب الردة... وكان أبو بكر يقسم ما يصل إليه بين المسلمين لا يفرق بينهم في القسمة وإنما يعطيهم جميعًا على سواء؛ يعطي الرجال والنساء والأحرار والرقيق.

ولما كُلِّم في السابقين إلى الإسلام والمجاهدين مع رسول الله قال: إن أجرهم على ذلك عند الله، وإنما الدنيا بلاغ. وسنرى أن عمر خالف هذا المذهب حين فرض الأعطية للناس.

الأمر الثاني: أنه لم يرم الفرس والروم في العراق والشام إلا بمن ثبت على إسلامه بعد وفاة النبي ﷺ وكان يمنع العائدين من ردتهم إلى الإسلام من المشاركة في الفتح عقوبة لهم من جهة وإشفاقًا منهم من جهة أخرى، وسنرى أن عمر قد غيَّر هذا الحكم من أحكام أبي بكر، وكان أبو بكر فيما عدا ذلك رجلاً من عامة المسلمين لا يمتاز منهم في شيء][2].

---

(١) طه حسين: الشيخان، ص٩٨.

(٢) طه حسين: الشيخان، ص١٠٠، ١٠١ بتصرف.

وهذا التهوين من قدرات أبي بكر لم يتفرد به الدكتور إنما سبق إليه كثير من المستشرقين فها هو بول[1] الذي كتب مادة أبي بكر في دائرة المعارف الإسلامية ـ التي كان الدكتور يكثر الرجوع إليها كما تحدث في بعض كتبه ـ يقول عن أبي بكر:

«لم يأت أبو بكر بآراء أو مبادئ جديدة، بل تمسك كل التمسك بآراء النبي ﷺ، وحافظ على كل ما أمر به صديقه أو أشار إليه. بهذا استطاع أن يؤلف بين الصحابة رغم النفور الذي كان بينهم وأن يستخدمهم لصالح الجماعة المسلمة، وأصبح بعدم ابتكاره هذا وبما كان له من خلق جمع بين البساطة والحزم صورة من محمد»[2].

الحكم على موقف أبي بكر:

وللحكم على موقف أبي بكر رضي الله عنه والذي اضطرب الدكتور في الحكم عليه فعده مرة من مميزاته ومرة من بساطته وسذاجته، أذكر موقف عمر ومعايير التفضيل في العطاء عنده ثم أعقب ذلك بأقوال العلماء في الحكم على الموقفين جميعًا.

[روى أحمد في مسنده وأبو داود في سننه عن مالك بن أوس بن الحدثان قال: كان عمر يحلف على أيمان ثلاث، يقول: والله ما أحد أحق بهذا المال من أحد، وما أنا بأحق به من أحد، والله ما من المسلمين أحد إلا وله في هذا المال نصيب، إلا عبدًا مملوكًا، ولكنا على منازلنا من كتاب الله، وقسمنا من رسول الله ﷺ، فالرجل وبلاؤه

---

(١) بول: مستشرق فرنسي (١٨٨٩ ـ ١٩٤٧) ولد بالجزائر وتعلم بها وله اهتمام كبير بالإسلام. المستشرقون ١/٢٨٤.

(٢) دائرة المعارف الإسلامية، مادة: أبي بكر ١/٣١٣.

في الإسلام، والرجل وقدمه في الإسلام، والرجل وغناؤه في الإسلام، والرجل وحاجته، ووالله لئن بقيت لهم ليأتين الراعي بجبل صنعاء حظه من هذا المال وهو يرعى مكانه[1].

ويبدو أن عمر ﷺ في أواخر حياته ترجح له رأي أبي بكر في التسوية في قسمة الفيء، فقال: لو استقبلت من أمري ما استدبرت، لأخذت فضول أموال الأغنياء، فرددتها على الفقراء وذكر الإمام أبو يوسف[2] في الخراج أنه لما رأى المال قد كثر، قال: لئن عشت إلى هذه الليلة من قابل، لألحقن أخرى الناس بأولاهم، حتى يكونوا في العطاء سواء! قال: فتوفي رحمه الله قبل ذلك][3].

آراء العلماء في الحكم على موقف أبي بكر وعمر:

علق الشهيد سيد قطب[4] رحمه الله على هذين الموقفين بقوله: [هما رأيان إذن في تقسيم المال: رأي أبي بكر ورأي عمر، وقد كان

---

(١) صحح إسناده الشيخ شاكر، وضعفه الشيخ الأرناؤوط في تخريج المسند من أجل عنعنة محمد بن إسحاق، الحديث (٢٩٢) ورواه أبو داود (٢٩٥٠) وسكت عليه.

(٢) أبو يوسف القاضي: يعقوب بن إبراهيم (١١٣هـ/٧٣١م - ١٨٢هـ/٧٩٨م) ولد في الكوفة، درس على يد الإمام أبي حنيفة، تولى قضاء بغداد، من أهم آثاره كتاب «الخراج». [المعجم الإسلامي: ٢٤].

(٣) د. يوسف القرضاوي: السياسة الشرعية في ضوء نصوص الشريعة ومقاصدها، مكتبة وهبة، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ، ص١٣٢، ١٣٣.

(٤) سيد قطب (١٣٢٤/١٣٨٧هـ - ١٩٠٦ - ١٩٦٧م) باحث إسلامي مصري، من مواليد قرية موشا بأسيوط، تخرج من دار العلوم وعمل بالصحافة في الأهرام، والرسالة وغيرهما من الدوريات، من آثاره: في ظلال القرآن، وهذا الدين، والمستقبل لهذا الدين، وغيرهم. [معجم المؤلفين ٨٠٤/١].

لرأي عمر ﷺ سنده: «لا أجعل من قاتل رسول الله ﷺ كمن قاتل معه» و«الرجل وبلاؤه في الإسلام» ولهذا الرأي أصل في الإسلام وهو التعادل بين الجهد والجزاء، وكان لرأي أبي بكر ﷺ سنده كذلك: «إنما أسلموا لله وعليه أجرهم، يوفيهم ذلك يوم القيامة، وإنما هذه الدنيا بلاغ» ولكننا لا نتردد في اختيار رأي أبي بكر، إذ كان أقمن أن يحقق المساواة بين المسلمين - وهي أصل كبير من أصول هذا الدين - وأحرى ألا ينتج النتائج الخطرة التي نشأت عن هذا التفاوت][1]، ويعلق الدكتور القرضاوي على رأي سيد قطب رحمه الله بقوله: [ورغم وجاهة رأي الشهيد سيد قطب، وميل كثير من المعاصرين إلى التسوية، ورغم ميل عمر في أواخر أيامه إلى ذلك، نرى أن القواعد التي بنى عليها عمر التفضيل بين الناس في العطاء: قواعد عادلة في الجملة. قد نتوقف في تفضيل الناس على أساس السوابق في الإسلام والبذل في سبيله من الهجرة والجهاد، فهذا ينبغي أن يكون جزاؤه عند الله عز وجل.

أما مبدأ: (الرجل وغناؤه... والرجل وحاجته) فلا ينبغي أن ينازع فيهما فلا يسوى بين العامل والخامل وبين الذكي والبليد وبين المجتهد والكسلان، كما لا يسوى بين من تقل حاجته وبين من تكثر حاجته، فحاجة العِزب أقل من حاجة الآهل (المتزوج) وحاجة من لا عيال له أقل من حاجة ذي العيال...][2].

والحق أن كلًّا من الخليفتين مصيب فيما ذهب إليه فالعلماء

---

(١) سيد قطب: العدالة الاجتماعية في الإسلام، دار الشروق، ط٢، ب. ت، ص٢٢٩.

(٢) د. يوسف القرضاوي: السياسة الشرعية، ص١٣٥، ١٣٦.

أجازوا للإمام في هذه المسألة الأمرين جميعًا بناء على اجتهاده من التسوية أو التفضيل بشرط ألا يكون ذلك اتباعًا لهوى، أو إيثارًا للمحاسيب على غيرهم، أو تقديمًا لمن يستحق التأخير، وتأخيرًا لمن يستحق التقديم، ونحن نظن بالراشدين ﷺ أنهما كانا على هذا النحو صدقًا وإخلاصًا وتوجهًا.

ومن هنا لم يكن من الإنصاف ولا من حسن الأدب أن يقال عن تصرف أبي بكر ﷺ أنه ساذج كل السذاجة.

أبو بكر يحابي في الحق!

أظهر الدكتور طه حسين الصحابي الجليل أبا بكر الصديق في صورة من يحابي الرجال في الحق، فيفرط في أمور الدين حرصًا على شيء من الدنيا.

[اعتمد الدكتور طه حسين على الظن والظن أكذب الحديث، كما اعتمد على روايات تاريخية، للطعن في أبي بكر ﷺ، وإشعار القارئ أن الصديق لم يكن مثل عمر الذي كان يريد من قواده أن يسمعوا ويطيعوا، وألا يتجاوزوا القصد في أمر من الأمور، وأنه - أي: أبا بكر - لم يكن حريصًا على أن يكون قواد الجيوش حراصًا أشد الحرص على العدل والنصفة، وأبعد عن السرف والجور، وأن أمر الدين ومثله العليا لم تكن آثر عنده من أمر الحرب وما يكون فيها من انتصار أو هزيمة، وما يكون فيها وفي أعقابها من إخافة الناس وإرهاب لهم.

وزعم طه حسين بدون دليل أن خالد بن الوليد ﷺ قتل رجلاً

مسلمًا (مالك بن نويرة)[1] بشهادة المسلمين العدول، كما زعم ـ ما يفهم من سياق المعنى ـ أن أبا بكر الصديق ﷺ حينما رأى خالدًا أسرع بعد قتل هذا الرجل، إلى التزوج من امرأته، لم يحس كما أحس عمر ﷺ أن خالدًا لم يقتل مالك بن نويرة في ذات الله، وأنه لم يثر كما ثار عمر، وأنه لم يستجب لرأي عمر بضرورة عزل خالد من قيادة الجيش][2]، والمطالع لما كتبه الدكتور في تاريخ الإسلام أنه لم يتحر ضبط النفس والإنصاف حين يتحدث عن خالد بن الوليد ﷺ، فما يصفه الدكتور إلا بالمتكبر المغرور، المسرف في القتل، الحريص على النساء، ويقف الدكتور من الروايات التي تصف خالد بالعفة والطهارة موقف المتشكك المرتاب وبالعكس يقف من الروايات التي تنال من خالد موقف المصدق المثبت فحين يذكر الروايات التي تذكر قتل مالك بن نويرة يبدأها بقول: [يزعم المؤرخون أن خالدًا أمر بحبس هؤلاء النفر ـ مالك بن نويرة وبعض أتباعه من أهل الردة ـ وكان ذلك في ليلة شديدة البرد يزداد بردها شدة كلما تقدم الليل. فزعم الرواة أن خالدًا أمر مناديًا أن ينادي في الناس: أن أدفئوا أسراكم؛ ففهم من كان عندهم هؤلاء أن هذا أمر بقتلهم (كان الحرس من كنانة) وكان الإدفاء في لغة كنانة معناه القتل، فقتلوا مالكًا وأصحابه، وسمع خالد الصياح،

---

(١) مالك بن نويرة: هو مالك بن نويرة بن جمرة بن شداد بن عبيد بن ثعلبة بن يربوع التميمي اليربوعي، أخو متمم بن نويرة. قدم على النبي ﷺ وأسلم واستعمله رسول الله ﷺ على بعض صدقات بني تميم، فلما توفي النبي ﷺ وارتدت العرب وظهرت سجاح وادعت النبوة صالحها إلا أنه لم تظهر عنه ردة. قتله خالد بن الوليد متأولًا في خلافة أبي بكر الصديق ﷺ جميعًا. [ابن الأثير الجزري: أسد الغابة ٤/٢٥٩].

(٢) د. جمال عبد الهادي وآخرون: الزور والبهتان فيما كتبه طه حسين في الشيخان، ص٢٤.

فلما أخبر قال: «إذا أراد الله أمرًا أصابه».

وواضح ما في هذه الرواية من التكلف الذي لا يراد به إلا إبراء خالد من قتل أولئك النفر.

وآخرون من الرواة يزعمون أن خالدًا كان يفاوض مالكًا، فقال له مالك في بعض أحاديثه: إن صاحبكم كان يقول كذا وكذا، يريد النبي ﷺ. قال خالد حين سمع من مالك هذه المقالة: أوَليس هو لك بصاحب؟ ثم أمر بقتله.

والشيء الذي ليس فيه شك هو أن خالدًا قتل مالكًا، وغضب لذلك رجل من خيرة أصحاب النبي كان في جيش خالد وشهد بأنه سمع القوم يؤذنون، فلما رأى قتل مالك وأصحابه فارق الجيش وأقسم لا يقاتل مع خالد أبدًا ورجع إلى المدينة وهذا الرجل هو أبو قتادة الأنصاري][1] فانظر كيف شكك الدكتور في الرواية الأولى والتي تفيد أن مالكًا قتل خطأ فبدأ روايتها بقوله: «ويزعم المؤرخون» وحكم عليها بقوله: «وواضح ما في هذه الرواية من التكلف...»، وكذلك شكك في الرواية الثانية التي تفيد أن مالكًا قتل لكفره حين قال: «وآخرون من الرواة يزعمون»!

أما رأيه في إدانة خالد فقد صدَّره بقوله: «والشيء الذي ليس فيه شك هو أن خالدًا قتل مالكًا، - يريد وهو مسلمًا -».

ثم عرض الدكتور طه لتلقي أبي بكر وعمر نبأ قتل مالك ووقعه

---

(١) طه حسين: الشيخان، ص٧٠، ٧١.

في نفس كل منهما فقال: [وقد كلم أبو قتادة[1] كبار أصحاب النبي ﷺ وفيهم عمر، وأراد أن يدخل على أبي بكر ليشكوا إليه خالدًا، فأبى أبو بكر لقاءه غضبًا عليه؛ لأنه ترك الجيش عن غير إذن من أميره، وقد دخل عمر على أبي بكر فكلمه في قتل مالك وقال له: إن في سيف خالد رهقًا فاعزله. فقال أبو بكر تأول فأخطأ، ولما ألح عليه عمر في عزل خالد قال: إليك عني يا عمر! ما كنت لأشيم (لأغمد) سيفًا سلّه الله على الكافرين.

ثم أرسل أبو بكر إلى خالد يستدعيه، فأقبل خالد إلى المدينة ودخل المسجد وجماعة من أصحاب النبي فيهم عمر، جالسون، وكان في منظر خالد شيء من العجب، كان عليه قباء (ثوب تجتمع أطرافه) يظهر فيه صدأ الحديد وقد غرس في عمامته أسهمًا. فلما رآه عمر قام إليه فانتزع هذه الأسهم من عمامته وحطمها، وقال: قتلت رجلاً مسلمًا ثم نزوت على امرأته! وكان خالد قد تزوج امرأة مالك إثر قتله.

قال الرواة: وكانت العرب تكره مثل هذا الزواج في الحرب، والمحقق أن خالدًا تزوج أم تميم بعد قتل زوجها، وما أحسبه تزوجها قبل انقضاء عدتها إلا أن يكون اعتبرها من السبي فاستبرأها كما تستبرأ الإماء ثم أعتقها وتزوجها.

ودخل خالد على أبي بكر فقص عليه خبره، فعذره أبو بكر في قتل مالك وعنفه في تزوج امرأته ورده إلى جيشه. ويقول الرواة: إن

---

(١) أبو قتادة الأنصاري: اسمه الحارث بن ربعي . . . بن سعد الأنصاري الخزرجي، فارس رسول الله ﷺ اختلف في شهوده بدرًا، وشهد أحدًا وما بعدها من المشاهد، اختلف في وفاته فقيل: مات سنة ٥٤هـ بالمدينة، وقيل: سنة ٤٠هـ بالكوفة. [أسد الغابة ٥/٢٥١، ٢٥٢].

خالدًا خرج من عند أبي بكر راضيًا، فلما رأى عمر في المسجد تحداه، فلم يكلمه عمر][1].

ثم راح الدكتور يفسر المواقف التي سردها ونقلها من كتب التاريخ دون نقد أو تمحيص فأساء إلى الخليفة الراشد أبي بكر الصديق إساءة بالغة عن عمد أو بجهل، درى ذلك أم لم يدر. فقال: [لست أحاول الفصل فيما كان من موقف الشيخين بإزاء خالد وإنما أرى أن كليهما أراد باجتهاده وجه الله ومصلحة المسلمين.

نظر أبو بكر إلى أن خالدًا رجل حرب، وإلى أنه أبرع قواده، وإلى أن الإسراع إلى عزل القواد في أثناء الحرب مضيع لمصلحة المسلمين، ويوشك أن يوهن عزائمهم وأن يفسد عليهم أمرهم بإزاء عدوهم.. ومن هنا أصر أبو بكر على الانتفاع بقوة خالد يكفكفه إذا تجاوز القصد في الحرب، ويعنفه إذا تجاوز القصد في أمر من أمور نفسه... ونظر عمر إلى المثل العليا خالصة من كل شائبة... فكان أمر الدين ومثله العليا آثر عنده من أمر الحرب وما يكون فيها من انتصار أو هزيمة، وما يكون فيها وفي أعقابها من إخافة الناس وترهيب لهم][2]، وهذا الكلام فيه اتهام لأبي بكر من طرف خفي بأنه لم يأبه لأمر الدين والأخلاق والمثل العليا، وأنه كان يهدف إلى تحقيق النصر بأي ثمن حتى ولو على حساب الدين والأخلاق.

[أما شهادة رسول الله ﷺ لأبي بكر بأن إيمانه يعدل إيمان أمة الإسلام فليس لها اعتبار عند طه حسين الذي يظهر أبا بكر بمظهر الذي

---

(١) طه حسين: الشيخان، ص٧١، ٧٢.

(٢) طه حسين: الشيخان، ص٧٦، ٧٧ بتصرف.

يتجاوز في أمر الدين والمثل العليا... ثم إن طه حسين بهذا المدح المزيف لعمر يطعن فيه أيضًا، لأن عمر لم يقم الحد على خالد (أي: بعد ولايته) فهل عمر ﷺ أيضًا تجاوز في حد من حدود الله؟ أم أن عزل خالد من القيادة هو حد قتل المسلم، أم أن خالدًا لم يقتل مالك بن نويرة وهو مسلم، بل لأنه كان كافرًا.

ويشهد بذلك متممًا بن نويرة أخو مالك بن نويرة فقد أورد ابن الأثير أن متممًا بن نويرة أخا مالك قد رثى أخاه بمرثية أعجبت عمر بن الخطاب فقال له عمر: «لو كنت أقول الشعر لرثيت أخي زيدًا»[1] فقال متمم: لا سواء يا أمير المؤمنين «لو كان أخي صرع مصرع أخيك لما بكيته»][2]، وفي رواية: «لو أن أخي مات على ما مات عليه أخوك ما رثيته»[3] بل [لقد ورد في شرح الحماسة للخطيب التبريزي[4] أن أبا بكر هو الذي أمر خالدًا بقتل مالك، ولم يفعل هذا إلا بما عنده من العلم عن ردة مالك وفساد سريرته وما ترتب على ذلك من فساد علانيته][5].

---

(١) زيد بن الخطاب بن نفيل القرشي العدوي أبو محمد، وهو أخو عمر بن الخطاب لأبيه، وكان زيد أكبر من عمر، أسلم وشهد بدرًا وما بعدها. (البداية والنهاية ٤٣/٥).

(٢) راجع البداية والنهاية ٤٣/٥ في ترجمة زيد بن الخطاب.

(٣) جمال عبد الهادي وآخرون: الزور والبهتان، ص٢٦.

(٤) التبريزي: أبو زكريا يحيى بن علي بن محمد بن الحسن بن بسطام الشيباني الخطيب من العلماء المشهورين في فقه اللغة العربية ولد سنة ٤٢١هـ، وأشهر من أخذ عنهم أبو العلاء المعري، من آثاره: شروح لدواوين الحماسة لأبي تمام والمتنبي: (دائرة المعارف الإسلامية ٥٦٧/٤ وما بعدها).

(٥) شاه عبد العزيز غلام حكيم الدهلوي: مختصر التحفة الاثني عشرية. نقله من الفارسية إلى العربية غلام محمد بن محيي الأسلمي، اختصره وهذبه السيد محمود شكري الألوسي، حققه وعلق عليه محب الدين الخطيب ب.ن، ب.ت، ص٢٦٤.

أما ما يثار حول زواج خالد بامرأة مالك فيذكر ابن كثير في البداية والنهاية أن خالدًا بنى بها بعدما حلت[1]، وقيل: إن مالكًا كان قد طلقها وحبسها عن الزواج على عادة الجاهلية مدة مضي العدة فالنكاح حلال[2].

[ولو صحت رواية قتله لمسلم بغير حق ونزوه على امرأته بدون نكاح لاستحال أن يبقيه أبو بكر رضوان الله عليه في قيادة الجيش لبعده ﷺ عن الاعتضاد بفاجر سفاك، ولسان سيرته يقول في كل موقف: ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾[3] ولما يعود من ذلك على الإسلام من سوء القالة في أخطر الأيام ـ أيام حرب الردة ـ وقد لقب الوحي خالدًا بلقب «سيف الله»[4] تشريفًا له، أفلا يكون من المحال أن يصف الوحي بهذا اللقب سفاكًا فاجرًا؟!

وأما ما يعزى إلى عمر ﷺ من الكلمات القاسية في خالد، فيكفي في إثبات عدم صحتها قول عمر عند عزله خالدًا: (ما عزلتك عن ريبة)[5] بل لو صح ذلك عنه لرماه بالجنادل وقتله رجمًا بالحجارة

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ٥/٢٧.

(٢) شاه عبد العزيز الدهلوي: مختصر التحفة الاثني عشرية، ص٢٦٤، ٢٦٥.

(٣) سورة الكهف، الآية: ٥١.

(٤) قال ابن كثير: وقد روينا في مسند أحمد من طريق الوليد بن مسلم عن وحشي بن حرب عن أبيه، عن جده، وحشي بن حرب، عن أبي بكر الصديق أنه لما أمَّر خالدًا على حرب أهل الردة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«فنعم عبد الله وأخو العشيرة خالد بن الوليد، خالد بن الوليد سيف من سيوف الله سله الله على الكفار والمنافقين»**. (البداية والنهاية ٥/١٩١).

(٥) أورد ابن كثير أن عمر قال حين عزل خالدًا عن الشام والمثنى بن حارثة عن العراق: إنما عزلتهما ليعلم الناس أن الله نصر الدين لا بنصرهما وأن القوة لله جميعًا. (البداية والنهاية ٥/١٩٣).

لأن الإسلام لا يعرف المحاباة][1].

ولم يكن طه حسين أول من روج هذه الشبهة على أبي بكر وخالد، بل سبقه إليها الروافض فكان مما أخذوه على أبي بكر ﷺ أنه درأ الحد عن خالد بن الوليد أمير الأمراء عنده ولم يقتص منه وذلك حين قتل مالك بن نويرة ونكح امرأته[2].

ثم إن المستشرقين تلقفوا الشبهة ذاتها وأكثروا من الكلام حولها وجاء الدكتور فنسج على منوالهم.

يقول تسترشتين، ك.ف[3]: [قصد خالد بن الوليد بني تميم، وكان مالك بن نويرة يتزعم بطنًا من بطونها ولما دانت هذه البطون لخالد استسلم مالك أيضًا، بيد أنه أسر، وقتل، وبنى خالد بأرملته، فشكا الناس إلى الخليفة فعل خالد، ويروى أن خالدًا اعتذر عن قتل مالك وسائر الأسرى بأنه كان نتيجة خطأ في الفهم، فقد أمر جنده أن يبذلوا لأسراهم من اللباس ما يستدفئون به قائلاً: «أدفئوا أسراكم» ففهم الأعراب أن المقصود بها «اقتلوا أسراكم».

ومهما يكن من شيء فقد قنع أبو بكر بلومه وأبقاه في منصبه على الرغم من شدة اعتراض عمر][4].

ومن خلال كلام هذا المستشرق يظهر مقدار التوافق بين كلام

---

(١) جمال عبد الهادي وآخرون: الزور والبهتان ص٢٨.

(٢) شاه عبد العزيز الدهلوي: مختصر التحفة الاثني عشرية، ص٢٦٤.

(٣) ستر ستين. ك. ف: مستشرق سويدي (١٨٦٦ ـ ١٩٥٣) كان له اهتمام عظيم باللغات، فأتقن الفارسية والعربية، شارك في دائرة المعارف الإسلامية وفي عدة معاجم ومجلات، وله اهتمام بالغ باللهجات العامية. (المستشرقون ٢٨/٣).

(٤) دائرة المعارف الإسلامية، مادة: خالد بن الوليد ٢٠٢/٨، ٢٠٣.

الدكتور وأفكار المستشرقين، وإن اكتفى المستشرقون بالعبارات المقتضبة والإشارات الخفية، فجاء الدكتور فبسط البحث واستغنى بالعبارة الواضحة عن الإشارات الخفية ولم يترك للقارئ فرصة الاستنتاج والاستخلاص للمعاني إنما ساقها إليه في أجل وضوح وبيان!

عمر بن الخطاب في كتابات طه حسين:

لم يحظ أحد من الصحابة بقدر كبير من الثناء والإطراء في كتابات الدكتور طه حسين مثلما حظي الخليفة الراشد عمر بن الخطاب ﷺ ـ وهو بالمدح جدير ـ وغالى في مدحه حتى رفعه على مقام النبوة درى أم لم يدر، فهو حين يتحدث إلى الشباب عن عمر ﷺ كنموذج ينبغي أن يحتذى ويقتدى به يقول في كلام جماعة الإغراق وعدم الاستثناء: [فعمر فيما نعتقد أعظم شخصية يمكن أن تعرض على الشباب لأنهم يجدون فيه خير ما نحب أن يجدوا من المثل التي نتمنى أن يطيلوا النظر إليها، والتفكير فيها، والتأثر بها؛ لعلهم يرقون إليها شيئًا][1].

ثم قال وبالأسلوب ذاته يصف سلامة قلبه وحساسية ضميره: [وما أعرف أن خليفة من خلفاء المسلمين أو ملكًا من ملوكهم منح ما منحه عمر من هذا الضمير الحساس إلى أقصى ما يستطيع الضمير أن يحس. ظهر ذلك من أمره للناس جميعًا ظهورًا قويًا مقنعًا حتى شبهوه بالميزان الدقيق الذي لا يمكن أن ينحرف أو يجور، وما أعرف خليفة من خلفاء المسلمين أو ملكًا من ملوكهم، تمثل حساب الله في جميع

(١) طه حسين: من لغو الصيف إلى جد الشتاء: المجموعة الكاملة ـ الشركة العالمية للكتاب، بيروت، ط٢، سنة ١٩٨٣، ١٤/٣٠٤، ٣٠٩.

لحظاته يقظانًا ونائمًا عاملاً ومستريحًا، مقبلاً على عظائم الأمور أو على الهين منها كما فعل عمر][1].

ومرة ثالثة يعظم من الاستغراق في مدح عمر ﷺ فيقول: [وما أعرف أن التاريخ الإنساني كله يستطيع أن يجد لعمر نظيرًا في هذا الضمير الحي الحساس المتحرج المتأثم الذي يخاف على نفسه ما لا يخاف، وينكر من نفسه ما لا ينكر، ويأخذ نفسه من ضروب الشدة والعنف بما لا يأخذ الرجل نفسه إلا أن يكون من أولي العزم][2].

ورغم هذا الإطراء والمديح فقد أساء الدكتور إلى عمر في أكثر من موضع إذ وصفه بالشدة والغلظة غير العادية والتي تخرج بالمرء أن يكون شخصية سوية ولا أدل على ذلك من وصفه له بأنه [كان يشق على نسائه فيفرض عليهن حياة قاسية لا يستحبها النساء؛ كان شديدًا عليهن في الكسوة، وشديدًا عليهن في الرزق، وشديدًا عليهن في سيرته كلها، يدخل عليهن عابسًا، ويخرج عنهن عابسًا، كما قالت إحدى النساء وقد خطبها ذات يوم فامتنعت عليه وكرهت عبوسه وخشونة عيشه][3]، ومن ذلك أيضًا إيراده قصة كذبها الرواة على عمر وهي إقامته حدًا على أحد أبنائه[4]، أوردها غير متشكك فيها كعادته في شكه في كثير من الروايات.

والدكتور خلال عرضه لتاريخ عمر أثار بعض النقاط التي تحتاج

---

(١) طه حسين: من لغو الصيف إلى جد الشتاء، المجموعة الكاملة م١٤ ص٣٠٩.

(٢) طه حسين: الفتنة الكبرى ـ عثمان ـ المجموعة الكاملة م٤ ص٢١٠.

(٣) طه حسين: الشيخان، ص١٣٣.

(٤) اختلفت الروايات في نوع الحد هل كان حد زنا أم حد شرب للخمر، ولقد تتبع المحدثون هذه الروايات وبينوا كذبها.

إلى وقفات لبيان وجه الحق فيها وسنتكفي ببعض المواقف مباعدين بيننا وبين الحصر أو الاستقصاء إذ أن ذلك يشق ويتنافى مع طبيعة البحث.

عمر ودوره في التشريع الإسلامي:

عند كلام الدكتور عن عناية عمر ﷺ بشؤون الدين كما كان يعنى بشؤون الدنيا، أطلق الدكتور دعوى عريضه قررها بقوله:

[ولم يكتف عمر بذلك (رعاية أمور الدنيا) وإنما كان يرعى شؤون الدين كلها في دقة كما كان يرعى شؤون الدنيا، ورعايته هذه لشؤون الدين قد حملته على أن يبتكر أشياء لم يكن للمسلمين بها عهد أيام النبي ولا أيام أبي بكر فهو الذي أخذ الناس بقيام رمضان بعد أن تصلى العشاء، فسن لهم صلاة التراويح، لم يقصر ذا على الرجال وحدهم وإنما سنه للنساء أيضًا، وجعل للرجال قارئ يصلي بهم صلاة التراويح هذه، وجعل للنساء قارئًا يصلي بهن هذه الصلاة، وكتب بذلك إلى الآفاق لتكون هذه الصلاة عامة بين المسلمين.

واشتد في عقاب الذين يشربون الخمر ففرض لشرب الخمر حدًا لم يكن معروف قبله فالله حرم الخمر في القرآن الكريم ولكنه لم يفرض على شاربها عقابًا في الدنيا، وإنما ترك ذلك لما ادخر للمخالفين عن أمره ونهيه من العقاب يوم القيامة][1].

والحق أن الدكتور لم يكن موفقًا حين قال: إن عمر ﷺ ابتكر أشياء لم يكن للمسلمين بها عهد أيام النبي ولا أيام أبي بكر! إذ الابتكار إحداث شيء على غير مثال سابق، وعمر ما فعل شيئًا من هذا

(١) طه حسين: الشيخان، ص٢٠٢.

ولا ينبغي له أن يفعل خاصة في أمور العبادات والأحكام المقررة من أمور الدين!! فسوق الكلام على هذا النحو يوحي بأن هناك نقصًا في الدين عمل عمر على إكماله والأمر لم يكن كذلك.

فالدكتور نفسه حين أراد أن يفصل ما أجمله من القول السابق بين أن ابتكار عمر (أو اجتهاده كما ينبغي أن يسمى) كان في ظل أصول الإسلام وأنه استند على أدلة قوية.. فكان من قوله:

[فعمر لم يسن للمسلمين حين سن لهم صلاة التراويح في رمضان إلا قليلاً مما طلب الله إلى رسوله[1] فهو إذن ملائم للقرآن أشد الملاءمة وأقواها.

ويقول المحدثون: إن النبي ﷺ قام ليلة في المسجد، وتسامع الناس بذلك، فجعلوا يسرعون إلى المسجد ليشهدوا مع النبي صلاته تلك، فلما كان الغد قام النبي في المسجد قيامه البارحة فكثر الناس، ثم ما زالوا يكثرون بعد ذلك حتى اكتظ بهم المسجد. فلما رأى النبي ﷺ منهم ذلك لم يخرج للناس في الليل بعد صلاة العشاء، واكتفى بالقيام في بيته فلما سأله الناس عن ذلك قال: «**خشيت أن تفرض عليكم وألا تطيقوا ذلك**»[2] فعمر إذن لم يزد على أن عاد إلى

---

(١) أي: من قيام الليل ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ۝٣﴾... الآيات [المزمل: ٢، ٣].

(٢) حديث قيام رمضان رواه البخاري ٣/٢٢٠ في صلاة التراويح، باب فضل من قام رمضان ومسلم رقم (٧٦١) في صلاة المسافرين، باب الترغيب في قيام رمضان وهو التراويح. راجع: ابن الأثير الجزري: جامع الأصول في أحاديث الرسول ٦/١١٧، ١١٨.

شيء ضيئل من سنة النبي ﷺ في رمضان][1].

فعمر لم يسن إذن وإنما أحيا سنة، قال ابن قدامة[2] في المغني: (ونسبت التراويح إلى عمر بن الخطاب، لأنه جمع الناس على أبي بن كعب فكان يصليها بهم)[3].

وما أظن أن الدكتور هدف إلى بعض ما أثاره نفر من المستشرقين حين زعموا أن في الإسلام ثغرات وفراغ تشريعي[4] عمل بعض الخلفاء وبالأخص عمر رضي الله عنه إلى ملء هذا الفراغ وسد تلك الثغرات ببعض التشريعات وأكبر الظن أن الدكتور كان يبرهن على حرص عمر رضي الله عنه على دين الأمة كما كان حريص على إصلاح دنياها لكنه ولا شك جانب الصواب حين عبر بالألفاظ السابق الإشارة إليها.

ولقد جاءت عبارات سدنة الاستشراق في هذه المسألة متسقة مع الإسلام تمامًا إذ قررت الواقع لا غير يقول فنسنك[5]:

[التراويح كلمة عربية... وهي الصلوات التي تقام في ليالي

---

(١) طه حسين: الشيخان، ص٢٠٨.

(٢) ابن قدامة: هو عبدالله بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي ولقب بموفق الدين أبو محمد ولد سنة ٥٤١هـ، مفسر ومحدث وأصولي وفقيه ولغوي وبارع كذلك في الحساب والنجوم صنف في كثير من العلوم، وأبرز آثاره: المغني. (راجع: مقدمة المغني ـ ترجمة صاحب المغني ـ طبعة المكتبة التجارية مكة المكرمة).

(٣) موفق الدين وشمس الدين ابني قدامة: المغني والشرح الكبير، المكتبة التجارية، مكة المكرمة، دار الفكر بيروت، ط١٤١٤هـ، ١/٨٣٤.

(٤) د. عجيل النشمي: الخلفاء الراشدون ودورهم في التشريع في نظر المستشرقين، مجلة المنهل العدد ٤٧١ سنة ١٤٠٩هـ، ص٦٣.

(٥) سبق ترجمته، ص٢٦٢.

رمضان، وجاء في الحديث أن النبي ﷺ أشاد بها وإن كان في الوقت نفسه قد بين أنها ليست من الفرائض، ويروى أن عمر كان أول من جمع لها المصلين خلف قارئ من القراء في مسجد المدينة آحادًا أو جماعات][1].

أما ما يتعلق بحد الخمر فلا خلاف بين الأئمة على وجوب حد شارب الخمر، وأن العقوبة المقررة لهذه الجريمة مقدرة شرعًا وثابتة بالسنة الفعلية ولكنهم اختلفوا في مقدار الحد على رأيين.

* **الرأي الأول**: قال بأن حد الخمر أربعون جلدة وما زاد عن الأربعين هو من باب التعزيز [وعمدة أصحاب هذا القول فيما ذهبوا إليه السنة الفعلية الثابتة عن رسول الله ﷺ في شارب الخمر حيث جلده أربعين جلدة لما روي عن علي «جلد النبي ﷺ أربعين وجلد أبو بكر أربعين وعمر ثمانين وكل سنة وهذا أحب إلي»[2] فدل هذا على أن حد شرب الخمر الذي طبقه الرسول ﷺ أربعون جلدة، وفعل النبي ﷺ حجة لا يجوز تركه بفعل غيره ولا ينعقد الإجماع على ما خالف النبي وأبا بكر وعلي رضي الله عنهما فتحمل الزيادة من عمر على أنها تعزير يجوز فعلها إذا رآه الإمام، فأصحاب هذا القول يعتبرون أن الحد أربعون ولا تجب زيادته اقتداء بما فعل رسول الله ﷺ ولولي الأمر زيادته واعتبار أن ما زاد على الأربعين من باب التعزير][3] وهذا الرأي

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية، مادة: تراويح ١٩/٥، ٢٠.

(٢) مسلم: صحيح مسلم ١٣٣١/٣، حديث رقم (١٧٠٧).

(٣) د. معجب بن معدي العتيبي: حقوق الجاني بعد صدور الحكم في الشريعة الإسلامية، طبعة خاصة بالمؤلف، ط١، سنة ١٤١٣هـ، ص٣٣٠، ٣٣١ بتصرف.

قال به أيضًا شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله إذ قال: [«حد الشرب ثابت بالسُّنَّة وإجماع المسلمين أربعون، والزيادة يفعلها الإمام عند الحاجة إذا أدمن الناس الخمر وكانوا لا يرتدعون بدونها»، وقال: «الصحيح أن الزيادة على الأربعين إلى الثمانين ليست واجبة على الإطلاق ولا محرمة على الإطلاق، بل يرجع فيها إلى اجتهاد الإمام]»[1].

* **والرأي الثاني**: [قالوا: حد الشرب ثمانون جلدة قال بهذا الحنفية والمالكية ورواية عن الحنابلة... وأصحاب هذا القول اعتبروا الإجماع لعدم وجود النص وعمدتهم في ذلك ما روى مالك بن أنس عن ثور بن زيد البلي أن عمر بن الخطاب استشار في الخمر يشربها الرجل فقال له علي بن أبي طالب: نرى أن نجلده ثمانين، إذا شرب سكر، وإذا سكر هذى وإذا هذى افترى أو كما قال، فجلده عمر ثمانين[2]، ورفع الحد ثمانين جلدة إجماع الصحابة والإجماع مصدر من مصادر الفقه الإسلامي][3].

فهذا الكلام السابق فيه رد على الدكتور في زعمه أن عمر اخترع حد الخمر اختراعًا أو ابتكره ابتكارًا، وإنما هو اجتهاد في فهم النصوص وعمل ضمن قواعدها العامة لتحقيق المصالح الشرعية وسياسة الأمة بما يصلحها معاشًا ومعادًا.

---

(١) صالح بن فوزان آل فوزان: الملخص الفقهي، دار ابن الجوزي، السعودية، ط٥، ١٤١٧هـ، ٤٣٢/٢.

(٢) مالك، الموطأ ٨٤٢/٢، حديث رقم ٢، باب الحد في الخمر.

(٣) معجب بن معدي العتيبي: حقوق الجاني بعد صدور الحكم في الشريعة الإسلامية، ص٣٣٠، ٣٣١ بتصرف.

ولقد جاءت كلمات المستشرقين موافقه للتصور الإسلامي في هذه المسألة فها هو فنسنك في بحثه عن الخمر في دائرة المعارف الإسلامية عند حديثه عن حد الخمر قال: [أما فيما يتعلق بحد الخمر، فإن الحديث يخبرنا بأن النبي ﷺ وأبا بكر ضرباه بالجريد والنعال أربعين جلدة... وكتب خالد بن الوليد إلى عمر أيام خلافته أن الناس يتورطون في الأشربة المحرمة فاستشار عمر الصحابة فرأوا أن يجعل الحد ثمانين جلدة... وأخذت المذاهب المختلفة برأي عمر وهو ضرب شارب الخمر ثمانين جلدة، فإذا كان عبدًا نقص الحد إلى أربعين... ومع ذلك فقد تشبث الشافعية بما سنه النبي وأبو بكر وعندهم أن حد شارب الخمر أربعون جلدة وعلى العبيد عشرون][1].

مقاسمة عمر للصحابة في أموالهم:

من الأمور التي مدح بها الدكتور الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه حرصه على أموال المسلمين وأنه كان في هذا السبيل يحاسب الولاة وربما قاسمهم أموالهم إذا ظهر عليهم ثراء غير مشروع.

وهذه منقبة جليلة لأمير المؤمنين ولا شك ولها في كتب التاريخ شواهد تؤيدها... ولكن الدكتور جعل من تلك المنقبة مدخلاً للطعن في الذمة المالية لصحابة مشهود لهم بالفضل أمثال أبي هريرة وسعد بن أبي وقاص رضي الله عنهما معتمدًا على روايات ـ ربما كانت مكذوبة ـ تنال من أمانة الصحابيين؛ مغفلاً روايات كثيرة تشيد بفضلهما وتبرئ ساحتهما، يقول الدكتور وكأنه يحكي وقائع ثابتة لا مجال للشك فيها: [وقد رأيت أنه ـ أي: عمر بن الخطاب رضي الله عنه ـ قاسم سعد بن أبي وقاص حين

(١) دائرة المعارف الإسلامية، مادة: الخمر ٤٥٦/٨.

عزله عن الكوفة، وقاسم أبا هريرة حين عزله عن البحرين، وقاسم غيرهما من ولاته الذين لم يرض عن كسبهم وسيرتهم في المال][1].

وهذه الجملة الأخيرة طعن واضح في أمانة الرجلين وأن عمر رضي الله عنه وعن الجميع إنما عزلهم عن خيانة منهم للمسلمين وغش لهم.

ولتحقيق هذا الأمر نذكر ما قاله ابن كثير في الرجلين جميعًا وخاصة في أمر التولية والعزل.

فعن سعد بن أبي وقاص يقول ابن كثير رحمه الله: [اسمه مالك بن أهيب بن عبد مناف بن زهرة ابن كلاب، أبو إسحاق القرشي الزهري أحد العشرة المشهود لهم بالجنة... كان في أيام الصديق معظمًا جليل المقدار، وكذلك في أيام عمر وقد استنابه على الكوفة... وعزله عمر عن الكوفة عن غير عجز ولا خيانة ولكن لمصلحة ظهرت لعمر في ذلك، وقد ذكره في الستة أصحاب الشورى][2]، ولو صدقت دعوى أولئك الطاعنين على سعد ما جعله عمر في أهل الشورى ويضاف لفضل سعد أنه سأل النبي أن يدعو له بأن يكون مستجاب الدعوة فدعا له النبي ﷺ فكان مستجاب الدعوة وكانت هذه الأمنية مشروطة بمطلب نبوي وهو أن يطيب مطعمه قال الرواة: (فكان سعد يتورع عن السنبلة يجدها في زرعه فيردها من حيث أخذت)[3].

---

(١) طه حسين: الشيخان، ص٢١٨.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية ٥/٥٦٧.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية ٥/٥٧٢.

فرجل هذا شأنه محال أن يحيف على مال المسلمين فيأخذه بغير حقه، أما أبو هريرة ﷺ فيقول عنه ابن كثير: [وقد استعمله عمر بن الخطاب عليها (البحرين) في أيام إمارته، وقاسمه مع جملة العمال قال عبد الرزاق: حدّثنا معمر عن أيوب عن ابن سيرين. أن عمر استعمل أبا هريرة على البحرين فقدم بعشرة آلاف فقال له عمر: استأثرت بهذه الأموال أي عدو الله وعدو كتابه؟ فقال أبو هريرة: لست بعدو الله ولا عدو كتابه، ولكن عدو من عاداهما. قال: فمن أين لك؟ قال: خيل نتجت، وغلة ورقيق لي، وأعطية تتابعت عليَّ. فنظروا فوجدوه كما قال. فلما كان بعد ذلك دعاه عمر ليستعمله فأبى أن يعمل له فقال له: تكره العمل وقد طلبه من كان خيرًا منك طلبه يوسف عليه السلام، فقال: إن يوسف نبي ابن نبي ابن نبي ابن نبي وأنا أبو هريرة بن أميمة وأخشى ثلاثًا أو اثنين، قال عمر: فهلا قلت: خمسة؟

قال: أخشى أن أقول بغير علم، وأقضي بغير حلم، أو يضرب ظهري، وينزع مالي ويشتم عرضي][1].

فهذه الحادثة كافية لرد الاتهام الذي رمى به أبو هريرة ﷺ ولقد تورع بعض المستشرقين أن ينال من أمانة الصحابيين فها هو تسترشتين[2] يقول عن سعد بن أبي وقاص: «. . . . على أن خدمات سعد العسكرية والإدارية الكبرى قدرها عمر حق قدرها. ذلك أنه عندما عهد وهو على فراش الموت إلى ستة من أخلص صحابة النبي باختيار خليفة المسلمين في خلال ثلاثة أيام اختار عمر سعدًا وجعله أحد مشيريه. بل يقال: إنه أبدى أيضًا أنه إذا لم يبايع سعد بالخلافة فإنه

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ٥/٦١٤، ٦١٥.

(٢) سبق التعريف به.

يوصي الخليفة القادم بأن يعوضه عن ذلك بولاية إقليم من الأقاليم؛ لأنه سبق أن أقيل من منصبه لا لعجز فيه ولا لوصمة شانت سلوكه»[1].

ورغم ما في كلام المستشرق من غمز وإشارات خفية مغرضة إلا أن محل الشاهد شهادته في آخر كلامه أن عزل سعد لم يكن عن طعن في أمانته ولا عجز في كفايته، فكان هذا المستشرق أكرم على نفسه من أن يسير وراء الروايات الكاذبة وينسج على منوالها.

كذلك لم يتورط جولدزيهر[2] حين ترجم لأبي هريرة - فيما تورط فيه الدكتور طه حسين إذ طعن في أمانة أبي هريرة ﷺ، إنما عرض لموضوع التولية والعزل دون أن يثير شبهة أو يوجه مطعنًا فكان من قوله: (وقد استعمله عمر على البحرين اعترافًا منه بفضله في إذاعة الحديث[3] ولما عزل من هذا المنصب وأراده على العمل ثانية أبى وآثر أن يعيش في المدينة كما يعيش عامة الناس)[4] ولو كان لهذه الدعوى ثبوت لما توانى جولدزيهر على القول به لا سيما وهو المعروف بعدائه الشديد للإسلام والمسلمين.

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

(١) دائرة المعارف الإسلامية، مادة: سعد بن أبي وقاص ٤٠١/١١.

(٢) جولدزيهر: (١٨٥٠هـ/١٩٢١م) مستشرق مجري، درس بالأزهر على الإمام محمد عبده، شغل العديد من المناصب الجامعية، له مؤلفات عديدة أشهرها: العقيدة والشريعة في الإسلام. المستشرقون ٤٠/٣، ٤١.

(٣) لم تكن هذه رؤية عمر التي يولى الولاة من أجلها وإنما كانت هناك شروط أخرى تراعى ليس هذا مقام تفصيلها. راجع: د. محمود محمد عمارة: من فقه عمر في المساءلة والعزل والتعيين - وزارة الأوقاف، سلسلة دراسات إسلامية العدد ٧٢، سنة ١٤٢٢هـ، ص١٧ وما بعدها.

(٤) دائرة المعارف الإسلامية، مادة: أبو هريرة ٤١٨/١.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

المبحث الثاني

دعوى تحريق المسلمين لمكتبة الإسكندرية

من الدعاوى التاريخية التي رُمِيَ المسلمون بها دعوى تحريق مكتبة الإسكندرية إبان الفتح الإسلامي لها بأمر من الخليفة عمر بن الخطاب لواليه على مصر عمرو بن العاص.

ولقد كان للدكتور طه حسين من الدعوى أمر عجيب وغريب فحين كان يدرس في فرنسا وأثناء إعداده لرسالته للدكتوراه عن فلسفة ابن خلدون الاجتماعية كذَّبَ الدكتور هذه الدعوى ودعوى أخرى تقول: إن عمر بن الخطاب أمر سعد بن أبي وقاص بتحريق كتب للفرس عند فتحه لبلاد فارس كذب الدكتور ذلك كله بقوله:

(ويزعم بلا دليل ـ يقصد ابن خلدون ـ أنه منذ الفتح الإسلامي لفارس أمر الخليفة عمر بإتلاف دور الكتب جميعها بيد أن ذلك ليس من المحقق. ونحن نعتقد أن تلك القصة كقصة إحراق مكتبة الإسكندرية بأمر عمر خرافة أثبت المستشرقون سخفها نهائيًا)[1] ثم عاد

(١) طه حسين: فلسفة ابن خلدون الاجتماعية، المجموعة الكاملة ـ الشركة العالمية للكتاب ـ المجلد الثامن، ص٥٥.

الدكتور بعد ذلك بسنوات قلائل ليكتب مقالًا طويلًا بجريدة السياسة اليومية جعل عنوانه: (خزانة الكتب بالإسكندرية وتحريق العرب إياها)[1] ومن خلال العنوان يظهر هدف المقالة وهو الانتصار لإثبات دعوى التحريق من العرب لتلك المكتبة! وكعادة الدكتور أراد أن يظهر إنصافه وتجرده وتمسكه بقواعد البحث العلمي حتى لا يؤاخذه واحد من الناس بأنه متحامل على العرب أو يريد أن يرميهم بالنقائص والمعايب، أراد أن يظهر ذلك فساق دعوى غريبة أذكرها بلفظه فهو أجدر بالتعبير عن نفسه يقول الدكتور:

(والذين يريدون ألا تكون خزانة فيحرقها العرب أيام الفتح متعصبون للعرب والمسلمين سواء منهم من كان عربيًا مسلمًا أو عربيًا أوروبيًا مستشرقًا. فمن الخير أن تعلم أن تعصب المستشرقين للحضارة العربية قد يكون أشد من تعصب المسلمين لدينهم وقد يكون أشد من تعصب العرب لجنسيتهم...)[2].

هكذا... بهذا الأسلوب يرمى من ينصف العرب والمسلمين بأنه متعصب لهم حتى المستشرقين الذين أنصفوا العرب في هذه الدعوى يرميهم طه بأنهم من المتعصبين للعرب والعجيب أن الدكتور ذكر في أعقاب كلامه هذا رأي المستشرقين كازانوفا وجريفيني اللذين يكذبان القصة ويريان أن الخزانة لم توجد إبان الفتح الإسلامي لمصر وإذن فلم يحرقها العرب... ذكر هذين المستشرقين ورأييهما ليثبت أنهما ممن تعصبوا للعرب فقالوا ما قالوا. مع أن هذين المستشرقين لم يعرف

---

(١) السياسة اليومية، الصادرة في يوم الأربعاء ١٧ جمادى الآخرة سنة ١٣٤٣هـ، ٢٣ يناير سنة ١٩٢٤، صفحة الأدب، ص٣.

(٢) المرجع السابق نفسه.

عنهما ما زعمه الدكتور من تعصبهما للعرب بل إن الدكتور نفسه كثيرًا ما أشاد بعلم كازانوفا وطرقه في البحث. والعجيب أن الدكتور حين نفى عن العرب تلك التهمة في «فلسفة ابن خلدون الاجتماعية» كان متبنيًا لرأي أستاذه كازانوفا الذي كان يقرأ عليه فصول رسالته هذه بعد الفراغ من إملائها[1]!! وكان رأي الدكتور الأول يمثل اعتقادًا بأن القصة خرافة أثبت المستشرقون سخفها نهائيًا... ثم عدل عن هذه العقيدة في مقاله المشار إليه فقال:

[فلو أنك تستشير العقل وفروضه في أمر هذه الكتب التي يقال: إنها حرقت في مصر وفي فارس لما جزم العقل بأن تحريق هذه الكتب مستحيل بل لمال إلى أن تحريق هذه الكتب ممكن فليس من الغريب في شيء أن أمة بدوية كالأمة العربية قد اعتنقت دينًا جديدًا كالدين الإسلامي فهي مؤمنة به إيمانًا قويًا لا تُؤثر عليه شيئًا ولا تزنه بشيء، أقول: ليس من الغريب أن أمة كهذه الأمة تُقْدِم على تحريق كتب لا تعلم ما فيها ولكنها تعلم أنها تمثل دينًا غير الدين الذي أذعنت له وفنيت فيه وهي إن كانت قد فعلت ذلك فليست آثمة إلا أمام طائفة معدودة من العلماء المؤرخين الذين يتعصبون لعلمهم وللآثار التاريخية ويكرهون أن يحال بينهم وبين قليل أو كثير من هذه الآثار... فليس على المسلمين جناح أن يكون العرب قد حرقوا خزانة الإسكندرية وأبادوا كتب الفرس[2].

ثم لو سألت العقل واستشرته في أمر هذه الكتب فالعقل لا يكاد يصدق أن مدينة كالإسكندرية كانت العاصمة العلمية للعالم القديم قرونًا

---

(١) طه حسين: الأيام ١٢١/٣.

(٢) كذب الدكتور الأمرين جميعًا في فلسفة ابن خلدون كما ذكرنا من قبل.

وظلت في العصر الإسلامي مركزًا من أهم مراكز العلم والفلسفة والدين في العالم كانت تخلو أيام الفتح الإسلامي من الكتب وخزانات الكتب. لا يكاد يصدق هذا وإنما يكاد العقل يجزم بأن مدينة كمدينة الإسكندرية كان فيها خزانة أو غير خزانة للكتب سواء أكانت هذه الخزانة هي خزانة البطالسة أم لم تكن.

ولا ينكر العقل أن أخذ مدينة كمدينة الإسكندرية عنوة وبعد حصار قد يستتبع اضطرام النار في غير موضع من مواضع المدينة وهذه النار تستطيع أن تلتهم خزائن الكتب كما تستطيع أن تلتهم البيوت والمخازن التجارية، فليس من المستحيل أن تكون هناك خزائن للكتب قد احترقت عفوًا حين الفتح ثم غضب المقهورون فاتهموا الفاتحين بأنهم تعمدوا ذلك وقصدوا إليه وصدر إليهم فيه الأمر من خليفتهم عمر بن الخطاب)[1].

وقبل أن نوضح المطاعن التي وجهت إلى تلك الدعوى نقوم بذكر القصة كما رواها المؤرخون.

قصة الحريق كما رواها المؤرخون:

روى أبو الفرج الملطي[2] القصة على هذا النحو قال: (كان في وقت الفتح رجل اكتسب شهرة عظيمة عند المسلمين يسمى يوحنا

---

(١) السياسة اليومية: المرجع السابق نفسه.

(٢) أبو الفرج الملطي هو: غريغورس بن أهرون المعروف بابن العبري ولد سنة ١٢٢٦م في مدينة ملطية بأرمينية الصغرى. كان على علم باليونانية والسريانية والعربية وله نحو ثلاثين كتابًا بالعربية والسريانية في الفلسفة والطب والتاريخ والنحو والشعر توفي سنة ١٢٨٦م. حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام ٢٤٢/١.

النحوي[1]، كان قسيسًا قبطيًا من أهل الإسكندرية، وفي هذا الزمان اشتهر بين الإسلاميين بيحيى المعروف عندنا (بغرماطيقوس) أي: النحوي. وكان إسكندرانيًا يعتقد اعتقاد النصارى اليعقوبية[2] ثم رجع عما يعتقده النصارى في التثليث، فاجتمع إليه الأساقفة بمصر وسألوه الرجوع عما هو عليه، فلم يرجع فأسقطوه من منزلته وعاش إلى أن فتح عمرو بن العاص مدينة الإسكندرية، ودخل على عمرو وقد عرف موضعه من العلوم، فأكرمه عمرو وسمع من ألفاظه الفلسفية ـ التي لم تكن للعرب بها أنسة ـ ما هاله ففتن به وكان عمرو عاقلاً حسن الاستماع صحيح الفكر، فلازمه وكان لا يفارقه. ثم قال له يحيى يومًا: إنك قد أحطت بحواصل الإسكندرية وختمت على كل الأشياء الموجودة بها. فما لك به انتفاع فلا أعارضك فيه، وما لا انتفاع لك به فنحن أولى به. فقال له عمرو: وما الذي تحتاج إليه؟ قال: كتب الحكمة التي في خزائن الملوكية. فقال له عمرو: لا يمكنني أن آمر فيها إلا بعد استئذان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب.

---

(١) يوحنا النحوي: (كان حيًا قبل ٤٣هـ/٦٦٤م) مصري إسكندراني، من أساقفة مصر، لما فتحت مصر على يدي عمرو بن العاص دخل إليه وأكرمه، له كتب في الطب والفلسفة منها «الرد على أرسطوطاليس». [معجم المؤلفين ١١٩/٤].

(٢) النصارى اليعقوبية: اسم اشتق من اسم «يعقوب البرادعي» زعيم هذه الطائفة، هذا الرجل الذي ظهر وسط القرن السادس الميلادي في البلاد الرومانية وأخذ يدعو الناس إلى اعتناق مذهب الكنيسة المصرية القائل بأن «الله ذات واحدة مثلثة الأقانيم، أقنوم الأب، وأقنوم الابن، وأقنوم الروح القدس، وأن الأقنوم الثاني ـ أي: أقنوم الابن ـ تجسد من الروح القدس، ومن مريم العذراء، فصير هذا الجسد معه واحدًا وحدة ذاتية جوهرية منزهة عن الاختلاط والامتزاج والاستحالة، بريئة من الانفصال، وبهذا الاتحاد صار الابن المتجسد طبيعة واحدة من طبيعتين ومشيئة واحدة». راجع: الإمام محمد أبو زهرة: النصرانية. دار الفكر العربي، مصر، ب.ت، ص١٤٤، ١٤٥.

وكتب إلى عمر وعرفه قول يحيى، فورد عليه كتاب عمر يقول فيه: وأما الكتب التي ذكرتها، فإن كان فيها ما يوافق كتاب الله ففي كتاب الله عنه غنى، وإن كان فيها ما يخالف كتاب الله، فلا حاجة إليها فتقدم بإعدامها، فشرع عمرو بن العاص في تفريقها على حمامات الإسكندرية وإحراقها في مواقدها، فاستنفدت في ستة أشهر فاسمع ما جرى واعجب!)[1].

(وقد دلل المؤرخون الذين ذهبوا إلى القول بأن إحراق مكتبة الإسكندرية كان على يد عمرو بن العاص بأمر الخليفة عمر بن الخطاب:

١ ـ بأن المسلمين كانت لهم رغبة عظيمة في محو كل كتاب غير القرآن والسُّنَّة.

٢ ـ وأنهم أحرقوا مكاتب الفرس عند فتح بلادهم كما ذكر حاجي خليفة[2]، في كتابه كشف الظنون.

٣ ـ وأن هذه الرواية والتي تثبت الحريق لم يروها أبو الفرج فقط، بل رواها أيضًا مؤرخان مسلمان هما: عبد اللطيف البغدادي[3]، وابن القفطي[4].

---

(١) د. حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي ٢٤٤/١، ٢٤٥.

(٢) حاجي خليفة: (.... ـ ١٦٦٠م/.... ـ ١٧٤٧م) محمد عصمت بن إبراهيم الرومي الحنفي النقشبندي المعروف بحاجي خليفة، صوفي، متكلم، مؤرخ. [معجم المؤلفين: ٤٨٨/٣].

(٣) عبد اللطيف البغدادي (٦٢٩هـ/١٢٣١م) تاريخ الإسلام ٢٤٢/١.

(٤) ابن القفطي: وزير حلب المعروف بالقاضي الأكرم. ولد في قفط سنة ٥٦٥هـ وتوفي بحلب سنة ٦٥٦هـ، وألف كتابه إخبار العلماء بأخبار الحكماء. تاريخ الإسلام ٢٤٢/١.

٤ ـ وأن إحراق الكتب كان أمرًا معروفًا وشائعًا يتشفى به كل مخالف ممن خالفه في رأيه، وقد ذكروا أن عبدالله بن طاهر أتلف في سنة ٢١٣هـ كتبًا فارسية من مؤلفات المجوس، وحذا حذوه هولاكو[١] التتاري سنة ٦٥٦هـ بإلقاء خزائن الكتب في دجلة)[٢].

وقد رد العلماء على هذه الدعاوى بما يدحضها ويردها على أصحابها فقالوا:

(**أما الدليل الأول**، فغير مسلَّم به؛ لأن المعروف من أخلاق المسلمين أنهم كانوا يشجعون العلم، بدليل ما ذكره أبو الفرج من أن عمرو بن العاص كان يصغي إلى أقوال يوحنا النحوي، ويعجب بها كل الإعجاب ويحله من نفسه محل الاحترام والإجلال أضف إلى ذلك أن المسلمين بعد غزوة بدر كانوا يجعلون فداء من لم يجد مالاً يفتدي به نفسه أن يعلم عشرة من صبيان المسلمين وهذا منتهى التشجيع للعلم.

ـ **أما الدليل الثاني**: وهو أنهم أحرقوا مكتبة الفرس عند الفتح. فلم نر من المؤرخين من ذكره إلا حاجي خليفة، ومثل هذا المؤرخ لا يؤخذ بكلامه ولا يعول عليه في المسائل التاريخية المتقدمة، لأنه توفي سنة (١٠٦٧هـ/١٦٥٧م) فلو أن المسلمين أحرقوا هذه المكتبات لذكر ذلك المؤرخون الذين تقدموا حاجي خليفة.

ـ **أما الدليل الثالث**: وهو أن أبا الفرج لم يرو هذه الرواية وحده

---

(١) هولاكو (٦١٤هـ/١٢١٧م ـ ٦٦٤هـ/١٢٦٥م) فاتح مغولي، حفيد جنكيز خان، احتل بغداد وأطاح بالخلافة العباسية وقتل الخليفة المستعصم عام (٥٦٧هـ/١٢٥٨م) هُزمت جحافله أمام المماليك في معركة عين جالوت بفلسطين عام (٦٥٩هـ/١٢٦٩م). [أشرف طه أبو الدهب/المعجم الإسلامي، ص٦٤١].

(٢) د. حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام ١/٢٤٢، ٢٤٣.

بل رواها أيضًا عبد اللطيف البغدادي وابن القفطي وهما مؤرخان عظيمان فيمكن دحضه ببيان أن عبد اللطيف البغدادي هو أول من نسب الحريق إلى عمرو وجاء بعده ابن القفطي وأبو الفرج الملطي فأخذاها عنه ولم يذكروا جميعًا من أي تاريخ أخذت القصة ولا من أي مصدر استقيت.

أما الدليل الرابع: فلا يثبت دعواهم لأنه على فرض صحة هذه الرواية، فإن عبدالله بن طاهر كان متأخرًا (٢١٣هـ) ولا يؤخذ عمله حجة على عمر بن الخطاب المتوفى سنة ٢٣هـ)[١].

ما وجه إلى الدعوى من طعون:

لقد وجه إلى تلك الدعوى طعون تقضي عليها من أساسها وأجدر شيء بالملاحظة أن الذين طعنوا في القصة معظمهم من الأوروبيين الذين يثق الدكتور في علمهم ومعرفتهم بمناهج البحث العلمي. (الدكتور الفرد بتلر Butler[٢] المؤرخ الإنجليزي الذي أسهب في تاريخ فتح العرب لمصر والإسكندرية يلخص الحكاية وينقضها ابتداء (لأن يوحنا فلبيوتوس الذي قيل: إنه خاطب عمرو بن العاص في أمر المكتبة لم يكن حيًّا في أيام فتح العرب لمصر.. ثم ينقضها لأسباب شتى منها أن كثيرًا من كتب القرن السابع كانت من الرق وهو لا يصلح للوقود، وأنه لو قضى الخليفة بإحراقها لأحرقت في مكانها ولم يتجشموا نقلها إلى الحمامات مع ما فيها من التعب ومع إمكان شرائها من الحمامات بعد ذلك بأبخس الأثمان، ولو أننا صرفنا النظر عن

---

(١) د. حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام ٢٤٣/١ بتصرف.

(٢) بتلر، ا.ج إنجليزي من آثاره: كتاب فتح العرب لمصر ١٩٢٣. المستشرقون ٧٥/٢.

الكتب المخطوطة على الرق لما كفى الباقي من ذخائر المكتبة لوقود أربعة آلاف حمام مائة وثمانين يومًا، وهذا عدا الشك الذي يعتور القصة من تأخر كتابتها زهاء خمسة قرون ونصف قرن بعد فتح الإسكندرية ثم كتابتها بعد ذلك خلوًا عن المصادر والإسناد، بل هذا عدا ما قيل من احتراق المكتبة في السنة الثامنة والأربعين للميلاد، وفيما تلا ذلك من الفتن والقلاقل بين طوائف المسيحيين)[1] والمستشرق كازانوفا يقول في بحث له عن الموضوع ذاته: «العرب وتحريق مكتبة الإسكندرية»[2] (هناك شيء أجل خطرًا من هذا[3]، وهو أن الترجمة التي خصصها ابن القفطي ليحيى منقولة كغيرها من كتاب الفهرست هذا الكتاب القيم الذي ألفه محمد بن النديم في أواخر القرن الثالث الهجري (العاشر للميلاد) ويحدثنا الفهرست بأن يحيى عاش إلى وقت الفتح الإسلامي لمصر وحظي لدى عمر بمكانة رفيعة، ولكنه لا يشير بكلمة واحدة إلى خزانة الإسكندرية وإذن فقد اضاف ابن القفطي قصة الخزانة إلى ما نقل من الفهرست ولعله إنما فصل أسطورة كانت شائعة بمصر في أيامه)[4].

والأستاذ جريفيني[5] يكتب مقالاً في الأهرام[6] ينهى فيه المسألة

---

(١) عباس محمود العقاد: عبقرية عمر، ص٢٦٨.

(٢) ترجم الدكتور طه حسين هذا البحث ونشره في جريدة السياسة اليومية يوم الأربعاء ٢ رمضان سنة ١٣٤١هـ، ١٨ أبريل سنة ١٩٢٣ بصفحة الأدب، ص٣.

(٣) كان كازانوفا قد ذكر بعض الملاحظات التي ذكرها بتلر فلم أر ضرورة لإعادتها.

(٤) السياسة اليومية في ١٨/٤/١٩٢٣م.

(٥) جريفيني، أوجينو (١٨٧٨هـ/١٩٢٥م) مستشرق إيطالي ولد في ميلانو وفد إلى مصر وعين مديرًا للمكتبة الملكية (١٩٢٠ ـ ١٩٢٥) وظل في وظيفته حتى وفاته بالقاهرة. المستشرقون ١/٤٣٥، ٤٣٦.

(٦) في ١٥ جمادى الآخرة سنة ١٣٤٢هـ، ٢١ يناير سنة ١٩٢٤.

بأن الخزانة التي يدَّعون حريقها لم توجد إبَّان الفتح الإسلامي لمصر وإذن فلم يحرقها العرب.

والمستشرق ريفون جست Rhuvon Guest[1] حين كتب تعريفًا بالإسكندرية وتاريخها في دائرة المعارف الإسلامية كان من قوله: (ولم يضايق العرب سكان هذه المدينة عند استيلائهم عليها، كما أننا لا نستطيع أن نسلم بصحة القصة المشهورة التي تزعم أن مكتبتها العظمى قد أحرقت بأمر الخليفة عمر في ذلك العهد)[2].

ويقول الأستاذ إتين دينيه[3]: (القائلون بحرق مكتبة الإسكندرية يبدون استخفافًا لا حد له بوقائع التاريخ، ذلك أن مكتبات الإسكندرية قد خربت قبل مجيء الإسلام بقرون متعددة، وأولى هذه المكتبات هي مكتبة البروخيوم التي كانت تحتوي على أربعمائة ألف مجلد وقد أحرقت أثناء الحرب التي نشبت بين يوليوس قيصر[4] والإسكندريين،

---

(١) ريفون جست من موظفي المتحف البريطاني، وأول من مهد السبيل إلى تعليم النقوش ولا سيما الأنسجة. من آثاره: كتاب الولاة والقضاة للكندي بمقدمة إنجليزية وفهرس عام لأسماء الأعلام وصنف بحثًا عن ابن الرومي. المستشرقون ٨٣/٢.

(٢) دائرة المعارف الإسلامية، مادة: إسكندرية ١٣٧/٢.

(٣) إتين دينيه ولد في بارس سنة ١٨٦١م أسلم وأعلن إسلامه في اجتماع حافل بالجزائر سنة ١٩٢٧ ودفن بقبر شيده بنفسه، تسمى بعد إسلامه بناصر الدين، من آثاره: أشعة خاصة بنور الإسلام، والحج إلى بيت الله الحرام، والشرق كما يراه الغرب. (د. عبد الحليم محمود، أوروبا والإسلام، دار المعارف، ط٢، بدون ت، ص٨٨ ـ ١١٣).

(٤) يوليوس قيصر إمبراطور روماني (١٠٢ ـ ٤٤ ق.م) تولى القنصلية عام ٥٩ق.م. راجع: و.ج. دي بورج. تراث العالم القديم ترجمة زكي سوس/ الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ مكتبة الأسرة ١٩٩٩م، ص٢٩١.

وثاني المكتبات هي مكتبة السيرابيوم التي ضمت في يوم من الأيام مائتي ألف مجلد أوصى بها أنطونيوس وقد نهبت هذه المكتبة وخربت في عهد ثيودوزيوس[1])[2].

ويقرر صاحب تاريخ العلم (أن أعظم أعداء المكتبة في تلك الفترة لم يكونوا من الرومان الوثنيين بل من المسيحيين)[3] فكل هؤلاء المستشرقين يرميهم طه حسين بالتعصب للعرب، لأنهم أعلنوا براءة العرب من حريق تلك المكتبة ولم يذكر لنا الدكتور علة تعصبهم للعرب، إن الدكتور هنا يحاول أن يكون ملكيًا أكثر من الملك كما يقولون. أساتذته ينفون الإثم عن العرب والمسلمين ويأبى الدكتور إلا أن يدمغهم به تحت ظنون وأوهام ادعى أنها من البحث العلمي وليست منه في شيء، وكفى بشهادات هؤلاء دليلاً على براءة العرب والمسلمين مما نسبه الدكتور إليهم، والحق ما شهدت به الأعداء.

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

---

(١) ثيودوزيوس = ثيوديوسيوس الأول الكبير (٣٤٧م ـ ٣٩٥م) إمبراطور روماني، المورد ٨٣.

(٢) د. عبد المتعال الجبري: الاستشراق وجه للاستعمار الفكري ـ مطبعة المدني ـ القاهرة، ط١، سنة ١٤١٦هـ/١٩٩٥م، ص٢٤٥.

(٣) سارتون: تاريخ العلم ٢٨١/٤، ٢٨٢ نقلاً عن د. رأفت عبد الحميد: الفكر المصري في العصر المسيحي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مكتبة الأسرة ٢٠٠٠، ص٩٠.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

المبحث الثالث

موقف الدكتور من صحابة النبي ﷺ

تمهيد:

صحابة النبي ﷺ هم خير القرون بشهادة النبي ﷺ في الحديث الصحيح، عن عمران بن حصين[1] رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**خير أمتي قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم**، قال عمران: فلا أدري: أذكر بعد قرنه مرتين أو ثلاثًا؟...»[2] وحديث الزبير بن عدي رضي الله عنه قال: أتينا أنس بن مالك رضي الله عنه فشكونا إليه ما نلقى من الحجاج[3] فقال: اصبروا فإنه لا يأتي عليكم زمان إلا والذي بعده شر منه حتى

---

(١) عمران بن حصين: صحابي جليل، يكنى أبا نجيد، بابنه نجيد، أسلم عام خيبر، وغزا مع رسول الله ﷺ غزوات، بعثه عمر بن الخطاب إلى البصرة ليفقه أهلها، وتولى قضاءها من قبل عبدالله بن عامر ثم استعفى فأعفاه، توفي بالبصرة سنة ٥٢هـ. أسد الغابة (٣/٧٧٧، ٧٧٨).

(٢) رواه البخاري ٥/١٩٠ في فضائل أصحاب النبي ﷺ مسلم رقم (٢٥٣٥) في فضائل الصحابة، والترمذي رقم (٢٢٢٢) في الفتن، وأبو داود رقم (٤٦٥٧) في السُّنَّة، والنسائي ٧/١٧، ١٨ في الأيمان والنذور.

(٣) سبق ترجمته، ص٤١.

تلقوا ربكم سمعته من نبيكم ﷺ[1].

والحديث الأخير يدل على تناقص الخيرية في الأمة كلما تناءت عن العصر الأول الذي هو خير القرون، فكأن القرون مرتبة ترتيبًا تنازليًا في الفضل والمنزلة.

ولم تكن للصحابة هذه المنزلة في الإسلام إلا لحسن بلائهم في سبيله وخلوص ذواتهم وقلوبهم من حظوظ الدنيا وأغراضها، (قال عبدالله بن مسعود: إن الله نظر في قلوب العباد فوجد قلب محمد ﷺ خير قلوب العباد فاصطفاه لنفسه، ثم نظر في قلوب العباد فوجد قلوب أصحابه ﷺ خير قلوب العباد فجعلهم وزراء نبيه يقاتلون عن دينه)[2].

والمسلم الصادق مع حبه الشديد لصحابة النبي ﷺ وتقديره لهم لا يجوز أن يعتقد العصمة لأحدهم بعد رسول الله ﷺ [وكل من ادعى العصمة لأحد بعد رسول الله ﷺ كاذب، فالإنسان إنسان يصدر عنه ما يصدر عن الإنسان فيكون منه الخير والحق، ويكون منه الباطل والشر، وقد يكون الحق والخير في إنسان بنطاق واسع فيعد من أهل الحق والخير ولا يمنع هذا أن تكون له هفوات، وقد يكون الباطل والشر في إنسان آخر بنطاق واسع، فيعد من أهل الباطل والشر، ولا يمنع هذا من أن تبدر منه بوادر صالحات في بعض الأوقات.

يجب على من يتحدث عن أهل الحق والخير إذا علم لهم

---

(١) ذكره النووي في رياض الصالحين حديث رقم (٩٢) باب المبادرة إلى الخيرات وعقب عليه النووي بقول له: رواه البخاري ورقمه المحقق (٧٠٦٨) بترتيب البخاري. (رياض الصالحين ص٤١).

(٢) محب الدين الخطيب: مع الرعيل الأول، المكتبة العلمية، بيروت، ط١، سنة ١٤٠٥هـ، ٣٧.

هفوات. أن لا ينسى ما غلب عليهم من الحق والخير فلا يَكفر ذلك كله من أجل تلك الهفوات ويجب على من يتحدث عن أهل الباطل والشر إذا علم بوادر صالحات أن لا يوهم الناس أنهم من الصالحين من أجل تلك الشوارد الشاذة من أعمالهم الصالحات][1].

ولعل من أوجز العبارات التي وضحت موقف المسلم من الصحابة رضوان الله عليهم ما كتبه الأستاذ حسن البنا[2] في بعض رسائله إذ قال: «وكل أحد يؤخذ من كلامه ويترك إلا المعصوم ﷺ، وكل ما جاء عن السلف رضوان الله عليهم موافقًا للكتاب والسُّنَّة قبلناه، وإلا فكتاب الله وسنة رسوله أولى بالاتباع، ولكنا لا نعرض للأشخاص ـ فيما اختلف فيه ـ بطعن أو تجريح ونكلهم إلى نياتهم، وقد أفضوا إلى ما قدموا»[3].

تقرير موقف الدكتور طه حسين من الصحابة وما شجر بينهم من خلاف:

كعادة الدكتور اجترأ ـ فيما ينبغي الإحجام فيه ـ إذ عمد إلى حكاية تاريخ الصحابة في ظل الخلافة الراشدة والحكم عليه من خلال روايات ذكرتها كتب التاريخ لم يتبين الدكتور ثبوتها من عدمه وهو كما

---

(١) أبو بكر ابن العربي: العواصم من القواصم. من مقدمة المحقق محب الدين الخطيب، ص٥.

(٢) حسن البنا: (١٩٠٦ ـ ١٩٤٩) ولد بالمحمودية بمحافظة البحيرة تخرج من دار العلوم، أسس جماعة الإخوان المسلمين وظل موجهًا لها حتى اغتيل في ١٢ فبراير سنة ١٩٤٩ (مقدمة مجموعة رسائل الإمام الشهيد).

(٣) حسن البنا: مجموعة الرسائل، رسالة التعاليم. دار التوزيع والنشر الإسلامية طبعة سنة ١٤١٢هـ، ص٣٥٧.

سبق وعرفنا لم يعن بتمحيص الروايات ولم يطق على ذلك صبرًا.

يقول الدكتور ممهدًا لذكر موقفه من تاريخ الصحابة: (وما أريد أن أتزيد ولا أتكلف ولا أن أوذي بعض الضمائر، ولا أن أحفظ بعض الصدور ولكني مع ذلك ألاحظ أن جماعة من أصحاب النبي قد حسن بلاؤهم في الإسلام حتى رضي النبي عنهم وبشرهم بالجنة أو ضمنها لهم ثم طال عليهم الزمن واستقبلوا الأحداث والخطوب وامتحنوا بالسلطان الضخم العظيم، وبالثراء الواسع العريض، ففسدت بينهم الأمور وقاتل بعضهم بعضًا، وساء ظن بعضهم ببعض إلى أبعد ما يمكن أن يسوء ظن الناس بالناس فما عسى أن يكون موقفنا منهم؟).

ثم شرع الدكتور يقرر موقفه قائلاً: [«لا نستطيع أن نرضى عن أعمالهم جميعًا، فلا نلغي عقولنا وحدها إنما نلغي معها أصول الدين التي تأمر بالعدل والإحسان وتنهى عن الفحشاء والمنكر والبغي، ولا نستطيع أن نحكم بالخطيئة على من نظن أنه قد خطئ، لمكانهم من النبي أولاً، ولما بشرهم به النبي ﷺ من الجنة ورضا الله ثانيًا ولحسن ظنهم بالله ورسوله وثقتهم بما وعد الله ورسوله، وإيمانهم بالجنة التي بشروا بها؛ وما نحب أن نذهب في أمرهم مذهب الذين عاصروهم من خصومهم وأنصارهم، فنحكم على بعضهم بالخير، ونحكم على بعضهم الآخر بالشر؛ فالذين عاصروهم من الأنصار والخصوم كانوا شركاءهم فيما ألم بهم من الفتنة، فكانوا يرضون أو يسخطون حسب مكانهم من أولئك أو هؤلاء، أما نحن فلسنا نعاصرهم ولا نشاركهم فيما شجر بينهم من الخلاف، وليس من المعقول لذلك أن نقحم عواطفنا في أمرهم إقحامًا، وإنما سبيلنا أن ننظر في أعمالهم وأقوالهم من حيث صلتها بحياة الناس وأحداث التاريخ، وأن نخطئ من نخطئ

ونصوب من نصوب منهم من هذه الجهة وحدها دون أن نقضي في أمر دينهم بشيء، فإن الدين لله، ودون أن نستبيح لأنفسنا أن نقول كما يقول أنصارهم وخصومهم: هؤلاء مؤمنون وهؤلاء كافرون، وهؤلاء في منزلة بين بين، وهؤلاء في الجنة وهؤلاء في النار، ذلك شيء لا نخوض فيه وليس لنا أن نخوض فيه، وإنما أمره إلى الله وحده، فأما الذي إلينا فهو أن نتبين من أعمالهم وأقوالهم وسيرهم ما يلائم الحق والعدل والصواب وما لا يلائمها؛ وهذا في نفسه كثير، ولكن لا بد مما ليس منه بد][1]».

وهذا الكلام فيه من التحايل لتبرير موقفه الشيء الكثير، فكأني به يقسم حياة الصحابة إلى قسمين: قسم لله وهو ما يتعلق بأمر الدين وهذا الجانب يعد بأنه سيعرض عنه ولا يدخل فيه، وقسم للدنيا وهي حق للجميع ومن هنا أعطى الدكتور لنفسه حق النقد والتأييد والتصحيح والمخالفة وهذا تحايل يشبه تحايل العلمانيين حين يهدفون إلى هدم رموز الإسلام من الصحابة والتابعين الذين نشر الله هذا الخير على أيديهم فيظهرونهم بصورة المنهزمين أمام ضرورات الحياة الدنيا من مأكل ومشرب أو بصورة الراغبين في متاعها من مال وخراج، وهذا الكلام بمفهوم آخر يوحي بأن الإسلام لم يشخِّص كواقع عملي في أناس يحملون تعاليمه بحق وحقيقة قولاً وعملاً في أي فترة من الفترات على امتداد التاريخ حتى في هذه القرون الأولى المفضلة من حياة المسلمين.

وحين يتعرض للخلاف في حياة الصحابة يزيد موقفه إيضاحًا

---

(١) طه حسين: الفتنة الكبرى ـ عثمان ـ المجموعة الكاملة ٤/٢٣٥، ٢٣٦ بتصرف.

فيقول: [يجب أن نلاحظ بعد ذلك أن الناس قد وقفوا من الأحداث التي حدثت أيام عثمان ومن نصيب عثمان منها مواقف متباينة أشد التباين: فقوم أراحوا أنفسهم جملة، وقالوا: إن أكثر هذه الأحداث مكذوب مصنوع لم يصح وقوعه وإنما تكلفه المتكلفون، أراد بعضهم به الكيد للإسلام، ودفع بعضهم إليه بما كان من الخصومة العنيفة بين الأحزاب وهم من أجل ذلك يرفضون أكثر الأحداث، ويرون فيما يقبلون منها أنها أمور ليست بذات خطر، ذهب فيها الإمام مذهب الاجتهاد فإن أصاب فله أجران، وإن أخطأ فله أجر واحد، وهو على كل حال لم يرد إلا الخير... وأكثر الذين يذهبون هذا المذهب إنما يدفعون إليه لأنهم يقدسون ذلك العصر من عصور الإسلام، ويكرهون أن يحملوا على أصحاب النبي ما يحمل عادة على الذين يستقبلون أمور الدنيا بما في نفوسهم من استعداد للمنافسة والاصطراع حول أعراض وأغراض لا تلائم قومًا صحبوا رسول الله، وأبلوا في سبيل الله أحسن البلاء... وقليل من الذين يرون هذا الرأي ويذهبون هذا المذهب يدفعون إلى ذلك بحكم الكسل العقلي الذي يمنعهم من البحث والدرس والاستقصاء.

وقوم آخرون يريحون أنفسهم نوعًا آخر من الإراحة، فيستبعدون أن تقع هذه الأحداث والفتن من أصحاب النبي، ويرون أنها مؤامرات دبرها الكائدون للإسلام كعبدالله بن سبأ ومن لف لفه من أهل الكتاب وغير أهل الكتاب.

وواضح جدًا أننا لا نستطيع أن نذهب هذا المذهب أو ذاك، فنحن لا نحب الكسل ولا نطمئن إلى الراحة، ولا نغلو في تقديس الناس إلى هذا الحد البعيد، ولا نرى في أصحاب النبي ما لم يكونوا

يرون في أنفسهم، فهم كانوا يرون أنهم بشر يتعرضون لما يتعرض له غيرهم من الخطايا والآثام، وهم تقاذفوا التهم الخطيرة، وكان فريق منهم تراموا بالكفر والفسوق؛ فقد رُوي أن عمار بن ياسر كان يكفر عثمان ويستحل دمه ويسميه نعثل ورُوي أن ابن مسعود كان يستحل دم عثمان أيام كان في الكوفة... وما ينبغي أن نذهب مذهب الذين يكذبون أكثر الأخبار التي نقلت إلينا ما كان بينهم من فتنة واختلاف. فنحن إن فعلنا ذلك لم نزد على أن نكذب التاريخ الإسلامي كله منذ بعث النبي؛ لأن الذين رووا أخبار هذه الفتن هم أنفسهم الذين رووا أخبار الفتح وأخبار المغازي وسيرة النبي والخلفاء. فما ينبغي أن نصدقهم حين يروون ما يروقنا، وأن نكذبهم حين يروون ما لا يعجبنا. وما ينبغي أن نصدق بعض التاريخ ونكذب بعضه الآخر، لا لشيء إلا لأن بعضه يرضينا وبعضه يؤذينا][1].

بهذا الأسلوب يسخر الدكتور ممن يكبرون صحابة النبي ﷺ ويظنون بهم الخير، وممن يصدقون حديث النبي ﷺ في وصفه لصحابته بأنهم خير القرون، فيصفهم بأنهم ممن يقدسون السلف! وبأنهم رضوا بالكسل العقلي عن البحث والدرس والاستقصاء.

ويعيب في الوقت ذاته أصحاب التأويل التآمري الذين يرون كل مصيبة نزلت بالإسلام وأهله من صنع أعداء الإسلام من أهل الكتاب ومن غيرهم والباحث المنصف يرفض هذا الاتجاه ولا يرضاه ولكنه لا يهمل أن شيئًا من ذلك قد يكون، فللإسلام أعداء يكيدون له مكر الليل والنهار ولا يستبعد بل من اليقين أنه كانت لهم محاولات لتشويه

---

(١) طه حسين: الفتنة الكبرى ـ عثمان ـ المجموعة الكاملة ٤/٣٦٥ ـ ٣٦٧ بتصرف.

صورة الصحابة وإحداث الفتن والقلاقل في مجتمعات المسلمين.

أما ما زعمه الدكتور لنفسه من المناهج وهو أنه ارتضى لنفسه ما ارتضاه الصحابة في أنفسهم من أنهم كانوا يتقاذفون التهم ويترامون بالكفر والفسوق فحاشا لله أن تكون هذه أخلاق هذا الجيل الفريد، أما الروايات التي دلل بها على منهجه هذا فهي روايات مطعون فيها فهي مسوقة بصيغة التمريض (رُوِي) وما ورد بمثل هذه الصيغة فلا يحكم بصحته عن المضاف إليه قطعًا بل ربما كان صحيحًا وربما كان مكذوبًا هذه واحدة.

أما الثانية: فإن علماء السُّنَّة كثيرًا ما تصدوا لمثل هذه المفتريات التي تولى كبرها من قديم الروافض بغضًا وتشنيعًا على صحابة النبي ﷺ. أما دعواه الأخير بأن تكذيب الروايات الكثيرة تكذيب لتاريخ الإسلام كله فهذا من خلط الحق بالباطل ولبس الأمور ببعضها، فإنه من المسلمات البدهية أن في كثير من كتب السير والتاريخ روايات لا يوثق بها ولقد عمل كثير من المحققين في العصر الحديث على كتابة السيرة النبوية من واقع كتب السُّنَّة الصحيحة ومن قبلها واقع القرآن الكريم، وتاريخ الإسلام بهذين المصدرين الكريمين ليس في حاجة إلى روايات كاذبة تضفي عليه شيئًا من المآثر أو تنال من صفائه وبهائه على الجانب الآخر... ومن العجيب أن الدكتور تبنى تصديق الكثير من الروايات التاريخية غير معتمد على شيء إلا أن الرواة بشر من البشر يجوز عليهم الصواب ويجوز عليهم الخطأ وقد ترجح لديه أنهم مصيبون في الكثير مما يذكرونه من المرويات اعتمادًا على أساليب المحدثين في تحقيق النصوص وتحليلها والتي ابتكر الدكتور منها عددًا غير قليل من أمثال الألفاظ الخطيرة التي جعلها أساسًا لإيراد الروايات

والأحداث والحكم بصحتها ووقوعها من مثل قوله: «وأكبر الظن» و«الشيء الذي لا شك فيه»، و«ليس من البعيد» وغيرها مما تفرد به الدكتور.

نماذج من حديث الدكتور طه حسين عن الصحابة رضوان الله عليهم:

لو أردنا أن نقف مع الدكتور في حديثه عن الصحابة رضوان الله عليهم عند تأريخه لفترة الخلافة الراشدة لطال بنا المقام أكثر مما تحتاجه طبيعة البحث ولكن في هذا المبحث أكتفي بإشارات سريعات توضح الصورة المجملة لصورة الصحابة رضوان الله عليهم في فكر الدكتور طه حسين، وفي هذه الإشارات المجملة ـ إن شاء الله ـ دلالة على غيرها مما لم نرد ذكره.

عثمان بن عفان ﷺ الخليفة المفترى عليه:

لم ينل أحد من الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ حظًا كبيرًا من الحديث في تعرض الدكتور للتاريخ الإسلامي مثلما حظي الخليفة الراشد عثمان بن عفان، ولو جرى الحديث مجرى البحث القائم على الدرس والاستقصاء وتمحيص الروايات لكان ذلك فضيلة تضاف للدكتور في تناوله لهذا الصحابي الكريم ولكن الدكتور اقتفى أثر السابقين وخاصة أعداء الإسلام فردد كل مفترياتهم وربما زاد عليها بإبراز بعض الأحداث التي لا يوثق بها والتي لم يسندها الدكتور نفسه وإنما كان يصدرها لقوله: «ويزعم الرواة» و«يتحدث الرواة» وغيرها من الألفاظ التي لا تفيد يقينًا، ثم علق على تلك الروايات تعليقًا يشي أنه مصدق لها مؤمن بوقوعها.

وأصدق برهان على أن الدكتور لم يأت جديدًا فيما نسبه إلى عثمان ﷺ تلك السلسلة من المزاعم الكاذبة التي رمى بها الخليفة الراشد والتي عددها الإمام أبو بكر ابن العربي في كتابه العواصم من القواصم وأجاب عليها بما يقنع كل مريد للحق والإنصاف، وفيما يلي ذكر المفتريات كما أوردها القاضي أبو بكر ابن العربي تحت عنوان: قاصمة.

[قالوا متعدين؛ متعلقين برواية كذابين: جاء عثمان في ولايته بمظالم ومناكير منها:

١ ـ ضربه لعمار حتى فتق أمعاءه.

٢ ـ ولابن مسعود حتى كسر أضلاعه ومنعه عطاءه.

٣ ـ وابتدع في جمع القرآن وتأليفه وفي حرق المصاحف.

٤ ـ وحمى الحمى.

٥ ـ وأجلى أبا ذر إلى الربذة.

٦ ـ وأخرج من الشام أبا الدَّرداء.

٧ ـ وردَّ الحَكَم بن العاص بعد أن نفاه رسول الله ﷺ.

٨ ـ وأبطل سنَّة القصر في الصلوات في السفر.

٩ ـ ١٢ ـ وولَّى معاوية، وعبدالله بن عامر بن كريز، ومروان. وولى الوليد بن عقبة وهو فاسق ليس من أهل الولاية.

١٣ ـ وأعطى مروان خمس إفريقية.

١٤ ـ وكان عمرُ يضرب بالدَّرة وضرب هو بالعصا.

١٥ ـ وعلا على درجة رسول الله ﷺ، وقد انحط عنها أبو بكر وعمر.

١٦ ـ ولم يحضر بدرًا، وانهزم يوم أُحد، وغاب عن بيعة الرضوان.

١٧ ـ ولم يقتل عبيد الله بن عمر بالهرمزان (الذي أعطى السكين إلى أبي لؤلؤة وحرَّضه على عمر حتى قتله).

١٨ ـ وكتب مع عبده على جمله كتابًا إلى ابن أبي سَرْح في قتل من ذكر فيه. اهـ.][1].

وقد فند القاضي أبو بكر ابن العربي هذه المفتريات ورد عليها ردًا قيمًا جاء في قرابة المائة صفحة من كتابه[2].

---

(١) أبو بكر ابن العربي: العواصم من القواصم، ص٦١، ٦٢. وفيما يلي ذكر أماكن معالجة هذه الأحداث من الدكتور في كتابه الفتنة الكبرى ـ عثمان ـ طبقًا للأرقام الواردة بالمتن.
١ ـ الفتنة الكبرى ـ عثمان ـ المجموعة الكاملة ٣٦٢/٤.
٢ ـ ٣٥٦/٤ وغيرها.
٣ ـ ٣٧٦/٤ ـ ٣٧٩.
٤ ـ ٣٧٥/٤.
٥ ـ ٣٥٩/٤، ٣٦٠.
٧ ـ ٣٧٩/٤.
٨ ـ ٣٧٣/٤؛ ومرأة الإسلام ١١٩.
٩ ـ ١٢ ـ ٣٨٢/٤ تحت عنوان عثمان يولى الأحداث.
١٣ ـ ٣٨٨/٤.
١٦ ـ ٢٤٧/٤.
١٧ ـ ٣٧٠/٤.

(٢) من ص٦١ ـ ١٤٧ من الكتاب المذكور.

ولذا لست في حاجة لأن أعيد ما ذكره هناك وأكتفي بذكر إشارات أخرى أوردها الدكتور عن عثمان ﷺ.

يذكر الدكتور مخالفات عثمان في الناحية المالية فيظهره في صورة المبذر الذي لا يحسن التصرف في الأموال، وأنه كان يحاول نيل رضوان الناس بتوسيع عطائهم[1]، ويذكر أن عثمان كان يسترضي الساخطين على ولايته بالمال فكان من ذلك قوله: [وكان طلحة كما رأيت معارضًا لعثمان منذ اليوم الأول لخلافته؛ لأن البيعة تمت وهو غائب ولكن عثمان ترضاه فاستقامت الأمور ثم وصله فزادت الأمور استقامة][2].

ويعرض قبل هذا الكلام الصريح بكلام يشابهه أن عثمان أعطى لطلحة ثمن بيعته له فيذكر [وكان بنو أمية يشفقون أن يتلكأ طلحة ببيعته فلما بايع اطمأنوا. وكان عثمان يصل طلحة فيحسن صلته. قالوا: إن طلحة كان اقترض من عثمان خمسين ألفًا فقال له ذات يوم: قد حضر مالك فأرسل من يقبضه قال عثمان: هو لك على مروءتك][3].

ولم يقف العطاء على طلحة وحده إنما خص عثمان أقاربه بالعطاء الكبير على زعم الدكتور ـ وأنه كان يتقرب إلى الله بهذا الوصل لأقربائه من بيت مال المسلمين وربما دفعه هذا الوصل الزائد عن الحد؛ لأن يبيح لنفسه الاقتراض من بيت مال المسلمين حتى إذا أيسر رد ما اقترض ويزعم أن عثمان أباح لولاته مثل ذلك، إلى غير ذلك من الدعاوى الذي ضمنها فصلاً كتبه بعنوان: الأحداث المتصلة بسياسة

---

(١) طه حسين: الفتنة الكبرى ـ عثمان ـ المجموعة الكاملة ٤/٢٧٠.
(٢) المصدر السابق ٤/٣٤٤، ٣٤٥.
(٣) المصدر السابق ٤/٣٨٥ ـ ٣٩٢.

المال[1].

ومما ذكره الدكتور عن عثمان ولا تسيغه عقول آحاد الناس فضلاً عن أن يكون هذا منطق عثمان وعقله.

يذكر فهمه لطبيعة ولايته على المسلمين فيصفه بقوله:

[وأخرى يجب أن نلاحظها في تفسير السياسة المالية لعثمان، وهي أنه لم يكن يرى فيما يظن أن للمسلمين الحق في أن يراقبوه فضلاً عن أن يعاقبوه فهو قد أعطى العهد الذي أعطاه، وهو مسؤول عن هذا العهد أمام الله لا أمام الناس. يدل على هذا اقتناعه بأن الذين طلبوا إليه أن يخلع نفسه قد طلبوا إليه شيئًا عظيمًا وقوله لهؤلاء ولغيرهم: «ما كنت لأخلع قميصًا قمصنيه الله عز وجل» وقوله لهؤلاء ولغيرهم: «لأن أقدم فتضرب عنقي أحب إلى من أن أنزع سربالاً سربلنيه الله عز وجل»[2].

---

(١) المصدر السابق ٤/٣٨٥ ـ ٣٩٢.

(٢) ولماذا لا يكون رفض عثمان ﷺ التنحي، لأنه تحقق له وعد رسول الله ﷺ الذي أورده الإمام أحمد في مسنده قال الإمام أحمد:

حدّثنا أبو المغيرة، حدّثنا الوليد بن مسلم، حدّثني ربيعة بن دريد عن عبدالله بن عامر، عن النعمان بن بشير، عن عائشة ﷺ قالت: أرسل رسول الله ﷺ إلى عثمان بن عفان فجاء فأقبل عليه رسول الله ﷺ فلما رأينا إقبال رسول الله ﷺ على عثمان أقبلت إحدانا على الأخرى فكان من آخر كلمة أن ضرب منكبه وقال: «**يا عثمان إن الله عسى أن يلبسك قميصًا فإن أرادك المنافقون على خلعه فلا تخلعه حتى تلقاني**: ثلاثًا» فقلت لها: يا أم المؤمنين فأين كان هذا عنك؟ قالت: نسيته والله ما ذكرته قال: فأخبرت معاوية بن أبي سفيان فلم يرض بالذي أخبرته حتى كتب إلى أم المؤمنين أن اكتبي إلي به فكتبت إليه به كتابًا.

هذا الحديث أورده ابن كثير في البداية والنهاية ٥/٢٩٩ ـ ٣٠٠ وأخرجه الإمام أحمد في مسنده عن عائشة رقم الحديث (٢٤٩٢٠) ٩/٤٢٩، وانظر: (٢٥٢١٦) ٩/٤٨٦.

فلم تكن الخلافة عنده إذن تكليفًا تلقاه من المسلمين، ويستطيع أن يرده عليهم إن شاء هو أو شاؤوا هم، وإنما كانت الخلافة عنده ثوبًا أسبغه الله عليه وليس له أن ينزعه عن نفسه، وليس لأحد غيره أن ينزعه، وإنما الله وحده هو الذي يملك تجريده من هذا الثوب يوم يجرده من ثوب الحياة][1].

يضيف هذا الفهم العجيب إلى الخليفة الراشد عثمان ﷺ ويلتمس له العذر في هذا الفهم بأنه ـ أي: عثمان ـ [رأى صاحبيه (أبي بكر وعمر) من قبله قد نهضا بالخلافة فلم تنزع عن أحدهما ما أقام على الحياة فهو إذن مثلهما قد نهض بالخلافة ويجب أن يستمسك بها ما امتدت له أسباب الحياة][2].

والحق أن الإنسان لا يعجب من هذا السيل الجارف من التهم طالما ارتضى الدكتور لمثله أن يصدق كل ما يقرأ وأن يفصل في تفسير الأحداث بين دين المرء وعمله وسلوكه فيظن أن دين هؤلاء شيء وواقعهم شيء آخر.

حقًا إن الإنسان لا يعجب لمن ارتضى لنفسه أن يعالج أحوال الصحب الكريم والجيل الفريد كما يعالج أحوال السكارى في حانات فرنسا وغيرها من دول أوروبا ويتناولهم بالألفاظ التي ربما استنكف أن يصف بها أولئك.

في حوار الدكتور مع السيد مرتضى الرضوي (أحد علماء الشيعة).

---

(١) طه حسين: الفتنة الكبرى ـ عثمان ـ ٣٨٦/٤.

(٢) المصدر السابق نفسه.

يسأل هذا الرجل الدكتور عن رأيه في الخليفة عثمان وللأمانة أنقل الكلام بنصه، يقول مرتضى الرضوي: وبعدها سألت الدكتور عن رأيه في الخليفة عثمان فقال:

كان عثمان يقاد كالثور[1](!!!!!).

الجرأة غير المحمودة يصف عثمان ﷺ بهذا الوصف الذي تورع أن يصف به السكارى وأرباب السوء، ولو أنصف الدكتور وعرف لأهل الفضل فضلهم لما سقط هذه السقطة الشنعاء وذلك بعد قول النبي ﷺ فيما يرويه أبو هريرة ﷺ: «**لا تسبوا أصحابي فوالذي نفسي بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبًا ما أدرك مد أحدهم ولا نصيفه**»[2].

حديثه عن أم المؤمنين عائشة ﷺ:

(افترى الدكتور على أم المؤمنين عائشة ﷺ، افتراء واسعًا، فقد تحدث طويلاً عن أنها كانت تخطب الناس وهي على جملها وتحرضهم على القتال في خيال ودعاوى باطلة، فهي لم تخرج إلى قتال)[3].

ومن كلامه غير اللائق بمقام أم المؤمنين عائشة ﷺ حين كان مرتضى الرضوي يحاوره وسأله عن أم المؤمنين عائشة فقال[4]: كان

---

(١) السيد مرتضى الرضوي: مع رجال الفكر في القاهرة، مطبوعات النجاح بالقاهرة، ط١ سنة ١٣٩٤هـ، ص١٦٠.

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي، باب تحريم سب الصحابة حديث رقم (٢٥٤٠) ٩٢/١٦.

(٣) أنور الجندي: محاكمة فكر طه حسين، ص٢٢٥.

(٤) السيد مرتضى الرضوي: مع رجال الفكر في القاهرة، ص١٦٠.

أحد الأساتذة يقول: لو أدركت عائشة لأوجعتها ضربًا حتى أقعدتها في بيتها لقوله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾[1].

وكأني به يتبنى مقولة أستاذه فهو لم يزد في إجابة السؤال عن هذه الكلمات السابقة.

ومما أساء به من القول في حق أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قوله عن علاقتها بسيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه: [كان معروفًا أن عائشة رضي الله عنها لم تكن تحب عليًا ولا تهواه، بل كان معروفًا أنها كانت تجد عليه موجدة شديدة منذ حديث الإفك حين أراد علي أن يواسي النبي ﷺ فأشار عليه بأن يطلقها وقال له: النساء غيرها كثير. وذلك قبل أن ينزل الله براءتها في القرآن. فلم تنس لعلي قوله ذلك... وكانت تنكر على عليّ فيما أعتقد أمرين آخرين، **أحدهما**: لم يكن لعلي فيه خيرة، فقد تزوج فاطمة بنت رسول الله ﷺ ورُزق منها الحسن والحسين، فكان أبا الذرية الباقية للنبي، ولم يُتح لها من الولد من رسول الله، مع أنه قد أتيح لمارية القبطية أم إبراهيم في أواخر أيام النبي. فكان هذا العقم يؤذيها في نفسها بعض الشيء، ولا سيما وهي كانت أحب نساء النبي إلى النبي. أما الأمر **الآخر** فهو: أن عليًا قد تزوج أسماء الخثعمية بعد وفاة أبي بكر رحمه الله، وأسماء الخثعمية هي أم محمد ابن أبي بكر الذي نشأ في حجر عليّ فكانت عائشة تجد على عليّ لهذا كله][2].

والحق أن هذا مسلك عجيب في محاكمة النفوس والنوايا وهو الذي لم يشق عن الصدور ويعرف ما بها ولكنه مجاراة الهوى في

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٣٣.

(٢) طه حسين: الفتنة الكبرى: ٢ ـ علي بن أبي طالب ٤/٥٥٠ بتصرف.

تفسير الأحداث وتأويلها... والأعجب في ذلك أن الكلام يتناول أمر أم من أمهات المؤمنين اللاتي وصفهن القرآن بقوله: ﴿لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾[1].

اتهامه لابن عباس بالسرقة:

يروي الدكتور ذلك رواية من عاش الأحداث وعاينها فيقول عن ابن عباس الذي ولي البصرة في خلافة علي ﷺ:

[رأى ابن عباس نجم ابن عمه في أفول ونجم معاوية في صعود، فأقام في البصرة يفكر في نفسه أكثر مما يفكر في ابن عمه وفي هذه الخطوب التي كانت تزدحم عليه، وكأنه آثر نفسه بشيء من الخير وسار في بيت المال سيرة تخالف المألوف من أمر علي ومن أمره هو، حين كانت الأيام مقبلة على ابن عمه وعليه وكأنه آنس من صاحب بيت المال في البصرة، وهو أبو الأسود[2] الدؤلي شيئًا من النكير فأغلظ له القول ذات يوم، وضاق أبو الأسود بما رأى وما سمع فكتب إلى عليّ: «أما بعد، فإن الله جعلك واليًا مؤتمنًا وراعيًا مسؤولًا... وإن عاملك وابن عمك قد أكل ما تحت يده بغير علمك ولا يسعني كتمانك ذلك فانظر رحمك الله فيما قبلنا من أمرك واكتب إلي برأيك إن شاء الله والسلام»[3]، وبعد أن يصم الدكتور ابن عباس بهذه

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٣٢.

(٢) أبو الأسود الدؤلي: شاعر من قبيلة ديل عاش في هذيل، شغل منصبًا هامًا في البصرة توفي سنة ٦٩هـ. دائرة المعارف ٣٠٧/١، ٣٠٨.

(٣) ردد المستشرق ركندورف في دائرة المعارف الإسلامية عند تعريفه لأبي الأسود الدؤلي نفس الزعم القائل باختلاس ابن عباس وأن أبا الأسود هو الذي دل عليًا على ذلك (دائرة المعارف الإسلامية ٣٠٧/١).

الوصمات القادحة (السرقة، خيانة الخليفة وعدم الولاء له) يعود فيقول: «والغريب أن كثيرًا من المحدثين أهملوا هذه القصة ولم يشيروا إليها تحرجًا من ذكرها. فمكان ابن عباس من النبي ومكانه من الفقه بالدين أعظم من أن يظن به مثل هذا التجاوز للحق والخلاف على الإمام][1].

والعجيب أن يستغرب الدكتور على المحدثين إهمال القصة فهو لها مصدق حتى ولو قال بها كذابون فمكانة ابن عباس في الفقه والدين عند الدكتور لا تتنافى مع كونه في واقع الحياة سارقًا أو آكلاً لمال المسلمين بغير حق.

طعنه في معاوية ﷺ:

من الشخصيات التي تجنى عليها طه حسين تجنيًا كبيرًا شخصية معاوية بن أبي سفيان ﷺ، فيصفه بكلمات شديدة ـ غير مبال بصحبته لرسول الله ﷺ ولكونه أحد كتاب الوحي ـ فكان من وصفه له [فلما جاء معاوية ظن أنه خليفة الله في الأرض، وأن مال الله ماله يصنع به ما يشاء، ويضعه حيث أحب، وقد حارب عليًا ـ رحمه الله ـ فكان يشتري بعض أصحابه بالجوائز الضخمة ومعاوية قد لقي النبي وصحبه فكيف بمن جاء بعده من الخلفاء الذين لم يلقوا النبي ولم يصحبوه][2].

وحين عرض ما أسماه خصومة معاوية لعلي ﷺ أخذ يذكر أسباب شدتها في شخص معاوية فكان من قوله:

[وأما عنف هذا الخصم وهو معاوية فيمكن أن نقدره حين نلاحظ

---

(١) طه حسين: الفتنة الكبرى ٢ ـ علي بن أبي طالب ـ المجموعة الكاملة ٥٤٩/٤ ـ ٥٦١ بتصرف.

(٢) طه حسين: الشيخان، ص١٨٠.

أنه ابن أبي سفيان الذي حارب النبي بعد بدر فأبلى في حربه أشد البلاء وأقواه، وأظهر في هذه الحرب قوة وقسوة وكيدًا ودهاء، ولم يُسلم إلا بآخرة حين لم ير من الإسلام بدًا، وحين لم يكن له إلا أن يختار بين الإسلام والموت. وقد ورث معاوية عن أبيه قوته وقسوته وكيده ودهاءه ومرونته كذلك.

ولم تكن أم معاوية بأقل من أبيه تنكرًا للإسلام وبغضًا لأهله وحفيظة عليهم، وهم قد وتروها يوم بدر، فثأر لها المشركون يوم أُحد، ولكن ضغنها لم يهدأ وحفظيتها لم تسكن حتى فتحت مكة فأسلمت كارهة كما أسلم زوجها كارهًا][1].

وواضح ما في أسلوب الدكتور من التحامل على معاوية ووالديه جميعًا ﷺ الذي حاكم ضمائرهم جميعًا وشكك في صدق إسلامهم فزعم أنهم أسلموا كارهين حين لم يروا من الإسلام بدًا، وهو ادعاء باطل يذهبه حسن بلاء الجميع بعد إسلامهم، ثم إن في الكلام إساءة للإسلام من طرف خفي وكأني به يزعم أن الإسلام مارس الضغط على الرقاب، إما الإسلام وإما الموت، وهذا نوع من الافتراء تكذبه وقائع التاريخ وأحداثه بعد نصوص الكتاب والسُّنَّة لقد كان تحامل طه على معاوية أظهر من أن يخفى على أي مطالع لكتابه عن الفتنة في عصر عليّ ﷺ حتى لقد لفت هذا التحامل نظر المستشرق الإيطالي ديلافيدا ـ رغم تحامله نفسه على الإسلام وعظمائه ـ فكان من أقواله في هذا الشأن:

---

(١) طه حسين: الفتنة الكبرى (٢) ـ علي بن أبي طالب ـ المجموعة الكاملة ٤/٤٨٤.

[وإذا جاز لنا أن نبدو ولو لمدى لحظة واحدة «ملكيين أكثر من الملك» لكان في وسعنا أن نأخذ على طه حسين إفراطه في القسوة على معاوية خصم الخليفة علي اللدود، ومؤسس الدولة الأموية الذي أظهرت كتب التاريخ نحوه أقل جانب من العطف. على أن كونه من صحابة الرسول أو بالأحرى أحد كتابه وأمناء سره جعله بمنجاة من صدور حكم نهائي عليه كالحكم الذي استحقه كل الاستحقاق ـ سواء في نظر الروايات التاريخية الصالحة أو في نظر مؤرخنا المعاصر ـ ابنه وخليفته «يزيد» بينما يتردد المؤرخ المستقل والغير المتحيز في إصدار حكم قاس مثل هذا الحكم على يزيد][1].

طعنه في المغيرة بن شعبة[2]:

تحدث الدكتور طه حسين عن المغيرة بن شعبة فصدق كل ما رواه المؤرخون بشأنه خاصة ما يقدح فيه وينال منه ولم يكتف الدكتور بذكر الروايات المجردة بل أعطى لنفسه حق التأويل والتفسير والتعليل ليس هذا فحسب بل الشق عن الصدور والقلوب ومحاكمة النوايا.

يقول عن المغيرة بن شعبة: (أمر المغيرة بن شعبة غريب كله، اختلط فيه الخير بالشر حتى أصبح مشكلة من المشكلات) وذكر طرفًا من مساوئه قبل الإسلام وشيئًا من مآثره بعده وحسن بلائه في سبيله، ثم دخل إلى خبيئة نفس الصحابي الكريم وخبرها فألقى حكمه القاطع

---

(١) جورجيو ديلافيدا: طه حسين المؤرخ: بحث ضمن كتاب طه حسين كما يعرفه كتاب عصره، ص١٠٣.

(٢) المغيرة بن شعبة: أسلم عام الخندق وشهد الحديبية وروى عن رسول الله ﷺ بعض الأحاديث، تولى إمارة البصرة والكوفة في عهد عمر وعزل عن الكوفة في عهد عثمان رضي الله عنه جميعًا وتوفي سنة ٥٠هـ. (أسد الغابة ٤/٤٥٤ ـ ٤٥٥).

القاسي (وكأنه إسلامه ـ يعني المغيرة ـ لم يكن عميق الأثر في نفسه، فقد شهد عليه نفر بالزنى عند عمر، وأوشك عمر أن يقيم عليه الحد، لولا أن لجلج أحد الشهود وهو زياد. فأقيم حد القذف على الشهود الآخرين وعزل المغيرة عن البصرة. ولكن عمر ولاه الكوفة بعد ذلك وأقام عاملاً عليها حتى قتل عمر)[1].

فشكك الدكتور في إيمان المغيرة اعتمادًا على دعوى كاذبة رمى بها الصحابي كيدًا عليه من أعدائه وسياق الحادثة كما أوردها الدكتور يظهر براءة المغيرة مما رمى به فهو ينص على لجلجة أحد الشهود مما يشكك في صدق الحادثة إضافة إلى توليه عمر له على الكوفة بعد عزله عن البصرة ومعروف عن عمر ﷺ شدة تحريه الحق وغيرته على حرمات الله ومصالح المسلمين ولو صح لديه ما يقدح في المغيرة ما ولاه الإمارة مرة أخرى.

ثم إن ابن كثير رحمه الله وهو يعرف بالمغيرة وعند تعرضه لتلك الحادثة قال بأسلوب التقرير: «. . . استنابه عمر على البصرة فلما شهد عليه بالزنى ولم يثبت عزله عنها وولاه الكوفة»[2].

الصحابة أرباب دنيا:

ولئن أردنا أن نستقصي جميع الصحابة الذين تناولهم الدكتور طه بالطعن أو التجريح والغمز أو اللمز لطال بنا المقام مما ينافي طبيعة البحث، ولكن فيما ذكرته دلالة على غيره من جرأة الدكتور على الصحابة والحكم عليهم من خلال روايات لا يوثق بجلها. هذه الجرأة

---

(١) طه حسين: الفتنة الكبرى ـ علي ـ المجموعة الكاملة ٦٢٦/٤.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية ٥٣٧/٥.

جعلها منهجًا لنفسه في مواجهة موقف الذين يعرفون للصحابة قدرهم والذين نعتهم الدكتور بأنهم يقدسون السلف وينزهونهم عن الخطأ والزلل.

هذا المنهج الذي كان من آثاره هدم القمم الشامخة في تاريخ الإسلام وتصوير جماعتهم أنهم حين امتحنوا بالدنيا نالت الدنيا من نزاهتهم وأمانتهم وكانوا فيها كغيرهم وإن كانت لهم صحبة، وإن سبقت البشرى لبعضهم بالجنة من رسول الله ﷺ فظروف الحياة ـ على حد تعبير الدكتور ـ كانت أقوى منهم[1]، هذا الأمر الذي جعل نفوس الكثيرين منهم تتجه إلى الدنيا أكثر من اتجاهها للدين فغيروا وبدلوا[2].

موقف المسلم من صحابة النبي ﷺ:

[مذهب أهل السُّنَّة والجماعة في أصحاب رسول الله ﷺ وسط عدل بين طرفي الإفراط والتفريط، وسط بين الغلاة الذين يرفعون من يعظمونه منهم إلى ما لا يليق إلا بالله ـ سبحانه وتعالى أو برسله ـ عليهم السلام ـ وبين الجفاة الذين ينتقصونهم ويسبونهم ولا يعرفون لهم قدرهم.

فأهل السُّنَّة وسط بين هؤلاء وأولئك، يحبون أصحاب رسول الله جميعًا، وينزلونهم منازلهم التي يستحقونها بالإنصاف والعدل، فيعرفون للخلفاء الراشدين المهديين قدرهم ومنزلتهم، ولبقية العشرة المبشرين بالجنة، ولأهل بدر ولأهل بيعة الرضوان، ولأهل بيعة العقبة ولمن أنفق قبل الفتح وقاتل، ولمن أنفق من بعد وقاتل، وأن الله وعد الكل

---

(١) طه حسين: الفتنة الكبرى ـ علي ـ المجموعة الكاملة ٤/٤١٧.

(٢) طه حسين: الفتنة الكبرى ـ علي ـ المجموعة الكاملة ٤/٦٠٨ وما بعدها.

بالحسنى وهي الجنة كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾﴾[1] ولا يرفعونهم إلى ما لا يستحقون ولا يقصرون بهم عما يليق بهم وقلوبهم عامرة بحبهم وما صح فيما جرى بينهم من خلاف فهم فيه مجتهدون، إما مصيبون فلهم أجر الاجتهاد وأجر الإصابة، وإما مخطئون فلهم أجر الاجتهاد وخطأهم مغفور، وليسوا معصومين بل هم بشر يصيبون ويخطئون ولكن ما أكثر صوابهم بالنسبة لصواب غيرهم، وما أقل خطأهم إذا نسب إلى خطأ غيرهم][2].

وهذا ما وضحه الإمام النووي عند شرحه لكتاب فضائل الصحابة من كتاب صحيح مسلم حين تعرض لفترة الخلافات في حياة الصحابة[3] قال:

(وأما عثمان فخلافته صحيحة بالإجماع وقتل مظلومًا وقتلته فسقة؛ لأن موجبات القتل مضبوطة ولم يجر منه ﷺ ما يقتضيه، ولم يشارك في قتله أحد من الصحابة، وإنما قتله همج رعاع من غوغاء القبائل وسفلة الأطراف والأرذال تحزبوا وقصدوه من مصر فعجزت الصحابة الحاضرون عن دفعهم فحصروه حتى قتلوه ﷺ.

وأما علي ﷺ فخلافته صحيحة بالإجماع وكان هو الخليفة في وقته لا خلافة لغيره، وأما معاوية ﷺ فهو من العدول الفضلاء

---

(١) سورة الأنبياء، الآيتان: ١٠١، ١٠٢.

(٢) جمال عبد الهادي وآخرون. الزور والبهتان فيما كتبه طه حسين في الشيخان، ص١١٠، ١١١.

(٣) النووي: صحيح مسلم بشرح النووي ١٤٨/٥، ١٤٩.

والصحابة النجباء ﷺ، وأما الحروب التي جرت فكانت لكل طائفة شبهة اعتقدت تصويب أنفسها بسببها وكلهم عدول ﷺ ومتأولون في حروبهم وغيرها، ولم يخرج شيء من ذلك أحدًا منهم عن العدالة، لأنهم مجتهدون اختلفوا في مسائل من محل الاجتهاد كما يختلف المجتهدون بعدهم في مسائل من الدماء ولا يلزم من ذلك نقص أحد منهم...).

ومن هنا حرم العلماء سب الصحابة وتنقصهم وعدوا ذلك من رذائل الأفعال ومساوئها قال الإمام النووي:

[واعلم أن سب الصحابة ﷺ حرام من فواحش المحرمات سواء من لابس الفتن منهم وغيره، لأنهم مجتهدون في تلك الحروب متأولون... وسب أحدهم من المعاصي الكبائر، ومذهبنا ومذهب الجمهور أنه يعزر ولا يقتل وقال بعض المالكية: يقتل][1].

وإنما وقفنا هذه الوقفة من البحث وأطلنا المقام به ذبًا عن عرض هؤلاء الأطهار الذين أظهر الله هذا الدين على أيديهم.

[ورد في الأثر من حديث جابر بن عبدالله ﷺ: «إذا لعن آخر هذه الأمة أولها، فمن كان عنده علم فليظهره، فإن كاتم العلم يومئذٍ ككاتم ما أنزل الله على محمد».

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في خطبة كتابه منهاج السُّنَّة النبوية تعليقًا على هذا الأثر:

---

(١) النووي: صحيح مسلم بشرح النووي ٦/٩٣.

وذلك أن أول هذه الأمة هم الذين قاموا بالدين تصديقًا، وعلمًا، وعملاً وتبليغًا، فالطعن فيهم طعن في الدين، موجب للإعراض عما بعث الله به النبيين][1].

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

(١) محب الدين الخطيب: مع الرعيل الأول، ص٥.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

المبحث الرابع

موقف الدكتور طه حسين من القرون الثلاثة المفضلة

في مقابلة ما أسماه الدكتور مذهب تقديس السلف وتمجيدهم اتخذ الدكتور لنفسه طريقة أخرى تلك التي عرفها بالنقد التاريخي والتي قوامها في نظر الدكتور (النظر إلى الناس من حيث هم الناس ووصفهم بما يمكن أن يوصف به الناس، وتحليل أخلاقهم وعاداتهم كما تحلل أخلاق الناس وعاداتهم، والملاءمة بين هذه الأخلاق والعادات، وما اكتنفها من الظروف والأحوال)[1].

وبهذه الطريقة التي سوغت للدكتور أن يتناول صحابة الرسول ﷺ كما يتناول أرباب السوابق ويصور حياتهم على أنها حلبة صراع على الملك وتهافت على المال وجهادهم قد ناله شيء من ذلك.

والطريقة ذاتها هي التي سوغت له أن ينظر إلى القرن الثاني الهجري ـ الذي له المرتبة الثانية في الأفضلية بعد جيل الصحابة ـ على أنه (عصر لهو ولعب، وعصر شك ومجون)[2].

---

(١) محب الدين الخطيب: مع الرعيل الأول، ص٥.

(٢) طه حسين: حديث الأربعاء، المجموعة الكاملة، الشركة العالمية للكتاب ـ بيروت، ط١٩٨٠. ٣٨٤/٢، ٣٨٩.

هذا الحكم الذي أطلقه الدكتور على القرن الثاني الهجري أسسه على تناوله لحياة بعض شعراء هذا القرن الذين اتسمت أشعارهم بالغزل والإباحة أمثال أبي نواس[1] وبشار[2] وغيرهم والذين ادعى الدكتور أنهم يمثلون عصرهم أصدق تمثيل وأعمقه.

ولقد رد كثير من العلماء والكتاب على الدكتور هذا الادعاء وقالوا له: [إنه قلد الأصفهاني[3] الذي لم يرسم للعصر العباسي إلا لوحة خلق معدنها من الكذب والتمويه وصبغت مباديها من الضلال والبهتان، والذي كانت شهوة الاطلاع في نفسه لاكتشاف الجوانب السيئة في حياة الشعراء والكتاب والتي خلقت في كتابه جوًا من المجون.

وقالوا: إن الدكتور يستقي أراءه في العصر العباسي من شيئين، **الأول**: كتاب الأغاني، **الثاني**: شعر الماجنين من الشعراء، أما الأغاني فيحدثنا صاحبه في المقدمة بأنه قصد في كتابه اللهو والتسلية قبل أن يقصد العلم والتاريخ، أما شعر الماجنين وحياتهم فلا ينهضان دليلاً على فساد عقيدة العصر العباسي وأخلاقه وقالوا له: إنك أخذت العصر بجريرة هؤلاء وحكمت بأن العصر عصر شك ومجون وأن تصبح طائفة

---

(١) أبو نواس: الحسن بن هانىء الحكمي أحد فحول شعراء العرب، ولد بالأهواز عام ١٣٠هـ أو ١٤٥هـ، غلب على شعره الخمريات والغزل وتحول إلى الزهد آخر حياته واختلف في ذكر وفاته كما اختلف في مولده على أقوال منها ١٩٠هـ، ١٩٥هـ وغيرها. (دائرة المعارف الإسلامية ٤١٣/١).

(٢) بشار بن برد: شاعر من شعراء العصر العباسي الأول عاش في البصرة وبغداد وهو من أصل فارسي. كان به جنوح إلى المجون والفكاهة قتل سنة ١٦٧هـ.. (دائرة المعارف الإسلامية ٦٤٨/٣).

(٣) الأصفهاني: علي بن الحسين بن محمد بن أحمد القرشي الأصفهاني مؤرخ عربي من نسل الأمويين ولد في أصفهان عام ٢٨٤هـ، أهم مصنفاته: كتاب الأغاني وتوفي سنة ٣٥٦هـ. (دائرة المعارف الإسلامية ٣٨٨/١).

ووجدانها على صفة لا يعطى منطقيًا الحكم على عصرهم جميعًا بأن فيه تلك الصفة، ولو كان ذلك الاستقراء القليل منتجًا لذلك الحكم العام لخرجنا بحكمين متناقضين على ذلك العصر وعلى غيره من العصور، فإننا إذا تتبعنا سيرة القدماء والمحدثين والزهاد في هذا العصر وجدناهم على مرتبة عظيمة من اليقين والورع والاحتشام بما فيهم الحسن البصري[1]، وأبو حنيفة النعمان[2] وغيرهم][3].

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

(١) سبق تعريفه ص٢٥٦.

(٢) أبو حنيفة النعمان: فقيه إسلامي، صاحب المذهب الحنفي الذي يعرف باسمه ولد سنة ٨٠هـ وتوفي سنة ١٥٠هـ. (دائرة المعارف الإسلامية ١/٣٣٠).

(٣) أنور الجندي: محاكمة فكر طه حسين، ص٦٤، ٦٥ بتصرف كبير.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

المبحث الخامس

طه حسين وموقفه من الخلافة الراشدة

تمهيد:

من القضايا الأساسية التي برزت في تأريخ الدكتور طه حسين لحياة الخلفاء الراشدين قضية الحكم في الإسلام. . . بل أكاد أقطع بأن هذه القضية كانت الباعث الذي من أجله كتب الدكتور هذه المباحث والتي من خلالها استطاع أن يذكر ما استقر بخاطره تجاه هذا الموضوع الهام.

توصيف نظام الحكم في العهد الأول لدعوة الإسلام:

عقد الدكتور طه حسين في كتابه الفتنة الكبرى ـ عثمان ـ فصلاً تحت عنوان: «نظام الحكم الإسلامي نظامًا عربيًا مبتكرًا» وكان هذا العنوان هو النتيجة التي انتهى إليها الدكتور في توصيفه لنظام الحكم في عهد رسول الله ﷺ وعهود الخلفاء من بعده.

استعرض الدكتور صور الحكم المختلفة وأشكالها وحاول المطابقة أو المقارنة بينها وبين نظام الإسلام ـ حسبما رآه وفهمه ـ

وانتهى به الحديث إلى القول بأن نظام الحكم في ذلك الوقت [لم يكن ملكيًا؛ ولم يكن يؤذي النبي وصاحبيه شيء كما كان يؤذيهم أن يُظن بهم الملك؛ وهو لم يكن جمهوريًا، فلم نعرف في الجمهورية نظامًا يتيح للرئيس المنتخب أن يرقى إلى الحكم فلا ينزله عنه إلا الموت؛ ولم يك قيصريًا بالمعنى الذي عرفه الرومان، فلم يكن الجيش هو الذي يختار الخلفاء؛ فهو إذن نظام عربي إسلامي خالص لم يسبق العرب إليه، ثم لم يقلدوا بعد ذلك فيه...

وأول ما نلاحظ من العناصر التي كان هذا النظام يأتلف منها، العنصر الديني؛ فلم يكن هذا النظام، كما قلت آنفًا، نظامًا سماويًا، وإنما كان نظامًا إنسانيًا، ولكنه تاثر بالدين إلى حد بعيد جدًا، لم يكن الخليفة... يصدر عن وحي أو شيء يشبه الوحي في كل ما يأتي ويدع، ولكنه على ذلك كان مقيدًا بما أمر الله من إقامة الحق وإقرار العدل وإيثار المعروف واجتناب المنكر والصدود عن البغي...

أما العنصر الثاني من العناصر التي ائتلف منها هذا النظام فهو عنصر الأرستقراطية[1] التي لا تعتمد على المولد ولا على الثروة ولا على ارتفاع المكانة الاجتماعية بمعناها الشائع العام، وإنما تعتمد على

(١) أرستقراطية باليونانية سلطة خواص الناس، وفي العلوم السياسية الحكم بواسطة خير المواطنين لصالح الدولة، وكفكرة سياسية تدين في تكوينها لأفلاطون في (الجمهورية)، وكل الحكومات حتى الديمقراطية تحتوي على جانب من الأرستقراطية في تكوينها بمعنى أن الحكام ينظر إليهم على أنهم أصلح الناس لوظيفتهم هذه بصرف النظر عن الأساس الذي اختيروا عليه وتاريخيًا ترتكز الأرستقراطيات على الأراضي المملوكة، وتعتمد على مبدأ الوراثة، والبرجوازية التي نمت في الغرب دامت كسلاح ضد الأرستقراطية، والمبدأ الديمقراطي عدو المبدأ الأرستقراطي. الموسوعة العربية الميسرة ١/١١٦.

شيء آخر أهم من هذا كله وهو الاتصال بالنبي أيام حياته والإذعان لما كان يأمر به وينهى عنه في غير تردد ولا شيء يشبه التردد، والإبلاء بعد ذلك في سبيل الله في أوقات السلم والحرب جميعًا][1].

وهذا الرأي الذي انتهى إليه الدكتور لا يسلم له به ففيه من الأغاليط الظاهرة قدر غير قليل [فالدكتور حين وصف هذا النظام بأنه «عربي» سواء ـ أكان خالصًا أو غير خالص ـ قد يتضمن هذا الوصف الإشارة إلى معنى من معاني العنصرية، التي جاء الإسلام ليناهضها، والإسلام لا ينبغي أن ينظر إليه... إن أردنا الدقة العلمية إلا على أنه دين «إنساني عالمي»، ومن الناحية التاريخية كان النظام الإسلامي جديدًا، فلم يكن العرب يعرفون قبله إلا النظام الملكي أو القبلي، أو عدم النظام؛ أي: الفوضوية. فكيف؛ ولماذا ينعته إذن بأنه «كان عربيًا خالصًا» أو يقال: إن العرب «لم يسبقوا إليه، إلى غير ذلك».

ثم إن المؤلف ـ بعد البحث الطويل ـ لم يؤد بنا إلى نتيجة إيجابية فهو قد عرف النظام المقصود تعريفًا سلبيًا عن طريق النفي المتتابع، فجزم بأنه يخالف الثيوقراطية[2] والديمقراطية[3] وغيرهما، ولكنه حين جاء ليصف لنا طبيعة هذا النظام اكتفى بقوله: «بأنه لم يسبق إليه العرب ثم لم يقلدوا فيه بعد ذلك» ـ وهو ـ وإن كان قد ذكر

---

(١) طه حسين: الفتنة الكبرى ـ عثمان ـ المجموعة الكاملة ٢٢٧/٤، ٢٢٨ بتصرف.

(٢) الثيوقراطي: نظام يدعي فيه الحاكم أنه يحكم من قبل الله. راجع: النظريات السياسية والإسلامية، ص٣٦٦.

(٣) الديمقراطية: كلمة مشتقة من لفظتين يونانيتين Demos (الشعب) KRatos (سلطة) ومعناها الحكم الذي تكون فيه السلطة للشعب. (راجع: مذاهب فكرية معاصرة، ص١٧٨).

شيئًا من خصائصه العامة فيما بعد هو على كل حال لم يجب على السؤال جوابًا شافيًا ولم يعط عن طبيعة النظام فكرة محددة][1].

وعندما كان الدكتور يقارن بين صور الحكم المختلفة وبين الحكم في الإسلام نفى أن يكون نظام الحكم في العهد الأول حكمًا ديمقراطيًا ـ من ناحية طريقة تولي أمور الحكم ـ فقال: [إذا فهمت الديمقراطية على هذا المعنى الدقيق فليس من شك في أن نظام الحكم في الصدر الأول من حياة المسلمين لم يكن ديمقراطيًا؛ فالشعب لم يكن يختار حكامه بهذا المعنى الدقيق، وليس الشعب هو الذي اختار النبي ليبلغه رسالات ربه وليقيم الأمر فيه بالقسط والعدل، ولكن الله أرسل رسوله فاتبعه من اتبعه وخالف عنه من خالف عنه؛ وإذا قلنا: إن الذين اتبعوا النبي من أصحابه قد اختاروه ليكون لهم حاكمًا، فهم لم يختاروه على النحو الذي يختار عليه الحكام في النظام الديمقراطي (!!) وهم لم يكونوا يراقبونه ولا يحاسبونه، وإنما كان النبي يستشيرهم فيشيرون عليه، وكانوا يشيرون عليه حسبة أحيانًا، وكان يقبل منهم أو لا يقبل. وليس من الدقة في شيء أن يقال: إن حكم أبي بكر وعمر قد كان حكمًا ديمقراطيًا بالمعنى الدقيق، فليس كل المسلمين قد اختاروا أبا بكر وعمر لأمر الخلافة، وإنما اختارهم فريق بعينه من المسلمين وهم أولو الحل والعقد من المهاجرين والأنصار، على ما كان بينهم في ذلك من اختلاف أول الأمر][2].

وهذا الكلام فيه من الإيهام والتضليل شيء غير قليل، إذ يوحي بأن حكم النبي وسياسته للمسلمين وكذلك حكم صاحبيه إنما قام على

---

(١) د. محمد ضياء الدين الريس: النظريات السياسية الإسلامية، ص٣٧٣.

(٢) طه حسين: الفتنة الكبرى ـ عثمان ـ المجموعة الكاملة ٤/٢٢٣، ٢٢٤.

القهر والتسلط ولم يكن موافقًا لإرادة الأمة ومحققًا لمصلحتها، وفي أسلوب ملتوي عرّض الدكتور بنظام الشورى في الإسلام فأظهره في صورة أدنى من الديمقراطية الغربية إذ رد الشورى في جميع أحوالها إلى الحاكم ورغباته في الأخذ بمقتضى الشورى أو مخالفته، ولم يوضح الدكتور مجالات الشورى وفيما تكون. ثم إن نظام الشورى في الإسلام يفوق نظام الديمقراطية الغربية ويتميز عليه في أمور كثيرة[1].

[وإلى جانب ما تقدم، نلاحظ أيضًا أن المؤلف بعد أن قرر أنه لمح أو كاد يلمح، مشابهة قريبة أو بعيدة بين نظام الدولة الإسلامية والجمهورية، عاد فنفى وجود صلة بين النظامين، معللاً ذلك بأنه «لم يعرف في نظم الجمهورية نظامًا يتيح للرئيس المنتخب أن يبقى إلى الموت»! ونحن بدورنا نريد أن نسأل: إلى أي أساس استند في دعواه هذه أن الإسلام قرر أن يبقى الرئيس المختار إلى الموت؟ إننا لا نعرف أبدًا أن أحدًا من فقهاء الإسلام الدستوريين قد قال شيئًا من ذلك... وإنما الذي نعرفه ونحن به واثقون أنهم قالوا: إن الإمام يبقي ما بقى صالحًا؛ ثم إذا تغير يجب أن يزال ويبايع غيره. وهذا شيء غير التحديد الزمني. على أننا نقول أيضًا: إنه ما دام علماء الإسلام قد قرروا أن الإمامة أو الدولة تقام بمقتضى «عقد» وقرروا حرية التعاقد، فقياسًا على ما ساقوا من حديث بالنسبة لعقود أخرى، يكون من حق طرفي العقد أن يضيفا من الشروط ما يريانه ملائمًا. ما دامت الشروط لا تتنافى مع طبيعة العقد، وما دامت تحقق المصلحة العامة، وبناءً على ذلك، لا يكون هناك أي مانع من أن تشترط الأمة ـ إذا أرادت ـ

(١) راجع: عدنان علي رضا النحوي: الشورى لا الديمقراطية ـ بدون ن، ط١، ١٤٠٥، ص٢١ ـ ٥٣.

أن يكون العقد محددًا بأجل زمني][1].

طه حسين يخالف المستشرقين:

والدكتور طه حسين في توصيفه لنظام الحكم في الصدر الأول من دعوة الإسلام بأنه «نظام عربي تأثر قليلاً أو كثيرًا بالإسلام» هو، على كل حال يخالف أساتذته من المستشرقين فها هو أستاذه «سنتيلانا» يقول عن طبيعة الدولة في الإسلام ونظام السيادة فيه: «الإسلام هو حكومة الله المباشرة، يحكمها الله الذي يرعى شعبه دائمًا، فالدولة في الإسلام يمثلها الله، حتى الموظفون العموميون هم موظفون عند الله»[2].

فالحكومة الإسلامية في نظره هي إذن حكومة ثيوقراطية.

ويرى موير أن الحكومة الإسلامية حكومة استبدادية فيقول: «المثال والنموذج للحكم الإسلامي هو الحاكم المستبد المطلق»[3].

وعلى نفس النهج ينسج مرجليوث وإن وسع في الدعوى وزاد فيها فقال: «إنه يمكن أن يقال: إن مبدأ الحكومة «الأوتقراطية»، أي: (الاستبدادية)، قد ظل مسلمًا به، لا يجادل أحد فيه في الأقطار الإسلامية حتى القرن التاسع عشر؛ وذلك حين وصلت الموجة التي صدرت عن الثورة الفرنسية ـ عن طريق تركيا ـ إلى المنطقة»![4].

وهذه الدعاوى الظالمة باعثها أحد أمرين إما جهل بالإسلام

---

(١) د. محمد ضياء الدين الريس: النظريات السياسية الإسلامية، ص٣٧٥.
(٢) (٣) (٤) المرجع السابق، ص٣٦٦، ٣٦٧.

ونظامه السياسي، وإما الحقد الموروث الذي يحمل على الكيد للإسلام وأهله.

الإسلام والمسيحية سواء في قضية الحكم:

«الإسلام رسالة روحية لا شأن لها بالحكم والسياسة»، و«الإسلام والمسيحية سواء في قضية الحكم» مقالتان بمعنى واحد وكل منهما تدل على الأخرى، لكن الدكتور آثر المقالة الأخيرة لما كانت أهدأ وقعًا على الآذان والأسماع، وأخف من المقالة الأولى التي تعتمد المباشرة والوضوح وعدم المواربة.

آثر الدكتور هذا العنوان ليثبت أن الإسلام لم يعن بالسياسة وتوجيهها، أو إقامتها وإنشائها، وإنما الإسلام جاء ليظهر بعض القيم العليا المثالية التي يتحدث بها في المساجد والزوايا وفي جلسات الوعظ دون أن تظهر تلك المثل في واقع الحياة، فهي مآثر يتغنى بها ويتفاخر ويشاد بها في تهذيب السلوك وتجميل الروح، أما واقع الحياة فلا شأن له بهذه القيم أو الأخلاق. فقوامه على الكذب والحيلة والمكر والخديعة، وبين هذه الرذائل وبين قيم الإسلام ومثله بعد ما بين السماء والأرض. استخدم الدكتور أسلوبه البياني الذي صبه في قالب اللف والدوران ليثبت ما عرضت آنفًا ـ أن الإسلام نظام روحي لا شأن له بالسياسة ـ يقول الدكتور:

[والذين يظنون أن نظام الحكم في هذا الصدر من حياة المسلمين كان إلهيًا يُخذعون عن رأيهم هذا بما يجدون في أحاديث الخلفاء وخطبهم، وفي أحاديث الناس عنهم وإليهم من ذكر الله وأمره وسلطانه وطاعته، يحسبون أن هذا كله يدل على أن نظام الحكم منزل من

السماء، مع أنه لا يدل في حقيقة الأمر إلا على شيء يسير خطير في وقت واحد وهو أن الخلافة عهد بين المسلمين وخلفائهم، وأن الله أمر المسلمين بأن يوفوا بعهد الله إذا عاهدوا سواء أكان هذا العهد متصلاً بشؤون الحكم أم متصلاً بالعلاقات الخارجية أم متصلاً بما يكون بين الأفراد من العهود والمواثيق؛ فالله يأمر باحترام العهود، والله شاهد على ضمائر الناس حين يوفون بالعهود أو ينكثونها، والله يثيب من وفى بالعهد ويعاقب من نكثه عقابًا شديدًا.

فليس بين الإسلام وبين المسيحية مثلاً فرق من هذه الناحية، فالإسلام دين يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويوجه إلى الخير ويصد عن الشر، ويريد أن تقوم أمور الناس على العدل وتبرأ من الجور، ثم يخلى بعد ذلك بينهم وبين أمورهم يدبرونها كما يرون ما داموا يرعون هذه الحدود؛ ولا تزيد المسيحية على هذا ولا تنقص منه؛ ولأمر ما قال عيسى عليه السلام للذين جادلوه من بني إسرائيل: «أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله»[1]، وما أشك في أن عيسى عليه السلام لم يرد أن يعطى ما لقيصر لقيصر بغير حقه، أو أن تقوم الصلة بين قيصر وبين الناس على الظلم والجور الخوف][2].

والدكتور هنا يحاكي صديقه الشيخ علي عبد الرازق في كتابه «الإسلام وأصول الحكم» أو يحكي عبارة نفسه ـ إن صحت نسبة كتاب الإسلام وأصول الحكم إليه ـ ولكن بأسلوب مختلف.

يقول صاحب الإسلام وأصول الحكم في النقطة ذاتها: [أنت

---

(١) إنجيل متى. دار الكتاب المقدس ـ مصر ـ الإصحاح ٢٢ آية ٢١.

(٢) طه حسين: الفتنة الكبرى ـ عثمان ـ المجموعة الكاملة ٤/٢٢١ ـ ٢٢٢.

تعلم أن الرسالة غير الملك، وأنه ليس بينهما شيء من التلازم بوجه من الوجوه وأن الرسالة مقام والملك مقام آخر، فكم من ملك ليس نبيًا ولا رسولاً، وكم لله جل شأنه من رسل لم يكونوا ملوكًا. بل إن أكثر من عرفنا إنما كانوا رسلاً فحسب.

ولقد كان عيسى ابن مريم عليه السلام رسول الدعوة المسيحية، وزعيم المسيحيين، وكان مع هذا يدعو إلى الإذعان لقيصر، ويؤمن بسلطانه. وهو الذي أرسل بين أتباعه تلك الكلمة البالغة «أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله»[(١)].

وهذا الكلام ذاته هو الخط الذي يتبناه الاتجاه العلماني ويدعو إليه يقول فرج فودة[(٢)] في هذا المحور بعد أن صال وجال وأرغى وأزبد موضحًا ضرورة فصل الدين عن السياسة، قال ملخصًا حديثه:

«دع عنك إذن حديث الساسة عن الدين والدولة وسلم معهم بالدين، أما الدولة فأمر فيه نظر، وحديث له خبىء، وقصد وراءه طمع وقول ظاهره الرحمة وباطنه العذاب»[(٣)].

وهذه الأقوال جميعًا قائمة على المغالطة وتحريف الكلم عن مواضعه فكل عارف بالإسلام وهديه يدرك أن الإسلام يمتاز بأنه دين

---

(١) الشيخ علي عبد الرزاق: الإسلام وأصول الحكم ـ سلسلة كتاب التنوير ـ الهيئة المصرية للكتاب، ط١٩٩٣، ص٤٩.

(٢) فرج فودة: أحد دعاة العلمانية في مصر، من مواليد الزرقا ـ دمياط حاصل على دكتوراه الفلسفة في الاقتصاد الزراعي، عمل بالاستثمار، والكتابة الصحفية وألف بعض الكتب في مهاجمة الفكر الإسلامي اغتيل قبل عدة سنوات قلائل من نهاية القرن الماضي.

(٣) د. فرج علي فودة ـ قبل السقوط ـ بدون ن ـ بدون ت، ص١٩.

ودولة [وأن الرسول ﷺ قد أرسل لا لتأسيس دين فحسب بل لبناء قاعدة دولة تتناول شؤون الدنيا وهو بهذا الاعتبار مؤسس الحكومة الإسلامية كما أنه نبي المسلمين، وهو بصفة كونه مؤسس حكومة كانت له الولاية على كل من كان خاضعًا لهذه الحكومة سواء كان مسلمًا أو غير مسلم. وبوصف كونه نبيًا لم يطلب من غير المسلمين الذين تركهم على دينهم الاعتراف بنبوته ولو أن دعوته عامة وشاملة.

إذا تقرر أن الإسلام دين ودولة فالقول مع بعض الكتاب (واضح أنه يقصد الشيخ علي عبد الرزاق) بأن رسالة النبي ﷺ قاصرة على أمور الدين فقط وأن شؤون الدنيا ليست مندرجة في تلك الرسالة وأن محمدًا ﷺ كان نبيًا لا ملكًا (هذه عبارة الشيخ علي عبد الرازق) القول بهذا تأويل غير صحيح للرسالة المحمدية وإنكار دون دليل للحقائق التاريخية الثابتة، ولئن صح أن النبي ﷺ كان في مكة نبيًا فحسب[1] فلقد كان في المدينة زعيم أمة ومنشىء دولة، ولا ضير أن نقول: إنه كان ملكًا إذا أريد بهذه اللفظة أنه كان رأس الحكومة الإسلامية ووليًا على المسلمين في أمور دنياهم، كما كان الهادي لهم في شؤون دينهم][2].

---

(١) هذه العبارة من كلام الدكتور عبد الرازق السنهوري تحتاج إلى تحقيق، فهناك الكثير من أعماله ﷺ بمكة التي تبرز اهتمامه بالدولة ورغبته في تحقيق واقع فعلي لحكومة مسلمة وما بيعة العقبة الأولى والثانية إلا شاهد صدق على ما نقول، يضاف إلى ذلك أمره للمسلمين ـ امتثالًا لأمر الله ـ بكف أيديهم عن قتال المشركين في مكة إلى غير ذلك مما يدخل ضمن التصرفات التي تدخل في نطاق السياسة.

(٢) د. عبد الرازق أحمد السنهوري: فقه الخلافة وتطورها. تحقيق: د. توفيق الشاوي ـ الهيئة المصرية للكتاب، ط٢، ١٩٩٣، ص٨٤.

الحكومات المتحضرة في نظر الدكتور طه حسين:

لكي يثبت الدكتور فكرته السابقة والتي زعم فيها أن الإسلام والمسيحية سواء في أمور الحكم والسياسة؛ أو بمعنى آخر أن الإسلام رسالة روحية لا شأن لا بأمور الدولة، عمد في أسلوب صريح مباشر إلى بيان الأسس التي تقوم عليها الحكومات المتحضرة فكان من ذلك قوله:

«إنما تقوم الحكومة الحديثة في أقطار الأرض المتحضرة الآن على أساس سياسي خالص من المنفعة الاقتصادية والمدنية لا أكثر ولا أقل. وقد فرغ الناس من هذا وأصبحوا لا يفكرون في أن الحكومة تقوم على الدين أو لا تقوم عليه. فإن فكروا في صلة بين الدين والحكومة ـ وهذا قليل نادر ـ فإنما يفكرون في طبيعة الموقف الذي يجب أن تقفه الحكومة الحرة الصالحة من دين الكثرة والقلة أتعترف بهذه الديانات أم تنكرها أو تجهلها في غير اعتراف ولا إنكار»[1].

ومن هنا رأى الدكتور أن في الدستور المصري خطأ عظيم حين نص في صراحة أن دين الدولة هو الإسلام، لأنه يرى أن هذا النص مصدر فرقة لا بين المسلمين وغيرهم وإنما بين المسلمين وبعضهم؛ ففريق المستنيرين الذي ينتمي الدكتور إليه (فهم النص على أنه إرضاء لعاطفة السواد وطمأنة للشيوخ فهو لا يضر، وأكبر الظن أنه قد يفيد)[2] يعني أن هذا النص بمثابة مسكن تخدع به مشاعر الناس وحقيقته أنه في الواقع ديكور لا غناء فيه ويفهمونه كذلك (أنه لا يزيد على تقرير الواقع

---

(١) طه حسين: من بعيد، المجموعة الكاملة ١٢/١٧٢.

(٢) المرجع السابق ١٢/١٧٤.

من أن رئيس الدولة في مصر يجب أن يكون مسلمًا ومن أن شعائر الإسلام يجب أن تقام بعد صدور الدستور، كما كانت تقام قبل صدوره، فلا تغلق المساجد ولا يعطل الحج، ولا تعمل الحكومة في أيام الأعياد الإسلامية ولا ينقطع إطلاق المدافع في رمضان، ولا يلغى الحفل بالمحمل ولا الحفل بالمولد النبوي...

ولم يخطر لهؤلاء المستنيرين في يوم من الأيام أن هذا النص سيكلف الحكومة واجبات جديدة دينية، أو أنه سيحدث في الدولة نظمًا لم يكن لها به عهد من قبل. ذلك لأنهم كانوا وما يزالون يقدرون أن مصر تمضي إلى الأمام وتسرع في الاتصال بالمدنية الغربيةوتريد أن تحقق ما قال إسماعيل[1] من أنها جزء من أوروبا، ولأنهم كانوا وما زالوا يقدرون أن في الإسلام من اللين والمرونة ما يمكنه من التطور مع الزمن وملاءمة الظروف المختلفة ويعصمه من الجمود والسكون، ويحول بينه وبين أن يكون عقبة في سبيل الرقي الاجتماعي والاقتصادي، ولأنهم كانوا وما يزالون يقدرون أن حكومة مصر قد اضطرت بحكم هذه الحياة الحديثة إلى أن تأتي من الأمر ما لم يكن يبيحه الإسلام من قبل، فهي تعامل المصارف، وتنظم الربا، وتبيح ألوانًا من المعصية...)[2].

ويعيب الدكتور على الشيوخ فهمهم لهذا النص من الدستور

---

(١) إسماعيل: هو الخديوي إسماعيل أحد أفراد أسرة محمد علي الذين حكموا مصر، تولى الحكم من (١٨٦٣ ـ ١٨٧٩م) كان شديد الإسراف والتبذير بلغت ديون مصر في فترة ولايته مائة مليون من الجنيهات. راجع: د. محمد ضياء الدين الريس: تباشير النهضة في العالم الإسلامي، دار الأنصار ـ مصر، سنة ١٤٠١هـ، ص١٣٦ بتصرف.

(٢) طه حسين: من بعيد، المجموعة الكاملة ١٢/١٧٣، ١٧٤ بتصرف.

بقوله: «ولكن الشيوخ فهموا هذا النص فهمًا آخر، أو قل: إنهم فهموه كما فهمه غيرهم، ولكنهم تكلفوا أن يظهروا أنهم يفهمونه فهمًا آخر، واتخذوه تكأة وتعلة يعتمدون عليها في تحقيق ضروب من المطامع والأغراض السياسية وغير السياسية وفهموا أن الإسلام دين الدولة، أي: أن الدولة يجب أن تكون دولة إسلامية بالمعنى القديم حقًا»[1].

الخلافة الإسلامية تجربة فاشلة:

نتيجة انتهى إليها الدكتور طه حسين حين أرخ للخلفاء الراشدين ولا أستبعد أن تكون هذه النتيجة الهدف الأساسي الذي من أجله أرخ الدكتور لتلك الفترة.

يقول الدكتور: «أكاد أعتقد أن الخلافة الإسلامية، كما فهمها أبو بكر وعمر، إنما كانت تجربة جريئة توشك أن تكون مغامرة، ولكنها لم تنته إلى غايتها، ولم يكن من الممكن أن تنتهي إلى غايتها، لأنها أجريت في غير العصر الذي كان يمكن أن تجري فيه، سبق بها هذا العصر سبقًا عظيمًا»[2].

فخلافة أبي بكر وعمر اللتان أشاد الدكتور بهما في أكثر من موضع هما في نظره ضرب من المغامرة، ولم تؤديا الغرض الذي قامتا من أجله، ولذلك يتابع الدكتور كلامه قائلاً:

«سلكت الإنسانية في سبيل الحكم الصالح كل الطرق، وجربت كل النظم، فلم تنته إلى غاية، وما زالت تشكو الظلم والجور، وتضيق

---

(١) المرجع السابق ١٢/١٧٤ ـ ١٧٥.

(٢) طه حسين: الفتنة الكبرى ـ عثمان ـ المجموعة الكاملة ٤/٢٠٠.

بالاستذلال والاستغلال، وتبحث عن النظام القويم الذي يضمن للناس الحرية والعدل جميعًا. وهذا النظام هو الذي حاولت الخلافة الإسلامية لعهد أبي بكر وعمر أن تنشئه، مات أبو بكر رحمه الله ولم يكد يبدأ التجربة وقتل عمر رحمه الله وقد خطا بالتجربة خطوات واسعة ولكنه لم يرض عنها فقد روي عنه أنه كان يقول في آخر خلافته:

لو استقبلت من أمري ما استدبرت، لأخذت من الأغنياء فضول أموالهم فرددتها على الفقراء»[1].

وكأني بالدكتور يدعي أن الحكم الإسلامي الصحيح لم يُتمثل واقعًا في تاريخ المسلمين أبدًا حتى في عهد أبي بكر وعمر.

ولم يكن رأيه في خلافة عثمان وعلي مقاربًا من رأيه في خلافة الصديق والفاروق ﷺ، بل كان أسوأ حالاً وأبعد عن سواء السبيل يقول الدكتور وهو يعقب على أحداث الفتنة الكبرى التي شملت خلافة عثمان وعلي ﷺ:

«ليس من شك في أن عليًّا أخفق في بسط خلافته على أقطار الأرض الإسلامية ثم هو لم يخفق وحده وإنما أخفق معه نظام الخلافة كله، وظهر أن هذه الدولة الجديدة التي كان يرجى أن تكون نموذجًا للون جديد من ألوان الحكم والسياسة والنظام لم تستطع آخر الأمر إلا أن تسلك طريق الدول من قبلها، فيقوم الحكم فيها على مثل ما كان يقوم عليه من قبل من الأثرة والاستعلاء ونظام الطبقات، الذي تستذل فيه الكثرة الضخمة، لا من شعب واحد بل من شعوب كثيرة، لقلة قليلة من الناس»[2].

---

(١) المصدر السابق ٤/٢٠٣.

(٢) طه حسين: الفتنة الكبرى ـ علي بن أبي طالب ـ المجموعة الكاملة ٤/٥٨٣.

المستشرقون يرددون الدعوى نفسها:

ردد المستشرقون الدعوى القائلة بأن الإسلام فشل كنظام للحكم ولم يتحقق كواقع مشاهد يطابق الواقع النظري في أي فترة من فترات التاريخ، وكأن الهدف من إثارة هذا الكلام الإيحاء بأن المبادئ الإسلامية غير قابلة للتطبيق لأنها مثالية.

وبهذا يشترك الدكتور طه حسين مع نفر من المستشرقين في هذه النتيجة وإن اختلفوا في توصيف نظاما الحكم في الإسلام، فبينما يراه كثير من المستشرقين **نظامًا ثيوقراطيًّا** يحكم بنظرية الحق الإلهي، يراه **الدكتور نظامًا عربيًّا تأثر** بالإسلام قليلاً أو كثيرًا إلا أنهم اتفقوا في الحكم على تجربة الحكم الإسلامي في حياة المسلمين فرآها الدكتور تجربة فاشلة لم تنته إلى شيء ورآها المستشرقون كذلك.

يقول جوستاف جرونيباوم عن تقييمه لنظام الخلافة:

[لم يكن التناقض بين الأحلام المثالية للمشرعين واقع الحياة أصرح ولا أجرح لشعور المجتمع في أي وضع منه في محيط التنظيم السياسي، فليس بين مظاهر الحضارة الإسلامية مظهر أصرح دلالة على فشل المسلمين المستتر وراء أبراد الأبهة والجلال من إخفاقهم في إقامة التوازن بين الآمال والأعمال، إذ عجزوا عن القيام في قدر معقول من الكفاية بوضع دستور بالمبادىء التي أنزلها الوحي في شأن الدولة والتي اشتد تلهف المشرعين إليها وتعقبوها تعقبًا لا يمت إلى الواقع بأدنى سبب. ولكن الأمر تناهى إلى أن صارت شقة الخلف بين الواقعي والمثالي شيئًا مضحكًا وغير مطاق ويوجب إطراح المثالي دون الاحتفاظ بشيء إلا بقية يسيرة يتعلل بها ضمير المجتمع الذي ظل على رأيه بأنه

مجتمع الله][1].

ثم يلقي حكمًا غالب مستنده على الشك حين يقول:

(وربما جاز لنا أن نرتاب في أن الخلافة كما صورها الفقهاء كان لها في أي يوم من الأيام وجود حقيقي)[2].

ثم أصدر حكمه القاطع قائلاً:

(لقد أخفقت الدولة الربانية المثالية Civitas Die وقد سلم المجتمع الإسلامي بإخفاقها)[3].

وكذلك وقف غوستاف لوبون الموقف ذاته من الخلافة الإسلامية حيث يقول: (وعاد القرآن الذي لاءم مشاعر الأمة العربية واحتياجاتها أيام محمد ملاءمة تامة، غير ما كان عليه بعد بضعة قرون، ولو كان القرآن دستورًا دينيًا فقط ما كان هنالك كبير محذور، ولكن القرآن إذا كان دستورًا سياسيًا ومدنيًا أيضًا وكان بطبيعته ثابتًا، بدت عدم المطابقة بينه وبين الاحتياجات الدائمة التحول والأمم ونظمها الثابتة، وحالت هذه النظم دون تقدم تلك الأمم التي قيدت بقيود الماضي، وتبدو أكثر النظم المشتقة من القرآن على شيء من المرونة مع ثباتها، وإنما الذي هو ثابت غير مرن منها هو النظام الإسلامي الأساسي القائل بجمع جميع السلطات في يد سيد عالٍ مطلقٍ معدودٍ وكيل الله في الأرض)[4].

(١) جوستاف إ. فون جرونيباوم: حضارة الإسلام، ص١٩٨.

(٢)(٣) المرجع السابق نفسه، ص٢١٦، ٢١٧.

(٤) غوستاف لوبون: حضارة العرب، ص٣٩٤.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

المبحث السادس

رأي طه حسين في الفتوحات الإسلامية

تمهيد:

من الأمور المهمة التي طالما شغلت الكثير من الباحثين موضوع الفتوحات الإسلامية، وهو الموضوع الذي استغله المتسشرقون على وجه الخصوص لإثارة الدعايات الكاذبة على الإسلام والنيل منه ومن تاريخه المشرق، فتارة يرمون حركة الفتوحات بأنها كانت حركة دينية لفرض عقيدة الإسلام بالسيف! وتارة يقولون: إن الدافع المادي والاقتصادي هو الذي حرك المسلمين لغزو العالم من حولهم لنهب خيراته وسلب ثرواته!!، وزعم ثالث بأنها كانت دفاعًا عن قومية العرب وتحرير سلطانهم من الفرس والروم!!، وآخرين يزعمون أن ضعف فارس والروم إبان نشأة الخلافة الإسلامية أغرى المسلمين أن يغزوا تلك البلاد وينالوا من ثرواتها، وهذه الشبهات انطلت على كثير من الباحثين من العرب والمسلمين فراح بعضهم يرددها بوعي أو مجرد عنه، ويتحدثون عن ذلك بالألفاظ الصريحة أو بالتعريض والإشارات الخفية... ولما كان للدكتور طه حسين نصيب من ذلك آثرت أن

أتعرض لهذا الموضوع من زوايا معينة أكثر الدكتور التعرض لها، هدفي رد الحق إلى نصابه ورائدي بإذن الله التجرد والإنصاف.

أولاً: دعوى الإكراه على الإسلام:

هذا الادعاء تبناه المستشرقون حين تحدثوا عن انتشار الإسلام وسرعة انسياحه في الأرض واعتناق الشعوب والأفراد لمبادئه، وهدفوا من بث هذا الادعاء وإذاعته أن يظهروا الإسلام بمظهر الطاغي المستبد الذي يرغم الآخرين على الانصياع لحكمه والانقياد لسلطانه.

تقرير شبهة المستشرقين:

[قال بعض المستشرقين أن الفتوحات كانت حروبًا دينية ـ أي: لإجبار الناس على الدخول في الدين الإسلامي ـ فهم لم يميزوا بين مفهوم الجهاد ـ الذي يعمل لإزالة الحواجز والعقبات التي تعترض سبيل الدعوة ـ وبين اعتناق الناس للإسلام فقالوا وبمقايسهم: «إن المسلمين أصحاب عقيدة ولكنهم توسلوا بالتعصب الأعمى وأخضعوا الناس لمبادئهم بالقهر والإرغام وخاضوا إلى ذلك بحار الدم والقسوة وأنهم كانوا يحملون القرآن بإحدى يديهم والسيف باليد الأخرى»[(١)][(٢)].

---

(١) قال هذا الرأي سيديو، تاريخ العرب العام، ص١٣٣، وهو نفسه الرأي الذي يراه موير نقل عنه ذلك السيد أمير علي في روح الإسلام، ص٩٤، ٩٥.

(٢) الدكتور/ جميل عبدالله المصري ـ الفتوحات بين دوافعها الإسلامية ودعاوى المستشرقين ـ مجلة المنهل ـ السعودية ـ العدد ٤٧١ رمضان سنة ١٤٠٩، أبريل ومايو سنة ١٩٨٩م، ص٧٣.

ونتيجة لهذا الخلط يعرف ماكدونالد[1] الجهاد بأنه «نشر الإسلام بالسيف»[2] ويقول معقبًا: «وهو فرض كفاية على المسلمين، وكاد الجهاد أن يكون ركنًا سادسًا من أركان الدين أو فرض عين»[3].

ولأن هذا الكلام منافي للصواب ومجافي للحقيقة فإني أعقبه بإيراد كلمات لنفر من المستشرقين أيضًا يردون على إخوانهم في ذهابهم هذا المذهب.

يقول توماس كارليل[4] في كتابه الأبطال وهو يتحدث عن رسول الله ﷺ: «اتهامه بالتعويل على السيف في حمل الناس على الاستجابة لدعوته سخف غير مفهوم، إذ ليس مما يجوز في الفهم أن يشهر رجل سيفه ليقتل به الناس أو يستجيبوا لدعوته، فإذا آمن به من يقدرون على حرب خصومهم فقد آمنوا به طائعين مصدقين وتعرضوا للحرب من أعدائهم قبل أن يقدروا عليها»[5].

ويقول غوستاف لوبون[6] في المعنى نفسه: «لم ينشر القرآن بالسيف بل انتشر بالدعوة وحدها، وبالدعوة وحده اعتنقته الشعوب التي قهرت العرب مؤخرًا كالترك والمغول وبلغ القرآن من الانتشار في الهند

---

(١) سبق ترجمته، ص٣٥٧.

(٢)(٣) دائرة المعارف الإسلامية ١٨٨/٧.

(٤) توماس كارليل (١٧٩٥ ـ ١٨٨١) من آثاره: الأبطال (١٨٤٠) وقد عقد فيه فصلاً رائعًا عن النبي ﷺ نقله إلى العربية علي أدهم العقيلي. المستشرقون ٥٣/٢.

(٥) نقلاً عن: عباس محمود العقاد: حقائق الإسلام وأباطيل خصومه، الهيئة العامة للكتاب، مكتبة الأسرة ١٩٩٩م، ص١٦٦.
ولقد راجعت الأبطال لكارليل بترجمة محمد السباعي فوجدت العبارات مقاربة لما نقل الأستاذ العقاد ولعله رجع إلى ترجمة الأستاذ علي أدهم.

(٦) سبق ترجمته، ص١٩٩.

التي لم يكن العرب فيها غير عابري سبيل، ما زاد معه عدد المسلمين على خمسين مليون نفس فيها. . .»[1].

ويقول السير توماس أرنولد[2]: «يمكننا أن نحكم من الصلات الودية التي قامت بين المسيحيين والمسلمين من العرب بأن القوة لم تكن عاملاً حاسمًا في تحويل الناس إلى الإسلام، فمحمد نفسه قد عقد حلفًا مع بعض القبائل المسيحية وأخذ على عاتقه حمايتهم ومنحهم الحرية في إقامة شعائرهم الدينية، كما أتاح لرجال الكنيسة أن ينعموا بحقوقهم ونفوذهم القديم في أمن وطمأنينة»[3].

ولم أشأ أن أرد على دعوى انتشار الإسلام بالإكراه، لأنها من الوضوح بمكان، ولأن كثيرًا من الباحثين قد تناولوها بالدحض والإبطال وإنما اكتفيت بما أوردت من أقوال بعض المستشرقون الذين ردوا هذه المزاعم على أصحابها.

رأي الدكتور طه حسين في هذا الجانب:

سلك الدكتور طه حسين في حديثه عن إكراه غير المسلمين على الدخول في الإسلام طريقًا غير مباشرة ولم يعمد إلى أسلوب التصريح

---

(١) غوستاف لوبون حضارة العرب ـ ترجمه عادل زعتير ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب، مكتبة الأسرة عام ٢٠٠٠، ص١٢٨.

(٢) توماس أرنولد: إنجليزي تعلم في كمبريدج، قضى عدة سنوات في الهند أستاذًا في جامعة عليكرة، حاضر في الجامعة المصرية عن التاريخ الإسلامي في الثلاثينيات من القرن الماضي، أهم آثاره: الدعوة إلى الإسلام، العقيقي. المستشرقون ٨٤/٢.

(٣) الدعوة إلى الإسلام: ص٦٥ نقلاً عن د. عماد الدين خليل: حول انتشار الإسلام وقائع وملاحظات ـ من مطبوعات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض سنة ١٤٠٥هـ، ص٥٦.

وإنما كان يكتفي بإشارات تدل على ما في قلبه وعقله، ولم يذكر هذه الإشارات مرة أو بعض مرة إنما أكثر من ترديدها لا سيما وهو يعالج تاريخ الخلفاء الراشدين.

ففي مقدمة كتاب «الشيخان» وهو يمهد للحديث عن أحداث الردة يعرِّض أن النبي ﷺ أكره العرب على الإسلام في حياته ولذا لا لوم عليهم ولا عتب إذا خلعوا رداء الإسلام عقب وفاته ﷺ، يقول وهو يتحدث عن العرب وسلطان الإسلام: [. . . ورأوا هذا السلطان يعلن الحرب على كل عربي في الجزيرة يستمسك بشركه ولا يذعن لهذا الدين الجديد، ورأوه يحول بين المشركين وبين المسجد الحرام بمكة ويعلن إليهم قول الله عز وجل في سورة براءة: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾[1]، ورأوا لهذا السلطان من القوة والبطش، ورأوا فيه من السعة والإسماح ما رهبهم ورغبهم، فأعلنوا إذعانهم لهذا الدين الجديد طائعين أو كارهين][2].

والدكتور يصر على ترديد هاتين الكلمتين ليلبس على القارئ ويفهمه أن للإكراه دور في اعتناق كثير من العرب للإسلام، لقد ردد نفس المعاني حين أرخ لتاريخ الإسلام على عجل في «مرآة الإسلام» فلما وصل إلى فتح مكة وصفه بقوله: [وأسلمت قريش، منهم من أسلم طائعًا، ومنهم من أسلم لأنه لم يجد من الإسلام بدًا!!][3].

ثم يقول: [عاد الإسلام إلى مكة واستقر فيها ظافرًا منصورًا ودخلت فيه قريش طوعًا أو كرهًا. . .][4].

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٢٨.

(٢) طه حسين: الشيخان، ص١١، ١٢.

(٣) (٤) طه حسين: مرآة الإسلام، ص١١٨، ١١٩.

وعندما يصف أمر الردة ومعالجة أبي بكر ﷺ لأمرها يعقب بقوله: [ومهما يكن من أمر فقد أتيح لأبي بكر بفضل هذا المزاج المعقول من الرفق في موضع الرفق والعنف في موطن العنف أن يقضي على الردة، ويعيد العرب إلى الإسلام طائعين أو كارهين بعد أن خرجوا منه!!][1].

وعندما يتحدث عن سياسة عمر ﷺ في توزيع العطاء على الصحابة رضوان الله عليهم وأنه كان يفضل أهل السابقة والذين أبلوا في سبيل الله البلاء الحسن على غيرهم، يقول: [.... كان يقدم الذين آسوا رسول الله بأنفسهم وشاركوه فيما لقي من الشدة والجهد والضيق، وقاتلوا أعداءه وأعداء الإسلام، على الذين كادوا للنبي وقاتلوه ولم يستجيبوا للإسلام إلا كارهين حين لم يكن لهم من الاستجابة بد][2].

ويصر طه أن يصف الذين أسلموا متأخرين من أهل مكة ويسميهم بالطلقاء ويصر على أنهم لم يدخلوا الإسلام إلا راهبين وحين لم يكن من الإسلام بد[3].

ولئن ذهبنا نستقصي عباراته في هذا الشأن لطال بنا المقام وفيما ذكرناه كفاية للدلالة على أن الدكتور كان يرى ما رآه بعض المستشرقين في الإسلام من أنه أعمل الإكراه والضغط على النفوس حتى تخضع لسلطانه، ولئن كان المستشرقون مدفوعين ببغضهم للإسلام وعداوتهم له، فما دافع الدكتور في أن يردد كلامهم وأن ينسج على منوالهم.

---

(١) طه حسين: الشيخان، ص٨٦.

(٢) طه حسين: الشيخان، ص١٧٨.

(٣) راجع: طه حسين: مرآة الإسلام، ص٢٠٧؛ الفتنة الكبرى ـ عثمان ـ المجموعة الكاملة ٤/٤٤٢، وغيرها.

ثانيًا: الفتوحات والعامل الاقتصادي:

رأى بعض المستشرقين أن الفتوحات الإسلامية إنما كان باعثها الحصول على الغنائم والأموال واستبدالهم أرضهم الصحراوية الشاقة بأرض زراعية معتدلة المناخ غنية بثرواتها.

[وقد استدلوا على آرائهم بنصوص من أقوال المؤرخين المسلمين تخيروها من بين النصوص الكثيرة التي تؤكد عكس ما يستنتجون، وهي نصوص قيلت في عبارات حماسية أدلى بها بعض القادة... أو ترغيبية من أجل جمع القوات الإسلامية.... أو استفزازية كانت ردًا على عدو قائم أو حاكم][1].

يقول ول ديورانت[2] عن وصف العربي: ـ [وكان يدفع ملل الحياة الرتيبة وسآمتها بالحب والحرب وكان يسرع كما يسرع الإسباني ـ الذي ورث عنه سرعة غضبه ـ إلى الانتقام لما عساه أن يوجه إليه أو إلى قبيلته من إهانة وأذى، وكان يقضي جزءًا كبيرًا من حياته في الحرب التي تستعر نارها بين القبائل المختلفة، ولما أن فتح بلاد الشام وفارس ومصر وإسبانيا، لم يكن عمله هذا إلا توسعًا منه في غارات النهب، التي كان يشنها في أيام الجاهلية وإن اختلف الغرض في هذه عن تلك][3].

---

(١) د. جميل عبدالله المصري: الفتوحات بين دوافعها الإسلامية ودعاوى المستشرقين ٢٧١ مجلة المنهل عدد ٤٧١، ص٧٦، ٧٧.

(٢) ول ديوارنت: (١٨٨٥ ـ ١٩٨١) مؤلف أمريكي ـ صاحب قصة الحضارة ـ المورد، ص٢٧.

(٣) قصة الحضارة ١٢/٢ نقلاً عن. أ. ناصر محمد السيد: دوافع الاستشراق وموازين البحث عند المستشرقين بين الماضي والحاضر، رسالة ماجستير بقسم الأديان والمذاهب بكلية الدعوة، ص٢٧٠.

وهذا حكم جائز غير مستند إلى دليل اللَّهم إلا الأحقاد الموروثة والبغض الكامن في النفوس للإسلام وأهله.

وأحب هنا أيضًا أن أورد مقالة لكارليل يتحدث فيها عن النبي ﷺ وأتباعه وينزهه عن أن يكون همه من دعوته وجهاده الدنيا وزينتها يقول: [أيزعم الكاذبون أنه الطمع وحب الدنيا هو الذي أقام محمدًا وأثاره، حمق وأيم الله وسخافة وهوس. أي فائدة لمثل هذا الرجل في جميع بلاد العرب وفي تاج قيصر وصولجان كسرى، وجميع ما بالأرض من تيجان وصولجانات، وأين تصير الممالك والتيجان والدول جميعًا بعد حين من الدهر؟

أفي مشيخة مكة وقضيب مفضض الطرف أو في ملك كسرى وتاج ذهبي الذؤابة منجاة للمرء ومظفرة؟ كلا... إذن فلنضرب صفحًا عن مذهب الجائرين][1].

والنبي الذي يصفه هذا المستشرق هو الذي قذف في نفوس أتباعه الإخلاص والتجرد في الأعمال كلها وأن لا يريدوا بأعمالهم التي يبتغون بها وجه الله شيئًا من الدنيا، ولقد كان الجهاد من الأعمال التي يتقربون بها إلى الله يرجون به ثوابه وعطاءه ويريدون من ورائه تذليل العقبات التي تحول بين الناس وبين أن تعرض عليهم شريعة الإسلام.

لقد تعلم المسلمون من رسول الله أن المسلم لا يُقبل جهاده إن كان في قلبه حظ من الدنيا فهم الذين علموا مقاله لمن سأله، يا رسول الله الرجل يقاتل شجاعة، ويقاتل حمية، ويقاتل رياء، أي ذلك

---

(١) توماس كارليل: الأبطال ـ سلسلة كتاب الهلال ـ العدد ٣١٦ سنة ١٩٧٨، ص٧٤.

في سبيل الله؟ فقال رسول الله ﷺ: «**من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله**»[1].

ولذا كان المسلمون يدخلون المعركة وكلهم إخلاص لله، وحب الشهادة لديهم يفوق حبهم للسلام والعافية.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: انطلق رسول الله ﷺ وأصحابه حتى سبقوا المشركين إلى بدر وجاء المشركون فقال رسول الله ﷺ: «**قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض**» قال عمير بن الحمام: بخ بخ، فقال رسول الله ﷺ: «**ما يحملك على قولك: بخ بخ؟**» قال: لا والله يا رسول الله إلا رجاء أن أكون من أهلها قال: «**فإنك من أهلها**» قال: فأخرج تمرات من قرنه فجعل يأكل منهن ثم قال: «**لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي إنها لحياة طويلة**، فرمى ما كان معه من التمر، ثم قاتلهم حتى قتل» رواه مسلم[2].

ومما يؤيد ما ذكرناه عن حال الصحابة ما رواه شداد بن الهاد رضي الله عنه: أن رجلاً من الأعراب جاء فآمن بالنبي ﷺ ثم قال: أهاجر معك، فأوصى به النبي ﷺ بعض أصحابه، فكانت غزاة غنم فيها النبي ﷺ شيئًا فقسم وقسم له فقال: ما هذا؟ فقال: «**قسمته لك**»، فقال: ما على هذا اتبعتك، ولكن اتبعتك على أن أرمى إلى ههنا - وأشار بيده إلى حلقه - بسهم فأموت فأدخل الجنة قال: «**إن تصدق الله**

---

(١) الحديث متفق عليه [البخاري (٢٨١٠) - مسلم (١٩٠٤)] راجع: الإمام النووي رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين - تحقيق: علي عبد الحميد أبو الخير - مكتبة الكوثر - الرياض، ط١ سنة ١٤١٦هـ/١٩٩٦م، ص١١.

(٢) انظر: المنذري: الترغيب والترهيب - كتاب الجهاد فصل الترغيب في الغزو في سبيل الله، ٢٦، ١٧٦/٢ - ١٧٨، بدون ط، بدون ت.

يصدقك». فلبثوا قليلاً ثم نهضوا في قتال العدو فأتى به محمولاً قد أصابه سهم حيث أشار فقال النبي ﷺ: «**أهو هو**» قالوا: نعم، قال: «**صدق الله فصدقه**. . . .» الحديث[1].

ومع ما قدمناه فإننا لا نبرىء صف المسلمين عامة أن يكون فيه نفر في نيته دخل ولكن متى كان فعل فرد ـ لو كان ـ تؤاخذ به أمة؟

فالحكم على المسلمين بأنهم كانوا يريدون بغزوهم المال إنما هو حكم فيه مبالغة وتهويل ويدل على سوء نية وخبث في الطوية.

عرض أقوال الدكتور طه حسين في هذه الدعوى:

أكثر الدكتور من ترديده أن المسلمين أيام الفتوحات كان يحركهم طلب المال والحرص عليه ليذهبوا عن أنفسهم ضيق العيش وقسوة الحياة فيذكر أنهم كانوا يطلبون ذلك إلى الخلفاء ويكرهونهم عليه، لقد قال وهو يتحدث عن الفتوحات في عهد عمر: [وكان حظ الكوفة من سواد العراق ومما فتح من أرض الفرس أعظم من حظ البصرة، فكان أهل البصرة يطمعون في أن يوسعوا رقعتهم ويكثروا من الفتوح ليتاح لهم من الغنائم وسعة الفيء إلى ما كانوا يؤمنون به من فضل الجهاد والغزو في سبيل الله (!!) حتى قال الأحنف بن قيس ذات يوم لعمر، وكان عنده وفد البصرة: إن عيشنا أضيق من عيش إخواننا في الكوفة، وإنا لن نأمن من الفرس ولن نفرغ منهم حتى نظفر بملكهم أو نقتله، وما زال المصران يلحان على عمر في أن يأذن للناس في الانسياح في

---

(١) أخرجه النسائي ٤/١٠، ٦١ في الجنائز، باب الصلاة على الشهداء وإسناده صحيح. راجع: ابن الأثير الجزري: جامع الأصول في أحاديث الرسول كتاب الجهاد، فصل في صدق النية والإخلاص ٢/٥٨٦.

الأرض حتى انتزعوا منه الإذن في ذلك انتزاعًا. . .][1].

يذكر ذلك على أنه حقيقة واقعة وأنه يقرر حال المسلمين ويجعل هذه الرغبة نتيجة لأمور سبقتها من تحفيز عمر للمسلمين في أول خلافته على الغزو ووعده لهم بالمال والعطاء الكثير فيذكر قوله: [وكان العرب يكرهون لقاء الفرس ويؤثرون الجهاد في الشام ولكن عمر يأبى عليهم إلا العراق وربما رغب بعضهم بالمال بعد الفتح. . .][2].

ولا يذكر الدكتور القرشيين الذين أسلموا بأخرة ـ على حد تعبيره ـ إلا شكك في إسلامهم ثم شكك في حياتهم وجهادهم وأذكر هنا مقالة واحدة من تلك المقالات التي طالما نال منهم فيها يقول: [هؤلاء الشيوخ والفتيان الذين لم يسلموا عن رغبة ولا رضا وإنما أسلموا إما طمعًا حين تبينوا أن كفة الإسلام راجحة، وإما قهرًا حين دُخلت عليهم مكة من أقطارها، وأولئك وهؤلاء لم ينظروا إلى الإسلام على أنه دين يتصل بالقلوب والضمائر، وترعى فيه حرمات الله وحقوقه، وإنما نظروا إليه على أنه صفقة خطيرة من تلك الصفقات التي كانوا يباشرونها، ومغامرة جريئة من تلك المغامرات التي كانوا يغامرونها داخل بلاد العرب وخارجها، وقد ذكروا حين أسلموا أو حين هموا بالإسلام أن النبي قد وعد قريشًا حين دعاها إلى الدين الجديد ملك الدنيا وثواب الآخرة ودفعهم هذا التفكير إلى أن يسلموا ثم إلى أن يحتملوا من أثقال الجهاد والفتح ما احتمل غيرهم من الناس أو أكثر مما احتمل غيرهم من الناس.

---

(١) طه حسين: الشيخان، ص١٥٧، ١٥٨.

(٢) المرجع السابق، ص١٤٩.

وأراد كثير منهم عن نية صادقة أو غير صادقة أن يعوضوا بحسن البلاء في الفتوح ما فاتهم من حسن البلاء مع النبي في غزواته، ومن أجل ذلك لم يبطئوا حين دفعت العرب إلى الفتح وإنما نفروا خفافًا وثقالاً، كثير منهم يريدون عرض الدنيا وقليل منهم يريدون الآخرة وكان زعماؤهم وسادتهم يحسون أنهم الطلقاء، وأنهم أقل درجة من الذين سبقوا إلى الإسلام وأبلوا فيه بلاء حسنًا فكان ذلك يغيظهم ويحفظهم ويشعرهم بشيء يشبه ما نسميه تعقيد النقص أو مركب النقص، ثم كانوا يعرفون رأي عمر خاصة فيهم، فكان ذلك يغيظهم من عمر، ويدعوهم إلى أن يحسنوا البلاء في الجهاد، ليظهروا لعمر أن رأيه فيهم جائر عن القصد، وليظهروا ذلك للناس، وليظهروا ذلك لأنفسهم قبل أن يظهروه للناس، وهذا تأويل ما روي من أن خالد بن الوليد أتى بعكرمة بن أبي جهل وقد صرع في يوم من أيام الشام، فوضع رأسه على فخذه وجعل ينظر إليه ويقول: زعم ابن حنتمة أننا لا نستشهد، وابن حنتمة هو عمر][1].

ولقد أطلت في هذا الاستدلال لأني رأيت الدكتور هو أصدق واحد يحكي مقالة نفسه، وحتى لا يخطر لأحد أني أتزيد عليه بنسبة كلام لم يقله، أو أني أحمل كلامه ما لا ينبغي أو ما لا يحتمل من المعاني، ولعل النص السابق ذكره قد حوى جملاً كثيرة، كل جملة فيه تحتاج إلى تعليق أو تعليقات، وقد بان منه كيف أن الدكتور رأى الصحابة في صورة أرباب الدنيا، المغامرين بالإسلام وأنه اطلع على نفوسهم وحاكم نواياهم فحدث بأن جهادهم في الفتوح رياء يبتغون به

(١) طه حسين: الفتنة الكبرى (١) عثمان بن عفان ـ المجموعة الكاملة ٢٧٧/٤، ٢٧٨.

نيل مرضاة عمر!! وأنهم كشأن أرباب الدنيا يتنابزون بالألقاب! ولا أدري من أي مرجع استقى الدكتور قصة خالد مع عكرمة فهو كما عودنا في بحثه العلمي لا يذكر مراجع لما يكتب اللَّهم إلا بعض المراجع يذكرها في نهاية كتابه أو في بعض نهايات من كتبه.

وأختم هذا المبحث بكلمة لمستشرق فرنسي ـ من الطائفة الذين يعجب الدكتور بطريقتهم في البحث ـ يتحدث فيها عن الفتوحات الإسلامية فيقول: [إن القوة لم تكن عاملاً في انتشار القرآن، فقد ترك العرب المغلوبين أحرارًا في أديانهم، فإذا حدث أن اعتنق بعض الأقوام النصرانية الإسلام، واتخذوا العربية لغة لهم فذلك لما رأوا من عدل العرب الغالبين ما لم يروا مثله من سادتهم السابقين ولما كان عليه الإسلام من السهولة التي لم يعرفوها من قبل][1].

وساق الرجل بحثًا رائعًا عن طبيعة الفتوح العربية واصفًا ما كان عليه الفاتحون من تقوى وإخلاص ومراعاة للحقوق وصيانتهم للحرمات[2].

فلم يكن هدف الفتوحات إكراه الناس على الإسلام ولا سلب أموالهم ونهب ثرواتهم إنما كان الدافع والمحرك نشر هداية الله في العالمين وإزالة الطواغيت والعقبات التي تحول بين الناس وبين أن تصلهم دعوة الإسلام.

(١) غوستاف لوبون: حضارة العرب، ص١٢٧، ١٢٨.

(٢) المرجع السابق: من ١٣١ ـ ١٤٧.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

المبحث السابع

رأي طه حسين في ثورتي الزنج[1] والقرامطة[2]

رأي المستشرقين:

يرى كثير من المستشرقين أن الثورات التي قامت بها حركتا الزنج

---

(١) ثورة الزنج: يقصد بها أولئك العبيد الذين استجابوا لدعوة رجل فارسي يسمى علي بن محمد ادعى أنه من ولد علي زين العابدين بن الحسين بن علي، كما ادعى أن العناية الإلهية قد أرسلته لإنقاذ العبيد والرقيق مما يعانون من بؤس وضيق، فاستجاب لدعوته خلق كثير من الرقيق وخرجوا على الخلافة العباسية وأحدثوا فتنًا عظيمة من نهب الثروات وهتك الأعراض وأعمال القتل والإرهاب في البلاد التي ينزلونها ولقد دامت فتنتهم قرابة أربع عشرة سنة وأربعة أشهر وستة أيام كما ذكر ابن كثير في البداية والنهاية وكان موطن خروجهم البصرة وانتهى أمرهم بعد سلسلة طويلة من الحروب خاضها معهم أبو أحمد الموفق بن المتوكل.

راجع: ابن كثير ـ البداية والنهاية ـ دار الفكر، بيروت ٣٩٠/٧، ٣٩١.

وحسن إبراهيم حسن ـ تاريخ الإسلام السياسي والثقافي والديني ـ بدون ط، بدون ت. ٢٠٩/٣ ـ ٢١٣.

(٢) القرامطة: ـ دعوة قامت عام ٢٧٨هـ تعلن الحرب على الدين بما تدعو إليه من مبادىء فاسدة ظاهرها دعوى التشيع وباطنها الكفر، وهي حركة باطنية كانت=

والقرامطة إبان الخلافة العباسية حركات تقدمية تمثل العدل الاجتماعي في الإسلام وأنها حركات قامت تنشد العدل والخير في مواجهة بغي الحكام وظلمهم وممن ذهب إلى ذلك موير في كتابه الخلافة كما نقل عنه حسن إبراهيم حسن في كتابه تاريخ الإسلام السياسي (٣/٢١٠).

وكذلك رأى لويس ماسينيون[١] الرأي نفسه في حركة الزنج إذ يقول عنهم: [أدرك هؤلاء التعساء بوحي من احتكاكهم بأسيادهم المسلمين أن لهم حقًا في أن يعيشوا وأن ينالوا ولو قسطًا ضئيلاً من العدل والإنصاف... وقد وجد هؤلاء التعساء زعيمًا صمم على أن يضع حدًا لتعاستهم وكان هذا الزعيم رجلاً علويًا من مدعي الخلافة وفي نسبته إلى علي موضع جدل.... وكان يعاونه في ذلك شخص يدعى رشيدًا القرماطي ـ ولعله يتصل بدعوة القرامطة التي كانت في ذلك الوقت قد ظهرت وشيكًا ـ طحان وبائع شراب، وكان عبيده الأباق يؤدون له الطاعة بالحلف بالطلاق على الطريقة القرمطية... ورفع علي بن محمد راية العصيان في السابع من رمضان سنة ٢٢٥هـ

= تدعو إلى الشيوعية في المال والجنس أحدثت قلاقل كثيرة إبان الخلافة العباسية حتى أنهم نزلوا مكة عام ٣١٧هـ يوم التروية وقتلوا الحجاج في المسجد الحرام واقتلعوا الحجر الأسود الذي بقي بحوزتهم حتى عام ٣٣٥هـ، استمرت دولة القرامطة في الإحساء حتى عام ٤٦٦هـ حيث قضى عليها عبدالله بن علي من بني عبد القيس وكان القضاء عليهم عسكريًا أما أفكارهم وعقائدهم فقد خالطت طائفة الإسماعيلية والنصيرية وغيرها من الفرق الباطنية.

راجع: عبدالله محمد الغريب ـ وجاء دور المجوس ـ طبعه سنة ١٩٨٣، ص٦٩ ـ ٧٢.

د. محمد عبدالله عنان ـ دولة إسلامية شيوعية في القرن الرابع الهجري ـ مجلة الكاتب المصري ١/٢٢٢ ـ ٢٢٧.

(١) سبق ترجمته، ص١١٥.

وتلا الآية القرآنية المعروفة باسم الشراة (سورة التوبة ١١٢)[١].

ونذر نفسه للجهاد بحد السيف، ثم يقول ماسينيون: ومن المؤسف أن المصادر التي بين أيدينا لا تذكر إلا تفاصيل قليلة عن نظام حكومته التي كانت على النمط الشيوعي][٢].

وعن حركة القرامطة أيضًا تحدث ماسنيون فوصفهم بقوله: (إن مجتمع القرامطة الثوري الذي قام في جنوب الجزيرة (العراق) كان يقوم على أساس شيوعي...)[٣] فوصف المستشرقين لهاتين الحركتين بأنها حركات تقدمية تنشد العدل والخير إنما هو ضرب من التضليل دأب عليه المستشرقون في دعمهم للحركات الهدامة وخلعهم عليها الألقاب والألفاظ الكبيرة تغريرًا للقارئ وخداعًا ولعل الباحث يلتمس العذر لكثير من المستشرقين الذين لم يستطيعوا أن يخلصوا من عدائهم الموروث للإسلام وأهله، ولكن ما عذر نفر من المسلمين يسيرون على درب أساتذتهم فيرددون مزاعمهم من غير تعقل ولا تبصر لقد أعلن نفر من المسلمين مدحه وإشادته بهذه الحركات الهدامة في كتابات لهم هدفوا منها ما هدفه أساتذتهم من أمثال الدكتور محمود إسماعيل عبد الرازق الذي أخرج كتابًا بعنوان «الحركات السرية في الإسلام» طبعة عام ١٩٧٣ خص القرامطة فيه بفصل عنوانه: «القرامطة تجربة رائدة في الاشتراكية».

---

(١) الآية في ترتيب المصحف (١١١) وهي قول الله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ﴾... الآية.

(٢) لويس ماسينيون، دائرة المعارف الإسلامية، مادة: الزنج ٤٢٢/١٠، ٤٢٣.

(٣) لويس ماسينيون، دائرة المعارف الإسلامية، مادة: قرامطة، نقلاً عن محمد عبدالله عنان دولة إسلامية شيوعية في القرن الرابع الهجري مجلة الكاتب المصري، المجموعة الكاملة ٤٢٤/١.

رأي الدكتور طه حسين في حركتي الزنج والقرامطة:

يرى الدكتور طه حسين في أمر الزنج والقرامطة ما رآه المستشرقون في أمرهما لقد ذكر الدكتور خلاصة رأيه في أمر الفئتين في نهاية مقال كتبه بمجلة الكاتب المصري بعنوان: «ثورتان»[١] جاء فيه: «كانت البصرة ضحية ثورة الزنج ثم صارت الكوفة ضحية ثورة القرامطة، ألم يكن هناك سبب بين هاتين الثورتين؟ بلى قد كان هناك سبب أي سبب، طابعهما واحد هو الخروج على النظام السياسي والاجتماعي والانتساب إلى آل علي، وغايتهما واحدة هي تحقيق العدل في الأرض بعد أن أفسدها الظلم والجور»[٢]، وكلف الدكتور نفسه في مقاله المشار إليه عناء الدفاع عن صاحب ثورة الزنج واتهم المؤرخين القدامى بالتزيد على الرجل بالروايات غضًا منه وتشهيرًا به لا لشيء إلا لأنه لم يكتب له النجاح وتساءل عما لو كتب لصاحب هذه الثورة النصر والنجاح بماذا كان المؤرخون يصفونه حينئذٍ[٣].

ولم يكتف الدكتور طه في دفاعه عن الزنج والقرامطة بهذا المقال الطويل[٤] إنما أشاد بهم بالأوصاف نفسها حين أراد أن يكتب كتابًا خاصًا عن الإسلام فقال في «مرآة الإسلام» واصفًا حركة الزنج ومطالبها بأنها كانت «مطالبة بالحقوق الاجتماعية وجهادًا في تحقيق العدل وشيء من المساواة»[٥] وواصفًا ثورة القرامطة بأنها ثورة «دعت إلى شيء من العدل والمساواة»[٦] ولعل الدكتور في وصفه لهاتين الثورتين في هذا

---

(١) نظم المؤلف هذه المقال بعد ذلك في كتابه ألوان الذي صدر عام ١٩٥٢م.
(٢) طه حسين: ثورتان، مجلة الكاتب المصري ٢/٥٥٣.
(٣) المرجع السابق ٢/٥٧٣.
(٤) كتب هذا المقال ونشر بالكاتب المصري في مايو سنة ١٩٤٦.
(٥) (٦) طه حسين: مرآة الإسلام، المجموعة الكاملة ٧/٣٥١، ٣٥٢.

الكتاب كان على شيء من الاقتصاد عنه في مقاله السالف الذكر.

رؤية العلماء المحققين لثورتي الزنج والقرامطة:

(كشفت الأبحاث العلمية الصحيحة في شأن مؤامرات الزنج والقرامطة الحقائق التالية:

أولاً: لم تكن هذه الحركة تهدف إلى تحقيق كرامة الإنسان بل كانت حركات انفصالية ولم تكن تستهدف العدل الاجتماعي بل كانت نوعًا من الأخذ بالثأر فقد حرص هؤلاء العبيد الذين حرروا أنفسهم على إذلال العرب عن طريق استرقاقهم والتنكيل بهم وكان أقسى أعمال القرامطة أنهم أقاموا أسواقًا للرقيق يعرضون فيها الحرائر من نساء العرب)[1].

وكذلك فعل الزنج حين صارت لهم قوة وحين كان لهم شيء من الغلبة فكما يقول الدكتور طه نفسه عنهم: (كانوا يريدون أن ينقذوا أنفسهم وينقذوا الناس من ظلم الظالمين فلم يكتفوا بالإنقاذ وإنما جزوا السادة ظلمًا بظلم فكان هذا أول الشر، ثم تجاوزوا ظلم الظالمين من الأعداء إلى ظلم الأنصار فأصبحت الحرية استبدادًا)[2].

ثانيًا: كانت لحركة القرامطة على الخصوص صلة بطائفة الإسماعيلية[3] التي كانت تعمل على إسقاط الخلافة العباسية لصالح

---

(١) أنور الجندي ـ مقدمات العلوم والمناهج ـ التبشير والاستشراق والدعوات الهدامة، دار الأنصار، مصر، بدون ت، ص٢٨٧.

(٢) طه حسين: ثورتان، الكاتب المصري ٥٦٩/٢.

(٣) الإسماعيلية: فرقة باطنية انتسبت إلى الإمام إسماعيل بن جعفر الصادق ظاهرها التشيع لآل البيت، وحقيقتها هدم الإسلام، تشعبت فرقها وامتدت عبر الزمان=

الفاطميين، فلم تكن ثورة اجتماعية كما يزعم المستشرقون ومن تابعهم إنما كانت مؤامرة سياسية أذكى نارها التشيع ومؤازرة الفكر الباطني.

ثالثًا: من خلال المطالعة الدقيقة لسيرة أتباع الثورتين بان أنهم دعاة إفساد وتدمير لا دعاة إصلاح وبناء!! فأي إصلاح في ترويع الآمنين وقتلهم ونهب الثروات وسرقتها وهتك الأعراض والاعتداء عليها وإشاعة المبادئ الشيوعية في المال والجنس مما ترفضه الفطر السليمة وتأباه الطباع المستقيمة.

رابعًا: (عجزت هذه الدعوة أن تحقق لمجتمعاتها أي قدر من العدل أو الخير وكانت نهايتها نهاية كل فرقة، وظل الإسلام بأصوله الكبرى وعقيدته الواضحة ومنهجه الحضاري هو الإسلام وبقيت روحه هي روحه في أركانه وملامحه ومجتمعه واتجاهاته العامة، ولم تفعل هذه الفرق إلا وضع العراقيل في طريق الركب السائر الجاد تحاول أن تصده وتريد أن تنحرف به)[1].

وعلى الرغم مما سطره التاريخ لهاتين الطائفتين من مآس ومظالم جاء من أمة الإسلام من يحاول الإعلاء من شأنهم ويدعو الأدباء والكتاب أن يتخذوا من تاريخ هاتين الطائفتين مادة لقصصهم ورواياتهم وكتاباتهم حتى يعرفوا الناس بهم، كما فعل الدكتور طه عندما تحدث عن ثورة الرقيق في إيطاليا في القرن الأول قبل المسيح وما أثارته لدى

= حتى الوقت الحاضر وحقيقتها تخالف العقائد الصحيحة وقد مالت إلى الغلو والتشدد لدرجة أن الشيعة الاثني عشرية يكفرون أعضاءها، الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة ٣٨٦/١.

(١) أنور الجندي: مقدمات العلوم والمناهج، التبشير والاستشراق والدعوات الهدامة، ص٢٨٨.

القدامى والمحدثين من الكتاب والمؤرخين من كتب وروايات وبين أن تلك الثورة ما زالت تلهم الكتاب الأوروبيين إلى الآن بما يسطرونه ثم تساءل: «ما بال ثورة الزنج لم تحدث في حياتنا الأدبية ما أحدثته الثورة الإيطالية القديمة»[1].

(١) طه حسين: ثورتان، مجلة الكاتب المصري ٢/٥٥٤.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

المبحث الثامن

رأي طه حسين في قضية عبدالله بن سبأ

عبدالله بن سبأ بين الحقيقة والخيال:

أمر عبدالله بن سبأ الملقب «بابن السوداء» ودوره في أحداث الفتنة الكبرى ما يزال موضع بحث وجدال بين العلماء فمنهم المصدق الموقن بوجوده وهم السواد الأعظم من العلماء من أهل السُّنَّة والجماعة ومن الشيعة على السواء بل رأى كثير من المستشرقين الرأي ذاته في أمر هذا الرجل فلم يشكوا ولم يرتابوا.

ومن العلماء من شك في أمر الرجل[1]، ومنهم من تذبذب بين الإنكار تارة والإقرار تارة أخرى[2].

ومنهم من غالى في هذه القضية فأنكر واشتد في النكير وكان من

---

(١) أمثال د. علي سامي النشار في: نشأة الفكر الفلسفي، ص٢٨، ود. محمد عمارة في: الخلافة ونشأة الأحزاب السياسية: نقلاً عن مجلة البيان، المنتدى الإسلامي لندن عدد ٣١ سنة ١٤١١هـ، ص٥١.

(٢) أمثال د. جواد علي، المرجع السابق.

هؤلاء الدكتور طه حسين حين أرخ للفتنة وأحداثها في كتابه الفتنة الكبرى بجزأيه.

ولأهمية هذا الموضوع وخطره كان لا بد أن نضعه موضع البحث لبيان وجه الحق فيه.

ابن سبأ في كتابات أهل السُّنَّة والجماعة:

يرى كل مطالع لكتب أهل السُّنَّة والجماعة خاصة التي أرخت لنشأة الفرق الإسلامية إثباتها لشخصية عبدالله بن سبأ وبيانها للدور الخطير الذي قام به.

فلقد ذكره عبد القاهر البغدادي[1] في «الفرق بين الفرق» فقال عنه: (السبئية أتباع عبدالله بن سبأ الذي غلا في علي ﷺ وزعم أنه كان نبيًا ثم غلا فيه حتى زعم أنه إله ودعا إلى ذلك قومًا من غواة الكوفة...)[2].

وذكره الشهرستاني[3] في الملل والنحل فقال: (السبَّائية: أصحاب عبدالله بن سبأ الذي قال لعلي كرم الله وجهه: أنت، أنت يعني أنت

---

(١) البغدادي: أبو منصور عبد القادر بن طاهر: فقيه أصولي، ورد مع أبيه نيسابور ودرس فيها علومًا جمة تفقه علي أبي إسحاق الإسفراييني، أشهر كتبه: الفرق بين الفرق، توفي سنة ٤١٨هـ، دائرة المعارف الإسلامية ٢١/٤.

(٢) عبد القاهر البغدادي، الفرق بين الفرق ـ مكتبة دار التراث، القاهرة، بدون ت، ص٢٤٧.

(٣) الشهرستاني: هو محمد بن عبد الكريم بن أحمد، ولد سنة ٤٧٩، سكن شهرستان ونسبه إليها، شافعي المذهب، أشعري الأصول، له مؤلفات عديدة أشهرها الملل: والنحل. انظر: مقدمة المحقق لكتاب «الملل والنحل»، طبعة المعرفة بيروت سنة ١٤١٦هـ.

الإله، فنفاه إلى المدائن، زعموا أنه كان يهوديًا فأسلم، وكان في اليهودية يقول في يوشع بن نون: وصي موسى ﷺ مثل ما قال في عليّ رضي الله عنه...)[1].

وتحدث عنه الإمام أبو حنيفة بقوله: «عبدالله بن سبأ كان يهوديًا فأسلم أيام عثمان، وهو الذي حمل أهل مصر على قتل عثمان وأظهر الميل إلى علي وكان خبيث الباطن»[2].

وذكره ابن عساكر[3] في تاريخه فقال: «لما بويع علي رضي الله عنه خطب الناس فقام إليه عبدالله بن سبأ فقال له: أنت دابة الأرض، فقال له: اتق الله، فقال له: أنت الملك، فقال له: اتق الله، فقال له: أنت خلقت الخلق وبسطت الرزق فأمر بقتله»[4].

ولئن ذهبنا نذكر الذين تحدثوا عن ابن سبأ من أهل السُّنَّة قديمًا وحديثًا لطال بنا المقام ولما وسعنا الجهد ولكن فيما ذكرناه غنية ودلالة على ما قصدنا إليه من أن أمر ابن سبأ مشهور ومعروف لدى سلف هذه الأمة من العلماء المحققين.

---

(١) الشهرستاني: الملل والنحل، تحقيق: أمير علي مهنا، علي حسن فاعور، دار المعرفة بيروت ٢٠٤/١، ط٥، سنة ١٤١٦هـ/١٩٩٦م.

(٢) مسند الإمام الأعظم، ص١٥٨ نقلاً عن: د. محمد يوسف النجرامي: الشيعة في الميزان بدون ط، بدون ت، ص٤٣.

(٣) ابن عساكر: علي بن الحسن بن هبة الله أبو القاسم ثقة الدين الشافعي ولد بدمشق سنة ٤٩٩هـ، ودرس ببغداد ثم بأمهات مدن فارس، أهم مصنفاته: تاريخ دمشق توفي سنة ٥٧١هـ، دائرة المعارف الإسلامية ٢٣٧/١.

(٤) تاريخ ابن عساكر ٤٣٠/٧ نقلاً عن الشيعة في الميزان، ص٤٤.

عبدالله بن سبأ في مصادر الشيعة:

[إن أمهات الكتب للمذهب الشيعي قد تناولت شخصية عبدالله بن سبأ بكل جلاء ووضوح فالنوبختي الذي يعد من كبار علماء الشيعة في القرن الثالث الهجري يذكر عبدالله بن سبأ في كتابه «فرق الشيعة» بقوله: «وحكى جماعة من أهل العلم من أصحاب علي عليه السلام أن عبدالله بن سبأ كان يهوديًا فأسلم ووالى عليًا عليه السلام».

وجاء في رجال الكشي والذي يعد من أمهات الكتب عند الشيعة وهو للكاتب أبي عمرو محمد بن عبد العزيز «عن أبان بن عثمان قال: سمعت أبا عبدالله يقول: لعن الله عبدالله بن سبأ إنه ادعى الربوبية في أمير المؤمنين، الويل لمن كذب علينا وإن قومًا يقولون فينا ما لا نقول في أنفسنا فنبرأ إلى الله منهم».

وورد في قاموس الرجال للإمام حمد تقي القشري بخصوص عبدالله بن سبأ: «لعن الله عبدالله بن سبأ إنه ادعى الربوبية في أمير المؤمنين»][1].

وذكر الدهلوي في كتابه «مختصر التحفة الاثني عشرية» الذي يحكي فيه العقائد الشيعية من واقع كتبهم ومؤلفاتهم فيتحدث عن السبئية بقوله: (يقال لها: «التبرئية» وهم عبارة عن الذين يسبون الصحابة إلا قليلاً منهم كسلمان الفارسي وأبي ذر والمقداد وعمار بن ياسر رضي الله تعالى عنهم، وينسبونهم - وحاشاهم - إلى الكفر والنفاق ويتبرأون منهم.... وهذه الفرقة

---

(١) راجع: الشيعة في الميزان، ص٣٨ - ٣٩ بتصرف.

حدثت في عهد الأمير[1] ﷺ بإغراء عبدالله بن سبأ اليهودي الصنعاني)[2].

(وبالنسبة للشيعة المعاصرين فأغلب ما كتبوه عن ابن سبأ إنما هو إنكار لوجوده، فهو عند بعضهم أقرب إلى الوهم منه إلى الوجود.

أمثال علي الوردي في كتابه وعاظ السلاطين ـ وعند البعض الآخر أقرب إلى الخيال والأسطورة منه إلى الواقع ـ أمثال كامل الشيبي في كتابه الصلة بين التصوف والتشيع)[3].

عبدالله بن سبأ في كتابات المستشرقين:

لم يكتف المستشرقون في تناولهم لتاريخ الفرق الإسلامية بذكر عبدالله بن سبأ وإنما عنوا بتحليل أفكاره ودراسة حياته والدوافع التي كانت تحركه للجهر بما دعا إليه.

يكتب عنه وليم موير[4] ـ المعروف بعداوته للإسلام وأهله وكان محافظًا على ولاية شمال الهند أيام احتلال الإنجليز لها ـ فيقول ابن سبأ المعروف بابن السوداء: كان من سكان جنوب الجزيرة العربية وكان يهوديًا وأشهر إسلامه ولكن ظهرت الحقيقة بأنه كان يحمل الأفكار الثورية ضد الحكومة المعاصرة في ذلك الوقت. . . .»[5].

---

(١) يعني عليًا بن أبي طالب ﷺ.

(٢) شاه عبد العزيز الدهلوي، مختصر التحفة الاثني عشرية، تحقيق: محب الدين الخطيب، بدون ط، بدون ت، ص٦.

(٣) د. محمد آمحزون: ابن سبأ في كتابات المعاصرين، مجلة البيان، ص٥١، عدد ٣٤ سنة ١٤١١هـ.

(٤) سبق ترجمته، ص٢٨٠.

(٥) د. محمد يوسف النجرامي: الشيعة في الميزان، ص٤١.

[وكذلك ذكره غير واحد من المستشرقين منهم:

جولدزيهر[1]: العقيدة والشريعة في الإسلام، يولياس فلهاوزن[2]: الخوارج والشيعة، وفان فولتين[3]: السيادة العربية والشيعة والإسرائيليات.

على حين يبقى ابن سبأ محل شك أو مجرد خرافة عند فئة قليلة من المستشرقين أمثال: كيتاني[4]، وبرنارد لويس[5]، وغيرهم][6].

رأي الدكتور طه حسين في عبدالله بن سبأ:

عرض الدكتور لموضوع ابن سبأ حين كان يؤرخ لعثمان ﷺ بفصل عنوانه قصة ابن السوداء ونشأة المعارضة استهله بقوله: «وهناك قصة أكبر الرواة المتأخرون من شأنها وأسرفوا فيها، حتى جعلها كثير

---

(١) سبق ترجمته، ص٣٨٥.

(٢) يولياس فلهاوزن: ألماني، بدأ بدراسة اللاهوت لنقد التوراة، ثم تخرج باللغات الشرقية على إيفالد في جوتنجين فعد من أشهر تلاميذه وقد خلفه فيها، له عناية كبيرة بالتاريخ الإسلامي (١٨٤٤هـ/١٩١٨م)، العقيقي: المستشرقون ٣٨٦/٣.

(٣) فان فولتين: اسكتلندي حصل من جامعة جلاسجو على الماجستير في الآداب، عين نائبًا لأمين قسم المخطوطات والكتب الشرقية، ولد سنة ١٨٨٨ واعتزل الخدمة سنة ١٩٥٣. [العقيقي: المستشرقون ١١٧/٢].

(٤) كيتاني (١٨٦٩هـ/١٩٢٩م) ولد في رومة أو تخرج من جامعتها، كان أميرًا ثريًا، أكثر من الرحيل إلى بلاد الشرق، يعده أهل الشأن أكبر مستشرق في التاريخ العربي، العقيقي: المستشرقون ٤٢٩/١.

(٥) برنارد لويس: ولد في لندن سنة ١٩١٦ نال عضوية الكثير من المعاهد والأكاديميات وحصل على الدكتوراه الفخرية من الجامعة العبرية بالقدس، له مؤلفات عدة أشهرها: أصول الإسماعيلية. العقيقي: المستشرقون ١٤٣/٢، ١٤٤.

(٦) د. محمد آمحزون: ابن سبأ في كتابات المعاصرين، البيان ٥١/٣١.

من القدماء والمحدثين مصدرًا لما كان من الاختلاف على عثمان»[1] وبعد أن ذكر القصة علق بقوله: «ويخيل إليّ أن الذين يكبرون من أمر ابن سبأ إلى هذا الحد يسرفون على أنفسهم وعلى التاريخ إسرافًا شديدًا وأول ما نلاحظه أنا لا نجد لابن سبأ ذكر في المصادر المهمة التي قصّت أمر الخلاف على عثمان فلم يذكره ابن سعد[2] حين قص ما كان من خلافة عثمان وانتقاض الناس عليه ولم يذكره البلاذري في أنساب الأشراف وهو فيما أرى أهم المصادر لهذه القصة وأكثرها تفصيلًا، وذكره الطبري[3] عن سيف بن عمر، وعنه أخذ المؤرخون الذين جاؤوا بعده فيما يظهر»[4].

وفي الحقيقة فإن كلام الدكتور يحتاج إلى كثير من التحقيق فلقد بدأ حديثه بقوله: «هذه قصة أكبر الرواة المتأخرون من شأنها» وهذا اللفظ فيه إيهام شديد (فإن الطبري الذي روى قصة ابن سبأ ليس من الرواة المتأخرين فقد ولد عام ٢٢٥هـ (٨٢٩م) ومات عام ٣١٠هـ فهو معاصر للبلاذري ومن طبقة تلاميذ ابن سعد صاحب الطبقات، وأن سيف بن عمر[5] الذي روى عنه الطبري هذا الخبر هو من كبار

---

(١) طه حسين: الفتنة الكبرى (١) عثمان ـ المجموعة الكاملة (الخلفاء الراشدون) المجلد الرابع، ص ٣٢٦.

(٢) ابن سعد: هو محمد بن سعد المتوفى ٢٣٠هـ نزيل بغداد، كاتب الواقدي، صاحب الطبقات، أحد الحفاظ الكبار. من مقدمة المحقق للطبقات الكبرى، طبعة دار الفكر بيروت سنة ١٤١٤هـ.

(٣) سبق ترجمته، ص٣٥٠.

(٤) المرجع السابق نفسه، ص٣٢٧.

(٥) سيف بن عمر: مؤرخ عربي، ألف كتابين هما: كتاب «الفتوح الكبير والردة» وكتاب «الجمل ومسير عائشة وعلي» ولم يصل إلينا هذين الكتابين، استفاد منه الطبري واعتمد عليه في التأريخ للغزوات ومرحلة الردة، دائرة المعارف الإسلامية ٦/١٣.

المؤرخين القدماء، فهو شيخ شيوخ الطبري والبلاذري[1] وهو من مرتبة شيوخ ابن سعد فلا يقال عنه ولا عن الطبري: إنهم من الرواة المتأخرين)[2]، وقول الدكتور أنه لم يجد لابن سبأ ذكرًا في المصادر المهمة فيه نوع من التغرير وقد سبق أن ذكرنا أن كثيرًا من كتب التاريخ والمتكلمين ذكرته وعرفت به ثم إنه إذا لم يكن تاريخ الطبري من الكتب المهمة فما هي المصادر المهمة؟! ثم إن الدكتور حصر المصادر المهمة في كتابين اثنين الطبقات الكبرى لابن سعد، وأنساب الأشراف للبلاذري والحقيقة أن الكتابين المشار إليهما يثار حولهما كلام يقلل من شأنهما، فالأول قال عنه العلماء: (إنه كتاب ناقص ملفق من نسخ مختلفة بعضها تام وبعضها ناقص وبعضها مختصر والدليل على ذلك مما نحن بسبيله أنه ترجم لعمر ﷺ في ٨٤ صفحة ولأبي بكر ﷺ في ٣٣ صفحة فلما جاء إلى عثمان ﷺ والأحداث في خلافته هي ما يعلم الدكتور ويعلم الناس لم يكتب سوى ٢٢ صفحة، ولما جاء إلى علي ﷺ والأمر في فترته أفدح لم يكتب عنه سوى ١٦ صفحة)[3].

أما كتاب البلاذري (فالنسخة التي اعتمد عليها الدكتور طه طبعت في أورشليم وطبعها رجل من طغاة الصهيونية وهي ليست كل الكتاب وإنما هي جزء منه، فمن أين عرف أنه لم يذكره ما دام لم يطبع من الكتاب إلا هذا الجزء أفلا يكون البلاذري قد ذكره في ترجمة عمار بن

---

(١) البلاذري: أحمد بن يحيى بن جابر، كان صفيًا للخليفتين المتوكل والمستعين، له: فتوح البلدان، وأنساب الأشراف، يقال: إنه توفي سنة ٢٧٩هـ، دائرة المعارف الإسلامية ٥٨/٤ وما بعدها.

(٢) أنور الجندي: التبشير والاستشراق والدعوات الهدامة، ص٢٨٩.

(٣) أنور الجندي: محاكمة فكر طه حسين، ص٢١٦.

ياسر أو في ترجمة محمد بن أبي بكر أو أي رجل ممن اشترك في الأحداث)[1].

ثم إن إخراج الصهاينة للكتاب يلقي ظلالاً من الشك حوله فربما أعملوا فيه شيئًا من التحريف بالنقص أو الزيادة مما يخدم مصالحهم ويؤيد أفكارهم، ولم يكتف الدكتور بنفي القصة وتكذيبها إنما رمى خصوم الشيعة - يعني أهل السُّنَّة - باختلاق القصة،وعلل هذا الكيد بأن أهل السُّنَّة يحاولون أن يوجدوا صلة بين اليهود والشيعة يقول الدكتور يقرر هذه الأحكام: (إن أمر السبئية وصاحبهم ابن السوداء إنما كان متكلفًا منحولاً قد اخترع بأخرة حين كان الجدال بين الشيعة وغيرهم من الفرق الإسلامية، أراد خصوم الشيعة أن يدخلوا في أصول المذهب عنصرًا يهوديًا إمعانًا في الكيد لهم والنيل منهم)[2]، وما ذكره الدكتور يرده ما سبق ذكره من أن الشيعة المتقدمين ذكروا ابن سبأ في كتبهم ونصوا عليه، ويحاول الدكتور أن يذكر تبريرًا آخر لرده للقصة وهو تبرير قائم على الظن وإن عبر الدكتور. . . عنه بأسلوب اليقين فقال في تعقيبه على القصة: [ولست أدري أكان لابن سبأ خطر أيام عثمان أم لم يكن ولكني أقطع بأن خطره إن كان له خطر ليس ذا شأن وما كان المسلمون في عصر عثمان ليعبث بعقولهم وآرائهم وسلطانهم طارىء من أهل الكتاب، أسلم أيام عثمان، ولم يكد يسلم حتى انتدب لنشر الفتنة وإذاعة الكيد في جميع الأقطار][3] وهذا التبرير مبني على أنه [يكبر الصحابة بأن يستطيع مثل ابن سبأ أن يفعل ما فعل، فليس هذا

---

(١) أنور الجندي محاكمة فكر طه حسين، ص٢١٧، بتصرف.

(٢) طه حسين: الفتنة الكبرى (٢) - علي وبنوه - ص٥١٨.

(٣) طه حسين: الفتنة الكبرى (١) - عثمان - ص٣٢٧.

إكبارًا وإنما هو رغبة لإظهارهم بأنهم هم الذين أثاروا الفتنة ضد عثمان، فهو يعلم أن ابن سبأ بث أفكاره بين دهماء الناس وعامتهم وليس بين الصحابة وهؤلاء الدهماء كان لهم دور مؤسف في قتل أمير المؤمنين عثمان ﷺ وفي معركة الجمل وما أعقبها من نكبات ومصائب][1].

سبب رفض الدكتور طه لقصة ابن سبأ:

[لقد هدف الدكتور وكثير ممن رفضوا أمر ابن سبأ وشكوا فيه إلى بيان أن الفتن التي حدثت إنما كانت من صنيع الصحابة رضوان الله عليهم بعد أن أفسدها حب المال والتهافت على الرياسة والولاية، والقصد من ذلك الإساءة إلى الإسلام وأهله، والإلقاء في روع الناس أن الإسلام إذا عجز عن تقويم أخلاق الصحابة وسلوكهم وإصلاح جماعتهم بعد أن فارقهم الرسول ﷺ بمدة وجيزة، فهو أعجز أن يكون منهجًا للإصلاح في هذا العصر][2].

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

(١) د. محمد آمحزون، ابن سبأ في كتابات المعاصرين، البيان، ص٥٣.

(٢) المرجع السابق، ص٥٢.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الفصل السابع

طه حسين والفقه الإسلامي

ويحتوي على مبحثين:

المبحث الأول: رأي طه حسين في دعوى تأثر الشريعة الإسلامية بالقانون الروماني.

المبحث الثاني: رأي طه في قضية الرجم للزاني المحصن.

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

تمهيد

لم يشغل الدكتور طه حسين بقضايا الفقه الإسلامي نظرًا لاهتمامه العظيم بقضايا الأدب وتاريخه... ولكنه مع ذلك تحدث في قضيتين من قضايا الفقه تحتاج ممن يتحدث فيهما أن تكون له قدم راسخة في هذا المجال، وأن يكون اتصاله بكتب الفقه ومباحثه شديدًا؛ ومع ذلك تحدث الدكتور في هاتين القضيتين غير مبال لقلة بضاعته في بابها، مما أوصله إلى نتائج خالف فيها إجماع المسلمين، ووافق قوله مقال طائفة من المستشرقين.

أما القضية الأولى: فهي قضية الدعوى بأن الشريعة الإسلامية تأثرت بالقانون الروماني.

أما القضية الثانية: فهي قضية شرعية حكم الرجم بالنسبة للزاني المحصن.

وفي الصفحات التالية عرض لهاتين القضيتين.

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

المبحث الأول

دعوى تأثر الشريعة الإسلامية بالقانون الروماني

من الشبه التي أذاعها المستشرقون وأكثروا من ترادها قولهم بأن الشريعة الإسلامية مستمدة من القانون الروماني!! أو تأثرت بالقانون الروماني على أقل تقدير، وكلتا المقولتين ادِّعاء حملهم عليه عداؤهم للإسلام والمسلمين، هذا العداء الذين يحملهم على أن يعملوا على تجريد الإسلام وأهله من كل فضيلة، والقول بأن المسلمين عالة في نهضتهم الأولى على أوروبا كما هم عالة عليها الآن.

تقرير قول المستشرقين:

ذهب معظم المستشرقين إلى القول بتأثر الشريعة الإسلامية بالقانون الروماني على اختلاف فيما بينهم في درجات هذا التأثر، فمنهم فريق من أمثال جولدزيهر، وفون كريمر[1]، و«شيلدون آموسى»[2] يذهبون إلى القول بأن الشريعة الإسلامية مستمدة من القانون الروماني،

---

(١) ألفرد فن كريمر: (١٨٢٨ ـ ١٨٨٩م) مستشرق نمسوي، كان قنصلاً في بيروت ومصر، نشر نحو عشرين كتابًا. موسوعة ويكيبيديا.

(٢) شليدون: لم أستدل على ترجمته.

فهذا القانون هو المصدر الذي أقام فقهاء المسلمين على أساس من قواعده الكيان القانوني للشريعة الإسلامية، [وفي ذلك يقول شيلدون آموسى: «إن الشرع المحمدي ليس إلا القانون الروماني للإمبراطورية الشرقية معدلاً وفق الأصول السياسية في الممتلكات العربية» ويقول: «إن القانون المحمدي ليس سوى قانون جوستنيان[1] في لباس عربي»...

أما الفريق الثاني فقد اعتدل في رأيه وقال بتأثر التشريع الإسلامي في بعض أحكامه بالقانون الروماني ونجد على رأس هذا الفريق غالبية الكتاب الفرنسيين والمستشرق الهولاندي دي بور[2]][3].

ولقد خفف بعض من المستشرقين من غلوائهم خاصة من كان منهم يرى أن الفقه الإسلامي مستمد من القانون الروماني فرجع بعضهم عن هذا الرأي بالكلية ومنهم من قال بالتأثر البسيط، ومن هؤلاء الذين جرت منهم هذه المراجعة الفكرية جولدزيهر فقد كتب في كتابه «العقيدة والشريعة في الإسلام»: [وليس غريبًا أن تكون التعاليم الفقهية والتفصيلات المستعملة قد تأثرت كذلك بثقافات أجنبية، كما أن المعارف الفقهية الإسلامية تحمل على سبيل المثال ـ كما حقق ذلك

---

(١) قانون جوستنيان: مدونة في الفقه الروماني ألفها فقيه القياصرة في قسطنطينية الإمبراطور جوستنيان، عربها عبد العزيز فهمي باشا ونشرتها دار الكاتب المصري في أواخر الأربعينيات من القرن الماضي، راجع: مجلة الكاتب المصري، المجموعة الكاملة ٦/٦٧٥.

(٢) دي بور مستشرق هولاندي (١٨٦٦هـ/١٩٤٢م) من أستاذة الفلسفة في جامعة أمستردام، له آثار عديدة في الفلسفة الإسلامية، العقيقي، المستشرقون ٢/٣١٧.

(٣) صوفي أبو طالب: بين القانون الروماني والشريعة الإسلامية، ط دار النهضة العربية، ١٩٩٠م، ص٢٥٨ وما بعدها بتصرف.

البحث تحقيقًا ثابتًا ـ آثارًا غير منكورة من الفقه الروماني، سواء في ذلك من ناحية الطريقة، أو من ناحية الأحكام الشرعية][1] وجولدزيهر في رأييه جميعًا حال الغلو وبعد التخفيف مجانب للصواب كما انتهى العلماء المنصفون في أبحاثهم.

تقرير رأي الدكتور طه حسين:

تذبذب الدكتور وتأرجح في مسألة تأثر الشريعة الإسلامية ـ الفقه الإسلامي ـ بالقانون الروماني فتارة يذهب إلى أن التأثر كان في الفروع لا في الأصول وأنه لم يكن تأثرًا مباشرًا وإنما كان تأثرًا خفيًا ربما شعر به الفقهاء المسلمون أو لم يشعروا، وتارة يقول بأن هذا التأثر كان كبيرًا شمل الأصول والفروع حتى يذهب إلى القول بأن نظام الخلافة إنما هو نظام روماني!! وهذه أقوال الدكتور شاهدة بهذا التردد والاضطراب.

يقول الدكتور: [نحن نعلم أن العرب لم يترجموا فقه الرومان ولم يدرسوه درسًا منظمًا، ولكنا لا نشك في أن الفقه الإسلامي قد تأثر بالفقه الروماني قليلاً أو كثيرًا سواء أعلم بذلك الفقهاء أم لم يعلموا. ذلك لأن البلاد الإسلامية قد خضعت لحكم الرومان وقوانينهم دهرًا، ولأن هذه القوانين قد درست درسًا مزهرًا في الشام والجزيرة ومصر.

فيجب أن يتركَ حكمُ الرومانِ وقوانينُهم ودرسُ هذه القوانين آثارًا

---

(١) جولدزيهر: العقيدة والشريعة في الإسلام، نقلاً عن الشيخ محمد الغزالي: دفاع عن العقيدة والشريعة ضد مطاعن المستشرقين، دار الشروق ١٩٨٧م، ص٨٦، ٨٧.

قوية في حياة الشعوب التي خضعت لها، وأن تتكون من هذه الآثار الحياة الاجتماعية لهذه الشعوب والعرب لم يهدموا كل شيء، وإنما صبغوا أكثر الأشياء التي وجدوها بالصبغة الإسلامية، فليس غريبًا بل ليس من شك في أن كثيرًا من أحكام الفقه الروماني قد اصطبغت بالصبغة الإسلامية دون أن يشعر الفقهاء بذلك فنحن نحسب هذه الأحكام إسلامية خالصة حين هي إسلامية رومانية. لا يغضب العلماء فأنا أذكر الفروع لا الأصول، ولعلهم لا ينكرون أن الفقهاء يعتبرون العرف في كثير من مسائل الفقه، وأن هذا العرف إنما يكون من النظام الروماني واليوناني والفارسي، هذه النظم التي تعاقبت على الشام ومصر والجزيرة، وإذن فهناك تأثير خفي، قد يكون أشد وأقوى من التأثير الواضح الذي تحدثه الأمم بعضها في بعض][1].

ولما أراد الدكتور أن يقارن بين العقل المصري والعقل الأوروبي ذكر رأي بول فاليري[2] في مكونات العقل الأوروبي والتي ردها إلى عناصر ثلاثة هي: (حضارة اليونان وما فيها من أدب وفلسفة وفن، وحاضرة الرومان وما فيها من سياسة وفقه، والمسيحية وما فيها من دعوة إلى الخير وحث على الإحسان)[3] ثم حلل الدكتور العقل

---

(١) طه حسين: من بعيد، المجموعة الكاملة، الشركة العالمية للكتاب بيروت، ب. ت ٨٩/١٢.

(٢) فاليري (بول) (١٨٧١هـ/١٩٤٥م) كاتب وشاعر فرنسي، متخرج في الحقوق، شاعر كبير متعدد المواهب، غني الفكر، عميق الشاعرية اشتهر بمذهبه في الشعر الصافي. د. محمد الكتاني: الصراع بين القديم والجديد ١٢٩٤/٢.
وانظر: علي عبد الفتاح: أعلام في الأدب العالمي: مركز الحضارة العربية مصر، ب. ت، ص٢١٩.

(٣) طه حسين: مستقبل الثقافة في مصر، المجموعة الكاملة، دار الكتاب اللبناني ١٩٨٢م، ٣٩/٩ بتصرف.

المصري (المسلم) بقوله: (خذ نتائج العقل الإسلامي كلها فستراها تنحل إلى هذه الآثار الأدبية الخالصة والفلسفية والفنية، التي مهما تكن مشخصاتها فهي متصلة بحضارة اليونان وما فيها من أدب وفلسفة وفن، وإلى هذه السياسة والفقه اللذين مهما يكن أمرهما فهما متصلان أشد الاتصال بما كان للرومان من سياسة وفقه، وإلى هذا الدين الإسلامي الكريم وما يدعو إليه من خير وما يحث عليه من إحسان)[1].

ومحل الشاهد في هذا الاستطراد أن الدكتور جعل التأثير الروماني في أمور السياسة والفقه قاسمًا مشتركًا بين العقل الأوروبي والعقل المصري أو المسلم.

ولما أرخ الدكتور لحياة الخلفاء الراشدين تخيل أوجه تشابه بين نظام الخلافة ونظام الحكم عند الرومان ثم عاد فنقضها بقوله: [ليس من شك في أن المسلمين قد اقتبسوا كثيرًا من نظم القياصرة والأكاسرة في السياسة والإدارة والحرب ولكن هذا الاقتباس جاء متأخرًا جدًّا عن العصر الذي نتحدث فيه، فلننصرف إذن عن هذا التشابه الذي لا يقوم على أساس متين][2].

وفي موضع آخر يشيد بما عند الرومان من فقه ثم يقول: [ولعل الأمة الوحيدة التي يمكن أن تشبَّه بالرومان في الفقه إنما هي الأمة العربية][3].

---

(١) طه حسين: مستقبل الثقافة في مصر، المجموعة الكاملة، دار الكتاب اللبناني ١٩٨٢م، ٣٩/٩ بتصرف.

(٢) طه حسين: الفتنة الكبرى (١) عثمان ـ المجموعة الكاملة، الشركة العالمية للكتاب، بيروت، ط٥، ١٩٩٦م، ٢٢٦/٤.

(٣) طه حسين: فصول في الأدب والنقد، المجموعة الكاملة ٤٣١/٥.

فهذه الاقتباسات جميعًا تدل أن الدكتور مفتون بما عند الرومان حتى إنه يجعل الفقه الروماني أصلاً والفقه الإسلامي تابعًا!!

الرد على هذه الدعوى:

لو كان هناك اتفاق بين الشريعة الإسلامية والقانون الروماني في المنابع والغايات، أو تشابه في الحقوق والواجبات، أو تقارب في المبادئ والعقوبات لعذرنا الدكتور ومن قبله المستشرقين فيما ذهبوا إليه [أما والشريعة الإسلامية تناقض القانون الروماني في القيم الخلقية والاجتماعية وتخالفه مخالفة واسعة الأمد في النظرة إلى الإنسان، وإلى الحياة كلها، فإن القول باستفادة الفقه الإسلامي من الرومان قول بين البطلان... ولم توجد في الحضارات القديمة أمة كتبت في الفقه، واشتغلت بالشؤون التشريعية إلى حد الإسراف مثل ما أثر ذلك عن الحضارة الإسلامية والأمة الإسلامية...

إن الفقه الروماني لا يعدو أن يكون تنظيمًا ضيقًا خطؤه أكثر من صوابه، لمجتمع تحكمه علاقات فوق البدائية حينًا ودونها حينًا آخر، فالقول بأن التشريع الإسلامي نقل عنه كالقول في زماننا هذا بأن أمريكا نقلت حضارتها عن الكونغو أو أن البحر الأبيض يأخذ مياهه من بحيرة مريوط][1].

سارت مشرقة وسرت مغربًا شتان بين مشرق ومغرب

إن هذه القضية ـ استقلال الفقه الإسلامي بذاته ـ شهد بها

---

(١) الشيخ محمد الغزالي: دفاع عن العقيدة والشريعة ضد مطاعن المستشرقين، ص٨٦.

المنصفون من غير المسلمين يقول العلامة المحقق فارس الخوري[1]: [أمر المقايسة بين الشرع الإسلامي والشرع الروماني لا يستقيم لنا بالنظر لاختلاف الهدف والسُّنَّة بين الشرعين، الأول منهما قائم على قواعد العدل المطلق، ومقتضيات العقول، والثاني على المصالح والمنافع الدنيوية... فيبنى على هذا التخالف أن الأساس في الشرع الإسلامي مصلحة الفرد في الدنيا والآخرة، وفي الشرع الروماني مصلحة الجماعة فقط.... وإذا طالعت أقوال فقهاء الأمتين في إحدى المسائل تجد كل فئة تعلل اجتهادها بطريقتها الخاصة، مراعية المبادئ المتقدم ذكرها، غير متأثرة بالأساليب وطرق التعليل التي سلكتها الفئة الأخرى][2].

أما موضوع السبق التاريخي للقانون الروماني وأن المسلمين درسوه درسًا متقنًا في كثير من البلاد تحت ظل الحكم الروماني، فإن وقائع التاريخ تدحضه؛ [لأن الإمبراطور جوستنيان قرر بموجب دستور أصدره في ١٦ ديسمبر سنة ٥٣٣م إلغاء جميع مدارس القانون الروماني في الإمبراطورية عدا مدرسة: روما وبيروت والقسطنطينية، ولم يكن بواحدة من هذه المدارس تأثير لا في الفقه ولا في الفقهاء المسلمين. فادعاء المستشرقين ومن خلفهم الدكتور طه تأثر الفقه والفقهاء المسلمين بالقانون الروماني بسبب السبق الزمني قول باطل لإغلاق هذه المدارس

---

(١) فارس الخوري (١٢٩٠/١٣٨١هـ - ١٨٧٣ - ١٩٦٢م) قانوني سوري، شغل العديد من المناصب السياسية في سوريا، وكان عضوًا عاملاً في المجمع العلمي بدمشق، وعضوًا مراسلاً في مجمع اللغة بالقاهرة، معجم المؤلفين ٦٠٧/٢، ٦٠٨.

(٢) الشيخ محمد الغزالي: حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام وإعلان الأمم المتحدة، دار الدعوة، إسكندرية، ط١، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م، ص٤٨، ٤٩ بتصرف.

بموجب قرار جوستنيان السابق، وهذا القرار كان قبل الفتح الإسلامي الذي تم في عام ٦٤١م وروما لم يفتحها المسلمون، والقسطنطينية لم تفتح إلا في عام ١٤٩٣م ومدرسة بيروت قد اندثرت قبل الفتح الإسلامي لها بحوالي ثلاثة أرباع القرن][1].

أما حديث الدكتور طه عن العرف واعتباره عند فقهاء الإسلام فليس يحسب له فعلماء الأصول حين يعتبرون العرف من بين مصادر التشريع وأدلة الفقه [لا يقصدون بذلك أن العرف ينشئ أحكام الشرع أو يظهرها، كنص الكتاب والسُّنَّة، بل يقصدون أن نصوص الشرع وعبارات المتعاملين تفسر وفقًا لعرف الخطاب أو التأمل دون الوقوف عند ما تدل عليه الألفاظ من معان في أصل وضع اللغة... ومن ناحية أخرى، فإن ما تعارف الناس عليه من أوجه المعاملات والتصرفات يحكم بشرعيته وصحته، طالما أنه لا يخالف نصًّا من كتاب ولا سُنة، وأساس هذه المشروعية ومصدر ذلك الحل عند التحقيق ليس هو العرف، بل النصوص الشرعية التي تقرر أن الأصل في الأشياء الإباحة وفي التصرفات والأفعال الحل، فما لم يرد فيه نهي من الشارع من التصرفات والأفعال يعد حلالاً بمقتضى هذا الأصل][2].

وعرف الرومان واليونان لم يكن في يوم من الأيام من مصادر الأحكام الفقهية للمسلمين في أي قطر من الأقطار التي نزل المسلمون بها.

---

(١) د. صوفي أبو طالب: تطبيق الشريعة الإسلامية نقلاً عن التبصير بمكائد الاستشراق والتبشير، ص٢٣٤، بتصرف.

(٢) د. حسين حامد حسان: المدخل لدراسة الفقه الإسلامي، طبعة خاصة بالمؤلف ١٩٨١م، ص٢١٣، ٢١٤ بتصرف.

ـ وأما دعوى تأثر الشريعة الإسلامية بالقانون الروماني لمجرد التشابه في بعض النظم فلا تسلم لهم لأن التشابه [لا يدل حتمًا على أخذ إحداهما من الأخرى، فقد يكون التشابه ناشئًا من تشابه الظروف الاجتماعية التي مرت بها كل من الشريعتين، كما أن العقول تتشابه في كثير من أنواع التفكير، وهذا أمر طبيعي في الأمم جميعًا، فلا يصح لمجرد هذا التشابه القول بأن هذه الشريعة نقلت عن الأخرى][1].

وإذا كانت هناك أوجه شبه بين الشريعة الإسلامية والقانون الروماني في بعض النظم فهناك اختلافات كثيرة ومهمة بينهما تدل بوضوح على استقلال كل منهما عن الآخر ولئن ذهبنا ندلل على ذلك لطال بنا المقام، ولكن أكتفي بذكر مثال واحد ذكره بعض الكتاب النصارى[2]، وهو يتحدث عن الشريعة الإسلامية والقانون الدولي.

يقول: [قرر مؤتمر القانون المقارن الذي عقد في مدينة لاهاي سنة ١٩٣٨م أن الشريعة الإسلامية هي نظام قانوني مستقل غير مأخوذ من التشريع الروماني. ولا شك عندي في صحة قرار المؤتمر المشار إليه، ولست أحاول تأييد قراره الذي أعده من البديهيات لأن القانون الروماني قائم على أساس سلطة رب الأسرة الذي أنزله هذا القانون منزلة الآلهة، فجعل له على أعضاء أسرته من زوجة وأولاد ومن انتسب إلى أسرته من نساء بالزواج،ومن رزق بهم من حفدة. . . السلطان الكامل، بما في ذلك حق الموت، كما جعل له على أموال هؤلاء جميعًا الحق المطلق بحيث يصبح المالك وحده لأموالهم بتصرف فيها كيفما شاء أما الشريعة الإسلامية فأساسها حرية الفرد، فالابن إذا ما بلغ

---

(١) د. رشدي أبو شبانة: التبصير بمكائد الاستشراق والتبشير، ص٢٣٤.

(٢) هو الأستاذ: صليب سامي.

سن الرشد أصبح مستقلاً بشخصه وماله عن سلطة الأب، وإذا كان الابن لا يزال قاصرًا فماله وديعة لدى وليه، والمرأة إذا ما تزوجت لا تفقد حقها في مالها الخاص ولا يمنعها زواجها حق الإرث من أهلها وليس لزوجها سلطان على مالها، بل يظل ملزمًا بالإنفاق عليها، ولو كان لها مال، وليس لزوجها سلطان عليها سوى ما له عليها من الحقوق المترتبة على الزواج. وبدهي لو أن الشريعة الإسلامية قد أخذت أحكامها من التشريع الروماني، لكان نظام سلطة رب الأسرة أول ما تأخذه منه][1].

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

(١) الشيخ الغزالي: دفاع عن العقيدة والشريعة، ص٨٧، ٨٨.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

المبحث الثاني

رأي طه حسين في رجم الزاني المحصن

من الأحكام الفقهية التي تناولها الدكتور طه حسين حكم الزاني المحصن وكان تناوله له تناولاً شفهيًا مع جلسائه. يذكر الدكتور محمد الدسوقي الذي كان يقرأ للدكتور في السنوات الأخيرة من حياته ذلك فيقول:

[ثم شرعنا في القراءة في كتاب: «شرح نهج البلاغة» وكان أول موضوع نقرؤه خاصًا بالمطاعن التي وجِّهت إلى الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ، ومنها أنه عمل على دفع حد الزنا عن المغيرة بن شعبة، فعلق العميد ـ يعني طه حسين ـ على هذا قائلاً:

[إن القرآن صريح في أن عقوبة الزنا الجلد دون الرجم، وأما أن الرسول ﷺ رجم فصحيح، ولكنه رجم قبل نزول آية الجلد، وفعل هذا أخذًا بما كان في الإنجيل، وتعد آية الجلد ناسخة لما كان في شريعة عيسى، وما يقول العلماء من أن هناك آية خاصة بالرجم نسخ معناها وبقي لفظها[1] وهي: «الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة

(١) أثبت الدكتور في كتابه العبارة بهذا اللفظ والصواب أن يقال: نسخ لفظها وبقي معناها.

نكالاً من الله...» فغير صحيح، كذلك ما يقال من أن الرجم ثبت بالسُّنَّة، وهو حكم باقٍ فغير صحيح أيضًا؛ لأن آية الجلد نسخت ما فعله الرسول][1].

ومقالة الدكتور هذه تثبت ـ من وجهة نظره ـ عدة أشياء هي:

الأول: أخذ الدكتور عقوبة الزنا للمحصن وغيره من القرآن وهي عقوبة الجلد وهو اكتفاء بآية النور والتي يقول الله عز وجل فيها: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ...﴾ الآية[2].

وأغفل الدكتور الأحاديث الصحيحة التي تنص على الرجم للمحصن!.

الثاني: يثبت الدكتور أن جلد الرسول وأصحابه للزناة كان مرحلة متقدمة في تشريع عقوبة الزنا وأن الحكم الأخير جاء بآية الجلد بسورة النور التي نسخت الرجم والأحكام السابقة!!

الثالث: يزعم الدكتور أن الرسول أخذ الرجم من شريعة عيسى ويقول ذلك قولاً مرسلاً بغير دليل ولا برهان.

الرابع: ينكر الدكتور أن كانت هناك آية للرجم نسخ لفظها وبقي حكمها.

وللرد على تلك الدعاوى أقول وبالله التوفيق:

بالنسبة للادعاء الأول أن حكم الزنا بإطلاق الجلد فيه نفي أن يكون للسُّنَّة دور في التشريع وهذه دعوى عريضة لو سلمنا لأصحابها

---

(١) د. محمد الدسوقي: أيام مع طه حسين، ص١٢٤، ١٢٥.

(٢) سورة النور، الآية: ٢.

لأدى الأمر إلى ذهاب ديننا؛ إذ أن الكثرة من تشريعات الإسلام وتفاصيلها ثبتت بالسُّنَّة المطهرة.

ولقد دأب كثير من الكتاب العزف على هذا الوتر في تلك القضية بالذات فيكتب أحدهم مقالاً تحت عنوان: «عقوبة الرجم ليست من الإسلام في شيء»[1] واعتمد في القول بهذه النتيجة على أن الرجم لا نص عليه في كتاب الله وهو أوثق النصوص وأجدرها بالثقة أما السُّنَّة ففيها المكذوب والموضوع وكذا وكذا إلى آخر ما قال من الدعاوى الكاذبة والتحريفات الباطلة.

لكن الحق ما أجمع عليه أهل الحق من العلماء كما حكى الإمام النووي في تعليقه على صحيح الإمام مسلم قال:

(وأجمع العلماء على وجوب جلد الزاني البكر مائة جلدة ورجم المحصن وهو الثيب ولم يخالف في هذا أحد من أهل القبلة إلا ما حكى القاضي عياض وغيره عن الخوارج وبعض المعتزلة كالنظام وأصحابه فإنهم لم يقولوا بالرجم...)[2].

والأحاديث التي تقول بثبوت الرجم كثيرة أذكر منها ما أخرجه الإمام مسلم في صحيحه:

(١) عن عبادة بن الصامت قال: قال: رسول الله ﷺ: «**خذوا عني قد جعل الله لهن سبيلاً، البكر بالبكر جلد مائة ونفي سنة، والثيب بالثيب جلد مائة والرجم**» أخرجه مسلم رقم (١٦٩٠).

---

(١) الكاتب هو علي يوسف علي في جريدة (صوت الأمة) الصادرة في ٦ يناير سنة ٢٠٠٣م.

(٢) الإمام النووي: صحيح مسلم بشرح النووي ١١/١٨٩.

(٢) وما رواه ابن شهاب قال: أخبرني عبيد الله بن عبدالله بن عتبة أنه سمع عبدالله بن عباس يقول: قال عمر بن الخطاب وهو جالس على منبر رسول الله ﷺ: «إن الله قد بعث محمدًا ﷺ بالحق وأنزل عليه الكتاب فكان مما أنزل عليه آية الرجم قرأناها ووعيناها وعقلناها فرجم رسول الله ﷺ ورجمنا بعده فأخشى إن طال بالناس زمان أن يقول قائل: ما نجد الرجم في كتاب الله فيضلوا بترك فريضة أنزلها الله وإن الرجم في كتاب الله حق على مَنْ زنى إذا أحصن من الرجال والنساء إذا قامت البينة أو كان الحبل أو الاعتراف» مسلم (١٦٩١).

(٣) وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أتى رجلٌ من المسلمين رسولَ الله ﷺ وهو في المسجد فناداه فقال: يا رسول الله إني زنيت فأعرض عنه فتنحى تلقاء وجهه، فقال: يا رسول الله زنيت فأعرض عنه فتنحى تلقاء وجهه، فقال: يا رسول الله إني زنيت فأعرض عنه حتى ثنى ذلك عليه أربع مرات فلما شهد على نفسه أربع شهادات دعاه رسول الله ﷺ فقال: «**أبك جنون؟**» قال: لا. قال: «**فهل أحصنت؟**» قال: نعم فقال رسول الله ﷺ: «**اذهبوا به فارجموه**».

قال ابن شهاب: فأخبرني من سمع جابر بن عبدالله يقول فكنت فيمن رجمه بالمصلى فلما أذلقته[1] الحجارة هرب فأدركناه بالحرَّة فرجمناه. مسلم (١٦٩٢).

(٤) وعن أبي هريرة وزيد بن خالد الجهني أنهما قالا: إن رجلاً

---

(١) أذلقته الحجارة: هو بالذال المعجمة وبالقاف، أي: أصابته بحدها. قاله النووي في شرح صحيح مسلم ١١/١٩٤.

من الأعراب أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله أنشدك الله إلا قضيت لي بكتاب الله، فقال الخصم الآخر وهو أفقه منه: نعم فاقض بيننا بكتاب الله وائذن لي، فقال رسول الله ﷺ: «**قل**». قال: إن ابني كان عسيفًا[1] على هذا فزنى بامرأته وإني أخبرت أن على ابني الرجم فافتديت منه بمائة شاة ووليدة فسألت أهل العلم فأخبروني إنما على ابني جلد مائة وتغريب عام وأن على امرأة هذه الرجم، فقال رسول الله ﷺ: «**والذي نفسي بيده لأقضين بينكما بكتاب الله الوليدة والغنم رد وعلى ابنك جلد مائة وتغريب عام واغد يا أُنَيْسُ إلى امرأة هذا فإن اعترفت فارجمها**» قال: فغدا عليها فاعترفت فأمر بها رسول الله ﷺ فَرُجِمَتْ»[2] مسلم (١٦٩٨).

ـ أما الادعاء الثاني بأن رجم رسول الله ﷺ وصحابته منسوخ بآية الجلد فيكذبه حديث رسول الله ﷺ الذي رواه عبادة بن الصامت والذي قال فيه الرسول ﷺ: «. . . **قد جعل الله لهن سبيلاً البكر بالبكر جلد مائة ونفي سنة والثيب بالثيب جلد مائة والرجم**» رواه مسلم.

فقول النبي ﷺ: «**قد جعل الله لهن سبيلاً**» إشارة إلى قول الله سبحانه في سورة النساء: ﴿وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا ١٥﴾[3].

قال السعدي في تفسير هذه الآية: [﴿فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ

---

(١) عسيفًا: هو بالعين والسين المهملتين، أي: أجيرًا وجمعه عسفاء كأجير وأجراء وفقيه وفقهاء. قاله النووي في شرح صحيح مسلم ٢٠٦/١١.

(٢) راجع: صحيح مسلم بشرح النووي ١٨/١١ وما بعدها باب حد الزنا.

(٣) سورة النساء، الآية: ١٥.

مِّنكُمْ﴾ أي: من رجالكم المؤمنين العدول: ﴿فَإِن شَهِدُوا۟ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِى ٱلْبُيُوتِ﴾ أي: احبسوهن عن الخروج الموجب للريبة وأيضًا فإن الحبس من جملة العقوبات ﴿حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ﴾ أي: هذا منتهى الحبس ﴿أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾ أي: طريقًا غير الحبس في البيوت فهذه الآية ليست منسوخة فإنما هي مغياة إلى ذلك الوقت. فكان الأمر في أول الإسلام كذلك حتى جعل الله لهن سبيلاً وهو رجم المحصن والمحصنة وجلد غير المحصن والمحصنة][1].

ويرى الأستاذ سيد قطب الرأي نفسه ويعقب بقوله: [وقد ورد عن السُّنَّة العملية في حادث ماعز والغامدية كما ورد في صحيح مسلم أن النبي رجمهما ولم يجلدهما، وكذلك في حادث اليهودي واليهودية اللذين حكم في قضيتهما فقضى برجمهما ولم يجلدهما، فدلت سنته العملية على أن هذا هو الحكم الأخير][2].

ومما يؤكد انتهاء حكم الزاني المحصن على الرجم [فعل صحابة النبي من بعده فهم أعلم الناس بالقرآن والسُّنَّة يقول ابن قدامة ـ وجوب الرجم على الزاني المحصن رجلاً كان أو امرأة ـ: هذا قول عامة أهل العلم من الصحابة والتابعين ومن بعدهم من علماء الأمصار في جميع الأعصار ولا نعلم فيه مخالفًا إلا الخوارج فإنهم قالوا: الجلد للبكر والثيب لقول الله تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ﴾[3].

---

(١) عبد الرحمن بن ناصر السعدي: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، سنة ١٤١٧هـ/١٩٩٦م، ص١٣٦.

(٢) الأستاذ سيد قطب: في ظلال القرآن، دار الشروق، بيروت، القاهرة، ط١٠، سنة ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م، ٥٩٩/١.

(٣) سورة النور، الآية: ٢.

وقالوا: لا يجوز ترك كتاب الله الثابت بطريق القطع واليقين لأخبار آحاد يجوز الكذب فيها ولأن هذا يفضي إلى نسخ الكتاب بالسُّنَّة وهو غير جائز.

ولنا أنه قد ثبت الرجم عن رسول الله ﷺ بقوله وفعله في أخبار تشبه المتواتر، ثم ساق ابن قدامة الآثار القولية والعملية الدالة على ما قاله.

ـ ثم قال: وقولهم: إن هذا نسخ ليس بصحيح وإنما هو تخصيص ثم لو كان نسخًا لكان نسخًا بالآية التي ذكرها عمر رضي الله عنه ـ يعني الآية المنسوخة: «الشيخ والشيخة إذا زنيا...» ـ وقد روينا أن رسل الخوارج جاؤوا عمر بن عبد العزيز رحمه الله فكان من جملة ما عابوه عليه الرجم وقالوا: ليس في كتاب الله إلا الجلد، وقالوا: الحائض أوجبتم عليها الصوم دون الصلاة والصلاة أوكد فقال لهم عمر: وأنتم لا تأخذون إلا بما في كتاب الله تعالى؟ قالوا: نعم، قال: فأخبروني عن عدد الصلوات المفروضات وعدد ركعاتها ومواقيتها أين تجدونه في كتاب الله تعالى؟ وأخبروني عما تجب الزكاة فيه ومقاديرها ونصبها فقالوا: أنظرنا فرجعوا يومهم ذلك فلم يجدوا شيئًا مما سألهم عنه في القرآن فقالوا: لم نجده في القرآن قال: فكيف ذهبتم إليه، قالوا: لأن النبي ﷺ فعله وفعله المسلمون بعده.

فقال لهم: فكذلك الرجم وقضاء الصوم فإن النبي رجم ورجم خلفاؤه بعده والمسلمون، وأمر النبي بقضاء الصوم دون الصلاة وفعل ذلك نساؤه ونساء أصحابه][1].

---

(١) ابن قدامة: المغني والشرح الكبير، المكتبة التجارية، مكة المكرمة، دار الفكر، بيروت، طبعة سنة ١٤١٤هـ/١٩٩٤م، ١١٨/١٠، ١١٩ بتصرف.

ومما يبرهن على استقرار حكم الرجم وبقائه كحكم نهائي قول النبي ﷺ في الحديث الذي رواه عبدالله بن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: «**لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه، المفارق للجماعة**»(١).

والحديث نفسه هو الذي استدل به عثمان بن عفان رضي الله عنه على خطأ من ثاروا عليه وعزموا على قتله فقد روى أبو أمامة سهل بن حنيف رضي الله عنه أن عثمان بن عفان أشرف يوم الدار فقال: «أنشدكم بالله، أتعلمون أن رسول الله ﷺ قال: «**لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث: زنا بعد إحصان، أو كفر بعد إسلام، أو قتل نفس بغير حق، فيقتل به؟**» فوالله ما زنيت في جاهلية ولا إسلام، ولا ارتددت منذ بايعت رسول الله ﷺ ولا قتلت النفس التي حرم الله. فبم تقتلونني»(٢).

ـ أما الادعاء الثالث بأن رسول الله قضى بالرجم أخذًا من شريعة عيسى عليه السلام فيهدمه ما سبق أن قررناه من أن الرجم لم يكن تشريعًا أوليًا من الناحية الزمنية وإنما هو التشريع الأخير في الحكم.

ولعل الدكتور قد خانه التعبير حين نسب الرجم إلى الإنجيل وشريعة عيسى إذ هو بشريعة التوراة ألصق ونسبته إلى شريعة عيسى

---

(١) رواه البخاري ١٧٦/١٢ في الديات، باب قول الله تعالى: ﴿أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ﴾، ومسلم رقم (١٦٧٦) في القسامة، باب ما يباح به دم المسلم، وأبو داود رقم (٤٣٥٢) في الحدود، باب الحكم فيمن ارتد.

(٢) رواه الترمذي رقم (٢١٥٩) في الفتن، باب ما جاء: «**لا يحل دم امرئ إلا بإحدى ثلاث**...» والنسائي ٩٢/٧ في تحريم الدم، باب ذكر ما يحل به دم المسلم، وأبو داود رقم (٤٥٠٢) في الديات، باب الإمام يأمر بالعفو في الدم.

نسبة مجازية باعتبارها وريثة شريعة موسى عليهما السلام . . ولأن الإنجيل لم ينص على تطبيق الرجم وإنما الذي ذكره الإنجيل عن المسيح:

«ثم حضر أيضًا إلى الهيكل في الصبح وجاء إليه جميع الشعب فجلس يعلمهم. وقدَّم إليه الكتبة والفريسيون امرأة أُمْسِكت في زنا. ولما أقاموها في الوسط قالوا له: يا معلم هذه المرأة أمسكت وهي تزني في ذات الفعل. وموسى في الناموس أوصانا أن مثل هذه ترجم. فماذا تقول أنت. قالوا هذا ليجرّبوه لكي يكون لهم ما يشتكون به عليه، وأما يسوع فانحنى إلى أسفل وكان يكتب بأصبعه على الأرض ولما استمروا يسألونه انتصب وقال لهم: من كان منكم بلا خطية فليرمها أولاً بحجر. . .»[1].

فعيسى لم ينقض شريعة موسى فهو الذي قال: «لا تظنوا أني جئت لأنقض الناموس. ما جئت لأنقض بل لأكمل»[2] ولكنه هنا لم ينفذها[3].

أما التوراة فقد نصت على عقوبة الرجم ولم تفرق بين محصنة ولا بكرية إذ قضت بأن الفتاة التي تزني في بيت أبيها ـ أي: قبل زواجها ـ ترجم متى اكتشف زوجها عدم عذريتها جاء في سفر التثنية: «ولكن إن كان هذا الأمر صحيحًا لم توجد عذرة للفتاة ـ أي: صدق ادعاء زوجها بأنه تزوجها وقد زالت بكارتها ـ يخرجون الفتاة إلى بيت

---

(١) إنجيل يوحنا الإصحاح الثامن ٨/١.

(٢) متى: الإصحاح الخامس: ١٧.

(٣) راجع: عباس محمود العقاد: حياة المسيح ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ مهرجان القراءة سنة ٢٠٠٢، ص١٤٤ ـ ١٥٢.

أبيها ويرجمها رجال مدينتها بالحجارة حتى تموت، لأنها عملت قباحة في إسرائيل بزناها في بيت أبيها»[1].

ومن هنا يسقط الادعاء جميعه أن حكم الرجم مأخوذ عن شريعة عيسى أو شريعة موسى كما ادعى الدكتور، وكما شاركه في الادعاء المستشرق الألماني شاخت[2] كما سيأتي.

أما إنكار الدكتور أن كانت هناك آية للرجم نسخ لفظها وبقي حكمها فيرده ورود السُّنَّة بذلك في حديث ابن عباس وهو في صحيح مسلم، ولا ندع السُّنَّة الثابتة لظن يراه الدكتور ومن حذا حذوه.

إن هذه الادعاءات مجتمعة تتوافق مع ما قاله المستشرق الألماني شاخت حين كتب بحث مادة الزنا بدائرة المعارف الإسلامية إذ قال من ضمن ما قال: (. . . . ويقال: إنه كانت في القرآن أول الأمر آية كالآية التي يعترف بها عمر بن الخطاب وتسمى: «آية الرجم»: إذا زنى الشيخ والشيخة فارجموهما البته نكالاً من الله) ومن المستبعد أن تكون هذه الآية صحيحة ومن البين أن الأحاديث المتعلقة بها وذكر اسم عمر بصددها. كل ذلك لا يخلو من غرض.

ومهما يكن من شيء فإن الروايات التي تقول: إن النبي طبق حكم الرجم لهي أيضًا روايات غير جديرة بالثقة. وعقوبة الرجم هذه،

---

(١) تثنية: ٢٠، ٢١، ٢٢.

(٢) شاخت، جوزيف (١٩٠٢ ـ ١٩٦٩) مستشرق ألماني تخرج من جامعة برسلاو وعين أستاذًا في جامعة فرايبورج (١٩٢٧) وفي الجامعة المصرية (١٩٣٤) وله آثار عديدة. المستشرقون ٤٦٩/٢ وما بعدها.

وهي لا بد أن تكون قد دخلت في الإسلام منذ وقت مبكر، ترجع بلا شك إلى الشريعة اليهودية)[1].

فالملاحظ اختلاف ألفاظ المستشرق وألفاظ الدكتور لكن المعاني واحدة، وما قدمناه من ردود على الدكتور هو رد على شاخت، وقد رد الدكتور محمد يوسف موسى على مقالة شاخت ردًّا وافيًا في أعقاب المادة التي كتبها المستشرق.

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

(١) دائرة المعارف الإسلامية، مادة: زنا ١٠/٤١٤.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الفصل الثامن

طه حسين والتعليم

ويحتوي على تمهيد ومبحثين:

التمهيد.

المبحث الأول: طه حسين والتدريس.

المبحث الثاني: طه حسين والتعليم الأزهري.

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

طه حسين والتعليم

تمهيد

ارتبط طه حسين بالتعليم ارتباطًا وثيقًا؛ ارتبط به عالمًا ومتعلمًا ففي مراحل الطلب الأولى كان طه محبًا لدور العلم ومؤسساته مقبلاً على المعرفة تواقًا إليها، وكان ارتباطه بالمؤسسات التعليمية ارتباط العارف بآثارها وثمارها مما كان يدفعه إلى النقد والتحليل وربما إلى المواجهة والتجريح وعدم التحفظ في إبداء الرأي مما أحدث بينه وبين بعض تلك المؤسسات فجوات دامت آثارها إلى نهاية حياته.

لقد كان طه حريصًا على معرفة الأثر من كل مرحلة من مراحل تعليمه وطلبه وكان متطلعًا إلى البروز حريصًا عليه واستطاع أن يتغلب على الآفة التي ابتلي بها وأن يلفت الأنظار إليه كما أراد.

«وقد مارس طه حسين التربية والتعليم كنشاط تطبيقي في مختلف جوانب العملية التعليمية، معلمًا ومفتشًا وموجهًا ومؤلفًا للكتب المدرسية ومستشارًا لوزارة المعارف ثم وزيرًا لها»[1].

ولقد كان للدكتور طه حسين رؤية واضحة في مسيرة التعليم يتفق

---

(١) د. كمال حامد مغيث: طه حسين مصادره الفكرية... ص١٢٥.

الباحث المنصف معه في بعضها ويختلف معه في بعضها الآخر.

فأما مواطن الاتفاق فمنها رؤيته للتعليم على أنه القدرة على الحياة وأن الغاية منه تكوين الشاب النافع لنفسه ولأمته[١] وقوله بأن التعليم ضرورة لحماية الأمة لذاتها فإذا كانت أمور الدفاع الوطني موقوفة على استقامة أمور التعليم، لأن الشعب الجاهل لا يحسن الدفاع عن نفسه، فكل تقصير في أمور التعليم ككل تقصير في أمور الدفاع لا ينبغي أن يقبل من أي إنسان[٢].

والتعليم في رأيه ليس ترفًا يمارسه هواة وإنما هو ضرورة حياة وحاجة من حاجاتها[٣]، وهو سبيل مهم من سبل الرقي والتقدم[٤].

ولذا طالب بأن يتاح التعليم لكل طالب «لا يفرق في ذلك بين أهل المدن وأهل القرى ولا يفرق فيه بين الأغنياء والفقراء»[٥].

ولقد اعتنى طه عناية شديدة بشقي العملية التعليمية: أعني المعلم والتلميذ.

«فالمعلم أولاً يجب أن يكون محط العناية والرعاية ويجب أن يعد إعدادًا سليمًا وأن يمنح الثقة وأن تتوافر له الحياة الكريمة حتى يستطيع أن ينهض بأعباء مهمته السامية»[٦].

---

(١) طه حسين: مستقبل الثقافة، ص١٠٩.
(٢) المرجع السابق، ص٣٧٣.
(٣) المرجع السابق، ص١٦٣.
(٤) طه حسين: «برنامج» مقال بالأهرام ١٩٤٩/١١/٧م.
(٥) طه حسين: «برنامج» الأهرام ١٩٤٩/١١/٧م.
(٦) رشيدة مهران: طه حسين بين السيرة والترجمة الذاتية، ص٧٦، وراجع الفصلين ١٥، ٢٥ من مستقبل الثقافة.

أما التلميذ فركز الدكتور على أن الهدف من تعليمه بناء ذاته وثقافته ليستطيع استقبال الحياة والتأثير فيها، وأنكر أن يكون الهدف من التعليم تخريج موظفين ليعملوا في الدواوين الحكومية كما هدف إلى ذلك الإنجليز حين احتلوا مصر[١].

ونادى بأشياء عدة لإصلاح العملية التعليمية منها تخفيض عدد التلاميذ بالفصول الدراسية[٢]، وإعادة النظر في أمر الامتحانات[٣]، وتوجيه التلاميذ إلى القراءة الحرة[٤]، والاهتمام بالتربية البدنية لما لها من فوائد عديدة[٥].

إلى غير ذلك من النقاط الذي يصعب حصرها في هذا المقام.

أما مواطن الخلاف فأساسها وحجر الزاوية فيها ما نادى به من وجوب الصراحة والجراءة في الأخذ بأسباب الحضارة الأوروبية في كل نواحي الحياة[٦] هذه النتيجة التي رتبها على مقدمات منها أن العقل المصري ليس عقلاً شرقيًا وإنما هو عقل متأثر بالعقل اليوناني الذي هو أصل الحياة الغربية وأن المصريين لم يتأثروا بالإسلام كما تأثروا بالعقلية اليونانية والفلسفة اليونانية[٧].

لقد كانت هذه النتيجة الخاطئة أساسًا لغيرها من الأخطاء التي

---

(١) طه حسين: مستقبل الثقافة، ص٢٢٢.
(٢) المرجع السابق فصل ٢٤، ص١٥٨.
(٣) المرجع السابق فصل ٢٧، ص٢٠٠ وما بعدها.
(٤) المرجع السابق فصل ٢٨، ص٢١٠ وما بعدها.
(٥) المرجع السابق فصل ٤٠، ص٣٢٣ وما بعدها.
(٦) المرجع السابق فصل ٩، ص٥٤.
(٧) المرجع السابق الفصول ٢ ـ ٨، ص١٦ ـ ٥٣.

تلتها والتي ترتبت عليها مثل دعوته لتعليم اللغتين اليونانية واللاتينية اللتان يجزم الدكتور أن رقي التعليم الجامعي في مصر مرهون بتعليمها للطلاب[١].

ولقد حارب الدكتور بعض أساتذته من المستشرقين في الجامعة المصرية لإقرار هاتين اللغتين ودخل معهم في نقاشات طويلة لم تنته إلى شيء كما حدث مع ديجي[٢] وكوبلند[٣]، وكان الدكتور شديد الأسف، لأن أمنيته التي أخذها عن المستشرق جريجوار[٤] لم تر طريقها إلى التحقيق.

ولقد كانت هذه النتيجة أيضًا هي التي دفعته إلى أن يعيب التعليم الديني في الأزهر، لأنه حرب على الحياة الحديثة ولذا دعا إلى تحديث الأزهر وإشراف الدولة عليه[٥].

وكأن الدكتور أيس من هذا التوجيه فدعا إلى أمر آخر له خطورته، لقد دعا إلى إنشاء شعبة للدراسات الإسلامية بكلية الآداب وبرر ذلك بأن كلية الآداب «متصلة بالحياة العلمية الأوروبية على نحو

---

(١) طه حسين: مستقبل الثقافة فصل ٣٤، ص٢٦٢ وما بعدها.

(٢) ديجي: مستشرق فرنسي، عمل عميدًا لكلية الحقوق في جامعة بوردو، عمل مدرسًا بالجامعة المصرية في بدايات القرن الماضي. راجع: مستقبل الثقافة، ص٢٦٤.

(٣) كوبلند: أستاذ من أساتذة ليفربول تخصص في تاريخ القرون الوسطى، درس بالجامعة المصرية القديمة، مستقبل الثقافة ٢٧٣.

(٤) جريجوار: بلجيكي تخرج من جامعة بروكسل وسمي أستاذًا بها، ثم عميدًا لكلية الآداب بالجامعة المصرية (١٩٢٦ ـ ١٩٣٠). المستشرقون ٢٣١/٣.

(٥) طه حسين: مستقبل الثقافة فصل ٥٠، ص٤٣٦ وما بعدها.

علمي صحيح وهي تعرف جهود المستشرقين في الدراسات الإسلامية»[1].

وكأني بالدكتور يوجه القائمين على أمر التعليم «إلى استبعاد الأزهر من القيام بوظيفة تعليم الدين، لأن مناهجه لا تحقق للدارسين فيه عمق الثقافة وحرية الفكر»[2].

ولعل كتاب مستقبل الثقافة هو الميثاق الذي جمع فيه طه حسين أراءه في قضية التعليم والتي أصاب في بعضها وجانب الصواب في بعضها.

(١) المرجع السابق، ص٤٣٠.

(٢) د. محمد محمد حسين: حصوننا مهددة من داخلها، المكتب الإسلامي، بيروت، ط٥، ١٩٧٨م، ص٢٦١.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

المبحث الأول

طه حسين والتدريس

[عمل طه حسين في الجامعة عام ١٩١٩م بعد عودته من أوروبا وانتقل معها عندما أصبحت جامعة حكومية ١٩٢٥م أستاذًا، وظل يرقى حتى أصبح عميدًا لكلية الآداب، ثم أخرج منها ١٩٣٢م وأعيد أواخر ١٩٣٤م، واستمر بها إلى ١٩٣٨م عندما انتدب مستشارًا لوزارة المعارف ثم عمل من بعد مديرًا لجامعة الإسكندرية ثم عمل بعد ذلك في وزارة المعارف مديرًا للثقافة حتى أحيل إلى المعاش ١٩٤٩م، أي: ظل متصلاً بالجامعة والتعليم أكثر من ثلاثين عامًا متصلة كانت له خلالها أثاره البعيدة في المناهج ونظام الدراسة وأخلاقياتها وتقاليدها][1].

ابتدأ الدكتور طه حسين عمله بالجامعة أستاذًا للتاريخ اليوناني والروماني، وثار جدل واسع حول تدريس التاريخ اليوناني والروماني ووجه النقد إلى الدكتور لماذا لم يخص التاريخ الإسلامي بالتدريس والتوجيه؟

---

(١) أنور الجندي: طه حسين حياته وفكره في ضوء الإسلام، ص٥٧.

فكانت إجابة الدكتور على من نقدوه أن قال:

«إن فهم التاريخ المصري خاصة والتاريخ الإسلامي عامة موقوف على فهم التاريخ اليوناني، فما ينبغي لأحد أن ينسى ما كان للحضارة اليونانية من التأثير الظاهر في حضارة العالم كله ومنه البلاد الإسلامية»[1].

ولم يكن هذا الكلام من الدكتور خاطرًا عارضًا سنح له فأجاب به معارضيه وناقديه وإنما كان يمثل لديه عقيدة راسخة وإيمانًا مستكنًا في صدره ولذا نراه في كثير من كتبه ومقالاته [يردد فكرة تأثير الفلسفة اليونانية والنظم اليونانية في الحضارة الإسلامية فنجده يقول تارة: «الدولة الإسلامية ورثت سياسة اليونان والفرس وحضارتهم»[2].

ويقول تارة أخرى: «لقد كانت فلسفة أرسطاطاليس[3] أساس النهضة العربية الأولى»[4].

وثالثة يقول: «فلسفة أرسطاطاليس كان لها الأثر الأكبر في تكوين العقل العربي الإسلامي»[5].

ويقول في الرابعة: «المسلمون أخذوا بأسباب الحضارة الفارسية واليونانية»[6].

---

(١) سامي الكيالي: مع طه حسين، ص٤٤.
(٢) طه حسين: ألوان، المجموعة الكاملة ٦/٤٠٠.
(٣) أرسطوطاليس: (٣٨٤، ٣٢٢ ق.م) ولد ونشأ في مدينة ستاجيرا المقدونية غرب أثينا. كان أبوه طبيبًا في بلاط أمينتاس ملك مقدونية وجد الإسكندر. أعلام الفكر الأوروبي ١/٣٠.
(٤) طه حسين: حديث الأربعاء (٣)، المجموعة الكاملة ٢/٦٣٧.
(٥) طه حسين: قادة الفكر، المجموعة الكاملة ٨/٢٦٠.
(٦) طه حسين: مستقبل الثقافة في مصر، المجموعة الكاملة ٩/٦٥، ٦٦.

ويقول خامسة: «وظيفة المحتسب في الإسلام تشبه ما كان شائعًا عند اليونان ومعروفًا من أمر تأديب العامة ومراقبة أعمالهم»[١].

. . . ومن الجدير ذكره في هذا المقام أن المستشرق الألماني بورج[٢] كرايمر ذهب إلى القول بأن الفلسفة اليونانية أثرت تأثيرًا فعالاً في الحضارة الإسلامية، وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على تبعية طه حسين في تفكيره وآرائه لدوائر المستشرقين][٣].

وقد أخذ الدكتور طه حسين يدرس لطلاب الجامعة تاريخ اليونان؛ فكان أول كتاب درسه لطلابه «نظام الأثينيين» الذي ألفه أرسطاطاليس وذلك بعد أن نقله إلى العربية، والذي أسف الدكتور على عدم تدريسه لهذا الكتاب بلغته الأصلية «لغة اليونان» لأن الطلاب لم يكونوا على علم بها[٤].

وكان الدكتور مع تعليمه لتاريخ اليونان يكتب محاضراته في صحيفة الجامعة، فقد نشر بعضها في الأعوام (١٩٢٣م، ١٩٢٤، ١٩٢٥) كان الدكتور يدبج بعضها بنفسه والبعض الآخر كان الطلاب ينسخونه ويعدونه للنشر[٥].

ولقد كانت كتب المستشرقين بمثابة المرجع الأساس الذي يعد

---

(١) طه حسين: من حديث الشعر والنثر، المجموعة الكاملة ٥/٦٠٠.

(٢) كرايمير، بورج: مستشرق ألماني، أستاذ الفلسفة العربية في جامعة توبنجين ١٩٥٠م أقام بمصر شتاء (٥٣ ـ ١٩٥٤م) انتحر عام ١٩٦١م، له آثار عديدة في اللغة وعلومها. المستشرقون ٢/٤٦٦.

(٣) عبد الحميد المحتسب: طه حسين مفكرًا، ص١٧١ ـ ١٧٣ بتصرف.

(٤) راجع: مقدمة كتابه «نظام الأثينيين»، المجموعة الكاملة ٨/٢٩٥.

(٥) السيد تقي الدين: طه حسين آثاره وأفكاره، ص١٧٧ وما بعدها.

الدكتور دروسه من خلاله، (يصف ألبير برزان سكرتير طه حسين «الذي التقى به في أواخر عام ١٩٢١م وعمل معه فترة عشرة سنوات تقريبًا» عمله في الجامعة فيقول: كان عملي مقتصرًا على قراءة «كتاب تاريخ العرب في إسبانيا»[١] وغيره باللغة الفرنسية وجريدة الطان، وكانت قراءة الكتاب المذكور هي العمل الأساسي في تحضير محاضراته بالجامعة المصرية، وفي المساء يتوجه إلى الجامعة فيلقي محاضراته باللغة العربية النقية وكان يقرأ ما سمع في الصباح لا تخونه الذاكرة في سرد أدق بيان من وقائع التاريخ ولا في الأسماء التي مرت على سمعه وقت القراءة)[٢].

ولم يكتف الدكتور طه حسين بتدريس الأفكار المتأثرة بالفكر الاستشراقي حتى عمد إلى استقدام المستشرقين للتدريس بالجامعة ـ وذلك حين مكن له بها ـ وكان ممن دعاهم للتدريس أستاذه كازانوفا الذي درس له بالكوليج دي فرانس ولما عورض في هذا رد على معارضيه بقوله:

[أريد أن يعلم الناس جميعًا أن الجامعة المصرية حين تدعو أساتذة من أوروبا لإلقاء الدروس فيها لا تأتي بدعًا من الأمر وإنما تتبع في ذلك نهج الجامعات الأوروبية والأمريكية، وهذا الرجل الذي دعته الجامعة ليس رجلاً عاديًا وإنما هو أستاذ حقًا[٣]، ولقد أريد أن يعلم

---

(١) وهو للمستشرق الهولاندي دوزي (١٨٢٠ ـ ١٨٨٣) الذي يعده المستشرقون فاتح الدراسات الأندلسية. راجع: المستشرقون ٣٠٨/٢ ـ ٣١٠.

(٢) أنور الجندي: طه حسين حياته وفكره في ضوء الإسلام، ص٥٨، ٥٩.

(٣) هذا الأستاذ الحق في رأي الدكتور هو الذي قال عن القرآن: «إني أؤكد أن مذهب محمد الحقيقي إن لم يكن قد زيف فهو على الأقل ستر بأكثر العنايات وأن الأساليب البسيطة التي سأشرحها فيما بعد هي التي حملت أبا بكر أولاً ثم=

الناس أني سمعت هذا الأستاذ يفسر القرآن تفسيرًا لغويًا خالصًا فتمنيت لو أتيح لمناهجه أن تتجاوز باب الرواق العباسي ولو خلسة ليستطيع علماء الأزهر الشريف أن يدرسوا على طريقة جديدة نصوص القرآن الكريم من الوجهة الخالصة على نحو مفيد حقًا][1].

= عثمان من بعده على أن يمدا أيديهما إلى النص المقدس بالتغيير، وهذا التغيير قد حدث بعبارة بلغت حدًا جعل الحصول على القرآن الأصلي يشبه أن يكون مستحيلاً». نقلاً عن طه حسين حياته وفكره في ضوء الإسلام، ص٦١.

(١) أنور الجندي: طه حسين حياته وفكره في ضوء الإسلام، ص٦٠.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

المبحث الثاني

طه حسين والتعليم الأزهري

لئن كان الدكتور طه حسين اعترف بفضل الأزهر عليه مرارًا وتكرارًا وأنه قد أفاد من الأزهر «الحرص الشديد على التعمق في فهم النصوص وتجنب السطحية»[(١)].

وأنه مدين للأزهر بحياته العقلية فنشأته الأولى كانت في رحابه وعن أهله أخذ أصول المعرفة وتكونت من خلاله ثقافته الأولى[(٢)].

فقد خاض الدكتور مع الأزهر والأزهريين معارك عديدة بدأت من أيام الدرس في مرحلة الصبا وامتدت مع حياة الدكتور كلها. تلك المعارك التي كان الدكتور حريصًا على أن يوضح أن باعثه على خوضها «حبه للأزهر وحرصه على أن يؤدي الأزهر واجبه على أحسن وجه ممكن»[(٣)].

---

(١) فؤاد دواره: عشرة أدباء يتحدثون، دار الفكر، ط٢ بدون ت، ص١٧.

(٢) إبراهيم عبد العزيز: أوراق مجهولة للدكتور طه حسين، دار المعارف، سلسلة إقرأ عدد ٦٢٢، ص١٠٨.

(٣) المرجع السابق نفسه.

ورغم هذا الحب والحرص على النصح الصادق للأزهر والأزهريين فلم يكن الدكتور موفقًا في الكثير من تلك المعارك؛ إذ تبنَّى خلالها آراء باطلة كما في معركة الشعر الجاهلي، أو دافع عن آراء باطلة كمؤازرته لزميله وصديقه الشيخ علي عبد الرازق في معركة الإسلام وأصول الحكم، أو حين وقف من علماء الأزهر مواقف لم يراع فيها أدب النصح وانساق فيها لطبعه الحديد فسخر من علماء الأزهر وشيوخه بألفاظ لا تليق والأمثلة على هذا التوجه كثيرة، منها: ما نعت به الشيخ الظواهري[1] في مقال له بجريدة السياسة لسان حال الأحرار الدستوريين يقول: «ما دامت هذه الأيام السود قد جعلت رأي الشيخ الظواهري فوق الدين والعلم وفوق الحرية والدستور والقانون، فمن الحق على هذا (البابا) أن لا يحكم رعاياه البائسين حكم قراقوش وأن لا يقضي في أمر حتى يفهم ويتبصر، وأنا أعلم أن عمامة الشيخ تضيق بفهم هذه الكتب العلمية الخالصة التي يطبعها في مصر جماعة من المصريين والأجانب الشرقيين والغربيين»[2].

لقد أخطأ الدكتور طه حسين حين اتخذ من الهجوم الشديد والنقد اللاذع أسلوبًا لنصحه وإرشاده للأزهر والأزهريين مما حدا بالأزهريين أن يقدموا سوء الظن بالدكتور في كل مقال يتحدث به أو كل رأي يقترحه.

---

(١) الشيخ الظواهري: هو محمد الأحمدي إبراهيم الظواهري ولد بقرية كفر الظواهري بمحافظة الشرقية سنة ١٨٨٧م، كان أبوه من خيرة علماء الأزهر وزميلًا للشيخ محمد عبده، تولى مشيخة الأزهر سنة ١٩٢٩م، وكان متأثرًا بفلسفة الشيخ محمد عبده في الإصلاح الديني، جريدة الشروق العدد الأول جمادى الأولى سنة ١٤٢٠هـ.

(٢) السياسة ١٩٣٢/٦/٢٨م.

لقد كتب الدكتور مقالات فيها نصح وإرشاد لإصلاح التعليم الأزهري ظنها كثير من علماء الأزهر هجومًا على الأزهر ورجاله وتنقصًا لمكانتهم ومقدارهم.

من تلك المقالات مقالته التي نشرتها السياسة تحت عنوان: «وجه الصواب في إصلاح الأزهر» والتي جاء فيها:

[يخيل إلي أن الغرض الأساسي لإنشاء الأزهر أو لوجود الأزهر في هذه الأيام، إنما هو إيجاد طائفة من العلماء يفهمون الإسلام كما ينبغي أن يفهم وينشرونه كما ينبغي أن ينشر، يذيعون منافعه بين المسلمين وغير المسلمين ويذودون عنه خصومه الطاعنين فيه والناعين عليه. هذا هو الغرض الذي يوجد الأزهر من أجله ويقيننا أن الأزهر لا يحقق هذا الغرض وأن أشياء كثيرة تنقص العلماء وتحول بينهم وبين تحقيق هذا الغرض.

هم غير قادرين على أن ينشروا الإسلام كما ينبغي، لأنهم يجهلون لغات الإسلام، هم ضعاف في اللغة العربية ضعفًا شديدًا وهم يجهلون الفارسية والتركية والهندية وغيرها من لغات المسلمين. هم ضعاف في العربية فهم عاجزون عن الوعظ والإرشاد في البلاد العربية، وهم يجهلون اللغات الأخرى الإسلامية فهم عاجزون عن الوعظ والإرشاد ونشر الدين في البلاد الإسلامية الأخرى ثم هم عاجزون عن أن يذودوا عن الدين ويردوا عنه كيد خصومه من أهل الديانات الأخرى ومن الذين يجحدون الديانات جميعًا.

هم عاجزون عن ذلك لأنهم يجهلون الديانات الأخرى ويجهلون حجج أهلها ويجهلون فيها مواضع الضعف ومواضع القوة ويجهلون الفلسفة الحديثة وما عسى أن يكون بينها وبين الدين عامة والإسلام

خاصة من حرب أو سلام. يجهلون هذا كله ويجهلون لغة الذين ينتحلون هذا كله، وإذا كانوا عاجزين عن وعظ المسلمين وإرشادهم وإذا كانوا عاجزين عن رد المخالفين وتبشيرهم بالإسلام، فهم عاجزون أن يؤدوا ما للإسلام عليهم من حق، وهم عاجزون عن أن يحققوا ما عقد المسلمون بهم من أمل وما وكلوا إليهم من منفعة][1].

الدكتور في مقاله السابق يصف الحالة المرضية بشيء من الإسهاب ويلاحظ على هذا الوصف الإغراق والتعميم وعدم الاستثناء وكأني بالأزهر وطلابه لا خير فيهم ولا أمل يرجى منهم، لأنهم جميعًا جهلاء ليس فيهم غناء.

وهذا ظلم بيِّن ينكره كل أحد ولو خص الدكتور واستثنى لما كان عليه من إنكار، ومواطن الضعف التي أشار إليها يعرفها كل من عاش تلك المرحلة أو قرأ عنها.

ثم تحدث الدكتور عن علاج هذه الحالة في نهاية مقالته فقال: [فإذا أريد إصلاح التعليم الديني فواضح جدًّا أن هذا الإصلاح يجب أن يزيل هذا النقص الذي أشرنا إليه، ويسلح حماة الدين بما هم في حاجة إليه من السلاح للذود عن الدين][2].

واقترح لقسم التخصيص الذي يفرغ له العلماء بعد شهادة العالمية آنذاك أن يقسم إلى قسمين قسم الدينيات، وقسم اللغويات.

(فأما الأول فكان ينبغي أن يدرس فيه الإسلام درسًا عاليًا مفصلاً بحيث يستطيع العالم أن يتخصص حقًّا في فرع من فروعه وأن يدرس فيه إلى جانب الإسلام تاريخ الديانات الأخرى على اختلافها سواء منها

---

(١) (٢) السياسة ١٩٣٢/٨/٣١م.

السماوية أو الوضعية، وأن تدرس فيه الفلسفة الحديثة ولا سيما ما كان منها متصلاً بالدين.

وأما القسم الثاني فكان ينبغي أن تدرس فيه اللغة العربية وآدابها درسًا عاليًا ومفصلاً يبيح للطالب أن يتخصص حقًّا في فرع من فروعها وكان ينبغي أن يدرس مع اللغة العربية غيرها من اللغات الإسلامية درسًا يمكن الطالب من أن يتكلمها ويفهمها ويقرأ ما كتب فيها قراءة منتجة)[1].

ثم يعقب الدكتور بقوله: (لو نحا علماء الأزهر هذا النحو لكانوا قد أتوا أمرًا نافعًا حقًّا، جديدًا حقًّا، أمرًا يضمن للأزهر أن يؤدي واجبه العلمي والديني على وجهه، ويضمن لمصر ثانيًا أن تحتفظ بتفوقها وزعامتها للبلاد الإسلامية...)[2].

وهذه الأمور التي دعا إليها الدكتور من الحق المحض والخير الظاهر وأصبحت الآن ـ بفضل الله ورحمته ـ حقيقة واقعة في مناهج الأزهر وتوجهاته بعد أن كانت آمالاً وأمنيات تمناها الدكتور في بداية القرن الماضي ولم يقتصر موقف الدكتور من الأزهر على النصح المشوب بالنقد والهجوم بل امتد ذلك إلى الإشادة والتقدير لجوانب رأى الدكتور في وجودها بالأزهر الخير الكثير رغم قدمها وتوارثها، من ذلك إشادته بنظام الدراسة بالأزهر في ذلك الوقت بقوله:

(وقد كان الأزهر أخصب البيئات المصرية وأحسنها استعدادًا لقبول الثقافة الحديثة الصحيحة التي تمتاز بالسعة والعمق؛ لأن الدرس

---

(١) السياسة ١٩٣٢/٨/٣١م.

(٢) جريدة السياسة الصادرة في ١٩٢٣/٨/٣١م.

فيه لم يكن مقيدًا بالبرامج التي تكتب على الورق والمناهج التي تصدر بها القوانين والنظم التي تقيد العقل والصحف التي تعد على الأساتذة والطلاب عدًّا. كان الأزهر معهدًا يدرس فيه العلم، لأنه العلم الذي لا يحد الدرس فيه إلا بطاقة الأستاذ المعلم والطالب المتعلم)[1].

كما أشاد بالإصلاح الذي نادى به الإمام محمد عبده الذي أدخل بعض العلوم الحديثة ضمن مناهج الدراسة والذي اعتمد أسلوب التدرج والمرحلية سبيلًا لتعميم هذا العلوم وتمنى الدكتور طه حسين أن (لو مضى إصلاح الأستاذ الإمام في الأزهر على وجهه ولم يلق من مقاومة السياسة ما لقي لكان حظ الأزهر الآن من مشاركة العالم الحديث في علمه وثقافته ومن الاحتفاظ بطبيعته الخاصة عظيمًا مغنيًا)[2].

لقد انبهر الدكتور بالغرب في الكثير من الجوانب وكان من الأشياء التي أخذت بلبه أن رأى رجال الدين من القساوسة والرهبان يجمعون بين علوم الدين وعلوم الدنيا فتمنى أن لو كان من علماء الإسلام كذلك (لقد كان على رجال الدين الإسلامي أن يجمعوا بين الفقه والفلسفة أو بين الفقه واللغة أو بين التوحيد والرياضة أو بين الفقه وما شئت من الحياة العملية، ولعلي لا أخطئ إن قلت: إن أبا حنيفة رحمه الله كان من أئمة الفقه والكلام وكان يشتغل مع ذلك بالتجارة ليعيش، فطبيعة العلوم الدينية الإسلامية ليست مباينة لطبيعة العلوم الحديثة ولا مضادة لها، والإسلام أطهر وأرق وأسمح من أن يحول بين رجاله وبين البحث عن الحق في أي فرع من فروع العلم، ولن يكون اللاهوت المسيحي أو الإسرائيلي أسمح من اللاهوت الإسلامي ومن

---

(١) (٢) إبراهيم عبد العزيز: أوراق مجهولة من طه حسين، ص١٠٨، ١٠٩.

زعم شيئًا كهذا فقد زعم سخفًا)[1].

ولطالما ردد الدكتور هذا الكلام بمعانٍ مختلفة كقوله: (لن يكون إصلاح الأزهر حقيقة واقعة مثمرة إلا إذا قام الإصلاح على هذه القاعدة التي لا قوام للإصلاح بدونها، وهي أن الدين لا ينبغي أن يحول بين أهله وبين ضروب النشاط المختلفة للعقل والشعور والجسم، بل لن يستطيع الدين أن يحيا آمنا إلا إذا أباح لأهله أن يأخذوا بحظوظهم من هذا النشاط على اختلافه وتنوعه)[2].

وهذا الكلام الأخير للدكتور يشعر بأن المراد ليس تحديث الأزهر بمعنى أن يجمع رجاله بين علوم الدين وعلوم الدنيا كما صرح أكثر من مرة، وإنما مراده أن يكون التحديث في فهم الدين وطبيعته، فيكون فهم الأزهريين موافقًا لفهم الأوروبيين للدين وحركته في الحياة، ولقد استخدم الدكتور كلمات فضفاضة تحتمل معاني متعددة وترك القراء يعملون عقولهم في كلامه ويفهم كل منهم ما تؤهله له قدراته وتهديه إليه ثقافته، وفي كلمته السابقة: «الدين لا ينبغي أن يحول بين أهله وبين ضروب النشاط المختلفة للعقل والشعور والجسم...» كثير من الإبهام فهي من الكلمات التي تحمل الخير والشر في وقت واحد.

فهم المستشرقين لتطوير الأزهر:

تحديث الإسلام ليتوافق مع نظرة الأوروبيين إلى الإسلام هي سبيل تطوير الأزهر في نظر المستشرقين يقول فولرز (K.vollers)[3]: «إذا

---

(١) إبراهيم عبد العزيز: أوراق مجهولة من طه حسين، ص١١١، ١١٢.
(٢) طه حسين: رحلة الربيع والصيف، المجموعة الكاملة ٢٣٩/١٤.
(٣) من كتاب دائرة المعارف الإسلامية.

شئنا أن نبحث في التاريخ الأوروبي عما يشابه إصلاح الأزهر فمن السهل أن ندرك أن إصلاح الأزهر ـ أي: إدخال الأفكار الجديدة إليه ـ إذا لم يكن من المستحيلات فهو على الأقل لا يمكن أن يتحقق إلا مع الزمن»[1].

فالمستشرقي يرى تطور الأزهر إنما ينحصر في «إدخال الأفكار الجديدة» هذه الكلمة المجملة دون أن يوضح المراد بالأفكار الجديدة، هل المراد بها المواد العملية التي تعنى بالجانب المادي من حياة الناس مثل الرياضيات والطبيعة والكيمياء وغيرها أم يراد بها الأفكار الجديدة في تصور الدين والنظر إلى الحياة.

العالم الأزهري الموسوعي الخدمي:

لقد كان الدكتور طه حسين كثير الاختلاط بعلماء الغرب من اليهود والنصارى فهاله أن كثيرًا من هؤلاء العلماء يجمعون بين علوم الدين وعلوم الدنيا، فأكثر الدكتور طه حسين من مناشدة علماء الأزهر بالعمل على توسيع مداركهم وأن يكون لهم معرفة وعلم بواقع المجتمع من حولهم، وأن يوجدوا من الوسائل الحديثة ما يساعدهم على التغلغل في المجتمع والوصول إلى كل طبقاته وفئاته.

لقد كان يعيب تصور العلماء لمهمتهم ويرميهم بفهمهم القاصر لهذه المهمة فيقول: «يتصور العلماء واجبهم الديني تصورًا ضيقًا جدًّا فهم مكلفون شيئًا آخر غير إلقاء الدروس وإقامة الصلوات، هم مكلفون أن يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر، ولم يقل أحد: إن

(١) دائرة المعارف الإسلامية، مادة: الأزهر ٦٢/٢.

إلقاء الدروس وإقامة الصلاة هي كل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، هم مكلفون أن يشتركوا في جميع أعمال الخير، هم مكلفون أن يحتملوا ألوان العناء في كشف الضر عن البائسين، هم مكلفون ألا تخلو منهم جماعة خيرية، هم مكلفون ألا تخلو محلة في مصر من آثارهم الخيرية. هم مكلفون أن يتصوروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تصورًا صحيحًا واسعًا يجعلهم عضوًا نافعًا في الجماعة»[1].

ويهتم الدكتور بعقد المقارنات بين جهود القساوسة والرهبان وجهود العلماء المسلمين، وذلك لكي يؤكد ذهول العلماء عن واجبهم أو ضعفهم عن أداء دورهم، ومن أقواله في هذا السبيل:

(اذهب إلى أصغر قرية وأحقرها من قرى أوروبا، وتبين عمل القسيس في هذه القرية تجده عظيمًا شديد التشعب فهو يؤدي قبل كل شيء واجبه الديني المعقد في الكنيسة، يقيم هذه الصلوات الكثيرة المتنوعة، ويتقبل اعترافات المؤمنين إلى غير ذلك من أعمال الكنيسة وهو يعني بكنيسته عناية مادية، فيشرف لا على أن تكون نظيفة حسنة النظام بل على أن تزدان بما استطاع أن يزينها به من آثار الفن، ثم هو بعد ذلك أستاذ ديني لأطفال القرية جميعًا يختلفون إليه في كل يوم يأخذون عنه مبادئ الدين وأصوله، ثم هو موسيقي بحكم عمله الديني وهو أستاذ للموسيقى في قريته، ثم هو متغلغل في حياة القرية لا يفلت من يده مولود ولا ميت، يتلقى المولود ليعمده ويزور المحتضر ليصلي عليه ويلهمه كلمة الدين وهو يجود بنفسه ويودعه إلى قبره، ثم بعد هذا كله مكلف بحكم الدين أن يبحث عن الضعفاء وذوي الحاجة

---

(١) طه حسين: من بعيد، المجموعة الكاملة ١٢٦/١٢.

فيواسيهم ويعزيهم، ويلقى ألوان العناء في حمل الناس على الصدقات يأخذ من أغنيائهم ما يرده على فقرائهم، ثم هو بعد هذا وذاك رجل طُلَعة يريد أن يتعلم، فهو يختص بدرس نوع من أنواع العلم أو لون من ألوان الفن. هذه خلاصة حياة القسيسي في قرى أوروبا ومدنها، فأين منها حياة رجال الدين في الشرق الإسلامي)[1].

الخطوة الثانية:

تحت هذا العنوان كتب الدكتور مقالاً في جريدة الجمهورية سنة ١٩٥٥م يدعو فيه الحكومة لأن تتخذ خطوة ثانية بعد خطوتها الأولى والتي تمثلت في إلغاء القضاء الشرعي.

الخطوة الثانية التي يقصدها الدكتور شرحها بقوله: (فلندعُ الحكومة إلى أن تخطو خطوة ثانية ليست أقل منها خطرًا وعسى أن تكون أبعد منها أثرًا فيما ينبغي للحكومات الرشيدة أن تفكر فيه وتسعى إليه وهو توحيد الأمة وتقريب ما بين أبنائها من الآماد، لا أقول في حياتهم الاجتماعية والسياسية وحدها؛ بل في حياتهم العقلية، لأن هذه الحياة هي أساس التفكير، وهي قوام العمل، وهي التي تتيح للشعب أن يفكر تفكيرًا متجانسا، وأن يعمل عملاً مطردًا لا ينافر بعضه بعضًا، ولا يلغي بعضه بعضًا، وهذه الخطوة الثانية هي توحيد التعليم في طور الصبا والشباب)[2].

لما نشر الدكتور هذا الرأي وقرأه علماء الأزهر ثارت ثائرتهم

---

(١) طه حسين: من بعيد، المجموعة الكاملة ١٢٧/١٢.

(٢) أبو بكر عبد الرزاق: وثائق قضايا طه حسين المكتبة العصرية، صيدا ـ بيروت، ط١، ١٩٩١م، ص٣٥٣.

وهبَّ بعضهم للرد على الدكتور في الجمهورية التي نشرت مقال الدكتور وأخرج الأزهر عددًا خاصًا[1] من مجلته للرد على الدكتور في دعواه إلى توحيد التعليم في مراحله الأولى؛ إذ فهموا من هذه الدعوة أنها دعوة لإلغاء التعليم الأزهري، لأنه دعا إلى توحيد التعليم على الأساس المدني.

فكتب الدكتور في جريدة الجمهورية[2] مقالاً آخر تحت عنوان: «إنها تعبئة ضد الخطوة الثانية» تعجب فيه من ثورة العلماء ضده، وشرح ما يقصده من دعوته إلى توحيد التعليم فقال:

(... لقد طالبت بتوحيد التعليم العام في الدولة ولم أعرض عن قرب أو بعد لتعليم الدين في الأزهر لا في كلياته العالية ولا في معاهده الابتدائية والثانوية فضلاً عن أن أكون قد أردت إلى إغلاق الأزهر أو إلغاء تعليم الدين وإهمال حفظ القرآن... وإنما طالبت بتوحيد منهج مشترك من التعليم بين المصريين جميعًا ووسائل هذا التوحيد عندي يسيرة جدًّا يمكن إيجازها في سطور قليلة:

أولاً: يظل التعليم الابتدائي والثانوي جزءًا من الأزهر كما هو.

ثانيًا: يوضع منهج مطابق لمنهج التعليم العام في وزارة التربية والتعليم ويفرض على المعاهد الابتدائية والثانوية الأزهرية.

ثالثًا: تؤلف هيئة مشتركة من الأزهر ووزارة التربية والتعليم للإشراف من قرب على تنفيذ هذا المنهج وتتخذ وزارة التربية والتعليم وسائلها للتثبت من تنفيذه بالتفتيش والمشاركة في الامتحان.

---

(١) صدر في شهر نوفمبر سنة ١٩٥٥م.

(٢) يوم السبت ٣ ديسمبر ١٩٥٥م.

رابعًا: يوفق بين هذا المنهج وبين ما يدرس في الأزهر من علوم أساسية للتخصص في علوم الدين. ويكون ذلك بإصلاح المناهج الأزهرية وإلغاء ما فيها من التزيد والتكرار. . .)[1].

(وقد حرص طه حسين في مختلف محاضراته وكتاباته أن يعلن أن الجامعة المصرية هي الجهة الوحيدة التي ينبعث منها نور العلم في مصر والتي يكون فيها طلب العلم لذاته. أما الأزهر فلا يصح أن يطلب المدرسون فيه شيئًا من المال، لأنهم يجب أن يكونوا متزهدين في الحياة الدنيا[2].

(وفي مقال له في مجلة الرابطة الشرقية تحت عنوان: «إصلاح الأزهر» دعا إلى اعتبار الأزهر مدرسة وعظ وإرشاد وألا يكون للمتخرجين فيه حق الوظائف وأن يعيشوا عيشة الرهبان ويدعوا الدنيا وأغراضها)[3] وهذه الآراء صدرت من الدكتور لسوء ظنه بالأزهر والأزهريين هذا الأمر الذي كان يدفعه إلى المغالاة في آرائه وعدم التزام القصد فيها. وربما أوقعه في شيء من التناقض والاضطراب.

حين وضع الدكتور تصورًا لبعض أوجه الإصلاح في قضايا التربية والتعليم في كتابه مستقبل الثقافة تناول قضية إصلاح الأزهر على وجه يدل على تناقضه واضطرابه.

ففي بداية الكتاب يقول: (كل شيء يدل، بل كل يصيح بأن الأزهر مسرف في الإسراع نحو الحديث، يريد أن يتخفف من القديم

---

(١) أبو بكر عبد الرزاق: وثائق قضايا طه حسين ٣٦٢/١.
(٢) قال ذلك في محاضرة له بجمعية الشبان المسيحيين في مارس ١٩٣٠م.
(٣) أنور الجندي: طه حسين حياته وفكره في ضوء الإسلام، ص٩٤.

ما وجد إلى ذلك سبيلاً. . .)[1].

غير أننا في محل آخر من الكتاب نراه يتراجع قليلاً عن تعبير الإسراف الذي استعمله في هذا المقام لأنه يقول: «أصبح الأزهر مسرعًا إلى هذه الحضارة يدفعه إسرافه إلى شيء يشبه الإسراف إن لم يكن هو الإسراف»[2]، كما أننا نراه في محل آخر يتناسى كل ذلك فيقول:

إن الأزهر بحكم تاريخه وتقاليده وواجباته الدينية بيئة محافظة تمثل العهد القديم والتفكير القديم، أكثر ما تمثل الحديث والتفكير الحديث. . .»[3].

وفي الأخير عندما ينتقل إلى بحث المنافسة القائمة بين الأزهر وبين الجامعة لا يتحرج في إبداء رأي يناقض رأيه الأول مناقضة صريحة إذ يقول: (يقتضي أن يعدل الأزهر عدولاً تامًّا عما دأب عليه من الانحياز إلى نفسه والعكوف فيها والانقطاع عن الحياة العامة. وقد يقال: إن الأزهر قد أخذ يترك هذه السيرة ويتصل بالحياة العامة ويأخذ بحظوظ حسنة من الثقافات الحديثة على اختلافها وهذا صحيح في ظاهره ولكنه في حقيقة الأمر غير صحيح فالأزهر ما زال منحازًا إلى نفسه مستمسكًا بهذا الانحياز حريصًا عليه)[4].

وعلى كل حال فلقد كان للدكتور فضل السبق حين أراد للأزهر أن يزاوج بين التعليم الديني والتعليم المدني ولعل هذا الأمر أصبح

---

(١) طه حسين: مستقبل الثقافة، المجموعة الكاملة ٤٤/٩.
(٢) المرجع السابق ٦٩/٩.
(٣) المرجع السابق ٩٨/٩.
(٤) طه حسين: مستقبل الثقافة، المجموعة الكاملة ٤٤٤/٩.

واقعًا حين (سنت الدول قانون تنظيم وتطوير الأزهر رقم ١٠٣ لسنة ١٩٦١م والذي كان من أهم بنوده إتاحة الفرصة لكل طالب في التعليم الديني والتعليم المدني إدخال كليات التعليم المدني إلى الجامعة الأزهرية.

وعلى الرغم من أن الأزهر ما زال حريصًا على استقلال التعليم الأزهري والإعدادي والثانوي إلا أنه حريص على أن يترسم خطى وزارة التربية والتعليم في محاولة لتحقيق التقارب بينه وبين التعليم المدني العام)[1].

وهذا الأمر طالما طالب به طه حسين أثناء حياته وهو اليوم حقيقة واقعة يعرفها كل متابع لمسيرة التعليم بالأزهر.

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

(١) د. كمال حامد مغيث: طه حسين مصادره الفكرية... ص١٦١.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الفصل التاسع

طه حسين وقضايا المرأة

ويشتمل على تمهيد وأربعة مباحث:

التمهيد

المبحث الأول: طه حسين وحجاب المرأة المسلمة.

المبحث الثاني: طه حسين وقضية الاختلاط.

المبحث الثالث: طه حسين وقضية المساواة بين الرجل والمرأة.

المبحث الرابع: تقييم آراء طه حسين في قضايا المرأة.

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

طه حسين والمرأة

تمهيد

لا يستطيع الباحث في حياة طه حسين وفكره وأدبه أن يغفل الجانب الاجتماعي منها وأخص نواحي هذا الجانب صورة المرأة وموقعها من حياة الرجل وفكره.

[ولا سبيل إلى أن تكون صورة حياة قوم، في مجتمع ما، صادقة ما لم يكن للمرأة في هذه الصورة مكان وأي مكان.. ولا سيما حينما تكون هذه الصورة نتاج وجدان أديب كان منذ نُعومة أظفاره شديد الحاجة إلى المرأة، بل أشد حاجة إليها من الكثرة الغالبة من الناس بسبب: «ظروفه المعينة»... فهي العشيرة والأنيس والمعين والصديق الذي لا يكاد يكون له عنها غنى... إن كان لسواه من الناس غنى عنها بحال من الأحوال][1].

وليس من مغالاة في وصف المرأة ومنزلتها من الدكتور طه حسين فهو يراها: «قالب النوع الإنساني يفرغه الله فيه ويصوغه على

(١) صوفي عبدالله: المرأة في أدب طه حسين، بحث ضمن كتاب (طه حسين كما يعرفه كتاب عصره)، ص٢١٤.

مثاله»[1].

ولذا، فقد شغلت المرأة فكر الدكتور وعقله منذ حياة الطلب الأولى حينما توجه إلى الكتابة الصحفية ثم صاحبه هذا الانشغال بقية حياته.

ولقد حظيت المرأة في أدب طه حسين بنصيب كبير، فقد جاء أدبه في هذا الجانب [تسجيلاً حيًّا دقيقًا شديد التنوع لما قطعناه من أشواط بعيدة في مراحل تطورنا الاجتماعي والفكري... لقد استطاع أن يصور واقعنا الاجتماعي الصميم في ريف مصر وحواضره لا سيما في الصعيد (بيئته الأولى) فإذا بنا نلتقي وجهًا لوجه بالأم الصعيدية العريقة الحصان[2]، والكاعب[3] الصعيدية الرزان[4]، والغانية «الغازية» اللعوب، وتاجرة الأسرار والغوايات، والمرأة الميسورة المستغنية بجاه أسرتها، والمرأة الفقيرة الكادحة المتجملة، والمرأة المحرومة المنكودة المتعففة... إلخ][5].

وما أريد أن أعرض للمرأة في أدب طه حسين فما لهذا قصدت، وإنما الوجهة أن أعرض لفكر طه حسين في قضايا المرأة.

---

(١) السيد تقي الدين: طه حسين آثاره وأفكاره، ص٣٩.

(٢) الحصان: هي المرأة بينة الحصانة، ويقال للمرأة محصنة: إذا تزوجت وكذلك للمرأة العفيفة. راجع: مختار الصحاح، مادة: حصن، ص١٤٠.

(٣) كَاعِب: فتاة نَهَد ثدياها المعجم الإسلامي، ص٤٨٦.

(٤) الرزان: الوقور من النساء. راجع: المعجم الوجيز، مادة: رزن، ص٢٦٢.

(٥) صوفي عبدالله: المرأة في أدب طه حسين، بحث ضمن كتاب (طه حسين كما يعرفه كتاب عصره)، ص٢١٥ بتصرف.

بداية أصيلة:

لقد صدر طه حسين في نظرته للمرأة من نظرة أصيلة كانت المرجعية الأولى فيها للقرآن والسُّنَّة، ولقد تزامنت هذه النظرة مع فترة الدراسة بالأزهر؛ الأمر الذي كان له دور رئيس في استقامة آرائه وحسن توجهه في هذه الفترة.

ولقد صور طه حسين منطلقه الذي يصدر عنه في تلك الفترة بقوله: [إن لكل كاتب في أي مسألة من المسائل حدًّا يجب أن لا يتعداه، ومدى يجب أن ينتهي إليه، وحدنا في هذه المسألة (نظرة المسلم إلى المرأة) إنما هو دين الله الذي أنزله شفاء ودواء للأفراد والأمم وإصلاحًا للفاسد من أمورهم فعلينا أن نقف عنده ولا نتعدى حده، ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون وعلى هذا الأصل نقول: إن رقي المسلمين رهين بأن يرجعوا إلى أصول دينهم الذي أهملوه، وكتابهم الذي أغفلوه فيتمسكوا بأسبابها ويتعلقوا بأهدابها وعلى غير ذلك لا تقوم لهم قائمة ولا يصلح لهم جيل][1].

ولذا نراه في محاولات شعرية ينكر على الناس تقليدهم للغرب من غير وعي، وهجرهم لهدي الإسلام في الاجتماع والسلوك فكان من قوله:

أيها الناس أين علمكمو القا ... صر من عالم عداه القصور
عالم الغيب والشهادة لا ... يعزب عنه قبل الصغير كبير
قد أبحتم لنا الخنا وحظرتم ... كيف هذا المسوغ المحظور
أنفذوا حكمه على كل جان ... لا ينلكم من دون ذاك فتور

(١) السيد تقي الدين: طه حسين آثاره وأفكاره، ص٣٩.

ارجموا[1] واجلدوا كما أمر ... الله يجانبكمو الخنا والفجور
إن من يهدر الفضيلة يهدر ... ليس كفوًا لذنبه التعذير
طرب النيل ثم قال ... لعمر الله قد كاد يزيدهيني السرور
أمحب للدين من أهل مصر ... أنت والله بالنجاة جدير
نسيت مصر دينها فعداها ... كل خير وجللتها الشرور[2]

وكذلك جاءت أراؤه متَسمة بالقوة والأخذ بالأحوط حتى في المسائل الخلافية كرأيه في حكم زواج المسلم بالكتابية[3] الذي وضحه بقوله:

[أقول: إن مما لا شك فيه أننا الآن أصبحنا في عصر غير العصور الماضية، تغيرت أخلاقنا من حسن إلى قبيح، ومن جميل إلى

---

(١) كان طه يرى الرجم أول حياته كما هو ثابت في شعره، ثم رفضه بعد ذلك كما سبق أن رأينا.

(٢) عبد العليم القباني: طه حسين في الضحى من شبابه، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة المكتبة الثقافية عدد ٣٣٧ الصادر سنة ١٩٧٦م، ص١٥٤، ١٥٥.

(٣) جاء في المغني لابن قدامة: «ليس بين أهل العلم ـ بحمد الله ـ اختلاف في حل حرائر نساء أهل الكتاب»، ممن روي ذلك عنه عمر وعثمان وطلحة وحذيفة وسلمان وجابر وغيرهم. قال ابن المنذر: ولا يصح عند أحد من الأوائل أنه حرم ذلك. وروى الخلال بإسناده أن حذيفة وطلحة والجارود بن المعلى وأذينة العبدي تزوجوا نساء أهل الكتاب وبه قال سائر أهل العلم. وحرمته الإمامية متمسكة بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾ [البقرة: ٢٢١] ﴿وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾ [الممتحنة: ١٠] ولنا قول الله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ [المائدة: ٥] وعليه إجماع الصحابة. المغني والشرح الكبير ٧/٥٠٠.

رديء، ذهبت مقوماتنا وضعفت أنفسنا، وزالت مميزاتنا الجنسية، وأصبح من اليسير أن تندمج طباعنا في طباع غيرنا من الأجانب، بل أصبح تقليدنا للفرنج أمرًا محببًا إلى نفوسنا مستحسنًا منها، فنحن نقلدهم في الحسن والقبح ونقفوا أثرهم في النافع والضار، وليس لنا من قوة الأنفس والأخلاق ما يكفينا شر التقليد، فإن أحدنا يفتن بكل شيء صدر عن الفرنج. لا يبالي صدر عن رجل أم امرأة، عن كبير أو صغير، فلا شك عندي في أنه يجب علينا أن نحتاط كل الاحتياط في استعمال هذا الحكم، أي: إباحة تزوج المسلم بالكتابية، ولست أرى عليَّ من بأس إن قلت: إنه الآن حرام ممقوت][1].

(١) مجلة الهداية عدد شهر مارس سنة ١٩١١م.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

البحث الأول

طه حسين وحجاب المرأة المسلمة

نشأ طه حسين في الفترة التي اشتدت فيها معركة الحجاب والسفور في بدايات القرن الماضي التي كان لقاسم أمين[1] حظ كبير فيها إذ أصدر كتابيه «تحرير المرأة» و«المرأة الجديدة»[2]، واللذين زخرا بالدفاع عن سفور المرأة وتبرجها.

[وقد تناول قاسم أمين في كتابه «تحرير المرأة» أربع مسائل: وهي الحجاب، واشتغال المرأة بالشؤون العامة، وتعدد الزوجات، والطلاق، وذهب في كل مسألة من هذه المسائل إلى ما يتواءم ويتلاءم مع الحضارة الغربية وفلسفتها، زاعمًا أن ذلك هو ما يعنيه الإسلام ويتجلى أثر الثقافة الغربية والخضوع للحضارة الغربية وقيمها أوضح في الكتاب الثاني «المرأة الجديدة» ذلك أن قاسم أمين التزم فيه بالمنهج الغربي الحديث الذي يرفض كل المسلمات والعقائد السابقة سواء ما

---

(١) سبق ترجمته، ص٤٦.

(٢) قامت الهيئة المصرية العامة للكتاب بإعادة نشر الكتابين تحت دعوى التنوير ضمن سلسلة المواجهة فنشرت الأول في صيف ١٩٩٣م، والثاني في صيف ١٩٩٧م.

كان منها عن طريق الدين، أو ما جاء من غير طريقه، ولا يقبل إلا ما يقوم عليه دليل تجريبي أو واقعي على حسب المنهج الذي يسلكه باحثو الاجتماع الأوروبيون الملاحدة وهو ما يسمونه بالمنهج العلمي][1].

ولم يكن طه حسين بعيدًا عن هذا الجو فهو الذي سطر في سيرته الذاتية أنه أثناء مرحلة الطلب الأولى كان يتابع كتابات رواد الحركة الثقافية آنذاك. خاصة في فترات الإجازة الصيفية التي كانت فرصة لقراءة كتب قاسم أمين وكثير من آثار الأستاذ الإمام[2].

ولا شك أن طه حسين تأثر بهذه القراءات مما حدا به لتغيير وجهته الأولى التي كان تفكيره فيها مقاربًا أو ومنسجمًا مع دراسته الأزهرية، فإذا به يكتب رأيه في قضية الحجاب والسفور متأثرًا بما كتبه قاسم أمين وغيره ممن تأثروا بالغرب وحاولوا محاكاته وتقليده.

يقول طه حسين:

[إننا يجب أن نفرق بين نظامنا ونظام الأمم الغربية، هناك أمم قد استرسلت مع أهوائها وشهواتها، لم يزعها دين صحيح، وهنا أمة لا تريد من الحرية إلا ما أباح لها دينها الحنيف، وشتان بين المذهبين، إذا كنا نخشى من السفور شرًا فلنعلم قبل كل شيء أن هذا الشر ليس لازمًا «ذاتيًا» للسفور وإنما هو نتيجة لازمة لفساد النفوس، تقع في السفور وتحت الحجاب على السواء، وليس لها من دواء إلا أن نتوخى

---

(١) محمود محمد الجوهري: الأخوات المسلمات وبناء الأسرة القرآنية، دار الوفاء، ط٢، سنة ١٤٠٩م، ص٨٨.

(٢) راجع: طه حسين، الأيام ١/١٧٦.

في نهضتنا إصلاح نفس المرأة والرجل إصلاحًا دينيًا منذ النشأة الأولى فنشعر قلبيهما حب الفضيلة، وبغض الرذيلة ونملأ فؤاديهما رهبة من الله ورغبة في مرضاته. وهذا هو الدواء النافع لهذا الداء العضال.

وليست مسألة المرأة منحصرة في الحجاب أو السفور كما يظن بعض الكاتبين وإنما ترجع في الحقيقة إلى أصلين كبيرين، أحدهما: تربية المرأة، والثاني: حريتها.

إن الحرية المطلقة حق فطري للذكر والأنثى من الحيوان على السواء وليس الإنسان إلا فردًا من أفراد الحيوان وفرعًا من فروعه، فالرجل والمرأة قسيمان في الحرية المطلقة والمنفعة وحدها هي التي تحد هذه الحرية بحدود العقل والعادة والدين، فكل ما يقيد حرية الرجل من هذه الحدود يقيد حرية المرأة كذلك.

هذا شيء متفق عليه لا معنى للبحث عنه والجدال فيه، وإنما نبحث عما جعل للرجل سلطانًا على المرأة ميزه عليها وقيدها بقيود خاصة لا ينال الرجل منها شيء.

ونقول: ليس لهذه القيود مصدر إلا نظام الأسرة فهو الذي اقتضى أن يكون للرجل قيامة على المرأة فيكسب لها القوت ويجمع من أسباب الراحة والدعة ما يمكنها من أن تقضي حاجة المنزل وتقوم على تربية البنين والبنات، وليس من الممكن غير ذلك لأنه مقتضى الفطرة والطبيعة.

ولكن هل قيام المرأة بحاجة المنزل، وفروض التربية يقضي بأن تسلب حريتها وتقصر في القيود كما تقصر الأمتعة؟ هذا ما لا يمكن القول بهن بل يجب القول بنقيضه فإن المرأة إذا لم تكن مطلقة اليد

حرة في أعمالها وأقوالها يستحيل أن تقوم بما يجب عليها حق القيام.

لذلك لم يأت الدين الإسلامي بما يقيد هذه الحرية أو يقص جناحها، وإنما جاء بما يجعل هذه الحرية صالحة نافعة يقوم بها أمر المرأة، وتنتظم أحوالها][1].

فطه في كلامه سالف الذكر يركز على قضية تربية المرأة على معاني العفاف والطهر إذ جعل ذلك بمثابة الأساس قبل التركيز على قضية اللباس والزينة وهذا حق لا مراء فيه، ولكن عرض الكلام على هذا النحو فيه تغرير وخداع، إذ أنه يوحي أنه لا حرج على المرأة من السفور إذا كانت عفيفة صالحة النفس!!

ثم إن كلامه عن حرية المرأة كلام مرسل فيه كثير من الغموض فهو يريد لها حرية مطلقة! ولا ندري ماذا يريد بها؟ ثم هو يجعل من المنفعة مقياسًا لحدود هذه الحرية من خلال حكم العقل والعادة والدين! فالدين متأخر على حكم العقل والعادة! والشأن في الدين - في تصور المسلم - أن يكون له الحكم الأول، ويكون المقياس الذي يزن الإنسان به أموره هو نصوص الدين المتمثلة في القرآن والسُّنَّة.

ثم يعود الدكتور طه فيتسائل [ما الذي فرضه الإسلام على المرأة؟ وما الذي أمرها به؟ (ثم يجيب) فرض عليها العفة كما فرضها على الرجل وأمرها أن تتجنب سبيل الظنة كما أمر بذلك الرجل.

عرف أن في المرأة وجمالها فتنة للرجل هي مظنة الفسوق فنهاها عن أن تبدي من زينتها ما تستطيع إخفاءه، وهو غير الوجه واليدين فقد

---

(١) السيد تقي الدين: طه حسين آثاره وأفكاره، ص٤٠، ٤١.

قال القرآن الكريم: ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾[1]، وفهم المسلمون من هذه الزينة الظاهرة الوجه واليدين[2]، فأي تكلف في هذا الأمر؟ وأي عناء ينال المرأة من اتباعه.

ما الذي تريده المرأة إذا أباح الله لها أن تظهر من زينتها ما يظهره الرجل؟

لم يأخذها الإسلام بحجاب ولا نقاب][3].

والدكتور بعبارته الأخيرة هدم ما تقدم عليها من قول لم يخالف فيه جمهور المسلمين. فهو يقرر في صراحة أن الإسلام لم يأخذ المرأة بحجاب ولا نقاب: ولعله يقصد بالحجاب هنا القرار في البيت وعدم البروز والمخالطة للرجال. ولأنه قرر في حديثه سالف الذكر أن الإسلام فرض على المرأة العفة واستدل بآية سورة النور التي تحض النساء على الخمار حيث يقول الله: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾[4].

---

(١) سورة النور، الآية: ٣١.

(٢) قرر ذلك القرطبي في التفسير حيث قال: «لما كان الغالب من الوجه والكفين ظهورهما عادة وعبادة وذلك في الصلاة والحج، فيصلح أن يكون الاستثناء راجعًا إليهما. يدل على ذلك ما رواه أبو داود عن عائشة ﵂ أن أسماء بنت أبي بكر ﵂ دخلت على رسول الله ﷺ وعليها ثياب رقاق، فأعرض عنها رسول الله ﷺ وقال لها: «**يا أسماء إن المرأة إذا بلغت المحيض لم يصلح أن يُرى منها إلا هذا**» وأشار إلى وجهه وكفيه... وقد قال ابن خويز منداد إذا كانت جميلة وخيف من وجهها وكفيها فعليها ستر ذلك». راجع: القرطبي: الجامع لأحكام القرآن ٢١٢/٦ بتصرف.

(٣) السيد تقي الدين: طه حسين آثاره وأفكاره، ص٤١.

(٤) الآية ٣١ من سورة النور، وخلاصة أقوال المفسرين فيها أن الواجب على المسلمة أن تغطي رأسها وعنقها وأذنيها ونحرها وصدرها... ولا يظهر منها إلا الوجه، ويمكن أن يغطى الوجه كما صرح بذلك ابن حزم. راجع: د. عبد الكريم زيدان: المفصل في أحكام المرأة ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت، ط١، سنة ١٩٩٣م، سنة ١٤١٣هـ، ٣٢٠/٣ بتصرف.

وما المراد بالفريضة إذا لم يكن هناك إلزام بلباس تراعي فيه الحشمة والوقار وذلك بأن يكون سابغًا واسعًا فضفاضًا، إن الدكتور يركز على أن العفة شيء مصاحب للنفس لا يرتبط بزي ولا مخالفة له في هذا، لكن ليس هذا كل الحق [فقد يبدو لبعض المخدوعين أن الزي الإسلامي عرض خارجي لا يرتبط بأعماق الإنسان ولا بجوهره، والحقيقة أن هناك علاقة تفاعل بين شكل الشيء ومضمونه، وهذه قاعدة مضطردة تجري على الأشياء والإنسان... وعليه يكون كل مظهر من حياة الناس مرتبطًا بعلاقة تفاعل وتأثير بصميم روحه، فملابس الشجاعة تبث في الرجل روح الشجاعة، وملابس الخنوثة تعطيه التخنث والميوعة، وملابس العفة تبث في المرأة روح العفة، وملابس المجون والخلاعة تصبغها بالمجون والخلاعة][1].

ومن هنا نعلم أن القول بأنه لا حرج على المرأة أن تلبس ما شاءت طالما تحمل بين جنبيها نفسًا متعففة إنما هو ضرب من الخداع والتغرير، والحق أن الأمرين متلازمان لإيجاد المرأة المسلمة الملتزمة بتعاليم دينها والمراد تطابق الشكل الظاهري مع الحقيقة الخلقية الباطنة.

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

(١) محمود محمد الجوهري: الأخوات المسلمات وبناء الأسرة القرآنية، ص١٤١ بتصرف.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

المبحث الثاني

طه حسين وقضية الاختلاط

حين أطلق الدكتور طه حسين حكمه بأن الإسلام لم يأخذ المرأة بحجاب ولا نقاب، فإنه لم يرد الحكم لذاته وإنما أراد ما يترتب عليه، ولذا عقب على الحكم السابق بأمثلة توضح مقصده وما يهدف إليه وهو مشروعية الاختلاط بين الرجال والنساء فكان من قوله مباشرة بعد ذكر الحكم السابق: «أباح الإسلام للمرأة أن تخرج من منزلها فتغشى مجالس العلم، ومساجد الصلاة ومواضع الرياضة في غير ما فتنة ولا فسوق»[1].

ثم أراد أن يضفي على الاختلاط في الأمثلة المذكورة صفة المشروعية فذكر النهي عن الخلوة بين المرأة والرجل الأجنبي فكان من قوله مباشرة: «عرف الإسلام من طبيعة الرجل والمرأة أكثر مما تعرف فحظر عليها أن تخلو بالأجنبي كما حظر ذلك على الرجل، وأي مصلحة عامة أو خاصة ينالها الإنسان من خلوة الأجنبي بالأجنبية؟ ليس هناك مصلحة ما. ولكن هناك مفاسد كثيرة إن لم تكن متحققة فهي

(١) السيد تقي الدين: طه حسين آثاره وأفكاره، ص٤١، ٤٢.

مظنونة التحقيق، والمظنة مبنى الأحكام في الأديان والشرائع قديمًا وحديثًا، ومن اختبر النساء، وابتلى طبيعتهن عرف أن المرأة مهما كانت طاهرة الذيل نقية الجيب عفيفة النفس، فإنها مظنة الانخداع بأماني الرجال ووعودهم ولا سيما إذا قرنت إلى الثناء»[1].

ثم دلل بأمر السفر ليؤكد مشروعية الاختلاط وكأني به يقول: إن الاختلاط بالأجنبي فيما دون الخلوة والسفر مباح لا حظر فيه وكان مما قاله في نفس السياق: «عرف الإسلام ضعف المرأة عن المقاومة البدنية والنفسية فحظر عليها أن تسافر إلا مع زوج أو محرم يدفع عنها ختل الخاتل، وشر القائل»[2].

ولئن كان الدكتور طه لجأ إلى الأسلوب غير المباشر في الدعوة إلى الاختلاط في بدايات كتاباته الصحفية[3]؛ فإنه لم يتحرّج من المباشرة والمصارحة حين رفع طلاب كلية الآداب (التي كان الدكتور يتقلد عمادتها آنذاك) مذكرة إلى مدير الجامعة طالبوا فيها بتدريس الدين كمادة أساسية في جميع الكليات وتوحيد زي الطلبة، وتوحيد زي الطالبات ثم تحديد دراسة خاصة بالطالبات في كلية الآداب[4].

وكان المطلب الأخير بمثابة القشة التي قصمت ظهر البعير أو بمثابة الشرارة التي أشعلت أوار معركة ضارية بين المحافظين والمجددين كما يحلو للبعض أن يسمي طرفي النزاع بذلك.

---

(١) (٢) السيد تقي الدين: طه حسين آثاره وأفكاره، ص٤١، ٤٢.

(٣) كان ذلك على صفحات مجلة الهداية في مارس سنة ١٩١١م.

(٤) راجع: نص المذكرة في كتاب وثائق قضايا طه حسين ٢٩١/١.

وامتدت المعركة خارج أروقة الجامعة حتى تناولت وسائل الإعلام المقروءة والمسموعة المساجلات والمناظرات في هذا الشأن، وكان من ذلك أن رغب محرر جريدة المصري إلى الدكتور طه أن يكتب برأيه إلى الجريدة في هذا الموضوع فكان مما كتبه:

[**أولاً**: لا أعرف في كتاب الله عز وجل ولا في سنة رسوله نصًّا يحرم اجتماع الفتيان والفتيات حول أستاذ يعلمهم العلم والأدب والفن.

ثانيًا: لا أعرف أن شيئًا حدث في الجامعة يخيف من الفتنة ويدعو إلى الاحتياط بالتفرقة بين الفتيان والفتيات في قاعات الدرس، وأنا أعلم أن سيرة الجامعيات والجامعيين حسنة لا غبار عليها، وهي في كلية الآداب بنوع خاص مرضية كل الرضى، يرضى عنها الأساتذة، وترضى عنها الأسر، وترضى عنها السلطات الجامعية.

ولو أحست الأسر شيئًا يخاف لنبهتنا إليه، ولو أحسسنا نحن شيئًا يخاف لاحتطنا له؛ ولكن الأمور تجري على خير حال، وربما كانت إثارة هذا الموضوع شرًا في نفسها بأنها تلفت إلى ما لا يلتفت أحد إليه، فالطالبات والطلاب في الجامعة منصرفون إلى الدرس والتحصيل، فلا ينبغي أن يثار لهم ما يصرفهم عن الدرس والتحصيل.

ثالثًا: إن الذين يطالبون بالفصل بين الفتيات والفتيان لا يحققون ما يطلبون ولا يقدرون نتائجه، فإن طبيعة الحياة المصرية الحديثة تقتضي أن يشتد الاتصال بين الرجال والنساء، ولا سبيل إلى مقاومة هذه الطبيعة، كما لا سبيل إلى مقاومة كل ما يقتضيه التحول الحديث في حياتنا على اختلاف فروعها.

وأنت إذا فرقت بين الفتيات والفتيان في الجامعة ومعاهد العلم، لم تستطع أن تضمن التفريق بينهم خارج الجامعة ومعاهد العلم، فهم يلتقون في الملاعب، وهم يلتقون في دور السينما، وهم يلتقون في قاعات المحاضرات، وهم يلتقون في ألف مكان ومكان، وليس الخير في أن تثير لهم هذه الشبهات فتلفتهم إليها، وتحملهم على التفكير فيها وتضطرهم إلى المقاومة، وإلى ما قد يكون أكثر من المقاومة، وإنما الخير في أن تخلي بينهم وبين الحرية السمحة النقية، التي ليست من الحظر بحيث يظن المتحرجون الذين يتخيلون الأخطار ويختلقونها في أنفسهم ثم يظنون أنها واقعة. ومهما يقل القائلون فأنا حسن الظن جدًّا بأخلاق الشباب المصريين فتيات وفتيانًا لا أسيء الظن إلا حين تدعو القرائن القوية إلى ذلك ولم يقع في الجامعة ما يحمل على سوء الظن.

رابعًا: إن الذين يدعون إلى التفريق بين الفتيات والفتيان في الجامعة لا يريدون بالطبع أن يحرموا التعليم الجامعي على الفتيات، وإذًا فهم يريدون أن تنشأ جامعة خاصة للفتيات كما تنشأ لهن مدارس ثانوية، ولكنهم يرسلون الكلام إرسالاً، ولا يفكرون فيما يقولون، فليس إنشاء الجامعات بالشيء الذي يكون بين عشية وضحاها، وإنما هو يحتاج إلى كثير جدًّا من الاستعداد وأيسر ما يحتاج إليه المال؛ وما أظن مصر مستعدة الآن؛ بل ما أظنها قادرة على أن تجد المال لإنشاء جامعة ثانية، مع أنها تتكلف جهدًا غير قليل لتنفق على جامعتها الوحيدة.

وأنا أقول مخلصًا: إن وزير المالية إذا كان يستطيع أن يوفر في ميزانية الدولة أموالاً تكفي لإنشاء جامعة للفتيات، فإني أنصح له ألا يسمح بهذه الأموال لهذا الغرض، فليس في حياتنا ما يدعو إليه وليس

في سيرة الشباب ما يدعو إليه... إلخ][1].

والدكتور ـ غفر الله له ـ يعتمد في تقرير رأيه على نقاط أربع لا يسلم له بها، وهي:

١ ـ أنه لا يجد في الدين نصًّا يحرم الاختلاط.

٢ ـ أنه لا يجد داعيًا لمنع الاختلاط فالفتنة في نظره مأمونة.

٣ ـ أن طبيعة الحياة المصرية الحديثة تقضي أن يشتد الاتصال بين الرجال والنساء.

٤ ـ إنفاق الأموال في إنشاء جامعات خاصة بالفتيات مهلكة للأموال ومضيعة لها.

ولقد رد عليه علماء الأزهر آنذاك وفندوا تلك الدعاوى التي استند إليها.

فأجابوه على تبريره الأول بأن الدكتور يجعل من جهله وعدم معرفته بما في كتاب الله وسُنّة رسوله، حجة على إباحة اختلاط الفتيان بالفتيات؛ وأن عدم هدايته لنص في المسألة يستلزم عدم الوجود. واستدل العلماء بآيات من القرآن تدل على عدم مشروعية الاختلاط من مثل قول الله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾﴾[2].

وأشاروا إلى أن السر في تشريع الحجاب يلزمه عدم الاختلاط بين الجنسين في حلقات الدرس، وفي غير ذلك من المجتمعات

---

(١) من مقال للدكتور بجريدة المصري الصادرة في ٢٧ من ذي الحجة سنة ١٣٥٥هـ الموافق ١٠ مارس سنة ١٩٣٧م، نقلاً عن وثائق قضايا طه حسين ١/٢٩٧، ٢٩٩.

(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٥٩.

والمنتديات[1]، وأن السُّنَّة النبوية قد جاءت بنص صريح في ذلك فقد ورد في صحيح البخاري عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: قالت النساء للنبي ﷺ، غلبنا عليك الرجال فاجعل لنا يومًا من نفسك، فوعدهن يومًا لقيهن فيه، فوعظهن وأمرهن[2]، وهو حديث مقطوع بصحته متنًا ورجالاً.

أما تبريره الثاني فردوا عليه بأن عدم معرفة العميد بشيء يخيف الفتنة كما يقول لا يقتضي أن يقف الدكتور في وجه رغبات الأشراف الذين يبغون للأسرة المصرية حياة مملوءة بالشرف والسعادة والدعة والهدوء، حياة تديّن، حياة معرفة بأصول الإسلام وقواعد الدين[3].

وأما تبريره الثالث بأن الحياة الحديثة تقتضي بأن يشتد الاتصال بين الرجال والنساء فرده عليه زميل له ممن شاركه في الدراسة في الغرب والاتصال به[4] حين أعلن: «أن طلبة الجامعة حين يرغبون في إيجاد مكان خاص لدراسة الطالبات لا يطلبون بعملهم هذا أكثر من أن يكونوا كالطلبة الإنجليز، ففي إنجلترا كليات عليا كثيرة للتعليم، وهذه الكليات جعلت للطلبة أمكنة غير أمكنة الطالبات»[5].

---

(١) من رد فضيلة الشيخ عبد الرزاق سليمان، المنشور بجريدة المصري الصادرة في غرة المحرم سنة ١٣٥٦هـ الموافق ١٤ مارس سنة ١٩٣٧م. نقلاً عن وثائق قضايا طه حسين ٣١٣/١، ٣١٥.

(٢) رواه البخاري ١٧٥/١ في العلم، باب هل يجعل للنساء يومًا على حدة في العلم، ومسلم رقم (٢٦٣٣) في البر والصلة، باب فضل من يموت له ولد فيحتسبه ١٨١/١٦.

(٣) وثائق قضايا طه حسين ٣١٥/١.

(٤) هو الدكتور منصور فهمي.

(٥) وثائق قضايا طه حسين ٣٠١/١.

«ولماذا لا تضرب مصر مثلاً أعلى، وطرازًا حديثًا يجمع بين الآداب الإسلامية والثقافة الغربية، ونتلافى في أول سيرنا ما جربوه في آخر أمرهم وسيرهم»[1].

وأما تبريره الأخير بأن الدولة لا تملك الإمكانات المادية وإن ملكتها فإنفاقها في غير هذا السبيل ـ إنشاء جامعات خاصة للبنات ـ أولى، فيرد عليه بأن حفظ أخلاق الأمة أولى من أي مصلحة بل هو أساس المصالح، إذ أنه لا بقاء لأمة بغير أخلاق. وإنفاق الأمة النفقات في سبيل الحفاظ على الأخلاق لا يقل بحال عن إنفاقها في سبيل الدفاع عن الوطن وتحقيق الأمن.

دفاع وإصرار:

الحق أن موقف الدكتور من قضية الاختلاط لم يكن موقفًا عارضًا، فحين واجه العلماء وذكروا له أغاليطه وأخطاءه، لم يتراجع؛ بل زاده الأمر إصرارًا على رأيه ودفاعًا عنه.

فيكتب في جريدة المصري جوابًا على سؤال محررها عن قضية الاختلاط ما نصه:

«أقول لك في صراحة لا تحتمل لبسًا ولا تثير شكًّا، ولا تحتاج إلى تأويل: إن هذه المسألة التي أثيرت أخيرًا والتي تتصل بأخلاق الجنسين في الجامعة مسألة سخيفة لا أكثر ولا أقل. ومن الإثم في حق الذوق، وفي حق الوطن أن يشاع الفساد في الجو المصري لمسألة

---

(١) من مقال الشيخ محمد عبد السلام القباني، الذي نشر بجريدة المصري يوم غرة المحرم سنة ١٣٥٦هـ. نقلاً عن وثائق قضايا طه حسين ٣١٦/١.

سخيفة كهذه. فقد قلت وما زلت أقول: إنني لا أعرف في كتاب الله عز وجل ولا في سُنّة رسوله ﷺ نصًّا يحرم على الفتيات والفتيان أن يجتمعوا في حلقات الدرس حول أستاذ يعلمهم العلم والأدب والفن»[1].

ولأن الدكتور أكد على أنه لا يعرف في القرآن والسُّنَّة نصًّا يحرم على الفتيات والفتيان أن يجتمعوا في حلقات الدرس أسوق رأي الفقهاء في هذه النقطة على الخصوص.

[جاء في «المفصل في أحكام المرأة» ما نصه: هل يباح الاختلاط لغرض التعليم، فتجلس الإناث مع الذكور في غرفة واحدة لتلقي الدرس، كما يجري الآن في الكليات؟ أم لا بد من الفصل بين الذكور والإناث وتعليم كل صنف على حدة، في غرفة مستقلة به؟

والجواب: لا بد من الفصل وتعليم النساء على حدة، وتعليم الرجال على حدة، والدليل على ذلك الحديث الذي أخرجه الإمام البخاري عن أبي سعيد الخدري قال: قالت النساء للنبي ﷺ: غلبنا عليك الرجال فاجعل لنا يومًا من نفسك. فوعدهن يومًا لقيهن فيه، فوعظهن وأمرهن، فكان مما قاله لهن: «**ما منكن امرأة تقدم ثلاثة من ولدها إلا كانوا لها حجابًا من النار**، فقالت امرأة: واثنين؟ قال: واثنين»[2]، ومعنى: «غلبنا عليك الرجال» أن الرجال يلازمونك كل الأيام ويسمعون العلم وأمور الدين، ونحن نساء ضعفة لا نقدر على

---

(١) نشر هذا الرد في جريدة «المصري» يوم الأربعاء ٣ من ذي الحجة سنة ١٣٥٥هـ الموافق ١٣ مارس سنة ١٩٣٧م. نقلاً عن وثائق قضايا طه حسين ١/٣٠٣، ٣٠٤.

(٢) سبق تخريجه.

مزاحمتهم، فاجعل لنا ـ أي: عيِّن لنا ـ يومًا من الأيام نسمع ونتعلم أمور الدين.

ويستنبط من هذا الحديث ـ كما قال الإمام العيني ـ [1]: «جواز سؤال النساء عن أمور دينهن وجواز كلامهن مع الرجال في ذلك وفيما لهن الحاجة إليه».

فهذا الحديث يدل على أن تعليم النساء يكون على حدة ووحدهن دون اختلاط بالرجال، إذ لو كان الاختلاط لسماع العلم وتعلم أمور الدين سائغًا، لما طلبن من النبي ﷺ أن يعين لهن يومًا خاصًا بهن يجتمع فيه بهن يعلمهن أمور الدين. وكذلك لو كان اختلاطهن بالرجال سائغًا لتعلم أمور الدين لما جعل لهن النبي ﷺ يومًا وحدهن عندما طلبن ذلك منه.

ويستفاد من الحديث أيضًا أنه لا يسوغ الاختلاط في التعليم عن طريق جعل النساء خلف الرجال كما هو جائز في الصلاة والله أعلم][2].

ويقول الشيخ جاد الحق[3] في هذا الموضوع أيضًا: (واختلاط

---

(١) العيني: هو الإمام بدر الدين العيني صاحب كتاب عمدة القاري بشرح صحيح البخاري توفي سنة ٨٥٥هـ. راجع: مناع القطان: مباحث في علوم الحديث، ص٣٤.

(٢) د. عبد الكريم زيدان، المفصل في أحكام المرأة ٣/٤٣١، ٤٣٢.

(٣) الشيخ جاد الحق علي جاد الحق من مواليد بطرة مركز طلخا بمحافظة الدقهلية سنة ١٩١٧م. نال العالمية من كلية الشريعة سنة ١٩٤٣م، ودخل تخصص القضاء الشرعي ونال إجازته سنة ١٩٤٥م، تدرج في العمل والوظائف حتى عين مفتيًا سنة ١٩٧٨م ثم وزيرًا للأوقاف سنة ١٩٨٢م ثم شيخًا للأزهر في نفس العام. جريدة الشروق جمادى الأولى ١٤٢٠هـ.

البنين والبنات بعد البلوغ أمر غير مشروع، بل يرقى إلى درجة المحظور سدًّا للذرائع إلى الفساد، لا سيما في سن المراهقة التي تتغلب فيها الرغبات الجامحة على العقل، وفي ظل انعدام الالتزام بآداب الإسلام في الملابس وفي الحديث والمخالطة)[1].

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

(١) الشيخ جاد الحق علي جاد الحق: حول اتفاقية القضاء على أشكال التميز ضد المرأة من المنظور الإسلامي ـ هدية مجلة الأزهر، شهر صفر سنة ١٤١٦هـ يوليو سنة ١٩٩٥م، ص٤٤.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

المبحث الثالث

طه حسين وقضية المساواة بين الرجل والمرأة

كما تحدث طه حسين عن التبرج وتبريره والاختلاط وتزينه، فقد خاض في قضية المساواة بين الرجل والمرأة، وتكلم فيها بألفاظ تشعر بالتأييد لمن ينادون بالمساواة المطلقة بين الرجل والمرأة.

ففي سياق حديثه عن بعض جهود المفكرين في معالجة قضايا المرأة قال ما نصه: (وقد برأناهن نحن من الضعف ورأينا فيهن لنا أمثالاً وأندادًا وأخذنا أنفسنا بأن نسير معهن سيرتنا مع أنفسنا إكبارًا لهن، واعترافًا بحقهن في هذه المساواة التي يحرصن عليها ولا نبخل بها نحن بها لأنا نراها حقًّا مقررًا لا معنى للمناقشة فيه)[1]، وأكبر الظن أن الدكتور لا يقصد بالمساواة التي يعترف بها للمرأة المساواة في الأحكام الشرعية ومنها التي تثبت بها الحقوق والواجبات فهذه يعترف بها القاصي والداني، ويعرفها كل من له صلة بشرائع الإسلام.

(فالمرأة كالرجل مكلفة بتكاليف الشريعة ومخاطبة بأحكامها، وإذا كان مناط التكليف والخطاب بأحكامها البلوغ والعقل، فإن المرأة

---

(١) د. رشيدة مهران: طه حسين بين السيرة والترجمة الذاتية، ص٧٤.

يتحقق فيها هذا المعنى كما يتحقق في الرجل وعلى هذا إذا بلغت الأنثى وكانت عاقلة صارت مكلفة بتكاليف الشريعة ومخاطبة بأحكامها، وثبتت لها الحقوق ووجبت عليها الواجبات التي تقررها هذه الأحكام، ثم إن خطابات الشارع وأحكامه الموجهة إلى الرجل موجهة كذلك للمرأة)[1].

لكن الذي يحدث للأسف أن بعض المترجلات من النساء يريد أن يشتط في طلب ما ليس له كمطالبة بعضهن بأن يتساوين مع الرجل في الميراث أو أن يباح لهن تعدد الأزواج كما يباح للرجل تعدد الزوجات أو أن تساوي شهادتها بشهادة الرجل أو أن يكون لها حق القوامة كما هو حق للرجل.

وفي المقابل يقوم بعض القساة من الرجال بظلم المرأة وهضم حقوقها.

«إن الذي يتدبر القرآن الكريم يحس المساواة العامة في الإنسانية بين الذكور والإناث، وأنه إذا أعطي الرجل حقًّا أكثر فلقاء واجب أثقل، لا لتفضيل طائش»[2].

«لما كان الرجل بعيدًا عن مشاغل الحيض والنفاس والحمل والرضاع كان أجلد على ملاقاة الصعاب، ومعاناة الحرف المختلفة، وكان الضرب في الأرض ابتغاء الرزق ألصق به هو، ومن ثم فقد كلفه الإسلام بالإنفاق على زوجته وعلى قرابته الإناث الفقيرات، وتبع ذلك

---

(١) د. عبد الكريم زيدان: المفصل في أحكام المرأة ١٧٥/٤ بتصرف يسير.

(٢) الشيخ محمد الغزالي: قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مهرجان القراءة للجميع، مكتبة الأسرة سنة ١٩٩٩م، ص٣٥.

أن نصيب المرأة في الميراث نصف نصيب الرجل غالبًا، لأنه المسؤول عن النفقة كما قدمنا، فهي إذا تزوجت أخذت منه المهر واستحقت عنده النفقة ومن الظلم أن تسوى معه في الميراث بعد تحميله هذه الواجبات»[1].

وقديمًا تمنت النساء أن ينلن مثال ما ينال الرجال أو يعطوا مثل ما أعطوا فأنزل الله عز وجل: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ۚ﴾[2] (روى الترمذي عن أم سلمة[3] أنها قالت: يغزو الرجال ولا يغزو النساء وإنما لنا نصف الميراث فأنزل الله: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ﴾... وقال قتادة[4]: كان الجاهلية لا يورثون النساء ولا الصبيان فلما وُرّثوا وجعل للذكر مثل حظ الأنثيين تمنى النساء أن لو جعل أنصباؤهن كأنصباء الرجال، وقال الرجال: إنا لنرجو أن نفضل على النساء بحسناتنا في الآخرة كما فضلنا عليهن في الميراث فنزلت: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ﴾)[5].

---

(١) محمد الغزالي: حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام وإعلان الأمم المتحدة: دار الدعوة، ط١، سنة ١٤١٣هـ، سنة ١٩٩٣م، ص١٢١.

(٢) سورة النساء، الآية: ٣٢.

(٣) أم سلمة بنت أبي أمية بن المغيرة القرشية المخزومية واسمها هند وكان أبوها يعرف بزاد الركب. زوج النبي ﷺ وكانت قبله عند أبي سلمة بن عبد الأسد المخزومي، هاجرت إلى الحبشة والمدينة. أسد الغابة ٣٥١/٦.

(٤) قتادة بن دعامة الدوسي. تابعي، كان ثقة مأمونًا حجة في الحديث روى عن أنس بن مالك والحسن البصري، كان يقول بشيء من القدر، توفي سنة ١١٨هـ أو سنة ١١٧هـ على خلاف. الطبقات الكبرى ٢٦٣/٥ وما بعدها.

(٥) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن ١٤٢/٥.

وعن أسماء بنت يزيد[1] الأنصارية من بني عبد الأشهل رسول النساء إلى النبي ﷺ أنها أتت النبي ﷺ وهو بين أصحابه فقالت: بأبي وأمي أنت يا رسول الله. أنا وافدة النساء إليك، إن الله عز وجل بعثك إلى الرجال والنساء كافة. فآمنا بك بإلهك، وإنا معشر النساء مقصورات، قواعد بيوتكم، ومفْضَى شهواتكم، وحاملات أولادكم وإنكم ـ معشر الرجال ـ فُضِّلتم علينا بالجُمع والجماعات، وعيادة المرضى، وشهود الجنائز، والحج بعد الحج، وأفضل من ذلك الجهاد في سبيل الله عز وجل، وإن الرجل إذا خرج حاجًّا أو معتمرًا أو مجاهدًا، حفظنا لكم أموالكم، وغزلنا أثوابكم، وربينا أولادكم. أفما نشارككم في هذا الأجر والخير؟

فالتفت النبي ﷺ إلى أصحابه بوجهه كله ثم قال:

«هل سمعتم مقالة امرأة قط أحسن من مساءلتها في أمر دينها من هذه؟».

فقالوا: يا رسول الله ما ظننا أن امرأة تهتدي إلى مثل هذا، فالتفت النبي ﷺ فقال: **«افهمي أيتها المرأة وأعلمي من خلفك من النساء أن حسن تبعل المرأة لزوجها وطلبها مرضاته، واتباعها موافقته، يعدل ذلك كله»** فانصرفت المرأة وهي تُهلِّل)[2].

---

(١) جعلها أحمد بن حنبل وأبو عمر ابن عبد البر هي وأسماء بنت يزيد بن السكن شخصية واحدة وميَّز بينهما أبو عبدالله بن منده وأبو نعيم الأصفهاني. ذكره ابن الأثير في أسد الغابة ١٩/٦.

(٢) ذكره ابن الأثير في أسد الغابة في ترجمة أسماء بنت يزيد الأنصارية ١٩/٦، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد بلفظ مقارب وعلق عليه بقوله: رواه البزار وفيه رِشدين بن كُريب وهو ضعيف. انظر: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ٥٦٠/٤، ٥٦١. وله أسانيد أخرى فيها ضعف عند البيهقي في: الشعب (٢٨٨٠)، وأبي نعيم: في معرفة الصحابة (٢٥٨٥)، وابن عساكر: تاريخ دمشق (٢٢٥٨)، (١٠٤١٢) وهو حسن بمجموع الطرق.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

المبحث الرابع

تقييم آراء طه حسين في قضايا المرأة

من خلال قراءتنا لآراء طه حسين في القضايا المشار إليها أستطيع القول: إن تلك الآراء جاءت موافقة لمخططات المبشرين الذين يكيدون للإسلام والذين رأوا في قضايا المرأة بابًا واسعًا ومرتعًا خصبًا لإثارة شبهاتهم، وسبيلاً ممهدة لتحقيق مخططاتهم.

(ففي سنة ١٨٩٤م أي: بعد الاحتلال الإنجليزي لمصر بحوالي اثنتي عشرة سنة ظهر في مصر كتاب أصدره صليبي حقود، أظهره محتميًا بالنفوذ البريطاني الذي أمَّن له الطريق نحو طعن الإسلام وأهله، ذلكم هو المحامي المصري (مرقص فهمي) وكتابه هو «المرأة في الشرق» دعا فيه صراحة، وللمرة الأولى في تاريخ المرأة المسلمة إلى تحقيق أهداف خمسة محددة، وهي:

أولاً: القضاء على الحجاب الإسلامي.

ثانيًا: إباحة اختلاط المرأة المسلمة بالأجانب عنها.

ثالثًا: تقييد الطلاق، وإيجاب وقوعه أمام القاضي.

رابعًا: منع الزواج بأكثر من واحد.

خامسًا: إباحة الزواج بين المسلمات والأقباط)[1].

ومن غير المنكور أن هذه الأفكار استقاها أصحابها من الغرب عن طريق الدراسة بجامعاته أو عن طريق المتابعة لأفكار الغرب وآثاره بقراءة كتبه ودورياته. وليس ينكر كذلك الدور الخطير الذي قام به المبعوثون للدراسة في أوروبا بعد عودتهم إلى بلادهم، إذ عمدوا على نقل ما رأوه وشاهدوه مما يمثل الجانب الاجتماعي للغرب إلى بلاد المسلمين.

فرجل مثل رفاعة الطهطاوي[2] (يمجد المسرح الفرنسي ويعجب به ويتكلم عن الطلاق الذي لا يتم عند الفرنسيين إلا أمام المحكمة بناءً على دعوى الفاحشة، كما يتكلم عن عاداتهم في اختلاط الرجال بالنساء وينفي أن يكون الاختلاط والتبرج داعيًا إلى الفساد أو دليلاً على التساهل في العرض ويؤكد أن السفور والاختلاط بين الجنسين ليس داعيًا إلى الفساد وأن مرد الأمر كله إلى التربية)[3].

وهذه الأفكار بذاتها هي التي رددها قاسم أمين ـ الذي درس في فرنسا أيضًا ـ في كتابيه «تحرير المرأة، والمرأة الجديدة». خاصة الكتاب

---

(١) محمد بن أحمد إسماعيل المقدم: عودة الحجاب، دار العقيدة مصر، ط١٤، سنة ١٤٢٠هـ، ٢٨/١، ٢٩ بتصرف، أنور الجندي: حركة تحرير المرأة في ميزان الإسلام، دار الأنصار سلسلة على طريق الأصالة الإسلامية عدد ١٥، ص٢٦.

(٢) سبقت ترجمته، ص٤٩.

(٣) د. عبد الفتاح بركة: دور الاستشراق في تغريب المرأة المسلمة، هدية مجلة الأزهر، المحرم ١٤٠٦، ص٤٦، ٤٧.

الأول الذي يزعم البعض أنه من تأليف الإمام محمد عبده[1].

وذلك لما عرف عن قاسم بأنه ليس له إلمام بالعلوم الإسلامية بحيث يتمكن من إضفاء الصبغة الفقهية على كتابه، لكن بعض الباحثين[2] «رجح أن الأفكار إنما كانت للشيخ وأن الإنشاء والصياغة إنما كانت صنيع قاسم، والمعروف عن الشيخ محمد عبده أنه كان يملي الأفكار ويوجه إليها أكثر مما يكتب»[3]. ولو صح هذا الكلام فإنه لا يستبعد أن يكون لذلك المؤثرين ـ الدراسة في فرنسا والتأثر بفكر الإمام محمد عبده ـ أثر في تكوين فكر الدكتور طه حسين فيما يتعلق بقضايا المرأة، فقد تأثر الدكتور طه بالأستاذ الإمام في أيام الطلب الأولى حين استمع إلى دروسه بالأزهر وحين كان يقرأ آثاره في الإجازات الصيفية. أما أثر دراسته في فرنسا فواضح غير منكور ولا أدل. على ذلك من أن طه كان يرى حرمة زواج المسلم من الكتابية فلما ذهب إلى فرنسا لم يكتف بتغيير رأيه حتى ضم إلى القول العمل فتزوج بزوجته النصرانية سوزان!!

رأي المستشرقين في قضايا المرأة:

اختلفت آراء المستشرقين في قضايا المرأة حسب توجهاتهم ومنطلقاتهم، فرجل مثل غوستاف لوبون عقد فصلاً في كتابه حضارة

---

(١) ممن قال ذلك: داود بركات رئيس تحرير الأهرام بجريدته الصادرة في ٤ يناير سنة ١٩٢٨.

(٢) هو الدكتور السيد محمد فرج.

(٣) محمد بن إسماعيل المقدم: عودة الحجاب ٤٧/١ نقلاً عن «المؤامرة على الأسرة المسلمة» للدكتور السيد محمد فرج، ص٧٦، ٧٧.

العرب سماه «المرأة في الشرق»[1] كان رائده الحق والإنصاف في كتابته فمدح الإسلام في نظرته للمرأة فكان من كلامه المجمل بعد أن ذكر قضايا المرأة بإسهاب وإعجاب:

«وهنا نستطيع أن نكرر، إذن قولنا: إن الإسلام، الذي رفع المرأة كثيرًا، بعيدٌ من خفضها، ولم نكن أول من دافع عن هذا الرأي فقد سبقنا إلى مثله كوسان دوبرسفال[2] ثم مسيو بارتيلمى سانت هيلر[3]، ولم يقتصر فضل الإسلام على رفع شأن المرأة، بل نضيف إلى هذا أنه أول دين فعل ذلك، ويسهل إثبات هذا ببياننا أن جميع الأديان والأمم التي جاءت قبل العرب أساءت إلى المرأة»[4].

على حين نجد رجلاً مثل «غوستاف فون جرونيباوم» ـ المعروف بحقده على الإسلام والذي صنفه بعض الباحثين[5] على أنه من المتطرفين من المستشرقين ـ يحاول أن يظهر بمظهر الإنصاف فيخلط الحق بالباطل ويقع في شيء من الاضطراب والتخبط، فمن أقواله في هذا الشأن:

---

(١) جاء هذا الفصل في الصفحات (٣٩٧ ـ ٤١٥).

(٢) كوسين دوبرسفال، جان جاك (١٧٥٩ ـ ١٨٣٥) فرنسي درس في معهد فرنسا وعين أستاذًا للعربية فيه سنة ١٧٨٤ ثم انتدب أمينًا للمخطوطات العربية في دار الكتب الملكية من (١٧٨٧ ـ ١٧٩٠) وانتخب عضوًا في مجمع الكتابات والآداب (١٨١٦)، العقيقي. المستشرقون ١/١٦٥.

(٣) بارتيلمي سانت هيلر (١٨٠٥ ـ ١٨٩٥) فرنسي، وهو كاتب سياسي بحث أديان الشرق في كتب بديعة، منها: محمد والقرآن (١٨٦٥)، بوذا الهندي (١٨٥٩)، العقيقي: المستشرقون ١/١٨٣.

(٤) غوستاف لوبون: حضارة العرب، ص٤٠٤ ـ ٤٠٦.

(٥) الدكتور محمد البهي في كتابه الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، ص٤٤٩.

[وقد سمح محمد ﷺ للنساء بحرية التصرف في أموالهن كما أنه حسَّن مركزهن من ناحية الميراث، ولكنه لم يقض على ذلك الاتجاه العام الذي كان ينزل النساء منزلة ثانوية في تقدير المجتمع ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ (أعني مهورهن)[1]، ﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾[2] ولا يزال المبدأ القائل بتفوق الذكور الطبيعي ـ والذي يتخذ مبررًا لامتيازاتهم القانونية والاجتماعية ـ معمولاً به في بلاد الإسلام إلى هذه الساعة حيث لا تبرح الحرية المفرطة للمرأة موضع التخوف والريبة، وحيث لا يقر الإجماع إلا بغاية البطء تمثل العرف الأوروبي من الناحية السطحية فقط دون إدخال أي تغيير كبير على الاتجاهات الأساسية، التي تنظم العلاقة بين الجنسين عامة ومركز المرأة الاجتماعي بوجه خاص.

. . . . وعند ابتداء عهد هارون الرشيد كان قد تم حجب المرأة عن الحياة العامة والاجتماعية فلم يعد يجوز أن يرى المرأة الحرة إلا زوجها وأقاربها الأقربون من المحارم. وعلى حين أن هذا الحجاب قد أدى فيما يرجح إلى تسهيل الاختلاط بين الطبقات، فإنه أعجف الحياة الاجتماعية إلى درجة جديرة بالنظر، كما تولد عنه أيضًا نشوء أحوال قوية المشابهة لما كان يسود العهود العهيدة من حيث إن الرجل المتعلم

---

(١) تفسير المستشرق قوله تعالى: ﴿وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ بالمهور تحكم لا يستقيم فالآية أعم من ذلك فهي تشمل المهور والنفقات التي تتطلبها القوامة.

(٢) سورة النساء، الآية: ٣٤.

كان يشرك في مهتماته ومسراته الذهنية طائفة من النساء منفصلة انفصالاً تامًّا عن أولئك اللواتي كان يشاطرهن حياته العائلية][1].

فكلام المستشرق آنف الذكر مفعم بالأخطاء الكثيرة فهو بعد أن يقرر أن الإسلام جعل للمرأة ذمة مالية خاصة[2]، وأن الإسلام حسّن مركزها من ناحية الميراث (!!) ولا أدري لماذا استخدم لفظ التحسين أهو نوع من الخداع ليوهم قراءه أنه قصد الإنصاف؟ وما فعل! فإذا كان الإسلام قد حسَّن فقط مركز المرأة في الميراث فماذا كان فعل الشرائع الوضعية أو فعل أتباع الديانات السماوية من قبله.

(وما الذي جاءت به القرون بعد القرون من زيادة للمرأة على نصيبها من عدل الإسلام؟

خير ما لها في الإسلام لم يدركه خير ما لها في العصر الحديث، وشر ما يصيبها من الإسلام ـ إن جاز القول بهذا ـ رحمة ونعمة بالقياس إلى الشر الذي يسلمها العصر الحديث إليه، ولا تزال فضائل العصر الحديث في حاضرها ومآلها دعوى لم يؤيدها ثبوت من حوادث الواقع ولا من مبادئ النظر.

فأما حوادث الواقع فشكوى المرأة منها في بيتها وفي دنياها كأسوأ ما كانت في عهد من العهود، وأما مبادئ النظر فلا خير للمرأة أن تكون على مبدأ القرون الوسطى شيطانًا يسلم الإنسان ما سلم منه،

---

(١) غوستاف فون جرونيباوم: حضارة الإسلام، ص٢٢٤، ٢٢٥ بتصرف.

(٢) يضيف المستشرق عمل الشارع إلى رسول الله وما أدري أقصد من ذلك القول ببشرية الوحي أم قصد المجاز باعتبار الرسول ﷺ المبلغ عن الله.

ولا خير لها أن تكون على مبدأ الفروسية الكاذبة ملكًا في مباذل السوقة)[1].

بعد هذا الغمز القبيح يردد مزاعم كاذبة وخيالات مريضة فيذكر أن القرآن يقرر أن مكانة المرأة ثانوية ويدلل على ذلك بآية من القرآن لا تؤيد دعواه. ثم هو يحاكم الإسلام بفعل المسلمين بأنهم يفضلون الذكور على الإناث[2].

ثم يتحدث عن حرية المرأة المفرطة في الغرب وتخوف العرب والمسلمين منها؛ وكأنها حق يجب التزامه وخير لا يجب الانصراف عنه، ثم ينعى على بلاد الإسلام تباطئها في تقبل العرف الأوروبي.

أما اضطرابه في أمر الحجاب فأعجب من العجب، فيدعي أن الحجاب صان المرأة عن غير محارمها ثم يدعي أن الحجاب سهل الاختلاط بين الطبقات وأنه أعجف الحياة الاجتماعية فأي فكر مضطرب يحمله هذا الرجل.

ومن هنا نستطيع القول بأن آراء الدكتور طه حسين في قضايا المرأة تسير في ركاب أفكار المتطرفين من المستشرقين وتتسق معها على حين أن نفرًا من المستشرقين أنصفوا الإسلام في نظرته للمرأة مع مخالفتهم له في المعتقد.

شهد الأنام بفضله حتى العدا والفضل ما شهدت به الأعداء

---

(١) عباس محمود العقاد: حقائق الإسلام وأباطيل خصومه. الهيئة المصرية العامة للكتاب، مكتبة الأسرة سنة ١٩٩٩م، ص١٣٩.

(٢) أصدق ما يقال تعقيبًا على هذا: رمتني بدائها وانسلت.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الفصل العاشر

طه حسين والحضارات

ويحتوي على تمهيد وثلاثة مباحث:

التمهيد:

المبحث الأول: طه حسين والحضارة الغربية.

المبحث الثاني: طه حسين والحضارة المصرية القديمة.

المبحث الثالث: طه حسين والحضارة الإسلامية.

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

طه حسين والحضارات

تمهيد

قبل الخوض في حديث الدكتور طه حسين عن الحضارات المختلفة يجدر بنا أن نقف على المعنى اللغوي والاصطلاحي للحضارة.

[ولكن قبل الدخول في تعريف الحضارة هناك قضيتان:

١ ـ أجد في بعض التعاريف نوعًا من الرغبة في الإكثار والتعدد لدرجة كبيرة، فالدولة مثلاً، وهي مؤسسة قد يزيد اليوم عمرها عن سبعة آلاف عام، نجد لها أكثر من (١٤٥) تعريفًا، وفي الحضارة نجد أكثر من (١٦٥) تعريفًا، وهذه الكثرة الكاثرة أمر بات معروفًا يصعب قبوله.

٢ ـ لدينا في اللغة العربية عدة مصطلحات متقاربة، مثل:

حضارة، وثقافة ومدنية، يقابلها في الإنجليزية على سبيل المثال (civilization - Culture) والذين اشتغلوا بالترجمة لم يلتزموا نمطًا واحدًا، فمرة ترجموا (Culture) بالثقافة ومرة بالحضارة وفعلوا ذات الشيء في

(civilization) فمرة ترجمت بالثقافة ومرة بالحضارة، وهكذا][1].

والالتباس المؤدي إلى الحيرة والاختلاف مرده إلى الخلاف حول دلالات المصطلح.. (فقضية المصطلح تكاد تكون من أدق القضايا في عصرنا فالمصطلح كما هو معروف هو مفتاح العلم والثقافة... وبدون القدرة على استيعاب المصطلحات وتوليدها وفهمها لا يمكن استقرار علم ولا فهم)[2].

ولكي نمضي مع البحث بترتيبه الطبيعي أبدأ بتعريف الحضارة في اللغة.

الحضارة في اللغة:

تأتي الحضارة على عدة معانٍ[3]:

أ ـ يقال: حضر يحضر حضورًا وحضارة: ضد الغياب.

ب ـ يقال: حكمت فلانًا بحضرة فلان، أي: بوجوده، كما يقال: كان بحضرة ماء، أي: عنده.

جـ ـ يشيع اليوم لفلان حضور متميز، أي: وجود متميز.

كما يقال: رجل حاضر وقوم حضور، وحُضر: ضد الغياب.

د ـ الحضارة: الإقامة في الحضر، أي: المدن. وقد أنشد

---

(١) د. نعمان عبد الرزاق السامرائي: نحن والحضارة والشهود، سلسلة كتاب الأمة القطرية العدد ٨٠ ذو القعدة سنة ١٤٢١هـ ٦١/١.

(٢) سعيد شبار: المصطلح خيار لغوي... وسمة حضارية، سلسلة كتاب الأمة القطرية العدد ٧٨ رجب سنة ١٤٢١هـ، ص٢٩.

(٣) ابن منظور: لسان العرب ١٩٦/٤، المعجم الوجيز، ص١٥٧، ومختار الصحاح، ص١٤١، ١٤٢.

القطامي[1]:

فمن تكن الحضارة أعجبته فأي رجال بادية ترانا

كما أنشد أبو الطيب[2]:

حسن الحضارة مجلوب بتطرية ومن البداوة حسن غير مجلوب

الحضارة اصطلاحًا:

(الحضارة في الاصطلاح يعود أصلها الغربي إلى المدينة، وهنا يطابق الأصل العربي (الحاضرة) بمعنى المدينة، والمتحضر ساكن الحضر، وشاع في العربية: سكان الحواضر، وأهل الحواضر في مقابل البادية وأهل البادية، لكن الاستعمال الغربي للحضارة لم يتبلور قبل القرن الثامن عشر)[3].

ونظرًا لأن هناك خلطًا بين الثقافة والحضارة كان لا بد من بيان المراد بكل منهما وبيان العلاقة التي تربط بينهما.

(الثقافة في أدنى مستوياتها هي مجموع الاستجابات والمواقف التي يواجه بها شعب من الشعوب - بحسب عبقريته - ضرورات وجوده الطبيعي من مأكل وملبس وتناسل.

---

(١) القطامي: عمير بن شييم بن عمرو بن عباد من بني جشم بن بكر التغلبي الملقب بالقطامي (أبو سعيد) شاعر، كان من نصارى تغلب في العراق وأسلم. من آثاره: ديوان شعر، توفي عام ١٣٠هـ. معجم المؤلفين ٥٨٦/٢.

(٢) أبو الطيب المتنبي: (٣٠٣ - ٣٥٤هـ/٩١٥ - ٩٦٥م) أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبد الصمد الجعفي، الكوفي المعروف بالمتنبي (أبو الطيب) شاعر، حكيم، ولد بالكوفة فاق أهل عصره في الشعر، من آثاره: ديوان شعر. معجم المؤلفين ١٢٦/١.

(٣) د. نعمان عبد الرزاق السامرائي: نحن والحضارة والشهود ٦٢/١.

أما على المستوى الأرفع فإن للثقافة أوجهًا ثلاثة، هي:

تنمية الفكر وترقية الحس النقدي، تكوين الحس الجمالي وإرهاف الذوق، الاستمساك بالقيم وغرس الحس الأخلاقي.

وإذا كان مفهوم الثقافة ينزع إلى الخصوصية فإن الحضارة تنزع إلى العمومية.

فالثقافة هي الحضارة الخاصة بأمة من الأمم لا يشاركها في شأنها أحد، تحمل صبغة هذه الأمة، وتتسم بسماتها، ووراء كل حضارة دين وقد تصب عدة ثقافات في نهر حضارة واحدة)[١].

«ومن هنا عرفوا الحضارة بأنها تراث مشترك يجمع بين جميع الشعوب، قديمها وحديثها، وأنها إرث إنساني، في نمو لا ينقطع، مثل بحر زاخر بالمياه والأمواج، وله روافد عديدة تصب فيه على الدوام، تلك الروافد هي الثقافات القومية»[٢].

لكن بعض المثقفين (يجعل من المصطلحين (culture - civilization) مترادفين كما لدى تايلور[٣]؛ وهناك من جعل Civilization قاصرًا على

---

(١) د. أحمد طالب الإبراهيمي: حوار الحضارات، بحث ضمن كتاب الإسلام والغرب كتاب العربي رقم ٤٩ يوليو سنة ٢٠٠٢، ص١١٦.

(٢) د. نعمان السامرائي: نحن والحضارة والشهود، ص٦٨.

(٣) تايلور توم (١٨١٧ ـ ١٨٨٠) ناشر وكاتب مسرحي إنجليزي أشهر مسرحياته ابن عمنا الأمريكي ١٨٥٨ التي مثلت على مسرح فورد بواشنطن عندما اغتيل لنكولن، ومن مسرحياته الأخرى التي تربو على المائة «تذكرة المسافر ١٨٦٣»، «وجوه وأقنعة ١٨٢٢» التي كتبها مع صديقة تشارلس ريد. الموسوعة العربية الميسرة ٦٦٩/٢.

التقدم المادي مثل الألمان... وهناك من يجعله شاملاً لكل أبعاد التقدم مثل الفرنسيين... وفريق ثالث يحصر التقدم بما هو خاص بالفرد، ورابع يجعله شاملاً للفرد والجماعة... وهناك فريق خامس حاول أن يجعل من مصطلح (civilization) مفهومًا عالميًّا، أي: هناك حضارة واحدة، تساهم المجتمعات فيها كل بنصيب ـ كما قدمنا ـ.

ـ أما الثقافة فهي خاصة بكل شعب وهناك فريق سادس يعكس القضية فيجعل الثقافة عامة والحضارة خاصة)[1].

ولئن كان الأوروبيون في تعريفهم للحضارة قد حصروها في مشتملاتها من معتقدات وفنون وآداب وقوانين وعادات يكتسبها الإنسان بصفته عضوًا في مجتمعه فإن لها في التصور الإسلامي تعريفًا أقوم وأهدى.

الحضارة في المنظور الإسلامي:

الحضارة في المنظور الإسلامي: [هي الحضور والشهادة بجميع معانيها، التي ينتج عنها نموذج إنساني، يستبطن قيم التوحيد والربوبية وينطلق منها كبعد غيبي، يتعلق بواحدنية خالق الكون، وواضع نواميسه وسننه والمتحكم في تسييره، ومن ثم فإن دور الإنسان ورسالته هي في تحقيق الخلافة عن خالق هذا الكون في تعمير أرضه وتحسينها، وتزجية معاش الناس فيها، وتحقيق تمام التمكين عليها والانتفاع بميزاتها، وحسن التعامل مع المسخرات في الكون، وبناء علاقة سلام معها، لأنها مخلوقات تسبح الله، أو رزق لا بد من حفظه وصيانته. كذلك

(١) المرجع السابق، ص٦٦، ٦٧ بتصرف.

إقامة علاقة مع بني الإنسان، في كل مكان على ظهر الأرض، أساسها الأخوة والألفة، وحب الخير والدعوة إلى سعادة الدنيا والآخرة][1].

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

(١) المرجع السابق، ص٧٢.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

المبحث الأول

طه حسين والحضارة الغربية

كانت قراءات طه حسين الصيفية وهو في مراحل الطلب الأولى بمثابة النافذة الأولى على الثقافة الغربية إذ اطلع على بعض الكتب والقصص المترجم.

وكانت اختلافه إلى الجامعة المصرية واختلاطه بطائفة «المطربشين» كما أسماها خطوة ثانية في سبيل افتتان طه حسين بأوروبا والحضارة الأوروبية. . . [فقد ألقى الشيخ عبد العزيز جاويش في روعه فكرة السفر إلى أوروبا وإلى فرنسا خاصة. . . . والغريب أن هذه الفكرة مازجت نفسه، وأصبحت جزءًا من حياته، وجعلته ينظر إليها لا على أنها حلم يداعبه نائم أو يقظان. بل على أنها حقيقة يجب أن تكون][1].

[وتظهر لنا انهزامية طه حسين الفكرية والنفسية واضحة جلية أمام صاحبه الأديب الذي صار عضوًا في البعثة إلى أوروبا، وصاحبه متزوج بامرأة وفيّة، وأنه لن يقاوم الحياة الأوروبية وآثارها في نفسه كما ينبغي

(١) طه حسين: الأيام ٤٧/٣ بتصرف.

للرجل الوفي لزوجه أن يقاومها، ولذلك سوف ينغمس في الخطايا، وهو يبيح لنفسه أن يكذب على الجامعة، ولكنه لا يبيح لنفسه أن يكذب على امرأته كذبًا متصلاً، فيزعم لها أنه وفي أمين، فيجيبه طه حسين وقد اضطرب قلبه وأخذه غضب عميق لا يكاد يجهر به ولا يكاد يخفيه: أنت تعلم أنك ستأثم في أوروبا ثم تقدم مع ذلك على السفر إليها، وتشتد في هذا السفر، فأنت إذن تريد الإثم وتتعمد الخطيئة وتصر على المعصية.

ولكن كلمة المعصية هذه لم تكد تبلغ أذنيه ـ يعني صديقه ـ حتى جن جنونه واندفع في ضحك عريض يقول طه: وأنا واجم ذاهل مبهوت أسأل نفسي أول الأمر عن هذا الخبل الذي مسه ثم تثوب إليَّ نفسي قليلاً قليلاً، وإذا أنا أحس العمامة التي على رأسي وأحس الجبة والقفطان اللذين أسبغا على جسمي إسباغًا، وأذكر أني شيخ وأني أزهري، وأني تحدثت إلى صاحبي حديث رجل الدين، وأن صاحبي يسخر مني ويهزأ بي ويردني إلى مكاني الأول، ويرى أن أمله فيّ قد خاب، وأن اختلافي إلى الجامعة واستماعي للأساتذة الأوروبيين وتحدثي إليه واستماعي منه، وما قرأنا من كتب أوروبية وما كنت أتكلف من التجديد والخروج على الأزهر والأزهريين والتنكر له ولهم، وما كنت أرمي به من المروق وحب البدع وما كنت أجد اللذة حين أحس أن الناس يرون في المروق وحب البدع جديدًا كل هذا لم يكن إلا غشاءً رقيقًا وطلاء يسيرًا لا يكاد يثبت للتجربة الأولى، فإذا جد الجد، وكان أول درس من دروس الحياة العملية التي ليست كلامًا ولا غرورًا، فأنا الشيخ الأزهري القح الذي حفظ ما حفظ من كتب الدين وورث ما ورث من آثار القرون، واحتمل في قلبه الضئيل، وعلى كتفيه

الصغيرتين ثقل السنين التي توارثها الأجيال أثناء ثلاثة عشر قرنًا.

أأقول الحق أم أخفيه؟ وما لي لا أصطنع الشجاعة ولا أحمل نفسي على بعض ما تكره... لقد استحييت من صاحبي واستحييت حتى انتهيت إلى الخزي وأحسست كأن رأسي ذاب في عمامتي وكأن هذه العمامة لم تكن تستقر على شيء، وأخذت أتضاءل في جبتي وقفطاني حتى خيّل إلي أنهما يستقران على هذا الكرسي لا يملؤهما شيء][1].

ولما كان هذا الزي الأزهري يذكره ويحثه على أن يأخذ نفسه بمسلك أهله من استقامة الرأي واعتداله حرص طه أن يزيح عن نفسه هذا الرداء في أقرب فرصة.

ولذا لما تهيأت له أسباب السفر (وصعد الفتى ـ طه ـ إلى «أصبهان» يتعثر في جبته وقفطانه.. ولم يكد يبلغ غرفته في الدرجة الثانية ويسمع الجرس المؤذن بقرب إقلاع السفينة حتى خرج من جبته وقفطانه وتخفف من عمامته ودخل في الزي الأوروبي)[2].

تنازل عن زيه الأزهري ولما يغادر مصر بعد، وهو الذي طالما أهاب بالشرقيين ألا يبدلوا زيهم الشرقي بالزي الأوروبي ففي مقال له بجريدة «الجريدة» يقول:

(مخطىء كل الخطأ صاحب الزي الشرقي الجميل يستبدله بالزي الغربي مرضاة لهوى كاذب وشهوة خادعة. إن للشرق زيًا تدعو إليه

---

(١) د. عبد المجيد المحتسب: طه حسين مفكرًا، ص٦٦، ٦٧، طه حسين: أديب، ص٨٨، ٨٩.

(٢) طه حسين: الأيام ٧٦/٣.

طبيعته وللغرب زيًا يقتضيه جوه وإقليمه، فليس تبديل الزي الشرقي بالزي الغربي في الشرق صادرًا إلا عن نفس مرتبكة مختلطة ومزاج غير منتظم)[1].

وفي مقال آخر[2] يقول:

(قَلَّ بين أبناء مصر الذين يتعلمون في أوروبا أو يصطافون بها - وهم كثيرون - من يستبقي على رأسه العمامة فإلى هؤلاء المصريين الذين سيقرأون كلمتنا في أوروبا نتقدم بالنصيحة الخالصة ألا يبيعوا كرامتهم بثمن بخس وألا يبلغ الضعف في نفوسهم هذا القدر المخجل).

يسافر إلى فرنسا ويختلف إلى جامعاتها ومعاهدها ويستمع إلى أساتذتها ثم (يوازن بين حياته هذه الجديدة وبين حياته القديمة ويقيس ما بينهما من الفرق العظيم فيرى نفسه أسعد الناس وأعظمهم حظًا من النجاح والتوفيق)[3].

ويمكث طه عامًا في فرنسا ثم يرد إلى مصر لأزمة مالية ألمت بالجامعة فيمكث في مصر قرابة أربعة أشهر كانت شديدة القسوة عليه كأنها أربعة قرون.

سجل طه مشاعره في هذه الفترة في شبه يوميات نشرتها مجلة السفور نورد طرفًا منها لنصور أسفه وحزنه على رجوعه إلى مصر يقول:

---

(١) الجريدة في ١٩١٠/١٠/٣٠م.
(٢) الجريدة في ١٩١٠/١١/٢م.
(٣) طه حسين: الأيام ٣/٨٠.

(ليس لي ماضي أنعم بذكره، ولا مستقبل ألهو بالتفكير فيه، ولكن لي حاضرًا يهيج في قلبي ألوانًا من الحزن، ويغري بنفسي فنونًا من الأسى ذلك الحاضر هو هذه الساعة، أذكر في هذه الساعة ثلاثة أيام يوم ولدت، ويوم سافرت إلى أوروبا، وهذا اليوم... في مثل هذا اليوم ولدت منذ ست وعشرين سنة، وفي مثل هذا اليوم سافرت إلى أوروبا منذ سنة واحدة، وأنا الليلة في القاهرة أرجو ألا يصبح علي الغد إلا وقد رحلت إلى حيث لا يرجع ظاعن ولا يرجى لمرتحل إياب. لا تصبح أيها الليل عن هذا الغد... تلك الأشهر التي أمضيتها في فرنسا هي التي جعلت ليوم ميلادي في نفسي قيمة ما)[1].

وفي مقالة أخرى[2] يقول: (ما أكثر ما زار الناس أوروبا وما أكثر ما سعدوا بزيارتها وشقوا بفراقها، ولكن ما أسرع ما تسلوا عنها وعادوا من حياتهم القديمة إلى ما كانوا فيه غير ضجرين، ولا والهين، ولكني أقسم ما تطاولت الأيام على أوبتي إلا أذكى تطاولها في نفسي اللوعة والحسرة وضاعف في قلبي الهم والأسى).

وخلال دراسة طه حسين بأوروبا اتصل اتصالاً وثيقًا بالثقافة اليونانية واللاتينية الأمر الذي كان له تأثير كبير في حياته الثقافية والعملية.

---

(١) السفور الصادرة في ١٤ نوفمبر سنة ١٩١٦م. نقلاً عن: أنور الجندي: صفحات مجهولة من حياة طه حسين (بحث ضمن كتاب: طه حسين كما يعرفه كتاب عصره)، ص٥٩، ٦٠.

(٢) السفور الصادرة في ٢٤ نوفمبر سنة ١٩١٥م نقلاً عن أنور الجندي: المصدر السابق، ص٦٠.

طه حسين والحضارة اليونانية:

استطاع طه حسين أن يدرس الكثير من آثار اليونان إبان دراسته بأوروبا، الأمر الذي أثر في فكره وفي وجدانه، حتى أنه كان ينظر إلى اليونان على أنهم آباء الحضارة الحديثة، وآباء عهد النهضة الأوروبية فكان يقول: «لا أستطيع أن أخطف سارتر[1] خطفًا من جذوره، إذا ابتغيت لوطني أن ينهض ويلحق بركب الحضارة، عليَّ أن أقوده إلى جذور النهضة العالمية الحاضرة. القائلون بالتراث في بلادنا ينسون أو يتناسون اليونان، بذلك هم يجهلون أو يتجاهلون، والنتيجة سواء، أن الحضارة العربية الإسلامية في أزهى عصورها نقلت اليونان»[2].

ولذا استأثرت الثقافة اليونانية بالجانب الأكبر من إنتاجه بعد عودته من أوروبا، ومما ساعده على هذا التوجه عمله بالتدريس في الجامعة القديمة أستاذًا للتاريخ اليوناني والروماني.

«وقد اعتقد طه حسين أن نظرية المعرفة اليونانية، التي قامت عليها حضارة قوية في الزمن القديم لا تزال تقوم عليها حضارة قوية في أوروبا وأمريكا في العصر الحديث، بل يذهب إلى أن نظرية المعرفة اليونانية هي مصدر الحياة العقلية التي لا تزال الإنسانية متاثرة بها إلى اليوم وإلى غد وإلى آخر الدهر، وأن قادة الفكر اليوناني واللاتيني الذين ترجم لهم يلخصون تاريخ العقل الإنساني وما اعترضه من

---

(١) ساتر: هو جان بول سارتر. فيلسوف فرنسي من كبار الدعاة إلى الوجودية. ولد سنة ١٩٠٥م حاضر في جامعة القاهرة في نهاية العقد السابع من القرن الماضي توفي سنة ١٩٨٣م. راجع: د. مصطفى غلوش: الوجودية في الميزان: رسالة الإمام، وزارة الأوقاف عدد ٤ سنة ١٩٨٥، ص٥٣.

(٢) نقلاً عن د. عبد المجيد المحتسب: طه حسين مفكرًا، ص١٧٠.

ضروب التطور وألوان الاستحالة والرقي حتى انتهى إلى حيث هو الآن»[١].

ويذهب طه حسين إلى أن أشد الشعوب تأثرًا بالعقل المصري أولاً وتأثيرًا فيه بعد ذلك هو العقل اليوناني[٢].

يقول طه مصورًا هذه العلاقة (فلما كان فتح الإسكندر[٣] للبلاد الشرقية واستقرار حلفائه في هذه البلاد، اشتد اتصال الشرق بحضارة اليونان واشتد اتصال مصر بهذه الحضارة بنوع خاص، وأصبحت مصر دولة يونانية أو كاليونانية، وأصبحت الإسكندرية عاصمة من عواصم اليونان الكبرى في الأرض، ومصدرًا من مصادر الثقافة اليونانية للعالم القديم)[٤].

هذا الكلام السابق جاء إجابة على سؤال قدمه طه حسين نصه: (هل العقل المصري شرقي التصور والإدراك والفهم والحكم على الأشياء أم هل هو غربي التصور والإدراك والفهم والحكم على الأشياء؟ وبعبارة موجزة جلية: أيهما أيسر على العقل المصري: أن يفهم الرجل الصيني أو الياباني، أو أن يفهم الرجل الفرنسي أو الإنجليزي)[٥] وعلى ضوء الإجابة السابقة انتهى إلى حكم نهائي (أنه مهما نبحث ومهما نستقص فلن نجد ما يحملنا على أن بين العقل الأوروبي - الذي قام

---

(١) د. كمال حامد مغيث: طه حسين ومصادره الفكرية، ص٤٥.

(٢) المرجع السابق، ص٤٦.

(٣) الإسكندر المقدوني من أصل إغريقي كانت له غزوات حربية في بلاد الشرق مات سنة ٣٢٤م. راجع: و.ج. دي بورج: تراث العالم القديم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مكتبة الأسرة سنة ١٩٩٩، ص٢١٠.

(٤) طه حسين: مستقبل الثقافة في مصر، ص٢٩.

(٥) مستقبل الثقافة، ص١٧.

على التراث اليوناني ـ والعقل المصري فرقًا جوهريًا)[1].

ولذا يعلن طه بكل صراحة أنه (مؤمن بأن مصر الجديدة لن تبتكر ابتكارًا، ولن تخترع اختراعًا، ولن تقوم إلا على مصر القديمة الخالدة)[2] وحتى لا تلتبس الأمور على الأفهام أو يفهم الناس فهمًا لم يقصده ولم يرد إليه أبان عن قصده بوضوح وفي غير التواء ولا مواربة فقال:

«لكن السبيل إلى ذلك ليست في الكلام يرسل إرسالاً، ولا في المظاهر الكاذبة والأوضاع الملفقة، وإنما هي واضحة بينة مستقيمة ليس فيها عوج ولا التواء، وهي واحدة فذة ليس لها تعدد وهي: أن نسير سيرة الأوروبيين ونسلك طريقهم لنكون لهم أندادًا، ونكون لهم شركاء في الحضارة، خيرها وشرها، حلوها ومرها، وما يحب منها وما يكره وما يحمد منها وما يعاب، من زعم لنا غير ذلك، فهو خادع أو مخدوع»[3].

ويعلل طه هذا التوجه بأننا [مدفوعون إلى الحياة الحديثة دفعًا عنيفًا تدفعنا إليها عقولنا وطبائعنا وأمزجتنا التي لا تختلف في جوهرها قليلاً ولا كثيرًا منذ العهود القديمة جدًا عن عقول الأوروبيين وطبائعهم وأمزجتهم وتدفعنا إليها المعاهدات التي أمضيناها وأبرمناها، والالتزامات التي قبلناها راضين، بل بذلنا في سبيلها جهودًا لا تحصى وضحينا في سبيلها بالأنفس الذكية والدماء الطاهرة وأنفقنا في سبيلها كرائم الأموال،

(١) المرجع السابق، ص٣٩.
(٢) المرجع السابق، ص١٦.
(٣) المرجع السابق، ص٥٤.

واحتملنا في سبيلها ضروب المحن والآلام][1].

وكأن الدكتور طه قدَّر خطورة ما يدعو إليه فأراد أن يخفف من وقع حديثه على النفوس فقال:

[فإذا دعونا إلى الاتصال بالحياة الأوروبية ومجاراة الأوروبيين في سيرتهم التي انتهت بهم إلى الرقي والتفوق، فنحن لا ندعو إلى آثامهم وسيئاتهم، وإنما ندعو إلى خير ما عندهم وأنفع ما في سيرتهم][2].

وعلى الرغم من هذا الاستدراك فإن كلمة الدكتور الأولى والتي دعا فيها إلى أخذ الحضارة الغربية بحلوها ومرها إنما كانت تعبر حقيقة عن توجهه وسيرته العملية.

إن كتابات طه حسين وصداقاته للكثيرين من أهل الغرب تدل دلالة قاطعة على هيام حسين طه بالحضارة الغربية وشدة تعلقه بها.

فمنذ عودته من فرنسا بعد مرحلة الطلب وهو لم يكف عن الكتابة عن أوروبا والإشادة بها، ولقد كان حريصًا على أن يقضي الإجازات الصيفية في باريس وغيرها من المدن الأوروبية، وكان لهذه الزيارات النتاج الظاهر؛ فكتب «صوت باريس»[3]، وهو عبارة عن قصص تمثيلي لكتاب فرنسيين وكتب «لحظات»[4] في جزأين وهو كسابقه في موضوعه وإن فاقه في أنه يصور عددًا من القصص الداعر، ولعل أسماء القصص فقط توحي بمضمونها وما انطوت عليه، فتقرأ في

---

(١) المرجع السابق، ص٤٦.
(٢) المرجع السابق، ص٦٣.
(٣) طه حسين: صوت باريس (٢/١)، الأعمال الكاملة المجلد ١٣.
(٤) طه حسين: لحظات (٢/١)، الأعمال الكاملة المجلد ١١.

هذه اللحظات قصة تحت عنوان: «العذراء المفتونة» وأخرى تحت عنوان: «الأم المفتونة» وثالثة تحت عنوان: «الحبيب».

ثم هو كذلك يكتب كتابًا بعنوان «من أدب التمثيل الغربي»[1] وهو تلخيص لعدد من القصص التمثيلي الأوروبي.

وقام طه بالترجمة الكاملة لبعض القصص الأوروبي كما فعل بقصة القدر[2] للمفكر الفرنسي «فولتير» وكذلك يترجم قصتي «أوديب وثيسيوس»[3] لأندريه جيد وهم قصتان استوحاهما جيد من الأساطير اليونانية ولم يكن إعجاب طه حسين بالأوروبيين مقصورًا على إعجابه بالأدب الأوروبي فحسب إنما بكونه يدعو إلى الانفتاح على الغرب في كل المجالات، تلك الدعوة التي أطلق عليها ثقافة البحر الأبيض المتوسط.

يُسأل طه في آخر حياته عن علاقة مصر بثقافة البحر الأبيض المتوسط، فيجيب:

[لماذا يخفيكم البحر المتوسط كأنه ليس بحرنا، أم أنكم صدقتم أنه بحر الروم، إنه بحرنا كما هو بحرهم، وهو ليس عازلاً مائيًا بين الأمم بقدر ما هو وسيلة اتصال ليس لدي جديد في هذه النقطة. فرنسا وإيطاليا واليونان يخصوننا كما نحن نخصهم، قرابتنا لهم قرابة حضارية، من المستغرب أن يضمنا معهم شاطئ واحد ولا نتأثر بهم أو نؤثر فيهم... توجه المصريين شطر أوروبا من اليونان واللاتين حتى

(١) طه حسين: من الأدب التمثيلي اليوناني، الأعمال الكاملة المجلد ١٥.
(٢) طه حسين: القدر الأعمال الكاملة المجلد ١٥.
(٣) طه حسين: أوديب وثيسيوس الأعمال الكاملة المجلد ١٥.

أندريه جيد وسارتر وكافكا هو توجه حضاري ثقافي تمليه اعتبارات الجيرة الروحية على شواطىء البحر المتوسط. . .

أما الآلات والماكينات فربما كانت اليابان والصين أكثر حذقًا من الأوروبيين في هذا الصدد، ولكن الحضارات الآسيوية لا تستطيع أن تؤثر في عقلي وروحي وإن بنت لي أعلى العمارات وشيدت لي أرفع أجهزة اللاسلكي][1].

إن الادعاء بأن مصر لها رابطة بالغرب ودول البحر المتوسط وأن العقل المصري هو عقل يوناني استمد ثقافته من فلسفة اليونان القديمة ولهذا فهو وثيق الصلة بالعقل الأوروبي دعوة خطيرة لها أهداف أشد خطورة من الدعوة ذاتها. إنها تهدف إلى (عزل مصر عن العرب والعالم الإسلامي وإدخالها في الحلف اللاتيني الذي أنشأته إيطاليا وفرنسا وإسبانيا بوصفها دول البحر المتوسط ـ وكانت فرنسا هي التي تقود هذه الدعوة ـ والنظرية تقوم على أساس أن مصر قطعة من أوروبا)[2].

وهذا المعنى هو الذي ردده طه حسين كثيرًا وركز عليه في كتابه «مستقبل الثقافة» فهو يقول صراحة في نهاية فصل «سماه مستقبل الثقافة بمصر مرتبط بماضيها البعيد»: (إن العقل المصري منذ عصوره الأولى عقل إن تأثر بشيء، فإنما يتأثر بالبحر الأبيض المتوسط وإن تبادل المنافع على اختلافها فإنما يتبادلها مع شعوب البحر الأبيض المتوسط)[3].

---

(١) د. عبد المجيد المحتسب: طه حسين مفكرًا، ص٢٠٣، ٢٠٤ نقلاً عن مجلة الثقافة العربية: العدد التاسع، هكذا تكلم طه حسين لآخر مرة، حوار بقلم غالي شكري، ص٤٥.

(٢) أنور الجندي: محاكمة فكر طه حسين، ص٣٣١.

(٣) طه حسين: مستقبل الثقافة في مصر: ٢١.

ولقد كان طه حسين في توجهه هذا متأثرًا بأستاذه لطفي السيد الذي كانت دعوته تتلخص في أمرين:

(**أولهما**: أن تكون مصر للمصريين وأن تنفصم الرابطة بينها وبين الخلافة العثمانية.

ثانيهما: أن تأخذ مصر عن الغرب كل مظاهر التقدم والحضارة ولذلك فقد دعا إلى الديمقراطية النيابية وإلى نشر التعليم العالي. . . إلخ.

ولقد شاركه في الدعاوى ذاتها طه حسين تلميذه النجيب)[1].

تأثر طه الشديد بمفكري الغرب:

لقد تأثر طه حسين بكثير من مفكري الغرب عامة والمفكرين الفرنسيين على الخصوص، ولقد مر بنا كيف تبنى طه حسين منهج ديكارت الفلسفي الذي يقوم على الشك وإنكار المعتقدات السابقة واستقبال البحث خالي الذهن. ثم هو يتابع هؤلاء المفكرين في حرية الأدب ـ أعني عدم الالتزام بالأخلاقيات والثوابت المميزة للأمة ـ إلى غير ذلك من مظاهر التأثر.

ولئن ذهبنا ندلل على من تأثر بهم طه حسين من الفرنسيين خاصة لطال بنا المقام لكننا نقتبس من بحث الأب قلتة[2] هذه السطور:

---

(١) صلاح عبد الصبور: ماذا يبقى منهم للتاريخ، ص٣١.

(٢) كمال قلتة: طه حسين وأثر الفرنسية في أدبه نقلاً عن أنور الجندي: طه حسين وفكره في ميزان الإسلام، ص٤٥.

طه حسين وفولتير[1]:

«إن طه حسين يشبه فولتير في غالب أمره... في رأيه باستحالة التوافق بين العلم والدين والقول بالصراع بينهما، فولتير هاجم رجال الكهنوت، وطه حسين هاجم رجال الأزهر، طه لا يؤمن بأن الإسلام دين ودولة تأثرًا بالمفكر الفرنسي وفولتير كان يؤمن بأن الدولة يجب أن تتخلص من نير السلطان الديني وأن تتحرر من ربقة الكهنوت لتصبح دولة علمانية.

- يؤمن طه بما يؤمن به فولتير من أن الدين يرتبط بالعاطفة والخيال وأن العلم يرتبط بالعقل والمنطق، وأن الدين جامد يعذب الإنسان في صراعه ضد غرائزه ورغباته».

طه حسين ودوركايم[2]:

تأثر طه حسين بدوركايم إذ قال كل منهما بتقديس الجماعة والإيمان بالجبر التاريخي المطلق. ولقد كان هذا الفيلسوف مشرفًا على

---

(١) فولتير: فرانسوا (١٦٩٤ - ١٧٧٨) فيلسوف ومفكر فرنسي، نشأ في باريس، وتعلم في كلية لويس الأكبر اليسوعية، عوقب بالسجن أحد عشر شهرًا في الباستيل، ثم سجن مرة أخرى لاتهامه بإهانة أحد النبلاء، ثم رحل إلى إنجلترا وأعجب بأفكار نيوتن ولوك، ثم أصبح مؤرخًا بالبلاط الملكي، وعضوًا بالأكاديمية الفرنسية، وكرس حياته للدفاع عن ضحايا رجال الدين، والسياسة، اشترك في دائرة المعارف الفرنسية، ودفن في مقبرة العظماء والبانثيون. الموسوعة العربية الميسرة ١٣٣٧/٢.

وانظر: أليكس جورافسكي: الإسلام والمسيحية من التنافس والتصادم إلى الحوار والتفاهم، ترجمة: د. خلف محمد الجراد، دار الفكر، دمشق سوريا سنة ٢٠٠٠، ص٩٨.

(٢) سبق تعريفه، ص٦٧.

رسالة جامعية كان يعدها طه عن ابن خلدون، وتوفي المشرف أثناء الإشراف وتأثر طه حسين كثيرًا لموته.

طه حسين ورينان[1]:

كانوا في فرنسا يطلقون على طه حسين «رينان الإسلام». أما عن رينان نفسه فهو كما قال طه حسين: «كان يعبد العلم وكفر وألحد بآلهة الناس»، كما كانت حياته صورة من الشك والتقلب حتى قيل إنه لم يكن يعرض له ـ رينان ـ في عصره الأخير فكرة إلا قبلها ورفضها في وقت واحد حتى أحدث في العقل الفرنسي في ذلك الوقت اضطرابًا شديدًا.

طه حسين وسانت بيف[2]:

يقبل طه حسين مذهب سانت في قطع الأدب عن الدين والعقيدة كما يتفق معه على الرفض لتقديس السلف والقدماء.

طه حسين وبودلير[3] وأندريه جيد[4]:

ترجم طه أسوأ قصائد ديوان بودلير (زهور الشعر) ويقول: إنه

---

(١) سبق ترجمته، ص١٠٥.

(٢) سانت بيف (١٨٠٤ ـ ١٨٦٩) كاتب وناقد فرنسي كبير، له دراسات تحليلية في الأدب الفرنسي عميقة، وله منهج خاص في تحليل شخصية الأديب، وهو صاحب أحاديث الإثنين التي هي عبارة عن مقالاته النقدية، د. محمد الكتاني: الصراع بين القديم والجديد ١٢٩٢/٢.

(٣) بودلير: (١٨٢١ ـ ١٨٦٧م) كاتب وشاعر فرنسي، اشتهر بالشعر الإباحي. راجع: د. محمد الكتاني: الصراع بين القديم والجديد ١٢٨٨/٢.

(٤) أندريه جيد: سبق التعريف به، ص١٠٨.

استطاع أن يتخذ من الرذيلة والضعف البشري موضوعًا للفن وكان متأثرًا بأندريه جيد كشخصية متمردة على كل شيء بدرجة كبيرة ومن قوله: أنه يحب أندريه جيد ويترسم خطاه وأنه يصور نفسه من خلال شخصيته][1].

طه حسين وبول فاليري[2]:

تأثر به طه حسين في الافتتان بالعقل وتقديره، ففاليري كما يقول طه نفسه: «يسميه الفرنسيون شاعر العقل، ونستطيع أن نسميه عقل الشعر؛ فهذان الوصفان يصورانه أصدق تصوير»[3].

يقول طه عن تأثره به:

«عرفت بول فاليري حين فجأ مجده الناس في أعقاب الحرب الماضية، وظلت معرفتي له تتقدم شيئًا فشيئًا حتى أصبح أحب المعاصرين إليّ من أدباء فرنسا وآثرهم عندي، وحتى أصبح الوقت الذي أنفقه مع كتبه أعز الأوقات إليّ وأكرمها عليّ وحتى اتخذت لنفسي منه صورة غريبة رائعة فيها كثير جدًّا من التواضع وكثير جدًّا من الكبرياء وفيها كثير جدًّا من السماحة وكثير جدًّا من الامتياز»[4].

ومن هنا نستطيع القول بأن توجه طه إلى الحضارة الغربية إنما كان وليد عن التأثر بفكر أبنائها وليس غريبًا أن يقف المستشرق

---

(١) لخصت ذلك عن كتاب طه حسين وحياته وفكره في ضوء الإسلام للجندي من ص٢٤، ٤٧.

(٢) سبق ترجمته، ص٤٧٧.

(٣) طه حسين: «ألوان»: المجموعة الكاملة ٦/٤٣٣.

(٤) طه حسين: «ألوان» المجموعة الكاملة ٦/٤٤٤.

الفرنسي المسيو ماسينيون يوم أدى زكي مبارك[1] امتحان الدكتوراه عن رسالته «النثر الفني في القرن الرابع الهجري» ويقول:

«إنني حين أقرأ بحوث طه حسين أقول هذه بضاعتنا ردت إلينا... وحسين أقرأ بحوث زكي مبارك أشعر بأنني أواجه شخصية جديدة»[2].

ولذا كان من افتتان طه حسين بأوروبا عامة وفرنسا خاصة أنه حث على اقتفاء أثرها في التعليم حتى نحظى بالنجاح كما حظي به الفرنسيون[3].

تقييم رأي طه حسين في الحضارة الغربية:

لا يخفى على منصف أن الدكتور طه حسين حين دعا إلى أخذ الحضارة الغربية بحلوها ومرها ما يحمد منها وما يعاب لم يكن موفقًا في هذه الدعوة التي تصور الاندفاع الكامل إلى الغرب وحضارته؛ وهذه النظرة تبناها جماعة من المثقفين العرب في النصف الأول من القرن الماضي (الذين تربوا في المدارس الأجنبية فجهلوا ثقافة وطنهم وأجدادهم، بمقدار ما تشبعوا بثقافة أوروبا لقد انعزلوا عن الحياة العربية واكتفوا بأن يعيشوا على هامشها)[4].

---

(١) زكي مبارك: أديب مصري ولد بسنتريس سنة ١٨٩١م، وتعلم بالأزهر وحصل على الدكتوراه من الجامعة المصرية توفي سنة ١٩٥٢م. راجع: محمد الدسوقي: طه حسين يتحدث عن أعلام عصره، ص٤٨.

(٢) د. عبد المجيد المحتسب: طه حسين مفكرًا، ص٢١٠.

(٣) طه حسين: مستقبل الثقافة، ص١٥٧، ٢٠٧، ٢٠٨، ٣٨١.

(٤) حبيب أمين كوراني: تفاعل الفكر الإسلامي بالفكر الغربي في البلاد الإسلامية، بحث ضمن كتاب: الشرق الأدنى (مجتمعه وثقافته) ت. كوليرينج، الهيئة المصرية للكتاب مكتبة الأسرة ٢٠٠٢، ص٢١٠، ٢١١.

ومعلوم أن التصور الصحيح لعلاقتنا بالحضارة الغربية أن نأخذ منها ما ينفعنا في دنيانا دون مساس بثوابتنا العقدية ومرجعيتنا الإسلامية (فخير للعالم الإسلامي اليوم أن يأخذ من المدنيَّة الغربية كل علمها وتجاربها في الصناعة والزراعة والتجارة والطب والهندسة وسائر العلوم من غير قيد ولا شرط ثم يحتفظ مع ذلك بروحانيته التي يقوم بها هذا العلم، فتجعله موجهًا لخير البشرية لا لغلو في كسب مال، ولا لإفراط في نعيم، ولا للقوة والغلبة ولكن للخير العام)[1].

وهذا ما اصطلح العلماء عليه بالجمع بين الأصالة والمعاصرة، أن يكون للمسلمين ثوابتهم التي يصدرون عنها ويحكمونها في نظرتهم لواقعهم وحياتهم، ثم المشاركة في صنع الحاضر والمستقبل وعدم الغياب أو الانعزال عن واقع الحياة وأساليب النهضة الحديثة.

الدكتور يتراجع عن رأيه:

ـ ولعل الدكتور طه حسين ثاب إلى رشده في تلك النقطة في آخريات حياته، وذلك حين كتب بحثه «مرآة الإسلام» الذي ختمه ببيان سبل النهضة للعرب والمسلمين فكان من مقالته:

(ليعلموا أن الطريق بينهم وبين الرقي الصحيح طويلة شديدة الطول شاقة عظيمة المشقة وأنهم قد أتيح لهم الآن شيء من يقظة تمكنهم من أن يختاروا بين اثنتين:

إحداهما: أن يظلوا كما هم الآن أيقاظًا كالنيام ونيامًا كالأيقاظ،

---

(١) حسين أحمد أمين: موقف المسلمين العرب من الحضارة الغربية، مجلة العربي الكويتية العدد ٤٠٢ مايو سنة ١٩٩٢م.

فيتعرضوا لخطوب أشد هولاً وأعظم أثرًا من الخطوب التي تتابعت عليهم، **والثانية**: أن يستيقظوا حقًا ويستدركوا ما فاتهم حين وقفوا ومشى الناس، ليصبحوا أكفاء لقدمائهم من جهة وأنداد للذين يحاولون أن يستذلوهم من جهة أخرى...

وسبيلهم إلى هذه اليقظة واحدة لا ثانية لها، وهي أن يذكروا ما نسوا من تراثهم القديم، لا ليقولوا: إنهم يذكرونه بل ليعرفوه حق معرفته، ويفقهوه حق الفقه، ويحسن المتخصصون منهم العلم بدقائقه وتيسيره لغير المتخصصين هذه واحدة.

والثانية: أن يستدركوا ما فاتهم من العلم الحديث ويبتغوا إليه الوسائل التي تتيح لهم أن يتحققوه كما يتحققه أصحابه، وأن يوطنوه في بلادهم ويجعلوه ملكًا لهم، وأن يبذلوا من الجهد ما يمكنهم في يوم قريب من ألا يكونوا فيه عيالاً على المستأثرين به، بل من أن يشاركوا فيه مشاركة الأنداد الأكفاء)[1].

وهذه النظرة ليست النظرة التوفيقية (التي تحاول أن تقوم بعملية تصالح بين شيئين هما بطبيعتهما متصارعان ولا أقول: متعارضان (الحضارة الإسلامية ـ الحضارة الغربية ـ) فالأولى حضارة دين + موقف خارجي من الحياة أو بعبارة أخرى: هي ممارسة للحياة تهديها عبادة دينية. أما الحضارة الغربية فهي حضارة عقل + صناعة إنسانية أو بعبارة أخرى: عقل بشري يقوم بعملية الاستنباط ويد تحول هذا الاستنباط إلى واقع)[2].

---

(١) طه حسين: مرآة الإسلام: المجموعة الكاملة ٧/٣٦٠، ٣٦١.

(٢) د. عبد الحميد إبراهيم: نحو وسطية معاصرة حلاً للأزمة، مجلة المنهل العدد ٤٩٥ شوال وذو القعدة ١٤١٢هـ أبريل ومايو ١٩٩٢م، ص٣٣ ـ ٣٥ بتصرف.

ما دعا إليه الدكتور ليس هذه النظرة التوفيقية التي قوامها (مراعاة الشيئين دون الوصول إلى أمر ثالث والتي مثلتها دعوة الإمام محمد عبده في دعوته إلى المصالحة بين القديم ممثلاً في الحضارة العربية وبين الجديد ممثلاً في الحضارة الأوروبية)[1].

ما دعا إليه الدكتور في كلامه الأخير إنما هو مقام الوسطية أو مقام الكمال (ذلك الذي يجاور بين الاثنين ـ الماضي والحاضر ـ من أجل صيغة ثالثة يحتفظ الاثنان فيها بخصائصهما ولا يندمجان ولكن يحدث بينهما ارتباط من نوع دقيق)[2].

هذا المقام الذي أطلق عليه بعض المفكرين[3] مسمى «مرحلة الثقة والنضج» والتي هي مرحلة وسط بين تيار الرافضين للحضارة الغربية الحديثة بأسرها، وتيار المهرولين إليها المسارعين فيها الداعين إلى أخذها جميعًا حلوها ومرها وما يحمد منها وما يعاب.

مرحلة الثقة والنضج التي تتطلب القيام بموقفين جديدين يكمل أحدهما الآخر.

(**أولهما**: تجاوز مرحلة (الدفاع) ـ أي: عن الذات ـ إلى مرحلة (نقد الحضارة الحديثة) في أصولها الفكرية والأخلاقية ـ ليس بقصد التبغيض فيها لرفضها ولكن لبعث الثقة في الإنسان المسلم وحضارته

---

(١) د. عبد الحميد إبراهيم: نحو وسطية معاصرة حلاً للأزمة، مجلة المنهل العدد ٤٩٥ شوال وذو القعدة ١٤١٢هـ أبريل ومايو ١٩٩٢م، ص٣٣ ـ ٣٥ بتصرف.

(٢) المرجع السابق، ص٣٤.

(٣) هو: الدكتور عبد الحليم عويس: موقف الفكر الإسلامي المعاصر من الحضارة الحديثة، مجلة المنهل العدد ٤٩٥ شوال، ذي القعدة سنة ١٤١٢هـ أبريل ومايو سنة ١٩٩٢م، ص٢٠.

من جهة ولتوعيته حضاريًا ـ من جهة أخرى ـ ليدرك الفرق بين مصطلحين هامين مختلفين كل الاختلاف وهما مصطلح (التغريب) و(التحديث) فلا علاقة بينهما البتة.

فالأول يعني أن غايتنا هي أن نكون أشباه الغربيين حتى في سلبياتهم، والثاني يعني أن (التحديث) ـ أي: امتلاك أحدث وسائل العصر ـ هو الهدف سواء جاء التحديث من أوروبا أم من اليابان.

والأول: ذوبان وتبعية، والثاني: معاناة وصراع حضاري بين متسابقين، ومن شأن الصراع أن يحفز إلى العمل والجد ومعرفة كل ما لدى الخصم مع الحفاظ على الذات.

وثانيهما: فهو موقف (البناء الذاتي) لحضارة (إسلامية حديثة) تستخدم كل معطيات العصر ووسائله وفنياته وكل ما يبيحه الشرع وتحافظ في الوقت نفسه على كل الأصول والقواعد الإسلامية مفرقة بين ما هو حرام وما هو حلال... متمسكة بدينها بوعي وإصرار وإخلاص مؤمنة بصلاحيته الكاملة لقيادة السفينة البشرية الموشكة على الغرق، سواء في: العقيدة الصحيحة أو في الاقتصاد أو في السياسة أو في الإعلام أو في الفن والأدب أو في علوم النفس والاجتماع والتربية)[1].

ولعل كلام الدكتور الأخير بمثابة تعديل الاتجاه أو التوبة الفكرية عن مبدأ الذوبان في الحضارة الغربية[2].

---

(١) د. عبد الحليم عويس: موقف الفكر الإسلامي المعاصر من الحضارة الحديثة، مجلة المنهل العدد ٤٩٥، ص٢٠.

(٢) لأن هذا الكلام جاء في كتابه «مرآة الإسلام» الذي كتبه سنة ١٩٥٩م وهو من أواخر مؤلفاته.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

المبحث الثاني

طه حسين والحضارة المصرية القديمة

(دعا الدكتور طه حسين إلى الإقليمية المصرية مع إعلائها والدعوة إلى الفرعونية وإنكار رابطتها العربية والإسلامية، والادعاء بأن لها رابطة بالغرب ودول البحر المتوسط وأن العقل العربي هو عقل يوناني استمد ثقافته من الفلسفة اليونانية في القديم؛ وهو عقل غربي في الحديث استمد ثقافته من أوروبا)[1].

وهذا الكلام كثيرًا ما ردده الدكتور في كتابه «مستقبل الثقافة» ولكن الأمر الأعظم من ذلك هو ما ادعاه الدكتور من أن تأثير الحضارة الفرعونية في المصريين أقوى وأبقى من تأثير الإسلام يقول الدكتور موضحًا لهذا المعنى:

[وكانت مصر من أسبق الدول الإسلامية إلى استرجاع شخصيتها القديمة التي لم تنسها في يوم من الأيام. فالتاريخ يحدثنا بأنها قاومت الفرس أشد المقاومة وبأنها لم تطمئن إلى المقدونيين حتى فنوا فيها،

(١) أنور الجندي: محاكمة فكر طه حسين، ص٣٣١.

وأصبحوا من أبنائها واتخذوا تقاليدها وسننها لهم تقاليدًا وسننًا والتاريخ يحدثنا كذلك بأنها قد خضعت لسلطان الإمبراطورية الرومانية الغربية والشرقية على كره مستمر، ومقاومة متصلة، فاضطر القياصرة إلى أخذها بالعنف وإخضاعها للحكم العرفي.

والتاريخ يحدثنا كذلك بأن رضاها عن السلطان العربي بعد الفتح لم يبرأ من السخط، ولم يخلص من المقاومة والثورة وبأنها لم تهدأ ولم تطمئن إلا حين أخذت تسترد شخصيتها المستقلة في ظل ابن طولون[1]، وفي ظل الدول المختلفة التي قامت بعده][2].

وهذه الفكرة لم يتفرد بها طه حسين فقد قال بها عالم الآثار ماسبيرو عام ١٩٠٨م «الذي وضع نظرية لربط مصر المعاصرة بمصر الفرعونية في محاولة ملفقة قوامها أن مصر قاومت كل الغزاة وأثرت فيهم بما فيهم العرب وأن المصريين أقباط أصلاً، وأن التراث الفرعوني القبطي صمد في وجه الفتح الإسلامي، وأن الأقباط حافظوا على نقاوة دمهم بينما اختلطت دماء المسلمين مع دماء شعوب أخرى»[3].

وكذلك فعل المفكر الفرنسي جوستاف لوبون فقد ذكر «أن عشرة شعوب قد افتتحت مصر، وكانت مصر مقبرة للجميع وما استطاع فاتح أن يستقر فيها، ولم يترك فيها واحد منهم أثرًا من دمه، وهي اليوم عربية دينًا ولغة ولكنها بقيت فرعونية من حيث الدم، وأن مصر لما

---

(١) أحمد بن طولون مؤسس الدولة الطولونية وهو أول ولاة مصر والشام الذين لم يكونوا تابعين للخلافة إلا بالاسم، ولد سنة ٢٢٠هـ سنة ٨٣٥م، وتوفي سنة ٢٧٠هـ سنة ٨٨٤م، دائرة المعارف الإسلامية ١/٤٨٧، ٤٨٩.

(٢) طه حسين: مستقبل الثقافة، ص٢٦، ٢٧.

(٣) د. عبد المجيد المحتسب: طه حسين مفكرًا، ص٢٢٢، ٢٢٣.

افتتحها العرب لم تلبث أن استغرقت فاتحيها، ولكن هؤلاء أبقوا لها أهم عناصر الحضارة وهي الدين واللغة والفنون»[1]، فالقاسم المشترك بينهم جميعًا قولهم بأن مصر أفنت المغيرين في نفسها أو ردتهم عنها وأنها حين أفنتهم فيها طبعتهم بطابعها، وأثرت فيهم ولم يؤثروا فيها بما فيهم الإسلام، وإن كان لوبون قد أنصف المسلمين في آخر كلامه بأنهم منحوا المصريين عناصر مهمة من أصول الحضارة هي الدين واللغة والفنون.

وطه يؤكد هذا المعاني حين يكثر من طرقها ففي رده على أحد الكتاب[2] «الذين كتبوا عن المصريين القدماء أنهم فكروا في الموت كثيرًا وتحدثوا عنه كثيرًا حتى ماتت الأمة المصرية موتًا لم تمته أمة أخرى ففقدت استقلالها ألفي عام».

كان من رد طه: «أعتقد أن الأمة المصرية لم تمت قط وهي لم تفقد استقلالها ألفي عام ولئن كانت فقدته حينًا أو أحيانًا إنها لم تنسه قط... لم تمت الأمة المصرية وآية ذلك أنها لا تزال حية تشعر وتحس وتفكر وتناضل في سبيل الحياة، ولم تنس استقلالها يومًا منذ دالت دول الفراعنة؛ وآية ذلك أن الأجانب الذين تسلطوا عليها قد اضطروا دائمًا إلى إحدى اثنتين فإما أن يتجنسوا بجنسيتها ويندمجوا فيها، وإما أن يأخذوا مصر بشيء من العنف والقهر يشبه الأحكام العرفية... لم تمت الأمة المصرية ولم تنس استقلالها ومتى ماتت هذه الأمة؟ أكانت ميتة حين أساغت الفلسفة اليونانية وطبعتها بطابعها الخاص؟

---

(١) د. عبد المجيد المحتسب: طه حسين مفكرًا، ص٢٢٢، ٢٢٣.

(٢) هو الأستاذ سلامة موسى.

أكانت ميتة حين أساغت الديانة المسيحية وطبعتها بطابعها الخاص؟ أكانت ميتة حين أساغت الإسلام وطبعته بطابعها الخاص؟»[1].

لقد أفرط طه حسين في الغلو في شأن الفراعنة والاعتزاز بالنسب إليهم حتى صرح ذات يوم لصحيفة المكشوف البيروتية قائلاً:

[إن الفرعونية متأصلة في نفوس المصريين وستبقى كذلك، بل يجب أن تبقى وتقوى، والمصري فرعوني قبل أن يكون عربيًا، ولا يطلب من مصر أن تتخلى عن فرعونيتها وإلا كان معنى ذلك اهدمي يا مصر أبا الهول والأهرام وانس نفسك واتبعينا، ولا تطلبوا من مصر أكثر مما تستطيع أن تعطي، مصر لن تدخل في وحدة عربية سواء كانت العاصمة القاهرة أم دمشق أم بغداد وأؤكد قول أحد الطلبة القائل:

«لو وقف الدين الإسلامي حاجزًا بينا وبين فرعونيتنا لنبذناه» إن المصري مصري قبل كل شيء فهو لم يتنازل عن مصريته مهما تقلبت الظروف][2].

ولذا كان طه غير راض عن تدريس التاريخ المصري القديم؛ إذا كان يرى في المناهج المقررة أنها دون المطلوب وأنها أقل مما ينبغي ولذا فهو يعتبر التقصير في ذلك إجرام من قبل وزارة المعارف[3].

ولذا أوصى بتدريس اللغتين اليونانية واللاتينية في مصر، لأنهما السبيل لفهم الحضارة المصرية القديمة التي يعرف عنها الأوروبيون أكثر

---

(١) طه حسين: حديث الأربعاء، المجموعة الكاملة ٦٧٨/٢، ٦٧٩. بتصرف.
(٢) أنور الجندي: محاكمة فكر طه حسين، ص٣٣٣.
(٣) طه حسين: من بعيد، المجموعة الكاملة ٩٩/١٢.

مما نعرف نحن المصريين[1].

هذا الأمر ـ معرفة الغربيين بحضارة المصريين القدماء وآثارهم: الذي أثار غيرته فتمنى أن لو عرفت طوائف الشعب جميعًا تلك الآثار البائدة، ولما سمع من قسيس غربي محاضر في الجغرافية تمنى أن لو وجد من مشايخ المسلمين من يضم إلى علمه الشرعي علمه بالآثار المصرية خاصة الآثار الإسلامية[2].

فتدريس الآثار، المصرية القديمة نقطة أولاها طه كثير من الاهتمام منذ عودته من أوروبا وتعرفه على اهتمام الأوروبيين بالآثار فكتب في الصحف مؤكدًا على هذا الأمر في جريدة السياسة اليومية ومجلة «الكاتب المصري» التي كان يشرف على تحريرها.

يقول طه بمقال بمجلة الكاتب المصري ـ وهو يعلق على كتاب صدر للدكتور سليم حسن بعنوان: «الأدب المصري القديم أو أدب الفراعنة»: (إذا كان لي أن أتمنى شيئًا فهو أن تشد عناية المصريين بهذا اللون من التراث المصري القديم وأن تشيع العناية به في الجامعات وفي معاهد العلم حتى في المدارس الثانوية نفسها فمن أخطر الواجبات على المصريين أن يتعمقوا العلم بتراثهم القديم)[3].

ومن الجدير بالذكر أن مجلة الكاتب المصري هذه عنيت

---

(١) طه حسين: مستقبل الثقافة، المجموعة الكاملة ٤٩٣/٩، طه حسين: حديث المساء تحقيق محمد سيد كيلاني، ص١٨٩.

(٢) طه حسين: من بعيد: المجموعة الكاملة ٩٤/١٢.

(٣) طه حسين: صدر حديثًا باب حرره طه، مجلة الكاتب المصري ٢٧٩/١ ـ ٢٨١.

بالحديث عن التاريخ المصري القديم عناية كبيرة. فاسم المجلة واسم الدار التي تشرف على إصدارها والتي كان اليهود من ورائها هو «الكاتب المصري» ولقد شرح طه حسين الاسم في افتتاحية العدد الأول من المجلة فقال: (يقال: إن الشعب المصري أول من كتب بالقلم واتخذ الحرف رمزًا للكلام الذي يؤدي عن القلوب والنفوس والعقول ما يثور فيها من عواطف وما يضطرب فيها من الأهواء وما يخطر لها من الآراء وقد اتخذت هذه الدار من الكاتب المصري القديم اسمًا لها وشعارًا واتخذت هذه المجلة التي تصدرها هذه الدار من الكاتب المصري القديم اسمًا لها وشعارًا أيضًا[1]، وهذه المجلة تستخدم برنامجها وخطتها وسيرتها من تاريخ مصر القديم والحديث، ومن المهمة التي نهضت بها مصر منذ شاركت في الحضارة الإنسانية)[2].

وبالمجلة ذاتها يكتب أحد النصارى الذين يعملون بتحرير المجلة مقالاً يشرح فيه آيات الإعجاز في تمثال الكاتب المصري فكان من مقاله: (اتخذت دار الكاتب المصري لنفسها ومجلتها شعارًا، هو صورة ذلك التمثال المشهور الذي يعتبر من روائع الفن المصري القديم، ومن أفضل بدائعه وآياته، كما أنه شعار يرتبط بصميم القومية المصرية العريقة التي يسعى قادة الثقافة جاهدين إلى إحيائها، وإلى إذكاء الشعور بها. لهذا كان من حق القارئ أن يقف على بعض المعلومات الوجيزة عن هذا الشعار الموفق المختار...)[3].

---

(١) يشير طه إلى أن المجلة قد اتخذت من تمثال الكاتب المصري شعارًا.

(٢) طه حسين: برنامج، مجلة الكاتب المصري المجموعة الكاملة ١/١.

(٣) إسكندر أسعد: تمثال الكاتب المصري، مجلة الكاتب المصري، المجموعة الكاملة ٥٨٢/١.

وآخر يكتب مقالاً بعنوان: «آثار حضارة الفراعنة في حياتنا اليومية» يستعرض فيه أوجه الشبه بين حياة المصريين القدماء والمعاصرين ختمه بقوله:

(فنحن، كما رأينا، نعيش في نطاق تركة خلَّفها لنا القدماء، تشدنا إليها سلسلة من التقاليد والعادات ومختلف الأشياء التي تربطنا بها ربطًا وثيقًا لا نجد إلى قصم عروته سبيلاً، فنحن كما كنا وسنظل دائمًا أبناء الفراعنة، وإنا بهذه التركة بكل ما فيها من محاسن وعيوب لجد فخورين)[1].

وثالث يكتب عن العناصر المكونة للقومية المصرية فيجعل الوجود المستمر للجماعة المصرية أول هذه العناصر ويعنى به تأثر المعاصر بالقديم، وانتفاعه بتاريخ أجداده ومما قاله تحت هذا العنوان: (وإن التاريخ ليدحض دعوى المتحاملين على القومية المصرية، ويفند مفتريات القائلين بأننا قوم طال عهدنا بسيطرة الغزاة والخضوع لحكم الطغاة حتى فقدنا قوميتنا، واستحلنا مجموعة من أفراد متعددة عناصرهم متنافرة مواردهم ومصادرهم.

فما هبط وادينا شعب، مستوطنًا أو فاتحًا، إلا طويناه وتمثلناه وطبعناه بطابعنا وصغناه في قالبنا، وأدمجناه في قوميتنا.

صنعنا هذا بالهكسوس والأثيوبيين والفرس واليونان والرومان والعرب والأتراك واحتفظنا بأشكالنا وسحننا ومعظم تقاليدنا وعاداتنا.

---

(١) محرم كمال: آثار حضارة الفراعنة في حياتنا اليومية، مجلة الكاتب المصري، المجموعة الكاملة ٣/٣١٢.

حتى المسيحية والإسلام، لم يكد يغير دخولهما البلاد من أخلاقنا القومية إلا قليلاً)[1].

هذه الكلمات وغيرها كثير ينشر تحت رعاية طه حسين، مما يدل على رضاه عنها واقتناعه بها وهي متوافقة مع ما نادى به وحث عليه من إحياء النزعة الفرعونية والاعتزاز بها.

تقييم نظرة طه حسين عن الحضارة المصرية القديمة:

لقد التقت دعوة طه حسين إلى إحياء الحضارة المصرية القديمة مع توجهات المستشرقين وغيرهم من الغربيين فلقد كان إحياء الحضارات القديمة مرحلة من مراحل تغريب الأمة المسلمة فقد عمدوا إلى (إثارة النزعات الشعوبية في الأمم الإسلامية بقصد إضعاف وحدتها مثل الدعوة البربرية في شمال إفريقيا والفرعونية في مصر، والفينيقية في ساحل فلسطين ولبنان والآشورية في العراق)[2].

(وممن صرح بهذا الهدف من المستشرقين المستشرق الإنجليزي «جيب» الذي ألف كتابًا سماه «إلى أين يتجه الإسلام» يقول فيه: «من أهم مظاهر سياسة التغريب في العالم الإسلامي تنمية الاهتمام ببعث الحضارات القديمة» وقد أعلن في بحثه هذا صراحة إلى أنه هدف إلى معرفة إلى أي مدى وصلت حركة تغريب الشرق وما هي العوامل التي

---

(١) رياض شمس: العناصر الثلاثة للقومية المصرية، مجلة الكاتب المصري، المجموعة الكاملة ٣/٥٠٤.

(٢) محمد عزت الطهطاوي: التبشير والاستشراق أحقاد وحملات، مجمع البحوث الإسلامية طبعة سنة ١٩٧٧م، ص٤٥.

تحول دون تحقيق هذا التغريب)[1].

ومما قاله هذا المستشرق في الموضوع ذاته:

(وقد كان من أهم مظاهر فرنجة العالم الإسلامي تنمية الاهتمام ببعث الحضارات القديمة التي ازدهرت في البلاد المختلفة التي يشغلها المسلمون الآن، فمثل هذا الاهتمام موجود في تركيا وفي مصر وفي إندونيسيا وفي العراق وفي فارس وقد تكون أهميته محصورة الآن في تقوية شعور العداء لأوروبا، ولكن من الممكن أن يلعب في المستقبل دورًا مهمًا في تقوية الوطنية الشعوبية وتدعيم مقوماتها)[2].

[إن الإسلام لا يمنع المسلم من العناية بتاريخ بلده القديم، بل أمره أن يسير في الأرض لينظر في آثار من سبق وكيف كان عاقبة أمرهم. قال الله تعالى آمرًا المؤمنين بالنظر والاعتبار في التاريخ السابق: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾﴾[3]، وغيرها كثير تأمر بالاعتبار وأخذ العلوم النافعة من التاريخ القديم بما فيها من خير وعز، وكذلك الاعتبار بأولئك الأقوام الذين اتخذوا أندادًا من دون الله مع أنهم كانوا أصحاب حضارة وعلم فما أغنت عنهم

---

(١) د. مانع الجهني: الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، دار الندوة العالمية للشباب الإسلامي، بالرياض، ط٣ سنة ١٤١٨هـ ٢/٧١٢.

(٢) محمد بن عبدالله الهبدان: تعظيم الآثار رؤية شرعية، مجلة البيان، المنتدى الإسلامي، لندن، العدد ١٦٢ صفر سنة ١٤٢٢، ص٩.

(٣) سورة الروم، الآية: ٩.

حضارتهم ولا علمهم من دون الله من شيء][1].

ولقد جاءت السُّنَّة الثابتة عن رسول الله ﷺ بما يتوافق مع ما أشير إليه من ذلك ما قاله ابن إسحاق:

وكان رسول الله ﷺ حين مرَّ بالحجر (مساكن ثمود) نزلها واستقى الناس من بئرها، فلما راحوا قال رسول الله ﷺ: «**لا تشربوا من مياهها شيئًا، ولا تتوضؤوا منه للصلاة وما كان من عجين عجنتموه فاعلفوه الإبل، ولا تأكلوا منه شيئًا**»[2].

هكذا ذكره ابن إسحاق بغير إسناد.

وقال الإمام أحمد: حدّثنا يعمر بن بشر، حدّثنا عن عبدالله بن المبارك أخبرنا معمر عن الزهري، أخبرني سالم بن عبدالله، عن أبيه أن رسول الله ﷺ لما مرَّ بالحجر قال: «**لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين، أن يصيبكم ما أصابهم**»[3].

(ففي هذا الإرشاد النبوي توجيه عميق للمسلمين كي يكونوا دائمًا على وعي لما يرون ويسمعون، والمعروف أن في آثار القدامى متعة للسواح تملأ فراغهم بالطريف من الأخبار للماضين، وقد يضمون إلى المتعة بعض المعرفة إذ يتخذون من ذلك فرصة لدراسة التطورات

---

(١) د. رشدي أبو شبانة: التبصير بمكائد الاستشراق والتبشير، ص١١٦.

(٢) ابن هشام: مختصر سيرة ابن هشام، اختصار وتحقيق: لجنة السيرة النبوية بالمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، ط٣ سنة ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م، ٢٠٨/٢.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الأنبياء باب قول الله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾ الحديث: (٣٣٨٠) وأخرجه أيضًا في كتاب المغازي باب نزول النبي ﷺ الحجر الحديث (٤٤١٩)، وأخرجه الإمام أحمد في مسنده الحديث رقم (٥٣٤٢) من مسند عبدالله بن عمر.

الطارئة على طرائق الحياة والتفكير الإنساني عبر التاريخ ولا ريب أن في هذا خيرًا كثيرًا من شأنه أن يوسع آفاق النظر التاريخي، ولكن الإسلام لا يرضى من المؤمن أن يقف من الآثار القديمة عند هذا الحد وحده؛ إنه يحضه على السياحة والتأمل في آثار القدامى ضمن منطقه الرباني الذي نتبينه من قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾[1].

فالهدف من سياحة المسلم إذن هو التأمل في عواقب الأمم والأحداث ليزود قلبه بالعبرة التي تستبقي علاقته بالله حية متوهجة)[2].

«فالإسلام لا ينكر خواص الأمم والشعوب فهو يعترف بأن لكل شعب ميزاته وقسطه من الخلق والفضيلة وأن العرب لهم من ذلك النصيب الأوفى... ولكن المسلم الحق ينكر اعتبار هذه المميزات القومية مصدرًا عقديًا ومؤهلاً فكريًا يصرف العرب ويغنيهم عن رسالة الإسلام»[3].

فحين يراد إحياء التاريخ القديم وبعثه للإيمان بما فيه من وثنية بعد أن منَّ الله علينا بنعمة الإسلام، فإن ذلك ولا شك أمارة على سوء نية الداعين إليه وأنهم يهدفون إلى قطع الأواصر التي تربط الأمة بدينها واستبدال الوحدة الإسلامية بقوميات ضعيفة.

ومن هنا يمكن القول بأن الدكتور طه حسين لم يكن موفقًا في دعوته إلى الفرعونية وإحيائها.

---

(١) سورة الروم، الآية: ٩.

(٢) د. جمعة علي الخولي: تاريخ الدعوة، دار الطباعة المحمدية، ط١ سنة ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م، ١/١٢٩، ١٣٠.

(٣) فتحي يكن: الإسلام فكرة وحركة وانقلاب، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١١ سنة ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، ص٦٥ بتصرف.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

المبحث الثالث

طه حسين والحضارة الإسلامية

دأب الدكتور طه حسين عند الحديث عن حضارة الإسلام أن يؤكد أنها ورثت حضارة الفرس واليونان، والمسلمون في رأيه (صاغوا من هاتين الحضارتين ومن تراثهم القديم هذه الحضارة الإسلامية الرائعة التي أزهرت أيام بني أمية وبني العباس والتي يحرص المحافظون منا عليها أشد الحرص. وهذه الحضارة الإسلامية الرائعة لم يأت بها المسلمون من بلاد العرب وإنما أتوا ببعضها من هذه البلاد، وببعضها الآخر من مجوس الفرس، وببعضها الآخر من نصارى الروم)[1].

ولم يقصر الدكتور الإرث على جانب نظم الحكم والسياسة كما زعم الدكتور في أكثر من موضع[2] بل ورثوا الحضارات السابقة بجميع جوانبها (فالدولة الإسلامية لم ترث سياسة اليونان والفرس وحدها،

---

(١) طه حسين: مستقبل الثقافة، المجموعة الكاملة ٦٥/٩، ٦٦.

(٢) راجع: لطه حسين: رحلة الربيع والصيف، المجموعة الكاملة ١٣٨/١٤، ١٣٩، من لغو الصيف إلى جد الشتاء، المجموعة الكاملة ٣١١/١٤، الشيخان، طبعة المعارف، ص١٩٢، الفتنة الكبرى (١) ـ عثمان ـ المجموعة الكاملة ٢٢٧/٤، وغيرها.

وإنما ورثت حضارتهم أيضًا، وورثت معها ما كان عند هذه الأمم من ثقافات متباينة، نقلتها كلها إلى اللغة العربية وصبتها كلها في القالب العربي، بحيث يمكن أن يقال: إن الحضارة الإنسانية التي كان يغلب عليها الطابع اليوناني قد غلب عليها الطابع العربي في القرون الأربعة الأولى للهجرة)[1].

فالدكتور طه حسين يرى الحضارة اليونانية أصل الحضارات جميعًا وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، والحضارة الإسلامية ورثت الحضارة اليونانية ويترتب على هذا وجود تشابه بين العقل الإسلامي والعقل الأوروبي.

ولما تحدث الدكتور عن العقل الأوروبي ذكر أن الكاتب الفرنسي بول فاليري شخّصه وردّه إلى عناصر ثلاثة: (حضارة اليونان وما فيها من أدب وفلسفة وفن، وحضارة الرومان وما فيها من سياسة وفقه، والمسيحية وما فيها من دعوة إلى الخير وحث على الإحسان) ثم يقول: (فلو أردنا أن نحلل العقل الإسلامي في مصر وفي الشرق القريب أفتراه ينحل إلى شيء آخر غير هذه العناصر التي انتهى إليها تحليل بول فاليري؟

خذ نتائج العقل الإسلامي كلها. فستراها تنحل إلى هذه الآثار الأدبية والفلسفية والفنية، والتي مهما تكن مشخصاتها فهي متصلة بحضارة اليونان وما فيها من أدب وفلسفة وفن، وإلى هذه السياسة والفقه اللذين مهما يكن أمرهما فهما متصلان أشد الاتصال بما كان

(١) طه حسين: «ألوان»، المجموعة الكاملة ٦/٤٠٠، ٤٠١.

للرومان من سياسة وفقه[1]، وإلى هذا الدين الإسلامي الكريم وما يدعو إليه من خير وما يحث عليه من إحسان ومهما يقل القائلون فلن يستطيعوا أن ينكروا أن الإسلام قد جاء متممًا ومصدقًا للتوراة والإنجيل)[2].

هذه المقارنة بين العقل الأوروبي والعقل الإسلامي هدف الدكتور من خلالها إقناع القارئ بأن حضارة أوروبا لا تخالف حضارة الإسلام فما كان المسلمون إلا نقلة للحضارة الأوروبية القديمة!

ويكرر الدكتور الدعوى ذاتها في ثياب مختلفة فيقول: «إن هذه البلدان القائمة على شواطىء البحر الأبيض المتوسط والممتدة من العراق إلى سوريا ولبنان وإلى فلسطين ومصر، هذه البلدان لا تختلف في حضارتها عن حضارة أوروبا؛ لأن الحضارتين هما خلاصة أو نتيجة للحضارات القديمة التي انتقلت بطريق اليونان إلى أوروبا، فمستقبل الحضارة في الشرق والغرب ومستقبلها في أوروبا واحد ولا يمكن إلا أن يكون واحدًا، وبعد كيف نستطيع في الشرق القريب أن نؤلف شعوبًا مستقلة ودولاً ذات سيادة وتجاري أوروبا في مدنيتها إن لم تأخذ بمبادئ حضارتها المادية».

والدكتور في كلامه هذا يغالط في حقيقتين:

أولاً: إنه لا يوجد شيء اسمه الحضارة العالمية، فحضارة الغرب هي حضارة مستقلة عن الحضارة الإسلامية لاختلاف العقيدة والمنهج.

---

(١) قمت بالرد على دعوى تأثر الفقه الإسلامي بالقانون الروماني في الفصل السابع من البحث.

(٢) طه حسين: مستقبل الثقافة، المجموعة الكاملة ٣٩/٩.

ثانيًا: إنه لا يمكن لأمة ما ـ ولم يحدث في التاريخ مطلقًا ـ أن أخذت مناهج حضارة أخرى كاملة، وإنما هو الاقتباس للأصول العامة الصالحة واستبقاء الأصول الأساسية الذاتية لكل أمة وكل حضارة][1].

ومع إغراق الدكتور في مدح حضارة اليونان فقد أقر للحضارة الإسلامية والعربية ببعض المزايا لم تتوافر لغيرها من الحضارات يقول الدكتور عن ذلك: [ففي أقل من أربعين سنة اجتمع هذان العالمان ـ الفرس والروم ـ تحت راية واحدة وهي الراية الإسلامية وأخذا يتعاونان في إنشاء حضارة واحدة هي الحضارة الإسلامية... وامتزجت الأمم بعضها ببعض وتبادلت ما كان عندها من العلم ومن التراث الثقافي ومن الفن أيضًا، ونشأ عن هذا كله أن توحدت الحضارة بعد أن كانت منقسمة مختلفة، وأصبحت حضارة جديدة لها طابع جديد هو هذا الطابع الإسلامي العربي وتغيرت لغة هذه الحضارة فبعد أن كانت يونانية في الشرق الأدنى وفارسية في الشرق المتوسط أصبحت هي اللغة الوحيدة ـ اللغة العربية ـ لغة هذه الحضارة... وقد عرف اليونان حضارة راقية ممتازة ولكنها كانت مقصورة عليهم وعرف الرومان حضارة راقية ممتازة أيضًا ولكنها كانت مقصورة عليهم لا تكاد تتجاوزهم إلى غيرهم من الخاضعين لهم، ولكن العرب عرفوا هذه الحضارة ولم يستأثروا بها دون الأمم المغلوبة بل لعلهم تركوا أكثرها للأمم المغلوبة واستأثروا ببعض فنون الحكم وتدبير الملك][2].

فالدكتور يرى أن الحضارة الإسلامية امتازت بثلاثة أشياء:

---

(١) أنور الجندي: محاكمة فكر طه حسين، ص٣٣٨.

(٢) طه حسين: التجديد والتقليد: المجموعة الكاملة ١٦/٤٣٠ ـ ٤٣٢ بتصرف كبير.

أولها: اشتراك أجناس مختلفة في صنعها مع اصطباغ الجميع بصبغة الإسلام.

ثانيها: أصبحت اللغة العربية اللغة الوحيدة للحضارة الإسلامية.

ثالثها: عدم استئثار العرب والمسلمين بالحضارة الإسلامية والعربية.

مكونات الحضارة في نظر الدكتور طه حسين:

حين أشفق كثير من المصلحين من دعوة الدكتور طه حسين إلى اقتباس الحضارة الغربية حلوها ومرها ما يحمد منها وما يعاب، ردَّ الدكتور على معارضيه تخوفهم هذا بزعمه أن الحضارة مزيج من الخير والشر، وأنه لكي يستمتع الإنسان بالخير لا بد وأن يحتمل الشر ويصبر عليه، فحضارة المسلمين الأولى مثلها مثل الحضارة الغربية فيها الخير وفيها الشر يقول الدكتور طه شارحًا هذا المعنى بقوله:

[الذين يظنون أن الحياة يمكن أن تكون كلها خيرًا وبرًا وصلاحًا يخطئون خطأ عظيمًا، فالخير المطلق في هذه الأرض مستحيل، وقد أراد الله للناس أن تكون حياتهم مزاجًا من الخير والشر، وأودع الإنسان عقله وإرادته وأنزل إليه دينه ليميز بين الخير والشر وينصح لنفسه ويختار لها.

وقد احتمل المسلمون راضين أو كارهين زندقة الزنادقة ومجون الماجنين قاوموا ذلك في الحدود المعقولة ولكنهم لم يرفضوا الحضارة الأجنبية التي أنتجت تلك الزندقة وهذا المجون.

وقد شهد المسلمون زندقة الزنادقة وفسوق الفساق ومجون

الماجنين ولكنهم شهدوا مع هذا كله نسك النساك وزهد الزهاد وورع أصحاب الورع والصلاح.

وقد ورثنا آثار أولئك وهؤلاء مكتوبة، ورثنا شعر بشار وأبي نواس وأضرابهما كما ورثنا فقه الأئمة وكلام المتكلمين وزهد الزهاد، والغريب أننا ننتفع بكل ما ورثنا من أسلافنا ولا يخطر لأحد من أشد الناس محافظة أن يحظر درس بشار[1]، وأبي نواس[2]، ولا أن يطلب إلى السلطان تحريق ما ورثنا من آثار الفلاسفة والزنادقة والمجان الذين لا يرضى عنهم الدين ولا تقر الفضيلة سيرهم وآراءهم، ولو قد دعا داع إلى استصدار قانون بتحريق شعر أبي نواس وبشار وأضرابهم لكان رجال الدين أنفسهم أسرع الناس إلى إنكار هذه الدعوة البشعة وأشد الناس سخطًا على من يدعو بها أو يجيب إليها.

والأمر في حياة الأوروبيين كالأمر في حياة المسلمين أيام بني أمية وبني العباس. لهم حضارة خصبة مزدهرة تنتج ما تنتجه الحضارة الإنسانية دائمًا من الخير أو الشر ففيهم أصحاب الجد وفيهم أصحاب الهزل وفيهم أصحاب التقوى وفيهم أصحاب الفجور، ولن توجد في الأرض حضارة إلا وهي تنبت الخير وتثمر التقى والإثم][3].

وهذا الكلام لا يُسلَّم به للدكتور؛ ومتى كان المجون والدعوة إليه مظهرًا من مظاهر الحضارة وأظهر معاني الحضارة البناء والرقي، وهذان لا يظهران في جو الخلاعة والمجون وإنما الهدم والسقوط الأخلاقي لصيق بهذا الجو ومصاحب له.

---

(١) سبق التعريف به، ص٤٢٣.

(٢) سبق التعريف به، ص٤٢٣.

(٣) طه حسين: مستقبل الثقافة، المجموعة الكاملة ٦٦/٩، ٦٧.

ومع اعتراف الدكتور للحضارة الإسلامية ببعض الميزات إلا أنه في موطن آخر ينقض ما ذهب إليه إذ يقول:

[من المحقق أن تطور الحياة الإنسانية قد قضى منذ عهد بعيد بأن وحدة الدين ووحدة اللغة لا تصلحان أساسًا للوحدة السياسية ولا قوامًا لتكوين الدول، فالمسلمون أنفسهم منذ عهد بعيد قد عدلوا عن اتخاذ الوحدة الدينية واللغوية أساسًا للملك وقوامًا للدولة وليس المهم أن يكون هذا حسنًا أو قبيحًا، وإنما المهم أن يكون حقيقة واقعة وما أظن أحدًا يجادل في أن المسلمين قد أقاموا سياستهم على المنافع الدنيوية وعدلوا عن إقامتها على الوحدة الدينية واللغوية والجنسية أيضًا][1].

يأتي هذا الكلام من الدكتور كمبرر لدعوته للأخذ بمناهج الغرب ونظمه في الاجتماع والسياسة وغيرها.

ولأن الدكتور يرى الفصل بين الدين والسياسة لم يرض عن الحكم الإسلامي في عصر من العصور! بل إنه يعد الفتح الإسلامي لمصر وحكم المسلمين لها ضرب من البغي فيصرح بأن [«مصر ابتليت بالبغي والعدوان من الفرس والعرب وغيرهم» فكأن هذا الكلام خلاصة رأيه في حكم العرب والمسلمين، وكأن كفة الشر والجور رجحت عنده فاستحق عهدهم أن يذكر مقرونًا بالبغي والعدوان][2].

وقد يظن المطالع لهذا الكلام أن الدكتور يبغض العرب ويكره حضارتهم، ولكن مواقف أخرى للدكتور ترد الباحث عن ظنه هذا

---

(١) طه حسين: مستقبل الثقافة، المجموعة الكاملة ٢٥/٩، ٢٦.

(٢) طه حسين: تجديد، تحقيق: وتقديم محمد سيد كيلاني، دار الفرجاني، القاهرة، طرابلس، لندن سنة ١٩٨٤م، ص١٣.

فحين كتب الأستاذ توفيق الحكيم[1] مقالاً في مجلة الرسالة[2] هاجم فيه العرب وحاول أن يضع من شأنهم في مقابل مجد الفراعنة الذي كان يدعو إليه فكان من مقاله عن العرب أن قال: (كل شيء يحسونه ـ يعني العرب ـ إلا عاطفة الاستقرار وكيف يعرفون الاستقرار وليس لهم أرض ولا ماض ولا عمران؟ دولة أنشأتها الظروف ولم تنشئها الأرض، وحيث لا أرض فلا استقرار وحيث لا استقرار فلا تأمل، وحيث لا تأمل فلا ميثولوجيا ولا خيال، ولا تفكير عميق ولا إحساس بالبناء، لهذا لم يعرف العرب البناء سواء في العمارة أو في الأدب أو في النقد والأسلوب العربي في العمارة من أوهى أساليب العمارة التي عرفها تاريخ الفن، وإذا عاش اليوم فإنما يعيش بالزخرف).

لما كتب الحكيم هذا ردَّ عليه طه حسين في الرسالة أيضًا[3] بمقال تحت عنوان: إلى الأستاذ توفيق الحكيم جاء فيه:

«... ولكن رأيك في العرب وآثارهم في حاجة شديدة جدًّا إلى التقويم وقد ذهب إلى مثل ما ذهبت إليه جماعة من المستشرقين منهم: دوزي[4] ورينان، وأحسبكم جميعًا تظلمون العرب ظلمًا شديدًا وتقضون في أمرهم بغير الحق فلو أنكم ذهبتم تقارنون بين العرب وبين

---

(١) توفيق الحكيم أديب مصري ولد بالإسكندرية سنة ١٣٢٠هـ/١٩٠٢م تخرج من مدرسة الحقوق، له نشاط في مختلف الأنواع الأدبية في الرواية والقصة والمسرحيات توفي سنة ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

(٢) الرسالة. العدد العاشر ١٩٣٣/٦/١م.

(٣) الرسالة في ١٩٣٣/٦/١٥م.

(٤) دوزي: مستشرق هولاندي من أصل فرنسي (١٨٢٠ ـ ١٨٨٣) كان يجيد لغات عديدة، لقي شهرة واسعة وحظي بعضوية كثير من المجامع العلمية وعده المستشرقون أول فاتح للدراسات الأندلسية. المستشرقون ٣٠٨/٢، ٣٠٩.

الهنود والفرس والمصريين القدماء لما كان من حقكم أن تقدموا هذه الأمم في الأدب على الأمة العربية بحال من الأحوال لأننا لا نكاد نعرف من أدب هذه الأمم في تاريخها القديم شيئًا يقاس إلى ما بين أيدينا من الأدب العربي. . .»[1].

والدكتور طه الذي ظل طول حياته يشيد بأدب اليونان وحضارتهم هو نفسه الذي يضع الميراث العربي والإسلامي في موضعه اللائق به، وذلك حين يوضح أن كثيرين من المستشرقين قد كرسوا جهودهم لدراسة آداب العرب لينهلوا من معينها ويقطفوا من أزاهيرها ويجزم الدكتور بأن مجد الأوروبيين الحاضر إنما هو مؤسَّس على ميراثنا العربي يشرح الدكتور هذا الأمر بقوله: «أما أنا فأعتقد أن هذا الأدب العربي المسكين كان سببًا في تأسيس مجد مؤثل لأوروبا، وحسبكم أن تنظروا إلى المجهودات العنيفة التي يبذلها المستشرقون في درس الأدب العرب، ويفنون فيه قوتهم وأموالهم. ما عناية أوروبا وما عناية أمريكا بدرس الأدب العربي؟ ألأنه أدب لا قيمة له؟ أم لأنه أدب له قيمته، خليق أن يدرس؟

إذا استطاعت أوروبا أن تفخر الآن بعلمائها المستشرقين، فأنا واثق بأنها مدينة بهذا للأدب العربي، فلولا سيبويه[2] والجاحظ[3]

---

(١) طه حسين: تجديد. مرجع سابق، ص١٦، ١٧، طه حسين: فصول في الأدب والنقد، المجموعة الكاملة ٤٣٠/٥، ٤٣١ بتصرف.

(٢) سيبويه: لقب شيخ من أئمة فقهاء النحو على مذهب البصريين، اسمه أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر، اختلف في تاريخ مولده ووفاته، ذكر ابن الجوزي أن وفاته سنة ١٩٤هـ وحدد عمره وقت وفاته بأنه كان ٣٢ عامًا، وضع كتابًا في النحو قدر بألف صفحة. دائرة المعارف الإسلامية ٤٠٧/١٢.

(٣) سبق ترجمته، ص٢٨٧.

والمعري وغيرهم لما وجد عند الفرنسين رينان ولا كازانوفا ولا ماسينيون ولا غيرهم»[1].

فخلاصة رأي الدكتور في الحضارة الإسلامية والعربية لم يجاوز بأية حال الثقافة واللغة وحسب، لأنه كان يرى أن الإسلام أخفق في وجوده كدولة ونظام سياسي، ومع ذلك فقد كان طه يؤكد أن (الحضارة العربية والإسلامية لا غنى عنها للمفكر الشرقي بدون الافتقاد إلى الثقافة الغربية)[2].

بعض المستشرقين أكثر إنصافًا:

قد يعجب الإنسان من آراء بعض المسلمين في حضارة الإسلام لمجافاتها للحقائق ولقيامها على أسس باطلة، ولأنهم وقعوا تحت تأثير الانبهار بالحضارة الغربية، ولكن الإنسان لا يعجب حين يرى نفرًا من أهل الغرب أكثر إنصافًا للإسلام وتاريخه وحضارته من بعض العرب والمسلمين.

فرجل مثل جورج سارتون[3] يشترك مع الدكتور طه حسين في إقراره مميزات الحضارة العربية والإسلامية، فيذكر اللغة العربية وأثرها في وحدة المسلمين قائلاً: (ولم يكن النبي محمد يعرف من اللغات غير العربية ومع ذلك فقد قال بسمو هذه اللغة وتفوقها على ما عداها

---

(١) طه حسين: من حديث الشعر والنثر، المجموعة الكاملة ٥/٥٧١ ـ ٥٧٢.

(٢) مصطفى عبد الغني: طه حسين والسلطة في مصر، ص٤٦١.

(٣) جورج سارتون: (١٨٨٤ ـ ١٩٥٦) مستشرق أمريكي من أصل بلجيكي، درس في جامعة واشنطن وهارفارد في تاريخ العلم. عرف بإنصافه للعرب والمسلمين، خلف أكثر من خمسمائة بحث أفضلها المدخل إلى تاريخ العلم وهو ثلاثة أجزاء في خمسة مجلدات. المستشرقون ٣/١٤٧.

وكانت هذه اللغة مظهرًا من مظاهر وحدة المسلمين فيما بعد. وقد جعل النبي بها للمسلمين رابطة ثقافية تجمع قلوب المسلمين على عاطفة ومنطق واحد. . .)[1].

ورد على الذين يعيبون على الحضارة الإسلامية تعاون الأجناس المختلفة في بنائها بقوله: «ويقول خصوم الثقافة العربية إن تعدد جهات الاقتراض ليس خيرًا من الاقتراض من جهة واحدة فليس في أي الحالين ما يدل على ذاتية علمية وهذا النوع من الجدل مغالطة صريحة وخاصة فيما يتعلق بعلوم الرياضيات. . . فلم يقف دور الرياضيين العرب عند نقل التراث الإغريقي أو السنسكريتي فمثل هذا العمل تافه لا طائل تحته، ولكنهم جمعوا هذا إلى ذاك ولقحوا التفكير الإغريقي بالتفكير الهندي، وإذا لم يسم مثل هذا العمل ابتكارًا علميًا. فليس هناك ابتكار في أي علم. فما الابتكار العلمي إلا نسج الخيوط المختلفة وربط بعضها ببعض أما الابتكار من العدم فلا وجود له»[2].

وأشاد بنقل العرب ما لديهم من علم وعدم استئثارهم به حرصًا منهم على نفع الإنسانية وخدمتها فيقول: (وإذا نظرنا للأمر باعتباره الإنساني الواسع لوجدنا أن الثقافة العربية الإسلامية كانت ذات قيمة بالغة الخطر، لأنها لم تكن القنطرة التي وصلت الشرق الأدنى بالغرب فحسب ولكنها وصلت الشرق الأدنى بآسيا البوذية أيضًا وبهذا أصبح الشرق الأدنى حلقة الوصل بين هذين الطرفين المتباعدين)[3].

يشيد سارتون بهذا كله ولكنه قبل ذلك يشيد بالإسلام كمنطلق

---

(١) (٢) (٣) جورج سارتون: العلم الإسلامي، بحث ضمن كتاب الشرق الأدنى مجتمعه وثقافته من ص١٢٠ ـ ١٤٠.

للحضارة فيذكر أن محمدًا جاء بدين (فيه من السماحة وفيه من البساطة والاعتدال ما يسر لأي إنسان في أي موطن أن يتقبله وينفذ إلى روحه وجوهره منذ اللحظة الأولى... وأنه - أي: محمد ﷺ - بشَّر بدين جمع قلوب الناس على عقيدة التوحيد وقد سبق بهذا الاعتبار الفرقة المسيحية التي تقول بالطبيعة الواحدة بقرون تسعة)[1].

فكان جورج سارتون المستشرق الأمريكي أكثر وضوحًا في بيان أثر الإسلام في البعث الحضاري للعرب والمسلمين بما امتاز به من عقيدة سليمة وعبادة صحيحة وأخلاق سامية عجزت النظم والفلسفات الأرضية أن تهتدي لمثلها أو قريب منها.

هذا الجانب الذي لم يكن واضحًا في كلام الدكتور عن الحضارة الإسلامية فقد انتبه لبعض آثار تلك الحضارة كوحدة اللغة الجامعة للمسلمين الممثلة في العربية، ونقل المسلمين للحضارة وعدم استئثارهم بها... ولكن طه أغفل مقومات الحضارة الإسلامية أو أخص مقوماتها وهو مقوم العقيدة والذي تقوم عليه الحضارات بأسرها (فإذا أمكن إقناع إنسان بعقيدة ما، فإنه سينزل عند متطلباتها دون معارضة قوية، من هنا يعتبر عامل العقيدة مهمًا وفاعلاً في التحضر، لأن الإنسان يتأثر تأثيرًا كبيرًا بدينه ومعتقده.. العقيدة أو الدين هو ما يميز الإنسان عن الحيوان، وكافة الحضارات والإمبراطوريات كان لها دين تعتز به، وتستمد التشريع منه.. يقول الفيلسوف البريطاني برنارد شو[2] «كنت

---

(١) جورج سارتون: العلم الإسلامي، بحث ضمن كتاب الشرق الأدنى مجتمعه وثقافته من ص١٢٠ - ١٤٠.

(٢) جورج برنارد شو (١٨٥٦ - ١٩٥٠م)، مسرحي إنجليزي شهير، اشتراكي المذهب، له أعمال مسرحية كثيرة. راجع: علي عبد الفتاح: أعلام في الأدب العالمي، ص١٩٤.

أعرف دائمًا أن الحضارة تحتاج إلى دين، كما أن حياتها أو موتها يتوقفان على ذلك». ثم يتابع «إن الحضارة تسقط في اللحظة التي تكون قوة الإنسان أشد وأكبر من قوة الدين»[1].

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

(١) د. نعمان عبد الرازق السامرائي: نحن والحضارة والشهود، ص١٣٠، ١٣١ بتصرف.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الفصل الحادي عشر

مناهج البحث بين المستشرقين وطه حسين

ويشتمل على تمهيد وستة مباحث:

التمهيد

المبحث الأول: تحكيم الهوى والوهم.

المبحث الثاني: التهوين والتهويل.

المبحث الثالث: الاعتماد على المصادر الضعيفة.

المبحث الرابع: تعميم الخاص - وتخصيص العام.

المبحث الخامس: النقل عن الآخرين بغير وعي.

المبحث السادس: توسيع دائرة البحث وسرعته.

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

مناهج البحث بين المستشرقين وطه حسين

تمهيد

قبل الخوض في الموضوع يحسن بنا الوقوف على مصطلح «مناهج البحث» لمعرفة معناه وما يدل عليه.

المنهج: يدل معناه اللغوي: على الطريق الواضح والمنهاج كالمنهج[1] في المعنى، وفي التنزيل: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾[2].

والمنهج في اصطلاح الباحثين من المناطقة:

«يدل على طائفة من القواعد العامة المصوغة من أجل الوصول إلى الحقيقة في العلم. أو هو طرق كسب المعرفة، أو هو طريق كسب المعرفة، أو هو علم التفكير»[3].

---

(١) الأزهري: تهذيب اللغة، القاهرة ١٩٦٤، ٦٢/٩، والمعجم الوجيز ٦٣٦، مختار الصحاح: ٦٨١.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٤٨.

(٣) د. عبد المجيد دياب، تحقيق: التراث العربي منهجه وتطوره، منشورات سمير أبو داود القاهرة ١٩٨٣، ص٢٢٧.

والبحث في اللغة: لفظ مفرد يدل على إثارة الشيء والتفتيش عنه والاستقصاء في طلبه. قال تعالى: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾[1] واستعملت الكلمة في معنى السؤال، والطلب، والعلم، والكشف عن المجهول، والتحري والتنقيب، والتفتيش[2].

أما عن البحث في إصلاح العلماء: فللعلماء في تعريف البحث تعريفات عدة، منها:

البحث هو عملية تقصي الحقائق وتبويبها وتحليلها. بالنسبة لظاهرة ما أو مشكلة ما لإظهار حقيقة المشكلة وأسبابها وما يناسبها من حلول[3].

وعرفه البعض بأنه: بذل المجهود في موضوع ما وجمع المسائل التي تتصل به[4].

ومن أبرز التعريفات الاصطلاحية لكلمة البحث (أنه وسيلة للاستعلام والاستقصاء المنظم والدقيق الذي يقوم به الباحث بغرض اكتشاف معلومات أو علاقات جديدة بالإضافة إلى تطوير أو تصحيح المعلومات الموجودة فعلاً، على أن يتبع في هذا الفحص والاستعلام الدقيق خطوات المنهج العلمي واختيار الطريقة والأدوات اللازمة للبحث

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٣١.

(٢) ابن فارس: معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الفكر، ٢٠٤/١.

(٣) د. علي عبد الحليم محمود: نحو منهج بحوث إسلامي، دار الوفاء، المنصورة ط١، ١٤١٠هـ/١٩٨٩م، ص١٢.

(٤) المعجم الوجيز، ص٣٧، بتصرف.

وجمع البيانات)[1].

(ويمتاز هذا التعريف بما يلي:

١ ـ دل على المعنى اللغوي للكلمة من حيث الاستعلام والاستقصاء في الطلب، والتفتيش، والكشف والتنقيب.

٢ ـ أشار إلى غاية هذا الجهد الذي يقوم به الباحث سواء لاكتشاف معلومات لم يسبق للباحث معرفتها أصلاً، أو تصحيح وتطوير المعلومات الموجودة فعلاً.

٣ ـ أكد على ضرورة اتباع قواعد معينة، واتخاذ أدوات خاصة لبلوغ هذا الغرض)[2].

وهدف هذا المبحث مقارنة منهج البحث عند طه حسين بمناهج البحث عند المستشرقين لا سيما وقد أعلن الدكتور في أكثر من مرة أنه شديد التأثر بالمستشرقين.

فحين سئل عن مقدار تأثره بالمستشرقين (قال: تأثري بالمستشرقين شديد جدًّا، ولكن لا بآرائهم بل بمناهجهم في البحث، وهذا يوصلني أحيانًا إلى أن أستكشف كثيرًا من الخطأ في آرائهم، لأن علمهم بالعربية وأسرارها ودقائقها أقل من علم المتخصصين العرب)[3].

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

(١) د. أحمد بدر: أصول البحث العلمي ومناهجه، وكالة المطبوعات، الكويت، ط٥، سنة ١٩٧٩، ص١٨.

(٢) د. عبدالله سمك: البحث العلمي بين الأصالة والمعاصرة، ب. ن، ط١، سنة ١٩٩٤، ص٦.

(٣) فؤاد دوارة: عشر أدباء يتحدثون، دار الفكر، مصر، ب. ت، ص٢٠.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

المبحث الأول

تحكيم الهوى والوهم

اتباع الهوى مرض من الأمراض الخطيرة إذا تمكن من نفس جعلها تهيم في الباطل وتخوض فيه ولا ترضى بغيره، وتكره الحق وتضيق به وتسعى لإفساده وإهلاكه. قال الإمام الشاطبي[1]:

(ولقد جعل الله اتباع الهوى مضادًا للحق، وعده قسيمًا له؛ كما في قوله تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[2] وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾﴾[3]. وقال في قسيمه: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾[4].

---

(١) الشاطبي هو الإمام الحافظ أبو إسحاق إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الشاطبي الغرناطي ت٧٩٠هـ، من آثاره: الاعتصام بالسُّنَّة، الموافقات في أصول الشريعة وغيرها راجع الموافقات في أصول الشريعة من مقدمة المحقق.

(٢) سورة ص، الآية: ٢٦.

(٣) سورة النازعات، الآيات: ٣٧ ـ ٣٩.

(٤) سورة النازعات، الآيتان: ٤٠، ٤١.

وقال: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾[1]. فقد حصر الأمر في شيئين: الوحي وهو الشريعة، والهوى فلا ثالث لهما، وإذا كانا كذلك فهما متضادان وحين تعين الحق في الوحي توجه للهوى ضده فاتباع الهوى مضاد للحق... وتأمل فكل موضع ذكر الله تعالى فيه الهوى فإنما جاء به في معرض الذم له ولمتبعيه وقد روي هذا المعنى عن ابن عباس أنه قال: ما ذكر الله الهوى في كتابه إلا ذمه)[2].

واتباع الهوى عامل من عوامل دفعت بعض الباحثين أن يحكم على نتاج معظم المستشرقين بأنها لا توصف بأنها علمية إذ نادرًا ما يتجرد المستشرق في بحثه من ميراثه الديني أو العقيدي حين يعالج أمرًا متعلقًا بالدين.

(فالاستشراق من فرع رأسه إلى أخمص قدميه، غارق في الأهواء، والثقافة الأوروبية والحضارة الأوروبية تستقبل «الأهواء» بلا نكير ولا أنفة بل هي تسوِّغ استعمال رذيلة «الأهواء» في الدنيا وفي الناس بلا حرج، لأنها حضارة قائمة على المنفعة والسلب ونهب الأمم وإخضاعها بكل وسيلة لسلطانها المتحضر)[3].

ولعل هذا الكلام ينسجم مع كلام غوستاف لوبون حين أراد أن يكشف عن سر تعصب المستشرقين ضد الحضارة الإسلامية فقال:

(قد يسأل القارىء: لماذا ينكر تأثير العرب ـ يعني في الحضارة

---

(١) سورة النجم، الآيتان: ٣، ٤.

(٢) الإمام الشاطبي، الموافقات في أصول الشريعة، شرح وتحقيق الشيخ عبدالله دراز، دار المعرفة بيروت، ط٢، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م، ٢/٤٧٠، ٤٧١ بتصرف.

(٣) أ. محمود محمد شاكر: رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، ص١١٧.

الغربية وغيرها ـ علماء الوقت الحاضر الذين يضعون مبدأ حرية الفكر فوق كل اعتبار ديني كما يلوح؟

لا أرى غير جواب واحد عن هذا السؤال الذي أسأل نفسي به أيضًا وهو أن استقلالنا الفكري لم يكن غير الظواهر بالحقيقة، وأننا لسنا من أحرار الفكر في بعض الموضوعات كما نريد.

فالمرء عندنا ذو شخصيتين: الشخصية العصرية التي كونتها الدراسات الخاصة والبيئة الخلقية والثقافية، والشخصية القديمة غير الشاعرة التي جمدت وتحجرت بفعل الأجداد فكانت خلاصة لماض طويل.

فالشخصية غير الشاعرة وحدها، ووحدها فقط هي التي تتكلم عند أكثر الناس وتمسك فيهم المعتقدات نفسها مسماة بأسماء مختلفة، وتملي عليهم آراءهم، فيلوح ما تمليه عليهم من الآراء حرًا في الظاهر فيحترم.

لقد تراكمت أوهامنا الموروثة ضد الإسلام والمسلمين في قرون كثيرة فصارت جزءًا من مزاجنا، فأضحت طبيعة متأصلة فينا تأصل حقد اليهود على النصارى، الخفي أحيانًا، والعميق دومًا)[1].

ولقد تأثر الدكتور طه حسين بالمستشرقين في هذا الجانب فالحسن ما استحسنوه والقبيح ما عابوه.

يقول إسماعيل أدهم وهو أحد تلامذة الدكتور طه حسين واصفًا أبحاث أستاذه.

---

(١) د. مصطفى السباعي: السُّنَّة ومكانتها في التشريع الإسلامي، ص٢٦ نقلاً عن حضارة العرب لجوستاف لوبون، ص٦٨٨ وما بعدها.

(الدكتور طه في نقده للمؤلفات العصرية والأدباء والشعراء المعاصرين يميل كثيرًا مع هواه، لأنه يعتبر النقد عملاً أدبيًا محضًا فيعمل على إظهار تذوقه وتتجلى شخصيته بأغراضها وأهوائها في نقداته ومن السهل أن تستكشف عواطف الدكتور وميوله بل وأهوائه وأغراضه. تستكشف أنه متأثر بالحب في هذا الفصل وبالصداقة في ذلك الفصل والبغض والحسد في ذياك الفصل)[1].

ولعل تحكيم الدكتور للهوى ظهر في كثير من نواحي حياته فهو يتخذ من الهوى أداة للحكم على الأحداث وتفسيرها، ويتخذه أداة لقبول الأحاديث النبوية وردها والحكم بصحتها أو عدمه، ولعل من كلماته المشهورة في هذا السياق هي قوله في إثبات بعض الحوادث: «وأكبر الظن أن ذلك قد كان» وحين يريد نفي شيء يقول: «وأشك أعظم الشك» وكأن إثبات الأمور ونفيها قائم على الشكوك والظنون!

ولعل من القضايا الظاهرة في هذا الجانب إصراره على رمي العرب بتحريق مكتبة الإسكندرية متابعًا في ذلك لنفر من المستشرقين المتعصبين مخالفًا لأساتذته الذين برأوا العرب من تلك الفرية من أمثال كازانوفا وجريفني وغيرهم.

وكذلك يظهر إيثاره للهوى في تفسيره للتاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية بمنظار المفكرين الغربيين الذين يفسرون به التاريخ الغربي والحضارة الغربية مع تباين الواقعين عقيدة ونظامًا وشريعة وبيئة ودوافع تباينًا كليًا... وكذلك قياسه المؤمن السليم الذي يخشى الله

(١) أنور الجندي: طه حسين حياته وفكره في ضوء الإسلام، ص١٥٠.

على الذين لا تردعهم روادع دين ولا خلق وتفسيره لسلوك المسلمين أفرادًا وجماعات بأنه مدفوع بأغراض شخصية، ونوازع نفسية دنيوية وليس أثرًا لدافع ابتغاء مرضاة الله وثواب الآخرة[1].

وأبرز الأمثلة على ذلك اتهامه لبعض النيات في أمر الدخول في الإسلام فيرمي البعض بأنه دخل الإسلام طامعًا حين رأى المسلمين يخرجون من نصر إلى نصر ومن فتح إلى آخر، ويرمي آخرين بأنهم دخلوا في الإسلام كرهًا أو رهبًا فقد أسلموا حين لم يروا من الإسلام بدًا على حد تعبير الدكتور[2]، وكذلك اتهامه للجيل الأول في جهادهم وفضلهم حين يزعم أن فتوحهم كانت من أجل المال والغنيمة وأنهم أرباب دنيا يعملون على جمعها ويتنافسون في طلبها[3] إلى غير ذلك من التهم والشبهات التي وقفنا معها في موضوعها حين تحدّثنا عن موقفه من التاريخ الإسلامي.

إن اتباع الهوى جعله يتناقض مع نفسه فيثبت اليوم أمورًا نفاها بالأمس أو ينفي اليوم أمورًا قد أثبتها بالأمس.

لقد تحول طه بعد عودته من السوربون إلى بعض العادات التي دعا إلى الإقلاع عنها فارتدى الملابس الأوروبية بعد دعوته إلى الالتزام بالزي الشرقي وتشدد في ذلك، وتزوج بأجنبية رغم أنه بالغ في حكم

---

(١) عبد الرحمن حبنكة الميداني: أجنحة المكر الثلاثة، دار القلم دمشق، ط٥ سنة ١٤٠٧هـ/١٩٨٦، ص١٤٨.

(٢) طه حسين: مرآة الإسلام، ص١١٨، ١١٩.

(٣) طه حسين: الفتنة الكبرى (١) ـ عثمان ـ المجموعة الكاملة ٢٧٧/٤، ٢٧٨، ٣١١، ٣١٥، ٣١٧. الفتنة الكبرى (٢) ـ علي ـ المجموعة الكاملة ٤٤٦/٤، ٤٤٧، ٦٢٧.

التزوج بالأجنبيات أو بالكتابيات إلى حكم التحريم القاطع مع أن الحكم محل اختلاف بين العلماء.

(إن الازدواجية ظاهرة بشرية، وجدت مع وجود الظاهرة الحياتية الإنسانية. ولكنها يجب أن لا تتعدى السلوك إلى الفكر، لأن الفكر يتعلق بالإرادة لا بالمنفعة.. لقد عالج طه مواضيعه بازدواجية عجيبة، فتارة يظهر الإيمان كشيخ ملتزم وتارة يربط قصص القرآن بالأساطير، ومرة يعتبر العرب غزاة دخلوا مصر مع دخول الإسلام ومرة أخرى يعتبر لغة العرب هي لغة مصر وأن اللغة العربية، والأدب والدين تمصرت جميعًا منذ قرون ويدعو إلى المصرية المغلقة طورًا ويدعو إلى حضارة البحر الأبيض المتوسط طورًا آخر)[1].

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

(١) عبد الغني الملاح: مقالات في طه حسين، ص١٢٦، ١٣٢ بتصرف.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

المبحث الثاني

التهوين والتهويل

يقال: (هَالَ هَوْلاً: خاف ورعب، وهالت المرأة الناظر بحسنها: أعجبته... وهَوَّلَ على فلان: أفزعه، وهَوَّلَ الأمر: شنعه وبالغ فيه حتى جعله هائلاً.

ويقال: هان فلان هونًا وهوانًا ومهانة: ذَلَّ. وفي أمثالهم: «إذا عز أخوك فهن، وإن عاسرك فياسره، وهان الشيء عليه هوانًا: استخف به»[1].

(**والتهوين**: تفعيل من هوَّن، ويقصد به منهج من مناهج المستشرقين أرادوا به إطفاء وهج المبادئ الفاضلة، وألق الشخصيات البارزة في الإسلام لتظهر في صورة غير جديرة بالانتباه ولا الذكر فضلاً عن الاحترام والتقدير.

والتهويل: تفعيل من هوَّل، وأعني به تضخيم ما لا يستحق، وإبراز الأمور على غير ما هي عليه وتضخيمها، وتصديرها في صورة

(١) أ. إبراهيم مصطفى وآخرون: المعجم الوسيط ٢/١٠٠.

الخطايا التي تشوه الإسلام)[1].

ولقد برزت تلك السمات في بحوث المستشرقين من خلال محاور متعددة مثل:

(١ ـ تضخيم الأخطاء الصغرى وجعلها تطغى على ساحة صورة تاريخ المسلمين، وطمس الصورة الرائعة المشرقة في هذا التاريخ.

٢ ـ تجميع الهفوات التي لا تخلو منها أمة مهما عظمت كمالاتها ووضعها في صورة واحدة، وتقديمها على أنها هي كل صورة تاريخ المسلمين.

٣ ـ تفسير النصوص والحوادث والوقائع والنيات والغايات تفسيرات لا تتفق مع دلالاتها وأماراتها الحقيقية ولا مع النتائج التي أثبتها تاريخ الأمة الإسلامية)[2].

ولقد برز هذا المنهج لدى المستشرقين في كل ما يتعلق بالإسلام جملة وتفصيلاً فحاولوا أن يضعفوا من شأن الإسلام فادعوا أنه مقتبس من مصادر يهودية ونصرانية وأنه لم يأت بجديد عمن سبق من الشرائع وادعوا أنه رسالة تهذيبية تهدف إلى تربية الشعور وتقويم الأخلاق ولا شأن له في وقائع الحياة، وادعى كثير منهم أن تاريخ المسلمين لا يتميز عن تاريخ غيرهم فهم ـ يعني المسلمين الأوائل ـ أرباب دنيا تنافسوها كما تنافسها من قبلهم ومن جاء بعدهم!

ليس هذا فحسب بل عمدوا إلى الحركات الهدامة في التاريخ

---

(١) ناصر محمد إسماعيل، دوافع الاستشراق وموازين البحث عن المستشرقين (رسالة ماجستير)، ص١٩٩.

(٢) عبد الرحمن حبنكة الميداني: أجنحة المكر الثلاثة، ص١٤٧.

الإسلامي كحركة الزنج والقرامطة والبهائية والقديانية وغيرهم فجعلوها حركات بطولية تعمل لخير الإنسان ورفعة شأنه[1].

ولئن كان المستشرقون في ذلك كله مدفوعين لأغراض كامنة في نفوسهم أظهرها النيل من الإسلام وتشويه تعاليمه، فما الذي حدا بالدكتور طه حسين أن يشاركهم في صنيعهم وأن يسير على مثل طريقهم.

فالدكتور يوهن من شأن تعاليم الإسلام حين يدعي أن الإسلام بشرائعه وتعاليمه مجرد صلة بين العبد وربه، وأن الحكم وسياسة الناس أمر مرده إلى الناس يتخذون إليه الوسائل والأسباب التي يرونها مفيدة لهم وإن نبذوا كتاب الله وسنة رسوله جانبًا ويوهن الدكتور من شأن الصحابة حين يعالج تاريخهم كما يعالج تاريخ اللصوص في حانات باريس ولندن ويرمي مؤرخي المسلمين بأنهم كانوا أسرى ما أسماه ـ بنظرية تقديس السلف ـ فإذا به:

يفسر التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية بالمنظار الذي يفسر به الغربيون تاريخهم مع تباين الواقعين عقيدة وشريعة ونظامًا، ويرفض الحق بالنفي المجرد الذي لا يدعمه دليل صحيح مقبول في المنهج العلمي السليم، ويركز على الشخصيات الضالة كالحلاج والسهروردي وأبي نواس وابن الراوندي ويحاول تحطيم شخصيات عظيمة مثل ابن خلدون والمتنبي، ويعظم من شأن الأثر الفارسي والهندي واليوناني، ويحاول أن يجعله مصدرًا للفكر الإسلامي.

---

(١) راجع: د. محمد أحمد الخطيب: الحركات الباطنية في العالم الإسلامي، مكتبة الأقصى، الأردن، وعالم الكتب السعودية، ط٢ سنة ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م، ص٨ وما بعدها.

ومن تهويله إفراطه في تعظيم النموذج الغربي كشخصيات ونظم حياة فيشيد بالديمقراطية الغربية متناسيًا أو متجاهلاً الشورى الإسلامية ويرفع شأن النظم الغربية في الحكم، ويضع من كل ما سواها، ويدعو للذوبان في الحضارة الغربية بحلوها ومرها ما يحمد منها وما يعاب!

ومن أبرز خلال الدكتور اعتداده بنفسه إلى درجة تصل به حد الفتون، تلمح ذلك في أسلوبه الذي لا يخلو عن مبالغة وتهويل، ومن أمثلة ذلك قوله:

(كنت أريد أن أضع كتابًا في «ديكارت» واضطرني ذلك إلى كثير من البحث والتحقيق، ولكني لا آسف على ما لقيت من عناء فقد وصلت إلى نتائج غريبة لو أعلنتها في فرنسا لاندك لها السربون ولاضطربت لها الكوليج دي فرانس، ولأعلن لها المجمع العلمي الفرنسي إفلاسه، ولا تضحك ولا تعجب فلست أحدثك إلا بالحق الذي لا شك فيه ولا غبار عليه)[1].

ومما يؤكد على تعمق هذا المعنى في نفس الدكتور قوله في مقدمة كتابه «المعذبون في الأرض»:

(لا أضع قصة تخضع لأصول الفن، ولو كنت أضع قصة لما التزمت إخضاعها لهذه الأصول، لأنني لا أؤمن بها ولا أذعن لها ولا أعترف بأن للنقاد مهما يكونوا أن يرسموا لي القواعد والقوانين مهما تكن ولا أقبل من القارئ مهما ترتفع منزلته أن يدخل بيني وبين ما أحب أن أسوق من الحديث، وإنما هو الخاطر يخطر لي فأمليه ثم

(١) طه حسين: من بعيد، المجموعة الكاملة ٢١٢/١٢، ٢١٣.

أذيعه فمن شاء أن يقرأه فليقرأه، ومن ضاق بقراءته فلينصرف عنه)[1].

فهو كما يقول أحد الكتاب[2]: (يضع نفسه فوق النقد، لا يحب أن يسمعه ولا يعترف به، ولا يريد أن يقيم له وزنًا. ولماذا؟ لأنه يريد أن يكون حرًا فيما يكتب ويذيع على الناس! وكيف إذن بنى طه حسين مجده الأدبي؟ ألم يكن ذلك على حساب غيره من الأدباء القدامى والمحدثين على السواء)[3].

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

(١) طه حسين: المعذبون في الأرض، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مكتبة الأسرة ١٩٩٦، ص٢٢.

(٢) هو الأستاذ محمود عبد المنعم مراد في جريدة المصري الصادرة في ١٩٥٣/١/٣٠م.

(٣) نقلاً عن: أنور الجندي، طه حسين حياته وفكره في ضوء الإسلام، ص١٧٥.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

المبحث الثالث

الاعتماد على المصادر الضعيفة

يعتمد المستشرقون في أبحاثهم التي يقومون بها عن الإسلام على مصادر لا تعبر عن الإسلام في سمو تعاليمه وصفاء أفكاره إذ يرجعون فيما يكتبون إلى آراء غلاة الشيعة وآراء أئمة المعتزلة أو آراء المستشرقين الكبار الذين سبقوهم على طريقهم والذين يثقون بعلمهم وقدرتهم مع أن هذه المصادر كلها ليست أصيلة في بابها ولا يعتبر بها مرجعًا للحديث عن الإسلام[1].

(ويتحكم المستشرقون في المصادر التي ينقلون عنها فهم ينقلون من كتب الأدب ما يحكمون به في تاريخ الحديث النبوي، ومن كتب التاريخ ما يحكمون به في تاريخ الفقه، ويصحون ما ينقله الدميري[2]

(١) راجع: د. مصطفى السباعي: السُّنَّة ومكانتها في التشريع الإسلامي، ص٤ وما بعدها.

(٢) الدميري هو محمد بن موسى بن عيسى كمال الدين من مواليد القاهرة عام ٧٥٠هـ الموافق ١٣٤٩م، وينسب إلى دميرة البحرية وهي بلدة بالقرب من سمنود أشهر مؤلفاته حياة الحيوان، توفي بالقاهرة عام ٨٠٨هـ (١٤٠٥م)، دائرة المعارف الإسلامية ٩/٢٩٠.

في «حياة الحيوان» بينما يكذبون ما يرويه مالك في «الموطأ»)[1].

ولقد تابع الدكتور طه حسين أساتذته من المستشرقين في اعتماده على المصادر الضعيفة وأبرز صورة لذلك هو كتابه عن «الفتنة الكبرى» فحين أراد أن ينكر وجود شخصية «عبدالله بن سبأ» المعروف «بابن السوداء» لم يجد من مصدر يرد إليه هذا الإنكار سوى «فتوح البلدان» «للبلاذري» هذا الكتاب الذي قال عنه العلماء: إنه كتاب ملفق والصهيونية هي التي عملت على إخراجه فكانت طبعة الكتاب الأولى في إسرائيل.

وتناسى الدكتور المصادر الكثيرة التي تثبت أمر عبدالله بن سبأ، ومنها تاريخ الطبري ـ الذي كان الدكتور يكثر الاستدلال به ثم تجاهله في هذا الموضع كما تجاهل غيره من الكتب المعترف بها في هذا الشأن مثل الملل والنحل للشهرستاني[2]، والفصل في الأهواء والنحل لابن حزم[3].

بل نستطيع القول بأن الدكتور اعتمد في كتابته للتاريخ الإسلامي على سواقط الروايات التي روجها أعداء الإسلام من غلاة الرافضة أو من الشعوبيين، والناظر في كتبه تلك يجد أنه أذاع القواصم التي لفقت على تاريخ المسلمين والتي تصدى لها علماء الإسلام من قديم كالعلامة أبي بكر ابن العربي في كتابه «العواصم من القواصم» والذي رد على

---

(١) د. علي محمد عبد الوهاب: بين الإسلام والغرب، ص٢٣١.

(٢) سبق ترجمته، ص٤٦٢.

(٣) ابن حزم (٣٨٤هـ/٩٩٤م ـ ٤٥٥هـ/١٠٦٤م) فقيه عربي متكلم ومؤرخ وشاعر أندلسي ولد بقرطبة، تحمس في البداية للشافعية ثم تحول إلى آراء الظاهرية، من آثاره: «الفصل في الملل والأهواء والنحل»، المعجم الإسلامي، ص١٧.

كثير من المفتريات التي أذاعها الدكتور طه حسين في العصر الحديث عن تاريخ المسلمين في العصور الأولى.

(لقد أطلق طه حسين لسانه في أصحاب رسول الله ﷺ شتمًا وتجريحًا لا يكاد يستثني من ذلك أحدًا منهم... ولقد اعتمد في كل ما ذكره عن الصحابة على روايات لا أصل لها، وهو الذي رد روايات صحيحة وبعضها بلغ حد التواتر... وما اكتفى بالروايات التي لا أصل لها، وإنما كان يكثر من القول: وما أستبعد، وأظن، وأضمر في نفسه [يقصد الصحابي] وبعد هذه الكلمات يترك المجال لخياله الخصب ثم يسجل خواطره الشريرة ويزعم أن هذا من التاريخ)[1].

وحين أراد أن يخرج للناس بعض الكتب التاريخية ركز على بعض الكتب التي تشوش الذهن وتبلبل الفكر (فكان أن ركز على كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني تركيزًا شديدًا مع أن هذا الكتاب بإجماع المؤرخين لا يصلح للغرض الذي قصد إليه، لأنه إنما ألف للتسلية واللهو ولكتابة فصول عن أهل الأغاني وهم شطيرة قليلة من المجتمع لا تمثله ولا تؤثر فيه تأثيرًا صحيحًا)[2]، والدكتور يتعاون مع الأستاذ إبراهيم الإبياري[3] في إخراج كتاب تجريد الأغاني[4] الذي ألفه ابن

---

(١) د. جمال عبد الهادي وآخرون: الزور والبهتان فيما كتبه طه حسين في الشيخان، ص٩٣، ٩٨ بتصرف.

(٢) أنور الجندي: محاكمة فكر طه حسين، ص٣٥١، ٣٥٢.

(٣) إبراهيم الإبياري: مؤرخ ومؤلف ومحقق مصري، شارك مع الدكتور طه حسين في تحقيق بعض المؤلفات مثل: تجريد الأغاني لابن واصل الحموي، من آثاره: معاوية، طه حسين مؤرخًا وغيرها، وله بحث بعنوان: طه حسين المؤرخ الإسلامي. راجع: تجريد الأغاني، معاوية للإبياري.

(٤) هو مختصر لكتاب الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني.

واصل الحموي[1] المتوفى سنة ٦٩٧هـ، ويكتب في تقديمه (هذا كتاب من كتب القرن السابع للهجرة، ننشره للناس لأنه بعض تراثنا القديم؛ الذي يجب إحياؤه وتمكين الأجيال المعاصرة من الانتفاع به ما استطعنا إلى ذلك سبيلًا وننشره كذلك لأن أوساط المثقفين في هذا العصر أشد ما يكونون حاجة إليه فهو يقرب إليهم من الأدب العربي القديم بعيدًا وييسر لهم منه عسيرًا... ستجد فيه أدبًا كثيرًا قيمًا، وقصصًا كثيرًا رائعًا، وتاريخًا كثيرًا نافعًا... ولست أخفي على القراء أني أقرأ كتاب الأغاني فأستمتع بأسانيده كما أستمتع بما يروى فيه من الشعر والأحاديث)[2].

(وكذلك عمل الدكتور على إخراج كتاب «المغني» للقاضي عبد الجبار[3]، وهو كتاب يصور مذاهب المعتزلة في علم الكلام.

وحين تولى اللجنة الثقافية في جامعة الدول العربية عمل على إخراج بعض الكتب التي تتوافق مع رغباته فيهتم بإخراج أنساب الأشراف الذي ينفي صاحبه وجود عبدالله بن سبأ، ويخرج كتاب البرهان في وجه البيان لأبي الحسن إسحاق بن إبراهيم بن وهب الذي

---

(١) ابن واصل الحموي (المتوفى سنة ٦٩٧هـ) جمال الدين أبو عبدالله محمد بن سالم بن نصر الله بن واصل الحموي، اختصر كتاب الأغاني لأبي فرج الأصفهاني وسماه تجريد الأغاني، طبعة الدكتور طه حسين سنة ١٩٥٥م. راجع: تجريد الأغاني مقدمة الكتاب.

(٢) ابن واصل الحموي: تجريد الأغاني، تحقيق: د. طه حسن وإبراهيم الإبياري، مطبعة مصر ١٣٧٤هـ/١٩٥٥ مصر ١٣٧٤هـ/١٩٥٥م، ص أ، ج بتصرف.

(٣) القاضي عبد الجبار: شافعي، أصولي، كان شيخ المعتزلة في عصره، لقب بقاضي القضاء، ولي قضاء الري، توفي عام (٤١٥هـ/١٠٢٥م). المعجم الإسلامي، ص٤٥٩.

نشره الدكتور باسم «نقد النثر» وجعل اسم مؤلفه إلى أبي الفرج قدامة[1] بن جعفر الكاتب البغدادي وقد كشف أحد الباحثين أن الكتاب ليس كتاب قدامة، وإنما نسبه الدكتور إلى قدامة، لأن قدامة تلميذ اليونان فأراد الدكتور أن يرسخ ما يفيد أن اليونان كان لهم أثرهم في البيان العربي)[2].

لم يصب الدكتور طه حسين حينما اعتمد المذهب الغربي الذي يرتكز على النظر العقلي وحده وفصل الدراسات الشرعية عن التاريخ وأعطى لنفسه حق النقد للجيل الفريد من خلال روايات لا يوثق في صحتها.

ولم يعن الدكتور باختيار مصادر البحث فأخذ من كتب الروافض ومن كتب التاريخ التي لم تعن بتحقيق الأخبار ما جعله أساسًا لكتابته مما جعله ينتهي إلى نتائج غير طيبة فيها كثير من الجرأة والتحكم ولو اعتنى الدكتور باختيار مصادره لما دخل هذا المدخل فالمصادر بالنسبة للمؤرخ تشكل أهمية كبرى، لأنه بدون توافر المصادر الموثقة لا نستطيع أن نكتب بحث تاريخي صحيح. (والتاريخ معرفة نقلية تعتمد على الأخذ من المصادر، ولأن التاريخ خبر عن حدث وقع وانتهى فلا يغني فيه الخيال والرجم بالغيب كما يفعل الأديب والقاص والشاعر)[3].

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

(١) أبو الفرج قدامة بن جعفر (.... - ٣١٩هـ/ ... - ٩٣١م) جعفر بن قدامة بن زياد (أبو القاسم) من الكتاب، له مصنفات في صنعة الكتابة وغيرها. معجم المؤلفين ٤٩٣/١.

(٢) أنور الجندي: محاكمة فكر طه حسين ٣٥٠، ٣٥١.

(٣) د. جمال عبد الهادي وآخرون: الزور والبهتان، ص١١٦.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

المبحث الرابع

تعميم الخاص وتخصيص العام

وهذا الأمر واضح في أبحاث كثير من المستشرقين في دراساتهم عن الإسلام إذ يعمدون إلى (إطلاق حكم عام على شيء ما، بناءً على التشابه الجزئي بين المحكوم عليه، وبين ما يعاب به من المذاهب والمعتقدات ويكون التعميم الباطل من وجهين.

الوجه الأول:

أن يكون للفظ العام تطبيقات جزئية مقبولة ومعقولة وفيها حق وخير وهي تقع ضمن دوائر وحدود خاصة، والناس يطلقونه دون بيان حدوده الخاصة، فهو يتردد على الألسنة دون قيود ويستغل المفسدون المضللون هذا اللفظ بإطلاقه، ويعطونه مدًا تعميميًا، ليكون له في نفوس الجماهير صدى عام يشمل مساحات لا يصح أن يشملها، فإذا طبق على هذه المساحات الواقعة وراء الحدود المعقولة المقبولة كان تطبيقه باطلاً ونجم عنه شر وفساد مثل ألفاظ: الحرية، المساواة، التقدم، الواقعية، المثالية، الرجعية، الوطنية، القومية إلى غير ذلك من

ألفاظ مطلقة)[1].

فهذه الألفاظ العامة يستخدمها كثير من المفسدين حسب أهوائهم إذ أن هذه الألفاظ حمَّالة أوجه تفيد معاني طيبة تثمر الخير، وتفيد معاني أخر تحمل في طياتها الشر المستطير، فمثلاً لفظة الحرية يفهمها هؤلاء على أنها (الحرية المطلقة والتي تعني أن يريد الإنسان ويعمل ما يريد من غير أن يكون لأي شيء آخر سلطان على إرادته وعمله)[2] بينما يفهمها الناس (أن للإنسان الحرية فيما يقول أو يفعل أو يميل إليه إذا كان ذلك ضمن المبادئ الأخلاقية والاجتماعية، فهي حرية مقيدة بضوابط الدين والأخلاق وصالح الجماعة التي يعيش فيها الإنسان)[3].

نعم رددت هذه الكلمات وحملت على محمل الهدم والتدمير لا البناء والتشييد، فإذا الواقع كما يقول سفهاء صهيون في بروتوكولاتهم: (لقد كنا أول من صاح في الشعب فيما مضى بالحرية والمساواة والإخاء، تلك الكلمات التي راح الجهلة في أنحاء العالم يرددونها بعد ذلك دون تفكير أو وعي... وأنهم لفرط ترديد هذه الكلمات حرموا العالم من الإخاء كما حرموا الأفراد من حريتهم الشخصية)[4].

لقد نادى كثير من مثقفي العالم العربي والإسلامي بالحرية المطلقة والمساواة المطلقة وغير ذلك من الدعاوى المغلوطة التي إن

---

(١) أ. ناصر محمد إسماعيل: دوافع الاستشراق وموازين البحث عند المستشرقين، ص٢٤٤.

(٢) أحمد أمين: الأخلاق، مطبعة دار الكتب سنة ١٣٤٨هـ/١٩٢٩م، ص٧٨.

(٣) د. مصطفى السباعي: اشتراكية الإسلام، دار الشعب، ب. ت، ص٨٧.

(٤) شريب سبيريدو فيتش: حكومة العالم الخفية، ترجمة: مأمون سعيد دار النفائس، بيروت، ط٧، ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م، ص٢٨.

انطلت على بعض الناس لا تنطلي على المسلم الحاذق فللحرية سقف تنتهي إليه وضابط يحدها والمساواة المطلقة في كل شيء لا تمكن وليست من العدل في شيء ولئن غالى الاشتراكيون في طلب تلك المساواة فقد باءت جهودهم بالفشل، لأنهم يخالفون نواميس الكون الغلابة التي قضت باختلاف الناس بطبيعتهم في قواهم وملكاتهم وفي جدهم ونشاطهم.. فالتعامل معهم على أنهم نسخ متشابهة لا فرق بين هذا وذاك في وسائل الحياة كالمال ونحوه كان ذلك مجافيًا للعدل فليس من العدل تساوي الجميع في الدخل والكسب طالما اختلف الناس في سعيهم ونشاطهم، نعود فنقول: لقد حملت هذه الألفاظ على بعض معانيها وهدف من وراء ذلك الاتجاه ترويج دعايات كاذبة والدعوة لآراء هدامة فكان من هذا الباب ما تحدث عنه الدكتور طه حسين من الدعوة إلى «حرية الإبداع» أو «حرية الأديب» وما سموه «بأخلاقية الأدب» والذي يعني أن يكتب الأديب روايته أو قصته أو مقالته بحرية مطلقة دون مراعاة لدين أو خلق أو تقاليد محترمة ارتضاها المجتمع لنفسه ورضيها له الدين بدعوى أن مراعاة هذه الجوانب يحد من الإبداع أو يعوق ذهن الأديب عن الإنتاج الحر الذي يرمي إليه.

الوجه الثاني:

(من أوجه التعميم الباطلة أن تقدم الملاحظة أو التجربة العلمية أمثلة محدودة جرت في أفراد العام كنوع أو جنس، وهذه الأمثلة لا يصح بناء قاعدة كلية عامة عليها في المنهج السليم، ولكن المضللين يوهمون بأن هذه الأمثلة المحدودة. التي جرت في أفراد معدودة كافية لإعلان قاعدة كلية أو قانون شامل لكل أفراد النوع أو الجنس.

ولعل من باب ذلك إعطاء المستشرقين للغرب صورة مشوهة عن الإسلام بأنه ليس إلا القرامطة والحشاشون وغيرهما من الفرق الضالة التي لا تمت إلى الإسلام بصلة وذلك في نفس الوقت الذي يدافعون فيه عن هذه الفرق المنحرفة ويصفونهم بأنهم أصحاب حق وطلاب عدل)[1].

ولقد سار الدكتور على هذا النحو ودخل مدخل المستشرقين فوصف حركتي الزنج والقرامطة بأنهما من حركات التحرر الاجتماعي وكان قيامها للمطالبة بالحقوق الاجتماعية وجهادًا في تحقيق العدل وشيء من المساواة![2].

ومن هذا الباب أيضًا زعمه أن القرن الثاني للهجرة قد كان عصر لهو ولعب وعصر شك ومجون[3] متخذًا من أبي نواس ومن في طبقته أو على شاكلته من الشعراء مثالاً صادقًا للعصر الذي عاشوا فيه متناسيًا أن رسول الله ﷺ شهد لهذا القرن بالخير وأنه إن وجد فيه أمثال أبي نواس وبشار وغيرهم فقد وجد فيه أئمة الفقه والتقى من أمثال: الحسن البصري والشافعي ومالك بن أنس وأبو حنيفة النعمان ومالك بن دينار وعبدالله بن المبارك ورابعة العدوية وابن سيرين والشعبي وغيرهم رضوان الله عليهم أجمعين[4].

(١) ناصر محمد إسماعيل: دوافع الاستشراق وموازين البحث عند المستشرقين، ص٢٤٧.
(٢) طه حسين: مرآة الإسلام، ط، المعارف، ص٢٩٤.
(٣) أنور الجندي: محاكمة فكر طه حسين، ص٦٥.
(٤) أنور الجندي: محاكمة فكر طه حسين، ص٦٥.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

المبحث الخامس

النقل عن الآخرين بغير وعي

دأب كثير من المستشرقين المحدثين أن يتناولوا آراء من سبقهم من أئمة الاستشراق مأخذ التسليم ثقة منهم في عملهم، مع أن كثيرًا من تلك الآراء تنبع من التحامل خاصة ما يتعلق بالدراسات الإسلامية أو تاريخ العرب والمسلمين.

وقد ذكر الدكتور مصطفى السباعي[1] أنه التقى بعدد من المستشرقين وحادثهم عن أخطاء أساتذتهم فأقره بعضهم وخالفه البعض فيذكر الدكتور السباعي (أنه التقى في جامعة كمبريدج بالمستشرق المعروف (آربري)[2] المتخصص في اللغة العربية، وأنه قال له خلال

---

(١) مصطفى السباعي (١٣٣٣ ـ ١٣٨٤هـ/١٩١٥ ـ ١٩٦٧م) خطيب وداعية ومؤلف ومجاهد سوري، نال الدكتوراه من الأزهر في التشريع الإسلامي وتاريخه، شارك مع الإخوان المسلمين في حرب فلسطين من آثاره السُّنَّة ومكانتها في التشريع الإسلامي، معجم المؤلفين ٨٥٩/٣.

(٢) آربري، أ، ج. المولود سنة ١٩٠٥ مستشرق إنجليزي تخرج من كلية بمبروك في كمبريدج وعين أستاذًا للغة الفارسية في مدرسة الدراسات الشرقية والإفريقية، وهو يتقن اللغة العربية، عين رئسيًا لقسم الدراسات القديمة بالجامعة المصرية من عام (١٩٣٢ ـ ١٩٣٤)، وانتخب عضوًا بالمجمع العلمي العربي بدمشق، المستشرقون ١٣٦/٢.

لقائهما: «إننا ـ نحن المستشرقين ـ نقع في أخطاء كثيرة في بحوثنا عن الإسلام، ومن الواجب أن لا نخوض في هذا الميدان لأنكم ـ أنتم المسلمين العرب ـ أقدر منا على الخوض في هذه الأبحاث» ثم يتابع السباعي قائلاً:

وفي مانشستر (إنكلترا) اجتمعت بالبروفسور «روبسون»[1] وكان يقابل سنن أبي داود على نسخة مخطوطة، وله كتابات في التاريخ الحديث، يتفق فيها غالبًا مع آراء المستشرقين المتحاملين، وقد حرصت على أن أبين له أن الدراسات الاستشراقية السابقة فيها تحامل وبعد عن الحقيقة وتعرضت لآراء جولدزيهر وأثبت له أخطاءه التاريخية والعلمية فكان مما أجاب به عنه: «لا شك أن المستشرقين في هذا العصر أكثر اطلاعًا على المصادر الإسلامية من جولدزيهر نظرًا لما طبع ونشر وعرف من مؤلفات إسلامية كانت غير معلومة في عصر جولدزيهر فقلت له: أرجو أن تكون أبحاثكم ـ المستشرقين ـ في هذا العصر أقرب إلى الحق والإنصاف من جولدزهير ومرجليوث وأمثالهما فقال أرجو ذلك»)[2].

ولقد كان من أساليب المستشرقين الماكرة أن اختطوا لأنفسهم طريقة دأبوا عليها في نقد الديانات الأخرى وخاصة الإسلام (يشير أحدهم إلى فكرة ما من طرف خفي، ويليه آخر فيقرر أن هذه الفكرة جائزة ويأتي ثالث فيرفع هذا الحوار إلى مرحلة النظرية، أما الرابع

---

(١) روبسون جيمس المولود سنة ١٨٩٠ مستشرق إنجليزي تخرج من جامعة جلاسجو وحصل على الماجستير والدكتوراه في الأدب، عين أستاذًا للعربية في جامعة مانشستر ١٩٤٩. المستشرقون ٢/١٢٤.

(٢) الدكتور مصطفى السباعي: السُّنَّة ومكانتها في التشريع الإسلامي، ص١٤ ـ ١٥.

فيخلق من النظرية حقيقة، وهكذا تتطور الفكرة أربعة أطوار أو خمسة إلى أن ينتهي بها المطاف إلى أن تصبح حقيقة مقررة، ومثال ذلك جاء الدكتور «فيجانا»[1] فقدم قصة فحواها أنه عثر على ترجمة سريانية للقرآن الكريم سقط منها بعض أجزائها يريد بذلك أن يوهم القارئ أنه ربما ضاع شيء من القرآن، وكان «فيجانا» هذا قد حاول قبل ذلك أن يشكك في صحة القرآن فباء بالفشل الذريع فجاء مرجليوث فالتقط الخيط فأشار إلى أن فيجانا عثر على نسخة سريانية عريقة في القدم، وأشار إلى وجود خلافات ذات بال في المخطوطات القديمة وهذه العريقة في القدم التي أشار إليها مرجليوث لم يمر عليها إلا أقل من عام، ولكنه يحاول أن يضع في يد الخصم سلاحًا يحارب به القرآن)[2].

وهذا ما حدث بالفعل إذ اتخذ المستشرقون من قضية «تمام القرآن وجمعه» شبهة كبيرة أرغوا حولها وأزبدوا حتى انطلت الشبهة على بعض المسلمين فرددها وأثار غبار الشبهات حولها، وكان ممن سقط في هذا المنزلق الدكتور طه حسين إذا ادعى (أن عثمان بن ﷺ حين جمع الناس على مصحف واحد وحرق ما سواه أضاع على المسلمين شيئًا من دينهم، وإن لم يكن كذلك فقد أضاع على العلماء والباحثين كثيرًا من العلم بلغات العرب ولهجاتها، ثم يؤكد أن الأمر أعظم وأخطر شأنا من علم وبحث الباحثين عن اللغات واللهجات فكأن

---

(١) فيجانا. إبرو مستشرق برتغالي خلف لويس على كرسي العربية في كلية الآداب بلشبونة ثم علمها في معهد اللغات الأفريقية والشرقية وانتخبت عضوًا في مجمع التاريخ البرتغالي، من آثاره: سيرة الرسول. المستشرقون ٢٦٨/٢.

(٢) أنور الجندي: التبشير والاستشراق والدعوات الهدامة، ص٢٠٨، ٢٠٩.

كلام الدكتور تصريح بضياع بعض القرآن)[1].

ولقد وقع الدكتور طه حسين في خطأ النقل عن المستشرقين دون تمحيص آرائهم وأقوالهم الأمر الذي حمله كثير من أوزارهم وتبعاتهم.

ولعل موضوع الشعر الجاهلي من أشهر الموضوعات في هذا الباب إذ أخذ الدكتور طه حسين موضوع كتابة الشعر الجاهلي عن مقالة للمستشرقين ديفيد صمويل مرجليوث تحت عنوان: أصول الشعر العربي[2].

ولقد أصدر الدكتور كتابه في الشعر الجاهلي عام ١٩٢٦م بعد نحو عام من ظهور مقالة مرجليوث[3].

يقول الأستاذ أنور الجندي: (ويكاد طه حسين في كل أعماله الكبرى أن يكون خاضعًا للاستشراق متأثرًا به تابعًا له معليًا من قدره متحدثًا عن فضله على الأدب العربي والفكر الإسلامي.

فكتابه في الشعر الجاهلي = أخذ نظريته من مرجليوث.

ورأيه في المتنبي = أخذه من بلاشير.

وبحثه عن ابن خلدون = أخذه من دوركايم.

---

(١) راجع: د. طه حسين: الفتنة الكبرى (١) ـ عثمان ـ، المجموعة الكاملة ٣٧٩/٤.

(٢) د. محمد مصطفى هدارة: موقف مرجليوث من الشعر العربي، بحث ضمن كتاب مناهج المستشرقين في الدراسات العربية الإسلامية، الصادر عن مكتب التربية العربي لدول الخليج ٣٩٧/١.

(٣) صدر مقال مرجليوث في عدد يوليو سنة ١٩٢٥ من مجلة الجمعية الآسيوية الملكية التي تصدر بلندن.

ومذهبه في النقد = أخذ نظريته من تين وبرودنير.

واتجاهه في حديث الأربعاء = أخذه من سانت بيف)[1].

ولقد صارح بعض المثقفين الدكتور طه حسين بأنه استمرأ السطو على آراء المستشرقين، وكان على رأس هؤلاء المثقفين الدكتور زكي مبارك الذي خاطب طه قائلاً:

(ذهبتَ إلى باريس على نفقة الجامعة، ومضيتُ أنا متوكلاً على الله... ولم تكن رسالتك عن ابن خلدون إلا نُسخًا من آراء مسيو كازانوفا.. واتصلتُ أنا بمسيو مرسيه ففرضتُ عليه آرائي فرضًا.

وقف مسيو ماسينيون يوم أديتَ امتحان الدكتوراه فقال:

إنني حين أقرأ بحث طه حسين أقول: هذه بضاعتنا ردت إلينا، وحين أقرأ أبحاث زكي مبارك أشعر بأني أواجه شخصية جديدة.

مضيتَ فانتهبت آراء المستشرقين، وتوغلت فسرقت حجج المبشرين... كُنتَ لوحة إعلانات لا تذيع الرأي إلا لتغيظ الجمهور، ولتصبح حديث الناس في الأندية والمجتمعات)[2].

وأراد الدكتور زكي مبارك أن يدلل على صدق ما ذكره من سطو طه على آراء المستشرقين فقال:

(إنه - يعني طه حسين - ينقل عن كتب الغرب فأحيانًا ينقل

---

(١) أنور الجندي: طه حسين حياته وفكره في ضوء الإسلام، ص٣٤.

(٢) نقلاً عن: محمود مهدي الإستانبولي: طه حسين في ميزان العلماء والأدباء، ص٣٢٩.

الأسماء العربية بفرنسيتها دون أن يتنبه لها، وقد نشرت له جريدة السياسة محاضرة كان ألقاها جاء فيها:

«ولكن شجرت بين الفريقين اليمانيين والقيسيين معركة مرجرات» ومعركة مرجرات لا يعرفها العرب بهذا الاسم وإنما يعرفونها مرج راهط وعذر الدكتور أنه كان يذهب إلى حديقة المستشرقين في الليل ينتهب تفاحة أو تفاحتين. حسب أن مرجرات كلمة فارسية فراح يلوكها في محاضراته)[1].

والأستاذ محمود محمد شاكر يرمي الدكتور طه حسين بنفس العيب الذي رماه به الدكتور زكي مبارك وغيره، إذ كان الأستاذ شاكر أول من كشف أن ما قاله الدكتور طه حسين في الجامعة المصرية وما ضمنه بعد ذلك كتابه «في الشعر الجاهلي» عن موضوع الشعر الجاهلي ما هو إلا سطو مجرد على مقالة مرجليوث بعد حذف الحجج السخيفة والأمثلة الدالة على الجهل بالعربية التي كانت تتخلل كلام ذلك الأعجمي وأن ما يقوله الدكتور طه حسين لا يزيد على أن يكون حاشية وتعليقًا على هذه المقالة.

ثم يخرج الأستاذ شاكر بكشف أخطر من سابقة فيرمي الدكتور طه حسين بسطوه على كتابه عن المتنبي فيقرر الأستاذ شاكر ذلك قائلاً:

[كتاب «مع المتنبي» ـ للدكتور طه حسين ـ هو في الحقيقة حاشية كبرى على ثلاثة كتب أولها كتابي، ثم كتاب الأستاذ عبد الوهاب عزام، ثم كتاب بلاشير عن المتنبي... ونحن هنا لا نفخر بأننا أول

(١) أنور الجندي: طه حسين حياته وفكره في ضوء الإسلام، ص١٥٣.

من كتب تاريخ المتنبي على هذا الوضع الذي تراه في كتابنا، ولكنا نقرر ذلك إقرارًا للحق وبيانًا للذي فعله الدكتور طه حسين إذ أخذ آراءنا فأفسدها ووضعها في غير موضعها واستغلها بغير حقها، وأخرج كتابه على غرار كتابنا غير متهيب ولا متورع من مذمة ولا إثم، وأغراه لذلك ما يعلم من عظيم شهرته وبعيد صيته وما يعلم مما نحن فيه من الخفاء والصمت وقلة الاكتراث بالدعاية الملفقة لأنفسنا».

ولم يترك الأستاذ محمود شاكر سطو الدكتور طه حسين على كتابه «المتنبي» يمر بدون محاسبة ولكنه كتب اثنتي عشرة مقالة نشرها في صحيفة البلاغ تحت عنوان: «بيني وبين طه حسين»[1].

كشف فيها سطو الدكتور طه حسين على كتابه المتنبي وكتاب الدكتور عبد الوهاب عزام[2]، وكتاب المستشرق بلاشير][3].

(١) ابتدأ الأستاذ شاكر نشر مقالاته في ١٣ فبراير، سنة ١٩٣٧م.

(٢) عبد الوهاب عزام (١٣١٢/ ١٣٧٩هـ - ١٨٩٤/١٩٥٩م) عبد الوهاب عزام، أديب، ولد في شويك الغربي بمصر من أسرة ليبية الأصل، تخرج بمدرسة القضاء الشرعي، عمل سفيرًا لمصر في العديد من الدول، من آثاره: الشوارد أو خطرات عام وغيرها كثير. معجم المؤلفين ٢/٣٤٥.

(٣) راجع: جابر رزق: طه حسين الجريمة والإدانة، دار الاعتصام ب. ت، ص١١، ١٢، ٢١ بتصرف.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

المبحث السادس

توسيع دائرة البحث وسرعته!

إذا كان من مآثر الباحثين القدامى أنهم كانوا أصحاب علم موسوعي، يحمل الواحد منهم في جعبته علوم الدين وعلوم الدنيا، ويكتب ويصنف في المجالين جميعًا بدرجة واحدة من الإحكام والإتقان حتى يتخيل لمن يقرأ لهم في مجال من المجالين أنهم لم يتخصصوا إلا في هذا.

أقول: إذا كان ذلك من مآثر القدامى فإنه من عيوب الباحثين المحدثين! إذ وصل القدامى في موسوعيتهم إلى درجة الإجادة والإحسان فإذا كتبوا في علم ما كانت كتابتهم تضاهي كتابات المتخصصين فيه أو ربما تفوق. أما كثرة المحدثين فكما نقول حازوا من كل علم بطرف ولم يصلوا إلى درجة الإجادة والإحكام في مجال من المجالات.

ومما يعيب كثير من الباحثين المحدثين سرعة البحث مع تشعب المجالات واتساعها، ومن هنا تأتي الأبحاث مشوهة معيبة لما يلم بها من نقص، ولأن الباحث لم يسبر غور موضوعه ولم يدرسه الدرس المتأني ولم يحطه من جميع جوانبه.

فإذا حمد كثير من الباحثين لنفر غير قليل من المستشرقين تنوع معارفهم وموسوعية علمهم، فإن هذه الموسوعية على الرغم مما فيها من محامد تمثل جانبًا سلبيًا، والذين أتقنوا منهم هم الذي تخصصوا في مجال من مجالات المعرفة وإن شابت علومهم شوائب فهي بجانب أخطاء غيرهم تعتبر هنات يسيرات تغفر لهم جزاء ما قدموا من بحث جاد.

ولقد أنتج بعض المستشرقين بعض المؤلفات الهامة والتي أفاد منها كثير من الدارسين من العرب والمسلمين وغيرهم، ومن تحصيل الحاصل أن يقال: إن المستشرقين نشروا كثيرًا من كتب العرب والمسلمين المطوية وأنهم وقفوا على طبعها جهودهم وأموالهم فأجادوا وأحسنوا إخراجها وتبويبها.

(ومما يشكر للمستشرقين جلدهم على العمل الأمر الذي ضرب به المثل، فربما انقضى عمر أحدهم في تحقيق مخطوط أو تصنيف كتاب، فواحد مثل بارانوف[1] خص القاموس العربي الروسي بعشرين سنة من حياته)[2].

ولقد شارك الدكتور طه حسين المستشرقين في كثير من الأمور ألصقها بمجال الحديث هنا توسيع دائرة البحث فكتب عن القرآن وعلومه وكتب عن الحديث ورواته وكتب عن العقيدة ومباحثها وكتب في التاريخ الإسلامي وتاريخ أوروبا القديم وصور من التاريخ الحديث صحيح أن بعض تلك الكتابات لا تتجاوز مبحثًا من عدة صفحات،

---

(١) بارانوف مستشرق روسي ولد عام ١٨٩٢م اهتم باللغة العربية، وأشهر مؤلفاته: القاموس العربي الروسي، المستشرقون ٣/٩٧.

(٢) نجيب العقيقي: المستشرقون ٣/٦٠٠، ٦٠١.

لكن الدكتور كان من خصائص أسلوبه أنه يستطيع التعبير عن الموضوع الخطير والجليل بكلمات قليلة، ويستطيع كذلك أن يعبر عن المعنى الصغير بصفحات تطول.

لكنه يعاب عليه ما عيب على كثير من المستشرقين من أن إحاطته لم تكن وافية بكل العلوم التي خاض فيها ومن هناك كانت آراؤه مثار جدل وذلك لكثرة عثراته وشططه في بعض آرائه وتصوراته وعيب عليه كذلك سرعته في البحث ومجازفته في إلقاء الأحكام ولقد واجهه بعض المثقفين ممن عاصروه بهذا العيب كالأستاذ إبراهيم المازني[1].

[(كان الدكتور قد نشر حديث الأربعاء تباعًا في «السياسة» وفي غيرها حتى إذا أراد جمعه في أجزاء متتالية ذكر في مقدمة الجزء الأول أنه يقدم مباحث متفرقة... وما هي بسفر أو كتاب، ولن يجد القارئ فيها هذه الفكرة القوية المتحدة الواضحة... التي يعبر عنها المؤلفون حين يؤلفون كتبهم وأنه لم يعن بهذه المباحث العناية التي تليق بكتاب يعده صاحبه ليكون كتابًا حقًا، وأنه يعلم أنه شديد النقص محتاج إلى استئناف العناية والنظر فأنكر المازني على صاحبه ـ الدكتور طه حسين ـ أن يعترف بنقص كتابه ثم يخرجه هكذا محتاجًا إلى إكمال، وأن يستخف بقرائه فلا يجدهم أهلاً، لأن يتكلف من أجلهم البحث العلمي الدقيق إذ كانت الصحف السيارة لا تصلح لمثل هذا، ويقول المازني في صراحة للدكتور: «لو وسعك هذا الذي تقول: إنك تتجنبه (وهو

---

(١) إبراهيم المازني أحد أعلام النهضة الأدبية الحديثة وصاحب القلم الساخر ولد بالقاهرة سنة ١٣٠٨هـ/١٨٩٠م عمل بالتدريس بعد تخرجه من مدرسة المعلمين، له مؤلفات عديدة في الأدب والنقد توفي سنة ١٣٦٨هـ/١٩٤٩م. (طه حسين يتحدث عن أعلام عصره، ص٩).

التحقيق الدقيق) لما أحجمت عنه، ولا صدك الإشفاق على رؤوس القراء والترفق بأدمغتهم ولو كان في جعبتك ما هو أغلى وأثمن لما طويته عن العيون ولا احتلت وتلطفت وألححت في عرضه ولرفعته قبلنا في كل ناحية».

. . . والحقيقة أن كل كاتب ـ مهما عظم قدره ـ يكتب البحث في فترة، ثم يراجعه في فترة أخرى، فيرى به نقصًا يجب أن يكمل والدكتور صادق بينه وبين نفسه حين لمس بعض هذا النقص فيما كتب، وكان عليه بالذات أن يعمل على تلافيه لا أن يعتذر عنه؛ إذ أنه كثيرًا ما حمل العصا فوق رؤوس الكرام من الكتاب لينعي عليهم العجلة، وليعدها عيبًا خطيرًا، وليطيل في تسجيل هذا العيب وينحى باللائمة عليه.

لقد أصدر الأستاذ الدكتور أحمد ضيف[1] أول كتاب جاد عن الأدب الأندلسي في هذا العصر تحت عنوان: (بلاغة العرب في الأندلس)، وهو بحث يجب على الناقد أن يأخذ في اعتباره أنه أول تاريخ منهجي لهذا الأدب، وأن هذه الأسبقية تتسع لغفران ما به من الخطأ، ولكن الدكتور طه يجرد الكتاب من حسناته ويقول عنه في إسراف:

(وأحسبني لا أخطىء ولا أتجاوز القصد إن قلت: إن السبب الأساسي الذي يحول بين الأستاذ وبين الإجادة اللائقة في كتبه هو أنه نفسه سريعة الحركة، مسرفة في هذه السرعة لا تكاد تعرض للشيء

---

(١) أحمد ضيف (١٢٩٧/١٣٦٤هـ ـ ١٨٨٠/١٩٤٥م) أحمد بن علي بن إسماعيل ضيف، أديب، باحث مصري كان أستاذًا في جامعة فؤاد الأول، من تأليفه بلاغة العرب في الأندلس. معجم المؤلفين ١٩٧/١، الزركلي: الأعلام ١٧٨/١.

فتثبت له حتى تقتله بحثًا ودرسًا وتنضجه فهمًا وتفكيرًا.. وإذا كانت الأناة شرطًا أساسيًا للإجادة والإتقان في كل شيء مهما يكن نوعه، فهي الشرط الأساسي الوحيد للحياة العقلية المنتجة، وربما لم تكن المناهج العلمية شيئًا إلى جانب الأناة العلمية، ذلك لأن المناهج العلمية المنتجة على قيمتها ولزومها ليست في حقيقة الأمور إلا نتيجة طبيعية للأناة العلمية، وإن هذه النتائج الباهرة لست إلا آثارًا لجهود طويلة بطيئة شاقة ذهبت فيها القرون وأنفقت فيها لا أقول: الأشهر، ولا أقول: الأعوام، ولا أخطىء إذا قلت: القرون)[1].

هذا بعض ما قاله الدكتور آخذًا به زميلاً كبير القدر، بارز المكانة! فإذا كان المازني دعاه إلى أن يترك التسرع حتى يكمل الناقص ويتم الخديج[2] فقد دعاه إلى ألا يأمر الناس بالبر وينسى نفسه][3].

(١) طه حسين: حديث الأربعاء، المجموعة الكاملة ٢/٦٥٣، ٦٥٤.

(٢) جاء في المعجم الوجيز، ص١٨٦: خدج ـ خداجًا نقص و ـ الحامل: ألقت ولدها قبل تمام أيامه، وإن كان تمام الخلق فهي خادج... والخديج في علم الأحياء: العضو من النبات أو الحيوان لم يكتمل خلقه، أو اكتمل خلقه ولا يؤدي ما خلق له. اهـ. بتصرف.

(٣) د. محمد رجب البيومي: قطرات المداد، ص١٩٨، ٢٠٠ بتصرف.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

خاتمة في أهم نتائج البحث

بعد عرضنا لموضوع طه حسين والفكر الاستشراقي أمكننا أن نخرج بالنتائج التالية:

١ ـ من الضرورات التي تقتضيها طبيعة الحياة المعاصرة ـ والتي أصبح فيها العالم كقرية صغيرة ـ أن يبحث الدارسون عن علاقة مفكري العرب والمسلمين ـ الذين كان لهم دور في توجيه الحياة الثقافية ـ بالفكر الغربي لتحديد أوجه التأثير والتأثر ومن ثم تقييمها والحكم عليها بما يوافقها.

٢ ـ يعتبر الدكتور طه حسين أحد الرموز الثقافية التي شغلت الفكر العربي والإسلامي في القرن الماضي بما أثاره من قضايا كانت محل الأخذ والرد والقبول والرفض والرضا والسخط.

٣ ـ اتصل طه حسين بالاستشراق في مرحلة الطلب بالجامعة المصرية حين تعرف على أساتذته من المستشرقين وكانت له بالكثير منهم علاقة خاصة.

٤ ـ تعددت قنوات الاتصال بين طه حسين والمستشرقين وأخذت صورًا وأشكالاً عديدة منها صورة التلمذة في مصر بالجامعة

المصرية القديمة وكذلك التلمذة في فرنسا في السوربون وغيره من المعاهد العلمية، ثم الزمالة في التدريس في الجامعة المصرية، والمشاركة في اللقاءات الفكرية والمؤتمرات العلمية، وكذلك الزيارات المنزلية والمراسلات والمكاتبات.

٥ ـ آزر المستشرقون طه حسين في كثير من معاركه الأدبية والثقافية وواسوه في محنه التي تعرض لها وقدموا له الكثير من الدعم الأدبي والنفسي الأمر الذي أثر في نفسه كبير الأثر فما كان يذكرهم إلا بالخير.

٦ ـ اعترف طه حسين بتاثره بالمستشرقين ومناهجهم دون أرائهم، وكان يسعد نفسه أن يصل في أبحاثه إلى النتائج التي تواصلوا لها.

٧ ـ أكسب فقد البصر طه حسين القدرة على حسن الاستماع والقدرة على التحمل وحب الاستطلاع، وتولدت لديه رغبة في لفت الأنظار إليه ـ نظرًا لما كان يشعر به من الإهمال بعد فقد بصره ـ الأمر الذي أورثه حدة في الطبع ورغبة في التحدي وتأكيد الذات.

٨ ـ تأثر طه حسين بمجتمع القرية وما يموج به من أفكار وآراء وتأثر بعلماء إقليمه على اختلاف مشاربهم الأمر الذي جعل ثقافته فيما بعد لا تخلو من تناقض واضطراب.

٩ ـ فسدت العلاقة بين طه حسين والأزهر الشريف بسبب إهماله لعلوم الدين وانشغاله بدروس الأدب وحدها ثم تطاوله على أساتذته من الأزهريين ونيله من علمهم وفضلهم.

١٠ ـ تأثر طه حسين بالإمام محمد عبده في إعمال العقل فقدمه على النص، لكنَّ طه حسين غالى في إعمال العقل لقدمه على النص عند ورود ما يوهم التعارض.

١١ ـ يعتبر لطفي السيد الموجه الأول لطه حسين إلى الفكر الليبرالي القائم على الفصل بين الدين والحياة وتبني النظام العلماني في الفكر والسلوك.

١٢ ـ وافق الدكتور طه حسين أستاذه دوركايم في رأيه في نشأة الدين وأنه خرج من الأرض كما خرجت الجماعة نافيًا بقوله هذا الرسالات السماوية جميعًا.

١٣ ـ قال الدكتور طه حسين بالتناقض بين العلم والدين ورفض أي محاولة للربط بين حقائق العلم وصحيح الدين.

١٤ ـ أعمل طه حسين نظرية الشك في غير موضعها فكذب صريح القرآن بدعوى الأخذ بمناهج البحث العلمي.

١٥ ـ قال طه حسين بنظرية الجبر التي تنفي الإرادة عن الإنسان وتجعله كريشة في مهب الريح مخالفًا بذلك حكم الشرع وبداهة العقول في قولهما بمسؤولية الإنسان عن عمله ومؤاخذته به.

١٦ ـ قال طه حسين ببشرية القرآن وأنه تعبير عن الحياة التي عاشها محمد ﷺ ومستوحى منها.

١٧ ـ حث طه حسين على دراسة الكتب المقدسة دراسة أدبية وإبداء الآراء حول قيمتها الفنية والأدبية دون تقيد بقداستها وعصمتها.

١٨ ـ ردد طه حسين ما قاله المستشرقون حول قضية جمع القرآن وشكك في تمام القرآن الذي بأيدي المسلمين عما كان عليه على عهد رسول الله ﷺ وعهد أبي بكر وعمر رضي الله عنهما.

١٩ ـ تابع طه حسين المستشرقين في قولهم ببشرية القراءات القرآنية موافقًا في ذلك رأي جولدزيهر وبلاشير، مخالفًا إجماع المسلمين وما أيدته النصوص من أن القراءات القرآنية إلهية المصدر.

٢٠ ـ كتب طه حسين سيرة النبي ﷺ على نسق كتاب على «هامش الكتب القديمة» «لجيل لوميتر» وجعل كتابه واحة زاخرة بالأوهام والأساطير.

٢١ ـ أخطأ طه حسين في تعامله مع السُّنَّة المطهرة إذ ردَّ بعض الأحاديث بالعقل المجرد أو بالهوى المحض، وكذلك صحح بعض الأحاديث بالظن دون الاستناد إلى قاعدة حديثية.

٢٢ ـ لم يلتزم طه حسين في تأريخه لفترة الخلافة الراشدة (الشيخان ـ الفتنة الكبرى) تحقيق الروايات التاريخية، وتأكد حدوثها ممن نسبت إليهم.

٢٣ ـ فسَّر طه حسين التاريخ الإسلامي تفسيرًا ماديًا أغفل فيه باعث الدين وأشواق الروح وقصره على الضرورات المادية والمصالح البشرية.

٢٤ ـ حكم طه حسين على الإسلام بأنه رسالة روحية لا شأن لها بواقع الحياة متابعًا في ذلك صديقه الشيخ «علي عبدالرازق» في كتابه «الإسلام وأصول الحكم».

٢٥ ـ شكك الدكتور طه حسين في دوافع الفتوحات الإسلامية وردد ما قاله بعض المستشرقين عن تأثير الدافع المادي وكذلك دعوى إكراه غير المسلمين على الدخول في الإسلام.

٢٦ ـ أشاد الدكتور بحركتي الزنج والقرامطة وذكر أنهما من حركات التحرر التي تدعو إلى العدل الاجتماعي وتمنى أن تكون هاتين الثورتين مصدر إلهام للأدباء والكتاب ليضمنوا أفكار هاتين الثورتين قصصهم ورواياتهم.

٢٧ ـ وافق الدكتور نفرًا من المستشرقين في دعواهم تأثر الشريعة الإسلامية بالقانون الروماني.

٢٨ ـ ردد الدكتور مقالة المستشرق الألماني شاخت في إنكار حد الرجم للزاني المحصن بدعوى أنه لم يذكر في القرآن الكريم.

٢٩ ـ للدكتور طه حسين بصمات ظاهرة في مجال التعليم إذ كان أول من نادى بمجانية التعليم وإليه يرجع الفضل في دخول الفتيات في التعليم الجامعي إلا أنه كانت له هنات أبرزها دعوته أنه يكون التعليم في مصر والعالم العربي على النسق الأوروبي وكذلك تهوينه من شأن التعليم الديني.

٣٠ ـ شايع الدكتور طه حسين أدعياء تحرير المرأة فهوَّن من شأن الحجاب ودعا إلى اختلاط الفتيان بالفتيات في التعليم الجامعي ونادى بالمساواة بين الرجل والمرأة من خلال المنظور العلماني.

٣١ ـ دعا طه حسين في مقتبل حياته إلى اقتباس الحضارة الأوروبية حلوها ومرها ما يحمد منها وما يعاب ثم عدل عن هذه الدعوة

في آخر حياته إلى دعوة توفيقية تحافظ على ثوابت الأمة وتأخذ ما لدى غيرها من الجديد النافع وهو ما اصطلح عليه بالجمع بين الأصالة والمعاصرة.

٣٢ ـ يعد طه حسين أحد الذين تولوا كبر الدعوة إلى إحياء القوميات القديمة وخاصة الفرعونية المصرية تلك الدعوة التي جاءت موافقه لأغراض التبشير والمؤسسات التي تهدف إلى تغريب المجتمع الإسلامي.

٣٣ ـ اضطرب طه حسين في حكمه على الحضارة الإسلامية فتارة يقصر دور العرب في الحضارة على نقل حضارة اليونان وأنهم لم يكن لهم فيها إسهام أو عطاء، وتارة يشيد بدورهم وأنهم أساس حضارة أوروبا وأنه لولا حضارة العرب ما كانت حضارة أوروبا.

٣٤ ـ شارك الدكتور طه حسين كثيرًا من المستشرقين في بعض الأمور التي تنال من نزاهة أبحاثهم مثل تحكيم الهوى والوهم، والتهوين والتهويل، والاعتماد على المصادر الضعيفة، النقل عن الآخرين من غير وعي، تعميم الأمور الخاصة وتخصيص الأمور العامة، توسيع دائرة البحث دون مراعاة للتخصص وامتلاك أدوات البحث.

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

التوصيات

١ ـ وزن الناس بحسناتهم وسيئاتهم والاستفادة من الخير أيًا كان مصدره فالحكمة ضالة المؤمن أن وجدها فهو أحق الناس بها.

٢ ـ أن يقرأ الدعاة والعلماء والعاملون بالدعوة عطاء الأدباء وإنتاجهم فإن ذلك يمنحهم العبارة المشرقة والمعنى الجميل والتعبير الرائع. ثم إن ذلك يمكنهم من تقويمه والحكم عليه بميزان الشرع وبيان ذلك للناس حتى يمتاز الطيب عن الخبيث.

٣ ـ تشجيع الدراسات المتعلقة بالاستشراق ترجمة وتحليلاً أو نقدًا وتقويمًا أو عرضًا وتقريرًا.

٤ ـ أن يعمل الأزهر الشريف ومجمع البحوث الإسلامية على إيجاد لجنة لتصويب الأفكار الخاطئة خاصة التي تتناول أمور الدين في الدوريات والكتب التي تصدر في مصر والعالم الإسلامي ومن ثم إرسالها للهيئات التي قامت بطبعها لإلحاقها بها في الطبعات اللاحقة، حتى لا تشيع الأفكار الخاطئة في غيبة الناصح الأمين.

٥ ـ إبراز الأعمال الأدبية التي تنطلق من الإسلام وهديه ولفت الناس إليها حتى يعم الخير وتعلو رايته.

٦ - أن يقوم الأزهر الشريف ومجمع البحوث الإسلامية ووزارة الأوقاف بطبع الرسائل العلمية التي تتناول الإسلام بالعرض والتحليل أو تدافع عن الإسلام ضد كيد أعدائه، حتى تعم الفائدة في الناس ولا تكون مقصورة على الباحث وحتى لا تظل تلك الرسائل حبيسة الأدراج لا تراها العيون ولا يتعامل معها إلا النفر القليل.

٧ - ضبط الأشخاص والهيئات والأفكار وتقويمها بميزان الشرع خاصة تلك الأفكار القديمة الجديدة التي تملأ الآفاق الثقافية مثل تجديد الخطاب الديني، حرية الإبداع، المحافظة والتجديد، التنوير والتثوير، والتي يعمد مروجوها لبلبلة الأفكار وإلباس الباطل ثوب الحق فالعبرة بالمسيمات لا بالأسماء.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

المراجع

١ ـ إبراهيم الإبياري: طه حسين المؤرخ الإسلامي، بحث ضمن كتاب «طه حسين كما يعرفه كتاب عصره»، دار الهلال ب ـ ت.

٢ ـ د. إبراهيم جميل بدران، د. علي علي حبيش: نحو حضارة إسلامية أساسها العلم والإيمان، وزارة الأوقاف، سلسلة قضايا إسلامية العدد ٨٦ سنة ١٤٢٢هـ.

٣ ـ إبراهيم عبد العزيز: رسائل طه حسين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مكتبة الأسرة ٢٠٠٠م.

٤ ـ إبراهيم عبد العزيز، أوراق مجهولة من طه حسين: دار المعارف، سلسلة اقرأ.

٥ ـ ابن الأثير الجزري: جامع الأصول في أحاديث الرسول، دار الفكر، بيروت، المكتبة التجارية، مكة المكرمة ط٢ سنة ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

٦ ـ ابن الأثير الجزري: أسد الغابة في معرفة الصحابة، دار الفكر، بيروت ١٤١٤هـ/١٩٩٣م.

٧ ـ ابن الجوزي: مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، تحقيق د. علي محمد عمر، الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ٢٠٠٠م.

٨ ـ ابن حزم: الفصل في الملل والنحل، تحقيق د. محمد إبراهيم نصر، ود. عبد الرحمن عميرة، دار عكاظ، جدة. ب. ت.

٩ ـ ابن فارس: معجم مقاييس اللغة: تحقيق: عبد السلام هارون، دار الفكر، بيروت، ب. ت.

١٠ ـ ابن كثير: البداية والنهاية، دار الفكر، بيروت ط: ١٤١٦هـ ـ سنة ١٩٩٦م.

١١ ـ ابن كثير: قصص الأنبياء، تحقيق: الشيخ خليل الميس، دار القلم، بيروت. ب. ت.

١٢ ـ ابن هشام: مختصر سيرة ابن هشام، تحقيق: لجنة السيرة النبوية بالمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ط٣ سنة ١٤٢٠هـ ـ سنة ١٩٩٩م.
١٣ ـ ابن واصل الحموي: تجريد الأغاني، تحقيق: د. طه حسين، وإبراهيم الإبياري، مطبعة مصر سنة ١٣٧٤هـ ـ سنة ١٩٩٥م.
١٤ ـ أبو الحسن الندوي: الإسلاميات بين كتابات المستشرقين والباحثين المسلمين، مؤسسة الرسالة، بيروت ط٣ سنة ١٤٠٥هـ ـ سنة ١٩٨٥م.
١٥ ـ أبو الحسن الندوي: الدعوة والدعاء مسؤولية وتاريخ، سلسلة دعوة الحق الصادرة عن رابطة العالم الإسلامي، العدد ٨٠ سنة ١٤٠٨هـ ـ سنة ١٩٨٨م.
١٦ ـ أبو العباس أحمد الزبيدي: مختصر صحيح البخاري المسمى التجريد الصريح لأحاديث الجامع الصحيح، تحقيق: كمال بسيوني، السعودية، مكتبة المؤيد ط١ سنة ١٤١٢هـ ـ سنة ١٩٩٢م.
١٧ ـ أبو بكر ابن العربي: العواصم من القواصم، تحقيق: محب الدين الخطيب، المكتبة العلمية بيروت ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.
١٨ ـ الشيخ أبو بكر الجزائري: عقيدة المؤمن، مكتبة الدعوة الإسلامية بالأزهر. ب. ت.
١٩ ـ أبو بكر عبد الرازق: وثائق قضايا طه حسين، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت ١٤١٢هـ/١٩٩١م.
٢٠ ـ أبو حيان الأندلسي: البحر المحيط، دار الفكر، بيروت ط٢، ب. ت.
٢١ ـ أبو عبدالله الذهبي: المنتقى من منهاج الاعتدال في نقض كلام أهل الرفض والاعتزال (مختصر منهاج السُّنَّة لابن تيمية) طبعة الرئاسة العامة لإدارة البحوث العلمية والإفتاء السعودية ١٤١٣هـ.
٢٢ ـ إحسان إلهي ظهير: الشيعة وأهل البيت، إدارة ترجمان السُّنَّة، باكستان، ط٦ سنة ١٤٠٤هـ.
٢٣ ـ أحمد أمين: فجر الإسلام، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مكتبة الأسرة ١٩٩٦م.
٢٤ ـ أحمد أمين: الأخلاق: مطبعة دار الكتب ١٣٤٨هـ/١٩٢٩م.
٢٥ ـ أحمد الشنتناوي، إبراهيم زكي خورشيد: دائرة المعارف الإسلامية، ب. ن، ب، ت.
٢٦ ـ د. أحمد بدر: أصول البحث العلمي ومناهجه، الكويت، وكالة المطبوعات ط٥ سنة ١٩٧٩م.

٢٧ ـ الإمام: أحمد بن حنبل الشيباني: مسند الإمام أحمد، تحقيق: العلامة أحمد محمد شاكر، دار المعارف. ب. ت.
٢٨ ـ أحمد بن علي الفيومي: المصباح المنير: تحقيق: علي محمد البجاوي، د. محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العلمية، بيروت ط٢ سنة ١٣٩٩هـ.
٢٩ ـ أحمد رضا: معجم متن اللغة، بيروت، دار مكتبة الحياة ١٣٧٧هـ.
٣٠ ـ د. أحمد شلبي: الاستشراق تاريخه وأهدافه، مكتبة النهضة المصرية ١٩٩٦م.
٣١ ـ د. أحمد طالب الإبراهيمي: حوار الحضارات (بحث ضمن كتاب الإسلام والغرب) سلسلة كتاب العربي، العدد رقم ٤٩ يوليو ٢٠٠٢م.
٣٢ ـ أحمد عادل كمال: علوم القرآن، دار المختار الإسلامي. ب. ت.
٣٣ ـ المشير/أحمد عزت باشا: الدين والعلم، ترجمه عن التركية حمزة طاهر، وراجعه د. عبد الوهاب عزام. مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٣٦٩هـ/١٩٥٠م.
٣٤ ـ أحمد عطية عبدالله: القاموس السياسي. ب. ن، ب. ت.
٣٥ ـ أحمد لطفي السيد: قصة حياتي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مكتبة الأسرة ١٩٩٨م.
٣٦ ـ أحمد محمد شاكر: الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث ـ دار الكتب العلمية، بيروت ب. ت.
٣٧ ـ د. أحمد محمد كريمة: الاعتداءات الأثيمة على السُّنَّة النبوية القويمة، وزارة الأوقاف سلسلة قضايا إسلامية عدد ٥٤ سنة ١٤٢٠هـ.
٣٨ ـ أحمد محمود هويدي: الاستشراق الألماني، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م.
٣٩ ـ أسامة يوسف شهاب: نحو أدب إسلامي معاصر، الأردن، دار البشير ط١، ١٤٠٥هـ.
٤٠ ـ إسكندر أسعد: تمثال الكاتب المصري، مجلة الكاتب المصري، المجموعة الكاملة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، المجلد الأول.
٤١ ـ أشرف طه أبو الدهب: المعجم الإسلامي، دار الشروق ط١، سنة ٢٠٠٢م.
٤٢ ـ الأزهري: تهذيب اللغة، مطبعة القاهرة ١٩٦٤م.
٤٣ ـ د. السيد تقي الدين: طه حسين آثاره وأفكاره. ب. ن، ب. ت.
٤٤ ـ السيد مرسي أبو ذكري: آثار المستشرقين في الأدب، مجلة الأزهر، عدد جمادى الآخرة ١٤٢٠هـ أكتوبر ١٩٩٩م ج٦ السنة الثامنة والسبعون.

٤٥ ـ الإمام الشاطبي: الموافقات في أصول الشريعة، تحقيق: الشيخ عبدالله دراز، دار المعرفة، بيروت ط٢ ١٤١٦هـ/١٩٩٦م.
٤٦ ـ الكتاب المقدس: دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط ب. ت.
٤٧ ـ المختار من ديوان عمر بن أبي ربيعة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مكتبة الأسرة سنة ١٩٩٩.
٤٨ ـ المنذري: الترغيب والترهيب، طبعة دار التراث، القاهرة ب. ت.
٤٩ ـ إنجيل متى: دار الكتاب المقدس. مصر. ب. ت.
٥٠ ـ الإمام النووي: رياض الصالحين، تحقيق: علي عبد الحميد أبو الخير، السعودية، مكتبة الكوثر، ط١، ١٤١٦هـ/١٩٨٦م.
٥١ ـ الإمام النووي: صحيح مسلم بشرح النووي: مكتبة الغزالي دمشق، مؤسسة مناهل العرفان بيروت ب. ت.
٥٢ ـ أليكس جورافسكي: الإسلام والمسيحية من التنافس والتصادم إلى الحوار والتفاهم ترجمة د.خلف محمد الجراد، دار الفكر، دمشق سنة ٢٠٠٠م.
٥٣ ـ أنور الجندي: طه حسين حياته وفكره في ضوء الإسلام، دار الاعتصام، مصر، ط٢ سنة ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م.
٥٤ ـ أنور الجندي: صفحات مجهولة من حياة طه حسين، بحث ضمن كتاب طه حسين كما يعرفه كتاب عصره، دار الهلال. ب. ت.
٥٥ ـ أنور الجندي: التبشير والاستشراق والدعوات الهدامة، موسوعة مقدمات العلوم والمناهج، ج٥ دار الأنصار، القاهرة. ب. ت.
٥٦ ـ أنور الجندي: أكذوبتان في تاريخ الأدب الحديث، دار الأنصار، سلسلة على طريق الأصالة الإسلامية عدد رقم ٩. ب. ت.
٥٧ ـ أنور الجندي: محاكمة فكر طه حسين، دار الاعتصام. ب. ت.
٥٨ ـ أنور الجندي: حركة تحرير المرأة في ميزان الإسلام، دار الأنصار سلسلة على طريق الأصالة الإسلامية عدد رقم ١٥ ب. ت.
٥٩ ـ بطرس البستاني: محيط المحيط، مكتبة لبنان ١٩٧٧م.
٦٠ ـ بطرس عبدالملك، وآخرون: قاموس الكتاب المقدس، دار الثقافة، مصر ط١٢. ب. ت.
٦١ ـ بهاء الدين عبدالله بن عقيل: شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، دار الفكر، بيروت ١٤١٤هـ/١٩٩٤م.
٦٢ ـ توماس كارليل: الأبطال: سلسلة كتاب الهلال، العدد ٣١٦ سنة ١٩٧٨م.

٦٣ - جابر رزق: طه حسين الجريمة والإدانة، دار الاعتصام. ب. ت.
٦٤ - د. جابر قميحة: جريدة آفاق عربية (حزب الأحرار المصري) العدد ٣٧٩ الصادرة في ١٠ جمادى الآخرة سنة ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.
٦٥ - الشيخ جاد الحق علي جاد الحق: حول اتفاقية القضاء على أشكال التمييز ضد المرأة من المنظور الإسلامي، هدية مجلة الأزهر، شهر صفر سنة ١٤١٦هـ - يوليو سنة ١٩٩٥م.
٦٦ - جار الله أبي القاسم الزمخشري: أساس البلاغة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٣ ١٩٨٥م.
٦٧ - جريدة آفاق عربية (حزب الأحرار المصري) العدد ٤٩٢ الصادر في ٢٢ شوال ١٤٢١هـ ١٨ يناير سنة ٢٠٠١م.
٦٨ - جريدة الجريدة: الصادرة في ١٩١٠/١٠/٣٠م، ١٩١٠/١١/٢م.
٦٩ - جريدة الشروق: صوت الأزهر جامعًا وجامعة، عدد تذكاري بمناسبة افتتاح مشيخة الأزهر الجديدة، جمادى الأولى ١٤٢٠هـ سبتمبر ١٩٩٩م.
٧٠ - جريدة القاهرة (الصادرة عن وزارة الثقافة) العدد ١٤٠ الثلاثاء ١٧ ديسمبر سنة ٢٠٠٢م.
٧١ - د/جمال الدين الشيال: رفاعة الطهطاوي، دار المعارف، سلسلة نوابغ الفكر العربي ط١٩٧٠م.
٧٢ - د. جمال عبدالهادي (وآخرون)، الزور والبهتان فيما كتبه طه حسين في الشيخان دار الوفاء ب. ت.
٧٣ - د. جمعة علي الخولي: تاريخ الدعوة، دار الطباعة المحمدية ط١ ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.
٧٤ - د. جميل عبدالله المصري: الفتوحات بين دوافعها الإسلامية ودعاوى المستشرقين مجلة المنهل السعودية، العدد ٤٧١ رمضان ١٤٠٩هـ أبريل ومايو ١٩٨٩م.
٧٥ - جورج سارتون: العلم الإسلامي، بحث ضمن كتاب «الشرق الأدنى مجتمعه وثقافته» الهيئة المصرية العامة للكتاب، مهرجان القراءة للجميع سنة ٢٠٠٢م.
٧٦ - جورجيو ديلافيدا: طه حسين المؤرخ، بحث ضمن كتاب «طه حسن كما يعرفه كتاب عصره» دار الهلال، ب. ت.
٧٧ - جوستاف إ. فون جرونيباوم: حضارة الإسلام، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مكتبة الأسرة سنة ١٩٩٧م.

٧٨ ـ جوستان لوبون: حضارة العرب، ترجمة: عادل زعيتر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مكتبة الأسرة ٢٠٠٠م.
٧٩ ـ حبيب أمين كوراني: تفاعل الفكر الإسلامي بالفكر العربي في البلاد الإسلامية، بحث ضمن كتاب «الشرق الأدنى مجتمعه وثقافته»، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مكتبة الأسرة ٢٠٠٢م.
٨٠ ـ د. حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي والثقافي والديني والاجتماعي. ب. ن، ب. ت.
٨١ ـ حسن البنا: مجموعة الرسائل، دار التوزيع والنشر الإسلامية، طبعة ١٤١٢هـ.
٨٢ ـ د. حسن الترابي: الإيمان وأثره في حياة الإنسان، دار القلم، الكويت ط٤، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.
٨٣ ـ د. حسن حنفي: جمال الدين الأفغاني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مكتبة الأسرة ١٩٩٩م.
٨٤ ـ د. حسن عبد اللطيف الشافعي: تجديد الفكر الإسلامي، مجلة الرسالة الصادرة عن مركز الإعلام العربي بالقاهرة، العدد الأول رمضان ١٤٢٢هـ، ديسمبر ٢٠٠١م.
٨٥ ـ د. حسن عزوزي: قصة المعراج في الفكر الغربي، مجلة الوعي الإسلامي، الكويت، العدد ٣٩٥ رجب ١٤١٩هـ/نوفمبر ١٩٩٨م.
٨٦ ـ حسين أحمد أمين: موقف المسلمين من الحضارة الغربية، مجلة العربي الكويتية، العدد ٤٠٢ مايو ١٩٩٢م.
٨٧ ـ د. حسين حامد حسان: المدخل لدراسة الفقه الإسلامي، ب. ن طبعة ١٩٨١م.
٨٨ ـ د. حلمي عبدالمنعم صابر، نظرات في تاريخ الخلفاء الراشدين، مطبعة الحسين الإسلامية مصر، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م.
٨٩ ـ حمدي السكوت، مارسون جونز: طه حسين، سلسلة أعلام الأدب المعاصر، الجامعة الأمريكية ١٩٨١م.
٩٠ ـ خير الدين الزركلي: الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، ط٧، ١٩٨٦م.
٩١ ـ ديكارت: مقال عن المنهج، تقديم د. عثمان أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مكتبة الأسرة ٢٠٠٠م.
٩٢ ـ رابح لطفي جمعة: القرآن والمستشرقون، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بالقاهرة ١٣٩٣هـ/١٩٨٣م.

٩٣ ـ د. رأفت عبدالحميد: الفكر المصري في العصر المسيحي، الهيئة المصرية العامة للكتاب مكتبة الأسرة ٢٠٠٠م.
٩٤ ـ رجاء عيد: التاريخ الأدبي والنظرية الأدبية، بحث ضمن كتاب «طه حسين مائة عام من النهوض العربي» في الذكرى المئوية لمولده، دار الفكر للدراسات والأبحاث سلسلة فكر، العدد ١٤، ب. ت.
٩٥ ـ رجاء النقاش: طه حسين والأحزاب السياسية، بحث ضمن كتاب «طه حسين كما يعرفه كتاب عصره»، دار الهلال ب. ت.
٩٦ ـ د. رشدي أبو شبانة: التبصير بمكائد الاستشراق والتبشير. ب. ن، ب. ت.
٩٧ ـ د. رشيده مهران: طه حسين بين السيرة والترجمة الذاتية، الهيئة المصرية العامة للكتاب الإسكندرية ط١، ١٩٧٩م.
٩٨ ـ رياض شمس: العناصر الثلاثة للقومية المصرية، مجلة الكاتب المصري، المجموعة الكاملة، الهيئة المصرية العامة للكتاب.
٩٩ ـ د. ساسي سالم الحاج: الظاهرة الاستشراقية وأثرها على الدراسات الإسلامية، مركز دراسات العالم الإسلامي، ط١، ١٩٩٢م.
١٠٠ ـ سامح كريم: معارك طه حسين الأدبية والفكرية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مكتبة الأسرة ١٩٩٩م.
١٠١ ـ سامي الكيالي: مع طه حسين، دار المعارف، سلسلة إقرأ العدد ١١٢ مايو ١٩٥٢م.
١٠٢ ـ سعيد شبار: المصطلح خيار لغوي وسمة حضارية، سلسلة كتاب الأمة القطرية العدد ٧٨ رجب ١٤٢١هـ.
١٠٣ ـ سعيد بن علي القحطاني: قضية التكفير بين أهل السُّنَّة وفرق الضلال، السعودية ـ مؤسسة الجريسي ط١، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م.
١٠٤ ـ سلامة موسى: حرية الفكر وأبطالها في التاريخ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة التنوير ١٩٩٧م.
١٠٥ ـ سوزان طه حسين: معك، دار المعارف، سلسلة كتب أكتوبر ب. ت.
١٠٦ ـ سهير القلماوي: ذكرى طه حسين، دار المعارف، سلسلة إقرأ، عدد ٣٨٨ الصادر في ٢٨ أكتوبر سنة ١٩٧٤م.
١٠٧ ـ سيد قطب: في ظلال القرآن، دار الشروق، بيروت ط١٠، ١٤٠٢هـ، ١٩٨٢م.
١٠٨ ـ سيد قطب: العدالة الاجتماعية في الإسلام، دار الشروق، بيروت ط٢. ب. ت.

١٠٩ ـ شاه عبد العزيز الدهلوي: مختصر التحفة الاثني عشرية، نقله عن الفارسية غلام محمد الأسلمي، اختصره وهذبه السيد محمود شكري الألوسي، وعلق عليه محب الدين الخطيب. ب. ن، ب. ت.
١١٠ ـ شريب سبيريدوفيتش: حكومة العالم الخفية، ترجمة: مأمون سعيد، دار النفائس، بيروت، ط٧، ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م.
١١١ ـ الأمير: شكيب أرسلان: لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم. تقديم رشيد رضا دار البشير، القاهرة. ب. ت.
١١٢ ـ صالح بن فوزان آل فوزان: الملخص الفقهي، السعودية، دار ابن الجوزي ط٥، ١٤١٧هـ.
١١٣ ـ صفوان عدنان داودي: زيد بن ثابت كاتب الوحي وجامع القرآن، دار القلم دمشق، سلسلة أعلام المسلمين عدد ٣١ ط١، ١٤١١هـ/١٩٩٠م.
١١٤ ـ صلاح عبدالصبور: ماذا يبقى منهم للتاريخ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٧م.
١١٥ ـ صلاح عيسى: الكارثة التي تهددنا، مكتبة مدبولي، ط١، ١٩٨٧م.
١١٦ ـ صوفي عبدالله: المرأة في أدب طه حسين، بحث ضمن كتاب «طه حسين كما يعرفه كتاب عصره» دار الهلال ب. ت.
١١٧ ـ طه حسين: أديب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مكتبة الأسرة ١٩٩٨م.
١١٨ ـ طه حسين: الأيام (٣/١) دار المعارف، مصر طبعه ٥٩ ب. ت.
١١٩ ـ طه حسين: الشيخان، دار المعارف، مصر ط٧ ب. ت.
١٢٠ ـ طه حسين: الفتنة الكبرى ـ عثمان ـ المجموعة الكاملة، الشركة العالمية للكتاب بيروت ط٢ ١٩٨٣م، ج٤.
١٢١ ـ طه حسين: الفتنة الكبرى ـ علي ـ المجموعة الكاملة، الشركة العالمية للكتاب بيروت، ط٢ ١٩٨٣م ج٤.
١٢٢ ـ طه حسين: التجديد والتقليد، المجموعة الكاملة، الشركة العالمية للكتاب بيروت، ط٢ ١٩٨٣م، ج١٦.
١٢٣ ـ طه حسين: القدر، المجموعة الكاملة، الشركة العالمية للكتاب، بيروت، ط٢، ١٩٨٣، ج١٥.
١٢٤ ـ طه حسين: أوديب وتيسيوس، المجموعة الكاملة، الشركة العالمية للكتاب بيروت ط٢، ١٩٨٣، ج١٥.
١٢٥ ـ طه حسين: المعذبون في الأرض، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مكتبة الأسرة ١٩٩٦.

١٢٦ ـ طه حسين: «برنامج» مقال بجريدة الأهرام بتاريخ ١٩٤٩/١١/٧م.
١٢٧ ـ طه حسين: «بين بين»، المجموعة الكاملة، الشركة العالمية للكتاب، بيروت ط٢، ١٩٨٣ ج١٤.
١٢٨ ـ طه حسين: ثورتان، مجلة الكاتب المصري، المجموعة الكاملة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، المجلد الثاني.
١٢٩ ـ طه حسين: ألوان، المجموعة الكاملة، الشركة العالمية للكتاب، بيروت، ط٢ ١٩٨٣ ج٦.
١٣٠ ـ طه حسين: تجديد، تحقيق وتقديم، محمد سيد كيلاني دار الفرجاني القاهرة وطرابلس ولندن ١٩٨٤م.
١٣١ ـ طه حسين: تجديد ذكرى أبي العلاء، المجموعة الكاملة، الشركة العالمية للكتاب، بيروت ط٢ ـ ١٩٨٣م ج١٠.
١٣٢ ـ طه حسين: حديث الأربعاء (٣/١)، المجموعة الكاملة، الشركة العالمية للكتاب، بيروت ط٢، ١٩٨٣م ج٢.
١٣٣ ـ طه حسين: حديث المساء، تحقيق وتقديم: محمد سيد كيلاني، دار العربي للبستاني، ط١ ب. ت.
١٣٤ ـ طه حسين: حول الشعر الجاهلي، مقال بجريدة السياسة ١٩٢٦/٧/١٧م.
١٣٥ ـ طه حسين: خزانة الكتب بالإسكندرية وتحريق العرب إياها، جريدة السياسة الصادرة في يوم الأربعاء ١٧ جمادى الآخرة ١٣٤٢هـ/٢٣ يناير ١٩٢٤م.
١٣٦ ـ طه حسين: رحلة الربيع والصيف، المجموعة الكاملة، الشركة العالمية للكتاب، بيروت ط٢، ١٩٨٣ ج١٤.
١٣٧ ـ طه حسين: على هامش السيرة (٣/١) المجموعة الكاملة، الشركة العالمية للكتاب، بيروت ط٢، ١٩٨٣م ج٣.
١٣٨ ـ طه حسين: فصول في الأدب والنقد، المجموعة الكاملة، الشركة العالمية للكتاب، بيروت ط٢، ١٩٨٣م ج٥.
١٣٩ ـ طه حسين: فلسفة ابن خلدون الاجتماعية، المجموعة الكاملة، الشركة العالمية للكتاب، بيروت ط٢، ١٩٨٣م ج٨.
١٤٠ ـ طه حسين: في الأدب الجاهلي، المجموعة الكاملة، الشركة العالمية للكتاب، بيروت ط٢، ١٩٨٣م ج٥.
١٤١ ـ طه حسين: قادة الفكر، المجموعة الكاملة، الشركة العالمية للكتاب، بيروت ط٢، ١٩٨٣م ج٨.

١٤٢ ـ طه حسين: قيود وأغلال. (مقال) مجلة المجلة الجديدة، المركز العربي للدراسات والنشر ط١ ١٩٩٧، ج١.

١٤٣ ـ طه حسين: صوت باريس، المجموعة الكاملة، الشركة العالمية للكتاب، بيروت ط٢، ١٩٨٣م ج١٣.

١٤٤ ـ طه حسين: كلام. (مقال) المجلة الجديدة، المركز العربي للدراسات والنشر، ط١، ١٩٩٧ ج١.

١٤٥ ـ طه حسين: لحظات، المجموعة الكاملة، الشركة العالمية للكتاب، بيروت ط٢، ١٩٨٣م ج١١.

١٤٦ ـ طه حسين: مرآة الإسلام، دار المعارف، مصر. ب. ت.

١٤٧ ـ طه حسين: مستقبل الثقافة في مصر، المجموعة الكاملة، الشركة العالمية للكتاب، بيروت ط٢، ١٩٨٣م ج١٢.

١٤٨ ـ طه حسين: من بعيد، المجموعة الكاملة، الشركة العالمية للكتاب، بيروت ط٢، ١٩٨٣، ج٩.

١٤٩ ـ طه حسين: من حديث الشعر والنثر، المجموعة الكاملة، الشركة العالمية للكتاب، بيروت، ط٢، ١٩٨٣م ج٥.

١٥٠ ـ طه حسين: مع أبي العلاء في سجنه، المجموعة الكاملة، الشركة العالمية للكتاب، بيروت، ط٢، ١٩٨٣، ج١٠.

١٥١ ـ طه حسين: من الأدب التمثيلي عند اليونان، المجموعة الكاملة، الشركة العالمية للكتاب، بيروت ط٢ ١٩٨٣م، ج١٠.

١٥٢ ـ طه حسين: من لغو الصيف إلى جد الشتاء، المجموعة الكاملة، الشركة العالمية للكتاب، بيروت ط٢، ١٩٨٣م، ج١٤.

١٥٣ ـ طه حسين: نظام الأثينيين، المجموعة الكاملة، الشركة العالمية للكتاب، بيروت، ط٢، ١٩٨٣م، ج٨.

١٥٤ ـ طه حسين: وجه الصواب في إصلاح الأزهر (مقال) بجريدة السياسة ١٩٣٢/٦/٢٨م.

١٥٥ ـ عباس محمود العقاد: الإسلام دعوة عالمية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مكتبة الأسرة ١٩٩٥م.

١٥٦ ـ عباس محمود العقاد: عبقرية عمر، طبعة وزارة التربية والتعليم ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.

١٥٧ ـ عباس محمود العقاد: حقائق الإسلام وأباطيل خصومه، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مكتبة الأسرة ١٩٩٩م.

١٥٨ ـ د. عبد الحليم عويس: موقف الفكر الإسلامي المعاصر من الحضارة الحديثة، مجلة المنهل العدد ٤٩٥ شوال وذو القعدة ١٤١٢هـ/أبريل ومايو ١٩٩٢م.

١٥٩ ـ د. عبد الحليم محمود: أوروبا والإسلام، دار المعارف، ط٢. ب. ت.

١٦٠ ـ د. عبد الحميد إبراهيم: نحو وسطية معاصرة حلاً للأزمة، مجلة المنهل، العدد ٤٩٥ شوال وذو القعدة ١٤١٢هـ/أبريل ومايو ١٩٩٢م.

١٦١ ـ عبد الخالق محمود عبدالخالق: شخصية رجل الدين في أدب طه حسين، بحث مقدم إلى المؤتمر الثامن في ذكرى طه حسين، كلية الآداب جامعة المنيا، يناير ١٩٨٢م.

١٦٢ ـ د. عبد الرازق السنهوري: فقه الخلافة وتطورها، تحقيق: دكتور توفيق الشاوي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٢، ١٩٩٣م.

١٦٣ ـ د. عبد الرحمن بدوي: إلى طه حسين في ميلاده السبعين. دار المعارف، القاهرة ١٩٦٢م.

١٦٤ ـ عبد الرحمن بن ناصر السعدي: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، مؤسسة الرسالة، بيروت ط٢، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م.

١٦٥ ـ د. عبد الرحمن الشيخ: رحلات فارتيما (الحاج يونس المصري) الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة الألف كتاب الثاني عدد ١٣٤ سنة ١٩٩٤م.

١٦٦ ـ د. عبد الرحمن الشيخ: رحلة بيرتون إلى مصر والحجاز، الهيئة المصرية العامة للكتاب سلسلة الألف كتاب الثاني عدد ١٧٧ سنة ١٩٩٥م.

١٦٧ ـ عبد الرحمن حبنكة الميداني: أجنحة المكر الثلاثة، دار القلم، دمشق ط٥، ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م.

١٦٨ ـ د. عبد الصبور مرزوق: القرآن والرسول ومقولات ظالمة، وزارة الأوقاف، سلسلة قضايا إسلامية العدد ٣٩ سنة ١٤١٩هـ.

١٦٩ ـ د. عبد العزيز شرف: طه حسين وزوال المجتمع التقليدي، الهيئة المصرية العامة للكتاب طبعة ١٩٧٧م.

١٧٠ ـ د. عبد العظيم الديب: المنهج عند المستشرقين، مجلة رسالة الجهاد، ليبيا العدد ٩٥ جمادى الثانية سنة ١٤٠٠هـ.

١٧١ ـ د. عبد العظيم المطعني: حقائق القرآن وأباطيل خصومه (شبهات وردود) المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بالقاهرة، سلسلة دراسات إسلامية العدد ٧٩ سنة ١٤٢هـ/٢٠٠٢م.

١٧٢ ـ عبد العليم القباني: طه حسين في الضحى من شبابه، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة المكتبة الثقافية عدد ٣٣٧ سنة ١٩٧٦م.

١٧٣ ـ د. عبد الغفار عزيز: الإسلام السياسي بين الرافضين له والمغالين فيه، دار الحقيقة للإعلام الدولي، مصر، ١٩٠٤هـ/١٩٨٩م.

١٧٤ ـ عبد الغني الملاح: مقالات في طه حسين، بيروت، الدار العالمية للطباعة، ط١، ١٤٠٤هـ.

١٧٥ ـ د. عبد الفتاح بركة: دور الاستشراق في تغريب المرأة المسلمة، هدية مجلة الأزهر شهر المحرم سنة ١٤٠٦هـ.

١٧٦ ـ عبد الفتاح القاضي: الوافي في شرح الشاطبية في القراءات السبع ـ طبعة الأزهر الشريف ١٤٠٥هـ.

١٧٧ ـ عبد الفتاح القاضي: البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة ـ طبعة الأزهر الشريف، ١٤١٥هـ.

١٧٨ ـ عبد القاهر البغدادي: الفرق بين الفرق، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، طبعة دار التراث. ب. ت.

١٧٩ ـ د. عبد الكريم زيدان: المفصل في أحكام المرأة، مؤسسة الرسالة بيروت، ط١، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م.

١٨٠ ـ د. عبدالله الرحيلي: مدخل إلى مناقشة شبهات المستشرقين حول تدوين السُّنَّة النبوية، مجلة المنهل العدد ٤٧١ سنة ١٤٠٩هـ.

١٨١ ـ د. عبدالله علي سمك: البحث العلمي بين الأصالة والمعاصرة، ب. ن، ط١، سنة ١٩٩٤.

١٨٢ ـ د. عبدالله علي سمك: الاستشراق بين الجحود والإنصاف، طبعة ١٤١٢هـ ب. ن.

١٨٣ ـ عبدالله علي الأنس، صالح سالم باقارشي: مشاهير الفكر التربوي، مكتبة إحياء التراث الإسلامي، مكة المكرمة سنة ١٩٩٩م.

١٨٤ ـ عبدالله محمد الغريب: وجاء دور المجوس. ب. ن طبعة ١٩٨٣م.

١٨٥ ـ د. عبد المتعال الجبري: الاستشراق وجه للاستعمار الفكري، مطبعة المدني، القاهرة، ط١ سنة ١٤١٦هـ.

١٨٦ ـ د. عبد المجيد المحتسب: طه حسين مفكرًا، مكتبة النهضة الإسلامية الأردن ط٣، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.

١٨٧ ـ د. عبد المجيد دياب: تحقيق: التراث العربي منهجه وتطوره، منشورات سمير أبو داود، القاهرة ١٩٨٣م.

١٨٨ ـ د. عثمان أمين: رواد الوعي الإنساني في الشرق الإسلامي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مهرجان القراءة للجميع سنة ٢٠٠١م.

١٨٩ ـ د. عجيل النشمي: الخلفاء الراشدون ودورهم في التشريع في نظر المستشرقين، مجلة المنهل، العدد ٤٧١ سنة ١٤٠٩هـ.

١٩٠ ـ عدنان رضا النحوي: الشورى لا الديمقراطية ب. ن ط١، ١٤٠٥هـ.

١٩١ ـ علاء الدين البغدادي (الخازن): لباب التأويل في معاني التنزيل، دار المعارف، ب. ت.

١٩٢ ـ الشيخ علي الطنطاوي: تعريف عام بدين الإسلام، دار الوفاء، ط١٤، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.

١٩٣ ـ علي بن محمد الجرجاني: التعريفات، تحقيق: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٤٠٥هـ.

١٩٤ ـ د. علي عبدالحليم محمود: نحو منهج بحوث إسلامي، دار الوفاء، المنصورة ١٤١٠هـ/١٩٨٩م.

١٩٥ ـ الشيخ علي عبدالرازق: الإسلام وأصول الحكم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة التنوير ١٩٩٣م.

١٩٦ ـ علي عبدالفتاح: أعلام في الأدب العالمي، مركز الحضارة العربية، مصر ب. ت.

١٩٧ ـ د. علي محمد عبدالوهاب: بين الإسلام والغرب ضراوة أحقاد ومرارة حصاد، دار ركابي للنشر ط١، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م.

١٩٨ ـ علي يوسف علي: عقوبة الرجم ليست من الإسلام في شيء، جريدة صوت الأمة الصادرة في ٦ يناير سنة ٢٠٠٣م.

١٩٩ ـ د. عماد الدين خليل: حول انتشار الإسلام وقائع وملاحظات، من مطبوعات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض سنة ١٤٠٥هـ.

٢٠٠ ـ عمر رضا كحالة: معجم المؤلفين، مؤسسة الرسالة، بيروت ط١، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م.

٢٠١ ـ فؤاد دوارة: عشرة أدباء يتحدثون، دار الفكر، مصر ط٢، ب. ت.
٢٠٢ ـ فتحي يكن: الإسلام فكرة وحركة وانقلاب، مؤسسة الرسالة بيروت، ط١١، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.
٢٠٣ ـ د. فرج علي فودة: قبل السقوط. ب.ن ب. ت.
٢٠٤ ـ د. فرج الله عبدالباري: اليوم الآخر بين اليهودية والمسيحية والإسلام، دار الوفاء، المنصورة ط٢، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.
٢٠٥ ـ فرح أنطون: الدين والعلم والمال، سلسلة الكتاب للجميع هدية جريدة القاهرة العدد ١٤٠ الصادر في ١٧ ديسمبر سنة ٢٠٠٢م.
٢٠٦ ـ قاسم أمين: تحرير المرأة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة التنوير سنة ١٩٩٣.
٢٠٧ ـ قاسم أمين: المرأة الجديدة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة التنوير سنة ١٩٩٧م.
٢٠٨ ـ كازانوفا: العرب وتحريق مكتبة الإسكندرية، ترجمة: د. طه حسين، جريدة السياسة اليومية ٢ رمضان سنة ١٣٤١هـ/١٨ إبريل سنة ١٩٢٣م.
٢٠٩ ـ كامل زهيري: المنهج الفكري عند طه حسين، بحث ضمن كتاب «طه حسين كما يعرفه كتاب عصره» دار الهلال ب. ت.
٢١٠ ـ د. كمال حامد مغيث: طه حسين، مركز الدراسات والمعلومات القانونية لحقوق الإنسان، ط١، ١٩٩٧م.
٢١١ ـ ل. ديلايورت: بلاد ما بين النهرين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ترجمة محرم كمال، سلسلة الألف كتاب الثاني عدد ٢٨٣ طبعة ١٩٩٧.
٢١٢ ـ د. مانع الجهني: الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة دار الندوة العالمية للشباب الإسلامي: السعودية ط٣، سنة ١٤١٨هـ.
٢١٣ ـ المجلس القومي للثقافة العربية بالرباط: الاستشراق وتغريب العقل التاريخي العربي، ط١ سنة ١٩٩١.
٢١٤ ـ مجلة الرسالة بتاريخ ١٩٣٣/٦/١، ١٩٣٣/٦/١٥.
٢١٥ ـ مجلة القاهرة الصادرة عن الهيئة المصرية العامة للكتاب، العدد ١٣٢ نوفمبر سنة ١٩٩٣.
٢١٦ ـ مجلة الكاتب المصري، المجموعة الكاملة، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٨م.

٢١٧ ـ مجمع اللغة العربية: المعجم الوجيز، طبعة وزارة التربية والتعليم ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.
٢١٨ ـ مجلة الهداية: عدد شهر مارس سنة ١٩١١م.
٢١٩ ـ محب الدين الخطيب: مع الرعيل الأول، المكتبة العلمية، بيروت ط١، ١٤٠٥هـ.
٢٢٠ ـ محرم كمال: آثار حضارة الفراعنة في حياتنا اليومية، مجلة الكاتب المصري، المجموعة الكاملة ج٣.
٢٢١ ـ د. محسن جاسم الموسوي: الاستشراق في الفكر العربي، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٧م.
٢٢٢ ـ الشيخ محمد أبو زهرة: النصرانية، دار الفكر العربي، مصر. ب. ت.
٢٢٣ ـ د. محمد أحمد خاطر: قراءة عبدالله بن مسعود، مكانتها، مصادرها إحصاؤها.. دار الاعتصام. ب. ت.
٢٢٤ ـ د. محمد أحمد الخطيب: الحركات الباطنية في العالم الإسلامي، الأردن مكتبة الأقصى، ط٢، سنة ١٤٠٦هـ/سنة ١٩٨٦م.
٢٢٥ ـ د. محمد أمحزون: ابن سبأ في كتابات المعاصرين، مجلة البيان، (المنتدى الإسلامي لندن) العدد ٣١ سنة ١٤١١هـ.
٢٢٦ ـ محمد بن أحمد الأزهري: تهذيب اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، الدار المصرية للتأليف، القاهرة ١٩٩٧م.
٢٢٧ ـ محمد بن أحمد القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، دار الفكر، بيروت سنة ١٤١٥هـ/١٩٩٥م.
٢٢٨ ـ محمد بن أبي بكر الرازي: مختار الصحاح، دار الجيل، بيروت. ب. ت.
٢٢٩ ـ محمد بن أحمد بن إسماعيل المقدم: عودة الحجاب، دار العقيدة مصر، ط١٤، سنة ١٤٢٠هـ.
٢٣٠ ـ محمد بن جرير الطبري: جامع البيان في تفسير القرآن، تحقيق: محمود وأحمد شاكر، دار المعارف، مصر، ب. ت.
٢٣١ ـ محمد بن سعد: الطبقات الكبرى، دار الفكر، بيروت ١٤١٤هـ/١٩٩٤م.
٢٣٢ ـ محمد بن منظور: لسان العرب، دار صادر، بيروت ط١، ب. ت.
٢٣٣ ـ محمد بن يعقوب الفيروزآبادي: القاموس المحيط، تحقيق: علي محمد البجاوي ود. محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العلمية، بيروت ط٢، ١٣٩٩هـ.

٢٣٤ ـ د. محمد حسن حسن جبل، وثاقة نقل النص القرآني من رسول الله ﷺ إلى أمته، دار الصحابة، طنطا. ب. ت.

٢٣٥ ـ د. محمد حسين الذهبي: التفسير والمفسرون، مكتبة وهبة القاهرة ط٤، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م.

٢٣٦ ـ د. محمد حسين الذهبي: الإسرائيليات في الحديث والتفسير، مجمع البحوث الإسلامية ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

٢٣٧ ـ د. محمد حسين هيكل: حياة محمد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مكتبة الأسرة سنة ٢٠٠٠م.

٢٣٨ ـ د. محمد رجب البيومي: الأزهر بين السياسة وحرية الفكر، مؤسسة دار الهلال، سلسلة كتاب الهلال العدد ٣٨٧ مارس سنة ١٩٨٣م.

٢٣٩ ـ د. محمد رجب البيومي، من أعلام الأزهر الشريف العلامة إبراهيم الجبالي، مجلة الأزهر، عدد ذي القعدة سنة ١٤١٤هـ، أبريل سنة ١٩٩٤م.

٢٤٠ ـ د. محمد رجب البيومي: إعادة قراءة القرآن، كتاب الهلال العدد ٥٨٨ ديسمبر سنة ١٩٩٩.

٢٤١ ـ د. محمد رجب البيومي: قطرات المداد، السعودية، سلسلة كتاب النادي الأدبي الثقافي، العدد ٧٥، ط١، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.

٢٤٢ ـ الشيخ محمد سويد: الإسلام وغزو الفضاء، سلسلة دعوة الحق، رابطة العالم الإسلامي، مكة المكرمة، العدد ٧٢ ربيع الأول ١٤٠٨هـ أكتوبر سنة ١٩٨٧م.

٢٤٣ ـ محمد نور سويد: هل يجوز إنكار حديث نبوي لمخالفته العقل، مجلة الوعي الإسلامي، العدد ٤١٠ شوال ١٤٢٠هـ.

٢٤٤ ـ محمد شلبي: مع رواد الفكر والفن، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٢م.

٢٤٥ ـ محمد شفيق غربال: الموسوعة العربية الميسرة، دار إحياء التراث العربي، بيروت، طبعة ١٩٦٥م.

٢٤٦ ـ د. محمد شوقي الفنجري: جدلية الإسلام، وزارة الأوقاف، سلسلة قضايا إسلامية، العدد ٥٦ سنة ١٤٢٠هـ.

٢٤٧ ـ د. محمد ضياء الدين الريس: النظريات السياسية الإسلامية دار التراث ـ مصر، ط٧، ١٩٧٩م.

٢٤٨ ـ محمد عبدالرؤوف المناوي: التوقيف على مهمات التعاريف تحقيق: د. محمد رضوان الداية. دار الفكر المعاصر، بيروت دمشق ط١، ١٤١٠هـ.

٢٤٩ ـ محمد عبدالعظيم الزرقاني: مناهل العرفان في علوم القرآن، السعودية دار الرياض. ب. ت.

٢٥٠ ـ محمد بن عبد الكريم الشهرستاني: الملل والنحل، تحقيق: أمير علي مهنا، وعلي حسن فاعور، بيروت، دار المعرفة ط٥، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م.

٢٥١ ـ د. محمد عبدالله دراز: الدين، دار القلم، الكويت ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.

٢٥٢ ـ د. محمد عبدالله دراز: النبأ العظيم، دار القلم، الكويت ط٤، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م.

٢٥٣ ـ د. محمد عبدالله عنان: دولة شيوعية في القرن الرابع الهجري، مجلة الكاتب المصري، المجموعة الكاملة.

٢٥٤ ـ د. محمد عبدالمنعم خفاجي: حركة الاستشراق، مجلة المنهل، السعودية العدد ٤٧١ المجلد ٥٠ رمضان ١٤٠٩هـ إبريل ١٩٨٩م.

٢٥٥ ـ د. محمد عجاج الخطيب، أبو هريرة راوية الإسلام، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة أعلام العرب عدد ١٢٦ سنة ١٩٨٧م.

٢٥٦ ـ المستشار محمد عزت الطهطاوي: الأستاذ الإمام محمد عبده، مجلة الأزهر، عدد رجب سنة ١٤١٢هـ/يناير سنة ١٩٩٢م.

٢٥٧ ـ المستشار محمد عزت الطهطاوي: التبشير والاستشراق أحقاد وحملات، طبعة مجمع البحوث الإسلامية ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م.

٢٥٨ ـ د. محمد علي الصابوني: مختصر تفسير ابن كثير: دار التراث العربي، مصر ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

٢٥٩ ـ محمد قطب: الإنسان بين المادية والإسلام، دار الشروق، بيروت ط١٢، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.

٢٦٠ ـ محمد قطب: حول التفسير الإسلامي للتاريخ، المجموعة الإعلامية السعودية، ط٢ سنة ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م.

٢٦١ ـ محمد قطب: مذاهب فكرية معاصرة، دار الشروق، بيروت ط٨، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م.

٢٦٢ ـ د. محمد البهي: الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، مكتبة وهبة، مصر، ط١٢ سنة ١٤١١هـ/١٩٩٢م.

٢٦٣ ـ د. محمد الدسوقي: طه حسين يتحدث عن أعلام عصره، دار المعارف، سلسلة إقرأ العدد ٥٧٨ ب. ت.

٢٦٤ ـ د. محمد الدسوقي: أيام مع طه حسين، دار القلم دمشق، ط١، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.
٢٦٥ ـ الشيخ محمد الغزالي: «مع الله» دراسات في الدعوة والدعاة دار الثقافة ـ قطر ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.
٢٦٦ ـ الشيخ محمد الغزالي: دفاع عن العقيدة والشريعة ضد مطاعن المستشرقين، دار الشروق، بيروت، ط١، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.
٢٦٧ ـ الشيخ محمد الغزالي: عقيدة المسلم، دار الشروق، بيروت، ط١، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.
٢٦٨ ـ الشيخ محمد الغزالي: مائة سؤال عن الإسلام، دار ثابت ط٥، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م.
٢٦٩ ـ الشيخ محمد الغزالي: حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام وإعلان الأمم المتحدة، دار الدعوة، الإسكندرية ط١، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م.
٢٧٠ ـ الشيخ محمد الغزالي: قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مهرجان القراءة للجميع، مكتبة الأسرة ١٩٩٩م.
٢٧١ ـ د. محمد الكتاني: الصراع بين القديم والجديد في الأدب العربي الحديث، دار الثقافة، المغرب ط١، ١٤٠٣هـ/١٩٨٢م.
٢٧٢ ـ محمود أمين العالم: طه حسين مفكرًا، بحث ضمن كتاب «طه حسين كما يعرفه كتاب عصره» دار الهلال ب. ت.
٢٧٣ ـ د. محمود الطحان: تيسير مصطلح الحديث، مكتبة المعارف، السعودية ط٨، ١٤٠٧هـ.
٢٧٤ ـ د. محمود حمدي زقزوق: الإسلام في مواجهة حملات التشكيك وزارة الأوقاف، سلسلة قضايا إسلامية، العدد ٤٥، ط٢، ١٤١٩هـ.
٢٧٥ ـ د. محمود حمدي زقزوق: الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، سلسلة كتاب الأمة عدد صفر ١٤٠٤هـ.
٢٧٦ ـ محمود محمد الجوهري: الأخوات المسلمات وبناء الأسرة القرآنية دار الوفاء، ط٢، ١٤٠٩هـ.
٢٧٧ ـ محمود محمد شاكر: رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، كتاب الهلال، عدد أكتوبر ١٩٨٧م.
٢٧٨ ـ محمود محمد عمارة: من فقه عمر في المساءلة والعزل والتعيين وزارة الأوقاف، سلسلة دراسات إسلامية العدد ٧٢ سنة ١٤٢٢هـ.

٢٧٩ ـ محمود مهدي الإستانبولي: طه حسين في ميزان العلماء والأدباء، المكتب الإسلامي، بيروت ط١، ١٤٠٣هـ.
٢٨٠ ـ د. محمد محمد حسين: حصوننا مهددة من داخلها، المكتب الإسلامي، بيروت ط٥، ١٩٧٨.
٢٨١ ـ د. محمد مصطفى هدارة: موقف مرجليوث من الشعر العربي بحث ضمن كتاب «مناهج المستشرقين في الدراسات العربية والإسلامية» الصادر عن مكتب التربية العربي لدول الخليج. ب. ت.
٢٨٢ ـ د. محمد يوسف النجرامي: الشيعة في الميزان. ب. ن، ب. ت.
٢٨٣ ـ د. مختار التهامي: ثلاث معارك فكرية، ب. ن، ب. ت.
٢٨٤ ـ مرتضى الرضوي: مع رجالات الفكر في القاهرة، مطبوعات النجاح بالقاهرة ط١، ١٣٩٤هـ/١٩٨٤م.
٢٨٥ ـ د. مصطفى السباعي: السُّنَّة ومكانتها في التشريع الإسلامي، المكتب الإسلامي، بيروت ط٤، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.
٢٨٦ ـ د. مصطفى السباعي: اشتراكية الإسلام، دار الشعب. ب، ت.
٢٨٧ ـ د. مصطفى الشكعة: الخطاب الديني والربط بين علوم الدين والدنيا بحث ضمن مؤتمر «تجديد الخطاب الديني لماذا وكيف» وزارة الأوقاف سلسلة قضايا إسلامية، العدد ٨٤ سنة ١٤٢٢هـ.
٢٨٨ ـ د. مطصفى رجب: فكر طه حسين التربوي بين النظرية والتطبيق، الهيئة المصرية العامة للكتاب ط١، ١٩٩٥م.
٢٨٩ ـ مصطفى صادق الرافعي: تحت راية القرآن، دار الكتاب العربي بيروت ط٨، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.
٢٩٠ ـ مصطفى صادق الرافعي: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، دار المنار (القاهرة) وفياض (بالمنصورة) ب. ت.
٢٩١ ـ د. مصطفى عبد الغني: طه حسين والسلطة في مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٧.
٢٩٢ ـ د. مصطفى غلوش: الوجودية في الميزان، وزارة الأوقاف سلسلة الإمام عدد ٤ سنة ١٩٨٥م.
٢٩٣ ـ د. معجب بن معدي العتيبي: حقوق الجاني بعد صدور الحكم في الشريعة الإسلامية. د. ن. ط١، ١٤١٣هـ.
٢٩٤ ـ مناع القطان: مباحث في علوم الحديث، مكتبة وهبة، ط١، ١٤٠٨هـ/١٩٨٧م.

٢٩٥ ـ موفق الدين وشمس الدين ابني قدامة: المغني والشرح الكبير، دار الفكر بيروت؛ المكتبة التجارية مكة المكرمة ١٤١٤هـ.
٢٩٦ ـ منير البعلبكي: قاموس المورد، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٥.
٢٩٧ ـ منير البعلبكي: موسوعة المورد، دار العلم للملايين، بيروت ط١، ١٩٨١م.
٢٩٨ ـ مونتجمري وات: القضاء والقدر في فجر الإسلام وضحاه، ترجمة: د. عبد الرحمن الشيخ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة الألف كتاب الثاني ١٩٩٨م.
٢٩٩ ـ مونتجمري وات: الإسلام والمسيحية في العالم المعاصر، ترجمة د. عبد الرحمن الشيخ الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة الألف كتاب الثاني العدد ٢٩٨ الصادر ١٩٩٨م.
٣٠٠ ـ موريس بوكاي: ما أصل الإنسان إجابات العلم والكتب المقدسة، مكتب التربية العربي لدول الخليج، ط١٢، ١٩٨٥م.
٣٠١ ـ ناصر محمد السيد إسماعيل: دوافع الاستشراق وموازين البحث عند المستشرقين بين الماضي والحاضر (رسالة ماجستير نوقشت بقسم الأديان بكلية الدعوة الإسلامية بالقاهرة).
٣٠٢ ـ نايف بن ثنيان آل سعود: المستشرقون وتوجيه السياسة التعليمية في العالم العربي، دار أمية للنشر والتوزيع ـ السعودية ط١، ١٤١٤هـ.
٣٠٣ ـ نبيل فرج: طه حسين وأوراقه المجهولة. (ملف أُعِدَّ لمجلة العربي الكويتية)، العدد ٤٤١ السنة الثامنة والثلاثون أغسطس ١٩٩٥م.
٣٠٤ ـ نجيب العقيقي: المستشرقون، دار المعارف، مصر، ط٤، ب. ت.
٣٠٥ ـ د. نعمان عبد الرازق السامرائي: نحن والحضارة والشهود سلسلة كتاب الأمة قطر العدد ٨٠ ذو القعدة ١٤٢١هـ.
٣٠٦ ـ واشنطن أرفنج: حياة محمد ـ ترجمة وتعليق د. علي حسن الخربوطلي، دار المعارف، مصر، ط٢، ب. ت.
٣٠٧ ـ و. ج. دي بورج: تراث العالم القديم، ترجمة: زكي سوس، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مكتبة الأسرة ١٩٩٩م.
٣٠٨ ـ د. يوسف القرضاوي: الإيمان والحياة، مكتبة وهبة، مصر، ط٩، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م.
٣٠٩ ـ د. يوسف القرضاوي: المرجعية العليا في الإسلام للقرآن والسُّنَّة، مؤسسة الرسالة، بيروت ط٢، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م.

٣١٠ ـ د. يوسف القرضاوي: الصحوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم، دار الصحوة، دار الوفاء، ط١، ١٤١١هـ.
٣١١ ـ د. يوسف القرضاوي: السياسة الشرعية في ضوء نصوص الشريعة ومقاصدها، مكتبة وهبة، ط١، ١٤١٩هـ.
٣١٢ ـ يوهان فك: العربية دراسات في اللغة واللهجات والأساليب، ترجمة د. رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
الإهداء	٥
مقدمة لكتاب طه حسين والفكر الاستشراقي	٧
مقدمة	١٣
الفصل الأول: طه حسين والتكوين الفكري	٢١
تمهيد	٢٣
ـ المبحث الأول: طه حسين ومرحلة الطفولة	٢٤
ـ المبحث الثاني: طه حسين والأزهر الشريف	٣٢
ـ المبحث الثالث: طه حسين والإمام محمد عبده	٤٥
ـ المبحث الرابع: طه حسين ومدرسة الجريدة	٥١
ـ المبحث الخامس: طه حسين والجامعة المصرية القديمة	٥٦
ـ المبحث السادس: طه حسين ورحلته إلى أوروبا	٦٣
ـ المبحث السابع: طه حسين ومرحلة العطاء	٧٠
ـ الفصل الثاني: طه حسين وعلاقته بالفكر الاستشراقي	٨١
تمهيد	٨٣
ـ المبحث الأول: تعريف الفكر الاستشراقي في اللغة والاصطلاح	٨٧
ـ المبحث الثاني: تاريخ الاستشراق وغاياته وأهدافه	٩٣
ـ المبحث الثالث: قنوات اتصال الدكتور طه حسين بالفكر الاستشراقي	٩٧

الموضوع	الصفحة

١ ـ الاتصال الدراسي ٩٧
أ ـ في مصر ٩٧
ب ـ في فرنسا ١٠١
٢ ـ الاتصال بالمستشرقين في مرحلة العطاء ١٠٦
أ ـ العمل الجامعي ١٠٦
ب ـ الزيارات المنزلية (الصداقة الشخصية) ١٠٧
جـ ـ حضور المؤتمرات الاستشراقية ١٠٩
د ـ الأعمال المؤسسية (اليونسكو) ١١٣
هـ ـ المراسلة والاهتمام بشأنه ١١٤
و ـ إنشاء المعاهد العلمية وتفعيلها ١١٧
ـ المبحث الرابع: اهتمام المستشرقين بأدب طه حسين ١١٩
*** الفصل الثالث: طه حسين والعقيدة الإسلامية** ١٢٣
تمهيد ١٢٥
ـ المبحث الأول: طه حسين ونشأة الدين ١٢٩
دعوى التناقض بين العلم والإيمان ١٣٤
الدين والعلم تكامل لا صراع ١٣٩
الرسوخ في العلم يهدي إلى الإيمان ١٤٢
اضطراب وتحير ١٤٥
القرآن والنظريات العلمية ١٤٨
ـ المبحث الثاني: طه حسين ونزعة الشك ١٥٢
تبني طه حسين لنظرية الشك ١٥٢
دعوى حرية الأدب ١٥٩
أخلاقية الأدب أو الصدق الفني ١٦٠
من آثار القطيعة بين الإسلام والأدب في فكر طه حسين ١٦٣
ـ المبحث الثالث: طه حسين وقضية الجبر والاختيار ١٦٦
ـ القائلون بالجبر في القديم والحديث ١٧٢

الموضوع	الصفحة

ـ تقييم موقف طه حسين في القول بالجبر ١٧٤
ـ المبحث الرابع: رأي الدكتور طه حسين في نجاة اليهود والنصارى في الآخرة من النار ١٨١
رأي المستشرقين من هذه القضية ١٨٥
* **الفصل الرابع: طه حسين والقرآن الكريم وعلومه** ١٨٧
المبحث الأول: طه حسين ومصدرية القرآن ١٨٩
بشرية القرآن ١٩١
نقد القرآن ١٩٥
رأي المستشرقين في مصدرية القرآن ١٩٩
ـ المبحث الثاني: طه حسين وتعريضه بتكذيب القرآن ٢٠٤
ـ المبحث الثالث: موقف طه حسين من قضية جمع القرآن الكريم ٢٠٩
ـ المبحث الرابع: موقف طه حسين من القراءات القرآنية ٢٢٢
ـ المبحث الخامس: موقف طه حسين من المكي والمدني ٢٣٣
ـ المبحث السادس: موقف طه حسين من ترتيب السور والآيات ٢٣٨
ـ المبحث السابع: موقفه من الحروف المقطعة في أوائل السور ٢٤٠
ـ المبحث الثامن: طه حسين وقضية أُميَّة الرسول ﷺ ٢٤٤
ـ المبحث التاسع: رأي الدكتور طه في التوراة وتأييد القرآن لها ٢٥٠
ـ المبحث العاشر: رأي طه حسين في خيانة امرأة نبي الله نوح عليه السلام ٢٥٥
ـ المبحث الحادي عشر: رأي طه حسين في أصحاب الأخدود ٢٦٠
* **الفصل الخامس: طه حسين والسُّنَّة النبوية** ٢٦٥
ـ المبحث الأول: طه حسين والسيرة النبوية ٢٦٧
النقد الموجه لكتاب على هامش السيرة ٢٧٢
إنكار طه حسين معراج النبي ﷺ ٢٧٧
ـ المبحث الثاني: مذهب طه حسين في الأخذ بالسنة ٢٨٢
موقف الدكتور من رد الحديث بالعقل ٢٨٦
ـ المبحث الثالث: التشكيك في السُّنَّة ورواتها ٢٩٠

الموضوع	الصفحة

دعوى الشك في التاريخ ٢٩٦
المطلب الأول: شكه في حديث جبريل عليه السلام ٢٩٨
المطلب الثاني: شكه في حديث الكتابة في مرض الرسول ﷺ ٣٠٦
ـ الدكتور طه يرد حديثًا في البخاري ٣٠٨
المطلب الثالث: شكه في حديث اختلاف الأمة وافتراقها ٣١١
المطلب الرابع: رده لحديث مراجعة عمر لأبي بكر في حرب المرتدين ٣١٧
المطلب الخامس: شكه في حديث الاستسقاء بالعباس بن عبد المطلب رضي الله عنه ٣٢٠
المطلب السادس: شكه في أمانة أبي هريرة رضي الله عنه ٣٢٤
المطلب السابع: التشكيك في الرواة من الموالي ٣٢٩
المبحث الرابع: قبوله للروايات الضعيفة ٣٣٤
المبحث الخامس: تصحيحه الحديث بالظن ٣٣٩
*** الفصل السادس: طه حسين والتاريخ الإسلامي** ٣٤٣
تمهيد ٣٤٥
طه حسين وكتابة التاريخ الإسلامي ٣٤٨
المبحث الأول: موقفه من تاريخ الشيخين أبي بكر وعمر ٣٥٤
أبو بكر الصديق بمنظار طه حسين ٣٥٥
عمر بن الخطاب في كتابات طه حسين ٣٧٥
المبحث الثاني: دعوى تحريق المسلمين لمكتبة الإسكندرية ٣٨٦
المبحث الثالث: موقف طه حسين من صحابة النبي ﷺ ٣٩٧
المبحث الرابع: موقف طه حسين من القرون الثلاثة المفضلة ٤٢٢
المبحث الخامس: طه حسين وموقفه من الخلافة الراشدة ٤٢٥
المبحث السادس: رأي طه حسين في الفتوحات الإسلامية ٤٤١
المبحث السابع: رأي طه حسين في ثورتي الزنج والقرامطة ٤٥٤
المبحث الثامن: رأي طه حسين في قضية عبدالله بن سبأ ٤٦١
*** الفصل السابع: طه حسين والفقه الإسلامي** ٤٧١
تمهيد ٤٧٣

الموضوع	الصفحة

المبحث الأول: دعوى تأثر الشريعة الإسلامية بالقانون الروماني ٤٧٤
المبحث الثاني: رأي طه حسين في رجم الزاني المحصن ٤٨٤
*** الفصل الثامن: طه حسين والتعليم** ٤٩٥
تمهيد ٤٩٧
المبحث الأول: طه حسين والتدريس ٥٠٢
المبحث الثاني: طه حسين والتعليم الأزهري ٥٠٧
*** الفصل التاسع: طه حسين وقضايا المرأة** ٥٢١
تمهيد ٥٢٣
المبحث الأول: طه حسين وحجاب المرأة المسلمة ٥٢٨
المبحث الثاني: طه حسين وقضية الاختلاط ٥٣٤
المبحث الثالث: طه حسين وقضية المساواة بين الرجل والمرأة ٥٤٤
المبحث الرابع: تقييم آراء طه حسين في قضايا المرأة ٥٤٨
*** الفصل العاشر: طه حسين والحضارات** ٥٥٥
تمهيد ٥٥٧
المبحث الأول: طه حسين والحضارة الغربية ٥٦٣
المبحث الثاني: طه حسين والحضارة المصرية القديمة ٥٨٣
المبحث الثالث: طه حسين والحضارة الإسلامية ٥٩٤
***الفصل الحادي عشر: مناهج البحث بين المستشرقين وطه حسين** ٦٠٧
تمهيد ٦٠٩
المبحث الأول: تحكيم الهوى والوهم ٦١٢
المبحث الثاني: التهوين والتهويل ٦١٨
المبحث الثالث: الاعتماد على المصادر الضعيفة ٦٢٣
المبحث الرابع: تعميم الخاص وتخصيص العام ٦٢٨
المبحث الخامس: النقل عن الآخرين بغير وعي ٦٣٢
المبحث السادس: توسيع دائرة البحث وسرعته ٦٣٩
خاتمة في أهم نتائج البحث ٦٤٤

الموضوع	الصفحة

التوصيات ٦٥٠
المراجع ٦٥٢
فهرس الموضوعات ٦٧٣

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

نبذة تعريفية
الإدارة العامة للأوقاف

الوقف علامة فارقة في مسيرة الحضارة الإسلامية وقد أثبت دوره ومكانته في مجالات التعليم والصحة والعمل الثقافي والاجتماعي بمختلف أشكاله ومازالت المساجد والمدارس والمعاهد والمستشفيات تقف شاهدة على عظمة وأهمية الوقف عبر تاريخنا المجيد.

وفي هذا السياق من العطاء والتواصل الإنساني تهدف **الإدارة العامة للأوقاف** إلى إدارة الأموال الوقفية واستثمارها على أسس اقتصادية، وفق ضوابط شرعية بما يكفل نماءها وتحقيق شروط الواقفين، وتعد الأوقاف إحدى أهم مؤسسات المجتمع المدني سواء من ناحية النشأة والقدم أو الاختصاصات المناطة بها.

وانطلاقًا من النهضة الوقفية المعاصرة تم توسيع نطاق الوقف وتنويع مصارفه من خلال إنشاء المصارف الوقفية الستة المشتملة على مختلف نواحي الحياة الثقافية والتربوية والصحية والاجتماعية...الخ، وذلك تشجيعاً لأهل الخير وإرشادًا لهم لوقف أموالهم على المشاريع الخيرية التنموية وتنظيمًا لقنوات الصرف والإنفاق المساهمة في بناء المجتمع الإسلامي الحضاري.

وأما المصارف الستة فهي :

١ ـ المصرف الوقفي لخدمة القرآن والسنة.

٢ ـ المصرف الوقفي لرعاية المساجد.

٣ ـ المصرف الوقفي لرعاية الأسرة والطفولة.

٤ ـ المصرف الوقفي للبر والتقوى.

٥ ـ المصرف الوقفي للرعاية الصحية.

٦ ـ المصرف الوقفي للتنمية العلمية والثقافية.

وانطلاقاً من الإيمان العميق بدور العلم الشرعي والثقافة الإسلامية بشكل خاص، والعلوم التطبيقية بشكل عام في تقدم الأمة وتطورها، جاء إنشاء "المصرف الوقفي للتنمية العلمية والثقافية" ليكون رافداً غنياً للعطاء الثقافي والعلمي ضمن نطاق اختصاصاته. وأبرز مثال في إطار أعمال وإنجازات هذا المصرف رحلات العمرة للمتميزين إلى جانب إقامة العديد من الدورات العلمية.

ولا ننسى الإشارة إلى الدور المهم الذي نهض به الوقف تاريخياً في تنشيط الحركة العلمية والثقافية، وذلك بإقامة المدارس، والمكتبات والمعاهد وغيرها، ليصنع بذلك حضارة أفادت منها الإنسانية جمعاء.

● **من أهدافـــه:**

- تشجيع ودعم إقامة الأنشطة والفعاليات العلمية والثقافية.

- الحث على الاهتمام بالتعليم، وبيان دوره في رقي الإنسان ونمو المجتمعات.

- نشر العلم الشرعي والثقافة الإسلامية على أوسع نطاق والارتقاء بمستوى العاملين في هذا المجال.

● **من وسائلـــه:**

- دعم إقامة المؤتمرات والندوات وحلقات الحوار والمهرجانات والمعارض والمراكز الثقافية الدائمة والموسمية.

- دعم وإنشاء المكتبات العامة.

- دعم تنظيم الدورات التدريبية التأهيلية لتنمية المهارات والقدرات في مختلف المجالات العلمية والثقافية.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com